مُقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة

حضارة وادي النيل

وبعض الحضارات القديمة

فارس - الإغريق - الرومان...

طه باقر



مقدمة
في تأريخ الحضارات القديمة

الجزء الثاني

حضارة
وادي النيل

جزيرة العرب وبلاد الشام ـ بعض الحضارات والأمم القديمة ـ بلاد إيران والإسكندر والسلوقيون ـ اليونان والرومان

تأليف
طه باقر



* الكتاب: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ـ حضارة وادي النيل ـ الجزء الثاني
* تأليف: طه باقر
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة، 2011 .
* جميع الحقوق محفوظة
* تنفيذ الغلاف: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

WWW.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ ـ ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

فهرس الجزء الثاني

الجزء الثاني
القسم الأول
حضارة وادي النيل

القسم الثاني
تاريخ الجزيرة العربية وبلاد الشام

القسم الثالث
موجز في تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

القسم الرابع
بلاد إيران
العيلاميون ـ الفرس والإخمينيون ـ الإسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

القسم الخامس
اليونان والرومان

الفهارس العامة

مقدمة الجزء الثاني

ليس لدي ما أضيفه هنا إلى ما ذكرته في مقدمة الطبعة الثانية المثبتة في الجزء الأول من هذا الكتاب سوى التنويه مرة أخرى بالإضافات والتنقيحات الأساسية التي أدخلتها على الجزء الثاني بحيث يبدو بالمقارنة مع الطبعة الأولى كتاباً جديداً في فصوله وعرضه. وثمة ملاحظة أخرى يحسن التنويه بها تلك هي ما قد يبدو على الكتاب بجزأيه من التطويل والإسهاب فوق ما يتحمله منهج سنة واحدة من تأريخ الحضارات القديمة كما هو المتّبع في كلّية دار المعلمين العالية، ولكنني لم ألتزم بمنهج مدرسي معين وإنما راعيت قبل كل شيء أن يكون كتابي مقدمة شاملة في التعريف بالحضارات والمدنيات القديمة ليكون مرجعاً أساسياً في الموضوع يتصرف بمادته من يدرس الموضوع من ناحية الإسهاب والإيجاز والحذف أو التوسّع بالاستعانة بالمراجع الأساسية التي أثبتّها في نهاية البحوث الرئيسية.

ولا بدّ لي في نهاية هذه الملاحظات الموجزة أن أكرّر ما سبق لي أن ذكرته من أملي بأن يسدّ هذا الكتاب حاجة ماسة في المكتبة العربية لانتفاء وجود كتاب حديث في الموضوع في اللغات الأجنبية أو في العربية.

بغداد 1956   **طه باقر**

الجزء الثاني

القسم الأول

حضارة
وادي النيل

الفصل العشرون

عصور ما قبل التاريخ
وبداية الحضارة المصرية

1 ـ مقدمة في جغرافيا وادي النيل:

لكي نفهم قصة الحضارة في وادي النيل وسير تأريخها من نشوئها وتطورها وأدوارها ينبغي لنا أن نلمّ بأبرز الخصائص المميزة لمسرح حوادث تلك الحضارة مما كان له أثر بارز في طبع تلك الحضارات بميزاتها ومقوماتها الخاصة. ولما كان الغرض من هذه المقدمة الجغرافية الاستعانة بها لفهم حوادث التأريخ المصري القديم فسنكتفي من جغرافيا وادي النيل بالأمور البارزة الموضّحة لتلك الحوادث.

تقع مصر[1] في الجانب الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وإن أبرز ما

(1) اسم بلاد مصر في اللغات الأوروبية (Egypt) مأخوذ من اسمها باللاتينية (Aegyptus) المشتقّ بدوره من الاسم اليوناني (Aiguptos) الذي يرجّح أن أصله من أحد أسماء مدينة «منفس» القديمة «حت ـ كا ـ فتاح» (Het-Ka-Ptah) (ويلفظ آيكو فتاح) ويعني (معبد «كا» العائد إلى الإله فتاح)، ومن هذه الصيغ اشتقّ اسم «قبط». أما الاسم الشائع عند المصريين القدماء فكان اسم «قيم» أو «قيمي» (وبالقبطي خم، خيمي) ويعني الأرض السوداء أي السواد إشارة إلى لون تربة وادي النيل الخصبة، وهناك اسم آخر شائع لدى قدماء المصريين هو «تو ـ ميري» (To-Mere) أو تاميري ومعناه أرض الفيضان.
أما الاسم «مصر» فالمرجّح كثيراً أنه اسم سامٍ ويعني ما تعنيه الكلمة العربية «مصر»، وقد ورد هذا الاسم بصيغة «مُصُر» بضم الميم والصاد وبصيغة «مصري» في الوثائق الآشورية وفي رسائل العمارنة الشهيرة انظر (Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, 294).
وورد في الآداب السامية الأخرى ولا سيما التوراة بصيغة التثنية «مصرايم» (سفر التكوين 5: =

يميّز مصر، في جغرافيتها وتأريخها، نهرها العظيم «النيل»[1] مصدر الحياة والخصب بحيث يصحّ القول مع هيرودوتس المأثور «إن مصر هبة النيل»، إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء، فهي قطر عديم المطر بوجه أساسي، فيكون النيل وما على جانبيه من الأراضي الضيّقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيّقة يكون فيها الحدّ الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدّاً واضحاً وبوناً صارخاً بين «المزروع» والصحراء. وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالأراضي القابلة للزراعة. ولكن إذا ما بذلت العناية المقتضية فإن هذه الأراضي تدرّ على سكان مصر خيرات زراعية عميمة. ومع ذلك فلأن الأرض الزراعية الخصبة محصورة في وادي نهر النيل فإن ما يمكن زراعته من المملكة المصرية لا يتعدّى زهاء 3,5% (نحو 1/ 30 من الأرض) من مساحة هذه المملكة، وما بقي من الأراضي (96,5%) بادية جرداء غير قابلة للسكنى، ويعيش الآن نحو 99% من سكان مصر على هذا الجزء الصغير من الأراضي القابلة للزراعة، وعلى هذا فتكون كثافة السكان في

= (11) إشارة إلى قسمي البلاد السفلي والعلوي، ويرى البعض أن هذه الصيغة من اسم «مصرايم» بن حام كما جاء في التوراة (سفر التكوين 1: 6، 13 وسفر الأيام الأول 1: 11)، ولعل صيغة «مصرايم» السامية كما وردت في التوراة ترجمة لكلمة «تاوي» أحد أسماء مصر القديمة التي تعني «الأرضين» (ولعل ذلك إشارة إلى مصر السفلى ومصر العليا) (حول ذلك راجع:

(1) The British Museum Guide, 4.

(2) مجلة المقتطف عدد يونيو 1942).

(1) كلمة النيل ليست من أصل مصري قديم. والمرجّح كثيراً أنها من الكلمات السامية القديمة المشتقة من «نهر» أو «نهل» أو «نخل» (بإبدال الراء لاماً) فصارت الكلمة الثانية بصيغة «نيل» ومنها الكلمة اليونانية (Neilos) واللاتينية (Nilus). أما المصريون القدماء فقد سمّوا نهر النيل وكذلك الإله الخاص بنهر النيل باسم «حعف» أو «حعفي». وفي الأزمان المتأخرة صار يُلفظ بهيئة (هوفي وأوفي وحوفي) ولا يُعلم معنى هذا الاسم المصري القديم، وقد أُلّه النيل ونظمت في تمجيده التراتيل الدينية وخُصّصت له بعض الأعياد الدينية.

مصر الآن على أشدها[1]. هذا ولا نعلم بوجه التأكيد عدد سكان مصر القديمة، ولعله كان نحو عشر السكان الحاليين.

ولعل أهم ما يميّز النيل مما كان له أثر عظيم في حياة مصر وتأريخها فيضان هذا النهر وموعد فيضانه، فعلى هذا الفيضان وعلى موعده تعتمد حياة مصر وخصبها. يكون النيل في مصر في نهاية شهر أيار على أخفض مستوى له، ولكنه يبدأ في خلال شهر حزيران الارتفاع فيما بين القاهرة وأسوان، وتظهر عند ذاك كمية من الماء الأخضر يُظَنّ أن سبب خضرتها ما يحمله النهر من الكميات الكبيرة من نوع الحشائش المائية الدقيقة (Algae) التي تتحجر وتختفي بعدئذ. ويرتفع النهر سريعاً في خلال شهر آب وتتّخذ مياهه لوناً أحمر كدراً بسبب التربة الغرينية العالقة بها التي يحملها إلى نهر النيل، النيل الأزرق ونهر عطبرة. وتستمر مياه النيل بالارتفاع إلى منتصف أيلول حيث تستقر ثانية في مستواها زهاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ويحدث في شهر تشرين الأول ارتفاع آخر في النهر، ومن ثم تبدأ المياه بالهبوط وتستمر في هبوطها حتى تصل إلى أوطأ مستوى لها في أيار القادم وهكذا تبدأ دورة النيل من جديد. إن سبب هذا الفيضان معروف. وكان «أرسطو» أول من أشار إلى السبب الحقيقي وأنه متأتٍ من أمطار الربيع وأمطار بداية الصيف في جبال الحبشة وجنوبي السودان حيث تدخل هذه الأمطار إلى روافد النيل بهيئة تيارات وسيول عنيفة.

فيبدو أن النيل منتظم في فيضانه بحيث إن دورة النيل قد اتّخذت في التقويم المصري على ما يتبيَّن فيما بعد، ومع انتظام هذا الفيضان فإن الفائدة منه لا تتمّ إذا لم يحافظ على مياه الفيضان إذ إنها وما تحمله من الخصب تذهب عبثاً مع النيل إلى البحر، وإن معظم الفلاحين في مصر يسقون في الربيع من الآبار. ومما يقال في النيل وفيضانه أنه على الرغم من أنه أقلّ عنفاً من

---

(1) أكثر من 1200 نفس في الميل المربع بالمقارنة مع بلجيكا (900 في الميل المربع) التي تعدّ أشد الأقطار الأوروبية في كثافة السكان.

.(J.A. Wilson, The Burden of Egypt; Before Philosophy)

نهر دجلة مثلاً وأكثر انتظاماً منه في فيضانه إلا أنه قد يكون متقلباً من حيث الزيادة والنقصان في كمية فيضانه، ففي حالة الزيادة فوق المعتاد يكون التدمير والتخريب وفي النقصان القحط والمجاعة، والفرق بين الحالين بضع «انجات» من ناحية الزيادة أو النقصان[1]، ولذلك لزم السهر واليقظة في حالة الارتفاع العالي المخرب، فلا عجب إذا ما وجدنا المصريين القدماء يقدّسون النيل ويجعلونه إلٰهاً من آلهتهم خصّوه بالتمجيد ونظموا له التراتيل الدينية[2] كما أنهم خصصوا لعبادته عيدين مهمين، كان الأول منهما يقع في حزيران واسمه «ليلة الدمعة»، حيث اعتقدوا أن الإلهة «إيسيس» ناحت وبكت على جثمان زوجها «أوسيريس» الميت، وسقطت دموعها في النهر وسبّبت ارتفاع مياهه، وقد استمر هذا العيد الوثني في مصر إلى العصور الحديثة، حيث يعرف بليلة النقطة إذ اعتقدوا أن نقطة ماء تقع بمعجزة في النيل وتسبّب ارتفاعه. وكانوا يحتفلون بالعيد الثاني في حدود منتصف آب وله ما يضاهيه في مصر حديثاً فيما يسمى «بكسر السد» (قطع السد) حيث يُبنى سدّ من التراب ارتفاعه نحو 23 قدماً في

---

(1) ولتوضيح ذلك نقول إنه قبل بناء خزان أسوان كان ارتفاع النيل في الشلال الأول إذا بلغ مقدار 25 أو 26 قدماً فوق الصفر (Zero-dotum) فيكون ارتفاعاً مفيداً ملائماً يسهل ضبطه ويكفي لإرواء مساحات كافية لإنتاج غلة حسنة، وإذا كان ارتفاعه بنحو (30) «انجاً» تحت ذلك المستوى المعدل المعتاد فإنه لا يساعد على إنماء غلة ملائمة بل تكون سنة قاسية، وإذا بلغ الانخفاض (60) انجا (80% عن المعدل) كان معنى ذلك القحط والمجاعة، والواقع أن قصة السنين السبع العجاف قد حدثت في تاريخ مصر أكثر من مرة مثل المجاعة التي حلّت في عام 1066 ـ 1072 للميلاد وقصة السنين العجاف المذكورة في التوراة (سفر التكوين 41)، للميلاد وقصة حلّت في عهد قديم جداً يرجّح أن يكون في زمن السلالة الثالثة المصرية (في عهد الملك زوسر). أما إذا ارتفع النيل بمقدار (30) قدماً (أي نحو 20%) فوق المستوى المعدل فإن النهر يجرف السدود والضفاف ويخرب القرى. انظر:

(Wilson, The Burden of Egypt, 10-11).

(2) انظر الترتيلة الخاصة بالإله النيل في:

British Museum Guide, 10.

Ancient Near Eastern Texts.

خليج القنال وإذا ما بلغ مستوى النيل أعلاه يزال القسم الأعلى من السد وقت شروق الشمس ثم يحدر قارب من فوق السد المكسور[1].

واشتق المصريون القدماء من ملاحظتهم لنيلهم المهم من عودة ولادته السنوية ودورة الشمس اليومية من غروب و«ولادة» جديدة (شروق) تصوراتهم الأساسية عن الكون والخليقة (على ما سنفصّله في مبحث الديانة)، وإن اطراد فيضان النيل بوجه نسبي وعزلة مصر الجغرافية جعلتهم يتصورون مصر على أنها مركز الكون، وأن الحياة أو بالأحرى عودة الحياة لهي المتغلبة على الموت، واتخذوا من بيئتهم التي على رأسها النيل الصورة الأنموذجية لما ينبغي أن تكون عليه البيئات الأخرى وأنهارها. فمثلاً نجدهم يستعملون نفس الكلمة التي تعني «الاتجاه شمالاً» في معنى «اتجه مع التيار» (أي اتجاه النهر) ولكلمة الجنوب أو الاتجاه إلى الجنوب كلمة «اتجه ضد التيار»، ولما تعرفوا على نهر مثل الفرات الذي يجري إلى الجنوب، استغربوا أمره فاعتبروه النهر الشاذ الذي يجري مع تيار النهر في اتجاهه ضد التيار أي إنه نهر معكوس أو مقلوب. ونجد أثر النيل أيضاً في عقائد المصريين في عالم ما بعد الموت، ففي الملاحة في النيل تضع السفن المنحدرة إلى الجنوب الأشرعة ليساعد سيرها الريح الآتي من الشمال حيث يسيرها عكس التيار وبالقياس إلى ذلك جرى المصريون القدماء على وضع قاربين في قبور موتاهم للملاحة في العالم الآخر، أحدهما مرفوع الشراع للرحلة صوب الجنوب والآخر مخفوض الشراع للرحلة مع التيار صوب الشمال.

ومن الميزات البارزة في جغرافية مصر عزلتها الجغرافية حيث تكاد تكون إقليماً مقفولاً يشبه الأنبوب المختوم المعزول من الخارج فإلى الشرق والغرب من الوادي توجد صحارى منيعة صعبة لا يمكن عبورها إلّا للقوافل الصغيرة من التجار، ولكنها تكون موانع حاجزة للجماعات الكبيرة التي تريد اقتحام

---

(1) British Museum Guide, (1930) 12-13.

البلاد بالقوة، كما توجد إلى جهة الشمال صحراء سيناء التي كانت تحجز مصر نوعاً من الاتصال بقارة آسيا، أما الساحل الليبي فلم يكن صالحاً لغير تنقل الرعاة تنقلاً سليماً، وكان يقتضي للاتصالات البرية شرقاً وغرباً زهاء خمسة أيام إلى ثمانية أيام من السير في الصحراء ـ من سيناء إلى فلسطين ومن وادي حمامات إلى البحر الأحمر أو إلى أقرب الواحات الغربية، والبحر في الشمال لا يمكن أن يعبره إلى مصر إلّا قوة بحرية تعتمد على السفن الكثيرة وبمقياس كبير. وإلى جهة الجنوب توجد حواجز مانعة أيضاً، فمع أنه من الممكن عبور الشلال الأول بالسفن إلا أن الوضع إلى جنوبه صعب حيث تضيق الأرض على جانبي النيل من جهة الصحراء، كما أن الزراعة تكون متعذرة بين الشلال الأول والثالث، ومع أن الأرض تتّسع إلى الجنوب من هذا الشلال وتنبت فيها الحقول الواسعة إلا أن هذا الشلال وكذلك الشلال الثاني والصحارى النوبية تكون موانع صعبة العبور شمالاً أو جنوباً، بحيث تستطيع أية حكومة ولو كانت ضعيفة أن تصدّ أي هجوم يقع على مصر بالقوة من هذا الجانب ولكن هذا لا يعني أن مصر قد سلمت بالمرة من غزوات الأجانب، إلا أن هذه الغزوات كانت قليلة بالنسبة إلى تأريخ مصر الطويل وبالمقارنة مع مواطن الحضارات القديمة مثل العراق وبلاد سوريا. وإذا أضفنا إلى هذه العزلة الضمان الذي كان يشعر به المصريون القدماء نوعاً ما بالنسبة إلى توفّر مياه الإرواء بالنيل وانتظام دورته بوجه معتاد، وضمان العيش في بيئة أقلّ عنفاً وتقلّباً من بيئة وادي الرافدين اتّضح لنا ما سنلاحظه من بعض الأوجه البارزة في حضارة مصر القديمة، كاعتدادها بالنفس وبما أنجزته من السيطرة على مياه الإرواء وعلى مواردها الطبيعية وشعورها بالحماية والطمأنينة حتى أنها جعلت رأس المجتمع إلٰهاً، كما أن ما ورد فيها من أساطير وقصص عن الخليقة تمتاز بالهدوء وعدم العنف بالمقارنة مع ما يضاهيها في حضارة وادي الرافدين، كما مرّ بنا في الجزء الأول، ولعله من الممكن تفسير مظاهر أخرى في حضارة مصر على ضوء خصائصها الجغرافية كعقائدها فيما بعد الموت وما امتازت به

من الشعور الوطني ونظرتها المترفعة إلى البشر الآخرين من غير المصريين واحتقارها وكرهها للأجانب، على ما سيتضح لنا ذلك وغيره فيما بعد.

ومع أن وادي النيل يشترك بنهر واحد إلا أنه ليس وحدة من الناحية الطبيعية، فتنقسم بلاد مصر بوجه عام إلى قسمين جغرافيين متميزين القسم العلوي (أرض الصعيد) والقسم السفلي (الدلتا البحرية)، وكان هذان القسمان واضحين من الناحية الطبيعية والاجتماعية من حيث السكان والعادات وأساليب العيش. فالقسم العلوي هو الجنوب (تو ـ ريس بالمصرية القديمة) وكان حده الشمالي قرب القاهرة الآن، والقسم الشمالي (تو ـ ميحت) هو مصر السفلى أي الدلتا وحدّه الجنوبي إلى القاهرة. والدلتا مثلثة الشكل تسقيها فروع النيل والترع المتشعّبة منها، وعرض الدلتا نحو (200) مائتي ميل وطولها نحو (100) مائة ميل (وكان الفرع الشرقي للنيل يدعى قديماً باسم «تانتي» والغربي طانوبي، ولكن الدلتا الحالية محصورة بين فرع دمياط شرقاً وفرع رشيد غرباً). والدلتا أرض غرينية رسوبية تكوّنت بفعل الترسبات النهرية. أما أرض الصعيد فخصبة جداً ولكنها عبارة عن شقة ضيّقة لا يزيد عرضها في جانبي النيل على عشرة أميال، ويحدّ وادي النيل غرباً وشرقاً سلسلة تلال حجرية يتراوح علوّها بين 300 و1000 قدم وتكون هذه بهيئة جدران حجرية يقوم فوقها نجد صحراء بلاد العرب والصحراء الليبية. ومع أن هذين الجدارين يكونان حاجزين منيعين إلا أنه ينفذ من كل منهما في عدّة مواضع فتحات كانت بالأصل مجاري سيول وأنهار كانت تصب في النيل وتأتي من كلا النجدين في الأزمان الممطرة في العصور الجليدية[1]، ولكنها أصبحت في العصور التالية مداخل إلى وادي النيل للقوافل الآتية من سواحل البحر الأحمر أو من سلسلة الواحات الكائنة في الأرض المنخفضة المحاذية لمجرى النيل من جهة الغرب.

هذا وقد كنا ذكرنا أن معظم مصر الآن قطر عديم المطر تقريباً ولكن

---

(1) انظر الجزء الأول، الفصل الثاني.

الأحوال الجغرافية كانت تختلف تمام الاختلاف في العصر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» الذي حدثت فيه العصور الجليدية في أوروبا. وكان يقابل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة في معظم أنحاء الشرق الأدنى، حيث كانت المياه وافرة في مصر وتملأ مجاري المياه اليابسة الآن، وكانت النباتات والحيوانات كثيرة في مناطق الصحارى[1]، وسنتطرق في بحثنا عن العصور الحجرية في مصر إلى آثار الصيادين التي تركوها في ضفاف النيل. وبعد أن حلّ الجفاف منذ نهاية العصور الجليدية (ونهاية العصور الحجرية القديمة) التجأ صيادو العصر الحجري القديم من جانبي وادي النيل إلى قرب النهر وأخذوا في زرع الأرض وتدجين الحيوان في العصر التالي. وكانت البيئة الطبيعية التي التجأ إليها الإنسان بيئة وحشية قبل أن تعمل يد الإنسان على ترويضها وتدجينها، فكانت معظمها غابات وأحراشاً نهرية وأهوار قصب. وقبل أن يجفف الإنسان الأهوار كان قد اصطيد هو نفسه بين الصحراء التي هرب منها وبين أحراش النيل ومستنقعاته، فعمل الإنسان على تجفيف الأهوار وتطهير الغابات وتنظيم مياه الإرواء ولعل هذا الجهد قد شغل ألوفاً كثيرة من السنين واستغرق معظم عصور ما قبل التأريخ. وعلى كل فلم تكن البيئة التي نشأت فيها الحضارة المصرية بيئة سهلة في مبدأ الأمر كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن أصبحت مروّضة بعد أن عملت فيها يد الإنسان وجهوده.

ومن الأمور البارزة التي تفيدنا معرفتها في فهم بعض النواحي الخاصة من حضارة وادي النيل حالة آثارها الباقية. فكثيراً ما تُوصف هذه الحضارة بأنها حضارة الموت والموتى لأن معظم الآثار التي خلفتها لنا وكانت مصادر معرفتنا بها قد عثر عليها في القبور سواء ما كان منها القبور الملكية والمعابد الخاصة بها أو في قبور عامة الشعب. وثمة سبب مهم لبقاء آثار القبور وكثرتها

---

(1) حول مناخ مصر وحيواناتها ونباتاتها في عصور ما قبل التاريخ انظر:

Newberry, Egypt as a Field for Anthropological Research 1924; K.S. Sandford in AJSL. XLVIII (1932); 70.

عدا سبب اهتمام المصريين القدماء بالحياة الأخرى، ذلك هو أن البشر الذين استوطنوا وادي النيل الضيق قد اتخذوا حافة الصحراء لدفن موتاهم وإيداع ما يحتاجون إليه في العالم الآخر في قبورهم في حين أنهم اقتصروا في الأراضي الزراعية العزيزة على الزرع والسكنى فسلمت بذلك قبورهم والآثار التي أودعوها فيها بسبب جفاف حافة الصحراء، أما الآثار الأخرى التي يحتمل أنها تركت في بيوت السكنى فقد أصابها البلى بسبب عامل التربة، كما أن معظم آثار الحضارة المصرية قد جاءتنا من مصر العليا ذات الرمال الجافة المحافظة على الآثار، في حين أن آثار مصر السفلى (الدلتا) تكاد تكون معدومة ومصادر تأريخها مأخوذة من مصر العليا[1].

وإذا قارنّا بين بيئة وادي النيل وبين بيئة وادي الرافدين من ناحية توفر بعض المواد المهمة المستعملة في الحضارة ألفينا أن مصر كانت أحسن وضعاً في هذه الناحية ففيها الحجارة الفاخرة التي مكّنتها من إشادة مآثر مهمة من الحجر كالأهرام والمعابد والمنحوتات كما أن بعض المواد الأخرى كالأخشاب وجملة معادن مهمة مثل النحاس والذهب كانت في متناول يدها في الجهات القريبة مثل طور سيناء والحبشة والسودان ونوبية. هذا وقد سبق أن لاحظنا فقر القسم الجنوبي من العراق من ناحية مواد البناء الأولية، وهو القسم الذي تكوّنت فيه أولى حضارة ناضجة.

وسنذكر بعض الملاحظات المفيدة عن سكان وادي النيل مما سيعيننا على فهم أصلهم وعلاقتهم بأقوام الشرق الأدنى ونكتفي في هذه المقدمة الآن بالتنويه بأن سكان مصر هم بالدرجة الأولى من أصل أفريقي مثل الجماعات «السمر» التي تقطن القسم الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وهم من الحاميين القريبين من الأقوام السامية، وتوجد عناصر أيضاً من الأقوام الجنوبية كالأحباش والزنج والنبط، والغالب عليهم بوجه عام عرق البحر المتوسط.

---

(1) J.A. Wilson, The Bruden of Egypt, 15-16.

وقد سبق أن نوّهنا في الجزء الأول من هذه البحوث في كلامنا على الساميين أن هجرة سامية مهمة قد دخلت مصر في الألف الرابع واختلطت بالسكان الأصليين وتكوّن من ذلك المصريون كما نعرفهم في التأريخ. كما يجدر التنويه بالشبه الكبير الموجود بين مجموعة اللغات السامية واللغات الحامية ولكن مع ذلك فإن اللغة المصرية القديمة لم تكن من اللغات السامية بل الرأي الراجح أن كتلة اللغات الحامية وكتلة اللغات السامية كانتا في أصلهما البعيد من عائلة لغوية واحدة، ولكن اللغة المصرية القديمة انفصلت عن كتلة اللغات السامية قبل تطور المجموعتين اللغويتين ونضجهما في الأدوار التأريخية. والذي يبدو أن اللغة المصرية القديمة قد تمّ نموها ونضجها «فتثبتت» في عهد قديم جداً ولكن اللغات السامية سارت في تطورها وتغيرها أكثر وأبعد مما طرأ على اللغة المصرية القديمة.

2 ـ مصادر معرفتنا بالحضارة المصرية وضبط أدوارها:

يرجع الفضل في معرفتنا بالحضارة المصرية القديمة التي ازدهرت في وادي النيل إلى التحريات والتنقيبات الآثارية التي قام بها العلماء في مواطن الحضارة في مصر منذ منتصف القرن الماضي. وقد سبق طور التنقيبات الآثارية، كما في العراق، طور تعرّف فيه الغرب على آثار مصر من السياح وهواة الآثار وسراقها، حيث انتقلت عنهم إلى الغرب مجموعات مهمة من آثار حضارة وادي النيل، ويمتد هذا العهد إلى أزمان طويلة إلى العهود اليونانية والرومانية، حيث جرى كثير من أباطرة الرومان على نقل المسلات الفرعونية إلى روما وغيرها من مدن إيطاليا. وقد صاحب التنقيبات عن الآثار المصرية واستخراجها البحوث العلمية الواسعة في درسها وفهمها، ومن ذلك الجهود العلمية التي بذلت في حلّ رموز الخط الهيروغليفي (وسنذكر كيفية ذلك في موضع آخر). ومما يقال في الآثار المصرية إن البحث فيها بدأ قبل البحث في آثار وادي الرافدين، فنشأت في مصر طرق البحث والتنقيب العلمية قبل مواطن الحضارات الأخرى في الشرق، وكان من أسباب ذلك طبيعة الآثار المصرية

نفسها من كونها بقيت معظمها سالمة محفوظة والكثير منها بقي شاخصاً يجلب إليه الأنظار كالمسلّات والأهرام ومعابد القبور الكبيرة، كما أنه كان لمناخ مصر الجاف دخل كبير في المحافظة على الآثار المطمورة مما جعل عمل المنقّبين مضموناً في عثورهم على الآثار القيمة. وقد سبق أن ألمحنا إلى أن البحث العلمي عن آثار الحضارات القديمة قد سبقه طور لم يعن فيه بطرق التنقيبات المنتظمة، وإنما كان الهم محصوراً في نبش القبور واستخراج الآثار قصد بيعها وتهريبها خارج مصر، فأوقع ذلك أضراراً جسيمة في تراث حضارة وادي النيل، ولكن الوطأة خفّت منذ أن تأسس المتحف المصري أولاً في «بولاق» (في ضواحي القاهرة) ثم في القاهرة عام 1858 فأخذت آثار مصر القديمة تودع في مواضعها اللائقة بها منذ ذلك الحين. ونذكر من أوائل الباحثين المؤسسين لعلم المصريات (البحث في الآثار المصرية) العالم الآثاري «شامبليون» الذي شرع في حلّ رموز الخط الهيروغليفي منذ عام 1821، ونذكر أيضاً المنقّب الشهير «فلندرز بتري» الذي يعدّ مؤسس طريقة البحث العلمية ولا سيما من ناحية ضبط أدوار الآثار. وقد تتابعت بحوث العلماء الآخرين في الحقول والنواحي المختلفة من حضارة وادي النيل، ونخصّ منها ضبط تسلسل أدوارها وكتابتها ومعرفة أدوارها القديمة ولا سيما عصور ما قبل التأريخ فيها وأصولها وأسسها الممتدة إلى العصور الحجرية مما سنوجزه في الصفحات الآتية.

وقد ساعدتنا الوثائق المكتوبة التي خلّفها لنا المصريون القدماء على ضبط أدوار التأريخ في حضارة وادي النيل. وأشهر ما نذكر من هذه الوثائق التأريخية المدوّنة إثبات سلالات الملوك المصريين التي جمعها الكاهن المصري «مانيثو» حيث ألّفها باليونانية في عهد البطالمة (البطالسة) في مصر في القرن الثالث ق.م. (في عهد بطليموس فيلادلفوس). وجاءتنا أيضاً أجزاء من تواريخ ألّفها المصريون القدماء على هيئة أثبات ملوك وحوليات بأخبار الملوك ومن بين ذلك الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم «بردية تورين» (نسبة إلى موضع حفظها في إيطاليا) التي ترجع في زمن تدوينها إلى حدود 1300 ق.م. وهي

تتضمن بحالتها الكاملة، أسماء نحو 300 ملك مع أطوال حكمهم بالسنين والأشهر والأيام، وجاءتنا أيضاً أثبات أخرى بأسماء الملوك من بينها وثيقة قديمة جداً منقوشة على الحجر وتعرف باسم حجر «بالرمو» حيث يرجع أصلها إلى حدود 2700 ق.م، هذا بالإضافة إلى حوليات الملوك المختلفة ونقوشهم التأريخية في جدران المعابد والقبور. وقد استطاع الباحثون بمثل هذه الوثائق وأشباهها من تعيين تأريخ الآثار المصرية وأدوارها منذ بداية الألف الثالث ق.م. فما بعد، أي منذ بداية العهد التأريخي الذي يبدأ بظهور المملكة المصرية التي وحّدها «منا» وهو الذي يعزى إليه تأسيس أول سلالة مصرية حكمت على القطر المصري. أما ما قبل هذا العهد أي عصور ما قبل التأريخ فقد استطاع العلماء من تعيين أزمانها بوجه التقريب من دراساتهم للآثار الممثلة للأدوار المختلفة ومضاهاتها مع غيرها من آثار الشرق الأدنى كما استعين مؤخراً بطريقة خاصة بالإشعاع الذري مما ذكرناه في مقدمة الجزء الأول، وهي الطريقة المعروفة باسم (C14)، ومما ساعدنا على ضبط الأدوار التأريخية طريقة التقويم المصري حيث ابتدعوا طريقة صحيحة موافقة للسنة الشمسية تقريباً (انظر بحث ذلك في موضع آخر)، كما أنهم ألفوا أيضاً أثباتاً بأسماء السنين بالنسبة إلى الحوادث المؤرخ بها، كما كان الحال عليه في العراق القديم.

لقد قسّم المؤرخ «منيثو» الذي ذكرناه سابقاً فراعنة مصر والسلالات التي حكمت منذ أول سلالة إلى نهاية التأريخ المصري إلى 31 سلالة وقد اتبع تقسيمه جميع الباحثين المحدثين ولكن لما كانت نهاية كل سلالة لا تتميز على الدوام بتغييرات سياسية بارزة وبتطورات حضارية أو فنية مميزة فقد ارتأى الباحثون في التأريخ المصري تقسيم تأريخ مصر القديم إلى ثلاثة عصور كبرى تتميز بأكثر من وجه واحد من النواحي السياسية والفنية والاجتماعية، والمتّفق عليه أن هناك ثلاثة عصور كبرى رئيسية مع فترات اضطراب سياسي تفصل ما بين بعضها، وهي عصر المملكة القديمة وعصر المملكة الوسطى وعصر المملكة الحديثة (ويشمل هذا العهد الأمبراطورية

المصرية) وإذا أدمجنا مع هذه العصور التاريخية عصور ما قبل التأريخ فتحصل لدينا الأدوار المميزة لتأريخ مصر القديمة منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ على الوجه الآتي:

أولاً ـ عصور ما قبل التأريخ:

أ ـ العصور الحجرية القديمة: وادي حلفا، العباسية، السبيل.

ب ـ العصر الحجري الحديث (المتأخر) ـ «طاسة»، «الفيوم»، «مرمدة».

ج ـ العصر الحجري المعدني: «البداري»، «الأماري»، (نقادة الأولى) «الجرزي» (نقادة الثانية).

ثانياً: عصر المملكة القديمة:

أ ـ بداية السلالات (3100 ـ 2780 ق.م) السلالة الأولى والسلالة الثانية.

ب ـ عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) (السلالات من الثالثة إلى السادسة).

ثالثاً: عصر النبلاء وأمراء الإقطاع (الفترة المظلمة الأولى) (2270 ـ 2100 ق.م)

ويشمل السلالات من السابعة إلى العاشرة.

رابعاً: عصر المملكة الوسطى (2100 ـ 1788 ق.م)

ويشمل السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

خامساً: عصر الهكسوس (الفترة المظلمة الثانية) (1788 ـ 1573 ق.م).

ويشمل السلالات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة.

سادساً: عصر المملكة الحديثة (عهد الأمبراطورية) (1573 ـ 1085 ق.م)

ويشمل السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والسلالة العشرين.

سابعاً: عصر المملكة الأخيرة (عهد الضعف والتدهور) (1090 ـ 663 ق.م)

ويشمل السلالات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين.

ثامناً: فترة انتعاش (663 ـ 525 ق.م).

ويشمل السلالة السادسة والعشرين.

تاسعاً: العهد الفارسي الإخميني (525 ـ 332 ق.م)

من عهد قمبيز إلى دارا الثالث (ويشمل السلالات السابعة والعشرين إلى الواحدة والثلاثين).

عاشراً: الإغريق والعهد الهلنستي (البطالسة) (332 ـ 30 ق.م).

أحد عشر: العهد الروماني 30 ق.م. ـ 639 ب.م (الفتح العربي).

٣ ــ العصور الحجرية

العصر الحجري القديم:

تمتد بداية القصة عن حضارة وادي النيل إلى فجر الحياة البشرية في هذه الكرة الأرضية حيث بدأ استيطان الإنسان الأول في وادي النيل منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ، أي العصور التي أطلقنا عليها اسم العصور الحجرية القديمة. فبعد تكوين نهر النيل في الدهور الجيولوجية البعيدة واتخاذه شكله الحالي في العهد الجيولوجي المسمى «بليوسين» (Pliocene) كانت الأحوال المناخية تختلف تمام الاختلاف عمّا هي عليه الآن، فقد كانت أفريقيا ومعظم

أجزاء الشرق الأدنى القاحلة الآن تتمتع بأمطار كثيرة غزيرة وكانت العصور الممطرة (Pluvial Period) تحلّ إبان العصور الجليدية في أوروبا، أما في الفترات الجليدية فكانت تحدث أزمان جفاف. وكانت حياة الحيوان والنبات مزدهرة في شمالي أفريقيا وفي منطقة الصحارى وقد وجدت آثار الإنسان الصياد هنا، وكثيراً ما كان الصيادون يترددون على النجاد المرتفعة في وادي النيل وقد وجدت آثارهم في شرفات نهر النيل. وتمثل لنا هذه الشرفات أي الشطآن (Terraces) العصور الممطرة وعصور الجفاف التي ذكرناها، إذ هي عبارة عن شطآن النيل القديمة متسلسلة من الأعلى وتقلّصت بالتدريج إلى عقيق النهر الحالي[1]، وقد درست هذه الشطآن المختلفة من الناحية الجيولوجية والأثرية فوجد للنيل ثمانية شطآن قديمة تبتدىء من مرتفعات حجارة الكلس العالية إلى عقيق النهر الحالي، هذا ولم يجد المتحرون في الشطآن الأربعة الأولى آثاراً لاستيطان الإنسان إلّا في الشاطىء الخامس (الشرفة الخامسة) وتمثل لنا هذه المرحلة بداية قصة الإنسان في وادي النيل من أول أطوار العصر الحجري القديم حيث وجدت أدوات الحجارة كالفؤوس اليدوية من الدور المعروف باسم الدور «الشيلي»[2] وقد خلف لنا الإنسان بعض عظامه وهكذا تستمر آثار الإنسان في الشواطىء التالية، حيث نجد في الشاطىء السادس أدوات الحجارة الشبيهة بأدوات الحجر من العهد الآشولي في أوروبا، وفي الشاطئين التاليين وجدت آثار من العصر الحجري القديم أحدث

(1) إن هذه الظاهرة قد لوحظت في جملة أنهار، وتختلف عدد الشرفات باختلاف الأنهار، وإذا كان العدد المطّرد يلزم أن يكون أربع شرفات تطابق العصور الجليدية الأربعة في أوروبا فإن لبعض الأنهار شرفات ثانوية تمثل أدواراً ممطرة ثانوية وعهود جفاف ثانوية. هذا ولم تدرس وديان الأنهار في العراق دراسة جيولوجية وافية من هذه الناحية وإذا كانت قد درست دراسة خاصة إلا أنه لم ينشر شيء عن نتائج هذه الدراسة، ولكن المشاهدات الشخصية واتصالاتي الشخصية ببعض الجيولوجيين الأجانب أوقفتني على وجود مثل هذه الشرفات في وادي دجلة والزاب الأعلى والأسفل والفرات في سوريا، ويبلغ معدل هذه الشرفات الرئيسية أربعة.

(2) انظر الجزء الأول حول الأدوار الخاصة بالعصر الحجري القديم.

عهداً شبيهة بما يُعرف في أوروبا باسم الدور «اللفالوازي» (Levalloisian) والمستيري (Mousterian) ومن بعد هذا الدور يأتي عقيق النيل الحالي[1]. ووجدت حديثاً أدوات وآلات حجرية من الصنف الثاني من العصر الحجري القديم في موضع يُسمّى «سبيل» شمال جبل سلسلة بقليل وكذلك قرب الفيوم[2]. ومما يقال عن العصور الحجرية القديمة في وادي النيل إن آثارها وأدوارها معروفة معرفة أكثر مما عليه الحال في العراق القديم، لكثرة التحريات والبحوث التي تمّت في هذا الباب. هذا وقد سبق أن قلنا إن شمالي أفريقيا وجنوبي غربي آسيا (مثل بلاد سورية وكردستان) كانت في العصور الجليدية في أوروبا تتمتع بخصب ووفرة أمطار مما جعلها مكتظة بالنبات والحيوان والإنسان، حيث وجدت آثار إنسان العصر الحجري القديم مما تضاهي الأدوات المستيرية في أوروبا، ولكنها أحسن منها صنعاً، وقد قرنت هذه الأدوات ولا سيما في مراكش[3] وأفريقيا الشمالية مع نوع من الإنسان يعود إلى نوع النياندرتال، وبالنظر لوجود أدوات العصر الحجري القديم من النصف الثاني منه في مصر وإلى شمالي أفريقيا فيستنتج من ذلك وجود نوع الإنسان الحديث أيضاً.

---

(1) لقد قام بهذا التحريات المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو (1929 ـ 1930) وكذلك قام بتحريات أخرى عن آثار العصر الحجري القديم انظر:

(1) K.S. Sandford in AJSL. LVIII (1932), 170 ff.

(2)..., Palaeolithic Man and the Nile Valley in Upper and Middles Egypt (Oriental Institute Publications, vol. XVIII).

(2) انظر:

Vignard, in Bullt. Inst. Franc. Caire, XXII; Huzayyin in AJA (American Journal of Archeology), LI (1947).

(3) انظر:

(1) Childe, New Light on the Most Ancient East (1952) 16 ff.

(2) Howe and movius, «A stone Age Cave Site in Tangier» Peabody Museum Papers, XXVIII, (1947).

العصر الحجري الحديث:

لقد سبق أن نوّهنا بحدوث عهد الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم في المناطق التي كانت مأهولة بالحيوان والنبات في البوادي المجاورة للنيل، كما ذكرنا تردد صيادي العصر الحجري القديم على شطآن وادي النيل، ولما ازداد الجفاف في أفريقيا وفي وادي النيل[1] التجأت جماعات أخرى من أهل العصر الحجري القديم إلى ضفاف النيل ذات المياه الدائمة وإلى الواحات القريبة فتحفّز الإنسان في هذه الأحوال الجديدة على الانتقال من طور الصيد وجمع القوت إلى طور الفلح والزراعة وتدجين الحيوان أي انتقل إلى الطور الذي دعوناه باسم «إنتاج القوت». وكانت الأحوال مؤاتية لحدوث ذلك الانقلاب الخطير في حياة سكان وادي النيل الأقدمين، فإلى عامل تحدي الجفاف وتحفيزه الإنسان على حلّ الأزمة الراهنة، فقد كانت تنبت في حدود الوادي الأعشاب الكثيرة البرية، ولا سيما الحنطة البرية والشعير البري، يُضاف إلى ذلك خصب الوادي وانتظام فيضان النيل.

لقد أسفرت التحريات الآثارية في مواطن الإنسان في هذا العهد عن اكتشاف جملة مواضع في وادي النيل تمثّل أطوار العصر الحجري الحديث مما تمثل لنا أدوار التدرج والتقدم إلى عهد الحضارة فمن هذه المواضع الممثلة لمرحلة انتقال الإنسان إلى عهد الزراعة الموضع المعروف باسم «طاسة» (أو دير طاسة) القريب من «بداري» ومن ضفة النيل الشرقية[2] حيث ثبت أن المستوطنين في هذا الموضع عرفوا زراعة الحنطة والشعير، كما وجدت حبوبهما في بيوت مستوطنهم، كما أنهم استعملوا رحى الحجر البسيطة لطحنها. هذا ولا يعلم بوجه التأكيد كيف كانوا يروون مزارعهم أمن نهر النيل أم من وديان الأنهار الصابّة فيه، كما لا يعرف أيضاً هل عرفوا تدجين الحيوان

---

(1) انظر:

S.A. Huzzain, The Place of Egypt in Prehistory, 1941.

(2) Brunton, Mostagedda, (1937), 26 ff.

بمقياس واسع، ولكن وجدت في مقارهم عظام غنم ومعز. والذي لا شك فيه أن هؤلاء الفلاحين القدامى لم تكن زراعتهم بمقياس واسع وإنما كما ذكرنا كانوا ينتجون قوتهم فقط، كما لم يوطد استقرارهم واستيطانهم كما يشير إلى ذلك تبعثر القبور. وقد بقي صيد الحيوان والسمك قوتاً أساسياً عند هؤلاء «الطاسيين». ومن عدّتهم أنهم عرفوا صنع أواني الفخار، ولكنها كانت خشنة الصنع ساذجة، وقد وجدت آثار ضئيلة من نسيج الكتان، ولكننا لا نعرف هيئة لباسهم، وقد استعملوا الخرز والمحار والصدف للزينة.

ومن المستوطنات الممثلة للعصر الحجري الحديث في وادي النيل مستوطن وجد في الفيوم[1] الممتد على طول حافة البحيرة الجافة المعروفة باسم الفيوم التي كانت تملؤها المياه فيما مضى. وقد ثبت أن أهل هذا المستوطن زرعوا الحبوب بصورة أكثر انتظاماً من أهل المستوطن الأول، وزرعوا القنّب، وكانوا يحصدون غلّتهم بمناجل مصنوعة من الصوان المسنن المثبتة بالخشب ويخزنونها في حفر في الأرض، كما استعملوا الرحى لطحن الحبوب، ودجنوا جملة حيوانات منها الخنزير والماشية والغنم والماعز، وظلّوا يمارسون صيد الحيوان والسمك، واستعملوا القوس والسهم والفؤوس الحجرية، واستمروا على صناعة أواني الفخار كما في العهد السابق، واستعملوا الخرز والصدف والمحار زينة وحلية، وقد جلبوا المحار من سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط.

ووجد طور ثالث من طور العصر الحجري المتأخر أطلق عليه اسم «مرمدة» في الحافة الغربية من الدلتا[2]، ويشغل هذا المستوطن طنفاً رملياً يبعد الآن كيلومترين غربي فرع رشيد ومساحته نحو (100×400 م)، وقد وجدت

---

(1) Cahoh-Thompson, The Desert Fayum (London, 1934); Childe, op. cit., p.35 ff.

(2) لقد حفرت هذا الموضع بعثة آثار نمساوية. انظر التقارير المنشورة في:
Anzeigerd. Akad. d. Wiss. Wien, Phil. -hist. (1929-1940)
المشار إليها: Childe, op. Cit., p.36.

فيه آثار أكواخ من الطين والحصر، وقد تحسن بناؤها بمرور الأزمان ولا سيما تحسّن بناء جدرانها من الطين السميك، وقد استمرّت عدة العهدين السابقين كزراعة الحبوب وطريقة حصدها بمناجل الصوان، واستمرّت نفس الحيوانات في الاستعمال وصيدها بالقوس والسهم، وتحسّنت صناعة الفخار نوعاً ما، حيث لوّنت بألوان حمر وسود، ووجدت مغازل تدلّ على الحياكة، واستمر سكان هذا الموضع على استعمال الزينة وأضافوا إليها حلية متّخذة من العاج ومن عظام ناب الخنزير. وقد وجدت القبور في داخل بيوت السكنى ولكن لم توجد في داخلها الأدوات العائدة إلى الأموات وقد فسّر ذلك بأن أشباح الموتى كان باستطاعتها التزوّد من زاد الأحياء على عكس ما إذا كانت القبور خارج بيوت السكنى. وقد وجد المنقّبون حديثاً موضعاً رابعاً يمثّل طوراً رابعاً أيضاً من العصر الحديث في وادي النيل حيث عُثر على قرية من قرى هذا العصر قرب حلوان في موضع يدعى «العوماري»[1] الذي يقع بنحو 7 كيلومترات من ضفة النيل الشرقية، ويشبه في عدّته ما وجد في «مرمدة». ومما يقال في العصر الحجري الحديث في وادي النيل إن أطواره وآثاره غير مستمرة في مصر السفلى، بخلاف ما عليه الحال في مصر الوسطى والعليا حيث الأطوار الآثارية مستمرة من الدور «الطاسي» فيما بعد، واستمرّت إلى الأطوار التي سنذكرها تحت أطوار العصر الحجري المعدني.

العصر الحجري المعدني:

لقد سبق أن ذكرنا[2] أهم خصائص هذا العهد الذي اصطلحنا على تسميته أيضاً باسم فجر الحضارة لأنه كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة، كما نوّهنا بتشابه أطواره في مراكز الحضارات القديمة، وأهم ما في

---

(1) عثر على هذا الطور في عام 1942 انظر:

Annals du service des Antiquités de l'Egypt (Cairo, 1948).

(2) انظر الميزات العامة لهذا العهد الحضاري في الفصل الثالث من الجزء الأول.

ذلك توطد الحياة المستقرة واتساع الزراعة والقرى ومعرفة التعدين وصنع الأدوات المعدنية ولا سيما النحاس، وظهور طلائع الدويلات والوحدات السياسية في دول المدن التي اتحدّت بعدئذ وكوّنت مملكة القطر في العهود التالية.

وقد وجد المنقّبون في وادي النيل آثار قرى متعددة تمثل أدوار هذا العهد حيث يميز كل دور بآثاره الممثلة وأشكال أوانيه الفخارية وأطرزة زخرفتها وقد سُمِّيت هذه الأدوار كما في العراق بالأسماء الحديثة للمواضع التي نقب فيها أول مرة ووجدت فيها الآثار المميزة لكل دور.

فيعرف أقدم أدوار هذا العهد باسم الطور «البداري» لأن آثاره[1] وجدت لأول مرة في مواضع ومقابر قرب الموضع المسمى «بداري» في مصر الوسطى، ويمكن اعتبار هذا الدور تطوراً من العهد الحجري الحديث ولا سيما الطور «الطاسي» ووجدت آثاره أيضاً منتشرة في بقاع متعددة من مصر العليا. ونذكر أبرز ما يميِّز هذا الدور تاركين التفصيلات الفنية، فأول ما يجلب انتباه الدارس لآثاره كثرة المواد المستوردة بالتجارة الخارجية ولا سيما من جهات طور سيناء ونوبية ولعله من سوريا. ونجد لأول مرة أيضاً أن سكان وادي النيل عرفوا معدن النحاس ولكنها كانت معرفة بدائية أولية. وتشير نماذج القوارب المصغرة من الفخار إلى معرفة بالملاحة. ونلاحظ أيضاً تقدماً محسوساً في صناعة الأواني الفخارية ولا سيما الأواني المودعة في القبور مع الموتى، كما أنهم بدأوا يزوّقون هذه الأواني وينقشونها، وصنعوا من العاج ومن الطين المطبوخ دمى طين تمثل نساء يرجّح أنها نوع من آلهات مما يعرف بالآلهة ـ الأم.

لقد أعقب الدور البداري أدوار أخرى من العصر الحجري المعدني دعيت بالترتيب الآتي «الأماري» و«الجرزي» (وقد سميا أيضاً بأسم دور «نقادة»

---

(1) Brunton G.C. Thompson, **The Badarian Civilization** (1928); Childe, **Op. Cit.**, 42 ff.

الأول والثاني)[1]. والمرجّح أن الدور «الأماري» الذي وجد ممثلاً في مواضع في مصر العليا قد تطور عن الطور السابق «البداري» كما أن سكان وادي النيل في هذا العهد قد بدأوا في زراعة الري المنتظمة في وادي النيل وتركوا زراعة وديان الصحراء، وبعبارة أخرى اتّسعت الزراعة في هذا العهد مما أدّى إلى اتساع المستوطنات وتكاثر السكان، كما أن القرى أخذت تصبح مدناً صغيرة مسوّرة. ويرى كثير من الباحثين أن هذه القرى اتخذت نظام الطوطمية حيث كان لكل قبيلة أو قرية حيوانها المتّخذ طوطماً، وقد وجدت بعض الحيوانات منقوشة على أواني الفخار مثل التمساح والعقرب وحيوانات أخرى وقد فسرت بأنها تشير إلى نظام «الطوطم»[2] كما يلاحظ التخصص واتساع التجارة أيضاً، وعرفت صناعة السفن من البردي. اعتنى الناس في رسوم الدفن مما يدل على تبلور المعتقدات الدينية حيث جهّزت القبور بالأثاث وبالأدوات الضرورية. وتنوّعت زخرفة الأواني الفخارية واستعمل الحجر لنحت الأوعية، واستمرّ الناس في تفننهم بالزينة ولا سيما استعمال «كحل» العيون، ومارسوا الوشم، والقلائد من قشور بيض النعام وحجر العقيق والحجر الأخضر[3].

ومما يقال عن الطور «الجرزي» أنه تمّ فيه تقدم أساسي في الحياة الاقتصادية، حيث انتشرت المخترعات الصناعية واتّسعت التجارة الخارجية والاتصالات الثقافية التي سنذكرها فيما بعد. وإذا كان الطور الأماري السابق يتميز بالإنتاج الخليط من الزراعة والصيد (جمع القوت) فقد أصبحت الزراعة

---

(1) لقد وضع الباحثون دوراً ثالثاً يعقب الدور الجرزي سموه باسم الطور السميني (Semainian) ودعوه باسم دور نقادة الثالث ولكن البحث الحديث أبان بأنه لا مجال لإضافة هذا العهد الجديد من الناحية الأثرية. انظر:

Helen J. Kantor, «Gerzean or Semainian» in JNES. III (1944), 110 ff.; Childe, Op. Cit., 99.

كما وجد موضع آخر جنوبي القاهرة بقليل يدعى «معادي» لا يعلم مكان دوره بالنسبة إلى الدور الجرزي في مصر العليا ولعله يضاهيه في الزمن ويعقبه قليلاً .(Childe, Op. Cit., 75)

(2) انظر تعريف الطوطم في الجزء الأول.

(3) انظر: Childe, Op. Cit., 50 ff.

في العهد الجرزي أساس الحياة الاقتصادية لجماهير الفلاحين، كما أنها استندت إلى الإرواء، وتحسّن بناء بيوت السكنى، وظهرت في هذا العهد على أسس القرى السابقة المدن الصغيرة مثل «نقادة» و«هيراكو نبوليس»، كما أن استعمال النحاس بكثرة استلزم استمرار الاتصال بمصادر خامه في الصحراء الشرقية وفي سيناء، وإلى جانب السفن استعملوا بعض الحيوانات للحمل كالحمير بوجه خاص. وقد ازداد استغلال وادي النيل من ناحية إمكانياته الاقتصادية، كما كثرت الحاصلات الزراعية فوق حاجة الفلاحين الاستهلاكية لإعالة طبقات الصنّاع وأهل الاختصاص والتجّار، وقد أدّى كل ذلك إلى ازدياد الثروة، كما يتّضح ذلك من بقايا هذا العهد ولا سيما ما وجد في المقابر. ومن الأمور المهمة التي يجدر ذكرها عن أواخر العصر الحجري المعدني ظهور المدن وأوائل الحكّام في كل من مصر العليا والسفلى وكانوا يحكمون في دويلات وإمارات مستقلة بعضها عن بعض، وظهرت طلائع الكتابة الهيروغليفية الصورية التي استعملت لتدوين الشؤون الملكية بوجه خاص في عهد السلالة الأولى التي تبدأ بقيام العصور التأريخية وظهور الحضارة الناضجة.

وقبل أن نترك الكلام على أواخر العصر الحجري المعدني نذكر ما أسفر عنه البحث الحديث من وجود صلات حضارية بين مصر وبين مواطن الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى وبوجه خاص صلاتها مع حضارة وادي الرافدين في العهد الجرزي وفي عهد السلالات الأولى.

لقد تناول الباحثون المختصّون العلاقات الثقافية بين مصر والعراق في أزمان تكوين حضارتيهما وكتبوا في ذلك بحوثاً مسهبة[1]. وموجز القول في

---

(1) انظر المراجع الأساسية الآتية:

(1) H.J. Kantor, «Further Evidence for Early Mesopotamian Relation with Egypt» in JNES, XI, (1952), 239 ff.

(2) Frankfort in AJSL. LVIII (1941), 354 ff.; The Birth of Civilization in the Near East (1951). =

هذه الصلات أنه لم يجد الباحثون من حضارة وادي الرافدين ما يمكن أن يكون من أصل مصري، ولكنهم وجدوا في حضارة مصر وبوجه خاص من العهد الجرزي وعهد السلالات الأولى جملة عناصر حضارية خاصة بحضارة وادي الرافدين، وبالنسبة إلى العهود التي درسناها في حضارة وادي الرافدين يرجع زمن هذه التأثيرات إلى العهد الذي سمّيناه بالعهد الشبيه بالكتابي أو التأريخي (طوري الوركاء وجمدة نصر)، حيث انتشرت التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين في معظم أجزاء الشرق الأدنى، وقد وجد أن معظم هذه العناصر المقتبسة من حضارة وادي الرافدين كان وجودها مؤقتاً غير دائمي في حضارة مصر[1] باستثناء عنصرين تمثلتهما هذه الحضارة وهما طراز خاص في

=

(3) **Scharff in Der Alte Orient**, XLI (1941).

(4) **J.A. Wilson, The Burden of Egypt** (1950).

(5) **Childe, New Light on the Most Ancient East** (1952), 66, 72 - 73, 79, 100.

(1) وإذا كان خارج نطاق هذا الكتاب البحث في هذه العناصر الحضارية المقتبسة فإننا نكتفي في تعدادها ففي العهد «الجرزي» نفسه نجد العناصر الثقافية الآتية المماثلة لما في حضارة وادي الرافدين.

(1) طراز خاص في الأواني.

(2) الخواتم الأسطوانية وإلى ذلك أضيفت في أواخر العهد الجرزي وفي بداية عهد السلالات العناصر الآتية:

(3) نوع من السفن الأجنبية عن حضارة وادي النيل.

(4) طراز لباس الأبطال المصورين على الآثار.

(5) نوع من الكلاب.

(6) استعمال رؤوس الدبابيس الحجر الخاصة بحضارة وادي الرافدين (Mace - Heads).

(7) أطرزة فنية خاصة في تمثيل الأشخاص والحيوانات وكيفية جمعها (كما يتجلى ذلك في الأثر المشهور المسمى بسكين جبل العرق). وفي عهد السلالة الأولى نجد التأثيرات واضحة في:

(8) طراز العمارة في أبنية الآجر مما أشرنا إليه في المتن ويتضح ذلك جلياً في المصاطب التي كانت قبور ملوك السلالة الأولى.

(9) جملة أشكال خاصة من أواني الفخار.

(10) استعمال العلامات الكتابية الصورية استعمالاً صوتياً.

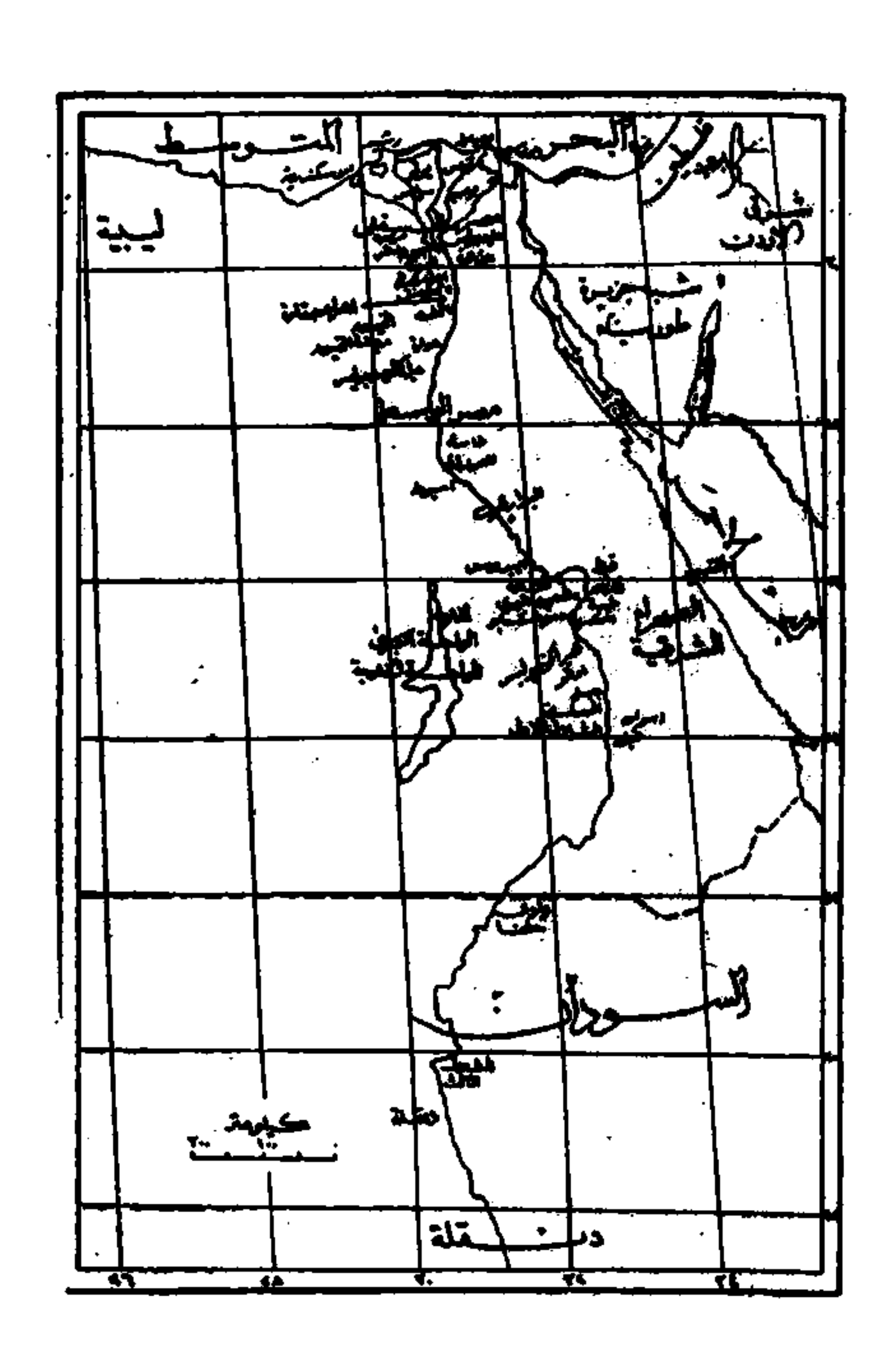
=

فن العمارة يمتاز بالحزوز في الجدران على هيئة طلعات ودخلات وهو طراز خاص بعمارة وادي الرافدين القديمة، والعنصر الآخر استعمال الأختام الأسطوانية التي كانت تستورد في مبدأ الأمر من العراق ولكن أخذ المصريون القدماء يصنعونها في الفترة التي أعقبت عصر المملكة القديمة على الرغم من أن الخواتم التي بهيئة «الجعلان» (Scarab) أصبحت في عهد المملكة الوسطى النوع الشائع المألوف من الخواتم الأسطوانية، وهناك عنصر ثالث يحتمل أنه ظلّ جزءاً مهماً في حضارة وادي النيل، ذلك هو احتمال تأثر المصريين القدماء في الخط المسماري الصوري وأخذهم منه الحافز على إيجاد خطهم الهيروغليفي الخاص. أما كيفية انتشار هذه العناصر وهل حصلت بالتجارة والاتصال المباشر أو بالغزو فلا نعلم بوجه التأكيد.

= انظر حول ذلك بوجه خاص:

(1) Childe, Op. Cit., 100 - 101.

(2) Frankfort, The Birth of Civilization, p.109.



البحر المتوسط
ليبية
شرق الأردن
شبه جزيرة طور سيناء
الصحراء الشرقية
السودان
كيلومتر
دنقلة



نموذج من الكتابة المصرية في طورها الصوري الرمزي. حيث يرمز الصقر إلى الملك ساحباً رأس إنسان بحبل وتوجد خلف رأسه ست ورقات من «اللوتس» تقوم كل ورقة منها برقم 1000. ويوجد تحت الصورة شكل مستطيل فوقه آلة الخطاف أو الحربة ومعنى الصورة بأكملها «أن الملك الصقر قد أسر 6000 رجل من أرض بحيرة الخطاف أو الحربة».

الفصل الحادي والعشرون

المملكة القديمة وعصر الأهرام

بداية عهد السلالات:

لقد سبق أن نوّهنا بتقسيم تأريخ وادي النيل منذ ظهور أولى السلالات الحاكمة إلى عصور كبرى أو أدوار رئيسية أقدمها يعرف باسم عصر المملكة القديمة الذي يقسم بدوره إلى عهدين يطلق على أولهما وأقدمهما اسم بداية السلالات الذي يتضمن بوجه عام السلالة الأولى والثانية ومن الباحثين من يدرج السلالة الثالثة في هذا الطور أيضاً. أما الطور الثاني من عهد المملكة القديمة فيطلق عليه اسم عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) ويشمل السلالات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، إذا لم تلحق السلالة الثالثة بالطور الأول (أي طور بداية السلالات). وسنوجز الكلام على خصائص كل من هذين العهدين المهمين في تأريخ حضارة وادي النيل.

وقبل أن نذكر ما نعرفه عن أولى السلالات الحاكمة التي تمّ في عهدها أول توحيد لمصر في مملكة واحدة نقول شيئاً موجزاً عمّا نعرفه عن الأحوال السياسية في وادي النيل قبيل توحيد المملكة المصرية الذي تعزوه المآثر إلى السلالة الأولى، وبوجه خاص إلى مؤسسها «منا» المأثور.

فقبل أن يتمّ هذا التوحيد المأثور بدأت الحياة السياسية في مصر في فجر التأريخ بهيئة إمارات ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا والسفلى. وقد عرفت هذه الأجزاء السياسية في العصور التالية باسم الولايات أو الأقاليم أو بالمصطلح اليوناني «نومي أو نوموس» (nome, nomus). هذا ولا

يعلم عدد هذه الوحدات الإقليمية قبل أن يوحد «منا» القطر في مملكة واحدة، ولكن الظاهر أن عددها عندما وحّد البلاد كان نحو 42 «نوما» (22 واحداً منها في مصر العليا، و20 في مصر السفلى)، وكان لكل ولاية ديانتها الخاصة وإلٰهها أو آلهتها الخاصة ورمزها الديني السياسي. ومما لا شك فيه أن تكون تلك الولايات أو الدويلات في حروب بعضها مع بعض للسيطرة، وظلت كذلك حتى تقلص عدد الولايات الحاكمة بالفتح والضم وصارت قبيل السلالة الأولى مملكتين منفصلتين، مملكة جنوبية في مصر العليا تمتد من أسوان إلى قرب «منفس»، والثانية تشمل باقي مصر في مصر السفلى (أي المملكة الشمالية) وبضمن ذلك الدلتا وكانت عاصمة مصر العليا، أي عاصمة المملكة الجنوبية، في الموضع المسمى «هيراكو نبوليس» (واسمها المصري القديم «نخين» أو نخيت). وعاصمة مملكة الشمال (المملكة السفلى) في المدينة المسماة «بوتو» في الدلتا. وقد وردت أسماء جملة ملوك من مملكة الشمال في المسلة المعروفة باسم مسلة «بالرمو»، والظاهر أن سكّان هذه المملكة من الساميين والليبيين كما يرجّح أن تكون أكثر تقدماً في الحضارة من مملكة الجنوب وكان رمز مملكة الشمال «الحية» ورمز مملكة الجنوب «النحلة» وعندما تمّ توحيد هاتين المملكتين في مملكة واحدة اتّخذ أول ملك لقبي المملكتين واتّحد رمزاهما أيضاً.

السلالة الأولى:

وبعد أزمان لا يعلم طولها ظهر ملك قوي من مملكة الجنوب ونجح في ضم مملكة الشمال وتوحيد المملكتين في مملكة متحدة لقب ملوكها أنفسهم بملك «مصر العليا والسفلى». وتنسب المآثر هذا التوحيد السياسي إلى أول ملك من السلالة الأولى الذي سمي «منا» (وبالصيغة اليونانية منيس)، والواقع التأريخي عن هذا الملك غير معروف، ولكنه يبدو أنه كان شخصية مركبة يدخل فيها لا أقل من ثلاثة ملوك وهم الملك الملقّب بالعقرب والملك نارمر و«عجا» (أي المحارب) الذين تمّ في عهد حكمهم غزو الشمال وضمّه إلى

مملكة الجنوب ولا يعلم من منهم «منا» المخصوص، وقد ذكرت أثبات سلالات الملوك أسماء ملوك آخرين لهذه السلالة ووجدت لبعضهم آثار خاصة وقبورهم الخاصة، نذكر من هذه بوجه خاص اللوح الخاص بالملك «نارمر» (نعرمر)[1].

وتروي المآثر المصرية المتأخرة أيضاً أن مدينة «منفس» قد بُنيت في موضع استحصله من النيل الملك «منا» مؤسسة السلالة الأولى المأثور بسده النيل وتحويل مجراه الأصلي إلى الشرق. ومهما كانت صحة تفاصيل هذه المآثر فالذي لا شك فيه أن أحد ملوك السلالة الأولى الملقّب بلقب «منا» (أو مني أي الثابت) هو الذي أسس «منفس» لأن الآثار الخاصة بالسلالة الأولى تكثر في جوار المدينة ولم يعثر بعد على آثار مما قبل ذلك العهد[2]، هذا لا يعلم بوجه التأكيد هل اختار مؤسس «منفس» هذه المدينة لتكون عاصمة المملكة الموحدة أو أنها اختيرت لتكون مجرّد حصن بالنظر لموقعها المسيطر على المملكتين ثم صارت عاصمة البلاد للسبب المذكور أي بالنظر إلى موقعها الجغرافي حيث تقع تقريباً في الحد الفاصل بين مصر العليا والسفلى، وكان هذا في الواقع اختياراً موفقاً لتوطيد الاتحاد السياسي المنجز حديثاً ولسهولة إدارة المملكتين. ولكن مع هذا التوحيد واستمراره في عهد السلالات القوية إلا أن حقيقة أن مصر كانت مقسمة إلى جزأين أو مملكتين متميزتين لم تختف من الوجود في العهود التالية، حتى أنه كان من الألقاب الرسمية المهمة للفراعنة لقب ملك «مصر السفلى والعليا». ومع أننا نجهل أساليب الإدارة التي اتبعها ملوك السلالة الأولى في إدارة المملكة إلا أن المرجّح كثيراً أنهم اتبعوا الإدارة المركزية والسلطة المطلقة. وقد وجد في التنقيبات التي أُجريت حديثاً في المقابر الكائنة في صقارة عدد كبير من قبور الموظفين والحجاب والتابعين لبلاط الملك في عهد السلالتين الأوليين، مما يشير إلى أن الفرعون كان يتبعه

---

(1) انظر: The British Museum Guide, (1930), 279 ff.

(2) انظر: Edwards, The Pyramids of Egypt, 17 ff.

ويساعده في حكومته المركزية عدد كبير من الموظفين المربوطين بالبلاط. ومع أن الأقاليم السابقة (النومات) قد توحّدت الآن في حكومة مركزية إلا أن ملوك هذه السلالة قد سمحوا لها بالمحافظة على كياناتها، ولكنهم عيّنوا حكّاماً يديرونها من قبلهم، وكان مثل هؤلاء يحكمون بالتعيين وظل الحال في عهد السلالات التالية، ولكن وظيفتهم صارت بالتدريج وراثية خاصة بأسر معينة، وهكذا نشأت في مصر القديمة منذ فجر التأريخ طبقة خاصة من حكّام الأقاليم أخذت تهدد سلطان الفرعون[1] بعد ضعف المملكة القديمة حتى استقلّ هؤلاء في أقاليمهم في نهاية السلالة السادسة (أي في نهاية عصر الأهرام).

واشتهر عهد السلالة الأولى بأن حكّام مصر منذ هذا العهد أو ما قبل ذلك بقليل بدأوا يفكرون بطريقة للدفن تضمن عدم تلف قبورهم وتخريبها فبنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهراً فوق الأرض مشيّداً من اللبن وقد عرف هذا النوع من القبور باسم «المصطبة». وقد وجدت نماذج من هذه القبور في صقارة بعضها يرجع إلى بعض ملوك السلالة الأولى مثل «أخا»، وكانت العادة أن يزيّنوا خارج بناء المصطبة بطراز عماري من «الطلعات» و«الدخلات» على غرار طراز العمارة في حضارة العراق القديم مما ألمحنا إليه سابقاً.

السلالتان الثانية والثالثة:

لقد وردت في أثبات سلالات الملوك أسماء جملة ملوك خصصوا إلى السلالة الثانية، ووجدت لبعضهم آثار فيها نقوش كتابية مثل «حتف ـ سخموي» و«رع ـ نيب» الخ، وطرأ تطور في طريقة الدفن الملكية في عهد هذه السلالة،

(1) معنى كلمة فرعون (فير ـ عو) المصرية (البيت العظيم) وكان أقدم ذكر لهذا المصطلح في النصوص المصرية من عهد خفرع (السلالة الرابعة) (دليل المتحف البريطاني 1930 ص 292) ولكن كان هذا اللقب يشير إلى القصر ولم يستعمل لقباً للملك بصورة رسمية إلّا في عهد السلالة الثامنة عشرة (عهد الأمبراطورية).
(Wilson, **The Burden of Egypt**, 102).

فإن القبر مع بقائه بهيئة مصطبة إلا أن البناء الظاهري فوق حفرة الدفن صار صلداً غير مجوّف (أي لا يتكوّن من بناء من حجرات كما كان الحال عليه في عهد السلالة الأولى) وإنما كانوا يملأون داخل المصطبة باللبن وكسر الحجارة ويغلف وجهها بالآجر، ولكنهم وسعوا من حفرة الدفن تحت المصطبة بحيث صارت تحتوي على جملة حجرات لخزن الأثاث والأشياء التي كانت تودع فيما مضى في حجرات البناء المجوّف الظاهر في قبور السلالة الأولى، أما ملوك السلالة الثالثة فإنهم بدأوا يستعملون الحجر في قبورهم، وقام أحد ملوك هذه السلالة المسمى «زوسر» ببناء جديد هو الهرم المدرج الذي تطور عن المصطبة وتطور عن هذا الهرم المدرج الهرم الصحيح الذي كان أول ما ظهر في عهد السلالة الرابعة، أي في عصر الأهرام الذي سنذكره في موضع آخر. ويعزى إلى عهد السلالتين الثانية أو الثالثة أصل التقويم الرسمي.

وتشير مجريات الأحوال التأريخية إلى أن الوحدة السياسية التي أنجزتها السلالة الأولى لم تكن موطدة دائمية وظل النزاع بين الجنوب والشمال مستمراً في عهد السلالة الثانية إلى أن استطاع أحد ملوك السلالة الثالثة من غزو الشمال (وأصله من مصر العليا) واسمه «خع ـ سخموي» ويبدو أن هذا استمرّ في الحكم من منفس، وكان ابنه المسمى «زوسر» (أي المقدس) أعظم ملوك السلالة الثالثة، وقد سبق أن قلنا إنه اشتهر ببناء أول هرم مدرج في تأريخ مصر في صقارة وسيأتي وصفه في موضع آخر. وقد وجدت في ذلك الهرم آثار نفيسة من الفن المصري. واشتهر في عهد هذا الملك معمار اسمه «يمحاتب» (أو أمحوتب) تعزو إليه المآثر بناء الهرم المدرج كما عزت إليه المآثر المتأخرة أنه كان مؤلفاً وساحراً وطبيباً.

وفي وسعنا أن نجعل عهد السلالة الثالثة عهد الوحدة السياسية الموطدة التي شملت جميع القطر المصري، واستمرّت هذه الوحدة بمقياس أوسع وتوطدت أكثر في عهد يعدّ من أعظم العصور المصرية، ألا وهو عصر الأهرام الذي سنأخذ بعض الأمور المفيدة عنه.

عصر الأهرام

وهو العصر الذي سبق أن عرفناه بالنسبة إلى السلالات الحاكمة وإلى زمنه التأريخي بأنه العهد المبتدأ بالسلالة الثالثة أو الرابعة والمنتهي بنهاية السلالة السادسة، وقد سبق أن رأينا كيف كانت الأوضاع السياسية في عهد السلالة الثالثة حيث تمّ في عهدها إعادة توحيد البلاد بغزو قام به أحد ملوك هذه السلالة فتوطّدت الوحدة السياسية في عصر الأهرام، وإذا اعتبرنا الهرم المدرج الذي شيّده «زوسر» أحد ملوك السلالة الثالثة من الأهرام، فبإمكاننا دمج هذه السلالة في عصر الأهرام، ولكن الأهرام الصحيحة الضخمة التي اشتهرت بها مصر لم تبدأ إلّا في عهد السلالة الرابعة، وهذا هو سبب تسمية هذا العهد بعصر الأهرام، لأن ملوك هذا العهد وملكاته، باستثناءات قليلة، قد دفنوا في قبور تقوم فوقها أبنية عالية شاهقة هي الأهرام. أما في العصور الأخرى غير عصر الأهرام فإن غير واحد من ملوكها قد شيدوا أهراماً أيضاً ولكن مثل هذه الأهرام قد ضَؤُلت من ناحية الحجم وأصبحت مجرد عادة تقليدية تُقام قرب القبور، وليس لها تلك الميزات الخاصة بأهرام عصر الأهرام، كما أنها فقدت الكثير من المغزى الديني، وأصبحت إلى جانب صغر حجومها مجرد رموز أو بمثابة شواهد قبور، ولذلك خصّ العهد الذي نتكلم عنه الآن بأسم «عصر الأهرام».

ومما يقال في عهد المملكة القديمة بوجه عام وعصر الأهرام بوجه خاص أنه كان عهد ازدهار الحضارة المصرية وعنفوانها وعهد نضجها أيضاً كما أنه كان عهد توطيد الوحدة السياسية والنمو السياسي والسلطان المركزي

وسلطة الملوك المطلقة، وأن أساس الحكم كان يقوم على حكم «الملك الإله»، والواقع من الأمر أن أساس الفكرة من بناء الهرم «ألوهية الملك»، وكان يخدمه النبلاء وأشراف المملكة وكبار الموظفين حيث ينالون السعادة في عالم ما بعد الموت من جرّاء هذه الخدمة، ويخدم طبقة النبلاء الطبقات الدنيا من فلاحين وصناع وغيرهم، ويصيرون كذلك خداماً سعداء لهم في عالم ما بعد الموت. وقبل أن نذكر شيئاً عن الأهرام والميزات البارزة في حضارة مصر في هذا العهد نوجز أبرز الأمور المهمة عن السلالات الحاكمة في هذا العهد.

السلالة الرابعة:

تبدأ السلالة الرابعة بحكم ملك من مشاهير ملوك هذا العهد هو «سنفرع»، وكان هذا الملك أول من استعمل ما اشتهر في تأريخ مصر باسم «الخرطوش» (Cartouche)[1] وهو عبارة عن ختم الملك المتضمن اسم الملك ولقبه، وقد غزا «سنفرع» طور سيناء ونحت نحتاً بارزاً في الحجر هناك كما أنه غزا نوبية إلى الجنوب من أسوان وأسر جماعات كبيرة، وهو الإقليم الذي كان «زوسر» من ملوك السلالة الثالثة قد غزاه ويرجّح أن «سنفرع» قد دفن في الهرم الكائن في «ميدوم» المسمى بالهرم المدرج إذ إنه هرم مدرج مكوّن من ثلاث طبقات كما أنه بنى هرماً في «دهشور». وأعقب «سنفرع» الملك الشهير «خوفو» الذي كان أعظم ملوك السلالة الرابعة، ويخصّص له هيرودوتس حكماً دام (63) سنة، ولكن المرجّح أنه لم يحكم أكثر من 23 سنة ولعله كان مثل سنفرع محارباً كبيراً كما وجد له نصب منحوت في طور سيناء، ولكن شهرته الأساسية أتت من كونه أعظم بناء خلد شهرته الهرم الأكبر طوال ألوف من السنين. وخلفه في الحكم ابنه الشهير «خفرع» الذي اشتهر أيضاً في بناء ثاني الهرمين الكبيرين في الجيزة وقد سبق أن نوّهنا، بأنه يرجع إلى عهد هذا الملك

---

(1) يرجّح أن شكل الخرطوش المستطيل مأخوذ من شكل الختم الأسطواني الخاص بحضارة وادي الرافدين.

أقدم الإشارات إلى لقب «الفرعون» (البيت العظيم) على الرغم من أنه لم يستعمل لقباً رسمياً للملوك إلّا في عهد الأسرة الثامنة عشرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد بلغ فن النحت في عهد السلالة الرابعة بوجه عام وفي عهد خفرع بوجه عام الذروة في الرفعة كما يدل على ذلك تمثال هذا الملك المنحوت من حجر الديوريت الموجود في متحف القاهرة حيث وجد بالأصل في معبد «أبي الهول» الذي هو أيضاً تمثال للملك بهيئة رأس بشر وجسم أسد[1] وجاءتنا قطع فنية نفيسة أخرى مثل تمثال «شيخ البلد المشهور». ولقد حكم خفرع 56 عاماً بحسب هيرودوتس وخلفه في العرش «منكورع» الذي حكم زهاء 20 عاماً على الرغم من عزو الإغريق إليه حكماً طويلاً. واشتهر هذا الملك بكونه باني الهرم الثالث في الجيزة الذي يبلغ ارتفاعه نحو 215 قدماً، وينبغي أن تكون المحاولة التي جرت في زمن الخليفة المأمون لحفر الهرم قد كانت في هذا الهرم. وكان آخر ملوك السلالة الرابعة «شيبسكاف»، وقد بدأت في أواخر عهد هذه السلالة أهمية عبادة الإلٰه «رع» تطغى على عبادة الفرعون يتدخل كهنة الإلٰه رع في هليوبوليس (مدينة عون المذكورة في التوراة) حتى أنه ليقال إن أصل ملوك السلالة الخامسة كانوا من زوجة كاهن من كهان الإلٰه «رع» ولدته من هذا الإلٰه بمعجزة إلٰهية.

---

(1) لا يعلم أصل هذا النوع من التمثيل الخاص بأبي الهول (Sphinx) والذي تجدر ملاحظته عن هذه الأنواع الخاصة بمصر أنها على العموم من نوع أبي الهول المذكر، وقد صنعت في سوريا وبلاد اليونان مثل هذه المنحوتات المركبة التي كانت تمثل نساء بأجسام الحيوانات (الأسود) وهي مجنحة على الغالب، وهناك أسطورة طريفة عن أبي الهول اليوناني (أو أم الهول)، إذ عرف باللغز الشهير بلغز «أبي الهول» (The Riddle of the Sphinx) وكان هذا لغزاً مهلكاً وضعته تلك المخلوقة الخاصة بطيبة (في اليونان) لمن يمرّ بها من الناس فمن لم يحله قتلته. وقد حزره الملك «أوديب» فأنتحرت «أم الهول» وصار «أوديب» ملكاً. أما اللغز فهو على الوجه الآتي: «ما ذلك المخلوق الذي يمشي على أربع في الصباح وعلى قدمين في الظهر وعلى ثلاثة أقدام في المساء؟» وجواب اللغز «الإنسان» فهو يمشي في طفولته على أربع (قدميه ويديه) ثم على قدميه لما يشب وعلى ثلاثة حين يشيخ. على قدميه وعلى عكازته!

السلالة الخامسة:

أما أول ملوك السلالة الخامسة المسمى «يوسر كاف» فيرجّح كثيراً أنه جاء إلى العرش بنتيجة ثورة قام بها، والمرجّح أيضاً، كما ألمحنا إلى ذلك، أنه كان الكاهن الأعلى للإله «رع». وقد حدث في عهد هذا الملك تبدل مهم في مركز عبادة هذا الإله حيث صارت هي السائدة في البلاد، كما أن هذا الإله قد طغى على الإله الفرعون الذي صار مجرد «ابن رع» وهو لقب رسمي تسمى به الفرعون منذ السلالة الخامسة. وهذه نقطة مهمة في تأريخ مصر القديمة إذ تشير إلى تبدّل مركز الفرعون. فبعد أن كان الفرعون الإله العظيم صار الإله الشمس مركز الكون، ويمكن الوقوف على هذا التبدّل بمقارنة حجوم الأهرام مع سعة «قوارب الشمس» التي كانت تحفر بالقرب من الهرم لاستعمال الفرعون المتوفى في سفره مع الإله الشمس. فقد كانت هذه صغيرة الحجم يطغى عليها حجم الهرم في عهد السلالة الرابعة ولكن بدأ الوضع ينعكس منذ السلالة الخامسة. وكذلك صار يبالغ في حجم المسلات الخاصة بالإله «رع» بالنسبة إلى حجم الهرم الخاص بالفرعون. وقد بنى «يوسر كاف» له هرماً في «أبو صير» كما فعل ذلك بعض الملوك الآخرين من هذه السلالة وإلى ذلك بنى كل منهم معبداً خاصاً للإله الشمس «رع»[1]. ومما يقال في الحضارة المصرية في عهد هذه السلالة أنها لم تكن لتمتاز عمّا كانت عليه في عهد السلالة الرابعة باستثناء ما ذكرنا من التبدّل الديني في بروز أهمية عبادة الإله «رع» وكذلك بداية تضاؤل سلطة الفرعون السياسية. ومن ناحية الفن سارت السلالة الخامسة على مآثر السلالة السابقة ووصل الفن إلى ذروته. وقد اشتهرت السلالة الخامسة بمقابر ملوكها الهرمية في أبو صير جنوب الجيزة،

---

(1) أبرز شيء في هذه المعابد الشمسية «المسلات» (Obelisk) حيث تقام مسلة قائمة وحدها فوق دكة تشبه المصطبة، وقد خصصت كهانة هذه المعابد إلى طبقة خاصة من الشرفاء والنبلاء. وأحسن نماذج ممثلة لمثل هذه المعابد مما بقي محفوظاً المعبد الموجود في الموضع المعروف باسم «أبو غراب» بين الجيزة وأبو صير وهو المعبد الذي بناه الفرعون نيسور ـ رع.

ولكن لا يمكن مقارنة حجومها ولا جودة بنائها بأهرام ملوك السلالة الرابعة، واشتهرت من أهرام السلالة الخامسة ثلاثة أهرام خُصِّصت لقبور الملوك الثلاثة وهم «سحو رع» و«نفير يركا رع» و«نيسور ـ رع»، وقد أمدتنا المعابد المخصصة لعبادة الفرعون الملحقة بهذه الأهرام بنتائج مهمة عن الحضارة المصرية وفنها في عهد المملكة القديمة، ولا سيما المنحوتات البارزة في جدران هذه المعابد التي تعدّ أقدم منحوتات بارزة في تأريخ الفن المصري القديم، وقد سجلت لنا هذه المنحوتات حوادث مهمة في حياة هؤلاء الفراعنة[1]. وكان «أوناس» أو «أونيس» آخر ملوك السلالة الخامسة، وقد اشتهر بنائه هرماً له في صقارة وقد كان أول من أوجد عادة نقش الجدران الداخلية للقبر بكتابات دينية، وقد نقلت مثل هذه الصور في أهرام السلالة السادسة، وهي عبارة عن مجموعة من الأدعية والتعاويذ السحرية والرقى لجلب السعادة والسلامة لروح الفرعون في العالم الثاني، وقد صارت هذه أساس ما يعرف في تأريخ مصر بأسم «كتاب الأموات»، وتوقفنا تلك «النصوص الهرمية» ومنحوتات المعابد الملحقة بالأهرام أيضاً على أشياء مهمة عن الحياة المصرية القديمة ومن ذلك الحياة الدينية والآلهة المعبودة حيث نجد معظم آلهة مصر قد عُبدت في ذلك العهد.

السلالة السادسة:

وأعقب «أوناس» الملك «تيتي» أو «تيتا» مؤسس السلالة السادسة التي كان أصل ملوكها من «منفس»، وقد بنى له قبراً هرمياً في صقارة وزود جدران حجراته الداخلية بالنصوص السحرية من التعاويذ والرقى، وكذلك أتبع هذه العادة ملوك السلالة السادسة الذين أعقبوه، وأشهر هؤلاء وأعظمهم بيبي الأول (مري ـ رع) لما قام به من أعمال وإنجازات كبيرة كاستغلاله لمورد حجر

---

(1) يوجد وصف موجز لنتائج التنقيبات التي قام بها الألمان في المرجع السهل الآتي:

H.R. Hall, The Ancient History of the Near East (1936), 131.

«الغرانيت» في أسوان وتثبيت سلطانه في سيناء، وازدهرت في عهده التجارة والصناعة بتشجيعه، كما أنه أرسل حملة حربية لإخضاع القبائل القاطنة في الصحراء الشرقية. وخلفه في الحكم أحد أبنائه ثم ابنه الثاني «بيبي» الثاني «نفير ـ كا ـ رع» المشهور بطول حكمه حيث يروي هيرودوتس أنه حكم زهاء (90) عاماً إذ حكم وهو في سن السادسة ومات وعمره زهاء القرن الواحد، وبمماته في حدود عام 2180 ق.م. انتهت السلالة السادسة فكانت نهاية العهد الذي سميناه بعهد المملكة القديمة وعصر الأهرام، وبدأ عهد من الفوضى السياسية سنوجز أهم ما فيه في موضع آخر. ومع أن «بيبي» كان من أعاظم هذا العهد وكانت مصر في عهده في ازدهار ظاهر من جرّاء نشاط هذا العاهل إلا أن عوامل أخرى كانت تفعل فعلها في انهيار البناء السياسي للمملكة القديمة. ولكي نكشف بعض هذه العوامل نوجز ما سبق أن نوّهنا به عن الأسس التي قامت عليها المملكة القديمة. فكانت هذه المملكة تقوم على سلطة ملك مطلق السلطان كان هو الدولة، أما أعيان المملكة ونبلاؤها فلم يكونوا سوى حاشية الملك وخدامه في البلاط حيث كانوا يعيشون حواليه وإذا ماتوا دفنوا قربه لينالوا حظوة السعادة في العالم الآخر باستمرارهم في خدمة سيدهم أو «الملك الإله» في ذلك العالم. وكان هذا الملك الإله يملك مصر وما فيها، وإذا تعذّرت عليه إدارة أملاكه جميعها بنفسه فإنه كان يعين في إدارة أقاليم المملكة وكلاء عنه يديرون أملاكه له ويجبون له غلاتها، كما تدل على ذلك أسماء الموظفين الذين كان يعينهم الفرعون مثل لقب «حامل أختام الملك» و«ناظر أشغال الملك» و«مدير أملاك القصر» إلى غير ذلك من عناوين الموظفين في عهد المملكة القديمة. وكذلك يقال بالنسبة إلى ولاة الأقاليم الذين لم تكن وظائفهم وراثية إقطاعية على ما يرجّح. هذا وقد سبق أن ألمحنا إلى ظهور عناصر أخرى من المجتمع نازعت سلطة الملك الإله، وهم طبقة كهنة الإله «رع» في هليوبوليس، والذي لا مراء فيه أن عادة بناء الأهرام الهائلة منذ السلالة الرابعة قد عملت أيضاً على تضاؤل سلطان الفرعون وانتقال السلطة المركزية إلى اللامركزية في ولاة الأقاليم، فإن هذه المشاريع غير

الاقتصادية التي لا تدر على المملكة بشيء وتخصيص واردات هائلة لبنائها والوقف عليها لعبادة الفرعون المتوفى، كل ذلك عمل على استنزاف موارد الدولة وصرف الثروة التي حصل عليها المصريون القدماء من استغلالهم لبيئتهم الطبيعية والسيطرة على مواردها منذ السلالات السابقة لعصر الأهرام، ولكن بذرت هذه الموارد والقابليات الفنية على مشاريع غير مدرة. ومما لا شك فيه أن يكون النبلاء أول من شعر بوطأة هذه الأعباء الفادحة، وإذا كانوا في عهود السلالات القوية عالة على الملك في عيشهم إلا أنهم أخذوا يستقلون بالتدريج في كفاءتهم الاقتصادية واستقلالهم الذاتي، وإذا كان الاحتياطي من الثروة القومية قد بذره ملوك عصر الأهرام فإنهم إلى ذلك لم يوجدوا مورداً مدراً آخر، وإذا أضفنا إلى ذلك تناقص موارد التجارة الخارجية[1] أدركنا أسباب انهيار البناء السياسي للمملكة القديمة. ويتجلى ذلك في تبدل علاقة النبلاء في أواخر هذا العهد مع الفراعنة، فبدلاً من عيش هؤلاء في بلاط الفرعون وخدمتهم له، وبدلاً من اتخاذ مقابرهم قرب أهرام أسيادهم، استقلّ معظمهم في إقطاعياتهم وبنوا لهم قبوراً خاصة في أملاكهم، فكانت ما دعوناه في تأريخ مصر بأسم الفترة المظلمة الأولى التي سنلخص أحوالها السياسية فيما بعد.

وعلى ذكر التجارة ننوّه بأمر مهم عن واسطة التعامل التجاري في عهد المملكة القديمة، فقد كان النشاط التجاري والمعاملات التجارية المختلفة تتم بالدرجة الأولى بطريق المقايضة العينية، واستعملت المعادن أيضاً بهيئة قطع

(1) كانت تجارة مصر الخارجية في هذه العهد متمركزة في وادي النيل بالدرجة الأولى وفي ليبيا والسودان وطور سيناء لاستغلال مناجم النحاس. وكثيراً ما كانوا يرسلون البعوث الحربية ولكن كانت لغرض التجارة ولم تكن لغرض الضمّ السياسي. أما في بلاد الشام فكانت تجارة مصر ونفوذها السياسي محصورين في الساحل اللبناني، وكانت جبيل المستعمرة التجارية الوحيدة، ولعل جماعة من التجار المصريين كانت تقيم هناك كما يدل على ذلك وجود معبد مصري فيها. وباستثناء هذا الموضع اللبناني لم يتغلغل النفوذ السياسي والتجاري والثقافي في بلاد الشام كما صار عليه في عهد المملكة الوسطى وأكثر من ذلك في عهد الأمبراطورية.

ذات وزن معين واسطة للتعامل، أما النقود المسكوكة فلم تعرف في مصر إلّا في العهود المتأخرة جداً (منذ عهد البطالسة). وقد كانت الحكومة الفرعونية تقوم بإحصاء مالي سنوي أو نصف سنوي أي إحصاء رسمي للأراضي والماشية والحبوب والمعادن الثمينة وأنواع الأموال الأخرى وعلى أساس هذه التقديرات كان يجرى دفع الضرائب عيناً إلى البلاط الفرعوني.

الأهرام:

نتوقف قليلاً عن تتبّع أحوال المملكة المصرية في الفترة المظلمة التي أعقبت عصر الأهرام لتذكر بعض الأشياء الموجزة عن هذه الأهرام التي اشتهرت بها حضارة مصر وتخلّدت بها بين الحضارات القديمة وكانت من العوامل المهمة التي عملت على انهيار المملكة المهمة. لقد اتّضح لنا من تعريف عصر الأهرام أن الأهرام كانت قبوراً للملوك المصريين من ذلك العصر، وأشهر هذه الأهرام أهرام السلالة الرابعة الواقعة في الجيزة في ضفة النيل الغربية بنحو خمسة أميال من النهر حيث الهرمان العظيمان، هرم خوفو وخفرع (جنوب غربي القاهرة بأميال قليلة وقرب العاصمة منفس)، وتلي هذه الأهرام في الحجم وجودة البناء وضخامته أهرام السلالة الخامسة التي يقع بعضها في موضع أبو صير وبعضها في صقارة حيث توجد أهرام السلالة السادسة. وتوجد مجموعات أخرى من الأهرام الصغيرة من عصر الأهرام كانت قبوراً للأمراء والنبلاء التابعين للفرعون. أما الأهرام من العصور الأخرى فهي وإن استمرّت في أشكالها إلّا أنها فقدت وظيفتها وصارت كما قلنا رموزاً أو شواهد قبور تُبنى قرب معبد القبر.

وكان الدافع لتشييد هذه الأبنية الضخمة اعتقاد المصريين القدماء بوجود حياة أخرى بعد الموت ولا سيما رجوع الروح إلى الجسم ولكن كان ذلك يتوقف على بقاء الجسم سالماً في القبر غير معبوث به، ولذلك بالغ فراعنة عصر الأهرام في ذلك، وبالنظر إلى ثرواتهم الطائلة فقد بنوا هذه الأبنية التذكارية الهائلة حيث أخفوا تحتها أجسادهم المحنّطة ومعها الأثاث الفاخر

والحلي النفيسة وألحقوا بها المعابد الفخمة لعبادة الفرعون المتوفى وتقديم القرابين له. ولنصف الآن هرماً أنموذجياً من أهرام الجيزة حيث الهرم الأكبر لخوفو وهرم الفرعون خفرع وهرم منكورع أشهر ملوك السلالة الرابعة. فالهرم بناء صلد من الحجر مربع القاعدة هرمي الشكل، مشيَّد من الحجارة الضخمة. وكانت في مصر قبل زمن خوفو أنواع من الأهرام تختلف عن الهرم الصحيح الذي ظهر منذ عهد السلالة الرابعة، فكانت الأهرام المدرجة والمعوجة، ولكن الملك خوفو بن «سنفرع» بدأ ببناء أول هرم صحيح وأعظم هرم اشتهرت به مصر، ولعله تأثر بالأهرام التي شيّدها أبوه في «ميدوم» و«دهشور». فآختار نجداً يقع في حافة الصحراء يبعد بنحو خمسة أميال غربي الجيزة وشيّد فيها هرمه الأكبر، وأتبعه من بعد ذلك ملكان وهما خفرع ومنكورع فبنيا هرميهما إلى الجنوب من هرم خوفو بقليل. لقد بني الهرم الأكبر بالحجارة الضخمة حيث تزن الحجرة الواحدة معدل الطنين ونصف الطن، وقدرت الحجارة بنحو 2,300,000 حجرة ويبلغ طول ضلع قاعدته 755 قدماً[1] وارتفاعه نحو 500 قدم، ويشغل مساحة من الأرض تبلغ نحو (12,5) إيكرا. وقد تفنّن الكتّاب والعلماء الذين زاروا الهرم من مختلف العصور في تقدير كمية الحجارة المستعملة في بناء الهرم الأكبر، فحسب بعضهم حساباً طريفاً هو أنه لو قطعت الحجارة المشيّد بها هذا الهرم وجعلت بحجم قدم مكعب ووضعت جنباً إلى جنب لامتدت مسافة تبلغ ثلثي محيط الأرض في خط الاستواء، ونسب تقدير مماثل إلى نابليون في أثناء حملته الشهيرة على مصر إذ يروى أنه قال لبعض قواده الذين تسلقوا الهرم (ولم

---

(1) بموجب القياسات الحديثة التي قامت بها مصلحة المساحة المصرية (Survey of Egypt, Paper, No. 39, 1952).

تبلغ أضلاع القاعدة الأصلية بصورة مضبوطة الأبعاد الآتية:

ـ الجانب الشمالي 755,43 قدماً، والجانب الجنوبي 756,08 قدماً والجانب الشرقي 755,88 قدماً والجانب الغربي 755,77 قدماً. وتتجه هذه الأضلاع إلى الجهات الأربع الأصلية اتجاهاً صحيحاً والخطأ فيها ضئيل جداً.

يتسلقه هو) بعد نزولهم أنه حسب أن أحجار الأهرام الثلاثة لتكفي لبناء جدار علوه (10) عشرة أقدام وثخنه قدم واحد، يحيط بجميع فرنسا، ويروى أيضاً أن العلماء الرياضيين الذين صحبوا الحملة قد أقرّوه على حسابه[1]. ويمكننا عدّ الأهرام، ولا سيما الهرم الأكبر، أكثر الأبنية القديمة التي كثر قياسها ودرسها منذ حملة نابليون إلى التحريات الأثرية الحديثة. ومع أن الهرم الأكبر يبدو لو نظر إليه المرء من بعيد سالماً إلا أنه بالفحص القريب يظهر أنه قاسى كثيراً من قالعي الأحجار من مختلف العصور، فقد أزيلت جملة مسافات من قمته كما حدثت بعض التخريبات في جوانبه، ويوجد ثقب كبير في الوجه الشمالي أسفل الهرم.

أجزاء الهرم:

يتألف الهرم بصفته لحداً للفرعون المتوفى من جملة أجزاء عمارية بعضها مخفية تحت الهرم وفي باطنه وبعضها على هيئة معابد متصلة به لعبادة الفرعون وإقامة الشعائر الخاصة بذلك. ولنصف هذه الأجزاء المختلفة بإيجاز. ففي الجانب الشرقي من الهرم بُني معبد مهيب فخم زُيِّن بالمنحوتات والنقوش وصفوف العمد المزخرفة البديعة (انظر الصورة آخر الفصل) وهذا هو المعبد الذي شيّد لعبادة «الملك الإله» بعد مماته ولتقديم ما يحتاج إليه من القرابين[2]. ويوجد في جهة الشمال والجنوب من هذا المعبد حفرتان كبيرتان محفورتان في الأرض الحجرية كما وجدت آثار حفرة أخرى قرب المعبد، وجعلت هذه الحفر على هيئة سفن ولعلها كانت مبطنة ومسقفة بالخشب الذي بلي ولم يبق منه شيء، والغرض من هذه السفن الرمزية أن الفرعون الميت يستعملها في سفرته في العالم الثاني في مرافقته للإله الشمس في رحلته اليومية

(1) انظر: Edward, The Pyramids (1947), 86.

(2) ويُسمّى هذا المعبد في الكتب الحديثة باسم «المعبد الجنائزي» (Mortuary Temple).

في السماء[1]، كما أن هناك اعتقاداً آخر لحاجة هذه السفن في حج الملك المتوفى إلى مقام أوسيريس المقدس في أبو صير.

ولما كان الهرم والمعبد المشيّد لصقه قد بنيا في النجد بعيدين عن المدينة الملكية الواقعة في الوادي إلى الشرق من الهرم لذلك وصلوا بين الهرم ومعبده وبين جوار المدينة الملكية برواق (Couseway) أو ممر مهيب طويل بُني من الحجارة، وبنوا في نهاية هذا الممر قرب المدينة الملكية معبداً آخر يجدر أن نسميه باسم «معبد الوادي» (انظر الصورة آخر الفصل) وكان هذا المعبد أيضاً ضخماً جميلاً شيّد من حجر الغرانيت. وقد شيّد أيضاً لعبادة الملك الملحود، وزيّن بتماثيل نفيسة ضخمة.

ويصف هيرودوتس «الممر» بأنه كان مشيّداً من الحجر الصقيل المنحوت بمنحوتات مختلفة. وقد شكّ الباحثون في صحة هذا القول إلا أن التحريات الحديثة أثبتت وجود آثار من هذه المنحوتات[2] وكانت بعض هذه الممرات مسقفة. وبإمكان الزائر لأهرام الجيزة الآن أن يشاهد في جانب «معبد الوادي» العائد إلى هرم الملك «خفرع» تمثالاً ضخماً يمثل خفرع نفسه هو «أبو الهول» الشهير الذي يمثل الملك بجسم أسد رابض ورأس إنسان هو رأس «خفرع» نفسه. ويعدّ أبو الهول نفسه أضخم تمثال صنعته يد الإنسان القديم، فإن علوّ رأسه وحده يبلغ (65) قدماً وطول جسمه حوالي 187 قدماً وعرض وجهه 14 قدماً وعلى رأسه اللباس الملكي الرسمي كما توجد في ناصيته شارات ملكية أخرى. ومع أن وجه أبي الهول «مشوه»[3] إلا أنه لا يزال يشبه وجه خفرع شبهاً كبيراً بالقياس إلى تمثيله في المنحوتات الأخرى. ويشاهد الزائر الآن بين الكفين الأماميين صفيحة من الحجر كبيرة منقوشة بكتابة هيروغليفية فيها سجل طريف لحلم رآه الفرعون طوطمس الرابع من السلالة الثامنة عشرة فيذكر النقش

---

(1) يُشار إلى الاكتشاف الجديد الذي عثر عليه في منطقة الأهرام لسفينة الشمس في عام 1954.

(2) Edwards, Op. Cit., 102.

(3) وقد حدث هذا التشويه من جرّاء كسر أنفه ولحيته بطلقة مدفع في عهد المماليك.

أن الملك لما كان أميراً قبل اعتلائه العرش كان في رحلة صيد فمرّ عند أبي الهول واستراح في ظله في الظهيرة، فظهر له أبو الهول في الحلم (وكانوا يعدون أبا الهول تجسيداً للإله الشمس في زمن طوطمس) ووعده بإعطائه تاجي مصر إذا هو أزاح عنه الرمال التي كانت تغطي جسمه. ومما يؤسف له أن نهاية النقش الكتابي مخرومة مُزالة، ولكن باستطاعتنا أن نحزر أن رغبة الإله «أبي الهول» قد حققها الملك كما أنه جازى الأمير بإعطائه تاجي مصر. ولعل طوطمس أصلح أيضاً من شأن التمثال، ولا تزال صيانته والمحافظة عليه مستمرتين في العصر الحاضر.

ومن أجزاء الهرم المهمة القسم المخصص لجثمان الملك تحت الهرم. وإذا كان ليس في وسعنا وصف الأروقة والممرات المشيّدة داخل الهرم وصفاً مفصلاً فإننا نكتفي بالقول بأن العادة كانت أنهم يتركون مدخلاً إلى هذه الأبنية الداخلية في أحد أوجه الهرم، ففي هرم خوفو مثلاً يكون المدخل في الوجه الشمالي بارتفاع 55 قدماً عن مستوى الأرض وينحدر من المدخل رواق عرضه ثلاث أقدام وخمسة إنجات وينحدر في بطن الهرم ثم يخترق الأرض الحجرية وبعد مسافة نحو 345 قدماً من المدخل يستمر الرواق أفقياً ثم ينتهي بمجموعة من الحجرات والدهاليز، وقد خصصوا إحدى هذه الحجرات لتضم تابوت الملك المدفون وخصّص بعضها لإيداع أثاثه[1] ومن الملاحظات المهمة عن مجموعة الأهرام في الجيزة أن أحسن نموذج للهرم المصري بكامل أجزائه التي وصفناها هو هرم «خفرع» حيث بقيت معظم أجزائه سالمة مثل المعبد المبني لصق الهرم والممر ومعبد الوادي. ولأن هذا الهرم مرتفع عن الأرض أكثر من هرم «خوفو» فيبدو أعلى منه، ولكن الواقع أنه أوطأ منه بحاله الحاضرة بنحو ثلاث أقدام (ارتفاعه الحالي 447,5 قدماً)، ويشغل مساحة قدرها 690 قدماً مربعاً،

---

(1) حول إيجاز وصف هذه الأبنية الداخلية انظر المرجع السهل الآتي:

Edwards, The Pyramids of Egypts (1947).

ويختلف في ترتيب أروقته وحجراته الداخلية عن الهرم الأكبر. ويقرب هذا الهرم الهرم الثالث من أهرام الجيزة العائد إلى «منكورع» الذي يشغل مساحة أقل من نصف مساحة الهرم الأكبر وعلوّه الآن زهاء 204 أقدام (وعلوه الأصلي نحو 218 قدماً) وتوجد قربه (إلى الجنوب منه) ثلاثة أهرام صغيرة غير كاملة لا يعلم أصحابها بوجه التأكيد.

ملاحظة عن بناء الأهرام وتطورها:

1 ـ لقد أشرنا فيما سبق إلى أن الأهرام نشأت من العقائد المصرية القديمة فيما بعد الموت التي جعلت المصريين القدماء يهتمون بالموت وبالقبور الخاصة بهم منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ أكثر من اهتمامهم ببيوت السكنى، حتى أن معظم الآثار النفيسة التي تزيِّن المتاحف العالمية الآن مصدرها من القبور بالدرجة الأولى، لأن القبور هي التي بقيت سالمة وقد زوّدتنا بنماذج منها خلال ثلاثة آلاف عام عدا الأهرام، في حين أنه لم يسلم من بيوت السكنى سوى القليل. وإن عواصم شهيرة معظمة قد اختفت تقريباً ولم تترك لها سوى آثار ضئيلة، ولم يبق من قصور الفراعنة الذين شادوا الأهرام أثر ما، بحيث إننا لا نعرف هل بُنيت في منفس أو في مواضع قريبة من الأهرام، والسبب في ذلك أنهم لم يهتموا في مادة بنائها مثل اختيار مادة بناء قبورهم، فكلها شيّدت باللبن والخشب. وقد يبدو غريباً متناقضاً أن قطراً غنياً بالحجارة مثل مصر قد عاش حكّامه في أبنية مشيدة بمادة فقيرة دون المادة المتينة التي استعملوها في قبورهم الهرمية وغير الهرمية. ويزول استغرابنا هذا لو نحن وقفنا على وجهة نظر المصريين القدماء. فقد كان الغرض من بناء بيت السكنى أو القصر أن يدوم عدداً محدوداً من السنين ومن الممكن تجديد بنائه أو إقامة بناء آخر بدله، ولكن كان الغرض من القبر الذي سموه بالحصن أو بالبيت الأبدي أن يدوم إلى الأبد. والعادة أن بناء القبر الخاص بالشخص كان يتم وهو على قيد الحياة، وكانوا في حالة موته قبل إكمال قبره يختصرون في

مخططه لسرعة إتمامه، وكان المصريون يخصصون من أموالهم قدراً مهماً لشؤون ما بعد الموت.

2 ـ ولما كنا سنذكر عقائد ما بعد الموت عند المصريين في بحث خاص بحضارة وادي النيل فإننا نكتفي هنا بذكر إيجاز هذه العقائد مما يوضّح الموضوع الذي بين أيدينا. فبأستثناء الملك الإله الذي يكون بعد الموت بصحبة الآلهة ويتخلّد في السماء مع الإله «رع» فإن البشر العاديين لم يكن بمستطاعهم أن يصيروا إلى هذا المصير السعيد. فكان اعتقاد المصريين في البشر أن الإنسان مكوّن من عنصرين متميزين من جسم وروح، وإذا ما مات الشخص ظل جسمه في القبر أما روحه فتأخذ وجوداً مستقلاً، ولكن يعتمد هذا الوجود المستقل على المحافظة على الجسم المادي سالماً، ومن هنا منشأ العناية الفائقة بالمحافظة على الجسم ونشوء التحنيط، أي العناية الشديدة بحفظ الجسم في قبور محكمة تمنع العبث بالجسم والمحافظة على هذا الجسم من البلى بالتحنيط.

وعلى ضوء هذه العقائد التي أوجزناها نستطيع أن ندرك الغرض وراء الأهرام بصفتها قبوراً خاصة ونفهم أيضاً العناية ببناء أنواع القبور الملكية الأخرى.

3 ـ كان سكان وادي النيل في عصور ما قبل السلالات (ما قبل التأريخ) يدفنون موتاهم في حفر مستطيلة أو بيضوية تُحفر في الأراضي الجافة، في الرمال، ويصنعون مع الميت ما يحتاج إليه الجسم، ويخفون القبر بدفنه، ولكن هذه الطريقة غير مضمونة للمحافظة على الجسم، وبعد تمكّن معتقدات ما بعد الموت منذ بداية عهد السلالات تلافى الأمراء الحاكمون والنبلاء هذا الخطر، أي خطر تلف أجسامهم وتخريب قبورهم ونبشها بأن بنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهراً فوق الأرض مبنياً من اللبن مما يُعرف في تأريخ آثار مصر باسم «المصطبة» التي تخفي تحتها حفرة الدفن المستطيلة المسقفة والمقسمة بفواطع إلى عدّة أجزاء يودع في أحدها الجسم وهو موضوع في تابوت من

الخشب وتوضع في الأجزاء الأخرى الحاجيات الخاصة بالملك أو الأمير. أما المصطبة الظاهرة فوق هذه الحفرة فكان يُبنى في داخلها جملة حجرات لخزن جرار الخمر وأواني الطعام واللوازم الأخرى، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المصاطب كانت تزين من الخارج بطراز من العمارة يضاهي الأطرزة العمارية في حضارة وادي الرافدين مما يعرف «بالطلعات» و«الدخلات» (Buttresses Gerecesses)، وهذه هي أنواع القبور الملكية التي وجدت من عهد السلالة الأولى.

4 ـ وحدث تطور آخر في مثل هذه القبور «المصطبية» في قبور حكام السلالتين الثانية والثالثة. فمع أن شكل القبر الخارجي بقي على هيئة المصطبة إلا أن بناء المصطبة صار صلداً غير مجوّف أي ليس فيه حجرات داخل المصطبة كما في قبور السلالة الأولى، وإنما صاروا يملؤون داخل المصطبة باللبن (الآجر) ولكنهم وسعوا من مرافق الحفرة التحتية بحيث أصبحت مكوّنة من صالة وعدة حجرات وصار يخزن فيها الأشياء اللازمة، وكانت هذه الحجرات الداخلية تحفر في الأرض الحجرية، وتتّصل بالخارج (بسطح الأرض) بمنحدر عمودي مكوّن من سلالم ويسدّ موضع الاتصال بصفيحة ثقيلة من الحجر كما كانوا يعملون على إخفاء المدخل. وظلت مثل هذه القبور المصطبية في الاستعمال مع بعض التحسينات في عهد السلالة الرابعة والخامسة والسادسة تُستعمل للنبلاء والأشراف وذوي اليسار. أما الفراعنة فقد ابتنوا الأهرام كما سبق أن عرفنا. وأدخلت في القبور أشياء جديدة منها دفن تمثال يمثل الميت مع تماثيل أسرته وكتابتها بأسمائهم، كما أنهم صاروا يزينون جدران الحجر الداخلية المخصصة لوضع القرابين والأثاث بمنحوتات بارزة وبنقوش عرفتنا بحياة المدفونين اليومية وبأهم النواحي في حضارة مصر القديمة.

5 ـ وحصل تطور مهم آخر في فنّ بناء القبور قبل ظهور الهرم الصحيح في عهد السلالة الرابعة، وذلك هو ظهور ما يُعرف بالهرم المدرج

(Step Pyromid) في عهد السلالة الثالثة، وهو عبارة عن هرم مؤلف من عدة طبقات أو مصاطب قد يرتفع إلى ست طبقات غير متساوية الارتفاع ويشبه الزقورة (الصرح المدرج) في شكله الظاهري، وكانت هذه الطبقات المؤلفة للهرم المدرج تقوم فوق حفرة الدفن المكونة أيضاً في داخل الأرض من عدة أجزاء. وكان أول من شيّد مثل هذه الأهرام الملك «زوسر» من السلالة الثالثة وتنسب المآثر بناءه إلى معمار شهير اسمه «امحوتب» كما ألمحنا إلى ذلك من قبل، وقد شيّده في موضع مرتفع من الأرض في صقارة يطل على «منفس» ويشغل مساحة (597) ياردة من الشمال إلى الجنوب و(304) ياردات من الشرق إلى الغرب، ويتألف من ست طبقات وارتفاعه 204 أقدام وقاعدته 411 قدماً (من الشرق إلى الغرب) و358 قدماً (من الشمال إلى الجنوب) وأُلحق بالهرم أيضاً معبد خارجي في الجانب الجنوبي منه، وكان يحيط به سور ارتفاعه نحو 33 قدماً ومحيطه نحو ميل واحد[1]. ويُعدّ الهرم المدرج الذي استعمل فيه الحجر لأول مرّة، من أهم المآثر البنائية التي شادها المصريون القدماء، حتى أن معمار هرم «زوسر» قد أُله، على ما بيّنّا، كما أن طريقة هذه العمارة لا سابقة لها في تاريخ مصر.

6 ـ قبل أن يشيد ملوك مصر الهرم الصحيح في عهد «خوفو»، في زمن السلالة الرابعة بُنيت في مصر ما لا يقل عن أربعة قبور هرمية بالإضافة إلى هرم «زوسر» المدرج الذي وصفناه، اثنان منهما يقعان في الموضع المعروف بزاوية العريان، ومع أن شكلهما غير واضح تماماً إلا أن المرجّح أن يكونا من نوع الهرم المدرج، وبني الثالث في الموضع المعروف باسم «دهشور»، وهذا أيضاً غير واضح، ولكن المرجح كثير أنه نوع جديد من الأهرام دعي بعدئذٍ باسم الهرم المعوج (Bent Pyromid) أو الهرم المزيّف أو المثلوم حيث يبدو

---

(1) يرجح كثيراً أن «زوسر» قد دفن داخل هرمه المدرج، ولكنه مع ذلك ابتنى له قبراً آخر قريباً من الهرم. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن غير واحد من ملوك المصريين القدماء قد جرى على بناء أكثر من قبر واحد لإخفاء محل الدفن الحقيقي.

معوجاً مائلاً إلى الداخل بهيئة فجائية بدلاً من أن يستمر في الارتفاع إلى أن يصل إلى علوّه المحسوب ويكون هرماً صحيحاً. وليس هناك من تفسير واضح لهذه الظاهرة، إلا أنه ارتأى غير واحد من الباحثين أن هذا الاعوجاج إنما نشأ من اختصار ارتفاعه بعد بداية بنائه وبلوغه فوق منتصف ارتفاعه بقليل، فاضطرّ بناؤه إلى اختصار ارتفاعه بإمالته إمالة فجائية إلى الداخل بدلاً من تدرجه في الارتفاع، ذلك التدرج الذي لو ساروا فيه إلى النهاية لنتج عندهم هرم صحيح. ويعتبر الهرم المعوج في أجزائه ومرافقه المختلفة أصل الأهرام الصحيحة من حيث احتوائها على الهرم نفسه القائم في داخل سور وعلى المعبد المبنى لصق الهرم ومعبد الوادي والممر، والدهاليز والأروقة والحجرات داخل الهرم.

وعلى ضوء هذا الاستعراض الموجز لأنواع القبور التي ظهرت في مصر منذ عصور ما قبل التاريخ يتضح لنا أن المراحل السابقة لبناء الأهرام يمكننا إيجازها على الوجه الآتي: (1) قبور المصاطب بكلا نوعيها (قبور ملوك السلالات الثلاث الأولى) (2) قبور الأهرام المدرجة (منذ السلالة الثالثة) (3) قبور الأهرام المموجة (السلالة الثالثة) (4) قبور الأهرام الصحيحة (أهرام السلالات الرابعة والخامسة والسادسة). وإتماماً للفائدة نقول إن قبور الملوك مما بعد عصر الأهرام لم تعد أهراماً على الرغم من أن بعض ملوكهم بنوا الأهرام قرب مقابرهم بصورة مصغرة رمزية، كما في أهرام السلالة الثانية عشرة المشيدة في «اللشت». ونشأت عادة طريقة جديدة في بناء القبور الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة، حيث اعتاد ملوكها على إقامة أهرام رمزية قرب مقامات (قبر خال Centaph) ولكن القبر الحقيقي كانوا يقيمونه في موضع آخر كما فعل أحموسة مؤسس تلك السلالة. وكفّ الملوك الآخرون من هذه السلالة عن أتباع هذه العادة تجنباً للعبث بقبورهم، فشيّدوا المعابد الخاصة بقبورهم في وادي النيل، ثم كانوا ينتخبون المرتفعات الحجرية الغربية لحفر حفر قبورهم لكي يبقى موضع القبر الحقيقي سرّاً لا يعرفه غير من بناه، أي عدد قليل من الموظفين الرسميين وأفراد الأسرة الملكية، وبهذا الوجه تكوّنت مقبرة ملكية مهمة في الموضع الذي صار يُعرف باسم «وادي الملوك»، وهو

واد يوازي ويحاذي النيل خلف «الدير البحري». ويصف لنا المعمار الذي شيّد أول نوع من هذه القبور سرية موضع القبر بقوله: «لقد أشرفت على حفر قبر جلالته (ويقصد قبر طوطمس الأول) وحدي فلم ير أحد ولم يسمع أحد». ولكن لم يكن ليدور بخلد طوطمس الأول ولا بخلد معماره الذي أشرف على الحفر أن الوادي المنعزل الذي اختاراه قد صار فيما بعد مقبرة عامة للفراعنة طوال أجيال كثيرة، فانكشف سرها ووقعت فيها السرقات، ولم يسلم من بين نحو ستين قبراً ملكياً في ذلك الوادي إلّا قبر «توت عنخ أمون» الشهير الذي أدهش العالم الحديث بما احتواه من كنوز، وقد كان سبب ذلك من صدفة حسنة ذلك أن رعمسيس السادس حفر قبره في المنحدر الجبلي فوق حفرة قبر «توت عنخ أمون» مباشرة مما جعل مدخل قبره ينسد بأنقاض الحجارة المتساقطة من القبر الذي فوقه.

كيفية بناء الأهرام:

7 ـ أما عن كيفية بناء الأهرام فلا يوجد من بين سجلات مصر وآثارها الكتابية ما يكشف لنا عن الأساليب التي اتبعها قدماء المصريين في بناء أهرامهم، ولكن فحص هذه البنايات وتحريها في الأزمان الحديثة ومعرفتنا بالمستوى الذي بلغته حضارة وادي النيل في الأساليب الفنية الصناعية مكّنت الباحثين المحدثين من معرفة الأصول الأساسية في ذلك، وإذا كان خارج موضوع مثل هذا الكتاب المدرسي الدخول في التفاصيل الفنية المعمارية[1] فإننا نوجز بعض الأمور العامة المفيدة:

---

(1) نحيل القارىء الذي يريد الوقوف على مثل هذه التفاصيل إلى مرجع سهل استشهدنا به هو:
(Edwards, The Pyramids of Egypt).
والمراجع الموسعة الآتية:
(1) Flinders Petrie, The Pyramids and Temples of Gizeh.
(2) Vyse G. Perring, The Pyramids of Gizeh (3 vols.).

أ ـ ومن ذلك انتخاب الموضع الصالح للهرم، كوجوب كونه غرب النهر (أي في جهة مغرب الشمس)، ولزوم كونه فوق النهر ولكن غير بعيد عن ضفته الغربية، كما يلزم أن تكون طبقات الحجارة الأرضية خالية من العيوب، قوية لا تنهار تحت ثقل الهرم. ويلزم أيضاً أن يكون غير بعيد عن موضع المدينة الملكية (العاصمة) ولعله قريباً من قصر الملك أيضاً الذي يرجّح أنه كان يشيد خارج العاصمة، فنجد مثلاً أن مواضع الأهرام التي اختارها فراعنة المملكة القديمة (صقارة وأبو صير) تقع قريباً من العاصمة منفس إلى مدى الرؤية تقريباً، ويقع موضع «دهشور» بنحو خمسة أميال إلى الجنوب. وكان موضع الهرم قرب النهر أمراً مهماً بالنظر إلى الحاجة إلى نقل الكميات الكبيرة من الحجارة.

ب ـ وبعد أن يتمّ اختيار الموضع الصالح يبدأ المعمارون بتهيئته كإزالة الطبقة الثخينة من الرمال والحصى لكي يكون الهرم قائماً على أسس متينة من الأرض الحجرية الصلدة، ثم يسوون الأرض، وقد أبدع بناة الأهرام في عملية التسوية (levelling) بحيث إن أرضية الهرم الأكبر ليس فيها من خطأ بالنسبة إلى المستوى الأفقي إلّا بنحو 0,5 «انج»[1].

ج ـ ثم تأتي عملية تربيع القاعدة وجعلها مربعاً صحيحاً ذا زوايا قائمة مضبوطة، وبحيث يكون كل ضلع من أضلاع القاعدة باتجاه جهة من الجهات الأربع الأصلية. وكانت النتيجة مضبوطة مدهشة، فلم يكن الفرق بين أطول ضلع وأقصر ضلع سوى 8 إنجات (وهذا خطأ ضئيل في الواقع بالنسبة إلى طول ضلع يبلغ 9000 إنج)، وقد استنتج الباحثون المحدثون أن ضبط توجيه الأضلاع إلى الجهات الأربع الأصلية قد تم بواسطة رصد بعض الأجرام السماوية[2] بالنظر لأن البوصلة المغناطيسية لم تكن معروفة في ذلك العهد.

---

(1) حول إنجاز هذه العملية بطريقة غمر أرضية الهرم بالمياه انظر:

Edwards, The Pyramids of Egypts.

(2) Edwards, Op. Cit., 210.

وكانت النتيجة مضبوطة أيضاً بخطأ قليل (خطأ مقداره 6 2 5 في الهرم الأكبر في اتجاه الضلعين الشرقي والغربي).

د ـ ونذكر قضية تهيئة حجارة البناء من ضفة النيل الشرقية من موضع صالح للحجارة الجيدة في جبل المقطم. وكان هذا يتطلب استخدام حشود من العمّال، وقد ترك لنا جماعات العمال هنا أسماءهم مرسومة في كتل الحجارة. كما أن جماعات أخرى من العمال كان يقتضي استخدامها في استخراج حجر الغرانيت في أسوان البعيدة لاستعمالها في الأعمدة واسكفات الأبواب والعوارض وللنواويس أيضاً. واستخدم العمّال في قطع الحجارة الأدوات النحاسية كالأزاميل والمناشير والأوتاد، وقد عرف المصريون في عهد المملكة القديمة كيف يقوون النحاس بخلطه بالقصدير، أي عرفوا صنع البرونز. ونذكر أيضاً قضية نقل هذه الأحجار إلى موضع بناء الهرم، وهذه قضية لا يُستهان بها بالنظر لحجومها الكبيرة وكثرتها الهائلة.

هـ ـ وإذا ما تهيأت مواد البناء اللازمة وجُلبت إلى موضع بناء الهرم فتبقى أيضاً مشكلة أساسية هي رفع مثل هذه الأحجار الضخمة (التي قلنا إن الواحدة منها تزن معدل الطنين ونصف الطن في الهرم الأكبر). وبالنظر لتعذر معرفة المصريين بالآلات التي تشتغل على مبدأ البكرات فالمحتمل أن طريقة الرفع التي ابتكرها بناة الأهرام تدور على مبدأ المنحدرات (ramp) المكوّنة من الآجر والتراب، حيث كانوا يعلونها منحدرة إلى الأعلى من مستوى الأرض إلى الارتفاع المطلوب، وبعد إكمال البناء تُرفع مثل هذه المنحدرات وبالإمكان رفع الأحجار الكبيرة وإيصالها إلى أعلى ارتفاع من المنحدر بواسطة الزلاجة (sledge)، كما استعملوا العتلات لرفع الحجرة ووضعها وضعاً متقناً في الموضع المراد بناؤها فيه[1].

---

(1) انظر:

A. Lucas, **Ancient Egyptian Materials and Industries** (1934).

ولا بدّ أن ننوّه هنا بمبلغ الجهود الهائلة التي صُرفت على بناء الأهرام بحيث إنها تركت أثراً بالغاً في ذاكرة الأجيال المتأخرة فيروي لنا هيرودوتس[1] مثلاً أن بناء الهرم الأكبر في الجيزة قد تطلّب تشغيل مائة ألف عامل، واستمر العمل فيه مدة عشرين عاماً، وإن كل مائة ألف عامل كانوا يشتغلون ثلاثة أشهر في العام لنقل الحجارة فقط، وكان هناك جماعات أخرى من العمال الماهرين في بناء الهرم، ناهيك عن الفنانين الذين نحتوا التماثيل والمنحوتات الأخرى والصُّنّاع الماهرين الآخرين الذين صنعوا الأثاث الفاخرة وزيّنوا المعابد الملحقة بالهرم بالنقوش والرسوم، كذلك نذكر مهارة الصاغة والجوهريين. فإذا علمنا ذلك أدركنا لماذا جعل غير واحد من المؤرخين بناء الأهرام سبباً رئيسياً من أسباب تدهور المملكة القديمة وقيام دور من الفوضى السياسية والاجتماعية.

8 ـ لقد سمى المصريون القدماء الهرم باسم «مير» (Mer) وهي كلمة لا يعلم معناها بالضبط. أما الاسم المتداول في اللغات الأوروبية أي (Pyramid) فمأخوذ من الكلمة اليونانية (Pyramis) وجمعها (Pyramides)، وهي كلمة قيلت في أصلها جملة تفاسير ترجع إلى كلمات مصرية قديمة، من بين ذلك مصطلح رياضي هندسي لفظه بالمصرية القديمة «بير ـ إيموس» (Per-em-us) التي أطلقها الرياضيون المصريون القدماء على الارتفاع العمودي للهرم[2]، وقد يجوز أن لا تكون هناك علاقة اشتقاقية بين هذه الكلمة وبين الكلمة اليونانية «بيرميس».

أما لماذا اختار فراعنة مصر شكل البناء المقام فوق قبورهم بهيئة هرمية صحيحة وعدلوا عن شكل الهرم المدرّج ففي تفسير ذلك عدّة آراء، منها أن شكل الهرم مقدس، إذ إنه رمز الإله الشمس كما يقوم في المحراب المقدس في معبد هذا الإله في «هليوبوليس» وأن هذا الرمز الهرمي يمثّل أشعة الشمس

---

(1) (Herodotus, Bk. II, 124).

(2) كما ورد هذا المصطلح في مؤلف مصري في الهندسة فيما يعرف باسم «بردية رند» (The Rhind Papyrus) انظر الكلام على العلوم في حضارة وادي النيل في هذا الكتاب.

ـنبعثة من مصدرها[1]، وتصف لنا «النصوص الهرمية» صعود الملك إلى ـسماء بأنه يحمل على أشعة الشمس، فيكون الهرم واسطة اتصال الفرعون بـالسماء وارتقائه إليها، كما أن بعض الباحثين ذهبوا في معنى كلمة الهرم ـمصرية «مير» أنها تعني موضع «الصعود» أو المعراج إلى السماء[2]، وأن فكرة العلو والاتصال بواسطة بناء مرتفع بالآلهة في السماء فكرة مألوفة في حضارات الشرق القديم، ومن ذلك فكرة الصرح المدرج (الزقورة) في حضارة وادي الرافدين، ولعل بعض أسماء الزقورات مثل اسم زقورة «سبار» (بيت سلم السماء البهية) تفسّر لنا معنى اسم الهرم المقترح أي «موضع الصعود» (إلى السماء) أو واسطة الاتصال بين الأرض والسماء، ومن الباحثين من رأى إن شكل الهرم يرمز إلى شكل الموضع الذي تمّت فيه الخليقة بحسب الأساطير ـمصرية، حيث كان ذلك فوق «ربوة» أو «تل» وجد فوقه الإله الخالق «أتوم».

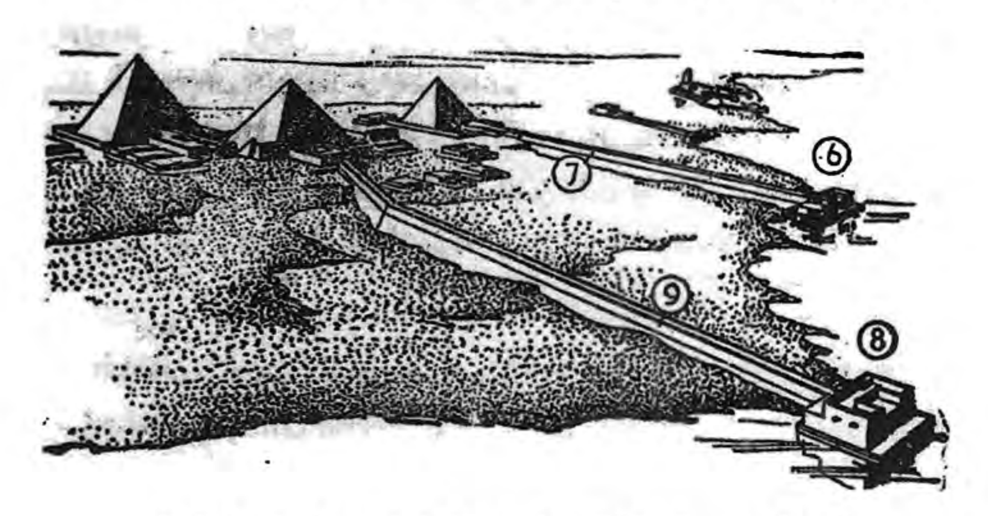
---

(1) Breasted, **The Development of Religion and Thought in Egypt** (1912), p.72.

(2) Edwards, **Op. Cit.**, 237.



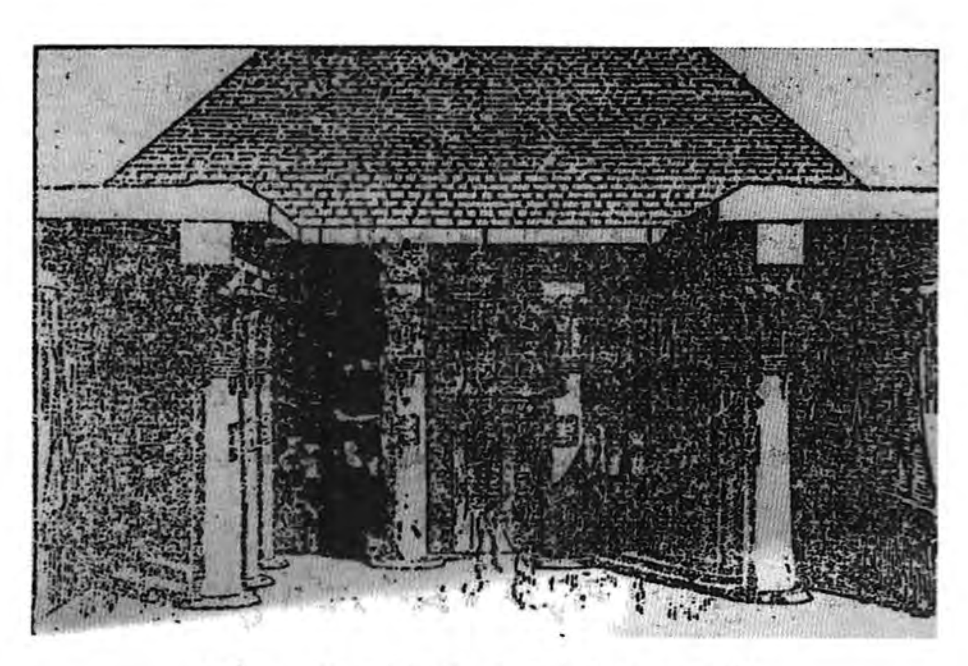
صورة تمثل حرث الحقل وبذره في عصر الأهرام وجدت مصورة في جدران قبر أحد النبلاء.



أهرام أبو صير على ما كانت عليه في الأصل في عهد السلالة الخامسة.



صورة أهرام الجيزة مأخوذة بالطائرة (من الجو).



ساحة المعبد المشيّد لصق الهرم كما كانت عليه في الأصل
وهي ترينا صفوف الأعمدة المهيبة (من عصر الأهرام).



الهرم المدرج (Step Pyramid) في صقارة.

الفصل الثاني والعشرون

عهد المملكة الوسطى

نهاية عصر الأهرام وفترة الإقطاع المظلمة:

دام عصر الأهرام، كما بيّنا سابقاً، زهاء خمسة قرون (2780 ـ 2270) كانت المملكة المصرية في خلاله، كما رأينا، موحّدة تدور إدارتها على سلطة الفراعنة المركزية، يساعدهم موظفو البلاط. وكانت طبقة النبلاء والأمراء كذلك تقوم عليها إدارة الدولة، وهي متعلقة بالفرعون والعرش. وتعيش في قصورها بجوار بلاط الملك، وإذا مات النبلاء دفنوا حول قبر ملكهم أي حول الهرم الكبير رمز تعلّقهم بالملك في الحياة الأخرى. وكان النبلاء والأمراء يحكمون المملكة خارج العاصمة ويعين الملك منهم من يعتمد عليه. فكانت وظائف هؤلاء النبلاء في بادىء الأمر غير وراثية وسلطتهم مستمدة من سلطة الملك. ولكن النبلاء استقلوا في أواخر عصر الأهرام فانتقلت المملكة من حكومة ذات سلطة مركزية بيد الملك ووزرائه وموظفيه إلى حكومة لا مركزية استقل فيها حكّام المقاطعات من النبلاء بأقاليمهم وقد أدّى ضعف الفراعنة إلى ترك هؤلاء النبلاء وشأنهم فعاد الحال في مصر إلى ما كان عليه قبل عصر الأهرام، يوم كان القطر مجزّءاً إلى دويلات ولعل ما أصاب موارد الدولة من الإرهاق وتشييد الأهرام الكثيرة وتخصيص جهود المنتجين على صرف تلك الموارد على عبادة الملوك والأمراء المتوفين قد شلّ من حيوية المصريين وأضعفهم حتى أنه لم تنته السلالة السادسة إلّا والبلاد في فوضى ضاربة بحيث أهملت الزراعة فحدثت المجاعات. فحل عهد مظلم دام زهاء 170 عاماً،

وشمل حكم أربع سلالات، من السلالة السابعة إلى العاشرة (2270 ـ 2100 ق.م)، تجزأت فيه البلاد إلى أقاليم ودويلات يحكم فيها أمراء مستقلون أما الملوك الذين كانوا في هذا العهد فكانوا بالخيال أشبه منهم بالحقيقة وليس لهم سوى الاسم، ولم يقتصر أمراء الإقطاع على الاستقلال عن الفراعنة، بل صار كل منهم بمثابة فرعون في مملكته الصغيرة، وقد ذكر «مينثو» سلالتين حكمتا في «منفس» كان ملوكها قصيري الحكم وهما السلالة السابعة والثامنة وكانت سلطتهما محلية محصورة في إقليم منفس. وتحسّن الوضع قليلاً في عهد السلالة التاسعة والعاشرة ولكنهما لم تستطيعا من بسط سلطانهما على جميع القطر. وقد كان هؤلاء النبلاء في حروب مستمرة فيما بينهم حيث كانت المدن تحترب لبسط سلطانها على سائر القطر، وقد استطاعت إحدى هذه المدن وهي مدينة «طيبة» أن تخضع في آخر الأمر معظم المدن وتبسط سلطانها على سائر القطر المصري. فقام فيها سلسلة من الملوك حكمت جميع البلاد وضمّتها في مملكة واحدة. فبدأ عهد جديد في تأريخ مصر القديم عرف بعهد المملكة الوسطى (2100) وهي المملكة الموحدة القوية بعد المملكة القديمة في عصر الأهرام.

وازدهرت في هذا العهد سلالتان اشتهرتا في تأريخ مصر، وهما السلالتان الحادية عشرة والثانية عشرة ويُعاصر هذا العهد سلالة أور الثالثة والعهد البابلي القديم في العراق . وتعاصر السلالة الثانية عشرة سلالة بابل الأولى بوجه خاص. وقد خلفت لنا السلالة الثانية عشرة آثاراً جليلة ولا سيما في المعابد الشهيرة المشيّدة للإله «أمون» في «الكرنك» وللإله «رع» في مدينة الشمس (هليوبوليس). وقد استأنفت مصر في عهد المملكة الوسطى، ولا سيما في عهد السلالة الثانية عشرة، علاقاتها مع العالم الخارجي حيث أرسل الفراعنة حملات وبعثات تجارية إلى «ليبيا» لجلب الأحجار وإلى طور سيناء لجلب بعض الأحجار الكريمة مثل الزبرجد والفيروز وإلى غابات سوريا ولبنان لجلب الأخشاب وإلى الجنوب لجلب الذهب وقد وجدت في جزيرة كريت (اقريطش) آثار من أواني الفخار تضاهي ما يماثلها من الآثار المصرية في عهد

السلالة الثانية عشرة. وقد تمكّن النفوذ السياسي والثقافي في سوريا ولا سيما في البلاد الساحلية. وقد أعقب ذلك النفوذ السياسي والثقافي البابلي في عهد سلالة بابل الأولى. وقد التقى نفوذ الحضارتين المصرية والعراقية عند مدن سوريا الساحلية مثل جبيل وأوغاريت بدون أن يحدث بين الحضارتين تصادم مسلح. ومن الأشياء الطريفة التي أظهرها البحث الحديث أن ملك سوريا اسمه حمورابي أيضاً كان يعاصر حمورابي البابلي وقد كان بين الاثنين حلف وصلات طيبة. وكانت مملكة حمورابي السوري تسمى «يمخد» وعاصمتها في حلب.

وفيما كان عالم الشرق الأدنى ينعم بالاستقرار في زمن السلالة الثانية عشرة المصرية وسلالة حمورابي في بابل كانت براري «أوراسيا» (أوروبا ـ آسيا) تموج بالكتل البشرية الهمجية وتندفع بهيئة موجات إلى الشرق الأدنى مركز العالم المتمدن آنذاك فأحدثت فيه الارتباك والفوضى، واستوطنت فيه أقوام جديدة كالحثيين الذين حلّوا في الأناضول وشمالي سوريا والكشيين في العراق بعد سلالة حمورابي والهكسوس الذين قضوا على المملكة الوسطى، وظهر بعد حين إلى عالم السياسة الدولية الآشوريون، وسنأخذ شيئاً موجزاً عن الحالة في مصر في عهد الهكسوس وما أعقبه من نشوء الأمبراطورية المصرية.

شيء عن الحضارة المصرية في عهد المملكة الوسطى:

رأينا فيما سبق كيف انتهى عهد النبلاء بقيام سلالة طيبة، وهي السلالة الحادية عشرة التي بدأت عهد المملكة الوسطى. وبعد حروب كثيرة مع دويلات النبلاء قبلت جميع مصر زعامة طيبة.

وعلى الرغم من جهلنا بأمور كثيرة عن السلالة الحادية عشرة ولا سيما أمر ملوكها وتسلسلهم الزمني فقد جاءنا من أحد ملوك هذه السلالة معبد خُصّص لعبادته بعد موته في «الدير البحري» في المقبرة الغربية قبال طيبة وقد أفادتنا المنحوتات التي وجدت في هذا المعبد فوائد جليلة عن الفن المصري في زمن المملكة الوسطى، ونشاهد فيها تقليداً موفقاً لفن عصر الأهرام ولا

سيما من زمن السلالتين الخامسة والسادسة. ولكن كان الفن المصري في بداية السلالة الحادية عشرة يظهر عليه طابع السذاجة، بيد أنه أخذ في التحسّن بمرور الزمن. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أننا نعرف بعض الفنانين من هذا العهد فقد أخبرنا أحدهم المسمى «مرتسين» في مسلته التي خلفها من بعد موته شيئاً عن حياته إذ يقول: «لقد كنت فناناً ماهراً في فني. إنني أعرف فني وأعرف كيف أمثّل الصور والأوضاع التي تمثل الحركة من ذهاب وإياب، بحيث يكون كل عضو وجارحة في موضعه الصحيح. وأعرف كيف أمثّل صورة إنسان كأنه يمشي وصورة عربة المرأة. . . الخ».

وازدهرت الحياة في عهد السلالة الثانية عشرة. وقد عرف ملوك هذه السلالة بأحد اسمين «امينمحيت» و«سنوسرت» وقد قدّس ملوك هذه السلالة الإلٰه «أمون» إلٰه طيبة وكذلك الإلٰه «سبيك» وهو الإلٰه الذي يمثله التمساح الخاص بالفيوم وتمتاز السلالة الثانية عشرة عن السلالة السابقة بكثرة معلوماتنا التأريخية عن عهود ملوكها وأسمائهم وأعمالهم، وقد حكمت زهاء القرنين من الزمان. ومما يقال عن عهد هذه السلالة إنه كان عهد سلم ورخاء واتحاد في القطر المصري بالنسبة إلى العصور التي سبقته. وقد عمل ملوكها على تحديد حدود الولايات وتحديد سلطات النبلاء. وقد وضع بعض ملوكها الأقوياء أسس الإدارة والحكومة القوية التي سنشاهدها في أيام الأمبراطورية. ولم يسر ملوك السلالة الثانية على خطا ملوك السلالة الحادية عشرة بجعل العاصمة طيبة حيث يصعب إدارة الدولة فيها بل نقلوا العاصمة إلى الشمال ولا يعلم موضعها بالضبط.

وبوسعنا أن نفهم مقدار الثروة والقوة التي تمتع بها ملوك السلالة الثانية عشرة من الأبنية والعمارات التي خلفها هؤلاء الملوك ولا سيما في المعابد المخصصة للإلٰه «أمين» أو «أمون» في الكرنك وللإلٰه «رع» في هليوبوليس ومعابد آلهة أخرى مثل معبد الإلٰه «حيرشوف» في هيراكليوبوليس. وشيّد الملك «سنوسرت» الأول أولى المسلّات العظيمة في مصر إزاء معبد «هليوبوليس»

وشيّد «أمينمحيت» الثالث معبداً فخماً كثير المرافق، وهذا هو المعبد الذي دهش له هيرودوتس في «هواره» ووصفه «ديودور» و«سترابو» و«بليني». وقد شيّده الملك إزاء هرمه في «هواره» ليكون معبداً لعبادته عند دفنه في الهرم.

ومما يقال عن الفن في عهد السلالة الثانية عشرة أنه وصل الذروة ولا سيما في العهد الأخير من أيامها، وامتاز بالواقعية ومحاكاة الطبيعة، ولم يصل الفن المصري إلى مثل هذا التطور إلّا في زمن الملك المصري أخناتون من عهد الأمبراطورية. وبلغ الفنانون مهارة ودقة وذوقاً راقياً، وكانوا في التناسب يشبهون فناني الإغريق.

وامتاز عهد المملكة الوسطى عن المملكة القديمة بظهور بعض الآلهة الجديدة منهم «أمين» (أمون)، وكان هذا هو الإلٰه الحامي الخاص بأمراء طيبة. وقد طوبق مع الإلٰه «رع» في بداية عهد السلالة الثانية عشرة، وهو الإلٰه القديم الخاص بملوك «منفس» في عهد المملكة القديمة. وكذلك عبد الإلٰه المسمى «سبيك» الذي يمثّل بالتمساح، وهو الإلٰه الخاص بالفيوم وشاعت عبادة الإلٰه «أوسيريس» وعظم شأنه وصار إلٰه عالم الأموات وسيد هذا العالم وسوف نتطرق مرة ثانية إلى عبادة الإلٰه «أوسيريس» وعلاقته بالإلٰه الشمس «رع».

وسنشير إلى بعض الأمور المهمة في تطور الحضارة المصرية في هذا العهد ولا سيما في حقل الآداب والفن والاتجاهات الاجتماعية، كنشوء الاتجاه الجديد في العدالة الاجتماعية بالنسبة إلى الناس الاعتياديين كما ينعكس في أدب هذا العهد مما سنذكره في مبحث الحضارة[1].

الهكسوس:

أصل الهكسوس[2] ومهدهم من القضايا التي لا تزال موضع خلاف بين

---

(1) انظر: Ancient Near Eastern Texts, 7, 407.

(2) أصل اسمهم من المصطلح المصري «هيكوشوسويت» (heku shoswet) الذي يعني حكّام البلاد الأجنبية.

المؤرخين ولعل أسلم الافتراضات أنهم كانوا خليطاً «فاضوا من بوتقة انصهار الشعوب» من شرقي البحر المتوسط على الحافة وانجرفوا بعدئذ إلى مصر وأنهم عندما جاؤوا إلى مصر كان كثير منهم يتكلم إحدى اللغات السامية الغربية. وقد كان الهكسوس بوجه عام نتيجة عن هجرات الأقوام العامة في الألف الثاني ق.م. من براري آسيا الوسطى وأوروبا ومن ذلك مجيء موجات إلى جهات الشرق الأدنى، وكان من جملة هؤلاء الأقوام الهكسوس الذين غزوا سوريا وفلسطين وكوّنوا هناك دولة وقتية وقد اختلطوا هنا بالساميين والتحق بجمعهم كثير من الساميين عندما غزوا مصر فكان العنصر المركزي فيهم من الكنعانيين والأموريين وهذا ما جعل المصريين القدماء يسمونهم بالهكسوس (ويعني ذلك الأمراء البدو أو أمراء الصحراء) وسمّاهم الكاهن المصري «منيثو»، الذي عاش وكتب تأريخه المشهور في حدود 280 ق.م. بالملوك الرعاة وبالفينيقيين وبالعرب أيضاً. وسبب ذلك يرجع كما قلنا إلى مدة بقائهم في ديار الشام والتحاق جماعات كثيرة من الساميين بهم واختلاطهم أنفسهم بالساميين في أثناء بقائهم هناك واستعدادهم لغزو مصر. وقد اتّخذوا في الواقع سوريا وفلسطين قاعدة غزوا منها مصر وقد شملت ثقافة الهكسوس في بلاد الشام القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. وتركوا فيها آثار حصونهم الخاصة كما وجدت في الموضع القديم المسمى «قطنا» الذي يرجّح أنه كان عاصمتهم في بلاد الشام، وكذلك في «قاديشا» و«أريحا» في فلسطين. وتميّز حكمهم في سوريا بالنظام الإقطاعي العسكري. وقد كانت المملكة المصرية الوسطى آنذاك تسير إلى التدهور بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والأمراء ولا سيما النزاع الحاد بين الشمال والجنوب، أي بين مصر العليا ومصر السفلى، فانتهز الهكسوس فرصة الضعف هذه وغزوا مصر السفلى ولا سيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا عاصمة جديدة هناك. واستمروا يحكمون مصر زهاء القرنين أي من عام 1788 حتى 1580 ق.م. وكان الهكسوس دون البلاد التي فتحوها حضارة فاقتبسوا الحضارة المصرية وأصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر. وقد أدخلوا إلى مصر بعض الأشياء الجديدة

المهمة مثل استعمال الخيل للركوب والعربات الحربية التي تجرها الخيول مما ساعدهم على الفتح والقضاء على مقاومة المصريين. ويشير استعمالهم الخيل للركوب إلى علاقتهم بالأقوام الهندية الأوروبية التي جاءت منها موجات إلى أجزاء الشرق الأدنى في حدود هذا العهد وكان للخيل عند الهكسوس مقام رفيع. وقد أدخل الهكسوس إلى مصر أيضاً السيف «المقوّس» المصنوع من الحديد والقوس المركّب، وهو القوس الذي ظهر لأول مرة في العراق في عهد السلالة الآكدية، وقد أدخلت تحسينات مهمة في فن التعدين. ومما يقال في عهد الهكسوس في مصر إن شرهم فيها مبالغ فيه. فبالإضافة إلى الأشياء الجديدة التي أدخلوها إلى مصر ترجع إلى عهدهم طائفة مهمة من التآليف العلمية التي كانت نسخاً عن أصول أقدم، ولكنها دوّنت في هذا العهد، كما أن جزءاً مهماً من معرفتنا بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص عهد الهكسوس في مصر. والمرجّح كثيراً أن سكنى بعض الإسرائيليين في مصر وقصة «يوسف» كما جاءت في التوراة ترجع إلى عهد الهكسوس أيضاً.

لم تعم سلطة الهكسوس مصر جميعها وإنما انحصرت بالدرجة الأولى في الدلتا في موضع يسمى «أفاريس» التي سُمّيت أيضاً باسم «تنيس» وموضعها الآن في «صان الحجر». وكانت مصر العليا على شيء من الاستقلال فقد حكم في العاصمة المقدسة «طيبة» أمراء مصريون مستقلون كانوا يشعرون بوطأة الحكم الأجنبي ويعدّون العدّة للقضاء على الأجانب وتحرير البلاد من ملوك الهكسوس. فثار عليهم نبلاء من أواخر السلالة السابعة عشرة واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين زهاء نصف قرن حتى تمّ طردهم من البلاد نهائياً وتحرير مصر منهم على يد القائد المشهور «أحموسة» الذي كوّن سلالة جديدة هي السلالة الثامنة عشرة. فأبتدأ عهد جديد في تأريخ مصر هو عهد الأمبراطورية.

عهد الأمبراطورية

لقد خلقت حرب التحرير التي شنّها المصريون على الهكسوس روحاً قوية في مصر الوطنية والإنتاج. فلم يكتف ملوك السلالة الثامنة عشرة بطرد الأجانب من مصر بل لاحقوا فلولهم إلى سوريا وحاربوهم هناك في مقرّهم القديم الذي غزوا منه مصر. فأستطاع أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة وهو «طوطمس» الثالث (1506 ـ 1461 ق.م) أن يقضي على قوة الهكسوس قضاءً نهائياً في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في «مجدو» (1478 ق.م) فتثبت النفوذ المصري هناك وتكوّنت الأمبراطورية المصرية في سوريا، ومن مشاهير فراعنة هذه السلالة «أمنحوتب» الثالث الذي حكم حكماً طويلاً مزدهراً شمل أمبراطورية واسعة.

يعدّ هذا العهد الجديد من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة والبأس والثروة، وقد دامت الأمبراطورية زهاء خمسة قرون (1580 ـ 1085 ق.م) من قيام الملك «أحموسة» الأول وتكوينه السلالة الثامنة عشرة إلى مجيء الفرعون «حاريحور» أو «هاريهور». وقد شملت الأمبراطورية عهد ثلاث سلالات وهي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون. ولكن دبّ الانحلال والتفسّخ في الأمبراطورية منذ نهاية السلالة التاسعة عشرة التي أسسها «رعمسيس» الأول، وقضى ابنه وخلفه «سيتي» الأول معظم حكمه في الحروب في آسيا الغربية، وخلفه رعمسيس الثاني المشهور الذي دخل مع الحثيين في حرب طويلة وانعقدت في النهاية معاهدة السلم بين الجانبين. وخلف لنا آثاراً مهمة عنه كالتماثيل والعمارات. وانحطّت مصر في أواخر

السلالة التاسعة عشرة، ولكن رعمسيس الثالث مؤسس السلالة العشرين أعاد إلى مصر قوتها نوعاً ما واشتهر بانتصار حربي أحرزه على مجموعات كبيرة خليطة من الأقوام الآسيوية ومن فلول الإيجيين حيث هاجموا سواحل مصر من البحر، ولكن سرعان ما انهارت سلطة مصر بعد موت هذا العاهل، وانتهى العهد الجديد بعود الانقسام في المملكة المصرية إلى مملكة في الجنوب عاصمتها «طيبة» وأخرى في الدلتا عاصمتها «تنيس» وتقلص النفوذ المصري في نهاية السلالة التاسعة عشرة في البلاد الشامية وزال نهائياً وحلّ محله سلطان الآشوريين الذين تفرّدوا بالسلطة على جميع الشرق الأدنى. ولم تسلم مصر من هذا التدهور فانكمشت في داخل بلادها واستمرّ الضعف فيها حتى آل الأمر إلى أن غزاها الملوك الآشوريون في القرن السابع ق.م. وحلّ في البلاد بعض الانتعاش بعد زوال الآشوريين، ولكن مصر القديمة لم تستطع أن ترجع سالف عزّها. وغزاها الفرس في عهد «قمبيز» خليفة «كورش». وسنوجز العهود المتأخرة في تأريخ مصر فيما بعد.

العلاقات الدولية بين ممالك الشرق الأدنى

في عهد الأمبراطورية المصرية (1580 ـ 1085 ق.م):

لقد سبق أن ذكرنا (في الجزء الأول) أن الكشيين اندمجوا بالبابليين في العراق وطغت عليهم الحضارة البابلية وأسسوا سلالة دامت نيفاً وخمسة قرون. أما في مصر فبعد أن حكم الهكسوس في الدلتا زهاء القرنين ثار عليهم آخر نبلاء السلالة السابعة عشرة وتمّ طردهم وتحرير البلاد منهم بقيام السلالة الثامنة عشرة كما بيّنا من قبل. ولكن لم يكتف ملوك هذه السلالة بطردهم بل لاحقوهم إلى فلسطين وسوريا التي منها غزا الهكسوس البلاد المصرية. فنتج ذلك تكوين الأمبراطورية المصرية. وبدأ طور جديد في تأريخ الشرق الأدنى انمحت فيه الحواجز في العالم القديم واتصلت الشعوب بعضها ببعض ودخلت في علاقات مباشرة وتكوّنت بين الدول صلات دبلوماسية هي الأولى من نوعها في تأريخ العلاقات الدولية ودخلت الحضارة في طور عالمي في أكثر مظاهرها وأوجهها. وتتميز العلاقات في هذا العهد إلى سعتها وشمولها بكثرة النصوص والوثائق التأريخية مما جاءنا من السجلات الرسمية الملوكية ولا سيما من مصر ومن عاصمة الحثيين «حاتوشاش». وقد اشتهرت الرسائل الرسمية التي عثر عليها في «تل العمرانة» عاصمة الفرعون «أخناتون» شهرة عظيمة بحيث أُطلق اسم «العمرانة» على قسم من هذا العهد التأريخي.

إن أتساع العلاقات بين دول الشرق الأدنى في هذا العهد (عهد الأمبراطورية المصرية) يجعل من المتعذر تفصيل القول في أوجهها المختلفة

ولا سيما الأوجه السياسية والثقافية، لذلك نجتزىء هنا بذكر أبرز تلك الأوجه.

فأولاً اتّصفت العلاقات السياسية والحربية بتوازن القوى الدولية في النزاع بين المصريين والحثيين والميتانيين والآشوريين للسيطرة على الشرق الأدنى ثم انحصر النزاع بين الآشوريين والبابليين والآراميين بعد ضعف المملكة المصرية وزوال الحثيين والميتانيين من ميدان النزاع. ونتج من تلك العلاقات المتشابكة المعاهدات والمحالفات والعلاقات «الدبلوماسية» الواسعة مما لم نعرف له مثيلاً في تأريخ الشرق القديم فيما قبل هذا العهد. وثانياً نتجت عن هذه الصلات المباشرة الواسعة اتصال حضارات الشرق القديم بعضها ببعض اتصالاً قوياً جديداً فأثرت بعضها في بعض تأثيراً متبادلاً جعلها تدخل في طور أصحّ ما يتميّز به الوحدة في الحضارة: في الفن وفي العادات والمعتقدات وحتى في اللباس والأزياء وقد استعمل الناس لغة واحدة هي اللغة البابلية بالخط المسماري في معاملاتهم التجارية والملوك في تثبيت علاقاتهم السياسية وفي تدوين مراسلاتهم. وهذا يشير بلا أقل ريب إلى مبلغ تغلغل حضارة العراق القديم في جميع الشرق الأدنى لأن استعمال اللغة البابلية لغة الدبلوماسية العالمية لا يمكن تفسيره بنفوذ البابليين السياسي أو الحربي في هذا العهد الذي حكم فيه العراق الكشيون وهم دون ملوك مصر وملوك الحثيين في القوة العسكرية.

وبلغ أمر الاتصال بين الشعوب والدول من الشدة بحيث ذاعت المعتقدات الدينية فكانت تماثيل الآلهة يتبادل إرسالها ملوك ذلك الزمان. فمن الحوادث الطريفة في هذا الصدد أن الملك المصري «أمنوفس» أو «أمنحوتب» الثالث مرض مرة فأرسل إليه الملك الميتاني «تشراتا» تمثال الإلهة الآشورية «عشتار» من نينوى لتشفيه من مرضه وكان يصحب هذا التمثال على ما يرجّح أطباء آشوريون. وأرسل الملك البابلي مرة طبيباً وراقياً (عرافاً) إلى الملك

الحثي. وكان أطباء مصر الذين اشتهروا بحذقهم يزورون «بلاطات» الملوك في الشرق الأدنى.

ولنأخذ نموذجاً مختصراً من المخاطبات الدبلوماسية بين ملوك ذلك الزمان، من إحدى رسائل «العمرانة» وهي الرسالة التي كتبها الملك البابلي الكشي «بورنابورياش» إلى فرعون مصر «أمنوفس» الرابع (أي أخناتون) وهذه ترجمتها:

إلى (نفخوريريا)[1] ملك مصر.

«هكذا يقول بورنابورياش، ملك بابل، أخوك.

«إنني بخير، فعسى أن تكون أنت وبيتك، وزوجاتك وأولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال.

«منذ أن عقد أبي وأبوك الودّ فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عزّ وغلا.

«والآن لقد أهدى إليَّ أخي «منين»[2] من الذهب. فوددت لو أنك أرسلت إلي ذهباً بقدر ما كان يهديه أبوك. وإذا كان لا بدّ من تقليل المقدار فأرسل إلي نصف ما كان يرسله أبوك. فلِمَ أرسلت «منين» من الذهب فقط؟ إنني الآن باذل جهداً كبيراً في بناء المعبد. وقد تعهدت العمل بقوة وسوف أنجزه بالدقة فأرسل إلي قدراً كبيراً من الذهب. وإذا رغبت في شيء من بلادي مهما كان فابعث رسلك يأتوك به.

«في عهد أبي «كوريكالزو» أرسل إليه الكنعانيون يقولون: «لنذهب إلى حدود مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفاً». أما أبي فقد أجاب على هذه الرسالة قائلاً: «كفوا عمّا تنشدونه من الحلف. إذا كنتم أعداء ملك مصر،

---

(1) وهو اسم أمنوفس الرابع الذي ينطق باللسان المصري القديم «نفر ـ خفيرو ـ رع».
(2) يزن «المنّ» البابلي نحو نصف كيلو غرام من أوزان الزمن الحاضر.

أخي، فليكن الحلف فيما بينكم. ولكن لتحذروا جانبي. إذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدّني عن أن أغزوكم؟».

«وهكذا فلأجل أبيك لم يسمع أبي مقالتهم. أما ما يخصّ بعض الآشوريين من أتباعي (كذا) أفلم أخبرك برسالة في شأنهم؟ فلِمَ دخلوا بلادك؟ وبما أنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء وأنك ستعمل على إحباط جهودهم وسعايتهم.

و(بالختام) لقد أرسلت إليك هدية، ثلاثة «منات» من اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب».

إن هذه الرسالة جزء من قصة طويلة في تأريخ العلاقات السياسية بين أقطار الشرق الأدنى. ولعل أحسن سبيل لفهم فحواها تقسيمها إلى فصلين يؤلفان حقبتين في تأريخ تلك العلاقات. أما الفصل الأول فيبدأ بتكوين الأمبراطورية المصرية منذ السلالة الثامنة عشرة (في القرن السادس عشر ق.م). وينتهي بزوال تلك الأمبراطورية بعد عهد «رعمسيس» الثالث (وهو آخر عاهل قوي في السلالة العشرين) في نهاية القرن الحادي عشر ق.م. ويبدأ الفصل الثاني بزوال الأمبراطورية المصرية في بداية السلالة الواحدة والعشرين (في حدود 1085 ق.م). ويتميز هذا العهد بضعف المملكة المصرية وتعاظم الآشوريين وسيطرتهم على الشرق منذ زمن «شيلمنصر» الأول (القرن الثالث عشر ق.م) و(تجلاثبليزر) الأول (في حدود 1150 ق.م). وقد انتهى بالنزاع المسلح بين الآشوريين والمصريين في القرن السابع ق.م. ولعل الفصل الأول أمتع قصة في التأريخ البشري وأطرف حقبة في العلاقات الدولية في العالم المتمدن آنذاك. فعندما تكوّنت الأمبراطورية المصرية في البلاد الشامية انحصر النزاع الحربي في بادىء الأمر بين فراعنة السلالة الثامنة عشرة من جهة وبين الأمراء الشاميين وملوك الحثيين من الجهة الثانية. ولم تكن دول الشرق الأدنى الأخرى في هذا الطور على قدر كبير من القوة السياسية فلم تدخل في المراحل الأولى

من هذا النزاع الدولي. فالملوك الكشيون في العراق كانوا ضعفاء بالنسبة إلى المصريين وإلى الحثيين ولعل ذلك جعلهم يلتزمون الحياد من جهة ويركنون إلى صداقة الملوك الفراعنة على الدوام، وكذلك كانوا مع الملوك الحثيين وكان الآشوريون في بدء قوّتهم السياسية يتربصون الفرص ويعدّون العدة للدخول في النزاع المسلح. وحانت للحثيين أحوال مناسبة في نهاية حكم «أمنوفس» الثالث في حدود (1390 أو 1380 ق.م) حيث خلفه على العرش المصري (أمنوفس) الرابع (أخناتون) الذي شغلته ثورته الدينية عن شؤون الملك في الداخل وفي الخارج. ولكن اعتلى العرش الحثّي ملك هو (شوبيلوليوما) وكان على جانب كبير من المقدرة والدهاء. وكان في الشرق الأدنى في هذا العهد دولة صغيرة تدعى دولة (ميتاني) عرفها المصريون باسم (نهارين) في شمال العراق بجوار الآشوريين. وكانت هذه الدولة بمثابة «دولة حاجزة» ومفتاح النزاع والتنافس بين مصر والحثيين على بلاد الشام. وانضم إلى الدول المتنافسة الآشوريون الذين كانوا يخشون ضغط الدولة الميتانية وتوسعها على حسابهم. وقد رأت مصر تجاه خطر الحثيين والآشوريين أن تكسب صداقة الدولة الميتانية فكانت بين الطرفين مصاهرات سياسية. ولكن ذلك لم يخلص الميتانيين من تدخل الحثيين والآشوريين. ففرض الحثيون أولاً حمايتهم على «ميتاني» بعد انقسام في البيت المالك فيها ثم قضى عليها الآشوريون عندما صفا لهم الجو السياسي بعد الحثيين.

بدأ الملك الحثي «شوبيلوليوما» نزاعه مع مصر على سيادة البلاد السورية بإثارة المعارضين من أمراء سوريا للنفوذ المصري. ثم بدأت من بعد ذلك بين الطرفين حروب ومعارك دامت زهاء القرن الواحد (1380 ـ 1278 ق.م) آخرها المعركة المشهورة التي وقعت في «قاديش» في سوريا بين (رعمسيس) الثاني والحثيين مع أحلافهم من الأمراء السوريين، وعلى الرغم من أن المعركة لم تكن حاسمة فإن الإعياء الذي أصاب الجانبين وخوف الحثيين من خطر التوسع الآشوري الذي داهمهم في زمن (شيلمنصر) الأول، كل ذلك

عمل على وقف النزاع المسلح وعقد معاهدة[1] بين رعمسيس الثاني والملك الحثي (حاتوسيل) (في حدود 1278 ق.م) تنطوي على إحلال الصداقة وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين وقد تزوج على أثرها الفرعون المصري بأميرة حثّية وكان من نتائج وقف النزاع بين مصر والحثيين عود العلاقات السلمية في الشرق الأدنى فكانت فترة هدوء وسلام، واعترفت المعاهدة بالسيادة الحثية على سوريا وشمالي فينيقيا والسيادة المصرية على فلسطين وفينيقيا الجنوبية.

ولكن لم يدم هذا السلم أمداً طويلاً إذ حلّ اضطراب جديد في الشرق الأدنى مبعثه من الخارج بنتيجة هجرات الأقوام (الهندية ـ الأوروبية) التي أزاحت موجات أخرى من الأقوام ودفعت بهم إلى أقطار الشرق الأدنى. فقد أزاحت القبائل الإغريقية الإيجيين من مواطنهم في جزر بحر إيجه واندفعت فلول من هؤلاء الإيجيين إلى الشرق الأدنى إلى سوريا وفلسطين فغزت بعض المدن الفينيقية في الساحل مثل جبيل وأوغاريت (رأس شمرة الآن) وهدّد قسم منهم الحدود المصرية مما اضطر رعمسيس الثالث (أول ملوك السلالة العشرين كما نوّهنا بذلك من قبل) إلى الاشتباك معهم بمعارك برية وبحرية لدرء الخطر عن أبواب مصر. ومن النتائج الخطيرة لتلك الهجرات تحطيم المملكة الحثّية وإزالتها من الوجود (في حدود 1200) وتمكّن قسم من فلول الإيجيين، وهم

---

(1) انظر حول وثيقة المعاهدة في:

W.M. Mueller, Der Bundnisvertrag Ramses II und des Chetiterkoenigs.

وفي ترجمة «مصر في العصور القديمة لأدولف أرمان وهرمان رانكة» 616 فما بعد وكذلك أحدث ترجمة لها في الأصل البابلي والنسخة المصرية في: **Ancient Near Eastern Texts, 199 ff.**

وكانت هذه المعاهدة قد كُتبت بالأصل بالبابلية والخط المسماري في لوحة من الفضة ولها نسخة مترجمة إلى المصرية حيث نُقشت في جدران معبد أمون في الكرنك ووجدت النسخة الحثية في بوغاز كوي. وتبدأ المعاهدة بألقاب الملكين المتعاهدين ثم المقدمة وخلاصة العلاقات بين البلدين إلى زمن إبرام المعاهدة، ثم إحلال السلم بين المملكتين وعدم الاعتداء من الجانبين وذكر فيها الدفاع والمساعدة التي يجب أن يسديها أحد الطرفين إلى الآخر. وفيها مواد في تبادل تسليم المجرمين والثائرين من أحد الجانبين إلى الآخر.

الفلسطينيون المذكورون في العهد القديم، من تأسيس دويلات في بعض مدن الشام الساحلية كغزة وعسقلون وغيرهما واشتقّ اسم «فلسطين» من اسم هذه القبيلة، ومما زاد في اضطراب الأحوال قبل هذا الزمن مجيء هجرات أخرى من الساميين وهم الآراميون والعبرانيون. وقد بدأ الآراميون يثبتون أقدامهم في ربوع الشرق الأدنى ودخلوا في نزاع رهيب عنيف مع الآشوريين شغل طوال القرنين الحادي عشر والعاشر وقد كاد يقضي على كيان الآشوريين كما ذكرنا ذلك من قبل.

وإلى هنا نكون قد بدأنا في الفصل الثاني من قصة العلاقات بين أقطار الشرق الأدنى، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الفصل يبدأ بزوال الأمبراطورية المصرية في عهد السلالة الواحدة والعشرين (في حدود 1085 ق.م) وقد صفا الجو للآشوريين الذين بدأوا بتعاظمهم الحربي وفرض سيطرتهم على الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر ق.م. ولم يتصدّ لتحديهم من شعوب العالم القديم بعد ضعف المملكة المصرية وزوال المملكة الحثية إلّا الآراميون الذين ألفوا دويلات ومدناً مزدهرة في شمال العراق وفي سوريا وهددوا كيان الآشوريين فكانت بين الطرفين حروب طاحنة دامت طوال القرن الحادي عشر والعاشر ولم يستطع الآشوريون رغم جهازهم الحربي الرهيب من كسر مقاومة الدويلات السورية إلّا في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م.

أما المملكة المصرية فإنها مع الضعف الذي حلّ فيها وانكماشها في داخل بلادها لم تنفض يديها من مشاكل الشرق الأدنى بالمرة. فقد كانت تلتزم جانب الدويلات السورية الآرامية في النزاع بينها وبين الآشوريين. فإلى إرسالها الجيوش في بعض الأحايين لمساعدة هذه الدويلات في مقاومتها الآشوريين كانت كثيراً ما تحرضها على الثورة للتخلص من الحكم الآشوري القاسي مما حدا بالآشوريين في آخر عهدهم إلى الركون إلى مغامرة حربية، هي غزو مصر في زمن الملكين الآشوريين «أسرحدون» و«آشور بانيبال» في القرن السابع ق.م. في زمن السلالة المصرية الخامسة والعشرين. وبالرغم من

أن هذا الغزو لم يحقق غاية الآشوريين من إدماج مصر إلى الأمبراطورية الآشورية زمناً طويلاً فإن مجرى الحوادث يشير إلى تكوين طور جديد في العلاقات المصرية الآشورية يتميز بالصداقة التي تكوّنت في أواخر أيام الآشوريين. إذ يحدثنا التاريخ أن بعض فراعنة مصر (من السلالة السادسة والعشرين) قد ساعد الآشوريين في حروبهم مع الكلدانيين والماذيين ومع هذا فإن هذه المساعدة لم تخلص نينوى من المصير المحزن عندما ضربها الماذيون والكلدانيون في العام 612 ق.م.

حضارة مصر في عهد الأمبراطورية:

استمرت العاصمة المقدسة (طيبة) في زعامتها على القطر المصري بعد نشوء الأمبراطورية فيها، حيث صارت عاصمة الأمبراطورية. ونستطيع من المآثر الفخمة التي خلّفها لنا فراعنة هذا العهد في طيبة أن تستخرج معلومات ثمينة عن حضارة مصر القديمة في عهد الأمبراطورية. ومن مآثر هذا العهد المعابد الفخمة في (الكرنك) وكذلك المقابر الواسعة المبنية في الجانبين الغربي والشرقي في المدينة. فلو ساعدك الحظ بزيارة لمصر فلا تنس أن تأخذ القطار الصاعد صوب الجنوب، وبعد أن يسير بك مسافة تزيد على 400 ميل جنوبي القاهرة تلمح الآثار الشامخة من العمد المرتفعة التي تطلع عليك من بين أشجار النخيل في الجهة الشرقية من النهر حيث موضع معبد الكرنك العظيم. وستجد أن هذا المعبد من أبدع ما شيّدته الحضارات القديمة، وقد زينت جدران المعبد بمنحوتات كثيرة كبيرة تمثل بالنحت البارز مشاهد الحروب التي خاضها فراعنة الأمبراطورية في آسيا ولا سيما في بلاد الشام، وتطغى صورة الفرعون التي بولغ في حجمها على مشاهد تلك الحروب، فنراه وهو في عربته الحربية التي تجرّها الخيول يفرّق جموع الأعداء. والعربة والخيول من المشاهد التي لا يمكن أن نراه في مآثر الأدوار التي سبقت عهد الأمبراطورية، لأن المصريين لم يعرفوها إلّا بعد عهد الهكسوس. وإلى التحسن في آلات الحرب في عهد الأمبراطورية تغير نظام الجيش حيث أوجد الفراعنة نظام

الجيش القائم قوامه النبّالة والعربات الحربية والخيالة، وكان كثير من فراعنة هذا العهد قواداً عسكريين أتقنوا فنون الحرب وقادوا الجيوش بأنفسهم.

وفي وسعنا أن ندرك من زيارتنا للمعابد والقبور في طيبة مبلغ الثروات الكثيرة التي جناها الفراعنة من فتوحهم الخارجية في آسيا وفي البلدان الواقعة جنوب مصر. والواقع أن فصلاً جديداً في تأريخ العمارة الفخمة والفنون قد افتتح في عهد الأمبراطورية ففي قاعات معبد الكرنك شيّد الفنانون أفخم صفوف من الأعمدة عرفتها الحضارات القديمة. ويبلغ ارتفاع بعضها وهي الأعمدة الوسطى (69) قدماً وتبلغ سعة تيجان الأعمدة بحيث (يستطيع مائة رجل أن يقف عليها وهم متراصفون) كما يقول المؤرخ (بريستد). ويستطيع الزائر أن يشاهد بالإضافة إلى هذه العمد في معابد الكرنك صفوف المسلّات والتماثيل الضخمة التي تمثل فراعنة عهد الأمبراطورية، ويشاهد كذلك صفوفاً من تماثيل الحيوانات وبخاصة (الخراف) وهي تمتد من معبد الكرنك إلى النيل.

ويرجع الفضل في الروعة التي نشاهدها في العمارة المصرية إلى النحات والرسام، فقد زوقت تيجان الأعمدة بألوان زاهية لتكون التيجان مشابهة للأشجار التي تمثلها. ولوّنت مشاهد الحروب والقتال التي نُحتت على جدران المعبد بألوان زاهية برّاقة. وقد تبلغ ضخامة تماثيل الفراعنة المنصوبة أمام المعابد مبلغاً بحيث تعلو على أبراج المعبد نفسه. واستطاع النحّاتون أن ينحتوا مثل هذه التماثيل الضخمة من حجرة كبيرة مكوّنة من قطعة واحدة. وقد يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو تسعين قدماً وزنته قد تبلغ المائة طن. ونشاهد في الجانب الغربي من طيبة بعض هذه التماثيل الضخمة ولا سيما تمثال الملك «أمنوفس» الثالث الذي كان من أعاظم ملوك السلالة الثامنة عشرة. ونشاهد في الجانب الغربي كذلك مئات من معابد القبور وقد قطعت وحفرت في الحجر وهي تعود إلى مقابر كبار رجال الأمبراطورية من القوّاد والنبلاء والفنانين. وقد دوّنت في بعض المعابد أسماء أصحابها ولمح من تأريخ حياتهم. فنقرأ مثلاً

قصة ذلك القائد الذي خلص حياة الفرعون «طوطمس الثالث» عندما كان يصطاد الفيلة في آسيا (في الفرات الأعلى) وذلك بأن قطع خرطوم الفيل الذي أوشك أن يقضي على الملك. ونقرأ في قبر آخر قصة القائد الذي فتح مدينة «يافا» في فلسطين على حين غرة بأن خبأ رجاله في صناديق محملة على الحمير وأدخلهم إلى المدينة بصفتهم بضاعة تجارية وهي قصة تذكرنا بقصة «علي بابا والأربعين حرامي» في ألف ليلة وليلة، وقصة الزبّاء العربية.

وقد دفع المصريين اعتقادهم بالحياة الأخرى بعد الموت، كما ذكرنا فيما سبق، إلى إيداع أنفس الأثاث والأدوات في قبور الموتى. وهذا ما نجده في قبور العظماء في الجانب الغربي من طيبة، إذ وجد المنقبون فيها أثاثاً ورياشاً تعدّ على جانب عظيم من الروعة الفنية وتشهد بما بلغه الفن المصري من الرفعة والبذخ والأناقة في عهد الأمبراطورية. ونستطيع بدراسة هذه المقابر أن نقف على تطور الديانة المصرية منذ عهد الأهرام. فنجد في عصر الأمبراطورية فكرة البعث والقيامة والحساب فيما بعد الموت أوضح مما كانت عليه في عهد الأهرام. وكان الإله الذي يحاسب الموتى هو «أوسيريس» القاضي العظيم. فبأستطاعة الرجل الصالح أن ينال الخلود فيما بعد الموت ولكن كانت روحه توزن في ميزان يوضع في إحدى كفتيها رمز العدل والصدق وفي الكفة الأخرى قلبه (انظر الصورة آخر الفصل). وكانوا يضعون في قبر الميت لفة من ورق البردي المكتوب بأدعية وصلوات ورقى لتساعد الميت في العالم الآخر وكانوا يضعون مع هذا الكتاب الذي يدعى «كتاب الأموات» صورة تمثل الحساب بوزن النفس، فصار الخلود ليس ببناء الأهرام فحسب بل بالأعمال الصالحة التي يقوم بها البشر في هذه الحياة، وسنطرق هذا الموضوع في مكان آخر.

وحدثت في عهد الأمبراطورية، بعد مضي ما يقرب من القرنين، ثورة دينية في مصر تعدّ على قدر عظيم من الأهمية في تأريخ البشر وقد قام بهذه الثورة الفرعون المصري «أمنحوتب» أو «أمنوفس» الرابع الذي عرف باسم

أخناتون. فقد اعتقد هذا الملك بإله واحد لا إله غيره، وهو الإله الذي تصوَّر أن قرص الشمس مظهر من مظاهره وبلغ من تحمس هذا الملك لدينه الجديد مبلغاً جعله يناوىء الآلهة الأخرى ويحاول القضاء على عبادتها وحمل الناس على قصر العبادة على ذلك الإله الواحد الذي سماه «أتون». وأراد أن يفرض عبادته على جميع أنحاء الأمبراطورية. وقد عمد على سدّ المعابد الخاصة بالآلهة الأخرى وإقصاء كهنتها ومحو أسماء الآلهة. وقد وجّه غضبه بالدرجة الأولى على الإله (أمين) (أمون)، إله طيبة العظيم الذي شيّد لعبادته معبد الكرنك الفخم، ولكرهه لهذا الإله ولأن اسمه يدخل في تركيب اسمه (أي أمين ـ حوتب ومعناه أمين ـ يستقر) عمد إلى تغيير اسمه إلى (أخناتون، ومعناه: أتون راض) وهجر أخناتون العاصمة المقدسة طيبة وابتنى له عاصمة جديدة في موضع العمرانة الآن وسماها (أخت ـ أتون) (أي أفق الشمس)، ونقل إليها مقرّ العاصمة وأعمال الحكومة. وقد وجدت في هذه العاصمة السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة إليه وإلى أبيه من ملوك الشرق الأدنى وحكام الأمبراطورية في بلاد الشام، وهي مدوّنة بالخط المسماري واللغة البابلية كما أشرنا إلى ذلك في بحث العلاقات الدولية في زمن الأمبراطورية. ووجد في هذه العاصمة كذلك نماذج جميلة من المنحوتات وفيها روح جديدة من التمثيل الواقعي والانطلاق من القيود القديمة فكأن هذه الثورة الدينية قد نفخت في الفن روحاً جديدة.

وثورة أخناتون الدينية في الواقع تُعدّ الأولى من نوعها في تأريخ الأديان البشرية، وهي بروحها توحيد خالص وتجريد لتصور البشر عن هذا الإله. والذي لا شك فيه أن لهذه الثورة الدينية علاقة وثقى بالديانة العبرانية ولا سيما فكرة التوحيد وتجريد فكرة الله من شائبة الشبيه والتمثيل التي كانت عليها معظم الحضارات القديمة. وقد ذهب البعض إلى أن العبرانيين قد أخذوا عبادة أخناتون وأن موسى نفسه هو مصري من أتباع هذه الديانة الجديدة[1]. ونحن

---

(1) (Sigmund Freud, **Moses and Monotheism** (London 1940).

لا يسعنا أن نسهب القول في العوامل التي أدّت إلى هذه العقيدة التي تعدّ ثورة في تأريخ البشر، ولعل لنشوء الأمبراطورية علاقة بإيحاء هذه الفكرة إلى هذا الملك أو النبي الجديد فقد اعتقد بأن هذا الإله الأوحد قد خلق جميع الخلق والبشر باختلاف أشكالهم وألوانهم، وقد تصوّره هذا الملك بأنه إله رحيم عادل يشمل بعطفه ورحمته جميع المخلوقات. وقد ألّف لعبادته وتمجيده صلوات وأدعية هي من أصفى أنواع التوحيد والتجريد، لأنها تمثل مبدأ الوحدانية تمثيلاً صادقاً.

سبّبت هذه الثورة الدينية ارتباكاً في داخل مصر وضعفاً في أجزاء الأمبراطورية، وقد سبق أن لخصنا ذلك في بحث العلاقات الدولية في عهد الأمبراطورية. وبعد أن مات أخناتون قضي على ديانته ورجعت مصر إلى ديانتها الوثنية، ولكن الضعف المستمر في أنحاء الأمبراطورية وإلى ذلك كانت الأمبراطورية الحثية التي نازعت المصريين السلطة على بلاد الشام في أوج قوتها (راجع بحث العلاقات الدولية)، وعلى الرغم من نجاح ملوك السلالة التاسعة عشرة في إرجاع قسم من قوة الأمبراطورية إلا أن النزاع مع الحثيين قد أنهك قوى الدولة المصرية، فعقدت بين الطرفين معاهدة صداقة وعدم اعتداء، وما إن تخلصت الدولة المصرية من الخطر الحثي حتى جابهت خطراً أعظم وهو نشوء الدولة الآشورية وبداية تعاظم قوتها منذ القرن الثاني عشر ق.م. (راجع بحث الآشوريين).

أحوال الدولة المصرية بعد الأمبراطورية:

بدأ الانهيار والتفسخ في الأمبراطورية المصرية في أيام السلالة الواحدة والعشرين التي كان مركزها في الدلتا، كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق. وقد بدأ في عهد هذه السلالة نفوذ الليبيين في المملكة المصرية، حتى أنهم أسسوا سلالة منهم هي السلالة الثانية والعشرون (950 ق.م) كما تدل على ذلك أسماؤهم وأنسابهم واشتهرت هذه السلالة بحكم الفرعون القوي «شيشنك» وهو «شيشك» الوارد في التوراة الذي تدخل في شؤون المملكة الإسرائيلية من

بعد موت سليمان، ومما يشير إلى تدهور الوضع أن ملوكاً منافسين لهذه السلالة كانوا يحكمون في البلاد. ودخل الأمراء والنبلاء في نزاع وحروب فيما بينهم، وكانت السلالة التي حكمت من بعد ذلك أي السلالة الثالثة والعشرون على درجة من الضعف بحيث لم تستطع أن تسيطر على هؤلاء. ومما زاد في الطين بلة أن مملكة منفصلة قد تأسست في نوبية يرجّح أن يكون مؤسسها زعيماً من «ليبيا» فأزدادت الفوضى والنزاع بين الدويلات والأسر الحاكمة، واستمرّ سوء الوضع في عهد السلالة الرابعة والعشرين التي لم تتألف إلّا من ملك واحد، وامتاز عهد السلالة الخامسة والعشرين بتمكين حكم الأحباش وحصل اتحاد في البلاد، أي أصبحت الحبشة ومصر تحت حكم سلالة واحدة من الحبشة وبدت على البلاد بوادر القوة والانتعاش، ولكن صادف ذلك بلوغ الأمبراطورية الآشورية ذروة قوّتها واتساعها، فبدأ الخطر على مصر يهدد كيانها، ولما لم يسغ ملوك مصر الدخول في النزاع المباشر مع الآشوريين فإنهم صاروا يساعدون بلاد سوريا في كفاحها ضد سلطان الملوك الآشوريين، من سرجون وسنحاريب. واشتهر من ملوك هذه السلالة (ترهاقة) أو «طهراقا»[1] الحبشي الذي أبدى عزماً في مقاومة اندفاع الآشوريين، ولكن أسرحدون الآشوري دمر جيشه في 671 ق.م. في حدود مصر، واستولى على منفس وأخذ غنائم كثيرة، ويبدو أن من جملة الأسباب لتخاذل الدفاع ضد الآشوريين وجود جماعات كبيرة في مصر تبغض حكم الأحباش ولا سيما في القسم الشمالي من القطر، ولكن ترهاقة بذل الجهود لمصافاة أعدائه وجلبهم إلى جانبه في أثناء استعداده لطرد الآشوريين. بيد أن الآشوريين قاموا بمناورة بارعة لإحباط مشروعه، بأن عيّنوا في إدارة حكم البلاد وفي جباية الضرائب أمراء من أهل البلاد، ومع ذلك فإن ترهاقة كان حاكماً من الطراز الأول، فبعد أن ترك أسرحدون مصر بزمن قليل انقض ترهاقة على الحاميات الآشورية

---

(1) انظر خبر اكتشاف أجزاء من تماثيل فرعونية في نينوى تعود إلى هذا الملك في الجزء الأول.

وأوقع فيها السيف. ولكن «آشور بانيبال» الذي خلف أسرحدون أوقع الهزيمة في جيش ترهاقة وأعاد حكم الآشوريين في مصر، وجعل الملك الآشوري على رأس حكومة مصر الملك المصري (نيخو) المعادي للحكم الحبشي، ولكن مصر العليا ظلت موالية لترهاقة الحبشي، وقد استطاع ابنه أن يثور ويحاصر منفس ولعله قتل (نيخو) الصنيعة الآشورية، فأعاد الكرة «آشور بانيبال» وطرد الملك الحبشي ولاحقه إلى مصر العليا ودمّر مدينة طيبة. وخلف نيخو ابنه (بسماتيك) (664 ـ 610 ق.م) وكان تابعاً للآشوريين في حكم مصر. ولكن صادف حكم هذا الملك انهيار الأمبراطورية الآشورية وصادف عهد تدمير نينوى فأستطاع أن يؤسس حكماً ازدهرت فيه المملكة المصرية، وقويت ووسع سلطانها إلى مصر العليا ولم يكد يمضي على حكمه عشر سنين، وقد ظل مخلصاً في ولائه للآشوريين حتى أنه أرسل جيشاً في أواخر حكمه لمساعدة الآشوريين في دفاعهم ضد الماذيين والبابليين. وخلف بسماتيك ابنه المسمى (نيخو) (610 ـ 594 ق.م)، وقد رأينا هذا الملك يرسل بعد سقوط الدولة الآشورية جيشاً لاستعادة البلاد السورية إلى مصر، فلم يجد إلّا مقاومة طفيفة من ملك (يهوذا) الذي اندحر وقتل في المعركة، فسار نيخو إلى الفرات، فلاقاه في كركميش ولي العهد البابلي نبوخذنصر الثاني الذي أرسله أبوه (نبوبولاسر) لصدّ الجيش المصري، فأندحر هذا الجيش، وكادت تكون الكارثة أعظم لو لم يرجع نبوخذنصر على أثر سماعه بموت أبيه وتولّيه العرش. وقد أعقب (نيخو) ملكان هما بسماتيك و(حوفرا) أو (افريز)، وقد حرّض الأخير مملكة يهوذا على الثورة ضد سلطان البابليين في عهد «نبوخذنصر» الثاني، فكانت النتيجة تدمير المملكة اليهودية والفتك باليهود ونقلهم أسرى إلى بابل، كما ذكرنا ذلك من قبل (راجع الفصل الخاص بالعهد البابلي الأخير، وكذلك الكلام عن العبرانيين). ومن ملوك هذا العهد في مصر (أماسيس) الثاني (570 ـ 525 ق.م)، ومما يذكر عنه أنه أنضم إلى أعداء الملك الفارسي (كورش). ولكنه لحسن حظه لم ير بعينه انتقام الفرس منه، إذ إن (قمبيز) غزا مصر بعد موته بتسعة أشهر (525 ق.م).

وقد أبدى قمبيز في بادىء أمره تساهلاً في حكم مصر فقد احترم ديانة البلاد، ولكنه غيّر هذه السياسة تغييراً تاماً ولا سيما بعد حملته الفاشلة إلى الحبشة فسحق البلاد ودمرها وارتكب الفظائع. ولكن دارا الثاني أبدى تساهلاً وصالح السكان حتى أنه بنى معبداً لأمون في الواحة الكبرى (واحة سيوا)، وعلى الرغم من الضرائب الفادحة فإن ولاية مصر ازدهرت نوعاً ما في عهد دارا، ولكن بعد كارثة (مراثون) ثارت مصر فأخمد الثورة أحشويرش بالشدة. وقد استمر العهد الفارسي حتى 332 ق.م. حيث فتح البلاد الإسكندر الكبير بعد موقعة (ايسوس) الشهيرة وبعد فتح فينيقية. وكان فتح الإسكندر بدون أي مقاومة لأنه لم يكن عند الوالي الفارسي قوة يعتدّ بها. ومما يؤثر عن الإسكندر احترامه لديانة البلاد وتقاليدها، وقد زار معبد الإله أمون وأسس الإسكندرية. وقد أعلن (كهنة) الإله «أمون» أن الإسكندر (ابنه)، متبعين في ذلك سنة الملوك المصريين.

وعند اقتسام أمبراطورية الإسكندر في عام 323 ق.م. صارت مصر حصة (بطليموس) بن (لاجوس) مؤسس سلالة (البطالسة أو البطالمة) في مصر، وقد امتاز عهدهم بكثرة الضرائب وفداحتها، وقد اصطبغت مصر بالصبغة اليونانية، كما أن الحضارة المصرية قد أثرت في الحضارة اليونانية فنشأ من تفاعل حضارات الشرق ولا سيما حضارة مصر وحضارة العراق حضارة خليطة هي (الهلنسية) التي سنأخذ موجزاً عنها في موضع آخر من هذا الكتاب. ومما يجدر ذكره عن عهود البطالسة في مصر التنويه بازدهار العلوم والتحريات والبحوث العلمية حيث صارت الإسكندرية مركزاً مهماً لهذه البحوث ومحطاً لمشاهير العلماء، فقد أولع «بطليموس» الأول مؤسس السلالة في مصر، في تشجيع العلم والعلماء وصرف في سبيل ذلك الأموال الطائلة. فأسس «متحف الإسكندرية» الشهير حيث كان أكاديمية للبحوث العلمية، واستمرّ الولع في العلوم في عهد بطليموس الثاني، بحيث يصحّ القول إن الولع في البحث العلمي ممثلاً بمتحف الإسكندرية، لم يعرفه البشر مرة أخرى إلّا منذ القرن السادس عشر للميلاد. وتأسست في عهد بطليموس الأول أيضاً

«مكتبة الإسكندرية» الشهيرة في استنساخ الكتب المهمة وحوت مكتبتها من هذه النفائس ما جعلها تشتهر في تأريخ تطور الفكر الإنساني[1] ولكن مما يؤسف له أن هذا البحث العلمي لم يستمر طويلاً لأن معهد الإسكندرية (المتحف) كان مؤسسة ملكية يموّلها الملك، فسارت الأمور على خير ما يرام في عهد بطليموس الأول الذي كان تلميذاً لأرسطو وأخذ عنه شغفه بالبحث، ولكن البطالسة من بعد بطليموس الثاني لم يهتموا كثيراً بتشجيع العلماء. وسيتبين مما سنذكره من مشاهير العلماء الذين أمّوا معهد الإسكندرية مقام هذا المعهد وأثره في تأريخ العلوم، فمن هؤلاء المشاهير إقليدس (Euclid) الرياضي الشهير في بداية القرن الثالث ق.م. «اراتوسثينيز» (Eratosthenes) الذي قاس محيط الأرض ووصل إلى نتيجة قريبة جداً من المقدار الحقيقي و«أبولونيوس» (Apollonius) الذي ألف في الرياضيات واشتهر ببحثه الخاص في المقاطع المخروطية (Conic sections) و«هبارخوس» (Hipparchus) الفلكي المشهور الذي كان أول من رسم خارطة للأجرام السماوية و«هيرون» (Heron) الرياضي المشهور بالجبر وبتطبيقه العلوم على الاختراعات الميكانيكية حيث اخترع أول ماكنة للبخار كما أن «أرخميدس» قد جاء من «سرقوسة» ليدرس في متحف الإسكندرية، وكان يراسل علماءها الدائميين.

---

(1) حول هذه المكتبة الشهيرة انظر:

E.A. Parson, **The Alexanderian Library, A Glory of the Hellenic World** (1952); **Antiquity**, II (1928), 196 ff.

وقد احترقت هذه المكتبة ويا للأسف في أثناء الحروب في زمن يوليوس قيصر في عام 48 ق.م.، كما أن المكتبة الثانية التي نشأت من بعدها قد أحرقها الأمبراطور ثيودوسيوس في عام 389 للميلاد ولكن نسب حرقها إلى إيعاز للخليفة عمر إلى واليه على مصر، غير أن البحث الحديث أثبت بطلان هذه الرواية الأسطورية. انظر حول ذلك:

(1) P.K. Hitti, **History of the Arabs** (1937), 166 ff.

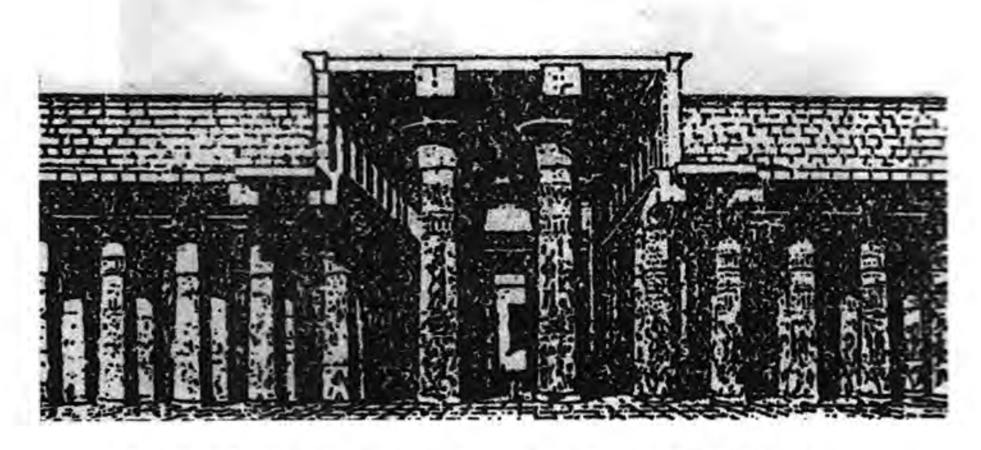
(2) Butler, **The Arab Conquest of Egypt.**

الذي نقله إلى العربية محمد فريد أبو حديد (القاهرة 1933).

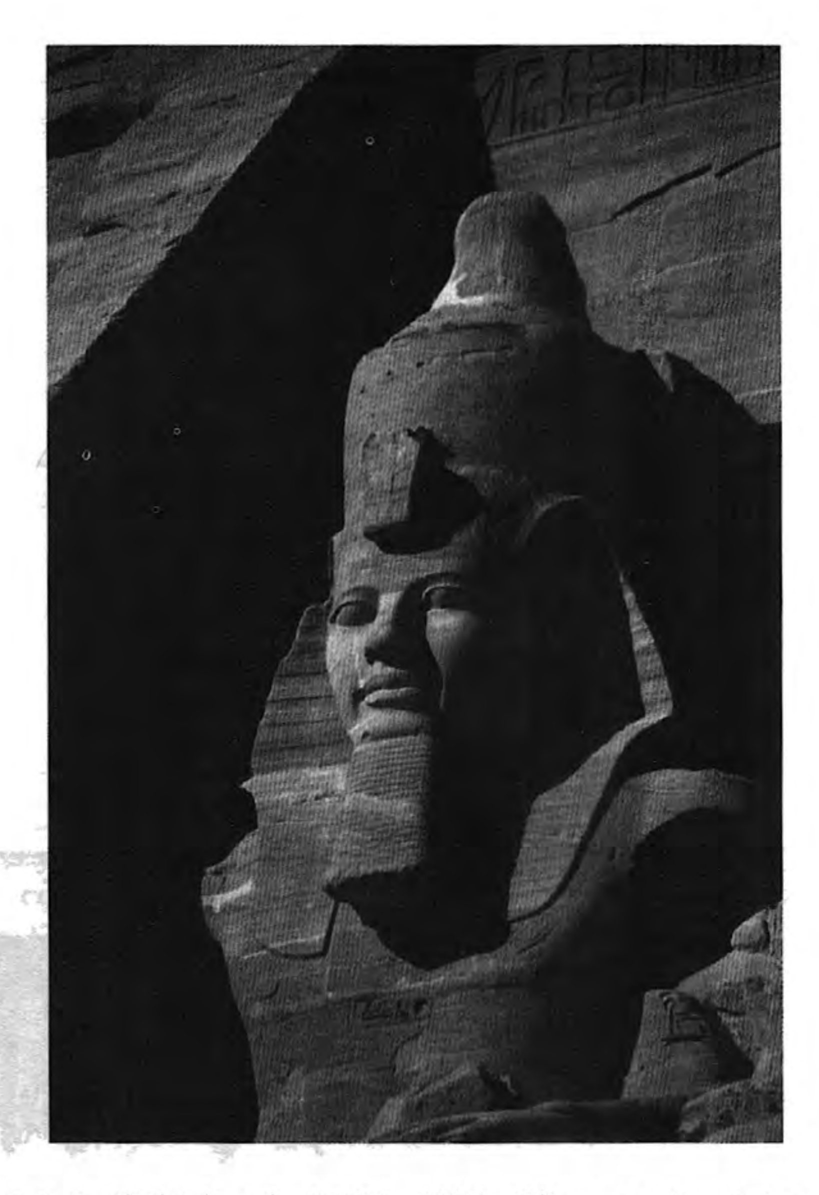
ودام عهد البطالسة في مصر إلى 30 ق.م.، حيث فتح (أوغسطس) الروماني مصر في ذلك العام، فحل العهد الروماني. ومما يقال في هذا العهد أن نظام الإدارة في عهد البطالسة قد ظل معمولاً به ولكن الموظفين الرومان أخذوا يشغلون المناصب العليا بالتدريج. وقد اعتمدت روما على مصر في تجهيزها بالحبوب بحيث كان مصدر غذائها الرئيسي من هناك ولذلك عني الأباطرة الرومان عناية كبيرة في ضبط حكم هذا الإقليم وضمان عدم القيام بالثورات من جانب الحكام الرومان، إذ كان معنى ذلك إحلال المجاعة في روما. وقد تدهورت البلاد في العهود الأخيرة بسبب التجاء الرومان إلى حكم البلاد حكماً عسكرياً صرفاً، وبسبب تقريب الرومان الجاليات الإغريقية ولا سيما سكان الإسكندرية الذين كانوا أجانب عن البلاد ولا يمثلونها، وقد ساء الوضع في عهود الأباطرة الضعفاء حيث تعرّضت البلاد إلى هجمات البدو وتخريبهم، وعمّ فساد الإدارة، فأنقذت البلاد بالفتح العربي على يد القائد المشهور عمرو بن العاص في عام 639 للميلاد في زمن الخليفة عمر وبذلك بدأ عهد جديد انطوت فيه الصحائف الأخيرة التي تميّزت بالتدهور والانحطاط، ودخلت مصر في حظيرة الحضارة العربية الإسلامية وقد ساهمت في بناء تلك الحضارة مع من ساهم من أقطار الشرق الأدنى.



طوطمس الثالث (1490 ـ 1436 ق.م)
الذي كان أعظم ملوك الأمبراطورية (السلالة الثامنة عشرة).



صورة ترينا القاعة الكبرى ذات الأعمدة في معبد الكرنك، في طيبة القديمة
وهو أعظم بناء في عهد الأمبراطورية المصرية.



نحت ضخم يمثل رعمسيس الثاني (1301 ـ 1234 ق.م) من السلالة التاسعة عشرة، نحت في وجه الحجارة الشاهقة في «أبو سمبل» (في نوبية من الجانب المصري)، ويزين التمثال البالغ ارتفاعه زهاء 75 قدماً واجهة المعبد الخاص بذلك الفرعون.

بعض الأوجه المختلفة من حضارة مصر

الفصل الثالث والعشرون

الديانة

1 ـ الآلهة وأصلها:

مع كثرة مصادرنا عن الديانة المصرية أو لعله بسبب كثرة هذه المصادر وتضارب وجهات نظرها لا يزال كثير من أوجه الديانة المصرية غامضاً لدينا، ولا سيما قضية أصل الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وصفاتها ووظائفها، واختلاف ذلك بحسب عصور الحضارة المصرية المتطاولة.

ومن الأمور العامة التي تميِّز هذه الديانة من ناحية آلهتها تعدد هذه الآلهة وكثرتها الساحقة على نحو ما رأينا في ديانة حضارة وادي الرافدين مما سميناه بمبدأ الشرك أو تعدد الآلهة فلم يصل تطور الديانة في حضارة وادي النيل إلى فكرة التوحيد، اللَّهُمّ إلّا في عهد الفرعون الشاذ «أخناتون» الذي ذكرنا خبر «وحدانيته» في موضع سابق، ولكن كانت هذه فكرة يصحّ أن نسميها «جهيضة» إذ إنها ماتت بموت صاحبها وعادت مصر إلى ديانتها الوثنية السابقة. كما أن مراكز الآلهة كانت تتغير في أهميتها مع التبدلات السياسية، بالنسبة إلى السلالات المختلفة ومراكز حكمها. وكثيراً ما عمد الكهنة أيضاً إلى التوفيق بين وظائف الآلهة ومطابقتها بعضها ببعض فتندمج بهذا الوجه جملة آلهة (وقد يبلغ عددها أكثر من الثلاثة) في إله واحد يتركب اسمه من أسماء هذه الآلهة مثل «اتوم ـ رع»، ولكن مع ذلك لم يصل القوم إلى فكرة التوحيد الخالصة وإنما يصحّ أن نطلق على مثل هذه المحاولات مصطلح «التفريد» (Henotheism). كما أن هؤلاء الكهنة كانوا المنظمين للمعتقدات الدينية وفق

لاهوت رسمي، وبإمكاننا إرجاع نمو الديانة الرسمية وتثبيتها إلى عصر الأهرام، حيث نشأت هذه الديانة الرسمية من عبادة معبد مهم في «هليوبوليس» (مدينة الشمس وسمّاها المصريون القدماء باسم عون، وهكذا وردت في التوراة) وكانت هذه مركز عبادة الإله الشمس.

والمتّفق عليه من جهة أصل هذه الآلهة الكثيرة أنها في أصلها من القوى الطبيعية المهمة التي كانت ذات أثر مهم في حياة سكان وادي النيل الأقدمين حيث جسّموا وشخّصوا هذه القوى بعدئذ وعبدوها على هيئة آلهة أهم ما تتّصف به صفة التشبيه أي إنها كالبشر من ناحية الصفات الروحية والجسمية ولكنها أعلى وأسمى من الإنسان وبيدها القدرة ومصير الكون والطبيعة والإنسان، كما أنها تتّصف بالخلود بوجه عام. وقد حلل البحاثة «فرنكفورت»[1] القوى الطبيعية المهمة التي كانت أصل الآلهة المصرية وأرجعها إلى ثلاثة مصادر رئيسية:

(1) القوى المستمدة من الشمس.

(2) القوى المستمدة من الأرض.

(3) القوى المستمدة من ذلك الصنف من الحيوانات التي كانت أهم مورد اقتصادي في حياة البشر الأولين ولا سيما الأنعام والماشية. وقبل أن نعدّد أهم الآلهة المشتقة من كل مصدر من هذه المصادر الثلاثة نشير هنا إلى أن هذه القوى والآلهة المشتقة منها كثيراً ما تتداخل في مظاهرها ووظائفها، مثل تداخل مظاهر قوى الشمس بالقوى المستمدة من الأرض والحيوانات كالإشارة إلى الشمس أو إلى الإله الشمس بأنه «العجل الذهبي المحمول على

---

(1) انظر المرجع المهم الذي وضعه الباحث المذكور:

H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch.12.

وانظر أيضاً:

Wilson, **Before Philosophy**, 43, ff.

البقرة السماوية» ووصف «خفرع» (وهو من أسماء الإله الشمس) بأنه «العجل أو الخنفساء التي تظهر من الأرض أو التراب».

الآلهة الشمسية

عبد المصريون الأقدمون الإله الشمس بأشكال وأسماء متعددة، وقد سبق أن ذكرنا أن عبادته الرسمية نشأت ونمت في معبد مدينة الشمس «هليوبوليس» وبين كهنته، وكان من أسمائه التي اشتهر بها «رع» و«أتوم» ومعنى الاسم الثاني «الكل»، ولعل هذين الاسمين يمثلان إلهين منفصلين على ما يرى بعض الباحثين. وعرف الإله الشمس أيضاً باسم «خفري» أو خفرع و«هور أختي» (أي هورس الأفق). وقد جعل كهنة هليوبوليس فروقاً بين هذه الأشكال من الآلهة الشمسية فجعلوا «خفرع» مثلاً مظهر الإله الشمس وهو في الصباح و«رع ـ أتوم» الإله الشمس وهو في المساء. أي إن كهنة الديانة القديمة قد جعلوا الإله الشمس مركباً ذا أوجه ومظاهر كثيرة، وقد اشتقت صفاته وميزاته المختلفة من الآلهة الشمسية المحلية المختلفة التي كانت منفصلة متميزة ثم وحِّدت في إله شمسي واحد هو «رع» الخاص بهليوبوليس عند نشوء الديانة الرسمية، ولذلك نجد في صفات الإله الشمس تصورات مختلفة، فتصوروا أن الإله الشمس في سيره عبر الأرض يسير بقارب الشمس عبر الأرض، وكذلك اعتقدوا أن القمر والكواكب تسير في السماء في سفن أيضاً. وبموجب معتقدات أخرى يحمل الإله الشمس في سيره السماوي على جناحين كالطير، وهذا المعتقد يقترن بشكل الإله الذي قلنا إن اسمه «هور أختي» فتصوروه بهيئة «صقر». ومن التصورات الطريفة الخاصة بسير الشمس في السماء تخيلهم لها على هيئة «جعل» (أبو الجعل) وهذا هو الإله الشمس باسمه «خفري أو خفرع» وقد اشتق المصريون القدماء هذه الصورة السمجة من الجعل وهو يدحرج «كرة القذارة»، حيث تخرج الجعلان الصغيرة من هذه الكرة كما تنبثق الحياة من الإله الشمس الذي تصوروه على هيئة جعل هائل الحجم يدحرج الشمس ويسيرها في الفضاء. ومن المعتقدات الخاصة بالشمس والإله الشمس أن

الشمس تمضي ساعات الظلمة وهي تجتاز العالم الأسفل (الذي دعوه «دات») في سفينة قبل أن تعود إلى الظهور فوق الأرض كل يوم وقت الشروق، وتصوروا السماء مؤلفة من جسم الإلهة «نوت» الممتد على الأرض بهيئة قوس هائل، ورأسها يلامس الأفق الغربي وصلبها في الأفق الشرقي، وذراعاها ورجلاه ممتدة إلى ما وراء الأفق، فتبتلع هذه الآلهة الشمس في كل مساء وتمر الشمس من داخل جوفها في خلال الليل حيث تولد من جديد وقت الشروق.

وكما سيتضح لنا في الكلام على الخليقة كان الإلٰه الشمس أول ملك بصفته الإلٰه الخالق، والفرعون خليفته، والإلٰه الشمس بصفته الإلٰه الخالق كان أول شيء ظهر من المياه الأولى (نون) أو «نو» فوق «تل الخليفة»، حيث خلق رابية كانت أول ما ظهرت من اليابسة من المياه الأولى، وعدّ المصريون الإلٰه الشمس الإلٰه الخاص بالعدل كما كان الإلٰه الشمس في حضارة وادي الرافدين. وقد جسّموا العدالة وجعلوها ابنة الإلٰه الشمس وسمّوها باسم «مات» وقد دعي قرص الشمس الظاهر باسم «أتون» الذي رأى فيه أخناتون مظهر الإلٰه الواحد الذي تصوره.

ومن الآلهة التي أدمجت أو طوبقت مع الإلٰه الشمس الإلٰه «أمون»، إلٰه طيبة العظيم، ولقب بملك الآلهة، وتصوروه يتجسّد أو يظهر في الكبش وقد عرفت عبادته في عهد المملكة القديمة، واكتسب أهمية خاصة في عهد المملكة الوسطى وفي عهد الأمبراطورية. وسمي باندماجه مع الإلٰه الشمس «أمون ـ رع»، وعدّ السبب الأول في الخلق وأصل الحياة، كما عدّ أيضاً الإلٰه الخالق الذي كان أول من خرج من المياه الأولى (نون) أو «نو» وأنه أبو الآلهة، وبضمنهم الإلٰه «رع» وأكمل نفسه وصار الإلٰه الكامل «أتوم».

الآلهة المشتقة من أصل حيواني:

لا تبدو عبادة الحيوانات (Zoolatry) من جانب المصريين القدماء غريبة إذا علمنا أن الفكرة الكامنة وراءها هي أن الآلهة تتجلى أو تتجسّد في

الحيوانات ولذلك اتّخذت أشكال الحيوانات (Theriomorhpism) وتتعدد الحيوانات التي اتّخذت آلهة مجسدة كفرس النهر والتمساح، والأسد والثور والكبش والقرد الذي رأسه رأس كلب، والكلب والذئب وابن آوى والصقر، والنسر، والحمامة والجعلان الخ. كما أن الآلهة الأخرى تشبّه بالحيوانات كنعت الملك «بالعجل القوي» والملكة «بالبقرة الحاملة للعجل» وينعت الإلٰه الشمس بالعجل السماوي، وتمثل السماء على هيئة بقرة كبيرة هائلة يمتد جسمها على طول أفق السماء وتتعلق في جسمها الأجرام السماوية. ومنشأ تقديس الحيوانات وعبادتها كما ذكر من أثرها العظيم في حياة القوم الاقتصادية، وهي فكرة متأصلة عن الأقوام البدائية في القارة الأفريقية. وأهم مظهر لهذه العبادة في ديانة مصر تقديس العجول وعبادتها[1]، وتمثل هذه العبادة على ما يضمن العبادة البدائية في عصور ما قبل التأريخ. ونذكر من هذه العجول العجل الشهير «ابيس» (واسمه بالمصرية حعفى)، وهو تجسيد للإلٰه «فتاح ـ أُوسيريس» في منفس وقد عبد في هذه المدينة، ونعت بأنه رسول الإلٰه «فتاح» والإلٰه «رع» وكانت مواضع عبادة العجول مراكز للعرافة والكهانة. ومن العجول الشهيرة التي عُبدت العجل «منيفس» الخاص بمدينة هليوبوليس والعجل «بوخى» (بوخس). وهناك آلهة مهمة هي «هانور» التي تصورها المصريون القدماء بهيئة بقرة، وأنها الآلهة الخاصة بالجو، وهي تشبه الإلهة عشتار أيضاً من كونها إلهة الحب، ومن الآلهة الحيوانية الإلٰه «أنوف» (أنوبيس) وهو على هيئة ابن آوى، حيث كان إلٰهاً للأموات في «أبيدوس»، ونذكر أيضاً الإلٰه الكبش «خنوم» خالق الفخاريين.

الآلهة المشتقة من الأرض:

معظم الأقوام القديمة أدركت أثر القوى الأرضية فجسّمتها وعبدتها، ولكن كلّاً منها تصور هذه القوى بصور وهيئات مختلفة، فقد رأينا أن سكان

(1) Eberhard, **Beiträge Zur Geschichte der Stierkulte in Agypten** (Leipzig, 1938).

وادي الرافدين رأوا فيها مبدأ الخصب وعبدوها بهيئة «الإلهة ـ الأم»، ودعوها بأسماء مختلفة أشهرها الإلهة عشتار. وكذلك جسّم اليونان مبدأ الخصب في الأرض بهيئة إلهة أنثى. ولكن المصريين القدماء شخصوا الأرض وعبدوها بهيئة إلٰه وليس إلهة، وكان هذا الإلٰه من آلهتهم العظيمة، ودعوه باسم «جيب (Geb)»، وباسم «فتاح» وكان الإلٰه الأخير بحسب لاهوت الخليقة الخاص بمدينة «منفس» هو الإلٰه الخالق. وقد ورد في الآداب الدينية أن الغلة تنمو على أضلاع الإلٰه «جيب».

ومن الآلهة المهمة المتعلقة بقوى الأرض الإلٰه الشهير «أوسيريس» (ولفظه بالمصرية أسارى)، ولا يعلم أصل هذا الإلٰه بالضبط ولعله من أصل أجنبي دخل إلى مصر عن طريق الدلتا، له علاقة بالإلٰه السومري البابلي «تموز»، وقد عين ملك عالم الأموات وقاضي الأموات، كما يلقب بالملك الميت، وأبواه «نوت» الإلهة السماء و«جيب» الإلٰه الأرض، وابن أوسيريس الإلٰه «هورس» الذي ولدته الإلهة «إيسيس» أخت أوسيريس وزوجته. ويتجسّد الفرعون المتوفى بالإلٰه «أوسيريس» أما الملك الجديد الذي يخلفه فيتجسد في الإلٰه «هورس». ويمثل «أوسيريس» بوجه عام الغلة والخضار، وهو مثل الإلٰه البابلي «تموز» يظهر ويموت مع الغلة، كما قرن أوسيريس أيضاً بالنيل وخصبه.

وإذا كانت الديانة الشمسية هي السائدة في عصر الأهرام فإنها اضطرت إلى إفساح المجال إلى عبادة الإلٰه أوسيريس حيث كانت تزاحمها، وهما من أصلين مختلفين تمام الاختلاف، فإن «رع» بالدرجة الأولى إلٰه الأحياء الذي يمكن أن يقترن به ويتخلّد معه بعض الأشخاص من ذوي الامتياز كالفراعنة مثلاً من بعد مماتهم، أما أوسيريس فكان بالدرجة الأولى إلٰه الأموات المباركين وإلٰه عالم الأموات، ولكن مع اختلاف هذين الإلٰهين فإنهما يشتركان بميزة مهمة هي مسألة القيامة والعودة إلى الحياة من بعد الموت، فإن «رع» يموت موتاً مؤقتاً في أثناء مغيب الشمس ويعود إلى الحياة عند مشرقها،

وكذلك عاد أوسيريس إلى الحياة من بعد مقتله، ويعود دوماً إلى الحياة أيضاً بصفته إله الخضار. ولكن مع هذا التشابه بين هذين الإلهين إلا أنه توجد فروق جوهرية في عبادتيهما الأصليتين. أما هذه الفروق فتدور على الاتصال التي تقدمها كل من الديانتين إلى أتباعها فيما بعد الموت. وكما أن أوسيريس إله الجماهير في هذه الحياة فإنه كان يحكم كذلك جماهير الموتى في عالم الأرواح تحت الأرض، وبيده مصير هذه الأرواح من ناحية التخفيف عنها في عالمها الثاني. أما الإله «رع» فإنه يقدم أكثر من ذلك ويبزّ منافسه في طمع الآمال. إذ إنه يخلص أتباعه من الموت ويرفعهم أحياء إلى السماء، أي يصيّرهم بمثابة آلهة خالدين. ولكن يكمن في هذه النقطة جوهر الاختلاف لأن هذا التألّه وقف على من يستطيع أن يدفع ثمنه وهو ثمن باهظ كان يرتفع على الدوام حتى أصبح الخلود «الشمسي» وقفاً واحتكاراً على الفرعون نفسه وحاشية بلاطه وأقربائه ممّن يدفع عنهم ثمن الخلود وجهاز خلودهم وعدته. وما شيّدت الأهرام إلّا لهذه الغاية، أي لتضمن خلود الفرعون الشخصي عن طريق الإسراف في البناء والعمارة. ولذلك فقد انتشرت ديانة «أوسيريس» وتمكّنت من سواد الشعب لأنها كانت العزاء الوحيد للجماهير والأمل لهم فيما بعد الموت، وهم تحت الإرهاق فيما يصيبهم في هذه الحياة لكي يحصلوا على الخلود لأسيادهم. تمكّنت ديانة «أوسيريس» بالرغم من أن الأمل الذي قدمته قد يكون شيئاً طفيفاً لو قيس بالسكنى والخلود في سماء الإله «رع». وقد راع كهنة «هليوبوليس» سلطان «أوسيريس» فعمدوا إلى درء هذا الخطر بوسيلة طريفة بأن أدخلوا «أوسيريس» في شركة الإله «رع». ومع ذلك فإن «أوسيريس» استطاع بهذه الصفقة أن يأخذ أكثر مما أعطى، فعندما دخل في المشاركة مع عبادة الفرعون الشمسية أخذ يستحوذ على كثير من الشعائر الخاصة بالإله الشمس، وأخذ أعظم شيء عنده وهو رفع الجماهير من البشر، وهم أتباعه الأصليون، إلى التألّه والخلود. ونجد هذا التوفيق العجيب بين الديانتين المتناقضتين فيما يسمى في تأريخ الحضارة المصرية باسم «كتاب الأموات»، وهو «دليل كل فرد إلى الخلود» وقد طغت هذه الشعائر والعقائد على الحضارة

المصرية طوال ألفي عام. فقد عمّت العقيدة بأن الإله (رع) يريد التقوى والصلاح دون الأهرام، ولذلك فبوسع الجماهير أن تنال الخلود الذي كان فيما مضى ذا ثمن باهظ لا يستطيع دفعه إلّا الفرعون والطبقة الحاكمة، وصار أوسيريس بموجب هذا التوفيق والمصالحة قاضي عالم الأموات الذي يقدر على البشر المصائر التي يستحقونها بموجب حياتهم على هذه الأرض.

وبالنظر إلى أهمية العبادة الأوسيرية في الحضارة المصرية نختتم كلامنا على الآلهة المصرية بذكر بعض الأساطير التي تدور على عبادة «أوسيريس» لأنها توضّح لنا عقائد مهمة في ديانة مصر القديمة.

وردت في النصوص الدينية المصرية عدّة إشارات إلى الأسطورة التي قامت عليها عبادة الإله «أوسيريس» ولكن لما يأتنا نص كامل عن تلك الأسطورة الطريفة التي شاعت في الأزمنة المتأخرة وحفظت منها صورة كاملة في كتاب «فلوطرخ» (Plutarch) المعنون «إيسيس وأوسيريس»[1] التي وإن اختلفت في التفاصيل مع الروايات المصرية المتفرقة القصيرة إلا أنها تتّفق معها في الأسس، ونوجز فيما يأتي تلك الأسطورة كما وردت في فلوطرخ وفي النصوص المصرية:

«كان أوسيريس الابن الأكبر للإله الأرض «جيب»، (Geb) وللإلهة الجو أو السماء «نوت»، وقد صار ملكاً عادلاً يحكم جميع الأرض، وعلّم البشر الفنون والصناعات والحرف المختلفة، فأستطاع أن يحوّلهم من حال الهمجية إلى المدنية والحضارة. وحدث بعد مضي زمن على حكمه أن أخاه الإله «سيث» (Seth) حسده وأبغضه فقتله غيلة ويروي فلوطرخ تفصيل المؤامرة والقتل، فقد أولم «سيث» لأخيه وليمة ليكرمه بعد عودته من سفر قام به ودعا إلى تلك الوليمة التكريمية اثنين وسبعين من أصدقائه. وقد أحضر «سيث» صندوقاً مصنوعاً صنعاً عجيباً وقدّمه إلى الضيوف على أن يهديه إلى من يدخل

---

(1) Plutarch, **De Iside et Osiride.**

في داخله ويكون مطابقاً ملائماً لحجمه، وبموجب ما بيّت سابقاً جرّب جملة ضيوف الدخول في الصندوق ولكن لم يلائم حجم أي واحد منهم وأخيراً دخل أوسيريس فوجده بمقداره تماماً، وفيما كان لا يزال في داخل الصندوق قتل وأغلق عليه الصندوق ورمي في أحد مصبات النيل من فروع الدلتا، فحمله إلى البحر وطاف الصندوق في البحر وآل به المطاف إلى الرسو في جبيل ولما علمت زوجته «إيسيس» بقتل زوجها صارت تبحث عنه فوجدته في جبيل في الصندوق، الذي في داخله جثمان «أوسيريس» فأخذته وعادت به إلى أهوار الدلتا وانتظرت هنا ولادة طفلها «هورس»، وفيما كانت منتظرة ذلك الحدث كان «سيث» يتصيد قرب الموضع فعثر على الصندوق وأخرج منه الجسم وقطعه إلى أربع عشرة أو ست عشرة قطعة وبعثرها في جهات مختلفة من وادي النيل فأخذت «إيسيس» تبحث عن قطع جثمان زوجها، وكانت كلما وجدت جزءاً منه دفنته في الموضع الذي تجده فيه. فقد دفنت رأسه مثلاً في «أبيدوس» ورقبته في هليوبوليس، وهكذا فعلت في الأجزاء الأخرى ما عدا «عضو التناسل» الذي رماه «سيث» في البحر وابتلعه نوع من السمك.

وتروى صورة أخرى من الأسطورة أنه بعد أن وجدت «إيسيس» جثمان «أوسيريس» أمر الإله الشمس «رع» الإله «أنوبيس» (الإله الذي يمثل بهيئة ابن آوى) أن يحنّطه، ثم رفرفت إيسيس بجناحيها فوق جسمه وعملت على إعادته إلى الحياة، وبعد قيامته من الموت صار ملكاً على الأموات وعلى موطن الأموات. وكانت هذه صفته المميزة في جميع العصور التأريخية، أما بقية الأسطورة كما جاءت مدوّنة على بردية من عهد الأمبراطورية[1] فتروي لنا الصراع العنيف بين «هورس» بن «أوسيريس» وبين عمه «سيث» حيث صمّم «هورس» على الثأر لأبيه، واستطاع «سيث» في القتال العنيف الذي نشب

---

(1) انظر ترجمتها في:

(1) Ancient Near Eastern Texts.

(2) Edwards, The Pyramids of Egypt, 25 ff.

بينهما أن يتلف عيني «هورس» ولكن هذا تغلب على عمه وقتله واعتلى عرش أبيه، وأعيدت عينه المتلفة حيث أعادها الإلٰه «ثوث» وهو الإلٰه القمر وصادق على خلافته لأبيه آلهة مدينة «هليوبوليس». وصار هورس المثل الأعلى لحب الابن لأبيه ومضرباً للأمثال بالتضحية من أجله، كما صارت عينه الهلال»[1].

---

(1) وتوجد أسطورة طريفة عن تحريم الخنزير لكونه دنساً للآلهة، وتدور هذه الأسطورة على أن الإلٰه رع حرم الخنزير على الآلهة وأتباعهم لأن «سيث» اتّخذ شكل الخنزير في قتاله مع «هورس» يوم فقأ عينه. فجعله حيواناً دنساً محرماً من أجل هورس..

طرف من العقائد والعبادات الدينية

عقائد ما بعد الموت:

لقد تكرّرت الإشارات الخاصة بعقائد المصريين بحياة ما بعد الموت وكثيراً ما أكّدنا على أهمية عودة الحياة فيما بعد الموت والخلود مما طبع الحضارة المصرية القديمة بطابع خاص هو اهتمامها المفرط بشؤون ما بعد الموت، من قبور وطرق دفن والمحافظة على الأجسام الملحودة مما تطرّقنا إليه سابقاً. وذكرنا أيضاً علاقة بعض الآلهة بعودة الحياة والخلود ولا سيما الإلٰه الشمس «رع» والإلٰه «أوسيريس»، وإذ اعتقد المصريون القدماء بإمكان عودة الحياة ما بعد الموت ونيل الخلود في حياة أخرى، إلا أن ذلك لم يكن عندهم من الأمور الطبيعية «الأوتوماتيكية» التي تقع من بعد الموت بدون أن يقوم البشر بعمل أي شيء. بل إن الأمر كان يتوقف على قيام البشر بأمور «طقوسية» مهمة، وتزويد الميت بجميع العون المادي، كتهيئة القبر بوجه عام، سواء كان القبر حفرة عادية أو مصطبة أو هرماً على نحو ما رأينا سابقاً، وكذلك مراعاة أصول الدفن الخاصة. وقد اعتقد المصريون القدماء منذ أقدم أزمانهم التأريخية بأن الإنسان مكوّن من عنصرين متميزين هما الجسم والروح، على ما بيّنا من قبل، واعتقدوا أيضاً بإمكان بقاء الروح حية من بعد موت الجسم الطبيعي إذا حُفظ الجسد سالماً وجُهّز بما يحتاج إليه. ولا يعلم بالضبط كيف تصور المصريون الموضع الذي تذهب إليه الأرواح من بعد الموت، والمفترض أنه العالم الأسفل الذي يتصل بالقبر، لذلك دفنوا مع

الميت في القبر كل ما كان يحتاج إليه في هذه الحياة بحسب اقتدار الميت. ولكن نشأت معتقدات مهمة عن عالم ما بعد الموت اشتقّت من عبادة الإلٰه «أوسيريس»، حيث تصوروا عالم ما بعد الموت «الأوسيري» (ودعوه مملكة أوسيريس) موضعاً هو المثل الأعلى للخلود، وموضعه في «حقل» السلام الذي هو جزء من «حقل القصب»، وعرّفه الإغريق القدماء باسم «الحقل الإليزي» (Elysian Fields) حيث موضع خلود الآلهة وموضع السعادة الأبدية. وقد خصّص في هذه المملكة التي يحكم فيها أوسيريس موضع خاص للحساب والدينونة (قاعة الحساب). حيث تحضر نفس كل إنسان هناك وتوزن في «الميزان الأعظم» بمحضر من الإلٰه «ثوث» سكرتير الآلهة وكاتبها، وقد وردت لهذا المشهد صور متعددة مثلت بها النفس أو الروح البشرية بالقلب حيث وضعت في إحدى كفّتي الميزان ووضعت في الكفة الثانية «ريشة» هي رمز العدالة والصلاح (مات أو معت)، فإذا لم يرجّح وزن القلب على «الريشة» فإنه يُرمى إلى وحش خاص ليلتهمه (اسمه آكل الموتى)، وهو حيوان مركّب، بعضه تمساح وبعضه أسد وبعضه فرس النهر، وإذا ما تعادل وزن القلب والريشة، فيعلن عندئذ الإلٰه «ثوث» إلى الآلهة، فتؤخذ نفس الميت إلى حضرة الإلٰه «أوسيريس» حيث يجازي الميت بحسب ما يستحقه. ويبدو من النصوص الخاصة بهذه الأمور أنه قبل أن تجري عملية وزن القلب كان الميت يمرّ من «قاعة» أوسيريس وهنا يقوم «بالاعتراف» بمحضر (42) قاضياً من قضاة الموتى، والظاهر أن كل واحد من هؤلاء يستنطق الميت عمّا إذا كان قد ارتكب إثماً معيناً فيجيب الميت بأجوبة سالبة أي إنه لم يرتكب الذنوب المعيّنة (كما جاء في «كتاب الأموات»)[1]، وكان هناك عقاب وثواب، فالثواب كان في منح الخلود والسعادة الأبدية في مملكة أوسيريس السعيدة، أما العقاب، فكان بطريق إفناء الروح وليس بالعذاب الأبدي.

(1) The Book of the Dead, ch. CXXV.
انظر: Ancient Near Eastern Texts (1950), 34 ff.

ولأن عبادة الإلٰه «أوسيريس» تمركزت في أبيدوس فأصبح هذا الموضع ذا أهمية خاصة في عقائد ما بعد الموت، فتروي لنا المآثر المصرية أن رأس الإلٰه أوسيريس قد دُفن في «أبيدوس»، وبحسب رواية أخرى أن «إيسيس» دفنت جميع جسمه هناك، فكانوا يقيمون في «أبيدوس» كل عام رسوماً دينية من بينها تمثيل ما قاساه الإلٰه في موته ثم قيامته وعودته إلى الحياة. وكان يحجّ إلى موضع «أبيدوس» جمع غفير من جميع أنحاء مصر، وقد وجد الموضع مملوءاً بكسر الفخار التي هي بقايا ما كان يقدمه الحجاج من قرابين للإلٰه. وكان الحج إلى «أبيدوس» ضرورياً للبشر أيضاً فيما بعد الموت، ولذلك نشأت العادة من بعد عهد المملكة القديمة أن المصريين صاروا يجهّزون موتاهم بقوارب يدفنونها مع الميت مع اللوازم الأخرى التي يحتاج إليها، ليتمكّن الميت من السفر والحج إلى «أبيدوس». ونشأت عادة أخرى أيضاً منذ عهد المملكة الوسطى في قيام الأفراد المتمكنين بتشييد قبور خالية لهم أو مقامات (Cenotaph) في «أبيدوس» لتتمكن أرواحهم من العيش بجوار مقام «أوسيريس» وتشترك بالمراسيم السنوية الخاصة به. فمثلاً شيّد «سنو سرت» الثالث أعظم ملوك المملكة الوسطى مقاماً له في أبيدوس، ولكن جثمانه دُفن في لحده في «دهشور»، وكان من لم يستطع إقامة «مقام» له يقيم شاهد قبر له قرب مزار أوسيريس، وكانوا ينحتون مثل هذه الشواهد بنحت بارز ويكتبونها بأسمائهم.

واعتقد المصريون القدماء بالسحر وأثره العظيم في هذه الحياة وما بعد الحياة، فاعتمدوا عليه في شؤونهم حتى أنهم اعتقدوا أن الدساتير السحرية تمكّنهم من التأثير حتى في الآلهة، وأحسن ما يوضّح لنا ذلك «الكتابات السحرية» التي كانوا ينقشونها على جدران حجرات الأهرام وممراتها منذ عهد السلالة الخامسة والسادسة. كما نشأت عادة وضع اسم الإلٰه «أوسيريس» بهيئة لقب قبل اسم الميت لتحويل الميت إلى مادة الإلٰه من حيث إمكان القيامة والحياة بعد الموت، أو حتى لتأليه الميت. فكان الفرعون في أثناء الحياة يُطابق ويُعادل بالإلٰه «هورس» بن «أوسيريس»، وعند الموت يصير أوسيريس، ويصير ابن الملك الذي يعتلي العرش في مكان أبيه الميت الإلٰه «هورس». ثم توسعوا

في هذا الامتياز، وجعلوه يشمل أعضاء الأسرة المالكة، ثم صفوة مختارة خارج دائرة العائلة المالكة، وأخيراً صار الاتصال بأوسيريس من حق جميع الناس.

ولكن الفرعون يتّحد مع الآلهة في السماء ويصير إلهاً مثلهم. هذا وقد سبق أن نوّهنا بأن العنصر غير المادي من الإنسان يأخذ وجوداً مستقلاً وقد سموا هذا العنصر بمصطلح تصعب ترجمته هو «با»، (ولعله يعني النفس أو الروح) وكانوا يكتبون هذا الرمز في الخط الهيروغليفي القديم بصورة «القلق»، ثم مثلوه بعدئذ بهيئة طير جسمه جسم إنسان ملتحٍ وأمامه سراج ضوء. وقد تصوروا النجوم بأنها عدد لا يحصى من (الباءات) (جمع با) مُضاءة بسرج من النور. ومع انفصال (البا) عن الجسم المادي إلا أن استمرار وجوده كان يتوقف على المحافظة على الجسم، ومن هذا منشأ فن التحنيط. واعتقد المصريون القدماء بعنصر أو ماهية أخرى غير مادية علاوة على عنصر «البا»، وكان ذا خطورة أيضاً في ضمان حياة ما بعد الموت، وبوجه خاص في خلود الفرعون وقد سموا هذه الماهية باسم «كا»، ورمزوا لها بهيئة إنسان ملتح متوّج بتاج مؤلف من ذراعين مرفوعين وملتويين عند المرفق، ويمثل أحياناً بهذين الذراعين فقط دون الشكل البشري. ويجيء هذا العنصر إلى الوجود منذ ولادة الشخص ويبقى معه من بعد الموت، وعقيدة وجود «الكا» واضحة بوجه خاص بالنسبة إلى الملك، وقد اختلف في تفسيرها الباحثون فمنهم من يرى أنه يمثل «شخصية» المرء الثانية أو أنه يمثل «القوة» الحيوية في الإنسان، تلك القوة الغامضة التي تميِّز الحي من غير الحي، ورأى آخرون أنه بمثابة الملاك الحارس.

التحنيط:

لقد سبق أن نوّهنا بالتحنيط بأنه ابتدع بنتيجة عقيدة المصريين القدماء بحياة ما بعد الموت وضمان هذه الحياة بالمحافظة على الجسم في القبر سالماً محفوظاً غير معبوث به. وبما أننا تكلمنا بعض الشيء عن القبور وعنايتهم الفائقة بها فننوّه أيضاً بالطريقة الأخرى التي ابتدعوها للمحافظة على هيكل الجسم من البلى بالتحنيط، والتحنيط مصطلح عام يعني المحافظة على

الجسم[1] أما الجسم المعالج بالتحنيط فيطلق عليه مصطلح «مومياء»[2]واختلفت أساليب التحنيط الفنية عندهم من عهد إلى عهد بل من سلالة إلى أخرى كما أنه لا تزال هناك جملة أمور في هذه الطرق لم يتوصّل البحث الحديث إلى حلها حلاً نهائياً، ولكن الذي يمكن قوله بوجه عام أن المصريين استعملوا جملة طرق وعدة مواد حافظة للمحافظة على الجسم من البلى، منها تجفيف الجسم وحفظه بالبهار والصموغ والنطرون والقار (الزفت)، كما أنهم في الطرق الغالية من التحنيط كانوا يفتحون الجسم ويحشونه بالصبور بعد رفع الأحشاء الداخلية التي كانوا يحفظونها (يحنطونها) بوجه مستقل، وفي الطرق الرخيصة المستعملة كانوا يقتصرون على عمليات التجفيف بالأملاح أو بالأملاح مع القير، وفي الأزمان القديمة جداً كانوا يتركون الأجسام لتجفّ بصورة طبيعية واستعملوا الملح والصودا في عهد المملكة الوسطى وأضيف «المر والبهار» في عهد السلالة الثامنة عشرة، أما استعمال القير فإنه لم يستعمل في التحنيط بمقياس كبير قبل السلالة الواحد والعشرين (في حدود 900 ق.م). ودعا المصريون القدماء الجسم المحنط الملفوف والمعصّب بالكتان باسم «قس» (بفتح القاف) الذي صار بالقبطية بصيغة «كوس».

وإذا ما رجعنا إلى النصوص المصرية[3] فهي لا تزوّدنا بأشياء مفصلة عن الطرق التي استخدمها المصريون القدماء في التحنيط، ولكن الكتّاب الرومان واليونان (الكتّاب الكلاسيكيين) وصفوا لنا طرق التحنيط بالتفصيل نوعاً ما، وقد ظهر أن رواياتهم صحيحة بوجه عام كما أثبت ذلك الأجسام المحنطة (الموامي جمع موميا) التي وجدت وفحصت. فيروي لنا هيرودوتس مثلاً أن الكاهن الخاص بفتح «البطن» يستعمل في هذه العملية الحجر الحاد المسمى

---

(1) (Embalming) (من Embalm) أي حافظ على الجسم من البلى بطرق التحنيط المختلفة.

(2) أي مصطلح (mummy) ومنه (mummification) المشتق في أصله من الكلمة العربية (أو بالأحرى المستعربة) «مومياء» أي الزفت والقير لاستعماله في طرق التحنيط (من «موم» الفارسية التي تعني الشمع).

(3) انظر The British Museum Guide, 288 ff. الذي اعتمدنا عليه في هذا الموجز.

«بالحجر الحبشي» وبعد أن يشقّ البطن يرمي «حجره أو سكينه» ويفرّ هارباً لا يلوي على شيء، ولعل سبب استعمال الحجر اعتبار المصريين للمعدن بأنه شيء نجس في هذه العملية كما أن هرب الكاهن يشير إلى تخوّف القوم وتهيبهم من فتح الجسم الإنساني.

وحسب ما روى هيرودوتس أيضاً[1] كانت ثلاث طرق للتحنيط مستعملة في زمنه. فبموجب الطريقة الأولى، وهي أغلى الطرق وأدقها، كانوا يشقون البطن في الجانب «بالحجر الحبشي» ثم ترفع الأحشاء الداخلية والدماغ[2] من الجسم الذي يُنظف ويُغسل بعناية بخمر التمر ثم يرش عليه دقيق البهار، ثم يملأ تجويف الرأس والجسم بالمر المسحوق والقاشيا وببهارات أخرى ثم يُخاط الشق المحدث في البطن الذي أُحدث لاستخراج الأحشاء منه. ثم يهيأ حوض من محلول الملح أو محلول الصودا وينقع فيه الجسم الذي هيأ بالخطوات الأولى زهاء سبعين يوماً. ثم يؤخذ بعد نهاية هذه المدة من المحلول ويجفّف ويمسح ويدهن بمراهم ذات روائح عطرية. أما في الطريقة الثانية فكانت الأحشاء تزال بواسطة دهن الأرز وكان اللحم يُذاب ويزال عن العظام باستعمال محلول الصودا، بحيث إن «الموميا» المحنطة على هذا الوجه لا يبقى منها سوى العظم والجلد. واقتصروا في الطريقة الثالثة على الموتى من الفقراء وكان الجسم بموجبها يُنقع بمحلول الصودا مدة سبعين يوماً ثم يسلم إلى أقربائه.

---

(1) الترجمة الإنجليزية من قبل رولنصن: Herodotus, Bk. II, 85.

(2) إن هيرودوتس وديودورس لا يخبراننا بشيء عمّا كان يصنع بالأحشاء والدماغ إلا أننا نعرف أنها كانت تنظف وتلف بالكتان مع مساحيق البهار الحافظة والملح وكانت توضع في أربع جرار مصنوعة من الحجر إما من حجر الرخام أو الكلس أو من الفخار، وكانت كل جرة تخصص إلى أحد أبناء الإله «هورس» الأربعة أو أبناء أوسيريس، الذين كانوا أيضاً آلهة الجهات الأربع الأصلية. وصارت هذه الجرار من بعد السلالة الثانية عشرة تُغطّى بغطاء مصنوع على هيئة رأس الإله الخاص، أما ما قبل ذلك فكانت هذه الأغطية بهيئة رؤوس آدمية. وترجع عادة تحنيط الجوارح الداخلية منفصلة عن الجسم إلى عهد السلالة السادسة وذكرت عادة تخصيصها إلى الآلهة الأربعة في كتابات ملوك السلالة الخامسة والسادسة.

ويروي لنا «ديودورس» (أو ديودور) (الذي عاش في حدود 40 ق.م) أن طرق التحنيط عند المصريين ثلاثة، وكانت الطريقة الأولى تكلف «وزنة من الفضاء» (Talent) أي نحو 250 ديناراً والثانية تكلف زهاء (60) ديناراً، والثالثة قليلة النفقات جداً.

وكانت المدة الفاصلة بين موت الشخص ودفنه تختلف في طولها فيؤخذ من الكتابات المصرية القديمة أنه في حالة خاصة استغرق التحنيط 16 يوماً وعملية تعصيب الجسم ولفه بالكتان 35 يوماً والدفن 70 يوماً، فيكون مجموع المدة الفاصلة 121 يوماً. وفي حالة أخرى استغرقت عملية التحنيط 66 يوماً وتهيئة الدفن 4 أيام والدفن 26 يوماً. وتروي لنا التوراة (سفر التكوين 3) أن تحنيط «يعقوب» استغرق 40 يوماً ولكن مدة إقامة المأتم والحزن استغرقت (70) يوماً.

ولم يقتصر التحنيط على الملوك والناس الآخرين بل إن المصريين القدماء حنطوا أجسام بعض الحيوانات المقدسة كالقطط والصقور والقردة والكباش والعجول والتماسيح، واتبعوا في ذلك نفس الطرق المتّبعة في تحنيط الآدميين.

وبعد أن أوجزنا هذه الأشياء عن التحنيط نقدم عرضاً موجزاً عن تأريخ نشوء التحنيط عند قدماء المصريين. فإلى المعتقدات الدينية الخاصة بعودة الحياة فيما بعد الموت ولا سيما العقائد المشتقة من عبادة الإله أوسيريس[1] يلزم أن يضيف المؤرخ عامل البيئة الجغرافية الجافة المساعدة على حفظ

(1) لقد سبق ذكر أسطورة موت أوسيريس وكيف أن جسمه المقطع قد أعيد إلى سابق وضعه بالطرق السحرية (حسب إحدى روايات الأسطورة) حيث قامت بذلك «إيسيس» وأعوان ابنه (هوروس)، ثم حنط جسمه وحفظ من البلى، وبالقياس إلى ذلك استنتج المصريون القدماء إمكان حفظ أجسامهم من البلى بالتجارب المختلفة التي قاموا بها في التحنيط، ومما لا شك فيه أن الذي ساعدهم على محاولة هذه التجارب ما كانوا يشاهدونه من أن الجسم الذي يدفن في الرمال في التربة الجافة يجف جفافاً طبيعياً ويبقى محافظاً على هيئته.

الأجسام بصورة طبيعية، مما عمل على نشوء فن التحنيط عند قدماء المصريين. فقبل نشوء فن التحنيط المعقد اعتاد المصريون القدماء قبل عهد السلالات أن يجففوا أجسام موتاهم في الشمس ثم يدفنونها، وكانوا يلفونها في بعض الحالات بجلود بعض الحيوانات أو بحصر من القصب. وبعد عهد السلالات بقليل حين نشأت العقائد الخاصة بالإله أوسيريس ونضجت ابتدأ المصريون في محاولاتهم وتجاربهم في فن التحنيط. وتشير أقدم الأجسام المحفوظة التي جاءتنا من هذا العهد إلى أنهم كانوا يرفعون الأحشاء الداخلية ثم يجففون الجسم بالشمس أو يملّحونه. ثم صاروا يلفون الجسم بالعصائب ولا سيما أجسام الملوك. ومما لا شك فيه أن المحافظة على أجسام الملوك بالتحنيط قد بدأت في زمن قديم من عهد السلالات، ويرجّح أن يكون ذلك في عهد السلالة الثانية. ولكن أحسن «مومياء» سالمة محفوظة هي التي جاءتنا من عهد السلالة الخامسة. وتوجد بقايا من «مومياء» يظن أنها تعود إلى الملك «منكورع» (من فراعنة السلالة الرابعة) ولكن صحة ذلك مشكوك فيها. وكثرت «الموامي» من عهد السلالة الحادية عشرة، واقتصرت معالجتها على النطرون (صودا قوية)، وكذلك كثرت الأجسام المحنطة في عهد السلالة الثانية عشرة. ولم تظهر عادة رفع الدماغ إلّا في عهد السلالة الثامنة عشرة، واستعملت في هذا العهد البهارات والراتنج (resin) كما تفنّنوا في العصائب. ومما يقال في هذا العهد أن نماذج التحنيط منه كثيرة وهي في حفظ جيد. وفي نهاية السلالة الثامنة عشرة صاروا يحشون الجسم بكميات كبيرة من المواد الراتنجية بحيث تبدو الجثة غير ضامرة وكأنها الشخص الحي، كما أن محاجر العيون كانت تُحشى بالكتان وتطبق عليه الأجفان ولعل أحسن «مومياء» من هذا الطراز مومياء جد الملك «أخناتون» ومومياء الملك «سيتي الأول» (وكلاهما في متحف القاهرة). وفي عهد السلالة الواحدة والعشرين اطرد استعمال الضماد لتحشية الجسم واستعملت لهذا الغرض جملة مواد متنوعة كالكتان والراتنج ونشارة الخشب. وكان القلب يُترك في داخل الجسم في هذا العهد ومثل ذلك

يقال بالنسبة لبعض الأحشاء الأخرى، وكثيراً ما كانت «المومياء»، تلوّن وتُصبغ لتضاهي الجسم الإنساني وهو حي.

ومما يقال في العهود الأخرى المتأخرة إن فن التحنيط انحط فيها، ووجدت أجسام اقتصر في تحنيطها على حشوها بالقير. وفي العهود الرومانية عثر على بعض الأجسام المحنطة تحنيطاً جيداً، واستمر المصريون في ممارسة عادة التحنيط حتى في العهود المسيحية بعد تحولهم إلى المسيحية ولكن هذه الممارسة بطلت من الاستعمال تقريباً في نهاية القرن الرابع للميلاد من جرّاء أثر العقيدة المسيحية، ومع موت هذه العادة استمرّ الناس في دفن الميت مع البهار وبعض المواد الحافظة، مما جعل كثيراً من الأجسام في العهد القبطي تبقى محفوظة لا سيما إذا كان الدفن في مواضع جافة. كما أنه لا يستبعد أن تكون عادة «غسل» الميت المتّبعة الآن من تراث التحنيط المصري القديم. وعلى ذكر تراث هذا التحنيط ننوّه بأمر مهم هو ما أفاده الطب الحديث من الأجسام المحنطة التي وصلت إلينا سالمة حيث أمكن بدرسها معرفة تأريخ جملة أمراض مهمة مثل مرض الحصباء (calculi) ومرض البلهارزيا (Bilharzia) والأمراض الشريانية (Arterial diseases) ومرض التدرّن (Tuberculosis) والتهاب المفاصل (Arthiritis) وجملة أمراض أخرى تخص العظام[1].

وننهي بحثنا عن التحنيط عند قدماء المصريين بذكر شيء مهم متمّم لطرق حفظ الجسم عندهم ذلك هو أنواع التوابيت المستعملة لذلك الغرض. فمن ناحية التطور التأريخي كان المصريون في العصور القديمة جداً يدفنون موتاهم بتكفين الجسم بحصير أو جلد أو نسيج وإيداعه في الحفرة بهيئة مقلصة، واستعملوا السلال بعدئذ وظهر استعمال الصندوق الخشبي في عهد السلالة الأولى وكان أصل التابوت، وحصل بعض التطور في صناديق التوابيت في عهد السلالتين الثالثة والرابعة من ناحية الصنع وزخرفتها بحيث تظهر

---

(1) انظر المرجع الآتي: The Legacy of Egypt (1942), 196 f.

وكأنها بيت سكني ذو باب وشبابيك وستائر وقلدت مثل هذه الصناديق في نواويس الحجر. وكثرت الصناديق والتوابيت منذ عهد السلالة السادسة إلى السلالة الثانية عشرة، وتفننوا في صنعها من الأخشاب الثمينة كخشب الأرز، وتلوين خارجها وزخرفته بأسماء أصحابها ونقشه بأدعية وصلوات إلى آلهة الأموات وإلى أطفال هورس الأربعة حيث رُتِّبت مثل هذه الكتابات بحقول متوازية منتظمة، كما رُسمت في داخله خرائط طريفة للعالم الأسفل (العالم الآخر) وأودعت تعاويذ سحرية لإرشاد الميت والمحافظة عليه من أخطار ذلك العالم، كما كانوا يرسمون في خارج التابوت صورة بيت مختصرة وعينين كبيرتين وصور لرأس الميت وعينيه. وكان الجسم المودع داخل التابوت يغطّى جزئياً بقناع (من قطع الكتان المصمغة معاً والمغطاة بالبورق) وكان هذا القناع يعمل بهيئة الرأس والكتفين ويلون ويذهّب. وكان يودع مع التابوت بالإضافة إلى المقتنيات الشخصية كالأسلحة والمرايا وعدد كبير من النماذج المصغرة الملوّنة التي تمثل البيوت وأهراء الغلة والعمال والصنّاع الممثلين وهم ماضون في عملهم والخدم وهم يحملون الطعام والقوارب المصغرة بأشرعتها ومجاذيفها. إن هذه الأشياء المصغّرة على قدر كبير من الأهمية إذ إنها توقفنا على نواح مهمة متعددة من حضارة وادي النيل، سواء كان ذلك من ناحية الأشياء التي استعملها المصريون القدماء أو من ناحية أشكالهم وهيئاتهم، كما أن ما وجد في المقابر المصرية من ملكية واعتيادية تكاد تكون المصدر الوحيد لمعرفتنا بحضارة مصر القديمة.

بعض الأساطير الدائرة حول أصل الآلهة والأشياء

1 ـ الكون (السماء والأرض):

من الصعب تحديد صورة واحدة مطردة عن الكون وأصل الأشياء والآلهة (Cosmology) عند المصريين القدماء، وهذا أمر متوقع بالنسبة إلى عقائد شغلت من الزمن زهاء (3000) عام من عصور التأريخ بالإضافة إلى بقايا متحدرة من عصور ما قبل التأريخ. فينتظر من هذا التأريخ المتطاول أن يحدث تغيراً وتبدلاً في مثل هذه الآراء، كما أن المصريين القدماء لم يخلفوا لنا دساتير أو عقائد مطردة، وإنما الذي عندنا صور مختلفة لا يضيرها أو يقلّل من قيمتها أن تكون متناقضة كثيراً أو قليلاً عند المصريين القدماء. ولنضرب لذلك مثلاً في تصورهم للسماء وكيفية استنادها، فهناك صورتان مختلفتان، صورة تمثل لنا السماء وقد رفعها وسندها إلٰه الهواء «شو»، وصورة أخرى ترينا السماء مقامة على أربعة عمد[1].

وقد تصوّر المصريون الأرض على هيئة صحن أو «ماعون» منبسط ذي حافة ضلع. فقعر هذا الصحن أرض مصر الغرينية المستوية، أما الحافة المضلعة فهي سفوح الأراضي الجبلية التي تكوّن البلدان الأجنبية. إن هذا الصحن عائم في المياه. وتوجد مياه سفلى (وهي المياه الأولى) إلى أسفل الماء الظاهر. وتدعى هذه المياه السفلى باسم «نون» وحسب بعض العقائد المصرية كانت هذه هي

(1) J.A. Wilson, Before Philosophy (1951), 51 ff.

المياه الأولى التي ظهرت منها الحياة بجميع أشكالها، وأول ما ظهر منها الآلهة على ما سيتضح فيما بعد. ولا تزال هذه المياه مصدر الحياة، لأن الشمس تولد ولادة جديدة كل يوم منها، كما أن النيل ينبع من الينابيع التي تغذيها هذه المياه السفلى. والمياه السفلى تحيط بالأرض أيضاً.

ويعلو فوق الأرض صحن السماء الذي هو مثل صحن الأرض إلا أنه بهيئة مقلوبة، والسماء تحدّد النهاية البعيدة للكون. وتصوروا سماء سفلى تحت الأرض تحدد نهاية الأرض السفلى. وقد سبق أن ذكرنا كيفية إسناد السماء بأعمدة أربعة موضوعة في الجهات الأربع، ورأى المصريون في هذا الإسناد للسماء أنه مضمون أكثر من سند الإلٰه الهواء «شو» لها، ووظيفة هذا الإلٰه أن يقف ثابتاً على الأرض ويحمل السماء كما جاء في النصوص الهرمية. وقد جسَّموا السماء بهيئة آلهة دعوها باسم «نوت» وتمثل هذه وهي منحنية على الأرض حيث تلامس أصابع يديها ورجليها الأرض وتزين الشمس والقمر والكواكب النيِّرة جسمها. وهذه صورة ثالثة لكيفية استناد السماء أي إن هذه الإلهة السماء هي التي تسند جسمها وأنها علاوة على ذلك يساعدها الإلٰه الهواء في ذلك وقد يمثلون القبة السماوية أيضاً على هيئة بطن بقرة سماوية هائلة وهي مرصّعة بالنجوم والكواكب، وهي تجرّ المجرة حيث تجري سفينة الشمس (سفينة الإلٰه الشمس) في سيرها في السماء. وقد خصصوا جملة من مجموعات الكواكب وألّهوها، ومن ذلك مجموعة نجم القطب الشمالي حيث وصفت بأنها النجوم التي لا تعرف الموت وموطن الحياة الأزلية الخالدة وسمّوا هذا الموضع باسم «دات» الذي هو موضع الأرواح الخالدة. وبأنتشار العبادة الشمسية تغير موضع الأرواح الخالدة من القسم الشمالي من السماء وصار في العالم الأسفل، وصار موضع دخول الأرواح إليه من الغرب كما تدخل الشمس عندما تموت في المساء حيث تدخل في سيرها اليومي تحت الأرض وتبعث من جديد من المشرق. وتصوروا سير الإلٰه الشمس بأنه يتمّ في قاربين، واحد لسيره النهاري وواحد لسيره الليلي تحت الأرض، وألحقوا بذلك مجموعة من الآلهة تكون في سفينة الشمس على هيئة ملاحين. وقد

يتعرض الإلٰه الشمس في سيره السماوي إلى أخطار جسيمة، ومن ذلك أن ثعباناً هائلاً يتربص به فتنشب معركة بين الاثنين، وإذا ما تغلب هذا الثعبان على الشمس فيقع الكسوف.

وكان الإلٰه الشمس بصفته سيد الآلهة وأول ملك في الكون كثيراً ما «يعير نفسه» إلى الآلهة الأخرى لزيادة قدرتها، ومن مظاهر هذه العقيدة نجد اسم الإلٰه «رع»، وهو اسمه كما عبد في هليوبوليس، يدخل في أسماء الآلهة الأخرى بهيئة مركبة مثل «رع ـ أتوم» و«رع ـ هورس» وفي مواضع أخرى عُرف بالإلٰه الصقر «مونتو ـ رع» والإلٰه التمساح «سوبيك ـ رع» والإلٰه الكبش «خنوم ـ رع»، كما صار «أمون ـ رع» بصفته ملك الآلهة في مدينة طيبة.

2 ـ أساطير الخليقة:

كما يتعذر أن نجد صورة واحدة مطّردة من عقائد المصريين عن الكون كذلك لا يوجد رأي واحد أو أسطورة واحدة حول بداية الأشياء وإنما توجد جملة آراء وأساطير مختلفة، وكانت مثل هذه الأساطير مقبولة عند المصريين القدماء بالرغم من اختلافها وتناقضها. ومن الملاحظات المهمة التي يجدر التنويه بها ما قد يجده الباحث من تشابه وتناظر بين الروايات البابلية وبين الروايات العبرانية فيما يخصّ الخليقة وأصل الأشياء، ولكن الأساطير المصرية بعيدة الشبه بكل من هذين المصدرين، مما يدلّ على أن مصر كانت مستقلة منفصلة في تطور آرائها بهذا الشأن.

وقد تصور المصريون موضع الخليقة، أي المكان الذي جاءت فيه الآلهة والأشياء إلى الوجود في رابية هي «رابية الخليقة» أو «تل الخليقة». ولا يستبعد أن يكون أصل هذا التصور من ظاهرة فيضان النيل وانحسار المياه بعد الفيضان حيث أول ما يظهر إلى الوجود الروابي الترابية وهي حاملة أولى بشائر الحياة من حياة الخضار والنبات، وفكرة منشأ الحياة من التراب والطين فكرة شائعة بين الأمم أما كيفية ظهور الحياة فوق «التل الأول» فقد رأى المصريون أن أول ما ظهر عليه في الوجود «الإلٰه الخالق» وهو «رع ـ أتوم». ومن هنا منشأ

تقديس المواضع المرتفعة، وقد سبق أن ذكرنا أن من جملة الآراء في تفسير شكل الأهرام أنها ترمز إلى «تل الخليقة الأول»، حيث ظهر أول إله فوق «تل الخليقة». أما كيفية مجيء الآلهة إلى الوجود فتوجد عدة روايات، فرواية (كما جاءت في كتاب الأموات) تقول إن أول من ظهر إلى الوجود الإله الشمس، وقد ظهر من تلقاء نفسه أي إنه هو الذي أوجد نفسه ثم عمل إلى إيجاد الآلهة الأخرى ليصيروا أتباعه وكان أول ملك على الكون، وتنص رواية أخرى على أن الآلهة الأولى كانت موجودة وهي من مادة المياه الأولى، وكان عددها ثمانية آلهة ذكر كل زوجين منها على حدة[1]، ويقابل هذه «الآلهة الثمانية» التي تمثل العماء والفوضى مجموعة آلهة أخرى عددها تسعة، يرأسها الإله الشمس، وهي عائلته، وإذ كانت المجموعة الأولى تمثل الفوضى والعماء في الكون فإن هذه «الآلهة التسعة» تمثل النظام في الكون، وهي الإله الهواء «شو» والإله الذي يمثل الرطوبة «تفنوت» و«جيب» الإله الأرض والإلهة «نوت» التي تمثل السماء والإله أوسيريس وإيسيس وسيث ونفثايس (زوج الإله سيث).

ويعني اسم الإله الشمس «أتوم» وهو الإله الخالق «كل شيء»، ويعني لا شيء أيضاً، ولا يوجد في ذلك تناقض بالنسبة إلى أصحاب اللاهوت في مصر القديمة فإن كلمة «أتوم» تعني «الشيء الكامل الذي انتهى صنعه. أي الشيء الذي لا يوجد سواه ولا يوجد بعده شيء وهو كل شيء». ومن روايات أساطير الخليقة رواية تنصّ على أن الإله «أتوم» وهو «في مجده فوق تل الخليقة» بصق فظهر الإله الهواء «شو» ثم نفخ بصاقه فظهر الإله الرطوبة «تفنوت» أو إنه «عطس» فظهر هذان الإلهان. ثم ولد هذان الإلهان الأرض والسماء والجو، ثم اتّحد الإله الأرض (وهو الإله المذكر) مع الإلهة السماء، فأولدا أربعة آلهة وهم أوسيريس وزوجته إيسيس وسيث وزوجته «نفثايس».

---

(1) وهي «نون» و«نونت» ويمثلان المياه السفلى.
و«هو» و«هوهت» يمثلان الامتداد المادي الذي ليس له صورة معينة.
و«دكوك» و«كوكت» ويمثلان الظلام.
و«أمون» و«أمونت» ويمثلان المادة الأولى المختلطة (العماء).

ومن أساطير الخليقة المهمة ما يُعرف باسم «نص منفس» وهو يختلف عن الروايات الأخرى وله أهمية خاصة. ومع أن النسخة الموجودة منه يرجع عهدها إلى حدود 700 ق.م.، ولكنه كما يقول الملك الذي أمر باستنساخه، يعود إلى أزمان أقدم من التأريخ المصري، في الزمن الذي اتحدت فيه السلالات الأولى المصرية واتخذت عاصمتها في مدينة «منفس»، وهي المدينة الخاصة بالإله «فتاح»، وبما أن هذه المدينة لم تكن ذات شأن ديني مهم لا سيما وهي قريبة جداً من مركز عبادة الإله الشمس رع في «هليوبوليس» (حيث لا تبعد عنها سوى 25 ميلاً)، فلزم تبرير مركزها الديني الجديد بصيرورتها عاصمة المملكة الموحدة، فعمد كهنتها على تحوير بعض أساطير الخليقة وتخصيص دور مهم بارز إلى إلهها «فتاح». ولكن الغريب في أمر أسطورة «منفس»[1] اختلافها عن الأساطير المصرية الأخرى المألوفة حيث تكاد تتّفق جميعها، باستثناء أسطورة منفس، على أن عملية الخلق كانت عملية مادية صرفة أي قيام إله أو آلهة معيّنة بعملية الخلق بصورة عملية مادية، ولكن نجد في هذه الوثيقة الجديدة فكرة الخلق وهي تتم بوجه فلسفي أي بمجرد تفكير الإله بالخلق وإرادته له ثم خروج «كلمة» الإله التي حوّلت فكرته إلى فعل الخلق. ويرى أكثر من واحد من الباحثين شبهاً كبيراً بين هذه الفكرة وبين فكرة «الكلمة» (اللوجوس «Logos») اليونانية الموجودة في الإنجيل (إنجيل يوحنا): «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله». ومما يجدر ذكره عن هذه الأسطورة المصرية الخاصة بمنفس أنها لا تهمل أساطير الخليقة الأخرى الشائعة وإنما تدمجها بروايتها وتعلّلها تعليلاً يكاد يكون فلسفياً. وأهم ما في هذه الأسطورة أولاً معادلة الإله «فتاح» بالإله «نون»، أي بالمياه الأولى التي خرج منها الإله «أتوم» (الإله الشمس)، وهو الإله الخالق بحسب الأساطير المصرية الأخرى. وهذا معناه أن الإله فتاح قد

(1) انظر أحدث ترجمة لها في المرجع الآتي:
Ancient Near Eastern Texts, 4 ff.

سبق في وجوده الإله الشمس وأنه هو الذي أوجده، ثم أوجد الآلهة الأخرى وجميع الأشياء بمجرد أن أراد ذلك وقال «الكلمة»، ثم استراح الإله «فتاح» بعد أن خلق كل شيء.

خلق الإنسان:

أما عن خلق الإنسان فلا يوجد في أساطير الخليقة المصرية نص واضح عن كيفية خلق البشر بوجه واضح. فهناك نصوص تسمي الإله الشمس بأنه هو الذي أوجد «البشر»، ويوجد نص آخر يقول إن الإنسان خُلق على صورة الإله، ويمجّد هذا النص إحسان الإله الخالق لعنايته بالمخلوقات البشرية التي يسميها «ماشية الإله» ومن النصوص الخاصة بخلق الإنسان أن الإله الكبش «خنوم» هو الذي خلق البشر بواسطة دولاب الخزاف الخاص به، وقسّمت أسطورة قديمة الجنس البشري إلى أربعة عروق أو أجناس وهم جنس «الرومت» أي البشر وهؤلاء هم المصريون و«العامو» وهم سكان الصحراء الشرقية و«الثميحو» وهم الليبيون و«النحيسو» وهم السود والسمر (الزنوج) في السودان، وقد تكوّن الصنف الأول من دموع سقطت من عين الإله «رع» التي سقطت على أعضاء جسمه فتكوّن منها الرجال والنساء، وأوجد الإله الأجناس الأخرى من جسمه بطرق غير معروفة.

وتوجد أسطورة[1] طريفة جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وهو العهد الذي سبق أن قلنا إنه يمتاز، من جملة ما يمتاز به، ظهور الاعتراف بالعدالة الاجتماعية وكذلك الاعتراف بحقوق الناس العاديين، وبموجب هذه الأسطورة أمر الإله الخالق بتساوي البشر بالنسبة إلى ضروريات الحياة، فقد صنع الرياح الأربعة لهم، وجعل لهم فيضان النهر الذي يكون حق الفقير فيه مثل حق العظيم، وأنه صنع كل إنسان بحيث إنه يشبه أخاه الإنسان، وإنه لم يصنع شراً ولكن قلوب البشر هي التي تعصي ما أمر به.

(1) انظر: Ancient Near Eastern Texts, 12 ff.

ومن الأساطير الخاصة بالبشر أسطورة تتعلق بخلاص البشر من الدمار والهلاك. فبعد أن حكم الإله «رع» الكون دهوراً طويلة، بدأ البشر يجدِّفون باسمه ويرتكبون الذنوب والمعاصي، فجمع «رع» الآلهة وأخذ يشاورهم في الأمر فكانت نتيجة الشورى أنه أرسل بين البشر «عينه» التي خلق البشر منها وهي بهيئة الإلهة «هاثور» لتعمل على إهلاك البشر، فجاءت هذه الإلهة وأخذت تفتك بالبشر وهم منهزمون في البادية، وكون شكلاً آخر لهاثور بهيئة إلهة اسمها «سخمت» حيث صارت تساعد هاثور وتخوض بدماء البشر. وبعد مضي مدة من القتل والتدمير هدأ غضب الإله فأوقف قتل البشر ولكن بأسلوب طريف (يكاد يكون صبيانياً) إذ إنه أمر بإحضار (مغر) أحمر خلطه بالجعة (البيرة) فصار مظهره مثل دم البشر، وملأ منه سبعة آلاف جرة ووضعها في الحقول في المواضع التي كانت الإلهة ماضية في تدمير البشر، فامتلأت الحقول بهذا السائل الأحمر، فشربت منه وسكرت وفقدت وعيها فلم تعد ترى البشر وكفّت عن تدميرهم.

والجدير بالذكر عن هذه الأسطورة أن بعض الباحثين يسميها بأسطورة الطوفان ولكن الواقع لا يصحّ إطلاق هذا الاسم عليها، وإن أدب وادي النيل خال من أية أسطورة أو قصة عن الطوفان بخلاف ما رأيناه في حضارة وادي الرافدين، والسبب في ذلك على ما نرى اعتدال فيضان النيل، وأنه حتى في حالة الفيضان المدمر فإنه لم تبلغ شدة التدمير الذي يحدثه فيضان الرافدين في العراق.

ونختتم بحثنا عن ديانة وادي النيل والأساطير الموضّحة لها بذكر أسطورة طريفة مفيدة لفهم جوانب مهمة عن عقائد المصريين في آلهتهم وتدور هذه الأسطورة[1] على أن للآلهة العظام أسماء «سرية» تكمن فيها قدرتهم الإلهية، ولا يعرف سر هذا الاسم «الأعظم» سوى الإله الخاص به وحده.

---

(1) انظر أحدث ترجمة لها في: Ancient Near Eastern Texts (1950), 4 ff.
ويرجع تأريخ النص إلى عهد السلالة التاسعة عشرة (1350 ـ 1200 ق.م).

فكان للإله العظيم «رع» أسماء كثيرة، ولكن أحدها كان سرياً وكان مصدر قدرته. وملخص الأسطورة أن الإلهة البارعة «إيسيس» صممت على معرفة هذا الاسم وسرقته من الإله العظيم. وكان من عادة الإله «رع» أن يأخذ مجلسه في عرشه كل يوم بين المشرق والمغرب. وكان هذا الإله في شيخوخته، فجمعت الإلهة «إيسيس» البصاق الذي كان يبصقه الإله الشيخ وعجنته بالتربة وصنعت منه ثعباناً عظيماً ووضعته في طريق الإله الذي يسير فيه بين بلاديه (مصر العليا والسفلى)، وفيما كان يتمشى على عادته عضّه الثعبان، فأحدثت فيه العضة ألماً ممضاً وصار جسمه كالنار وصار يصرخ من الألم فاّجتمعت حاشيته من الآلهة التسعة وشكى لهم حاله عساهم يزيلون ألمه بالسحر، وجاءت «إيسيس» مع الآلهة فسألته عن سبب ألمه فشرح لها ما حدث له من الألم المفاجىء، فطلبت منه هذه الإلهة أن يعلمها «باسمه» لتتلوه وتعمل منه سحراً يزيل آلامه، فأخذ يعدِّد لها ما قام به من عمليات الخلق في الكون، وأن اسمه «خفرى» في الصباح و«رع» وقت الظهيرة و«أتوم» في المساء، ولكن آلامه لم تهدأ فقالت له «إيسيس» إن اسمه الحقيقي لم يكن من بين الأسماء التي عدّدها، فإذا أخبرها به فإن مفعول السم سيزول عنه. ولما ازداد مفعول السم في جسم الإله أمر الإلهة أن تقترب منه وأخذ يسرها باسمه العظيم «وهو السحر الأعظم» فأخذت إيسيس تتلوه فزال عنه الألم[1].

الكهنة:

إذا استعدنا إلى أذهاننا المنزلة الكبرى التي كان عليها الدين في حضارة وادي النيل من تغلغله القوي في حياة الدولة والشعب أدركنا مبلغ ما وصل إليه الكهنة من النفوذ والمكانة في تلك الحضارة، ومن الممكن القول إن وظائف الكهنة والتفرغ إلى هذه الوظائف والتخصص بها لم تكن واضحة قوية في

---

(1) إن هذه الأسطورة جاءت بهيئة رقية ضد لسع العقرب، وتنتهي بإرشاد في كيفية استعمالها (انظر المرجع المذكور في الهامش رقم 1 ص 113).

العصور القديمة، فكانت العادة أن أغلب الناس من ذوي المكانة في المجتمع يشغلون إلى جانب أعمالهم ووظائفهم الأخرى منصباً كهنوتياً، فالقضاة مثلاً كانوا كهاناً لإله العدل وكان الأطباء كهنة الإله «سخمت»، كما أن كثيراً من الوظائف الكهنوتية كانت متوارثة في الأسر النبيلة، وكان النساء يشتركن في الوظائف والأعمال الكهنوتية أيضاً.

ولكن إلى جانب هذه الوظائف الإضافية كانت هناك أعمال ومراسيم دينية تقتضي التفرغ لها والخدمة المستمرة من جانب رجال الدين المحترفين، وكان كبار الكهنة ذوي مراكز عالية في الدولة. واستمرت عادة إشغال كبار الموظفين مناصب كهنوتية إلى جانب وظائفهم المدنية في عهد الدولة الوسطى، ولكن تضاءل شأنهم وأخذت شؤون الدين تُحتكر من جانب كهنة محترفين متخصصين. وكان لكل معبد مجمع كهنوتي يشرف عليه من الوجهة النظرية أمير الإقليم أو حاكم الإقليم الموجود فيه ذلك المعبد. وكانت هيئة الكهنة في كل معبد متنوّعة الوظائف ومختلفة في الدرجات فمنهم الكاهن الأعلى ورئيس خزينة الإله وكاتب بيت الإله والكاهن المرتل الخ.

ووقع في عهد الأمبراطورية تبدّل أساس في مركز الكهنة، فقد ارتفع مركزهم في الدولة وازداد عددهم وطبقاتهم وثرواتهم ازدياداً كبيراً. ونستطيع أن ندرك ذلك في كهنة معبد الإله «أمون» في طيبة، حيث صار لهؤلاء الكهنة نفوذ واسع وكان أبرز عامل في تعاظم نفوذ الكهنة في عهد الأمبراطورية ثراؤهم المفرط الذي حصلوا عليه في هذا العهد وكان مصدر هذا الثراء من الهدايا الجسيمة التي يقدّمها الملوك إلى معابد الآلهة وكانت هذه العادة موجودة منذ عهد المملكة القديمة إلا أنها ازدادت في مقياسها في عهد الأمبراطورية بالنظر إلى الثروات الهائلة التي جناها الفراعنة من حروبهم وغنائمهم خارج مصر، وكانت الهدايا لا حصر لأنواعها ولكن المهم منها يتألف من الحقول والبساتين والأملاك والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة والثروة الحيوانية الهائلة. فكانت هذه الأملاك الواسعة والنفوذ المتزايد تتطلّب

الإدارة الواسعة، فصارت المعابد في الواقع تؤلف ممالك مصغرة في إدارتها، ولا سيما معبد أمون في طيبة فكان لهذا الإلٰه إدارة عامة لأملاكه ودائرة خاصة للخزينة وإدارة للأراضي الزراعية العائدة له وإدارة لمخازن الحبوب وللماشية، وكان لكل إدارة رئيس وكتّاب وموظفون. كما أنه كان للمعابد إدارة خاصة للبناء والترميم وكان للمعابد أيضاً قوة عسكرية خاصة من الضباط والجنود، والسجون والمحاكم ولنا أن نتصور عدد المباني الملحقة بالمعابد لإيواء مثل هذا العدد الهائل من الموظفين، وهكذا بمرور الأزمان استطاعت طبقات الكهنة أخذ زمام السلطة في الدولة ولعل هذا ما حدا بأخناتون إلى الثورة على عبادة الآلهة القديمة ومناوأته لعبادة الإلٰه «أمون» وكهنته، ولكن هذا لم يفلح في صدّ التيار إذ عاد مرة أخرى نفوذ الكهنة في عهد «توت عنخ أمون»، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار الكهنة في عهد السلالة الواحدة والعشرين.

المعابد:

كان المعبد من مستلزمات الديانة وعبادة الآلهة، فلم يكن باستطاعة المصريين القدماء أن يتصوروا إلهاً من غير «بيت» خاص يعيش فيه وتقام فيه شعائره والأعياد الخاصة به، وتقام به الصلاة وتلحق به مخازنه لإدارة أملاكه. هذا وقد سبق أن نوّهنا بنوع من المعابد المصرية مثل المعابد «الجنائزية» الملحقة بقبور الملوك، سواء كانت هذه القبور بهيئة أهرام (كما في عصر الأهرام) أو على هيئة قبور اعتيادية كما ذكرناه فيما سبق. ونذكر هنا شيئاً موجزاً عن المعابد التي شيّدوها لعبادة الآلهة. وكان الموضع الذي يشيّد فيه المعبد «مكاناً مقدساً»[1]، ويظل موضعاً مقدساً تُقام فيه المعابد من الأدوار المختلفة فوق أسس المعابد وأنقاضها، وهذا هو السبب في أننا لا نعرف شيئاً

---

(1) اعتمدنا في إيجاز هذا البحث على ترجمة كتاب «مصر والحياة المصرية القديمة»، لأدولف أرمان وهرمان رانكه، ص 302 فما بعد.

يعتدّ به عن معابد الآلهة في عهد المملكتين القديمة والوسطى لأنها كلها تقريباً قد قامت فوقها أبنية عهد الأمبراطورية الضخمةَ الواسعة. ونذكر من أمثلة المعابد من عصر الأهرام المعابد التي شيّدها ملوك السلالة الخامسة للإله الشمس «رع» في «هليوبوليس» وقد كشفت التنقيبات عن أحدها، فهو يختلف في شكله بوجه عام عن معابد الأزمان التالية فمثلاً لا يوجد فيه ما يميِّز المعابد النموذجية من هذه الأزمان، أي الحجرة المقدسة المظلمة التي يوضع فيها تمثال الإله، وبدلاً من ذلك يكون معبد الشمس قائماً وسط فناء واسع يحيط به ممر من الحجر، وكان أبرز جزء في هذا الفناء رمز الإله الشمس الذي هو عبارة عن مسلّة حجر تقوم على قاعدة عالية، حيث تتوهج قمة المسلة المدبّبة المموّهة بالذهب في أشعة الشمس، فكان هذا الرمز هو الذي يمثل الإله الشمس، والهرم بموجب أحد التفاسير ليس إلّا رمزاً لهذا الإله، ويقوم قرب هذه المسلة المقدسة «مذبح» ضخم كانت تُقدّم فوقه القرابين إلى الإله الشمس في الهواء الطلق، ويقوم إلى جانب المعبد شكل سفينة عظيمة كانت جدرانها من اللبن، أما هذه السفينة فكانت لغرض سير الإله الشمس فيها كل يوم في المساء، وكانت الجدران في جانب الممر المفضي إلى قاعدة المسلة تزين بنقوش ذات ألوان زاهية متنوّعة تمثل حياة الطبيعة في فصولها المختلفة.

والبقايا القليلة من معابد المملكة الوسطى تتفق في أسسها مع شكل معابد عهد الأمبراطورية. ولنصف الشكل العام لمعابد زمن الأمبراطورية. فأولاً هناك الممر أو الطريق المؤدي إلى المعبد، وكان مبلطاً ويحيط به من جانبيه صفان من تماثيل أبي الهول، ويقوم أمام المعبد صرح أو جملة صروح (Pylon) وكانت هذه عبارة عن بوابات ضخمة وترتفع مع الأبراج الحجرية المحيطة بميل أو انحدار قليل. وقد أقيمت هذه الأبراج للرهبة والزينة حيث جدرانها الملوّنة وساريات الأعلام والمسلات التي أمامها كل ذلك مما يحدث أثراً رهيباً في تأكيد قدسية الموضع.

ويأتي من بعد الصرح مباشرة فناء (ساحة) المعبد الواسع الذي تحيط به

(بوائك) ذات أعمدة ضخمة، ويقع في الجدار الخلفي لهذه الساحة المدخل إلى قاعة مؤلفة من الأعمدة وتستمد نورها من نوافذ في السقف. وفي هاتين الساحتين، أي الساحة الأولى وقاعة الأعمدة كانت تُقام الاحتفالات الدينية الخاصة بالإله وتقدم فيهما القرابين. أما مقر الإله فكان في المقصورة الوسطى المؤلفة من ثلاث مقاصير صغيرة مظلمة تقع خلف قاعة الأعمدة وكان يودع في المقصورة الوسطى قارب الإله وتمثاله، وخصصت المقصورتان الجانبيتان لِزَوجة الإله وابنه، وكانت هذه المقاصير الثلاث أقدس جزء في المعبد، وهو قدس الأقداس وقد كتب على جوانب أبوابها أن «على من يدخل المعبد أن يكون طاهراً» وقد كررت هذه العبارة أربع مرات. والعادة الغالبة أن لهذا الجزء المقدس من المعبد مدخل ثان في الجانب الخلفي، وتقع وراء ذلك حجرات عديدة مختلفة لخزن أدوات المعبد وحاجياته.

إن هذا الوصف الموجز لتخطيط المعابد المصرية من عهد الأمبراطورية ينطبق على جميع المعابد الكبرى مثل معبد الإله أمون الشهير في الكرنك، أما المعابد الصغرى فكانت تشبه ذلك من حيث أسس تخطيطها، ولكن كانت تختلف في الاختصار في عدد الحجرات أقل مما هو موجود في المعابد الكبرى، وكذلك يُقال في عدد القاعات.

وكان المعبد يزيّن بالزخارف الملائمة لقدسية الإله المعبود فيه فإذا استثنينا نقوش الجدران الخارجية، فإن مواضيع النقوش دينية صرفة فكانت الجدران والأعمدة تغطى كلها بصور الآلهة بألوان زاهية مما تجعل أرجاء المعبد ذا مظهر رائق. ويغلب تكرار الصور كثيراً، ومن بين المواضيع المكررة مثلاً صورة الملك الذي يرتدي رداءه التقليدي ويقف بين أيدي آلهة المعبد العظام والإله الرئيس الذي بنى له المعبد حيث يقدم له هذا الإله رمز الحياة وتباركه الآلهة الأخرى وروعي في الكتابات أن تكون زخرفة. ومن المواضيع المعادة المكررة النقش الكتابي الذي يؤكد فيه الإله للملك بقوله: «إني سأهبك سنين حتى الخلود، وحكماً على القطرين في سرور، وما بقيت أنا حياً فستبقى

أنت حباً أيضاً على الأرض، متألقاً كملك للوجه القبلي وملك للوجه البحري على عرش هورس الخاص بالأحياء، وسيظل اسمك ما بقيت الحياة باقياً مستمراً في الخلود جزاء وفاقاً على هذا الأثر التذكاري الجميل الكبير الطاهر المكين الجليل الذي أقمته لي حتى تحيا حياة الخلود» الخ. . . ومن يقرأ مثل هذا النقش وغيره من النقوش في جدران المعابد المصرية لا بدّ وأنه يحسب أن المعبد قد أُقيم لتمجيد الملك أكثر من تمجيد الإله، ويؤيد هذه الفكرة أسماء المعابد التي صارت تقترن بأسماء الملوك.



مشهد يمثل حساب الموتى في عالم ما بعد الموت حيث الميزان الذي توزن به روح الميت وأعماله في كفة مقابل رمز العدل والصلاح. لاحظ الإله الممثل بهيئة ابن آوى الموكّل بالوزن (وهو الإله أنوبيس) وكذلك الوحش الموجود في الجهة اليمنى وهو منتظر نتيجة الوزن ليلتهم الميت إذا وجد ناقصاً في الميزان. ويوجد في الحقل الأعلى من الصورة مجلس الآلهة الموكلين باستنطاق الميت عمّا ارتكبه من الخطايا والذنوب.

الفصل الرابع والعشرون

«الأدب ـ الفن ـ القانون والشريعة»
وشيء عن العلوم والمعارف

1 ـ الخط الهيروغليفي وحل رموزه:

لكي يلمّ الدارس لحضارة وادي النيل بشيء عن آدابها المدوّنة وعلومها فإنه يلزم عليه أن يعرف الوسائل التي دوّنت بها تلك الآداب والعلوم، أي يتعرف على كتابتها لأن هذه الكتابة، مثل الخط المسماري، تدخل في صلب فهم اللغة والحضارة وليست من قبيل الحروف الهجائية التي يُستغنى عن معرفتها.

اشتهرت حضارة وادي النيل بخطها المشهور بالخط الهيروغليفي حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة ويحسبه نوعاً من الزخرفة والزينة الصورية. ولكن الواقع أن الخط الهيروغليفي يمثّل لنا أقدم الخطوط التي ابتدعتها الحضارة المصرية في تدوين شؤونها المختلفة، وقد نشأ ذلك الخط في مصر في أواخر ما سميناه بالعهد الحجري المعدني وفي بداية عهد السلالات، ويعزى نشوؤه، كما رأينا في الخط المسماري، إلى الحاجات التي استتبعت نشوء الحياة المصرية في وادي النيل. ولكن هناك فرقاً مهماً بين الخط الهيروغليفي والخط المسماري من ناحية الأصل. إذ إن أصل هذا الخط غير واضح وضوح أصل الخط المسماري الذي وُجدت أصوله البسيطة الأولى لما كان بهيئة صور تمثل الأشياء.

أما ما جاءنا من الخط الهيروغليفي إلى حال التأريخ فلا يمثل لنا بداية هذا الخط فإن أقدم نماذج جاءتنا عنه لا تمثّل لنا مراحل نشوئه الأولى وإنما

طور نضجه وانتقاله من الطور الصوري المحض إلى الطور الكتابي الرمزي. ولكن على الرغم من عدم وجود نماذج من الأطوار النشوئية الأولى للخط الهيروغليفي فالمرجّح عندنا أن ذلك الخط ابتدعه المصريون القدماء أنفسهم منذ السلالات الأولى[1] من المقابر الملكية العائدة إلى هذه السلالات، وأقدم نماذج منه ما جاءنا من عهد السلالة الأولى في النقوش المحفورة على نوع خاص من صفائح الحجر التي وجدت في «هيراكونبوليس» الواقعة بنحو (50) ميلاً جنوب طيبة، وأشهر هذه الأحجار المكتوبة ما يُعرف باسم حجر «نارمر» نسبة إلى «نارمر» الذي قلنا إنه كان أحد ملوك السلالة الأولى، ولعله أحد الملوك الذين أطلق عليهم اسم «منا» مؤسس هذه السلالة وموحّد المملكة المصرية المأثور.

وعلى الرغم من جهلنا بأبسط أطوار الخط الهيروغليفي فإن هذا الخط، قياساً على أقدم نماذج له، كان أصله صورياً، ثم تطوّر إلى ما سميناه بالطور الرمزي أي إن العلامات الهيروغليفية صارت تقوم مقام كلمات ومعان لها علاقة بأصل العلامة الصوري، وتطور الخط الهيروغليفي منذ أقدم الأزمان التأريخية إلى الطور الصوتي (ولعل ذلك بتأثير حافز الكتابة المسمارية) حيث استعملت العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات المختلفة، وكانت هذه الطريقة شبيهة بطريقة الكتابة الهجائية إلا أنها لم تكن هجائية صرفة. فمثلاً خصّص المصريون القدماء مجموعتين من العلامات الصوتية الشبيهة بالهجائية، تتألف المجموعة الأولى من 24 علامة قوام كل منها حرف صحيح مقروناً به أي حرف علة من حروف العلة الموجودة في أصوات اللغة المصرية. فمثلاً الحرف (م) يمكن أن يُقرأ بهيئة «مو» أو «ما» أو «مي»، وينتخب حرف العلة اللائق بحسب القرينة في كتابة الكلمات المختلفة. والمجموعة الثانية مؤلفة من نحو (80) علامة هي علامات مقطعية صوتية شبيهة بالحروف الهجائية وقوام

---

(1) يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز على نشوء الخط الهيروغليفي من الخط المسماري. انظر ما ذكرناه سابقاً عن الموضوع، وانظر المرجع الآتي: (The Legacy of Egypt, p.42).

كل علامة حرفان صحيحان مقروناً بهما (في الوسط أو في الآخر) أي حرف علة[1]. وبقيت الكتابة المصرية القديمة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية (الشبيهة بالهجائية) ولم تصل إلى المرحلة الهجائية الصرفة. ولكن حدث في شكل خطها تطورات وتبدّلات مهمة مما أدّى إلى ظهور جملة أنواع من الخطوط نوجزها على الوجه الآتي:

أنواع الخطوط المصرية:

توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل هي بحسب ظهورها التأريخي:

(1) الخط الهيروغليفي (Hieroglyphic).

(2) والخط الهيراطيقي (Hieratic).

(3) والخط الديموطيقي (Demotic).

1 ـ الخط الهيروغليفي:

الخط الهيروغليفي هو الخط المقدس[2] الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة وقد ظل في الاستعمال منذ أقدم أطواره (2900 ق.م) إلى نحو 100 ق.م.[3]، وظل محافظاً على شكله الصوري (أي شبه العلامات

---

(1) ففي المقطع (Tm) مثلاً يمكن قراءته بأوجه كثيرة مختلفة مثل T(a) m(a) وT(u) m(u) وT(e) m(e) وT(i) m(i) الخ. وتسمى مثل هذه العلامات بمصطلح (alphabeto-syllabic). حول أحدث البحوث والآراء في الكتابة الهيروغليفية راجع:

Gelb, The Study of Writing (1952).

وانظر كذلك:

The British Museum Guide (1930).

(2) مصطلح هيروغليفي كلمة يونانية مركبة من كلمتين كلمة «مقدس» (hieros) وكلمة حفر أو نقش على الحجر (glyphein).

(3) ظل الهيروغليفي في الاستعمال قليلاً أزماناً أخرى، وبإمكاننا تأريخ بطلان استعماله وموته نهائياً في القرن الثالث للميلاد.

المستعملة بالصور)، واستعمل لنقش المآثر والكتابات المقدسة في المعابد والقبور والتماثيل. والعادة في تنظيم هذا الخط أنه يدون بحقول متوازية عمودية تبدأ قراءتها من اليمين، ومن الممكن كتابة الخط الهيروغليفي أيضاً بهيئة معكوسة بصورة أفقية ومن اليسار إلى اليمين، وهي الطريقة المتّبعة الآن عند الباحثين المحدثين (لملاءمة ذلك للحروف اللاتينية).

2 ـ الخط الهيراطيقي:

معنى اسم هيراطيقي «كتابة أو خط الكهنة» ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره. إذ إن القوم شعروا منذ أزمان قديمة أن الكتابة الهيروغليفية ثقيلة سمجة، كما أنها لا تصلح أن تكتب كتابة سريعة في ورق البردي بالحبر والقلم، لصعوبة ضبط تأدية الصور على مثل هذا الورق، فبدأ الكتبة يحوِّرون في الهيروغليفية الصورية ويبسطون فيها واختصروا فيها أيضاً فنشأ بمرور الأزمان الخط الهيراطيقي وهو طريقة سريعة في الكتابة ونسخية، وكان أقدم استعمال له في استنساخ المؤلفات الأدبية في ورق البردي منذ السلالتين الخامسة أو السادسة (في حدود 1900 ق.م) وظل في الاستعمال في كتابة بعض الشؤون المهمة كالعقود والصكوك والمصالح العامة والآداب والمعارف المختلفة. وبالإمكان كتابة الخط الهيراطيقي بهيئة حقول عامودية أو بصورة أفقية من جهة اليمين على الدوام (وليس من اليسار مطلقاً).

3 ـ الخط الديموطيقي:

معنى اسم هذا الخط «خط العوام أو الجمهور»، ونشوؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيراطيقي وإيجازه مرحلة أبعد، حيث بدأ الكتبة في نهاية السلالة الثانية والعشرين وفي عهد السلالة السادسة والعشرين (947 ـ 663 ـ 525 ق.م) (أي منذ القرن العاشر والتاسع ق.م) يبسطون ويختصرون في الخط الهيراطيقي مراحل أبعد، فأوجدوا منه علامات اصطلاحية، حذفت منها جميع العلامات الباقية من الهيروغليفية مما ظل محافظاً على شكله الصوري

وحلّ الديموطيقي محل الهيراطيقي. والجدير بالذكر أن هيرودوتس لم يذكر من خطوط الكتابة المصرية سوى خطين وهما الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي ولم يذكر الخط الهيراطيقي والسبب في ذلك أن هذا الخط قد اختفى من الاستعمال في عهد «هيرودوتس»، ولكن الهيروغليفي ظل مستعملاً في المآثر المقدسة كما ذكرنا. واستعمل الخط الديموطيقي للكتابة على البردي والحجر، وكان يكتب بهيئة أفقية، ومن جهة اليمين، وظل في الاستعمال إلى ما بعد القرن الثالث الميلادي بقليل، وقد بدأت الحروف الهجائية اليونانية تشيع في الاستعمال وأخذت تحلّ محل الخطوط القديمة الصعبة السمجة، وكُتبت بهذه الحروف اللغة القبطية (إحدى اللهجات المصرية المتأخرة) مع إضافة نحو (7) علامات إلى الحروف اليونانية، فذهبت معرفة الناس بالخطوط القديمة وظلت مجهولة لدى العالم إلى أن حُلّت رموزها في بداية القرن التاسع عشر للميلاد كما سنذكره بعد قليل.

ولكن قبل التنويه بحل رموز الكتابة في مصر القديمة نذكر شيئاً عن اللغة المصرية القديمة. فمما يقال عن ذلك بوجه الإيجاز ما سبق أن ذكرناه عن الشبه الكبير بين اللغة المصرية (التي هي من فروع اللغات الحامية الكبرى) وبين اللغات السامية مما جعل جماعة من الباحثين يرجعون اللغات الحامية واللغات السامية إلى أصل واحد بعيد. كما ذكرنا أيضاً ما طرأ على اللغات السامية من استمرار تطوّرها وتبدلها في حين أن اللغة المصرية القديمة كانت أقلّ تعرضاً لمثل هذه التغييرات إذ تمّ نموّها ونضجها في عهد قديم. واللغة المصرية معروفة لدى الباحثين بخمسة أطوار كما جاءت ممثلة في النصوص الكتابية المختلفة منذ عهد المملكة القديمة. وأول هذه اللغات (1) لغة المملكة القديمة (وهي اللغة العتيقة) (2) ولغة عهد المملكة الوسطى وهي اللغة المصرية المأثورة (الكلاسيكية) (3) واللغة المصرية الحديثة التي استعملت في المعاملات وشؤون الناس الاعتيادية من حدود 1600 ق.م. وفي النقوش الكتابية من 1300 ق.م. إلى حدود 850 ق.م. (4) واللغة العامية الدارجة من حدود 800 ق.م. إلى نهاية العهد الروماني وهذه هي لغة

الخط الديموطيقي، وأوجدوا لهجة مشتقة من المصرية الحديثة في كتابات الخط الهيروغليفي من هذا العهد (5) وظهرت من بعد عهد المسيح أيضاً لهجة حديثة اعتيادية هي اللغة القبطية، وقد بطل استعمال القبطية كلغة محكية في حدود القرن السادس عشر للميلاد، ولكن الإنجيل والصلاة عند مسيحيي مصر الأقباط لا تزال بالقبطية[1] على الرغم من أن معظم الناس لا يعرفون معناها.

حلّ رموز الخط الهيروغليفي:

لقد سبق أن نوّهنا بأن الكهنة ظلوا يمارسون الخط الهيروغليفي إلى نهاية القرن الثالث للميلاد، ولكن بطل استعماله من بعد هذا التأريخ وظل الخط مجهولاً إلى محاولة حلّ رموزه في بداية القرن التاسع عشر.

وقد جرت قبل ذلك في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر محاولات عديدة من جانب الباحثين لقراءة نقوش الكتابة المصرية، ولكن هذه المحاولات لم تُسفر عن نجاح ما وظل الأمر كذلك إلى أن اكتشف حجر رشيد المشهور.

فما هذا الحجر المشهور في تأريخ الحضارة البشرية؟ إنه عبارة عن جزء من مسلة من حجر البازلت (قياسها ثلاثة أقدام وتسعة إنجات في قدمين وأربعة ونصف من الإنجات) وقد نُقشت بأربعة عشر سطراً من الكتابة الهيروغليفية و32 سطراً من الكتابة الديموطيقية و54 سطراً من الكتابة اليونانية. وقد عثر عليه في عام 1798 ضابط فرنسي من المدفعية اسمه «بوسار» (Bousard) في أثناء حملة نابليون الشهيرة، إذ وجد بالقرب من فرع رشيد من النيل، ونقل في عام 1799 إلى القاهرة ليُفحص من جانب العلماء الذين رافقوا حملة نابليون. وقد أمر نابليون أن تعمل من الكتابة نسخ يزوّد بها العلماء المختلفون في

(1) وتنقسم القبطية بدورها إلى لهجات أربع هي لهجة مصر العليا (اللهجة الصعيدية) واللهجة البحرية واللهجة الفيومية واللهجة السوهاقية.

أوروبا. وفي عام 1801 أخذت السلطات البريطانية هذا الحجر وأرسلته إلى بريطانيا (في عام 1802) وحفظ في المتحف البريطاني.

إن أول كتابة حُلّت رموزها في هذا الأثر القيم هي الكتابة اليونانية، فتبيّن أن المسلة أُقيمت بقرار من مجلس كهنة مصر المنعقد في «منفس» لتخليد ذكرى اعتلاء بطليموس الخامس (ابيفانس) ملك مصر (من البطالسة)، وقد تمّ ذلك في عام 196 ق.م.

وأعقب هذه الخطوة الأولى نجاح بعض الباحثين في عام 1802 في حلّ بضعة أسطر من الكتابة الديموطيقية وتعيين بعض أسماء الأعلام الواردة فيه، وبعد بضع سنين (في عام 1819) نجح بعض الباحثين في حلّ جزء من رموز الكتابة الهيروغليفية في هذا الحجر ولا سيما قراءة اسم «بطليموس»، وكان أبرز الباحثين الناجحين فرانسوا شامليون الشهير (1822) حيث أضاف كثيراً إلى معرفة الهيروغليفية وألّف فيها وفي نحوها وساعدته في ذلك معرفته باللغة القبطية. وقد ظهر مؤلفه قبيل موته (في عام 1832). وجاء من بعده العلماء الباحثون فاَستمروا في دراسة الخطوط المصرية ومعرفة لغتها حتى استطعنا معرفة أهم عناصر حضارة وادي النيل.

ونختتم بحثنا في الخطوط المصرية بالتنويه بمادة الكتابة عند قدماء المصريين. فعدّة الكتابة وأدواتها تتألف من ورق البردي (البابيروس) ولوحة الألوان (Palette) وأقلام القصب والدواة. وبالإضافة إلى الحجر الذي استعمل في نقش الكتابات التذكارية والكتابات المقدسة في جدران الأهرام والمقابر والمعابد فإن المادة الشائعة في الكتابة كانت كما ذكرنا ورق البردي الذي كان يصنع من سيقان نبات «البابيروس» (Papyrus)[1] الذي كان ينمو في أهوار مصر وغياضها قرب النيل، ولا يُزرع الآن في مصر ولكنه موجود في السودان حيث

---

(1) واسم هذا النبات العلمي (Cyperus Papyrus) ولا يعلم أصل كلمة بابيروس ولعلها من كلمة مصرية قديمة.

ينمو إلى ارتفاع (20 ـ 25 قدماً). وطريقة صنع ورق البردي أن ساق النبات كان يقطع إلى شرائط رقيقة ونوضع هذه جنباً إلى جنب بهيئة أفقية، ويوضع فيما بينها محلول خفيف من الصمغ وتضغط من بعد ذلك الصحائف المعمولة على هذا الوجه وتجفّف ويمكن صنع لفات كبيرة من هذا الورق بوصل عدة صفائح منها. ولدينا الآن أطول لفة من البردي موجودة في المتحف البريطاني (طولها 135 قدماً وعرضها قدم واحد وخمسة إنجات).

ومما يقال في مثل هذه المادة من الكتابة أنها ساعدت الكتبة المصريين على تدوين النصوص المطولة المستمدة مما كان أصل «الكتاب»، بخلاف مادة الكتابة عند العراقيين القدماء التي لم تساعدهم في هذا الأمر، لأنه لا يمكن كتابة نص مطول في ألواح الطين بالمقارنة مع أوراق البردي، كما أن جملة ألواح يصعب حفظها بعضها مع بعض مما جعل العراقيين القدماء ينشئون أولى دور للسجلات (Archive) في تأريخ الحضارات.

الأدب:

لقد سبق أن ذكرنا شيئاً موجزاً عن الكتابة المصرية القديمة، فنذكر من بعد هذا بحثاً مختصراً عن الأدب عند المصريين القدماء، وقبل أن نبدأ بذلك نشير إلى تراث مصر القديمة في الحضارة اليونانية من جهة الكتابة ولعله الأدب أيضاً. فقد أخذ اليونان عن المصريين مواد الكتابة (أي الورق المصنوع من البردي) حتى أن اسم «الكتاب» بالإغريقية (أي بيبليوس) مشتق من المدينة الفينقية «بيبلوس» (وهي جبيل) لأن مصدر الورق البردي عند الإغريق كان من هذه المدينة[1]. ويعدّ بعض المؤلفين من الإغريق أن مصدر الفلسفة عندهم هي مصر. وإذا كان هذا الرأي لا يصمد أمام النقد، إلا أنه يشير إلى تأثر الإغريق بكثير من أوجه الحضارة المصرية، ولكن نقض هذا الرأي لا يمنع أن تكون الآداب المصرية والبابلية القديمة قد حفّزت الإغريق بصورة غير مباشرة إلى

(1) وهكذا اشتقاق اسم التوراة أي (Bible).

إبداعهم في حقل الأدب الرفيع، وكان الفينيقيون من جملة هذه الطرق غير المباشرة، والطريق المهم الآخر بلاد فلسطين التي تأثرت بالحضارة المصرية تأثراً عظيماً، ويبدو أثر ذلك في الكتابات العبرانية المقدسة (في التوراة)، وهي الكتابات التي يظهر فيها أثر الآداب المصرية القديمة ولا سيما في باب الحكم والأمثال مثل أمثال سليمان التي يوجد لأكثرها أمثال مصرية مضاهية[1].

وأول أمر تجدر ملاحظته عن الأدب المصري القديم هو أنه كان نتاجاً مصرياً صرفاً، نشأ ودرج في وادي النيل، فهو والأدب القديم في وادي الرافدين أقدم أدب للإنسان ظهر في التأريخ. ويشبه الأدب المصري القديم من ناحية نشوئه وترعرعه في أرض مصر عناصر الحضارة الأخرى التي بذرت بذورها في تربة وادي النيل منذ أقدم عهود التأريخ. هذا ولا يستبعد وجود نوع من الأدب الشعبي كالقصص والتراتيل الدينية والشعائر وما إلى ذلك قبل ظهور فن الكتابة في مصر. ولعل أقدم نموذج أدبي مكتوب هو من نوع التراجم الشخصية (Autobiography) ويرقى هذا الفن إلى عهد ملوك السلالة السادسة. وجاءت من عصر الأهرام كتابات دينية هي «النصوص الهرمية» التي كانت أشبه ما تكون بالرقى والتعاويذ الدينية، واشتهرت في عصر الأهرام مجاميع الأمثال والحكمة وجاءتنا أسماء من حكماء هذا العهد أمثال «أمنحوتب»، كما جاءتنا قطع قصيرة من القصائد الشعرية، وهي تمتاز بالإعادة والتكرار اللذين يكونان

---

(1) انظر بوجه خاص مجموعة الحكم والأمثال المصرية المعروفة باسم إرشاد (امنم اوفت) (من حدود القرن العاشر ـ السادس ق.م)، انظر ترجمتها في:

. Ancient Near Eastern Texts, 421 ff.

ومن القصص المشهورة الموجودة في الكتب المقدسة (التوراة والقرآن) قصة السنين السبع العجاف في مصر. وقد نقش هذا الخبر عن هذه السنين التي حلّت في مصر في الحجر في بحيرة قرب الشلال الأول، كما توجد إشارات في النصوص الأخرى إلى هذا السنين. ومع أن النقش المذكور يرجع في تأريخه إلى عهد البطالسة إلا أنه ينصّ على أن الحادثة وقعت في عهد السلالة الثالثة (في زمن الملك زوسر).

(انظر ذات المصدر ص 31 فما بعد).

مملين في بعض الأحيان. وقد رأينا هذه الصفة في الشعر البابلي، والإعادة والتكرار من ميزات الشعر المصري القديم حتى في الأزمان المتأخرة. ومهما يكن من أمر فإنه لم تأتنا من الأدب المصري القديم من عهد المملكة القديمة إلّا نماذج جد قليلة. وبعد نهاية عصر الأهرام في ختام السلالة السادسة جاءتنا نماذج مهمة من نتاج الأدب القديم، وقد وصل فن الأدب درجة الارتقاء والاتساع منذ ذلك الحين، وبلغ في عهد المملكة الوسطى شأواً عالياً. ولعل أبلغ قطعة أدبية من عهد المملكة الوسطى هي القصة المعروفة بقصة «سينوهي» وهي قصة مصري هرب إلى فلسطين على أثر اكتشافه مؤامرة لاغتيال الملك، وقد وصف هربه بوصف تصويري أخّاذ. وفي القصة قطعة جميلة تصوّر لنا كيف استبدّ ببطل القصة الحنين إلى وطنه عندما تقدم في السن على الرغم مما أصابه من نجاح وثروة في موطنه الجديد، فبثّ لواعجه وشجونه في شعر حزين ما إن طرق أسماع الفرعون إلا وأرسل يستدعيه إلى الوطن الحبيب، وتصف لنا القصة وصفاً بارعاً تشوبه العاطفة والأحاسيس عودة ذلك الغريب إلى بلده وكيف استُقبل في بلاط الفرعون بحفاوة وتكريم، وقبل ذلك تصف القصة مشهداً لطيفاً مؤثراً يبدو فيه الفرعون وزوجته وبناتها الأميرات وقد أنكرن حال «سينوهي» وتبدله وهو يلبس في وعثاء السفر لباساً أجنبياً غريباً: «قال جلالته لزوجه الملكة: انظري «سينوهي» ترى أنه قد جاء وكأنه آسيوي، من نسل قوم السيتو. فصرخت صرخة كبيرة، وصرخ الأمراء الأطفال جميعاً وقالوا لجلالته: «حقاً إنه ليس هو، يا ذا الجلال والسلطان» فأجاب جلالته: «نعم إنه هو»[1].

ومن القصص التي جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وتكاد تكون كاملة قصتان إحداهما تشبه قصة السندباد البحري ويمكننا أن نعنونها «الملاح التائه» والثانية «الفلاح البليغ» فتروي لنا القصة الأولى رواية ملاح تحطمت سفينته فالتجأ إلى جزيرة جرداء وقد لاقى فيها أهوالاً وعجائب، ومن ذلك حديث له

---

(1) انظر أحدث ترجمة للقطعة في: Ancient Near Eastern Texts, (1950), 18 ff.

مع ثعبان هائل الحجم. وتتلخص القصة الثانية بوصف شكاة فلاح قد سرقت منه بضاعته. وتدور هذه القصة الممتعة على فكرة العدالة الاجتماعية التي شاعت في عهد المملكة الوسطى، ووجوب شمولها الطبقات الوسطى والدنيا. وملخص القصة أن فلاحاً كان يعيش في «نطرون» عزم مرة على الذهاب إلى المدينة في مصر العليا ليختار بضاعة له، فأخذ من نتاج حقله وحمله على الحمير وبدأ في رحلته، فلما أن بلغ في الطريق موضعاً معيّناً التقى برجل في شاطىء النهر، وكان هذا وكيل الأرض الخاصة بأحد الأثرياء، فلما رأى هذا الوكيل بضاعة الفلاح المحملة سوّل له الطمع والجشع سلبها. وكان بيت الوكيل يقع على طريق ضفة النهر الضيق الذي ينبغي أن يسير فيه الفلاح مع بضاعته، وكان بعضه مزروعاً بغلة الوكيل، والجزء الآخر يحاذي النهر، وقبل أن يمرّ الفلاح منه جلب الوكيل رداء وفرشه في شقة الطريق غير المزروعة الضيقة. فاقترب الفلاح واجتاز الطريق ببضاعته واضطر أن يطأ الرداء الموضوع، فصاح به الوكيل قائلاً: «كيف تجرؤ أيها الفلاح على أن تطأ فراشي بحميرك؟». فاعتذر الفلاح وقال: حسناً سأتحاشى السير فوق الفراش، فحاد في اتجاهه إلى الشقة المزروعة المحاذية للقسم المفروش، وعند ذلك نهره الوكيل وقال له: «كيف تجرؤ على دوس زرعي؟». فأجابه الفلاح وقال: «إنني أسير في السبيل العام»، وفيما كان الفلاح يحاوره إذا بأحد حميره ينهش من زرع الوكيل قبضة من الزرع، فكان ذلك حجة للوكيل حيث أراد الاستحواذ على حمار الفلاح الذي أخذ يحتج وقال للوكيل: إنني لم أسئ إليك وإنما سرت في الطريق العام، ولا يجوز أن تأخذ حماري بقبضة زرع. ثم إنني أعرف مالك هذه الأرض. إنه الموكل بإيقاع العقاب بكل سارق في جميع هذه البلاد. فهل أُسلب في أرضه؟». فأخذ الوكيل هذا الجواب حجّة على الفلاح متهماً إياه بالطعن في سيد الأرض، فلم يحاججه أكثر من ذلك وإنما أخذ هراوة غليظة وانهال بها ضرباً مبرحاً على الفلاح واغتصب منه حميره وبضاعته، فأخذ الفلاح بالبكاء والصراخ، وعندها هدّده الوكيل بأنه سيزيد من ضربه لأنه يهين السيد صاحب الأرض بما أحدثه من صراخ وضوضاء مزعجاً

بذلك «سيد الصمت والهدوء»[1]. وعندها أجاب «الفلاح البليغ»: لقد ضربتني، وسلبت بضاعتي، ثم تريد أن تمنعني حتى من الشكوى. يا «سيد الصمت والعدالة» أدعوك أن تردّ إليّ بضاعتي، فلا أبكي وأصرخ وأزعجك».

وهكذا ظل الفلاح طوال عشرة أيام وهو يتوسل بوكيل الأرض فلم يسمع شكاته. فذهب الفلاح إلى مدينة «هيراكليوبوليس» ليشتكي إلى سيد الأرض في تلك المدينة، فأدركه وهو عازم على القيام برحلة رسمية مع بطانته من الموظفين، فسمح له هذا السيد عرض شكاته على أحد هؤلاء الموظفين، فسجل شكوى على الوكيل، ولكن الموظفين استهانوا بخطر الدعوى، وأن هذا الفلاح قد يكون من فلاحي الوكيل، وفي هذه الحالة يمكن تسوية القضية تسوية سهلة. ولكن الفلاح أصرّ على الشكوى وأخذ يتكلم بحكمة وبلاغة جريئتين. والظاهر أن «السيد» الكبير أُعجب بجرأة الفلاح وبلاغته فأوصل الأمر إلى ملك البلاد[2] فأمر هذا الملك أن تُكتب شكوى الفلاح وحججه وتقدم إليه وأن تكفل معيشته حتى ينظر في أمره. فقدّم الفلاح شكاته البليغة المملوءة بحكم العصر وأمثاله عن العدالة. وكانت نتيجة الحكم أن صودرت أملاك الوكيل وجرّد من وظيفته وسلّمت إلى الفلاح البليغ[3].

ومن النماذج الأدبية الطريفة قطع خصصت للإشادة بفن الكتابة وسموّ مقام الكتبة. ومن هذه القطع نصيحة أو وصية من والد اسمه «دواف» إلى ولده «خيتي» الطالب في المدرسة وهي ترينا مركز المتعلمين في المجتمع وأخذهم وظائف الدولة، وكان الأب عاملاً في السفن في عهد الأمبراطورية على ما يبدو. وإليك نماذج من هذه النصائح الطريفة: «لقد رأيت من يُضرب، فعليك أن تقبل بكل قلبك على تعلّم الكتابة، فلا شيء يفوق الكتابة. سأعمل على

---

(1) المقصود بسيد الصمت هنا الإله أوسيريس، إله الموتى، وكان قد أقيم له مزار قرب هذا الموضع الذي جرت فيه حوادث الرواية، وكان أوسيريس في الوقت نفسه إله العدل.

(2) وكان هذا أحد الملوك الذين حكموا في الفترة المظلمة من بعد عصر الأهرام.

(3) انظر نص القصة في: Ancient Near Eastern Texts, 407 ff.

جعلك تحب الكتابة أكثر من حبك لأمك. إنها أعظم من أي وظيفة... لقد رأيت المعدِّن وهو في عمله بجوار فتحة فرنه، إن أصابعه لتشبه التماسيح، إنه مضني متعب أكثر من عامل الفأس.. وهذا المشتغل بالأحجار الثمينة، فحين ينهي صنع شيء نفيس تموت ذراعاه... وذاك الحلاق إذ يشتغل متجولاً إلى الغسق. والتاجر المترحل الذي يسير بالسفينة إلى الدلتا، فإذا أنهكه التعب وأراد الراحة فإن البعوض والذباب يهلكه.. والبنّاء الصغير وصانع اللبن، إنهما أقذر من الخنزير. ودعني أخبرك بحال باني الجدران. إن الألم يمضّ جنبيه، وذراعاه كليلتان من العمل. ولا يغتسل إلّا في كل موسم. إنه تعس شديد التعاسة».

وبعد أن يعدّد الأب تعاسة أصحاب الحِرف الأخرى يعيد على ولده النصح من أنه ينبغي له أن يقبل على تعلم الكتابة ليصبح «كاتباً» فيستطيع أن يدخل في سلك القضاة، فإن حرفة «الكاتب» لا تفوقها حرفة. فهو وافر العيش من بيت الملك[1].

وجاءنا نوع آخر من هذا الأدب القديم تطغى عليه روح التشاؤم، وتبدو فيه حيرة الإنسان وجزعه من نفسه. وقد جاءتنا عن ذلك قطعة أدبية طريفة تدور على حوار بين إنسان جازع من الحياة والعيش وبين «نفسه» فلما أن وجد ذلك الشخص الحياة لا تُطاق فكر في الانتحار، وأخذ يقنع نفسه بالأمر، وكانت نفسه مترددة، فقد وافقت في مبدأ الأمر، ولكنها خشيت العاقبة من أن صاحبها سوف يُحرم من إقامة الشعائر الخاصة بالدفن من بعده فيصيبها الهلاك من جرّاء ذلك، فزيّنت له الانغماس في الحياة وفي حسراتها ولذاتها، وأنها ستظل ملازمة له، وتتمثل في أقوال تلك «النفس» نصائح الحكماء الذين وصفوا هذه الحياة بالفوضى، وأن كل شيء فيها معوج لا يسير على الوجه الصحيح، ولا تكون فيها الأشياء والأمور في مواضعها الصحيحة، ولا وجود للحرمة وللفضيلة في أي مكان. وكانت روح العصر تتطلع إلى منقذ ومخلص.

---

(1) Ancient Near Eastern Text, 413 ff.

وإذا ما أتينا إلى عهد الأمبراطورية، فإن أحسن نماذج جاءتنا من هذا العهد كانت من السلالة الثامنة عشرة، ويمثل ذلك أحسن تمثيل الأغاني والتراتيل الدينية المنسوبة إلى أخناتون وهو الملك الذي قام بأعظم ثورة دينية وأول من وحّد على ما بيّناه سابقاً، وكان نفسه شاعراً «فناناً» ذا شعور مرهف وخيال واسع. ولنأخذ بعض القطع المختارة من «ترتيلة أتون» الشهيرة التي نظمها أخناتون، وهي ترتيلة سامية في أفكارها ومعانيها وفي صفاء فكرة توحيدها. وقد وجد غير واحد من الباحثين تناظراً وشبهاً بين هذا الشعر وبين المعاني السامية الواردة في المزامير (ولا سيما المزمور الرابع بعد المائة)[1]:

ما أبهى وأجمل شروقك في أفق السماء ـ يا «أتون» الحي يا مبدأ الحياة!

حين تطلع في الأفق الشرقي تملأ كل أرض بجمالك وجلالك.

أنت رحيم، عظيم، سني مضيء، تعلو فوق كل أرض.

تحتضن أشعتك جميع الأرضين وجميع ما صنعت.

أنت «رع» وأنت «الكل». أنت متسامٍ في البعد!، ولكن نور أشعتك فوق الأرض.

وحين تغرب في الأفق الغربي من السماء، يلفّ الظلام الأرض كالموت، وتكنّ المخلوقات كلّ ما في مأواه، والظلام كالكفن، والأرض في صمت وسكون. لأن الذي صنع الكل مستقر في أفقه.

وعند بزوغ الفجر، حين تظهر في الأفق، وحين تشرق مثل «أتون» في النهار، فتطرد الظلمة، وتزهو «الأرضان» فتدبّ الحياة والحركة، وينهضون على أقدامهم لأنك أقمتهم.. ويرفعون بأيديهم يمجدون ظهورك».

ويستمر في بيان كيف تدبّ الحياة في جميع المخلوقات التي تكون في غبطة وحبور في تمجيد الخالق العظيم، ثم ينوّه بخلق الإنسان وجميع الأشياء وكيف أن خلقه كثير لا يحصى محجوب عن أعيننا فلا ندرك جميعه. وأنه

(1) انظر ترجمة الترتيلة والتعليق عليها في: **Ancient Near Eastern Texts,** 369 ff.

الإلٰه الأوحد الذي لا مثيل له في القدرة والحول. ويصف كيف أنه أوجد نيلاً في الأعماق لأهل مصر وأوجد نيلاً في السماء للبلدان الأخرى لكي يزوّدهم بالماء والحياة. ثم ينوّه بوحيه لأخناتون الذي يتفرّد بمعرفته وحده من دون الخلق، فهو ابنه الذي وهبه الحكمة.

وإلى ذلك خلف لنا المصريون القدماء من عهد الأمبراطورية نماذج متنوعة من الأدب القصير، كالرسائل وقطع الإنشاء القصيرة المتنوعة. وأكثر ما يجلب انتباه القارىء فيها الناحية النفسية والثقافية، وهما الناحيتان اللتان تطغيان عليها أكثر من الأدب الصرف وشاع عندهم نوع من رسائل الهجاء والسخرية التي كان يتقاذف بها الكتبة، ومن أنواع الأدب المهمة «الشعر الغنائي»، ولا سيما شعر الغزل الرقيق، وقد جاءتنا منه بعض النماذج الجميلة. ونوع آخر من الشعر نجد فيه روح عدم الاكتراث بالموت والترحيب به، وتبدو عليه الروح الأبيقورية، ومبدأ «كل واشرب وكن مسروراً، فغداً تموت» وهذا يضاهي ما ورد في قصيدة «جلجامش» البابلية.

وبإمكاننا أن نقرر بوجه الإجمال أنه كان للمصريين أدب هو من أقدم الآداب العالمية، وأنه ذو مكانة سامية حتى لو قيس ووزن بمقاييس الأدب العالمي على الرغم من أن النماذج التي جاءتنا قليلة جزئية، وإن قسماً مما جاءنا غير كامل، ومع ذلك فهي تمكننا من أن نكوّن صورة لا بأس بها عن أقدم محاولات للإنسان للتعبير عن شعوره وأحاسيسه وعلاقة ذلك بالبيئة التي يعيش فيها(1).

---

(1) لقد ترجمت أغلب القطع الأدبية في:

A. Erman. The Literature of The Ancient Egyptians.

وقام بعض الباحثين بدرس مقارن بين الآداب القديمة وعلى رأسها الأدب المصري والبابلي راجع:

T.E. Peet. A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia, (London 1931).

وكذلك ترجمت القطع الأدبية أحدث ترجمة في المصدر الذي أشرنا إليه كثيراً وهو:

Ancient Near Eastern Texts, (1950).

الفن

لعل أول ما يجلب انتباه الباحث في حضارة مصر القديمة أن أبرز عنصر فيها «الفن» وأن هذا الفن قد بلغ مرحلة باهرة من النضج في عهد قديم جداً من عهود الحضارة المصرية، وهو عهد المملكة القديمة، فقد سبق أن نوّهنا بشيء عن الفن في عصر الأهرام، وأن أصول هذا الفن مجهولة يحجبها الظلام حتى الآن، فتبدأ معرفتنا به في عهد المملكة القديمة وهو في طور الازدهار، ولكن ينبغي أن يكون قد سبقته عهود تطور فيما وراء ذلك، مما نجهلها الآن. والأمر الثاني المهم الذي تجب ملاحظته عن الفن المصري أنه لم يكن فناً جامداً ثابتاً ظلّ على وتيرة واحدة منذ عهد ازدهاره، كما توهّم بعض الباحثين، بل إنه مرّت عليه أطوار مختلفة منذ عصر الأهرام خضع فيها إلى التغيير والتطوّر، كما تشهد على ذلك مآثر المملكة الوسطى والآثار الفنية التي جاءتنا من عهد «العمرانة» (عهد الأمبراطورية). وقد قلبت الاكتشافات المثيرة في قبر «توت عنخ آمون» (في عام 1922 ـ 1923) تلك الآراء القديمة، حيث زوّدتنا بنفائس من الفنون الفرعية، كالصياغة والمجوهرات وغير ذلك مما ألقى ضوءاً عظيماً على الفن المصري في عهد السلالة الثامنة عشرة.

ونقطة ثالثة تجلب انتباهنا حول الفن المصري هو أن معرفتنا به وبنماذجه من أغلب عهوده مستقاة مما خلفه لنا المصريون في القبور والمعابد الملحقة بالأهرام والقبور، وقد دعا هذا الأمر البعض إلى اعتقاد خاطىء هو أن وادي النيل كان أرض الأموات وحضارته حضارة الموتى. فالواقع أن مصدرنا الأساس عن مظاهر الفنون من القبور والمعابد، ولكن ذلك يدل على عناية القوم واهتمامهم الشديد بالفنون، وإلّا لما شغل الفن هذه المكانة المهمة التي كان عليها الفن في حياة الناس، وهو أمر تعكسه لنا شعائر الدفن وما يتعلق بالقبور لأن هذه القبور نسخة ثانية لهذه الحياة، حيث أودع فيها الفراعنة والأمراء والنبلاء كل ما كانوا يحتاجون إليه في هذه الحياة، ومن بين ذلك الصور والرسوم الزاهية التي تزيّن جدران المعابد الملحقة بالأهرام وفي جدران

القبور مما وجد في عهد المملكة القديمة. وهناك أمر فيه شيء من سوء الفهم لتقدير الفنون القديمة، ولا سيما فن الرسم والتصوير عند المصريين وعند سكان وادي الرافدين وقد سبق لنا أن نوّهنا به في الفصل الخاص بالفن في حضارة العراق، ويدور هذا الأمر على تطبيق القواعد والأصول الحديثة في فن الرسم على تلك الفنون القديمة، وهو أمر لو فعلناه لما استطعنا أن نقدر تلك الفنون كما ينبغي لها أن تُقدّر. فهناك، كما ذكرنا، طريقتان لرسم الأجسام وتصويرها في السطوح المستوية. فالطريقة الأولى يصحّ أن نسميها بطريقة الرسم الهندسي (Geometrical)، والثانية طريقة رسم الشيء كما ينظر إليه الرائي (فن المنظور Perspective)، فالطريقة الثانية وهي أحدث الطريقتين تمثّل الأجسام ذات الأبعاد الثلاثة كما تبدو للرائي في المكان، أي تمثل الأجسام كما تتراءى لنا، ولكن الطريقة الأولى، عكس ذلك، تمثل تلك الأجسام كما هي بحقيقتها لا كما ينظر إليها الرائي، وسارت على الطريقة الأولى الفنون القديمة إلى أن اخترع الإغريق «فن المنظور». فإذا ما أردنا أن نجعل من أنفسنا نقّاداً للفنون القديمة فنصيب كبد الحقيقة في نقدنا لتلك الفنون وجب علينا أن نجرّد أذهاننا من جميع ما نعرفه عن قواعد الرسم الحديثة. ولأن كثيراً من الدارسين للفنون القديمة لم يفعلوا ذلك فقد أصدروا حكماً خاطئاً فيما يخصّ الأساليب الخاصة بالرسوم المصرية القديمة. وهكذا كان الحال في الفنون التصويرية مما خلفته لنا حضارات وادي الرافدين. ومن الملاحظات العامة التي يجدر ذكرها عن ميزات الفن ومكانته في حضارة مصر، أن فن العمارة أبرز فرع برعت فيه تلك الحضارة ويليه فن النحت الراقي بكلا نوعيه المجسم والنحت البارز، أما النقش والرسم (Painting) فكان أقل شأناً من النحت وكان يُستخدم للتزويق والتجميل بالدرجة الأولى، ونذكر من نماذج فن العمارة، المعابد الضخمة الملحقة في القبور والأهرام، وفن العمد الضخمة في «الأقصر» والكرنك من عهد السلالة الثانية عشرة وعهد الأمبراطورية (انظر الشكل آخر الفصل) إلى السلالة الثانية والعشرين. ويصحّ أن نقول بالنسبة إلى فن العمارة والنحت إن المصريين القدماء كانوا أعظم بنائين ونحاتين في

التأريخ وقد حدث انحطاط وتوقف في الفترة المظلمة من بعد عصر الأهرام ولكن استأنف الفن حيويته في عهد المملكة الوسطى ولا سيما في زمن السلالة الثانية عشرة.

ونبدأ الآن بأخذ بعض النماذج من الفنون المصرية بحسب أدوارها منذ أقدم العهود:

قبر «زوسر»:

تقوم الآن في صقارة جدران عظيمة من حجر الرخام تحيط ببناء مقدس (مساحته 490-295 ياردة)، وقد زيّنت هذه الجدران من الخارج بنوع من الزينة المعمارية من دخلات وطلعات (Recesses and Buttresses) بموجب طراز أبنية العراق القديم. ويقوم وسط البناء هرم مكوّن من سبع طبقات تخفي تحتها غرفة من حجر «الغرانيت». وكان الهرم المصري على هذا الطراز مدرجاً بهيئة طبقات بخلاف الأهرام التي نشأت منذ عهد السلالة الرابعة التي لم تكن مدرجة بل كانت سطوحها ملساء. وترقد في تلك الحجرة المذكورة «مومياء» الملك العظيم «زوسر»، من أعاظم ملوك السلالة الثالثة، ويزوّدنا هذا البناء بفكرة جلية عن الفن المصري القديم، ولا سيما فن العمارة، إذ إن هذا الموضع في الواقع مدينة مكوّنة من قصور ومعابد فخمة تبدو عليها المهابة في صفوف العمد الجميلة، وقد صنعت هذه العمد بهيئة حزمة من البردي وهي ذات طراز لا يوجد ما يضاهيه في أطرزة العمارة من الأدوار التي أعقبت زمن السلالة الثالثة. ولعلّ أول ما يؤثر في الدخل إلى تلك البناية فخامة البناء والتناسب والتناسق والبساطة في الزينة. وتشاهد بعض الأعمدة وقد زيّنت بخطوط محفورة على طولها (Fluted) وهو الطراز المعروف «بالدوري» في العمارة الإغريقية. وزيّنت سقوف حجرة اللحد المعقودة بزخرفة من الخزف البراق ونُحتت بالنحت البارز بصور من بينها صورة تمثل الملك زوسر» وهو يقوم ببعض الشعائر الدينية. ووجد في الحجرات قرب الهرم تمثال نفيس من الحجر للملك نفسه.

الأهرام:

لقد سبق وصف هذه الأهرام في موضع آخر من هذا البحث فأرجع إليه فلم يبق إلّا أن نذكر شيئاً مختصراً عن الفنون التي وجدت فيها علاوة على ما ذكرناه من قبل. فقد سبق أن ذكرنا أن المعابد الملحقة بالأهرام لعبادة الفرعون الميت كانت مزيّنة بالمنحوتات والتصاوير مما يمثل لنا نواحي مهمة من الحضارة المصرية والحياة الاجتماعية عند المصريين القدماء. ومثل ذلك يقال في المزارات والمعابد الخاصة المعروفة «بالمصاطب». فنجد في هذه البنايات مجموعات كبيرة من تماثيل الأشخاص التي تمثلهم تمثيلاً واقعياً كما كانوا في الحياة. وكان يؤم هذه التماثيل في إبان الأعياد الدينية الكهنة وأقرباء الملك. ويقيمون لها بعض الشعائر الدينية حيث اعتقدوا أن أرواح الموتى الذين تمثلهم هذه التماثيل تحلّ فيها بفعل الأعمال السحرية. وقد وضعت تلك التماثيل في حجرات صغيرة هي بمثابة سراديب يكون الاتصال بها بواسطة كوى ضيقة. وتعدّ بعض هذه التماثيل من القطع الفنية الممتازة في الفن المصري، ومن بين ذلك تمثال الملك خفرع نفسه. وتمتاز هذه التماثيل أكثر ما تمتاز به بالتمثيل والتعبير الواقعي وتدلّ على مهارة النحاتين.

وزوّدتنا مقابر المملكة القديمة بأنفس النماذج من النحت البارز (Bas relief). ومما يدهش في المشاهد التي تمثلها هذه المنحوتات أنها لا تمثل لنا الآلهة أو الملوك أو الأمراء بالدرجة الأولى بل صوراً من عامة الشعب ـ كالفلاحين والصيادين وصائدي السمك والصُنّاع والملاحين والخدم، وقد مثلوا وهم مزدحمون أمام قبر سيدهم ليزودوه بما يحتاج إليه في عالم الخلود. وبرع الفنانون في تصوير المشاهد الطبيعية المألوفة في وادي النيل ـ كالنهر والسفن التي تجري فيه والبحيرات والجداول وما فيها من أزهار وأطيار، وكذلك الصيد في البادية وقد وفق الفنان توفيقاً عظيماً في تصوير الحيوان والطيور وحركاتها، وكذلك وفق في الصور الآدمية. ولكنه استعمل الطريقة الهندسية التي أشرنا إليها إذ إن فن المنظور لم يصل الفنان القديم إلى معرفته.

ومن الأمثلة على فن النحت بعض القطع الفنية الخالدة مثل تمثال الملك خفرع المنحوت من حجر الديوريت الذي يزيّن متحف القاهرة الآن وكذلك تمثال زوسر (السلالة الثالثة) وتمثال منكورع، وتمثال «شيخ البلد» المشهور، وتمثال الكاتب (الموجود في متحف اللوفر).

المملكة الوسطى:

واشتهرت القبور من عهد المملكة الوسطى بما احتوت عليه من نماذج مصغرة للبيوت والسفن والمخازن والخدم والأشياء الأخرى مما كان يُدفن في القبر ليقوم مقام الأصل، وقد نجد في بعض الأحايين نماذج لحدائق غنّاء وفيها مشاهد الأنس والطرب، وكانت القوارب أكثر ما جاءنا من هذه النماذج المصغرة وهي ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى صناعة السفن في مصر القديمة، ونجد من بينها «الذهبية» الخاصة بالنبيل والقوارب الخاصة بالحشم والخدم وقد زوّدت بأدوات الطبخ. ومما يقال في الفن في عهد المملكة الوسطى ما سبق أن نوّهنا به من انتعاش الفن وانطلاقه من قيود العرف الديني، ذلك العرف الذي جعله جامداً في عهد الفترة المظلمة السابقة التي أعقبت عصر الأهرام، ونذكر من الأمثلة على فن النحت في عهد المملكة الوسطى، ولا سيما عهد السلالة الثانية عشرة، بعض المنحوتات التي تمثل مشاهير ملوك هذه السلالة مثل رأس أمنمحيت الثالث من حجر الديوريت الأسود وتمثال سنوسرت الثالث الضخم. وتدهور الفن في عهد الهكسوس بحيث يصحّ القول إنه زال من الوجود تقريباً.

عهد الأمبراطورية: الكرنك:

لقد سبقت الإشارة إلى معبد الكرنك في طيبة الذي لا يضاهيه أثر في العالم. وبوسع من يزور الكرنك زيارة فاحص أن يقف على آثار ثلاثين قرناً من التأريخ، وبوسعه أن يقرأ أخبار أكثر من حضارة واحدة.

ونجد في جدران معبد الكرنك وصفوف عمده الشامخة النفيسة فصولاً

من التأريخ البشري قد نُقشت على تلك الجدران، ونقف فيها على الكفاح بين الأمبراطوريات التي قامت في الشرق القديم وهي تتنازع على سيادة العالم القديم مثل الأمبراطورية المصرية والحثية. إن كل ذلك قد خلّده لنا الفنان المصري والكاتب المصري الذي لم يقل عن زميله في الزخرفة الكتابية. وينبغي للزائر أن يكون على معرفة بلغة تلك الآثار الجليلة وإلّا طغت عليه فكرة الفخامة والضخامة فيصعق بروعة ذلك التأثير وتفوت عليه معاني تلك الفصول المدوّنة في التأريخ البشري. والضخامة والفخامة أبرز ما في فن العمارة في مصر القديمة. فكأن من أشاد تلك الأبنية وتصور فكرة بنائها لم يكن من البشر العاديين بل جنساً من العماليق طول الرجل «منهم مائة قدم»، كما قال شامليون (ص 136).

الدير البحري (عهد الأمبراطورية أيضاً):

وهذا موضع آخر يحوي العجائب من حضارة مصر القديمة. وهو في الواقع «أرض الأموات»، إذ يكاد لا يخلو منه شبر واحد لم يستعمل في حفر موضع لحد أو يخلو من آثار النبش لسرقة الكنوز التي أودعها أولئك الناس القدامى في قبورهم. وإلى ذلك فإن الدير البحري موضع معبد مهم يسمى كذلك بالدير البحري وهو اسم دير قبطي حديث يقوم فوق خرائب المعبد القديم. وبوسعنا أن نحصّل من زيارتنا لهذا المعبد على صور تتمّم ما حصلنا عليه من الكرنك والأهرام فنشاهد في هذا الموضع صفوف العمد والأروقة والأواوين والقاعات الفخمة، مما يساعدنا على تكوين فكرة عن الفنون في عهد الأمبراطورية. وقد أقامت الملكة «حاتشبسوت» هذا المعبد الفخم تخليداً لذكرى والدها.

ويحسن بنا أن نذكر إلى جانب الدير البحري، المآثر المهمة الموجودة في «أبو سمبل» حيث نجد مآثر الأمبراطورية، ومن ذلك تماثيل الآلهة الضخمة ومن بينها تمثال الملك «رعمسيس» الثاني وهو الذي أقام ذلك البناء التذكاري.

قبر توت عنخ آمون:

اتجه اهتمام العالم في شتاء عام 1922 ـ 1923 إلى «وادي الملوك» في طيبة. فقد تحقّق هنا اكتشاف فريد في بابه، وهو أنهم وجدوا قبر الفرعون «توت عنخ آمون» سالماً لم يُعبث به. والذي زاد في خطورة الاكتشاف أن الفرعون الذي عثر على قبره لم يكن من الملوك العاديين بل إنه مشهور بأنه خلف «أخناتون» وكان حكمه نهاية عهد «العمرانة». ويمثل قبره عهداً بلغ فيه الفن المصري في عهد الأمبراطورية الذروة والأوج.

ويتألف القبر الملكي الذي أثار اكتشافه رجّة حماس في العالم من أربعة حجرات وجدت ملأى بالآثار من مختلف الأصناف والأشكال، بعضها حلي وجواهر من قصر الملك، وبعضها نسخ عن كنوز قيمة يرجّح أن الملك الذي أعقب الفرعون الميت قد احتفظ بها لنفسه وأودع بدلاً منها في قبره تلك النسخ وهناك أدوات وأشياء كثيرة صُنعت بوجه خاص لتلك المناسبة، أي لتُدفن في قبر الملك الراحل، ومن ذلك توابيت بعضها داخل بعض، وصنع التابوت الذي في باطن الجميع من الذهب الخالص وهو يعدّ، إلى قيمته المادية، نصراً عظيماً في فن الصياغة، ومن النفائس التي وجدت داخل التابوت الباطني الصندوق الذي يحتوي على جسم الملك المحنط، وهو مصنوع من الخشب المظفور بالذهب والميناء ومعه أربعة تماثيل صغيرة تمثل آلهة هي على قدر عظيم من دقة الفن وروعته وعندما رفع غطاء الصندوق، ظهرت أربعة رؤوس من المرمر المنحوت الملوّن تمثل شخصيات ملكية، يمكن عدّها أنها تمثل صوراً من الملك الراحل من أدوار مختلفة من شبابه، وقد وضعت لتغطي أحشاء الملك الميت التي أودعت في صناديق مزينة بالجواهر. هذا ولا تقتصر هذه الآثار وغيرها من الأدوات والمجوهرات على إظهارها مبلغ الثروة والبذخ في عهد الأمبراطورية بل تصوّر لنا كذلك تصويراً جلياً الذروة التي وصل إليها الفن المصري القديم[1].

---

(1) إليك مرجعاً سهل المتناول حول الفن المصري وهو الفصل الرابع من كتاب:
J. Capart in The Legacy of Egypt (1942).

لم يأتنا فيما قبل عهد الإسكندر الكبير من عهود الحضارة المصرية إلا أشياء قليلة عن الشرائع المصرية والأنظمة القضائية. وباستطاعتنا أن نقول إنه لم تأتنا حتى الآن شريعة مدوّنة من مصر القديمة على طراز ما مرّ بنا من شرائع العراق. وفيما خلا الإشارات والأدلة غير المباشرة عن وجود بعض المواد المكتوبة في العهود القديمة فإننا لا نعرف شيئاً آخر عنها. وسبيلنا في معرفة شرائع مصر القديمة ينحصر في الوثائق القانونية. وإذا ما بدأنا بعهد المملكة القديمة فإننا لا نجد إلّا القليل من هذه الوثائق مما حفظ بأصله في ورق البردي من ذلك العهد وأقدم وثيقة في هذا الباب حكم قضائي مدوّن من عهد السلالة السادسة (2420 ـ 2294). وهذا يعني أن الدلالة على وجود القانون في مصر لم تظهر إلّا بعد عدّة قرون عن وجودها في الحضارة السومرية. ولعل ذلك يعزى إلى صدفة الاكتشاف. ومن الإشارات إلى القانون المصري الوثائق التي جاءتنا من كتابات القبور والمسلات التي تشير إلى وجود عقود قانونية. وتشير هذه الأدلة وغيرها إلى أن النظم القانونية في مصر القديمة تبدأ وهي في طور من النضج منذ أقدم عهود معرفتنا بها.

شيء عن النظم القانونية في عهد المملكة القديمة والوسطى (3188 ـ 1700 ق.م)

كان يحكم مصر في عهد المملكة القديمة حكومة ملكية مطلقة السلطان. فالفرعون كان المشرّع الوحيد ومصدر القانون. وقد عبد الفرعون وجعل إلٰهاً تجب طاعته، فكانت إطاعة أوامره واجباً دينياً مقدساً. ولم تقتصر سلطة الفرعون على أنه كان بيده السلطان المطلق على حياة رعيته وموتها، بل إنه يسيطر على جهودهم وعملهم وملكهم. وكانت الأرض بوجه عام ملكاً للفرعون ولكن مع ذلك كانت بعض الأراضي تخضع للمعاملات القانونية الفردية وتكون ملكية الأشياء المنقولة حرة أكثر من الأراضي والعقار، وكانت الأموال المنقولة قابلة للنقل من حوزة شخص لآخر بموجب عقد خاص. ومما يميز النظم القضائية بوجه عام من ناحية الملكية أنها تكاد تحرم الهبات وتحول

دون معاطاتها. وهكذا فعلت شريعة حمورابي. وكانت معاملات البيع والشراء تجري وفق عقود خاصة يزكيها ثلاثة شهود. وكان يشرف على العقد موظف خاص يلف «ورقة البردي» بعد كتابتها ويثبتها بالختم تحاشياً من التلاعب بها. وكانت الالتزامات تشفع بقسم باسم الملك بصفته إلهاً.

وكان للدين المصري تأثير عميق في نظمهم الشرعية ومعاملاتهم القانونية ومنشأ هذا التأثير من هذه الناحية الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت. فقد رأينا كيف كان المصريون القدماء يعنون بشؤون الموتى في قبورهم وفي تقديم القرابين والخيرات لهم. ولكي يضمن الميت إجراء تلك المراسيم له وقيام ورثته أو غيرهم بتقديم القرابين كان يكتب عقداً خاصاً بتنفيذ ما يحتاج إليه فيما بعد الموت. ولأجل القيام بتلك الشعائر على الوجه الأكمل نشأ عند المصريين طبقة خاصة من الكهنة تقوم بتلك الالتزامات وكان الميت يخصّص جزءاً من أملاكه يوقفه لشؤون ما بعد الموت وقد سمى المصريون الملك الموقوف لتلك الأغراض الدينية «الملك المؤبد»، وهذا هو الوقف الخيري في النظم القضائية في الإسلام. وشبيه بذلك أيضاً قانون العصور الوسطى في أوروبا حيث يقوم بوظيفة إدارة الأوقاف الخيرية رئيس الدير أو بعض كهنته.

ومما يحسن ذكره عن النظام القانوني في عهد المملكة القديمة والوسطى قانون الضرائب فيما يتعلق بواردات الدولة، وفرضت الحكومة نوعاً من ضريبة الأشخاص يدفعها الفرد، وقد خلّف لنا المصريون إثباتاً بالعوائل فيما يتعلق بدفع تلك الضريبة الشخصية، ويبدو منها أن الضرائب كانت تشمل جميع أفراد العائلة من جميع الأعمار.

عهد الأمبراطورية والعهود التي بعدها:

إن الوثائق القانونية التي جاءتنا من هذا العهد أكثر عدداً من العهد السابق. فقد جاءتنا وثائق فيما يتعلق بالمحاكم والقضاة، وكان يرأس بعض المحاكم وزير خاص. وجاءنا كذلك جزء من قانون يتعلق بالمراسيم الملكية

الخاصة بالبلاط (نظام التشريفات)، فقد ذكر في أحد هذه الأجزاء ما ينبغي للملك أن يقوله عند تعيينه لوزيره، ويذكر جزء آخر الأنظمة الخاصة بوظائف الوزراء وواجباتهم. وجاءت في مسلة الملك «حرمحيب» (1349 ـ 1314 ق.م) في الكرنك مادة قانونية أصدرها الملك بحق بعض الموظفين الذين يعملون وفق أهوائهم وتحكماتهم، وقد فرض فيها العقوبات الصارمة. ومما يمتاز به هذا العهد النظام المركزي في الإدارة، يدل على ذلك إشراف الوزير على أعمال كثيرة كان يشرف عليها في عهد المملكة الوسطى بعض الموظفين. وجاءنا من عهد الأمبراطورية والعهود التي أعقبته أنواع كثيرة من عقود المداينات، والذي يدهش فيها أن الربا كان فاحشاً بحيث كان يصل في كثير من الحالات إلى مائة بالمائة سنوياً، وكان الربح يُضاف في نهاية السنة إلى رأس المال. وكان المدين يقدم ضمانات بالإيفاء، ومن الضمانات الطريفة أنه يتعهد في حالة عدم الإيفاء أن يجلد مائة جلدة، وهذا يذكرنا بالعقوبات القاسية الواردة في القانون الآشوري التي يتعهد بموجبها المدين في بعض الحالات بأن يضحي ابنه الأكبر إلى الآلهة. ولدينا سجل طريف عن قضية جريمة وقعت في عهد السلالة العشرين تلقي لنا ضوءاً على طريقة محاكم القضاء والشرطة وكيفية تعقّب المجرمين ومحاكمتهم في عصر رعمسيس التاسع في حدود (1156 ـ 1136 ق.م)، والقضية تدور على مطاردة عصابة للصوص المقابر في مدينة طيبة أي في قلب العاصمة، وكان الوزير على رأس الحكومة كما كان المعتاد في أغلب عهود التأريخ المصري، ويحكم باسمه في نفس العاصمة حاكمان أحدهما أمير القسم الشرقي ويدير القسم الغربي حاكم بوليس خاص للإشراف على مدينة الأموات وقد جاءتنا القضية مدوّنة بتفاصيلها[1].

ولا نعرف كيف كانت عقود الزواج في هذا العهد، إنما جرت العادة

---

(1) انظرها في كتاب «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكه وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص 130، فما بعد.

على ضمانات مالية لحماية حقوق الزوجة المالية وحماية أبنائها. وكنا ذكرنا أن الزواج عند البابليين لم يكن يعدّ زواجاً شرعياً بدون عقد ومهر، كما أشار إلى ذلك قانون حمورابي، ولا نعلم هل كان الزواج عند المصريين يجري على هذا النمط. وإذا أراد الرجل أن يتزوج بعد وفاة زوجته فعليه أن يتّفق مع أبنائه من الزوجة الأولى فيعطي بموجب ذلك الثلثين من الضمان المالي للأولاد ويأخذ الزوج الثلث الباقي. وكان الطلاق ممكناً بعد دفع الضمان.

وكانت المحاكم عادة تتألف من الوجهاء في كل موضع وإقليم ويرأسها موظف في أثناء المحاكمة، ويرأس مثل هذه المحاكم في العاصمة الوزير نفسه، وفي حالات استثنائية، مثل المؤامرة لاغتيال الملك رعمسيس الثالث (1204 ـ 1172)، أمر الفرعون بتأليف محكمة خاصة. ونشاهد في أصول المرافعات تقدماً وتطوراً منذ عهد المملكة القديمة، حيث طغى أسلوب الكشف عن الحقيقة على الأسلوب الرسمي المقتصر على البنية الرسمية، فقد اتخذت جميع أنواع البراهين والأدلة وأخذ القضاة في نظرها ونقدها. وكانت القرارات تُعطى بهيئة تصريح موجز من المحكمة بأن فلاناً في جانب الحق والفلان الآخر في جانب الباطل، ويلحق ذلك اعتراف المحكوم عليه بما يترتب عليه من نتيجة الحكم.

ومما يُلاحظ في القانون الجنائي القسوة المتناهية في العقوبات، فكان التعذيب مألوفاً في باب العقوبات، وكان يشمل في بعض الأحايين الشهود أنفسهم ويبدو أن أنواعاً غريبة من عقوبات الإعدام كانت تُستعمل في بعض الأحايين، مثل ترك المحكوم عليه لتأكله التماسيح، وقد يحصل بعض المحكومين على امتياز خاص بأن يسمح لهم بالانتحار، ونسمع بعدد ممّن عوقبوا بقطع أعضائهم أو بترها ثم وضعوا في الأعمال الشاقة في معسكرات اعتقال خاصة. ويشبه العرف في القانون المصري شريعة حمورابي بالنسبة إلى التعويض عن السرقات بدفع الشيء المسروق مضاعفاً عدّة مرات، ونجد مثل هذا العرف في أقدم القوانين الرومانية.

وبإمكاننا أن نجد أمثلة للقانون الدولي في عهد الأمبراطورية[1]، فقد مرّ بنا فيما سبق ذكر المعاهدة الشهيرة التي أبرمت بين الفرعون رعمسيس الثاني (1297 ـ 1231 ق.م) وبين الملك الحثي «حاتوسيل» الثالث. وقد جاءنا نص هذه المعاهدة الدولية مدوّناً باللغة البابلية وبالخط المسماري، وهي معاهدة صلح وحلف تتضمّن المساعدات العسكرية بين الطرفين المتعاهدين، وقد اتّفق الطرفان كذلك على تسليم المجرمين واللاجئين من كل بلد إلى بلد الطرف الثاني.

وتأثّرت مصر بالقوانين اليونانية من بعد فتوح الإسكندر في الشرق وكذلك أثرت مصر في تلك القوانين التي طبّقت على المكدونيين الذين سيطروا على القطر، وحدثت تغييرات في العرف القانوني في عهد البطالسة، خلفاء الإسكندر في مصر وبخاصة في تشكيل المحاكم وفيما عدا ذلك فإن ملوك البطالسة على ما يبدو لم يتدخلوا تدخلاً كبيراً في قانون مصر الخاص، وقد أصبح القانون الجنائي في هذا العهد أخفّ قسوة وأكثر إنسانية من ذي قبل[2].

---

(1) لقد سبق أن أشرنا إلى أقدم تحكيم في النزاع بين الدويلات في عصر فجر السلالات في العراق القديم.

(2) حول القوانين المصرية راجع المأخذ السهل الآتي:

The Legacy of Egypt, chap. 8.

شيء عن العلوم والمعارف

نشأت العلوم والمعارف في حضارة وادي النيل، كما كان الحال في وادي الرافدين، منذ أن انتقل الإنسان إلى طور الحضارة في بداية الألف الثالث، وكانت بذورها تمتد إلى ما قبل ذلك إلى الأزمان التي تعلَّم فيها الإنسان الزراعة وصناعة الفخار واستعمال المعادن، وأخذت مثل هذه المعارف العملية تنضج بالتدريج، ولما أن نشأت الكتابة واتّسع استعمالها في شؤون الحياة المختلفة منذ عصر الأهرام، بدأ القوم في تدوين مثل هذه المعارف، مثل الرياضيات والطب وبعض الصناعات الكيماوية والفلك والتنجيم، وملاحظاتهم العامة عن الحياة، مما درسناه تحت موضوع الآداب. وقد خلّف لنا المصريون مدوناتهم في هذه المعارف من مختلف العهود، وكانت حتى النسخ المتأخرة منها ترجع إلى أصول قديمة. ولكن أكثر الوثائق العلمية وأهمها هي التي جاءتنا منذ عهد المملكة القديمة فما بعد. وقد كُتبت هذه النسخ بمختلف الخطوط الثلاثة التي تطوّرت إليها الكتابة المصرية على ما رأينا من قبل. وكان للمعارف العلمية التي وصل إليها المصريون القدماء تراث ملحوظ في معارف البشر عن طريق الأمم القديمة التي جاءت من بعدهم كاليونان والرومان.

التقويم:

بعد أن تعلّم المصريون الزراعة في شواطىء النيل احتاجوا إلى ضبط مواسم الفيضان في النيل ومواسم الزرع، فأخذوا يجربون في ابتداع وسائل

للتقويم وقد استعملوا في مبدأ الأمر الأشهر القمرية، ولكنهم وجدوا أن مثل هذا التقويم لا يصلح لضبط المواسم ومواعيد الزراعة التي تستند إلى موعد فيضان النيل، وبالاستجابة إلى أحوال النيل الخاصة ابتدع المصريون تقويماً رسمياً صحيحاً، لا يختلف عن التقويم الحديث إلّا بتصليح قليل قام به يوليوس قيصر والبابا غريغوري. فكانت سنتهم الرسمية مكوّنة من اثني عشر شهراً، كل شهر منها ثلاثون يوماً وأضافوا إلى ذلك خمسة أيام كبيسة (خصّصوها للأعياد) فحصلوا بذلك على سنة مقدارها 365 يوماً. أما كيفية اكتشافهم لهذه السنة الصحيحة فمن ملاحظاتهم لفيضان النيل، كما نوّهنا بذلك، إذ كانت دورة الزراعة المصرية يسيطر عليها فيضان النيل السنوي الذي يحدث بأوقات مطردة منتظمة مما لا يضاهيه نهر آخر. ولذلك فإن ملاحظة خمسين عاماً لأوقات فيضانه كانت تكفي لأن تبيّن للمصريين القدماء أن المدة المضبوطة بين فيضان وفيضان آخر تبلغ 365 يوماً إلى أقرب عدد صحيح[1] ومن كان يعرف هذه الحقيقة كان باستطاعته أن يتنبأ متى يجب أن تبتدئ الدورة الزراعية. والمرجّح كثيراً أن أوائل ملوك السلالة الأولى هم الذين أسسوا هذا التقويم الرسمي ووضعوه محل التقويم القمري[2]. وكانت السنة المصرية (ذات الـ 365 يوماً) تتألف من ثلاثة فصول، كل فصل منها مكوّن من أربعة أشهر. فالموسم الأول هو موسم الفيضان (واسمه بالمصرية القديمة أخيت Akhet) حيث يبدأ التقويم المصري باليوم الأول من الشهر الأول من ارتفاع النيل، في حزيران (وأول شهر من الفصل شهر ثوث)، وبعد أربعة أشهر ينتهي فيضان النيل فيبدأ القوم بزرع

(1) انظر: O. Neugebauer, in Acta Orintalia, XVII (1938), 169 ff.
المشار إليه في: Childe, New Light on the Most Ancient East (1952).

(2) ومما يقال بهذا الصدد إنه كان للمصريين القدماء جملة تقاويم أخرى محلية بعضها خاص بالأعياد والطقوس الدينية. ولا يعلم بوجه التأكيد متى أوجد التقويم الرسمي المستند إلى تسجيل أحوال فيضان النيل مما يستلزم معرفة بالكتابة. فهل تمّت هذه السجلات في زمن «منا» موحد مصر المأثور؟ أو هل أن هذا الملك استغل تلك السجلات في إدخاله التقويم الرسمي؟

الحقول فيبدأ الفصل الثاني، وهو موسم «الظهور» أي بداية ظهور الزرع من الأرض (واسمه فيرويت Peroyet)، والموسم الثالث موسم الشحّ أو الحصاد (أي شحّ الماء واسمه بالمصرية القديمة شومو Shomu).

وبمقارنة السنة المصرية المكوّنة على هذا الوجه من 365 يوماً مع السنة الشمسية الدقيقة فإنها على ما نعلم تنقص عنها بمقدار ست ساعات (ربع يوم) في كل سنة، ويكون الخطأ المتراكم في مدة قرن واحد 25 يوماً. فلا بدّ أن يكون هذا النقص قد ظهر لقدماء المصريين بعد مائة عام على اتخاذ التقويم الرسمي واستعماله، بحيث إن تقسيم السنة المصرية إلى الفصول الثلاثة التي بيّناها (أي فصل الفيضان، وفصل البذر وفصل الحصاد)، لم تعد تطابق الواقع العملي في الزراعة. ومع ذلك فقد ظلّ التقويم القديم معمولاً به بسبب قوة التقاليد واستمرار المآثر. ومما جعل السلطات الرسمية لا تهتم بإصلاح التقويم القديم أن موظفي الفرعون استطاعوا في عهد المملكة القديمة أن يبتدعوا طريقة لتسيير العمليات الزراعية بحسب مواسمها المضبوطة، فقد وجدوا أن في خط العرض المار من منفس يكون ظهور كوكب الشعرى[1] مطابقاً لبداية فيضان النيل، فقامت الجهات الرسمية برصد الشعرى واستعملت نتائج الأرصاد في إرشاد الناس إلى بداية موسم الزرع. وينطبق زمن طلوع الشعرى بالنسبة إلى شروق الشمس وغروبها مع بداية السنة المصرية الرسمية في دورة (1461) عاماً، فسُمِّيت هذه الفترة من الزمن باسم «الدورة السوثية» (Sothic cycle)، وقد بدأت مثل هذه الدورة في عام 139 للميلاد. وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلات بيّنوا فيها العلاقة بين السنة الرسمية وبين هذه السنة النجمية التي يحددها كوكب الشعرى، وذلك منذ عهد السلالة الثامنة عشرة، ومن عهد الملك «سنوسرت» من السلالة الثانية عشرة. فكانت مثل هذه السجلات من جملة الطرق الموثوق بها في تعيين تأريخ السلالة الثانية عشرة بالاستناد إلى

(1) (Serius) والشعرى (العبور) هي الآلهة سوثيس المصرية. ويعرف ظهور الشعرى بالنسبة إلى الشمس بمصطلح (Heliacal rising).

أثبات الملوك، وقد أمكن وضع زمن هذه السلالة في حدود 2000 ق.م.، واستعين بهذا التأريخ في تعيين تواريخ العهود المصرية الأخرى.

الرياضيات:

كانت الرياضيات، وبالدرجة الأولى المعلومات الحسابية، نتيجة للحاجات الاقتصادية التجارية التي تولّدت بعد نشوء الحضارة في كل من العراق ومصر، وكانت هذه أيضاً العوامل التي دفعت إلى اختراع الكتابة فالحاجة إلى تدوين المعاملات والشؤون التجارية المتعلقة بالمعابد والمباني العامة دعت إلى توحيد الموازين والمكاييل والقياسات وابتداع طريقة للعدّ وقواعد لحساب المعاملات، وكانت بداية هذه الأمور في عصور ما قبل التأريخ. ويظن أن البشر أسس طريقة عدّه على عدد أصابع يديه ولذلك اتّخذ معظم البشر طريقة العد العشرية واستعمل المصريون الطريقة العشرية منذ زمن قديم، لعله منذ السلالة الأولى (ولكن السومريين استعملوا الطريقة الستينية). واتخذت علامات لتسمية الأعداد في كل من العراق ومصر منذ أقدم الأزمان. فنجد أن المصريين قد استعملوا علامة للواحد يكتبون بها الأعداد إلى التسعة ثم علامة خاصة بالعشرة والمائة والألف ولعل أقدم نماذج في مصر لهذه العلامات قد جاءتنا من زمن السلالة الأولى. واستعملت علامات خاصة قليلة لتعيين بعض الكسور مثل النصف والربع والثلث والثلثين، ولكنهم لم يبتدعوا علامة للتعبير عن الصفر.

وبوسعنا أن ندرك نوع القضايا الرياضية التي اهتم بها المصريون القدماء من مسألة جاءتنا مدوّنة على ورق البردي من حدود 1200 ق.م. ويظهر من فحوى المسألة أن السائل يتحدّى رياضياً آخر ويسخر منه:

«أنت تقول: أنا الكاتب الذي يُصدر الأوامر إلى جموع الجنود والعمّال فلو طلب منك أن تحفر مخزناً. ولكنك جئت إليّ تستفهم مني عن مقدار الجرايات للجنود وتقول لي: «احسبها». أنت تركت مقرّ وظيفتك ووقع عبء تعليمها لك علي».

«أنت أيها الكاتب الماهر على رأس جمع. وأريد بناء منحدر طوله 730 ذراعاً وعرضه 55 ذراعاً وفيه 120 حفرة مملوءة بالقصب والقضبان. . وقد طُلب من قواد الجيش معرفة عدد الآجر لتشييده، ولم يستطع أحد من الكتبة أن يعرف الجواب بل إنهم اعتمدوا عليك قائلين: «أنت الكاتب الماهر، فأجبنا كم عدد الآجر الذي نحتاج إليه؟».

وعلى الرغم من أن ذلك الرياضي الساخر لا يحلّ هذه القضية فإنه بإمكاننا أن نعرف منها نوع المسائل العملية التي كانت تجابه الرياضيين عند إنشاء المشاريع العمرانية كإقامة الأهرام والمعابد وحفر المخازن وإدارة العمال والصنّاع. وقد تبدو بعض هذه القضايا بسيطة وفي مقدور طلاب المدارس المبتدئين بالرياضيات ولكن يجب أن نتذكر أنه لولا الأسس التي وضعها المصريون والعراقيون الأقدمون وما خلفوه من تراث إلى الإغريق وأخذنا في الزمن الحاضر عن الإغريق والعرب لما بدت لنا مثل هذه القضايا ساذجة. فالواقع أن السومريين والمصريين كانوا يجربون في حقول لم يطرقها البشر من قبل. ويبدو أن الرياضيين المصريين لم يعرفوا جداول الضرب بخلاف السومريين والبابليين الذين خلفوا لنا جداول مطوّلة بهذا الموضوع وكانت عمليات الضرب تجري عند رياضيي المصريين بإضافة المضروب إلى نفسه مرات بقدر عدد المرات المراد ضربه فيها أي إنها كانت تجري على أساس العدّ والجمع، فإذا أرادوا ضرب 12×12 مثلاً فإنهم يفعلون ما يأتي:

×	1		12
	2		24
×	4	×	48
×	8	×	96
		المجموع	144

ففي هذه المسألة تضع 1 أمام المضروب به، ثم ضاعف كل جهة حتى

تصل في الحقل الأول على أعداد مجموعها بقدر المضروب به فتؤشر على الرقمين المطلوبين أي 4، 8 وتؤشر في الحقل الثاني على ما يقابلهما من الأعداد أي 48+96. وفي حالة القسمة تنعكس العملية. حيث كانت تجري أيضاً على أساس العدّ والجمع، فلقسمة 20 على 3 مثلاً يعدّ الحاسب 3 حتى يصل إلى 20. فلقسمة 550 على 9 تجري العملية كما يأتي:

9		1
18		2
36	× 4	×
72	× 8	×
144	× 16	×
288	× 32	×
576	× 64	×
—	—	
549	ـ 61	

1 + 4 + 8 + 16 + 32 = 61، فيكون خارج القسمة 61 والباقي 550 ـ 549 = 1.

وملخص العملية أنهم يضعون واحداً في جهة وبجانبه المقسوم عليه، ثم يضاعفون الأرقام في الجهتين حتى يحصلوا في الجانب الأيسر على أعداد يكون مجموعها مساوياً للمقسوم أو عدداً يقاربه ويجمعون الأعداد في الحقل الأيمن ويكون الحاصل خارج القسمة المطلوب.

وقد كان المصريون يكتبون الكسور التي مقاماتها الواحد بوضع إشارة على البسط. وقد رأينا فيما سبق أنهم وضعوا علامات خاصة للنصف والثلث

والثلثين ولكن يتعذّر بموجب طريقة الكسور المصرية كتابة مثل 5/ 2 أو 20/ 7 والواقع أن المصريين لم يعرفوا الكسور المركّبة فكانوا يكتبون مثل هذين الكسرين بتجزئتهما إلى كسرين بسيطين مقامهما واحد فالكسر 2/ 5 مثلاً 3/ 1 +25/ 1، أو بحسب الطريقة المصرية 3+15، والكسر 8/ 3 يكتب بهيئة 4/ 1+8/ 1، وهكذا.

ومما يقال عن الرياضيات المصرية بوجه عام إن المصطلحات فيها غير مطردة دائماً وتختلف باختلاف الكتابات بخلاف مصطلحات الرياضيات البابلية التي كانت أدقّ وأعمّ.

ووردت إلينا من رياضيي المصريين القدماء نماذج من المسائل الهندسية المتعلقة بأخذ مساحات الحقول، ووصل السومريون في الألف الثالث ق.م. إلى طريقة صحيحة لمساحة الحقول المستطيلة بضرب الطول بالارتفاع. أما في مصر فالظاهر أن الرياضيين لم يصلوا إلى حلّ صحيح. فكانوا يأخذون مساحات الحقول المربعة حتى في زمن الأمبراطورية بطريقة قوامها مجموع ضلعين متجاورين مضروباً في نصف مجموع الضلعين الآخرين. وفي حالة المثلث كانوا يضيفون أطوال ضلعين ثم ينصفون المجموع ويضربون الناتج بنصف طول الضلع الثالث. ولكنهم وصلوا من الجهة الثانية إلى طريقة صحيحة لقياس حجوم الأهرام ولا سيما الناقصة المربعة القاعدة فقد خلفوا لنا من ذلك قضية مشهورة: «مثال في حساب الهرم المقطوع» لو قال لك قائل: هرم ناقص ارتفاعه 6 أذرع و4 أذرع للجانب الأسفل وذراعان للجانب الأعلى»: ربع (أرفع إلى القوة الثانية) 4 فتحصل على 16 اضرب 4 بـ 2 فتحصل على 8. ربع 2 فتحصل على 4 واجمع 16 و8 و4 فتحصل 28. وخذ 3/ 1 الـ 6 فتحصل على 2 فأضرب 28 بـ 2 فتحصل على 56. فأنظر أنه 56 لقد حصلت على الجواب».

وباستطاعتنا أن نعبر عن هذه الطريقة بالمعادلة الآتية: (ح الحجم)

ح = 3/ 1ع (أ^2+أب+ب^2) وهي المعادلة الصحيحة لحجم الهرم

المقطوع، باعتبار أن (ع) الارتفاع و(أ، ب) طول ضلع كل من القاعدتين المربعتين السفلى والعليا. ويرجع تأريخ هذه المسألة إلى 1850 ق.م. ولا يعلم كيف وصل الرياضيون المصريون إلى هذا الحل العجيب. ولو صحب طريقة الحل هذه برهان على كيفية إيجادها لكان أعظم اختراع في علم الرياضيات، ومهما كان الحال فإنه حتى الاهتداء إلى هذا الدستور بطريقة عملية يدلّ على مقدرة عظمى في الرياضيات[1]. هذا ولا توجد دلالة مباشرة على أن الرياضيين المصريين عرفوا حجم الهرم الكامل (الحجم = 1/3 مساحة القاعدة × الارتفاع)، وهو دستور يعزى إلى ديموقريطس اليوناني (640 ق.م).

وقد عرف المصريون العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها وهي التي ندعوها بالنسبة الثابتة، ووصلوا إلى قيمة تقريبية كما عرفوا دستور حجم الأسطوانة الصحيح. وليس لدينا أدلة مباشرة على أن المصريين عرفوا النسبة بين أضلاع المثلث القائم الزاوية أي نظرية فيثاغورس، وجاءتنا حالة تشير إلى معرفتهم بمبدأ المتواليات الهندسية.

والمرجّح كثيراً أن الرياضيات المصرية قد وصلت إلى الطور الذي نعرفها فيه في عصر الأهرام، وتوقفت عن النمو والاستمرار في التجارب، بالنظر لكفايتها للحاجيات العملية في المستوى الذي بلغته آنذاك.

وقد لاحظ سكان مصر حركات الأجرام السماوية لحاجات الملاحة والزراعة وضبط مواسم الزرع والفيضان على نحو ما رأيناه في وادي الرافدين. وقد نتج عن النجاح أن في استطاعة الإنسان أن يتنبأ عن وقوع مواسم الزرع والفيضان إن حاول استعمال هذه الأجرام السماوية في التنبؤ بحادثات وأمور أخرى غير الزرع والفيضان ولعل ذلك منشأ التنجيم. وقد عنيت الدولة بمثل تلك الملاحظات والأرصاد لأهميتها في مصالح المملكة، وقد دوّنت نتائج

---

(1) انظر: E.T. Bell. The Development of Mathematics (1945), pp.43-44

تلك الأرصاد وخلف لنا المصريون القدماء منها نماذج كثيرة. وانحصر الفلك في مصر في ضبط أمور الزراعة، وقد ذكرنا فيما سبق اهتداء المصريين القدماء إلى التقويم السنوي الرسمي من تقسيمهم السنة إلى اثني عشر شهراً، في كل شهر ثلاثون يوماً وإضافة خمسة أيام كبيسة. وقد قسم المصريون كلاً من النهار والليل إلى اثني عشر قسماً أما البابليون فقد قسّموا اليوم جميعه إلى اثني عشر قسماً كل قسم يعادل ساعة مضاعفة من ساعاتنا. ولتحديد ساعات النهار استعمل كل من العراقيين والمصريين مبدأ تغيير الظل بحسب أجزاء اليوم وهو مبدأ المزاولة أو الساعات الشمسية. ولضبط ساعات الليل استعملوا الساعات المائية، فقد كانوا يقيسون في كلا القطرين الزمن الليلي بمقادير الماء التي تجري أو تدخل في أوعية خاصة مدرجة وكانت الأوعية المستعملة في مصر لهذا الغرض مخروطية الشكل ولذلك كانت القياسات الناتجة منها غير مضبوطة. وقد عرف المصريون الفروق في أطوال الليل والنهار بالنسبة إلى الفصول، وكذلك فعل البابليون. وقد وضع أحد المصريين نسبة 14:12 لطول ليالي الشتاء بالنسبة إلى ليالي الصيف ولذلك صنعوا ساعة مائية خاصة لقياس ساعات الليل في جميع فصول السنة. أما الساعات المائية البابلية فكانت أسطوانية ولذلك كانت قياساتها أضبط وقد جاءتنا مسألة رياضية تتعلّق بتدريج مثل هذه الأسطوانات.

وقد قسّم المصريون السماء إلى مناطق ودوّنوا أثباتاً بأسماء النجوم وصنّفوا النجوم إلى مجموعات ولكن ذلك التصنيف لا يشبه ما هو متّبع في الوقت الحاضر، وهو التصنيف المستند بالدرجة الأولى إلى حضارة وادي الرافدين[1] ونقصد بذلك مبدأ الأبراج الاثني عشر الذي لم يعرف في مصر قبل العهد اليوناني. ومما يؤسف له أنه لما تأتنا كتابات فلكية من مصر ما عدا الرسوم والصور الموجودة على توابيت الموتى، فلم يخلف لنا المصريون سجلاً عن الكسوف والخسوف بخلاف الكتابات البابلية التي دوّنت لنا أطول

(1) انظر: **The Legacy of Egypt** (1942), 161.

وأقدم أزياج في تأريخ الأرصاد الفلكية. وبدلاً من مبدأ الأبراج الاثني عشر (Zodaic)، استعمل الفلكيون في مصر المبدأ المعروف باسم (dekan) لتقسيم السنة و«الديكان» (أي العشري) مجموعة من الكواكب أو كوكب بارز تطلع في ساعات معينة من الليل في خلال 36 ساعة مدداً متعاقبة كل مدة ذات 10 أيام تبدأ بطلوع «الديكان» الثاني في الأفق الشرقي، وقد جمعوا أثباتاً تمثّل هذه المجموعات لتعيين الزمن في الليل إذا علم تأريخ التقويم أي اليوم الخاص في الشهر، أو لتعيين «الديكان» الخاص إذا عُلمت الساعة المعينة في الليل، وبإمكاننا تتبع نظام «الديكان» إلى عهد السلالة الثالثة.

الطب:

ومما لا شك فيه أن الحاجة لتداوي الأمراض وشفائها قد نشأت عند سكان وادي النيل والرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ، ولا ندري بوجه التأكيد هل أن أصل الطب من السحر وما يتعلق بالطرق السحرية، والراجح أن الطب بدأ بالتجربة مقرونة بالأعمال السحرية فقد عزوا الأمراض إلى الأرواح والشياطين. ومما يؤيد علاقة الطب بالأعمال السحرية والطرق الروحية أن الطب في كلا القطرين (وادي النيل ووادي الرافدين) لم يستطع أن يتخلّص تخلصاً تاماً من الرقى والتعزيم في أزمان نضجه في العصور التأريخية. ولما كان الأطباء في مصر والعراق على الغالب متضلعين في الكتابة ومن صنف الكتبة فقد دوّنوا لنا ملاحظاتهم وبحوثهم الطبية وجاءنا منها نماذج كثيرة. وقد ورد ذكر الكتابات الطبية في مصر في أزمان قديمة ترجع إلى زمن السلالة الثالثة. وجاءتنا نماذج من هذه الكتابات الطبية المصرية فيما بعد 2000 ق.م. أما النماذج البابلية فإنها متأخرة بالنسبة إلى تأريخ الكتابات المصرية الطبية، ولكن كثيراً من هذه النماذج البابلية المتأخرة (من أواخر الألف الثاني ق.م) نسخ من كتابات أقدم منها. والجدير بالذكر أن الكتابات الطبية من كلا القطرين كانت أشبه ما تكون بكتب «الوقائع والحالات الطبية» في وقتنا هذا ولم تصلنا بعد تآليف عن التشريح ووصف الأعضاء ووظائفها. ومع ذلك فإن

المصريين قد اكتسبوا معرفة لا بأس بها عن الجسم الإنساني من ممارستهم التحنيط ولكن الغريب في ذلك أن أسماء أعضاء الجسم الإنساني مأخوذة من أسماء أعضاء الحيوان، ولعلّ سبب ذلك أن تسمية هذه الأعضاء بدأت قبل معرفة التحنيط.

وقد اشتهر المصريون لدى اليونان بمعرفتهم الطبية، والذي لا مراء فيه أنهم كانوا يستحقون مثل هذه الشهرة. ولكي يدرك الطالب مصادر معرفتنا بطب المصريين القدماء، فعليه أن يعرف أن درج البردي (لفات أوراق البردي) الخاصة بالطب المصري يمكن تقسيم محتوياتها إلى صنفين:

(1) مؤلفات طبية صرفة.

(2) مؤلفات لأغراض سحرية وفيها وصفات طبية، ويدخل في هذا الصنف الوصفات الطبية الشعبية. وننتخب فيما يأتي أشهر هذه الوثائق، مما هو موجود الآن في متاحف العالم الشهيرة:

(1) فأول ما نذكر النص الطبي المشهور باسم «بردية ايبرس» (Ebers Papyrus) وهو أشهر وأطول مصدر طبي، وقد وجد في عام 1862 واقتناه الشخص المنسوب إليه، وهو الآن محفوظ في جامعة «لبسك» (Leipsic)، ومحتوياته طبية وسحرية، وفي ظهره أمور عن التقويم، وقد كُتب في عهد السلالة الثامنة عشرة ولكن الأدلة الداخلية تشير إلى أنه نسخة عن أصل أقدم بعدة قرون. وعلى كل حال فلا ينبغي لنا أن نقيسه بالتآليف اليونانية أو الحديثة، وإنما هو مجموعة من الوصفات المأخوذة من عدّة مصادر ولم تشخص الأمراض الموصوفة إليها تلك الأدوية. وذكرت فيها العقاقير ومقاديرها وكيفية استعمالها. ومن الأمراض الواردة فيها أمراض خاصة بالمعدة والقلب وأوعيته، وكذلك العلاجات الجراحية الخاصة بالمثانة، وتتخلل الوصفات الطبية رقى وتعاويذ سحرية.

2 ـ ويوجد نص شهير آخر معروف باسم «بردية أدون سمث

الجراحية»[1]. وهو الآن في حيازة الجمعية التأريخية في نيويورك، وقد نشره نشراً علمياً العلامة «بريستد»، ويحتوي على مسائل جراحية في معالجة الجروح والكسور وطرق تجبيرها، ويحتوي هذا النص على شروح موضّحة للمصطلحات الفنية الغريبة. والطريف ذكره في هذين النصين أنهما يحتويان على وصف وظائف القلب، وكيف أن القلب «يتكلم» بواسطة الأعضاء المختلفة من الجسم الإنساني، فيستطيع الطبيب أن يجسّ القلب من النظر في تلك الأعضاء، ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا يدلّ على معرفة بالدورة الدموية، ولكن معظم الباحثين لا يميلون إلى الإيجاب[2]، ومهما كان الحال فإن معرفتهم بعلاقة القلب العضوية بأعضاء الجسم وبأهميته بصفته منبع الحياة، لهي في حدّ ذاتها ذات أهمية خطيرة في تأريخ التشريح والفسلجة.

---

(1) The Edwin Smith Papyrus.

(2) حول موجز المصادر الطبية الأخرى انظر:

Wilson, **The Burden of Egypt**, 56.

The Legacy of Egypt.



مشهد وجد مصوراً في معبد قبر أحد النبلاء (من عصر الأهرام)، ويمثل لنا عمليات نجارية في صنع صناديق الخشب. لاحظ أدوات النجارة والكتابة الهيروغليفية.



العمد الضخمة في صحن القاعة الكبرى في معبد الكرنك من عهد الأمبراطورية.



تماثيل ضخمة جسيمة لأحد الفراعنة من عهد الأمبراطورية
يبلغ علوّها زهاء سبعين قدماً وتزين واجهة المعبد
الموجود إلى الخلف.

الفصل الخامس والعشرون

شيء عن الدولة والمجتمع

الملك:

كان الملك، كما سبق أن نوّهنا مراراً، رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها، كما وقد سبق أن رأينا أيضاً أن نظام الحكم الملكي قد ظهر في وادي النيل منذ نهاية عصور ما قبل السلالات، وتمتد جذوره إلى أبعد من ذلك حيث نظام الرئاسة القبلية ومشيختها متأصل في قارة أفريقيا منذ عصور ما قبل التأريخ. وتقول المآثر المصرية إن أول ملك في مصر هو الذي كان ملكاً على أول سلالة في تأريخ البلاد، أما ما قبل عهده فتروي هذه المآثر أيضاً أن الحكّام كانوا نوعاً من الأرواح الشبيهة بالآلهة، وقد سبق هذا العهد زمن كانت الآلهة أنفسها تحكم البلاد، وكان أول ملك في الكون وفي مصر الإله الخالق «أتوم ـ رع» حيث صار ملكاً على الخليقة التي أوجدها، وهكذا فإن الملوكية عريقة في القدم وظهرت منذ الخليقة. وللمقارنة بهذا الأصل النظري للملكية في مصر القديمة كانت الصورة التي كوّنها سكان العراق الأقدمون مختلفة عن ذلك تمام الاختلاف، فإن الملكية لم تكن من أصل نظام الكون بل كانت طارئة نشأت بسبب الأزمة التي حلّت في الكون بعد مجيء الآلهة على نحو ما فصلناه في كلامنا على حضارة وادي الرافدين. وإذ كانت الملكية في العراق القديم مقدسة وأصلها من الآلهة إلا أن الذي كان يتقلّدها من البشر كان بشراً اعتيادياً وقد يقدس لأنه يحمل حملاً مقدساً أو وظيفة مقدسة، ويقابل ذلك في مصر أن الذي يتقلّد الملوكية من البشر كان إلٰهاً

نفسه، وهذا هو جوهر الاختلاف في الأصل النظري للملوكية في كلتا الحضارتين. فالفرعون كان إلٰهاً بالتجسيد (incarnate god) منذ ولايته للعهد، وإذا كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجعل علاقات البشر منسجمة مع القوى فوق الطبيعة، فإن الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة، أي إنه إلٰه نزل وتجسد في الفرعون ليحكم الناس، ولما كان رأس المجتمع المسؤول عن إدارته إلٰهاً، فإن شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة إنما هو شعور الاطمئنان. لقد عبد المجتمع الملك بصفته إلٰهاً لضمان الانسجام بينه وبين القوى الطبيعية. وقد سبق أن نوّهنا بتفسير هذا البون بين الحضارتين بالمقارنة بين البيئتين الجغرافيتين اللتين نشأتا فيهما، وإذ سلم سكان وادي الرافدين من عبادة الملوك وتأليههم فإنهم لم يسلموا من شعور عدم الاطمئنان إزاء ما تفعله الآلهة والقوى الطبيعية. ونجد انعكاس ألوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يمثل في المشاهد الحربية وحده على الغالب بدون جيش (كما في تمثيل صفحة الملك نارمر)[1] وفي منحوتة طوطمس الثالث في الكرنك. وعلى النقيض من ذلك تمثيل الملوك في العراق القديم وهم على رأس الجيش، ويماثل تمثيل الفراعنة في الفن المصري تمثيل الآلهة في فن العراق القديم، ففي المسلة الشهيرة المسماة «نصب النسور» لايانانتم، تشاهد هذا الحاكم السومري وهو على رأس جيشه، ولكن تشاهد في الوجه الثاني من اللوحة نفسها الإلٰه «ننجرسو» ممثلاً وحده وقد اصطاد الأعداء في شبكته المقدسة.

وتتضمّن فكرة ألوهية الفرعون بالتجسيد جيلين من الفراعنة. فإن اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات. إذ إن الملك الميت يصير

---

(1) انظر بحث ذلك في:

H. Frankfort, The Kingship and the Gods 54;

بالتجسيد بمثابة الإلٰه «أوسيريس»، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الإلٰه «هورس» بن أوسيريس الذي أعقب أباه وصار ملكاً أيضاً، كما أن الملك الجديد يتجسد أيضاً بالإلٰه الشمس «رع»، أو يصير ابنه، وهكذا تستمر الدورة. وكان الفرعون يسمى في كثير من النصوص باسم الإلٰه (نيتجير «netjer») أو «الإلٰه الخيِّر الطيب»، ولما كان الفرعون مجسداً للإلٰه هورس، فصار رمزه المقدس طير النسر، وهو الحيوان الذي يرمز إلى الإلٰه هورس أو أن هذا الإلٰه حلّ فيه (انظر الشكل آخر الفصل). ويرى أكثر الباحثين أن السبب في جعل الملك يتجسد في الإلٰه هورس سياسي في أصله، فإن أولى سلالة حكمت في مصر أصلها من موطن كان يعبد فيه الإلٰه الصقر «هورس». ويجوز أن يلقّب الفرعون بابن أي إلٰه من الآلهة أو ابن أية إلهة. وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية المحظرة بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون باسمه بل يشيرون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة. وقد سبق أن ذكرنا أنهم صاروا يشيرون إليه في عهد الأمبراطورية (منذ السلالة الثامنة عشرة) باسم الفرعون أي «البيت العظيم»، وهي الكنية التي أُطلقت على جميع ملوك مصر. وكان أشهر ألقاب الملك منذ عهد المملكة القديمة «ابن - رع» وبلاد مصر «ابنة رع»، أما كيفية نسبته بصلة البنوّة إلى الإلٰه «رع»، فهو أن أمه من البشر ولكن زوجها هو الإلٰه «رع» الذي تجسّد في زوجها الملك لينجب ابنه الملك الجديد، وعندما يموت الملك الحاكم يقوم إلى الحياة ويتّصل بأبيه الإلٰه الشمس. وكثيراً ما وصف الفرعون بصفته إلٰهاً بصفات متضادة متقابلة كالرحمة والشدّة، والعدل والعقاب، وكذلك تكون الدولة التي يرأسها الفرعون، والتي هي الفرعون نفسه، ونلاحظ ذلك في صفات القوى الطبيعية التي ألفها المصريون القدماء كالنيل الذي يكون رحيماً محسناً إذا كان منتظماً في دورة فيضانه وفي مقدار فيضانه، ويكون جباراً شديداً إن شذّ في مقدار الفيضان من ناحية القلة والكثرة على نحو ما بيّناه في كلامنا على جغرافية وادي النيل.

واستتبع ألوهية الفرعون أيضاً أمور أخرى مهمة في حياة الدولة المصرية

ونظامها وفي حياة الشعب. فكان الفرعون بصفته إلهاً مطلق الحكم والسيطرة في البلاد وفي سكانها، حيث يملك جميع البلاد (بصورة نظرية في بعض الأحايين وبصورة عملية في أحايين أخرى) والملكية الفردية غير ممكنة إلّا بنتيجة منح الملك إياها للأشخاص الذين يتصرفون بها، ويصدق ذلك أيضاً على حرية الأفراد الشخصية وعلى مكانتهم في المجتمع، فكان كل ذلك رهن إرادة الملك.

كما أن الملك كان ينبوع العدالة والشريعة إذ إنها تصدر عن إرادته ومشيئته، وإذا احترم الملك من الوجهة النظرية مآثر البلاد وحقوق الناس إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك عدل أو شريعة مستقلين خارج سلطة العرش وإرادته. وكان الملك على الرغم من سلطته المطلقة أيضاً مقيّداً من الوجهة النظرية على الأقل أن يسير وفق العدل والحق، وقد سبق أن رأينا أن المصريين جسّموا العدل وجعلوه باسم إلهة هي «مات» (ابنة الإلٰه رع) التي تعني النظام الصحيح والحق والصدق، مما ينبغي أن يتحلّى بها الملك بصفته إلٰهاً، وإلى هذه الصفات الواجب توفرها في الملك الإلٰه فإنه مزوّد أيضاً بالإرادة الإلٰهية أو ما يصحّ ترجمته «القول الخالق» (بالمصرية القديمة «هو»)، وبالإدراك والفهم (بالمصرية «سيا»)، والملك على ذلك مسؤول عن تردّي الأحوال في المملكة، ولكن بما أنه إلٰه فلا يستطيع المجتمع أن يحاسبه أو يثور ضده من الوجهة النظرية. فلم يكن هناك طريقة شرعية يبدل بها الملك الحاكم بغيره، كما أننا لا نجد في سجلات مصر ما يشير إلى ما يمكن تسميته بالثورة الشعبية على الملك الإلٰه، وكل ما نجده في سير التأريخ المصري مؤامرات في البلاط بين أمراء البيت المالك أو الأمراء من السلالات الملكية، وكان يسهل للناجح منهم أن يبرّر اعتلاءه العرش من الناحية الشرعية بنظرية التجسد الإلٰهي، وعلى هذا فلم يكن في تأريخ مصر مدّعون أو غاصبون للعرش من الوجهة النظرية بخلاف ما مرّ بنا في حضارة وادي الرافدين.

هذا وإن سلطة الملك على رعيته لا تنتهي بالموت، فإن حمايته لهم

وعلاقتهم به تمتد إلى العالم الآخر حيث يتجسّد الملك بالإله «أوسيريس» ملك عالم الأموات، وتوجد حالات قليلة في عهد السلالة الأولى كانت يضحي فيها البشر من أتباع الملك عند موته، ولكن هذه العادة بطلت منذ عهد السلالة الرابعة[1]، وصار قبر الملك بدلاً من ذلك مركزاً لقبور أتباعه من الأمراء وكبار رجال الدولة ليشملهم بحمايته في العالم الآخر ولأنه يحتاج إلى خدمتهم في ذلك العالم. كما يجب على أفراد المجتمع الآخرين أن يعبدوا الفرعون الميت. ولم تقتصر سلطة الملك بصفته إلٰهاً على البشر بل كانت تشمل حتى القوى الطبيعية ومن ذلك الظواهر الطبيعية التي تتوقف عليها حياة مصر مثل ضمان فيضان النيل. وقد ميّزوا الملك عن البشر العاديين بالنسبة إلى قدراته الخارقة حتى في مسألة العنصرين الحيويين اللذين قلنا إن المصريين القدماء جعلوهما العنصرين الروحيين المكوّن منهما الجسم الإنساني، حيث إن هذا الجسم مكوّن عدا العنصر المادي من عنصرين آخرين هما الروح «الكا» والنفس «البا» وهما مصطلحان لا يمكن ترجمتهما ترجمة دقيقة، فيجوز أن تعني «الكا» قوة الحياة ويفسر المصريون الموت بأنه شيء مؤقت يحدث بسبب ترك «الكا» للجسم حيث يعبرون عن ذلك بأنها «استراحة» مؤقتة، إذ تعود إليه من بعد الموت. ومع وجود هذين العنصرين عند سائر الناس إلا أنهما عند الملوك من عنصر وماهية خاصيتين. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن المصريين لم يصوّروا لنا «الكا» الخاصة بالناس العاديين من غير الملوك، بخلاف «البا» التي كثيراً ما مثّلوها على هيئة طائر ذي رأس بشري وهو حاط على بركة ماء، فهي بحسب هذا التصوّر أليق أن تسمى بشبح الميت كما عند بعض الأقوام الأخرى مثل البابليين. ولكنهم صوّروا لنا الـ «كا» الخاص بالملك على هيئة «قرين» يلازمه في الحياة بهيئة ملاك حارس، ويشارك الملك فيما بعد الموت.

---

(1) انظر: H. Frankfort, Kingship and the Gods, 6 ff.
G.A Reisner, The Development of the Egyptian Tomb, 117 ff.

بعض الاحتفالات والرسوم الخاصة بالملكية:

مع أن كثيراً من الرسوم والطقوس الدينية لها علاقة بالملك والملكية إلا أنه هناك جملة احتفالات ورسوم خاصة بالملك نذكر منها الاحتفال بالتتويج والاحتفال الخاص المعروف باسم عيد «سيد». أما الاحتفالات الخاصة بإعلان الملك الجديد وتتويجه فيمكن الوقوف عليها من جملة مصادر مهمة أهمها المنحوتات البارزة الممثلة لمشاهد الاحتفال التي جاءتنا من عهد الأمبراطورية والنصوص الكتابية الشهيرة باسم «النصوص الهرمية» (Pyramid Texts) والمصادر الخاصة بوصف تمثيلية التتويج.

وهناك نوعان من الاحتفالات الخاصة بتبوّء الملك الجديد للعرش أحدهما يخص إعلان الملك الجديد والآخر يخص تتويج هذا الملك الجديد، والغالب أن الحادثتين أو الاحتفالين لا يقعان في زمن واحد. فضماناً لصفة الملوكية وتأكيداً لألوهيتها وقطعاً لظهور منازع من أمراء البيت المالك كان الملك وهو في أثناء حكمه في الحياة يعيّن خليفته على العرش على هيئة نائب له أو شريك له في الحكم (Coregent)، وكانت هذه العادة متّبعة بين جميع ملوك المملكة الوسطى وملوك الأمبراطورية بحسب ما جاءنا من نصوص، ولعل ذلك كان متّبعاً في العهود القديمة أيضاً. ويعقب تخليف الملك الجديد بعد موت الملك والانتهاء من مراسيم دفنه (ويستغرق ذلك زمناً طويلاً) الاحتفال بالتتويج (Coronation) الذي يثبت انتقال السلطة إلى الملك الجديد. وكانوا يختارون ليوم التتويج في الغالب أما في بداية الصيف (وهو الفصل الأول من التقويم المصري) أو الخريف (الفصل الثاني)، وتخصص الفترة ما بين موت الملك وتتويج الملك الجديد في تهيئة دفن الملك وتهيئة معبده وتحنيطه ثم دفنه. وفي اليوم الذي يسبق التتويج يحتفلون بإنهاء مراسيم الدفن، وحالما يوضع الملك الراحل في لحده يكون ذلك بعثه وقيامته وانتقاله إلى ملكوت الإله الشمس. فكان الدفن عند المصريين القدماء يرادف القيامة أو الحياة الأخرى، ويصير الملك الملحود الإله «أوسيريس» بالتجسد والملك

المتوج «هورس». وقد خلف لنا المصريون القدماء عدا الوثائق العامة المتعلقة بتعيين خليفة الملك وتتويجه وثيقة خاصة تصف لنا بصورة واقعية خلافة «سنوسرت» الأول، من ملوك المملكة الوسطى، وقد جاءت على هيئة احتفال أو تمثيلية كان يقوم بأدوارها الملك الذي سمي في هذه الوثيقة بعبارة «الملك الذي سيحكم» وأمراء الأسرة المالكة وكبار الموظفين والكهنة، وبالإمكان تقسيمها إلى ستة فصول يحتوي كل فصل منها على عدّة مشاهد، ويحتوي الفصل السادس منها على الاحتفال بيوم التتويج[1].

ومن الاحتفالات المهمة الخاصة بالملك العيد المسمى بعيد «سيد» أي عيد الثلاثين (The Sed Festival) ولهذا العيد علاقة بالإله «أوسيريس» إذ المرجّح أن الملك إنما كان يحتفل به لكونه قد تجسّد بالإله أوسيريس، فيحتفل بحياته بهذه الصفة وهو في قيد الحياة وفي الغالب بعد مضي ثلاثين عاماً على تبوئه العرش، ويرجع زمن ممارسة هذا العيد إلى أحد ملوك السلالة الأولى القدامى المسمى «دين سيمتي» الذي يرجّح أيضاً أنه أول ملك اعتقد فيه بتجسده بالإله «أوسيريس» حيث اتخذت عبادته أهمية خاصة في عهد هذا الملك، وتعزو إليه المآثر أن فصولاً من «كتاب الأموات» قد دوّنت في عهده، كما وجد له لوح منقوش بكتابة هيروغليفية وصورة للملك تمثّله في حالة رقص أمام الإله «أوسيريس»، مما يحتمل أن يكون هذا جزءاً من مراسيم عيد «سيد»[2]. ومع أن اسم العيد يعني «عيد الثلاثين» إلا أن كثيراً من الملوك احتفلوا به مرات متعددة بفترات أقصر، وخصص للاحتفال به أول شهر من

---

(1) لقد ترجمت هذه التمثيلية بالمصطلح الإنجليزي: «The Mystery Play of Succession».
«أي رواية خلافة الحكم السرية»، ولا يسع مجال هذا الكتاب حتى إيجازها فنحيل من يريد الوقوف عليها إلى أحدث المصادر والترجمات في المرجع الآتي:
Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch. 11.

(2) انظر: **British Museum Guide**, 282-83.
وحول هذا العيد انظر:
Journal of Egyptian Archeology, (1944), 30 ff.

الفصل الثاني المسمى «فصل الظهور» أي ظهور الخضار والحياة من بعد فيضان النيل مما يشير إلى ارتباط العيد بعبادة «أوسيريس» الذي يمثّل حياة الإنبات والخضار بوجه عام. وكان الملك يقوم في هذا العيد بعمل أشياء كثيرة منها إقامة معبد جديد أو إقامة مسلة من الحجر، وإذا لم يشيَّد معبد جديد فتخصص إحدى قاعات المعابد الشهيرة، كما تُخصص الهدايا للإله، وتكون عاصمة الملك في شغل شاغل في التهيؤ والقيام بعمليات التطهير والتنظيف وإضاءة المواضع المعدّة للاحتفال، وتحمل السفن تماثيل الآلهة من مختلف أنحاء القطر حيث يستقبلها الفرعون ورجال بلاطه، وكذلك يحضر كبار موظفي الدولة من الأقاليم.

وبعد الانتهاء من الاستعدادات وفي اليوم الأول من فصل «الظهور» يبدأ الاحتفال الرسمي بسير موكب مهيب يمشي فيه الملك وتماثيل الآلهة وكهنتها، وتقدّم القرابين إلى الآلهة، وبعد ذلك يتقدم الكهنة من الملك وهو على عرشه وهم يحملون رموز الآلهة معهم، ويرد الملك زيارتهم بأن يزور كل إله في مزاره الخاص، ويستمر هذا التزاور المتبادل طيلة يومين. ومن بعد ذلك يقدم إلى الملك كبار الدولة وأمراء السلالة المالكة خضوعهم وهو على عرشه[1].

وقبل أن ننهي بحثنا عن الملك وننتقل إلى ذكر أشياء موجزة عن الموظفين التابعين له ننوّه هنا بشيء مهم يتعلق بألقاب الملك الرسمية مما له علاقة بجغرافية مصر. فقد سبق أن رأينا انقسام وادي النيل إلى القسمين المتميزين الوجه البحري، وهو الدلتا الواسعة الرقعة، ثم الوجه القبلي مما تحت القاهرة، المكوّن من شقة وادي النيل الضيقة. ومع اختلاف هذين القسمين وتميزهما بعضهما عن بعض في أوجه كثيرة إلا أنهما يجب أن يؤلفا وحدة اقتصادية وسياسية لاشتراكهما في المصالح الكثيرة واعتمادهما على مصدر واحد من المياه هو النيل، فكان من المشاكل المهمة التي اعترضت

---

(1) انظر موجز وصف العيد وتحليل مغزاه وأهميته في المرجع:

H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch.6.

الحضارة المصرية في أثناء نموّها توحيد هذين القسمين من القطر في مملكة قومية موحدة. وكانت هذه الوحدة من المظاهر المرغوبة في نظام الملكية ومقياساً لازدهار الحكم وقوّته. وكان لاختراع نظام الحكم الذي يدور على فكرة «الملك الإلٰه» أثر بالغ في توحيد هذين القسمين، وصار من ألقاب الملك الرسمية المهمة لقب «ملك القطرين» حيث جمع في تاجه شعاري القسمين، حيث لقب «بالسيدتين» إشارة إلى جمع الآلهتين الحاميتين لكل من مصر العليا والسفلى.

حكومة الفرعون:

إذا كان الملك مصدر الحكم والسلطة ومنبع العدالة فمن البديهي تعذر قيامه بإدارة شؤون الدولة جميعها، إذ الواقع أن الملك كان بعيداً عن جزئيات إدارة المملكة والحكومة، فكان يفوض في ذلك كبار موظفيه وعلى رأسهم أهم موظف في الدولة من بعد الملك ذلك هو «وزير الملك»، ثم كبار موظفي الدولة الذين يكونون في حالات كثيرة من أعضاء الأسرة المالكة أو ممّن يمتّ إليها من الأمراء الذين يكونون أعلى طبقة في المجتمع، ويكون فيهم بسبب صلتهم بالملك جزء من تلك الصفة الإلٰهية المقدسة التي تميّز الملك. وقد بلغ الحال مثلاً في عهد السلالة الرابعة أن الوزراء وكبار الكهنة كانوا من أبناء الملك أو من أبناء عمومته أو أبناء خاله الخ. ومما يقال عن طبقات المجتمع بالنسبة إلى الملك أن جميع المصريين كانوا بالنسبة إليه من العوام ومن طبقة غير طبقته باستثناء أولئك الذين يجري في عروقهم الدم الملكي مهما بعدت صلاتهم بالأسرة المالكية. وإذا كان الوزير وكبار الموظفين يساعدون الملك في إدارة الدولة بتفويض منه إلا أن الشؤون والقرارات المهمة كانت تعرض أمام الملك للبتّ فيها. وكان على الوزير الأول أن يمثل أمام الفرعون صباح كل يوم ليطلعه على شؤون الدولة. وكان الملك يفوض وزيره أيضاً في سماع الشكاوى التي تستأنف إلى الملك بصفته منبع العدالة. ويجدر التنويه بهذه المناسبة بأنه لم يكن هناك تمييز بين السلطتين التشريعية والتنفيذية لأن كل

السلطات مصدرها الملك. ومما يدلّ على سعة سلطة وزير الملك ألقابه المهمة مثل تسميته باسم «رئيس كبار موظفي الوجهين القبلي والبحري»، وكان الوزير كبيراً للقضاة ومن ألقابه المهمة «ناظر جميع أشغال الملك» و«المشرف على ما تعطيه السماء وتخرجه الأرض ويقدمه النيل والمدير لكل ما في البلاد جميعها»، ومن اختصاصاته إصدار المراسيم القانونية باسم الملك والتعيين في وظائف الدولة، والتصديق على وثائق الحدود بين الأملاك والأراضي.

ومما يقال في حكومة الملك ونظام الإدارة فيها إنها تتميز بالبيروقراطية الشديدة، فهناك العدد الكبير من الكتبة ورؤسائهم ورتب الموظفين الآخرين، وكان من بين كبارهم حاكم الإقليم، فقد كانت البلاد مقسّمة إلى ولايات، كما أن إدارة البلاد ظلت متميزة من ناحية تقسيمها إلى القسمين الكبيرين، الوجه القبلي والبحري، بحيث إن وزيراً خاصاً كان يعين لكلّ منهما في بعض الأحايين. وكان حاكم الإقليم قائد الجيش الخاص بإقليمه أيضاً، ويكون دولة مصغرة من ناحية الإدارة والموظفين الخاصين بها. وهناك وظيفة مالية كبيرة هي «بيت الخزينة» أي إدارة المالية، وعلى رأسها «أمين خزينة الإله». وقد ازداد الموظفون وتضخّم عددهم في عهد المملكة الوسطى كما ازدادت عدد الوظائف والأعمال المُناطة بالموظفين الكبار مما أدّى إلى إرباك ماكينة الدولة.

وطرأت تغييرات مهمة في عهد الأمبراطورية في حكومة الملك وإدارتها على الرغم من بقاء معظم الألقاب القديمة في الاستعمال، ولكن أسس الإدارة وتنظيمها قد تغيّرت. فمن الأمور المهمة نشوء الموظفين الملكيين بدلاً من الأرستقراطية القديمة المكوّنة من النبلاء والأشراف، كما أن ملكيات الأراضي الكبيرة انتقلت من حوزة الأسر القديمة إلى التاج وإلى المعابد الكبرى. لقد طرأت مثل هذه التغييرات من جرّاء طرد الهكسوس بالحرب والاستيلاء على أملاكهم أي إن السلالة الثامنة عشرة إنما قامت على أثر حرب أهلية بدلت كثيراً من الأوضاع السابقة. ولعل أحموسة مؤسس هذه السلالة قد انتهز فرصة حرب التحرير فسلب أملاك النبلاء السابقين وقضى على امتيازاتهم، ومنح

قسماً من أملاكهم إلى الذين ساعدوه في حربه ضد الهكسوس. وإذا كنا قلنا سابقاً بأن مصر كانت ملك الفرعون، فإن ذلك لم يكن كله صحيحاً من الوجهة النظرية إلّا في عهد الأمبراطورية. وبما أن الدولة الحديثة قامت بقوة السلاح قد استتبع ذلك تعاظم شأن الجند، كما أن الجيش صار قوة نظامية أكثر دواماً وأنظم مما كان عليه في العصور السابقة. ثم إن تأسيس الأمبراطورية قد اقتضى أن يكون هناك جيش قائم وأن تؤسس الحصون والثغور وتعين فيها الحاميات مما لم يكن معروفاً في العهود السابقة بمقياس كبير. ودخل في الجيش أيضاً نظام الجند المرتزقة كالليبيين مما كان له أثر سيئ في المملكة حيث استطاع هؤلاء بعد أزمان أن يأخذوا زمام السلطة بأيديهم. وكان الملك يشترك شخصياً في القتال كما ترينا الصور المنقوشة على جدران المعابد من عهد الأمبراطورية. وبلغت مصر أوجها في المقدرة العسكرية في عهد الأمبراطورية وبوجه خاص في عهد السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ولكن هذه السلالة الأخيرة جابهت آنذاك دولة عظمى هي الأمبراطورية الحثية ودخلت معها في حروب مضنية.

شيء عن المجتمع والحياة الاجتماعية:

إذا استثنينا الملك ومعه أفراد الأسرة المالكة الذين كانوا فوق طبقات الشعب فبالإمكان تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، الطبقة العليا المؤلفة من النبلاء والأشراف وكبار الموظفين والكهنة، وكان هؤلاء بيدهم مقاليد الأمور والثروة، ويليهم طبقة يمكن تسميتها بالطبقة الوسطى وأهم أفرادها الصنّاع والعمّال الأحرار والفلاحون الأحرار ثم تأتي جماعات الأرقّاء. وكانت الحروب الخارجية مصدراً مهماً لجلب الحشود من المسترقين، فيخبرنا رعمسيس الثالث أنه أهدى (113000) عبد إلى المعابد المهمة في أثناء حكمه، وإذا أضفنا إلى مثل هذه الحشود من الأرقّاء العمل القسري الذي كان يفرضه الملوك والحكّام على الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمّال في مشاريعهم الجسيمة أدركنا مصدر العمل الغزير في مصر القديمة.

وكانت العائلة أساس المجتمع، والغالب في الزواج في مصر القديمة الاقتصار على الزوجة الشرعية الواحدة التي كانت سيدة البيت، أما تعدد الزوجات فكان من الحالات القليلة المقصورة على العائلة المالكة وطبقة الأشراف والنبلاء، كما أن الرجل العادي يستطيع أن يتّخذ محظيات (سريات) من الجواري والإماء، ولكن يندر الجمع بين زوجتين شرعيتين في آن واحد. ويبدو أن التعلّق بالعائلة وتأسيس الأسرة كانت من الأمور المحبّبة المثالية لدى المصريين القدماء. وقد جاء في كتاب الحكمة الذي ألّفه «فتاح حيتي» «أن الرجل يكون حكيماً حين يؤسّس لنفسه منزلاً ويحب زوجته». هذا ولم يكن هناك سن قانوني للزواج، فقد يكون من سن الخامسة عشرة للشبان وسن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة للبنات، والمرجّح كثيراً قياساً على العصور المتأخرة أن الزواج كان يتمّ بالخطبة وبالعقد الكتابي. ولم يكن المصريون القدماء يتحرجون من زواج الأخت وابنة الأخت. وقد اتبع هذه العادة البطالسة والرومان في مصر، حيث اتخذ معظم البطالسة أخواتهم زوجات لهم. وكانت هذه العادة شائعة في العصور السابقة ولا سيما بالنسبة للملوك والآلهة، فقد جاء في الأساطير أن الإله «أوسيريس» والإلٰه «سيت» قد تزوجا بأختيهما «إيسيس» و«نفثيس» ولعل الغاية من زواج الأخت بين الملوك الاحتفاظ بالدم الإلٰهي النقي. وكانت الزوجة محترمة بوجه عام، كما خصّت الأم أيضاً بالاحترام الخاص حتى أن صورة أم الميت وليس صورة أبيه هي التي تُنقش مع صورته وصورة زوجته، وكثيراً ما نُسب الميت في شواهد القبور إلى جهة أمه وليس إلى جهة أبيه، ولعل هذه العادة من بقايا العصور القديمة.

وكان اسم الشخص ذا أهمية خاصة وموضوع اهتمام شديد، والاسم إما أن يكون بسيطاً يدلّ على تيمن، أو أنه ذو مغزى ديني، والغالب في الأسماء التركيب، حيث يتكوّن الاسم من جملة ذات معنى على غرار الأقوام السامية كما رأينا ذلك عند البابليين، وكثيراً ما تكون الأسماء البسيطة موجز الأسماء المركّبة واختصاراً لها. وبطبيعة الحال كانت تربية الطفل وتنشئته تقع على عاتق الأم، وكانت الأم ترضعه مدة قد تدوم ثلاث سنوات وقد يوكل الطفل إلى

المرضعة ومن بعد أربع سنوات يأتي دور الأب في التربية، والعادة أن الأطفال كانوا يعلّقون في أجسامهم التمائم والحروز لطرد الشر. وإذا ما بلغ الطفل دور الصبا فإما أن يُلحق بحرفة بالالتحاق بمحل صانع أو محترف أو يُرسل إلى الكتاتيب لتعليمه الكتابة والقراءة التي كانت من الأمور الصعبة التي تستغرق وقتاً طويلاً، وكان أولاد الطبقات العليا يؤخذون في الأغلب إلى البلاط ليتربوا مع أبناء الملوك، وكانت في مصر القديمة أنواع مختلفة من المدارس فبعضها مدارس ملحقة بالمعابد كما توجد مدارس رسمية خاصة بأبناء الطبقات الراقية، وكانت هناك أيضاً مدارس مهنية مثل مدرسة الكتبة ومدرسة الكهنة، ومدرسة عسكرية، وكان نظام الدراسة صارماً قاسياً حيث العقوبات الجسدية، ولكن مع ذلك بوسعنا أن نستدل من النصوص الكتابية على ولعهم بالتعليم وتقديرهم لفن الكتابة، كما يتجلى ذلك مما ذكرناه باسم وصية «دواف بن خيتي» لابنه، والحوافز على ذلك نيل الوظائف والمراتب العليا وليس لمجرد حب المعرفة والحكمة، فالتعليم كان الفاصل بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة، فتعلم فن الكتابة وصيرورة المرء كاتباً يضعانه في أولى درجة في سلم التوظف. وكان التعليم بوجه عام درجات، فالتعليم الابتدائي يقتصر على تعلم فن الكتابة والحساب وبعض الأمور العامة، والتعليم المتقدم يأخذ بالمرء إلى الاختصاص في المدارس الخصوصية حيث يتعلم الطب والرياضيات والسحر والكهانة ويتقن أسرار التعاليم الإلٰهية الكهنوتية.

وإذا ما أردنا أن نتكلم شيئاً عن المنازل وبيوت السكنى فإن معلوماتنا عنها لا تتعدّى عهد الدولة الوسطى، إذ لم يبق أثر ما لبيوت العهود السابقة، ويصدق ذلك على المدينة المصرية. وقد كشف المنقبون عن بقايا مدينة من هذا العهد في الموضع المعروف باسم اللاهون بمنطقة الفيوم، وقد بناها «سنوسرت» الثاني لتكون مقراً له، وتُعرف بين الباحثين الآن باسم «كاهون»، ولم تسكن هذه المدينة إلا زهاء القرن الواحد، وهي تشغل مساحة مقدارها 350 ـ 400 متر مربعاً ومحاطة بسور عريض من اللبن، ولها بابان وشارع رئيسي عرضه 8 ـ 9 أمتار، ويتفرّع منه بزوايا قوائم دروب وطرقات فرعية على

جوانبها منازل صغيرة، وقد خصّص نحو ثلاثة أرباع المدينة (قسم المدينة الشمالي) للملك ولكبار موظفيه. وعُثر على أنقاض مدينة أخرى مهمة من عهد الأمبراطورية عرفتنا أيضاً بالمدينة المصرية وبدور السكنى فيها، ونقصد بذلك المدينة التي شيّدها أخناتون في تل العمارنة في مصر الوسطى (على الضفة الشرقية من النيل) في أواخر السلالة الثامنة عشرة (1375 ـ 1350 ق.م)، وتمتد هذه المدينة نحو سبعة كيلومترات من الجنوب إلى الشمال ونحو (1-1/2 كم) من الغرب إلى الشرق، ويقوم وسط المدينة معبد الإله «أتون» العظيم، ولعل قصر الملك كان يتصل به، ونقع إلى شماله وجنوبه منازل النبلاء وأفراد الشعب، وكانت هذه المنازل بعضها بسيطاً وبعضها كبيراً معقداً، ولكن الظاهر أن المدينة لم تكن مقسّمة إلى حارات للأغنياء وحارات للفقراء، وكان لأكثر البيوت حدائق، وقد اشتهر المصريون القدماء بالعناية بالجنائن منذ أبعد العصور. وفيما عدا أنقاض هاتين المدينتين فإننا نجهل إنشاء دور السكنى وخطط المدن المصرية بالنظر لعدم اعتنائهم ببيوت السكنى وإنما خصّصوا أعظم الجهود إلى إقامة القبور التي كانت البيوت الدائمة ولكن وجد في مثل هذه المقابر، ولا سيما المقابر العائدة إلى عهد الأمبراطورية، نماذج طريفة لأدوات المنازل والأثاث المستعملة، كما وجدت نماذج مصغرة لبعض بيوت السكنى. وإذا أضفنا إلى هذه الأدوات الصور الممثلة للبيوت والأثاث استطعنا أن نكوّن صورة لا بأس بها عن الأثاث البيتية مثل أسرّة النوم الخشبية، وكانت أسرة الأثرياء مفضضة ومذهبة ومزخرفة بالصور وكذلك الكراسي، ولكن عامة الناس صوّروا في أكلهم وهم على الأرض جالسين القرفصاء، إلا أن المقعد الخشبي شاع بين عامة الناس منذ عهد السلالة الثامنة عشرة. ولدينا أيضاً صورة لا بأس بها عن ملابس الناس وأزيائهم، حيث نجد النقب (الأزر) التي تلف في وسط الشخص في عهد المملكة القديمة، وقد أضيف إزار آخر في عهد المملكة الوسطى، كما أن الصدر صار يُغطى برداء في عهد الأمبراطورية، وقد استعملوا نسيج الكتان والصوف والجلود للملابس. وكانت الملابس كثيراً ما تُزخرف. وهناك ألبسة خاصة بالاحتفالات الدينية والرسمية، كما اختصّ الوزراء والكهّان بلباسهم الخاص.

وإذا ما تساءلنا عن أنواع المهن التي كانت تمتهنها طبقات الشعب وجب علينا أن نتكلم عن ثلاثة أسس مهمة قامت عليها حضارة وادي النيل تلك هي الزراعة والتجارة والصناعة، وهي الأسس المهمة التي رأيناها تميّز حضارة وادي الرافدين أيضاً. وإذا لم يكن في الوسع إسهاب القول في كل من هذه العناصر الثلاثة فإننا نقتصر على ذكر أبرز الأمور المهمة في الموضوع، ولنبدأ بالزراعة.

ولا حاجة بنا للإسهاب في أثر الزراعة في حضارة وادي النيل لأنه سبق أن رأينا في عدّة مناسبات عن تأريخ مصر كيف أن الزراعة كانت المورد الأول في حياة وادي النيل، وقد وضعت أسسها قبل عهد نضج الحضارة، حيث قام رواد الحضارة الأوائل لما جاؤوا إلى ضفاف النيل بإزالة الأحراش والغابات وتنظيم جريان النيل، وشق الترع والقنوات، فعملت تلك الجهود على نموّ الحضارة وتوفير القوت. ولعلّ أبرز ما تمتاز به الزراعة في وادي النيل ما سبق أن ذكرناه عن خصائص نهر النيل المميزة، ولا سيما دورة فيضانه وقلّتها وكثرتها، فلا حاجة لتكرار القول في ذلك. وبعد انتهاء موسم الفيضان في أواخر فصل الصيف تكون الحقول مستعدة للحرث، حيث تفتت التربة مما على سطحها من كتل الطمي الكبيرة، كما تحرث بالمحراث الذي تجرّه الثيران، واستعملت البغال أيضاً في عهد الأمبراطورية، وكانت العادة أن يخصص شخصان لكل محراث أحدهما يضغط على مقبض المحراث ويقود الآخر الثورين. وبعد إعداد الحقل وتهيئته تبدأ عملية البذر، وبعد البذر يقومون بعملية أخرى هي إنزال الحبوب في أثناء الأرض المحروثة، وكانت هذه العملية تتم في العصور الأولى بواسطة الخراف حيث تسير فوق الحقل المحروث، وكانوا يسمون هذه العملية «حرث الحقل مرة أخرى بواسطة الخراف»، واستعملوا الخنازير في عهد الأمبراطورية على ما يروي لنا «هيرودوتس»، وبعد ذلك يبدأ نموّ الحبوب وظهورها، فتبدأ عملية الحصد بالمنجل القصير، حيث يربط المحصود على هيئة حزم تُنقل بعدئذ إلى موضع مخصّص للدراسة. وكانوا يستخدمون الحمير في الدراسة، وكثيراً ما تخزن

الحبوب بعد التذرية في أهراء مبنية من الطين بهيئة مخاريط (ارتفاعها نحو خمسة أمتار وقطرها نحو مترين). وكانت أشهر الحبوب المزروعة الحنطة والشعير والشوفان. وبالإضافة إلى الحبوب، كان في مصر جملة أنواع من الخضراوات كالبصل والخيار والبطيخ. ومن الثروة الزراعية يمكننا أن نعدّد أيضاً تربية الماشية، وقد وصلت إلينا عن ذلك صور كثيرة من المقابر من جميع العهود، كالبقر والغنم والماعز. واعتنوا أيضاً عناية خاصة بالدواجن من الطيور المختلفة.

وبعد أن كثر الإنتاج الزراعي بالسيطرة على مياه الإرواء أمكن ظهور الصناعات التي كانت بسيطة في مبدإ أمرها، وظهرت التجارة أيضاً على مقياس واسع، وباستطاعتنا أن نقف على نتاج الصناعات المصرية فيما خلّفه لنا المصريون القدماء ولا سيما في قبورهم من الأثاث والأدوات المختلفة منذ أقدم عصور التأريخ. ونذكر من بين الحرف الشهيرة ما كانوا يصنعونه من نبات البردي كالقوارب والحصر والسلال والحبال والنعال، وأهم من ذلك مادة الورق التي ذكرنا عنها شيئاً فيما سبق، ومن الصناعات المهمة أيضاً الغزل والنسج من الكتان والصوف، ولأهمية صناعة النسيج أرجعوا أصلها إلى إحدى الإلٰهات المسماة «تايت»، وعدّت صناعة الملابس من أعمال النساء بوجه عام، ولكننا نجد إلى جانب ذلك صور الرجال وهم على الأنوال يصنعون النسيج، ونذكر أيضاً دباغة الجلود، وقد جاءتنا نماذج من الجلود المدبوغة. واشتهرت النجارة في مصر كما تدلّ على ذلك قطع الأثاث النفيسة التي خلفها لنا المصريون القدماء في قبورهم كالعربات والكراسي والتوابيت، وكان الخشب الجيد مفقوداً في مصر، ولذلك عمدوا إلى جلب الخشب الجيد من خارج مصر ولا سيما من بلاد الشام. ومن الصناعات المهمة التي توفّرت موادها الخام في بلاد مصر صناعة الفخار الشهيرة، وإلى جانب أواني الفخار البسيطة اشتهر الفخارون بصناعة التزجيج أو ما يُعرف بالبورسلين المصري، وكذلك صناعة الزجاج. ولا يعلم متى نشأت صناعة الزجاج، ولكن الأواني الزجاجية الكاملة لم يبدأ إنتاجها بكثرة إلّا منذ عهد الأمبراطورية.

ولم تكن بلاد مصر غنية بالمعادن، فكانوا يبحثون عن المعادن ويستخرجونها من الأقطار القريبة من مصر، مثل النحاس من طور سيناء، ولصعوبة الحصول على مثل هذه البضائع بالتجارة الفردية فقد ظل التعدين طوال قرون كثيرة تحتكره الدولة، وقد سبق أن رأينا الحكومات كانت تُرسل البعوث الخاصة لسيناء وبلاد نوبية لاستخراج النحاس. ويبدو أن صنع البرونز نشأ منذ عهد المملكة الوسطى على الرغم من استعماله قليلاً في عهد المملكة القديمة، ولكنه لم يحل محل النحاس تماماً إلّا في عهد الأمبراطورية. كما أن استعمال الحديد لم يبدأ بكثرة إلّا منذ هذا العهد. وكان الحديد يُستورد بالدرجة الأولى من بلاد الحثيين. أما الذهب والفضة فقد استعملا منذ أقدم العهود، واشتهر الصاغة بصناعاتهم الدقيقة النفيسة كما تدلّ على ذلك الآثار القيّمة التي وجدت في القبور. وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلّات عن مناجم الذهب وكيفية العمل بها، حيث كانوا يرسلون البعوث الخاصة لاستخراج الذهب في الساحل الشرقي من نوبية، وكذلك يقال عن مناجم الأحجار ومقالعها[1]. ومما يقال عن الصناعة في مصر بوجه عام إنها لتضاهي بل تفوق الصناعات الحديثة في بعض النواحي قبل اختراع الآلات البخارية والعصر الآلي. وكذلك يقال بالنسبة إلى الأعمال الهندسية كما تدلّ على ذلك مشاريع البناء الجسيمة ومشاريع الري الكبرى، فنذكر على سبيل المثال من بين ذلك أن الملك «سنوسرت» الثالث شيّد جداراً طوله 27 ميلاً لجمع مياه منخفض الفيوم في بحيرة موريس، وبذلك استطاع أن يخلص أراضي صالحة للزراعة مساحتها نحو (25000) فدان من المستنقعات كما أنه أنشأ خزاناً عظيماً للإرواء بهذه الواسطة[2]، كما شقت جداول كبرى بعضها يربط النيل بالبحر الأحمر، ويقال إنهم استعملوا للحفر الصناديق الخاصة للعمل في

---

(1) انظر «مصر في العصور القديمة» تأليف «أدولف أرمان ورانكة» وهو الذي اعتمدنا عليه هنا.

(2) نقلاً عن:

Will Durant, The Story of Civilization; (Diodorus, 1, 52).

الماء[1] وننوّه أيضاً ببناء السفن ولا سيما الكبيرة منها حيث بلغ حجم بعضها (50×100 قدماً).

إن الكثير من المواد التي استُعملت في الصناعات التي عددناها كانت تستورد بالتجارة الخارجية. وكان أهم جزء من التجارة الخارجية بالطرق البحرية بواسطة السفن، وهي التجارة التي يبدو أنها اختصّت بأهل الدلتا. وكان النيل طريقاً مهماً للمواصلات الداخلية. وجاءتنا أخبار لا بأس بها عن السفن وأنواعها[2] حيث كانوا يستعملون الكبيرة منها للإبحار بها إلى سواحل سوريا، وقد سبق أن ذكرنا أن مستعمرة تجارية مصرية قد تأسست في جبيل، حتى أنهم سموا السفينة البحرية باسم مشتق من جبيل هو «جبليا». واستخدموا الحمير للمواصلات البرية الداخلية، واستخدموا للمواصلات البرية القصيرة «المحفّات». والمحفّة عبارة عن مقعد خشبي فوقه مظلة ويحمله من قبضاته الطويلة ستة خدم أو أكثر على أكتافهم ومعهم رجال يحملون المراوح للترفيه عن الثري. واستخدمت العربات في عهد الأمبراطورية للسفر والحرب والصيد، وكذلك استعملت الخيل في هذا العهد. أما الجمل فلم يذكر أو يصوّر قبل العهد اليوناني في مصر، وقد ازدهرت التجارة الخارجية ودرت على مصر خيرات عميمة. وكان من أشهر صادراتها الحبوب والصناعات الثمينة المختلفة، أما الواردات فمن أهمها الزيتون وزيت الزيتون والنبيذ من اليونان والساحل الليبي، والفضة من آسيا الصغرى، والنحاس والقصدير من سيناء وقبرص وسوريا الشمالية والأرز من جبال لبنان، وحجر اللازورد من فارس والمر والبهار للتحنيط من جنوبي جزيرة العرب وبلاد «البنت»، والصومال. والجلود والماشية والعاج والأبنوس وريش النعام والقسي من السودان. كما وجدت جملة منتوجات من بلاد بابل والهند عن طرق القوافل التي كانت تخترق الصحراء من قرب السويس أو قرب موضع القنطرة الآن، كما سلكت

(1) مما يعرف بـ (Caisson) انظر: Will Durant, Op. Cit., 169.

(2) انظر المرجع المذكور في الهامش رقم (1) ص 180.

التجارة البحرية في البحر المتوسط إلى بلاد الشام واليونان والجزر الإيجية وفي البحر الأحمر وخليج فارس.

وكانت المعاملات التجارية تتم بالمقايضة بالدرجة الأولى، واستعمل المصريون الأوزان والموازين، كما أنهم استعملوا قطعاً من النحاس معينة الوزن للتبادل منها قطع تزن نحو (91) غراماً تسمى «دين» واستعملوا الذهب أيضاً واسطة للتعامل، ولكن العملة المسكوكة لم تكن معروفة في مصر إلا في القرن الرابع ق.م.، حيث أُدخلت من اليونان.

مراجع مختارة

بالإضافة إلى المراجع التي أثبتناها في الهوامش يجد القارىء في الثبت الآتي المراجع الأساسية عن تأريخ مصر ويجد فيها الإشارات إلى المراجع الأخرى عن حول البحوث الكثيرة المتنوعة.

عن جغرافية مصر وعصور ما قبل التأريخ بوجه عام:

1. Childe, **New Light on the Most Ancient East,** (1952).
2. ..., «Terminology in Egyptian Prehistory», in **Antiquity,** No. 103 (1952).
3. O. Eberhard in **Die Welt des Orient** (1952), 43, ff.
4. K. S. Sandford in AJSL, XLVIII (1932), ..., **Palaeolithic Man and the Nile Valley,** (1934).
5. S.S. Huzzayin, **The Place of Egypt in Prehistory** (1941).
6. Frankfort **The Birth of Civilization in the Ancient Near East** (1951).
7. Frankfort in AJSL, LVIII (1941), 329 ff.

حول تأريخ مصر والحضارة المصرية بوجه عام انظر أحدث المراجع:

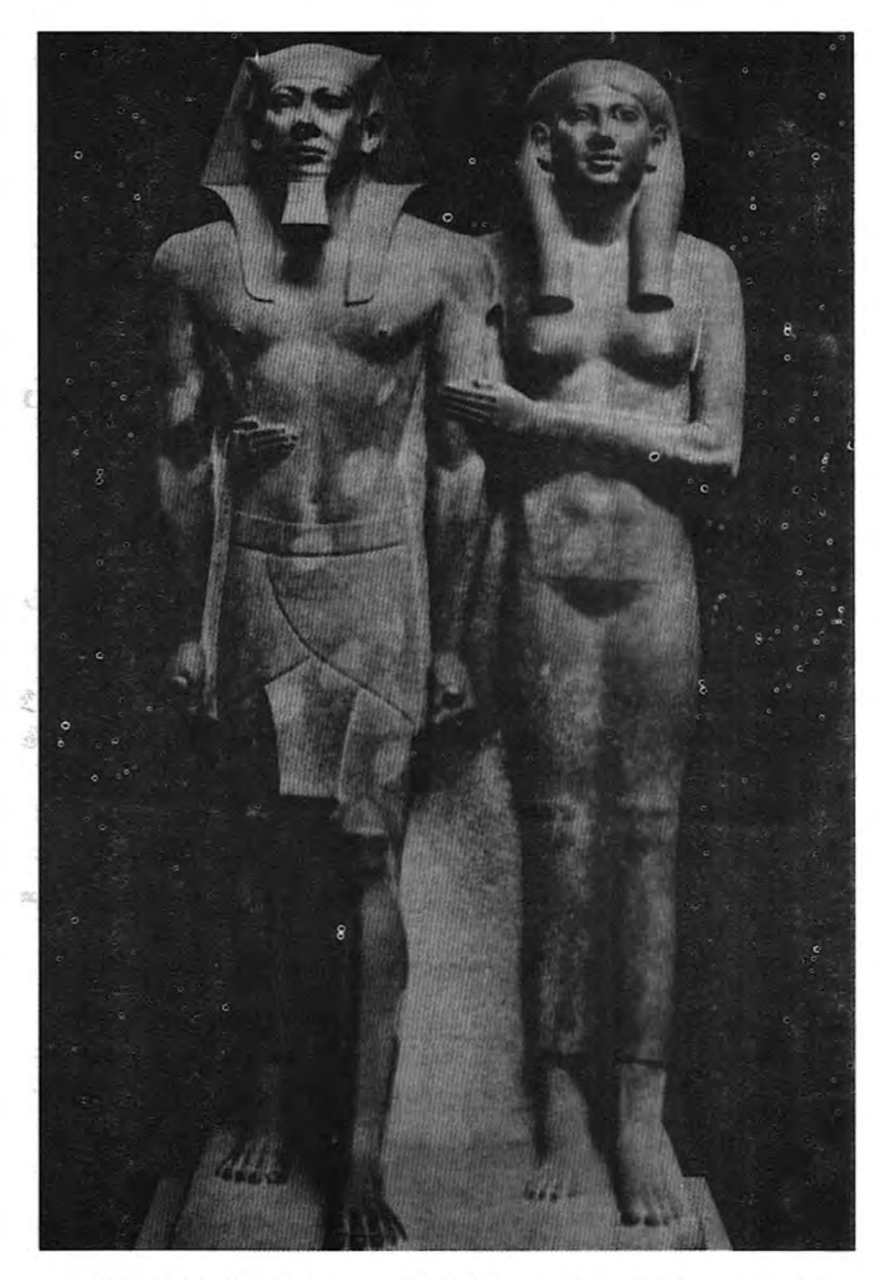
8. J.A. Wilson, **The Burden of Egypt** (1951).
9. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1951).
10. Breasted, **A History of Egypt** (1905, 1954).
11. Steindorff G Seele, **When Egypt Ruled the East** (1942).
12. **Cambridge Ancient History.**
13. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950).
14. Frankfort, et la, **Intelectual Adventure of Ancient Man** (1946)- **Before Philosophy** (Pelican, 1951).
15. Breasted, **Dawn of Conscience** (1933).

16. **The Legacy of Egypt.**
17. Adolf Erman, **The Literature of Ancient Egyptianx** (Transl frome German, 1927).
18. **E. Meyre, Geschichte des Altertum** (1926).
19. Scharff G. Moortgat, **Egypten und Vorderasien.**
20. H.R. Hall, **The Ancient History of the Near East** (1936).
21. Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).
22. I.E.S. Edwards, **The Pyramids of Egypt** (Pelican, 1947).
23. H. Frankfort, **Ancient Egyptian Religion** (1948).
24. W.S. Smith, **A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdom** (1946).
25. A.H. Gardiner, **Egyptian Grammar** (1927).
26. ..., **The Attitude of the Ancient Egyptians to Death and the Dead** (1935).
27. J.D.S. Pendlebury, **Tell el-Amarna** (1935).
28. A. Erman, **Die Religion der Aegypter** (1934).
29. Kurt Lange, **König Echnaton und die Amarna Zeit** (1951).
30. Knutdzon, **Die El-Amarna Tafeln.**
31. **A General Introductory Guide to the Egyptian Collections in British Museum** (1930).

32 ـ «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال.

33 ـ «مصر» تأليف دريوتون وترجمة عباس بيومي.

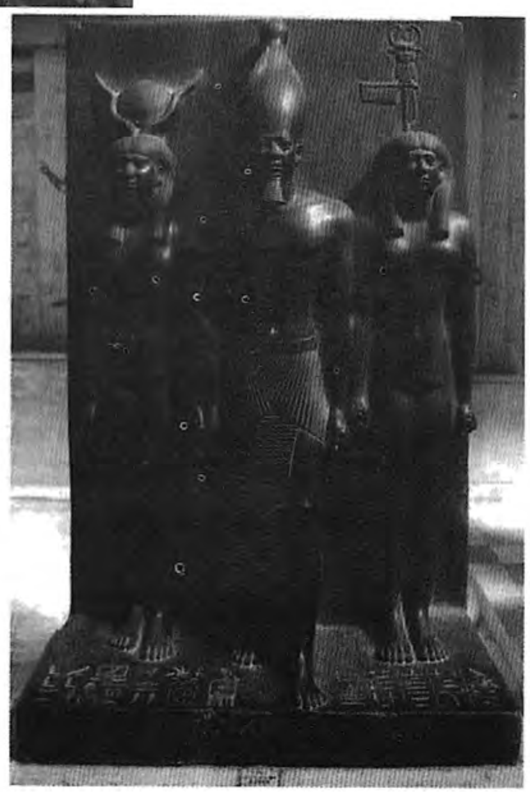
34 ـ «مصر القديمة» للدكتور سليم حسن، تسعة مجلدات (1940 ـ 1952).



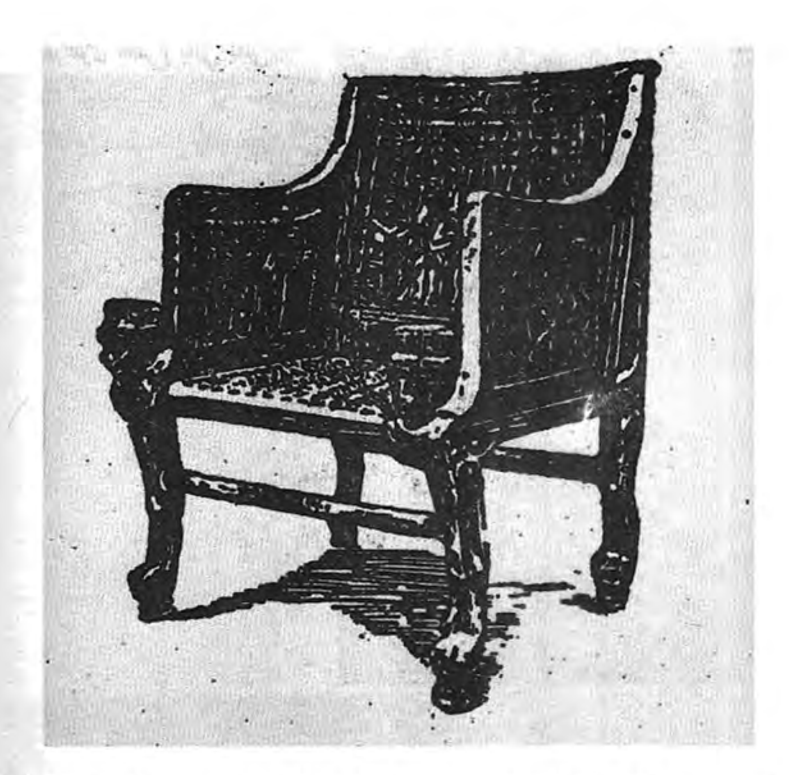
نحت يمثل لنا الملك «منكورع» والملكة «خاميرر نبتي» (من السلالة الرابعة).



رأس الفرعون خفرع باني ثاني الهرمين في الجيزة. وجد في معبد الوادي الخاص بهرمه. وقد نحت من حجر صلب (حجر الديوريت). ويمثل الصقر الإلٰه هورس الذي يحمي الملك ويتجسّد فيه.



صفحة منحوتة تمثل الملك منكورع خليفة خفرع (السلالة الرابعة) مع الإلهة هاثور وإلهة أخرى خاصة بأحد الأقاليم.



كرسي من الخشب دقيق الصنع يعود إلى أحد النبلاء من عهد الأمبراطورية.



صورة تمثل لنا سفينة مصرية قديمة من عصر الأهرام.

القسم الثاني

تاريخ الجزيرة العربية

و

بلاد الشام

الفصل السادس والعشرون

جزيرة العرب
وشيء عن تأريخها القديم

سيتضح مما سنذكره عن علاقة الجزيرة بأقطار الشرق الأدنى بكونها مصدر الهجرات السامية ومما سنذكره عن تأريخ الأقوام المهمة التي استوطنت بلاد الشام منذ فجر التأريخ أهمية الجزيرة العربية في تأريخ الشرق الأدنى القديم، ولما كان ليس في الإمكان كتابة فصول مسهبة في تأريخ الجزيرة الماضي بالنظر لقلة المآثر ولأن ذلك خارج نطاق مدى بحثنا فإننا نكتفي بما سنورده من الملاحظات الموجزة لتكون تعريفاً بالموضوع لمن أراد التوسّع فيه في مظانه ونبدأ بذكر ملاحظات موجزة عن اسم العرب.

كلمة عرب:

تضاربت آراء المفسرين في الكلمة «عرب» وذكروا عنها آراء كثيرة لا يعدو الكثير منها أن يكون مجرد حدس بل وهم. فما هي المادة التي اشتقت منها الكلمة، وما هو أقدم ذكر لها؟ وهل سمى سكان الجزيرة أنفسهم عرباً ومتى كان ذلك؟

وعلى الرغم من أن علاقات مهمة قد نشأت بين سكان وادي الرافدين وبين أقسام مهمة من الجزيرة منذ أقدم الأزمان، فإن أقدم ذكر على ما نعلم حتى الآن لبعض القبائل العربية باسم العرب قد جاءنا من زمن الملك الآشوري «شيلمنصر» الثالث في أخبار حربه في بلاد الشام في موقعة «القرقار» (853 ق.م). وكثر ورود كلمة العرب في المصادر المسمارية منذ هذا التاريخ. ومما يقال عن العرب المذكورين بهذا الاسم في تلك المصادر أنهم

كانوا جلّهم أو كلهم من سكان بادية الشام أي بوادي جزيرة العرب الشمالية. وجاءت تلك الكلمة بصيغ وإن اختلفت إلا أنها تشير إلى اشتقاقها من مادة واحدة، نذكر أشهرها بالتعريب اللاتيني: (Arbi) و(Aribi) و(Arubu) و(Urbi)، والنسبة إليها (Arbaia) أو (Arbaya) بإضافة ياء النسبة الآشورية المماثلة إلى العربية[1]. وجاءت كلمة العرب في مواضع كثيرة من التوراة، وجاء ذكرها بصيغة (Arabaya) في نقوش دارا في حجر «بهستون». ومع غموض معنى الكلمة الواردة في جميع هذه المصادر إلا أنها تشير على الأغلب إلى البدو المتنقلين، أي سكان البوادي، مما يدلّ على أن الاسم صفة مشتقة من البادية والصحراء. والمرجّح كثيراً أن كلمة «عرب» مأخوذة من مادة «عرب» بمعنى «أمحل» أو «أجدب»، وهو فعل قليل الاستعمال في كثير من اللغات السامية. واستعملت صيغة (عرابة أو عربة) العبرانية اسماً للأرض القفراء التي يقع ضمنها البحر الميت وتمتد إلى النهاية الشمالية الشرقية من البحر الأحمر. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن المصريين القدماء لم يسموا بلاد العرب باسم خاص وإنما نعتوها في بعض كتاباتهم بـ «أرض الله» ووصفوها بنتاج أشجارها من البهار والتوابل.

أما ورود كلمة العرب في المآثر العربية فلا نستطيع أن نبّت بالزمن الذي سمى فيه العرب أنفسهم بهذه التسمية. والذي عليه كثير من الثقات هو أن بلاد العرب عُرفت منذ الجاهلية[2] باسم جزيرة العرب، وإن اسم العرب استُعمل في بلاد العرب نفسها قبل ظهور الإسلام كما يستبان من الأشعار الجاهلية، وكذلك استعمال الكلمة في القرآن الكريم. ومهما يكن من أمر فعندما أطلق العرب على بلادهم اسم «جزيرة العرب» لم يتمسكوا بالمعنى الاصطلاحي

---

(1) انظر حول النصوص الواردة فيها كلمة عرب في المرجع الآتي: Reallexikon der Assyriologie, I (Araber).

(2) الجاهلية اصطلاح غير متّفق على تحديد زمنه، ويضع بعض المؤرخين بداية العهد الجاهلي في 500 للميلاد ودام من 500 ـ 622 للميلاد.

التام لكلمة الجزيرة. وتسمية العرب لأشباه الجزر جزراً جزراً وردت كثيراً في كلامهم. وملخص القول إن كلمة عرب منذ ظهورها (وأقدم ما جاءنا عن ذلك من القرن التاسع ق.م) أخذ يطرد استعمالها ويتّسع بالتدريج فصار في النهاية علماً يطلق على سكان الجزيرة واتسع في الاستعمال بعد هجرة العرب الكبرى منذ الفتح الإسلامي فشمل معظم أقطار الشرق الأدنى وصار يجمل في مفهومه عدا الأوجه القومية والعنصرية الأوجه الثقافية والحضارية.

أحوال الجزيرة في الأزمان القديمة:

كانت أحوال الجزيرة في الدهور الماضية تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة المياه والخصب عمّا هي عليه الآن. ولما كان لتلك الأحوال الماضية وتغيرها تأثير عظيم في العلاقات بين الجزيرة وبين الأقطار المجاورة من الشرق الأدنى، وكانت ذات صلة بنشوء الحضارات الأصلية في أنحاء الشرق الأدنى وبهجرات الأقوام كما مرّ بكم في تأريخ العراق، فيحسن بنا أن نذكر شيئاً موجزاً عمّا وجده البحث الحديث بالنسبة إلى أحوال الجزيرة الماضية وما طرأ على تلك الأحوال من تغييرات وتقلّبات أساسية. فقد أجمع الباحثون على أن الجزيرة كانت خصبة كثيرة المياه والأمطار في العهد الجيولوجي المسمى «البلايستوسين» وكانت كذلك حتى العصر الحجري المتأخر تقريباً. وإنها كانت تختلف عن حالها الآن بل كانت من أخصب بقاع الأرض وأغناها، وقد وجد الباحثون، ومن بينهم «فيلبي» محاراً من نوع المياه العذبة وأدوات من الصوان في جزء الربع الخالي الذي مرّ به. ويعتقد أن تاريخ هذه الآثار يرجع إلى الأزمان التي كانت فيها الجزيرة تتمتع بالخصب والمياه الدائمة في عصور ما قبل التاريخ البعيدة، في العصور الحجرية القديمة. وقد وجد فيلبي في الربع الخالي بقايا بحر واسع، هو السهل المنخفض المسمى الآن «أبو بحر». ويشبه بعضهم مناخ الجزيرة في الدهور الجيولوجية السابقة ولا سيما في دهر «البلايستوسين» بمناخ الهند الآن بالنسبة إلى كثرة المياه والرطوبة. وذكر السيّاح المحدثون جملة من قيعان الأنهار اليابسة في الجزء الجنوبي من

الجزيرة، وتدل بقايا الحيوانات التي وجدت هناك على أن أصلها أفريقي وتشير إلى مناخ رطب يشبه مناخ أفريقيا الحار في زمن قديم جداً. ويصادف هذا الزمن المشار إليه آخر عصر جليدي في أوروبا لعله قبل (20,000) سنة عندما كانت أوروبا وأمريكا الشمالية تغطيها الثلوج وغير مأهولة بالإنسان . فعند ذاك كانت الجزيرة تتمتع بالعصور الممطرة (Pluvial Periods) وتزدهر فيها الحياة.

ومن الأمارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه فيها في الأزمان الخوالي:

(1) الوديان الكثيرة المنتشرة.

(2) وجود قيعان بعض البحيرات والبحار المندرسة كالبحيرة اليابسة، قرب تيماء وبقايا البحر المسمى «أبو بحر» الذي وجده فيلبي في الربع الخالي.

(3) خرائب المدن الموجودة هنا وهناك في تيماء وغيرها.

(4) ثم إن الرمال الكثيرة وما فيها من ترسبات الأملاح والمياه الملحة الكثيرة كل ذلك يربط أراضي الجزيرة بأحوال بحرية.

(5) وإلى هذا كله فقد وجدت آثار العصور الحجرية في الجزيرة.

هجرات الأقوام من الجزيرة إلى بقاع الشرق الأدنى:

لا شك في أن يكون المفتاح في تاريخ العلاقات بين الجزيرة وبين بلدان الشرق الأدنى هو فيما ذكرناه سابقاً من الجفاف الذي حلّ في الجزيرة منذ نهاية آخر العصور الجليدية وما زال في الازدياد والتغيير الدوري منذ ذلك الحين. والواقع أن جميع المنطقة المحيطة بالجزيرة تقاسي الآن من قلّة المطر (ومن ذلك مصر والعراق وحتى إيران) بحيث تصير الحياة عسيرة خارج مناطق الأنهار والجداول أي مناطق الإرواء الصناعي. فإن الأعاصير الهابّة من الأطلسي التي تروي الآن شمالي أوروبا ووسطها لا تصل إلى منطقة البحر المتوسط إلّا في الشتاء، ولا تصل إلى كثير من المناطق الباقية مثل منطقة

الصحارى. ومع وصول شيء من الأعاصير الممطرة إلى العراق وإيران وحتى وادي نهر السند في الشتاء فإنها لا تصل إلّا وقد استنزف معظم مطرها بعد أن تمر بمرتفعات سوريا وفلسطين. وإلى ذلك التبدل الأساسي الذي حلّ في مناخ الجزيرة منذ نهاية العصور الجليدية، فإنها تعرّضت ولا تزال منذ ذلك الحين إلى أزمان دورية من الجدب والخصب القليل. ففي حالة الجدب تثور بلاد العرب كالبركان وتقذف بأمواج من القبائل الحربية السريعة إلى الأراضي التي تجاورها إلى الشمال الشرقي وإلى الشمال وإلى سوريا عبر الأردن وإلى أفريقيا، إذ مما لا شك فيه أن الساميين ساهموا كثيراً في تكوين سكان وادي النيل. والواقع أن الساميين يشبهون الحاميين من ناحية الأوصاف الجسدية وكذلك من الناحية اللغوية، ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن هجرات مهمة من الساميين ذهبت إلى مصر (في حدود الألف الرابع ق.م) فنتج منها ومن السكان الأصليين الحامين المصريون كما نعرفهم في التاريخ.

فتكون أقدم علاقات بين الجزيرة وبين أنحاء الشرق الأدنى ومن بين ذلك بلاد الرافدين هي الهجرات المستمرة التي تنزح من جزيرة العرب وتستوطن بقاع الشرق الأدنى، مدفوعة على الأغلب بدوافع الجدب والجفاف على ما بيّنا من قبل. وقد بدأت هذه الهجرات في أزمان موغلة في القدم، أي منذ نهاية العصور الجليدية ونهاية العصور الحجرية القديمة. ومما لا شك فيه كان مصدر جزء كبير من المستوطنين الأوائل الذين حلّوا في وادي الرافدين الأسفل من جزيرة العرب، وقد ساهم هؤلاء مع الأقوام الآتية من الشرق والشمال في إنشاء أولى الحضارات البشرية وهي الحضارة السومرية كما مرّ بنا من قبل. وعلى ذلك فيمتد تاريخ الهجرات البشرية إلى عصور ما قبل التاريخ. فإذا قلنا مثلاً إن أقدم هجرة تاريخية من الألف الرابع أو الثالث ق.م. فلا يعني أن تكون أولى الهجرات بل يعني ذلك الهجرات التي نعرف أخبارها من مآثر وادي الرافدين المدوّنة. ولا تزال النظرية القائلة بأن جزيرة العرب مهد الساميين تحتفظ بقوّتها وأرجحيتها كما ذكرنا من قبل. وبدأت هجرات الساميين المعروفة تاريخياً تطغى على الشرق الأدنى منذ منتصف الألف الرابع

أو الثالث ق.م. فأثرت في الشرق وطبعته بطابعها حتى الآن. وكانت أولى الدول المعظمة التي أنشأها الساميون في وادي الرافدين هي الدولة الآكدية التي أسسها سرجون الآكدي في حدود 2400 ق.م. وتفرد الساميون بالزعامة السياسية على الشرق الأدنى منذ بداية الألف الثاني ق.م. أي بعد زوال سلالة أور الثالثة التي كانت آخر دولة للسومريين، على ما بيّنا في تأريخ العراق القديم. ونزحت من الجزيرة هجرات مهمة إلى بلاد الشام وكوّنت ثقافات ودولاً خطيرة الشأن على ما سنرى في تأريخ بلاد الشام كالأموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين وغيرهم.

وإلى هذه العلاقات المستمرة الناشئة من هجرات الأقوام من الجزيرة التي بدأت منذ أبعد عصور التأريخ، فإننا نعرف اتصالات الجزيرة بأجزاء الشرق الأدنى ولا سيما وادي الرافدين قبل أن تبدأ الأخبار المدوّنة، فتنشأ العلاقات المدوّنة، فقد جلب سكان وادي الرافدين من بعض أجزاء الجزيرة بعض الأحجار والمعادن منذ عصور ما قبل التأريخ، فمن ذلك النحاس الخام من الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة في عمان (مجان في المصادر المسمارية)، وكان هذه الجزء مصدراً للنحاس في العصور التأريخية التي دوّنت أخبارها واستعمل العراقيون الأقدمون الحجر البركاني المعروف بالحجر الأوبزيدي، ومصادر هذا الحجر في الشرق من جزيرة العرب ومن أرمينيا ومن «ميلوس» إحدى جزر «إيجة». فتكون الجزيرة العربية على قدر عظيم من الأهمية باعتبارها مهد الساميين، ومصدر الهجرات السامية إلى الشرق الأدنى، مما كان له أثر بالغ في تأريخ أقطار الشرق الأدنى القديم والحديث، كما كانت الجزيرة مركز ثالث ديانة سامية عظمى في تاريخ الأديان، وانبثقت منها أعظم أمبراطورية من بعد تمكّن هذه الديانة كما أنها كانت مهد الثقافة العربية الإسلامية. وكان لمصر القديمة اتصالات مهمة بالجزيرة ولا سيما جنوبيها لجلب التوابل والبهار واللبان وما إلى ذلك من المواد العطرية والصمغية التي استعملوها في معابدهم وفي التحنيط. ومن الممكن تشبيه شبه الجزيرة بوتد كبير يقع بين أقدم موطنين حضاريين وهما وادي النيل ووادي الرافدين ومما لا

شك فيه أن تكون الجزيرة العربية قد تأثرت بهذين المركزين الحضاريين، كما اتصلت الجزيرة بالهند وبحضارة وادي السند.

موجز تاريخ الجزيرة القديم:

على الرغم من قلة المآخذ والمصادر بالنسبة إلى تأريخ الجزيرة التي تكاد تكون أرضاً بكراً من ناحية التحريات والبحوث الآثارية فإننا سنحاول أن نوجز بعض أخبارها الماضية معتمدين بالدرجة الأولى على أخبار العلاقات التي نشأت بين الجزيرة وبين دول العراق القديمة، وكذلك الأخبار اليونانية والرومانية، وعلى الوثائق الأصلية التي وجدت في بعض جهات الجزيرة نفسها وعلى نتائج التحريات الآثارية الحديثة[1] ونبدأ من ذلك بالجزء الجنوبي الغربي، في بلاد معين وسبأ أي اليمن تقريباً.

الجزء الجنوبي ـ معين وسبأ:

يختلف هذا الجزء من بلاد العرب عن غيره من الأجزاء من حيث كثرة المصادر والوثائق التأريخية التي جاءتنا منه بخلاف الأجزاء الأخرى التي يكون تاريخها مستقى بالدرجة الأولى من أخبار الأمم الأخرى ومن بينها الإشارات الواردة في مآثر الحضارات التي قامت في بلاد ما بين النهرين. ولكن مع كثرة النقوش الكتابية التي وجدت في بلاد العرب السعيدة (بلاد اليمن) من مآثر الدول التي قامت هناك، كدولة معين وسبأ فإن هذا الجزء من بلاد العرب لا يزال بحاجة إلى بحث الباحثين ولا سيما المنقبين ولا تقتصر أهمية ذلك على تاريخ الجزيرة وحضارتها الغابرة بل تاريخ الشرق الأدنى بأجمعه، فقد اتصلت الدول التي قامت في اليمن في بلاد سومر وبابل وآشور كما اتصلت بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم الأزمان.

وعلى الرغم من رجوع تاريخ النقوش المعينية وغيرها إلى بداية الألف

(1) انظر المراجع الخاصة بهذا الفصل.

الأول ق.م.، ولكن مما لا شك فيه أن حضارة قديمة عربية نشأت في اليمن ترتقي إلى أبعد من هذا التأريخ، فتحتوي تلك النقوش على إشارات مهمة إلى اتصالات مع البابليين ومع الكنعانيين والأموريين يرجع تاريخها إلى الألف الثاني ق.م. وقد ذهب بعض الباحثين إلى احتمال قيام مملكة عربية مهمة في بلاد معين امتدت إلى الحجاز. ولعلها كانت في ازدهار في زمن الآكديين في العراق وإن «نرام ـ سين» الفاتح الآكدي المشهور قد كانت له علاقات مع هذه المملكة. ولعل أهم طريق للاتصال هو الطريق الذي يقطع بلاد العرب عن طريق مكة وجبل شمر حتى يصل إلى بلاد بابل قرب بابل، وكان هذا هو طريق الحج للمسلمين الشرقيين. وهناك شعبة لهذا الطريق شمالية من ينبع والمدينة ويتّصل بالطريق الرئيسي في جبل شمر ويحتمل أن الاتصال بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد اليمن كان يجري عن طريق بحري أطول مسافة يأتي من «دلمون» (البحرين) في الخليج العربي إلى البحر العربي. ونحن نعرف أن طرق القوافل التجارية كانت تبدأ من «مريابة» (مأرب عاصمة سبأ) وتستمر شمالاً بموازاة البحر الأحمر تقريباً إلى تيماء. وكانت تيماء من المراكز التجارية المهمة في جزيرة العرب، وملتقى طرق تجارية مهمة فمنها تسير قوافل جديدة تسير في عدة طرق منها ما يتجّه شمالاً إلى البتراء ودمشق وتدمر وآخر يسير إلى سيناء فمصر، ويتجه طريق ثالث إلى العراق.

وإذا لم يكن بوسعنا أن نفصل الكلام عن الحضارة التي قامت في اليمن فإننا نذكر هنا بعض الأمور البارزة فمن ذلك رأي يخصّ علاقات الجزيرة بسائر بلدان الشرق الأدنى بوجه عام وبلاد الرافدين بوجه خاص، وهي هجرة الساميين من جزيرة العرب التي يرجّح بعض الباحثين أن مصدرها من الجزء الجنوبي من بلاد العرب، والواقع أن الحقائق التأريخية تشير إلى أن الدول التي قامت في اليمن، ولا سيما المعينيين والسبئيين قد أقاموا لهم مناطق تجارية ومقار مهمة امتدّت إلى شمالي الجزيرة، وشملت الحجاز وكان من أشهر ذلك تيماء والعلا وغيرها. ويرجّح أن أكثر السبئيين الذين ورد ذكرهم في المصادر المسمارية، هم السبئيون المنتشرون في هذه الجهات. ومما تجدر

الإشارة إليه أننا نجد صدى هذا الانتشار والتوسع في المآثر العربية حيث تعدد قبائل كثيرة خرجت من اليمن إلى بقاع الشرق الأدنى ولكنها تربط السبب في ذلك بحادثة سيل العرم المأثور.

ومن الأمور المهمة التي تخصّ الحضارات في هذا الجزء من بلاد العرب إن أغلب الباحثين يعتقدون أن العوامل التي سببت نشوء الحضارة في اليمن هي بالدرجة الأولى التجارة ولا سيما تجارة البهار واللبان وغيرها من التوابل. والواقع أن التجارة المذكورة التي اشتهرت بها بلاد اليمن والتي انحصرت أهميتها في الأزمان المتأخرة (ولا سيما منذ عهد السبئيين) لم تكن الكل في الكل في حضارات معين وسبأ وغيرها. بل إن العوامل الأصلية في نشوء تلك الحضارات كانت أساليب الري والسدود والسيطرة عليها واتساع الزراعة مما جعل مساحات كبيرة قابلة لسكنى البشر بمستوى عال من العيش. وبذلك تشبه الحضارة التي قامت في بلاد اليمن الحضارات الأولى الأصلية التي نشأت في وادي الرافدين وفي وادي النيل. هذا وقصة سد مأرب وما اشتهر به أهل اليمن ولا يزالون إلى درجة ما من اعتنائهم بتصريف المياه وخزنها واستغلال الأرض يؤيد هذا الرأي، ونجد صدى ذلك في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1].

إن النقوش الكتابية التي بدأت بالظهور في جنوبي الجزيرة منذ القرن التاسع عشر للميلاد على قدر عظيم من الأهمية التاريخية واللغوية. وهي تلقي ضوءاً كاشفاً على ديانة العرب في الألف الأول ق.م. وأقدمها النقوش المعينية التي تؤرخ عادة بالألف الأول ق.م. ولكن فيها إشارات مهمة إلى أدوار أقدم، ولا سيما الإشارات التي قلنا إنها تثبت وجود الاتصال مع بلاد بابل، ومع الأموريين والكنعانيين في الألف الثاني ق.م. والنقوش السبئية تلي المعينية في

---

(1) سورة سبأ، الآيتان: 15 ـ 16.

الزمن كما يرى أكثر الباحثين، وكلا النوعين من النقوش يدلان على قيام أربع ممالك متحضرة في الجنوب أقدمها معين ثم سبأ وحضرموت ومملكة «قتبان»[1]، ومعرفتنا بالمملكتين الأخريين أقل منها بالنسبة إلى معين وسبأ.

ومع اختلاف الآراء في تاريخ النقوش الجنوبية وتاريخ الدول التي قامت في الجنوب بعضها بالنسبة إلى بعض فالشائع عند الأكثرية أن دولة معين كانت أول مملكة ازدهرت في الجنوب لعله في حدود (1200 أو 1300 ـ 650 أو 700 ق.م)، ولكن الباحثين القدماء يضعون بداية المملكة المعينية في الألف الثاني وحتى في الألف الثالث ق.م. ـ غير أن الباحثين الآخرين يرون أن هذا التأريخ مبالغ فيه ويضعون لبداية الدولة المعينية التاريخ الذي أثبتناه. وقد ازدهرت دولة معين في جوف اليمن بين نجران وحضرموت، وشملت في عهد ازدهارها جميع جنوبي الجزيرة تقريباً، وامتد نفوذها إلى أجزاء الجزيرة الأخرى ولا سيما في الشمال والشمالي الغربي، وقد أثر المعينيون في هذا القسم كما تثبت ذلك النقوش الكتابية الثمودية التي ترد فيها أسماء الآلهة المعينية المهمة، وكما تشير إلى ذلك النقوش المعينية التي وجدت مع نقوش لحيانية في منطقة العلا الآن (وهي ديدان الواردة في التوراة). وقد وجد الباحثون في النقوش المعينية أسماء (26) ملكاً من ملوك معين. وكانت عاصمة الدولة المعينية «قرناو»، وهي الآن في الموضع الذي يسمى «معين» في الجزء الجنوبي من الجوف إلى الشمال الشرقي من صنعاء، وكان للمعينيين مدينة دينية مقدسة ورد اسمها في نقوشهم بهيئة «يثيل» وتمثلها الآن «براقش» إلى الشمال الغربي من مأرب.

وهناك قضايا مهمة في تاريخ معين ولا سيما ما يخص تأريخها بالنسبة

---

(1) لقد أجرت بعثة أمريكية أثرية بعض التنقيبات المهمة في وادي بيجان منذ 1949، وقد أظهرت نتائج التنقيبات أن نهاية دولة قتبان كانت في القرن الأول ق.م. وأن عاصمتها «تمنع» قد خربت بحريق هائل في حدود 50 ق.م. فأدمجت هذه المملكة بعدئذ في مملكة حضرموت. انظر حول ذلك:

W.F. Albright, «The Chronology of Ancient South Arabia» in BASOR No. 119 (1950).

إلى سبأ فمن الباحثين من يرى أنه لا يوجد في النقوش المعينية ما يسبق 800 ق.م. وأن مملكة معين كانت تُعاصر مملكة سبأ، ومن الأمور الغريبة أنه لم يأت أي ذكر للمعينيين في النقوش السبئية. وكذلك لم ترد عنهم إشارة في المصادر المسمارية، وقد ذهب البعض إلى أن المعينيين ظلوا إلى زمن الحميريين، وكان آخر ذكر لهم في 24 ق.م. ولكن البعض الآخر يرى أن الأوائل من الملوك السبئيين كانوا يعاصرون أواخر ملوك معين وأن السبئيين ورثوا مملكة معين وسلطانها.

وجاء في الكتابات المعينية عدد من الآلهة التي عبدها المعينيون وأشهر هذه الآلهة مجموعة من ثلاثة آلهة وهي: «أثتار» و«ود» و«نكرخ» وهذه أقدم آلهة عند المعينيين. وقد عيَّن بعض الباحثين الإلٰه «ود» بالإلٰه (القمر) (سين) أو (شهر) كما يسمى عند عرب الجنوب أحياناً، أما أثتار فهي شكل من أشكال الإلهة الشهيرة (عشتار) العراقية التي شاعت عبادتها في جنوبي الجزيرة وصارت هنا إلهاً مذكراً في أغلب الأحايين. أما الإلٰه الثالث فلا نعلم حقيقته ولا معناه وحتى ضبط اسمه ويرجّح بعضهم أنه الإلٰه الشمس أو إلٰه من آلهة الحرب. ومن المهم ذكره بهذا الصدد أن معبداً للإلٰه القمر قد وجد حديثاً في موضع في حضرموت يدعى حريضة، وقد نقب فيه المنقبون ووجدوا بعض النقوش الحضرموتية التي تشير إلى أنه معبد الإلٰه (سين) ويرجّح أن تاريخه يرجع إلى ما بعد القرن السادس ق.م. ومن الأمور المهمة التي لاحظها المنقبّون في المعبد أنه يشبه المعابد البابلية ولا سيما في اتجاه زواياه إلى الجهات الأربع وفي طراز مناضد الذبائح والقرابين، ووجد أن الخواتم التي عثر عليها في هذا الموضع ذات علاقة أساسية بخواتم بلاد ما بين النهرين.

وإذا ما أتينا إلى سبأ فنجد الحال يختلف فيها عن معين، إذ إن اسم سبأ وشيئاً عن أخبارها قد جاءتنا في آثار الحضارات الأخرى، ومن بين ذلك المصادر المسمارية والمآثر العبرية والعربية والإغريقية. وكان موطن السبئيين في جنوبي الجزيرة في الزاوية الجنوبية الغربية منها، وكانوا كالفينيقيين، بل هم

على حدّ تعبير بعض المؤرخين (فينيقيو البحر الجنوبي) فكانوا على معرفة تامة بطرق البحر العربي ومسالكه وموانئه ورياحه وتقلّباته، وقد طافوا سواحل الجزيرة. وكان الطريق البحري الرئيسي في البحر الأحمر يمر من باب المندب إلى وادي الحمامات في الساحل المقابل لمصر. ولكن لصعوبة الإبحار في البحر الأحمر التجأ السبئيون إلى سلوك طريق بري بين اليمن وسوريا يسير على طوال الساحل الغربي من الجزيرة فيصل عن طريق مكة إلى البتراء، ويتشعب في الشمال إلى مصر وسوريا والعراق. ويصل الفرع الذاهب إلى بلاد الشام إلى البحر المتوسط في غزة. ويخرج من حضرموت طريق إلى مأرب، عاصمة سبأ، حيث يتّصل بالطريق الرئيسي الذي ذكرناه وقد نشأ على طوال هذا الطريق جملة مستعمرات ومقار سبئية، يرجّح كثيراً أنها هي المشار إليها في المصادر المسمارية.

وكنا قد ذكرنا أمر اختلاف الباحثين في تاريخ معين بالنسبة إلى سبأ ولكن الشائع، كما ذكرنا، أن الملوك السبئيين الأوائل يعاصرون المتأخرين من ملوك معين، وأن السبئيين ورثوا عن المعينيين مملكتهم وسلطانهم، والذي عليه الآراء المعتدلة أن دولة سبأ تبدأ من 950 ـ 115 ق.م. وجرت العادة أن يقسم هذا التأريخ إلى دورين ينتهي الدور الأول منهما في 650 ق.م. وهو الدور الذي اشتهر بالملوك الملقبين بالمكربيين، وهو لقب له معنى ديني. ولكن الظاهر أن ملوك سبأ فقدوا صفتهم الدينية في الدور الثاني المحدد بـ 650 ـ 115 ق.م. واقتصروا في ألقابهم على (ملك سبأ) وصارت عاصمتهم في هذا الدور مأرب (مريابة)، إلى الشرق من صنعاء بحوالي 60 ميلاً، أما في الدور الأول فقد أقام ملوك سبأ حصناً منيعاً ورد ذكره بصيغة (صرواح) أو (صروح) وكان هذا على ما يرجّح عاصمته الأولى وموضعه الآن يسمى (خربة) على مسيرة يوم واحد إلى الغرب من مأرب. ومما يقال بصدد الدور الثاني من تاريخ سبأ أنه كانت تعاصر مملكة سبأ فيه مملكتان أخريان في الجنوب هما مملكة (قتبان) وحضرموت. وجاء اسم عاصمة المملكة الأولى بهيئة (تمنع) وعاصمة حضرموت (شبوه) وقد سبق أن ذكرنا ما اكتشفه المنقبون

حديثاً في حضرموت وهو معبد الإله القمر وعلاقة الآثار التي كشف عنها بحضارة وادي الرافدين. ومن الجدير ذكره عن مملكة (قتبان) أن أهم إله عبدوه هو الإله (عم) (من العم الذي يعني عمّاً أو قوماً)، و(عم) هذا من الآلهة السامية الغربية، ونجده يدخل في أسماء ملوك من السلالة الأمورية وهي سلالة بابل الأولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) مثل (عمي - صادوقا) و(عمي ديتانا) وحتى اسم حمورابي يدخل فيه اسم هذا الإله. وقد انتهى أمر دولة سبأ بقيام الدولة الحميرية (115 ق.م. ـ 300 للميلاد).

إن أقدم ذكر للسبئيين في المصادر المسمارية، على ما نعلم حتى الآن، هو ما ورد في أخبار الملك الآشوري (تجلاثبليزر الثالث) (745 ـ 727 ق.م) حيث يخبرنا أنه في السنة 732 ق.م. أخذ جزية من الملكة سمسي (ملكة العرب) التي حنثت بيمين طاعتها، ولكن رجع قومها السبئيون إلى الطاعة، وتشير أخبار هذا الملك إلى أنه مكن سلطانه على جزء من بلاد العرب، فقد ذكر لنا بعض القبائل والأقوام العربية ممّن دفع له الجزية. ومما يشير إلى نفوذ السبئيين في القسم الشمالي من الجزيرة أن اسم مكة مشتق من صيغة سبئية تعني (المزار) أو المعبد، وهي (مكورابا أو مكرابة) وأن هذه الصيغة السبئية لها علاقة باسم ملوك السبئيين (مكرب) وقد جاء ذكر مكة بهذه الهيئة في بطليموس (في جغرافيته).

إقليم ـ مجان (عمان):

لقد سبق أن ذكرنا اتصال بلاد ما بين النهرين مع الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة منذ أقدم العهود، وأن هذا الجزء كان مصدراً مهماً للنحاس منذ عصور ما قبل التأريخ واستمر كذلك في العهد السومري والعهود التي أعقبته. وكان أشهر مصدر للنحاس عند سكان العراق الأقدمين منطقة عمان التي ورد اسمها في المصادر السومرية بصيغة «مجان» (بالجيم الفارسية). وبوسعنا أن نعد الجزء الجنوبي الشرقي مركزاً خاصاً لحضارة عربية قامت هناك، ألصق ميزاتها أنها حضارة بحرية، كانت واسطة الاتصال بين مصر ووادي الرافدين

ووادي نهر السند، والواقع أن جزيرة العرب تبدو وكأنها وتد داخل بين المركزين الحضاريين في وادي النيل ووادي الرافدين، ومع أن جزيرة العرب لم تدخل ضمن النطاق الحضاري لكل من هذين الحضارتين إلا أنها تأثرت بكلتا الحضارتين، واتصلت بلاد العرب الجنوبية بمصر منذ أزمان قديمة، ولا سيما منذ عصر الأهرام، وكانت أشهر طريق برية تربطها بمصر هي الطريق الآتية من الجنوب من باب المندب.

وجاء ذكر مجان في المصادر المسمارية في أخبار الملوك الآكديين وبعض ملوك السلالات السومرية التي أعقبت العهد الآكدي. والذي عليه معظم الثقات من الباحثين أن (مجان) هي منطقة عمان اليوم، أي المنتهى الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب، ويجب أن لا يخلط اسم مجان مع معان، إحدى الواحات في شمالي الحجاز، التي هي الآن في شرق الأردن.

وكثيراً ما يرد اسم «مجان» في المصادر المسمارية مع موضع آخر هو «ملوخا». والذي يظهر من المصادر المسمارية أن سكان الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة كانت لهم علاقة وصلة بالسومريين، عدا الصلات التجارية، ويصدق ذلك أيضاً على المنطقة التي سماها السومريون «دلمون» وهي التي سبق تعيينها بمنطقة البحرين الآن.

ولعل أقدم إشارة وردت بخصوص «مجان» و«دلمون» من زمن مؤسس السلالة الآكدية «سرجون» الشهير. فقد ذكر لنا هذا الملك أنه جلب سفناً من ملوخا وسفناً من «مجان» و«دلمون» إلى ميناء عاصمته آكد. وهذا يشير إلى اشتهار «مجان» بصناعة السفن والملاحة، حتى يرجّح أن اسم الموضع كلمة سومرية مشتقة من السفينة (إما أن تعني أرض السفن أو ميناء السفن) لأن أهلها اشتهروا بالملاحة وصناعة السفن، وورد في أخبار الملك الآكدي «نرام - سين» حفيد سرجون، أنه غزا مجان وأخضع ملكها «مانيؤم».

ويحتمل كثيراً من أخبار الدولة الآكدية، أنه كان في «مجان» مملكة يبدو على حكّامها أنهم من العرب الساميين، كما يشير اسم الملك الذي ورد ذكره

في أخبار «نرام ـ سين» وكان غزو هذه المملكة إما براً بطريق قديم من بلاد بابل عن طريق جبل «شمر»، ويصل هذا الطريق إلى مكة وجدة، وكان لهذا الطريق شعبة شمالية من ينبع والمدينة ويتّصل بالطريق الأصلي في جبل شمر، أو بطريق البحر من فم الفرات إلى الخليج العربي إلى «دلمون» (البحرين) ثم مجان. وتصف الكتابات المسمارية «مجان» بأنها جبل النحاس، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المنطقة كانت من أهم المصادر للنحاس لسكان وادي الرافدين القدماء. هذا ولا يزال النحاس موجوداً الآن في الجبل الأخضر الذي ينبغي أن يكون ضمن مجان. ومن الأمور المهمة بصدد النحاس المجلوب من «مجان» أنه نوع من النحاس الخام فيه كمية من القصدير (والقصدير من الأجزاء المألوفة في تركيب النحاس الذي استعمله السومريون)، وقد حلّل بعضهم النحاس الموجود في الأناضول وفارس وقبرص وطور سيناء فوجده لا يحتوي على القصدير، وهذا مما يؤيد تعيين «مجان» بعمان، لأنه لا يزال يشاهد في جبل «المعدن» في عمان الآن آثار الحفائر القديمة لاستخراج النحاس. وقد وجد أن المعدن الموجود في هذه المناجم مخلوط بمعادن أخرى ويحتوي في الواقع 0,19% من القصدير. واشتهرت «مجان» كذلك بحجر الديوريت الأسود المشهور. ويرجّح كثيراً أن الديوريت الذي صنع منه ملوك العراق القديم التماثيل والأنصاب كان يجلب بالدرجة الأولى من «مجان».

وقبل أن نترك الكلام على «مجان» نذكر نقطة على غاية من الأهمية بصدد الأدلة على تعيين «مجان» السومرية بمنطقة «عمان» الحالية، وهو وجود موضع الآن في إقليم عمان، بين عمان والبحرين يسمى «ميجان» أو «مجان» (بالجيم الفارسية أي بنفس الصيغة السومرية). وقد ذكره السياح الأوروبيون، وتقع هذه المنطقة قرب الساحل (ساحل الخليج) في فم واد طويل يسمى وادي «شهبة». وهذا قاع نهر مندرس عظيم طوله زهاء (500) ميل يأتي من وسط نجد (خط الطول 44 شرقاً والعرض 25 شمالاً) ويصب في خليج فارس. ويمكن تحديد موضع «ميجان» بخط الطول 55 شرقاً وخط العرض 24

شمالاً، بنحو 450 ميلاً إلى الشمال الغربي من مسقط، وإلى الشرق من واحة «يبرين» الشهيرة بنحو 400 ميل. أما موضع (ملوخا) الذي سبق أن ورد ذكره مع «مجان» في المصادر المسمارية فلم يعين بعد بوجه التأكيد. ولعله قريب من مجان أو أنه بلاد الحبشة.

دلمون أو تلمون «البحرين»:

يطلق اسم البحرين عادة على جزيرة أو جملة جزر في الخليج العربي منها الآن جزيرة (أوال) وما يتبعها من الجزر. وقد أثبتت البحوث الحديثة على أن منطقة البحرين وجزءاً من الإحساء كانت تؤلف قطراً واحداً جاء في المصادر المسمارية باسم (دلمون) (أو (تلمون). وقد قامت في هذا الإقليم مملكة قديمة تكوّنت لها مع السومريين والبابليين والآشوريين علاقات متنوّعة منذ أقدم الأزمان، وقد جاءتنا أخبارها منذ منتصف الألف الثالث ق.م. واستمرّت إلى نحو 500 ق.م. وسيتضح من عرض موجز هذه الأخبار من المصادر المسمارية أن أمر تعيين دلمون أو تلمون بالبحرين يكاد يكون من الحقائق التأريخية المحققة. ومن الممكن تصنيف هذه الأخبار إلى صنفين، يشمل الصنف الأول منها المصادر التأريخية والتجارية كالعقود والصكوك والنصوص الفلكية، ويشمل الصنف الثاني الإشارات المهمة الواردة في الآداب السومرية، ولا سيما القصص والأساطير الدينية. ويتّضح من الصنف الأول من أخبارنا أن دلمون موضع جغرافي معين، ويظهر في الثاني أرضاً أسطورية غريبة عجيبة، بيد أن الصنف الأول هو الذي نستدل منه على تعيين (دلمون) بمنطقة البحرين. ولعلّ أقوى دلالة على هذا التعيين ما جاء في أخبار سرجون الآشوري (722 ـ 705 ق.م) حيث يذكر لنا هذا الملك أن ملك دلمون يعيش في وسط البحر الذي تشرق منه الشمس. وتذكر كتابة من زمن الملك الآشوري آشور بانيبال على أن دلمون وسط البحر الأسفل. وعبارة وسط البحر في كلا الخبرين تشير إلى الجزيرة وهو التعبير المألوف عن الجزيرة عند الآشوريين كما أن (البحر الذي تشرق منه الشمس) (البحر الأسفل) هو

التعبير المألوف عن الخليج العربي. وذكر لنا سرجون الآشوري أن المسافة إلى بلاد دلمون 30 (بيرو) و(البيرو هي الساعة البابلية وتعادل ساعتين من ساعاتنا)، وهي تعني عدد الساعات المقتضية للوصول إلى دلمون بطريق البحر من نقطة الشروع التي كانت بلا شك فم الفرات. فإذا قدرنا (5) أميال لما يقطعه القارب في الساعة، فتكون المسافة التي تقطع في (بيرو) بابلية زهاء (10) أميال، وتكون المسافة الـ (30 بيرو) المذكورة نحو (300) ميل، وهي بوجه التقريب بعد جزر البحرين عن أسفل الفرات. ومن الأمور المهمة في قضية تعيين البحرين بدلمون أن كتابة مسمارية وجدت في البحرين في عام 1879، ونصها: (قصر رموم عبد (الإله) (انزاك) رئيس قبيلة أجاروم). ويرجع زمن هذه الكتابة إلى العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م.، ولا سيما من نصفه الثاني)، أما الإله (انزاك) المذكور في هذه الكتابة فهو اسم الإله البابلي (نبو) حيث عبد وعرف بهذا الاسم في (دلمون). وإن ذكر الإله الخاص بدلمون في الكتابة المسمارية التي وجدت في دلمون ذو خطورة خاصة بتعيين البحرين بدلمون الواردة في المصادر المسمارية أما القبيلة الوارد اسمها بصيغة أجاروم فهو اسم قبيلة عربية قديمة، ويرجّح كثيراً أن هذا الاسم استمر في الاستعمال وصار (هجر) وهو اسم الإحساء في العصور الوسطى. وتوجد الآن قبيلة تعرف ببني هجر ديارها في شقة الأرض قبال البحرين.

لقد اشتهر تمر (دلمون) عند العراقيين الأقدمين وكثيراً ما ورد ذكره مع التمر الخاص بقطرين آخرين وهما (مجان) و(ملوخا). وجاء ذكر تمر دلمون في كثير من المصادر المسمارية منذ أقدم الأزمان في عصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م) ولعل مصدر تمر البحرين الذي اشتهر عند العراقيين من الواحات الواقعة في الجزيرة فيما يعرف الآن بالقطيف والهفوف. وكذلك اشتهرت الإحساء بالتمور الجيدة. ويذهب بعض الباحثين إلى أن أصل النخيل من جزيرة العرب.

ويرجّح كثيراً أن الساحل الشرقي من الجزيرة كان ضمن مملكة (دلمون)

كما تشير إلى ذلك كتابات سرجون الآشوري، وقد جاء في بعضها أنه (أخضع إلى سلطانه بيت ياكين في ساحل البحر المرّ إلى تخوم دلمون) ويعتقد كثير من الباحثين أن إقليم (بيت ـ ياكين) كان يمتد إلى جزيرة العرب. ولعله كان يشمل الكويت الآن أو جزءاً منه. وبإمكاننا أن نسمي الأقوام الذين عاشوا في البحرين والإحساء بالدلمونيين نسبة إلى (دلمون)، وقد نشأت منهم مملكة ازدهرت في الألف الثاني قبل الميلاد وكانت على اتصالات تجارية مستمرة مع السومريين والبابليين والآشوريين.

هذا ولا يبعد كثيراً احتمال أن منطقة البحرين من جملة البقاع التي يمكن اقتراحها مهداً للسومريين. ويرجّح كثيراً أن أصل (الدلمونيين) من الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة. وقد نشأت العلاقات بين العراقيين الأقدمين منذ عهد الحضارة السومرية الذي يطلق عليه اسم عصر فجر السلالات. فقد جاءتنا نصوص تاريخية من أواخر هذا العهد تشير إلى اتصال الملوك السومريين بهذه المنطقة ومن بينهم ملوك السلالة القديمة في لجش (تلو) في حدود 2600 ق.م. وغزا سرجون الأكدي مملكة الدلمونيين ويخبرنا أنه غنم منها ومن (مجان) (وملوخا) سفناً كثيرة، واستمرّت هذه العلاقات إلى العهد الآشوري الذي تعرض فيه الدلمونيون إلى حملات شديدة لضم مملكتهم إلى الأمبراطورية الآشورية. ومن الطريف ذكره بصدد العلاقات بين مملكة (دلمون) والآشوريين، أن سنحاريب بعد أن دمّر بابل عام 689 ق.م.، أراد ضم دلمون إلى أمبراطوريته ولكنه قبل أن يلجأ إلى إرسال الجيوش استعمل دعاية خبيثة لإلقاء الرعب في نفوس الدلمونيين، ذلك بأن أرسل إلى مملكتهم وفداً يحمل معه، عدا أمر الملك بالخضوع، رماداً من آثار الحريق الذي أحدثه في بابل، مشيراً بذلك إلى أن مصير الدلمونيين سيكون كمصير بابل إن لم يرضخوا. وقد فعلت هذه الدعاية أثرها إذ إن ملك دلمون أرسل إلى سنحاريب جزية وهدايا من الفضة، رمز الخضوع.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن جنة عدن المذكورة في التوراة ذات علاقة

وثقى بمنطقة دلمون. وإلى المصادر المسمارية التاريخية التي ذكرناها في تعيين البحرين بدلمون تساعدنا الإشارات الواردة في الآداب والأساطير السومرية. وتبدو (دلمون) في هذا الصنف من المصادر أرضاً غريبة ذات عجائب، فمن ذلك أن فيها آباراً وينابيع غريبة. وتوجد أسطورة عربية يتداولها سكان الجزيرة تشبه ما ذكره السومريون. ومن الأساطير التي تصف دلمون أسطورة عنوانها (أنكي وننخرساك) تبدأ بوصف أرض دلمون وصفاً تبدو فيه جنة كجنة عدن، أرض الخير والطهر، لأن الإلٰه أنكي وزوجه قد حلا فيها، ولكن هذا الفردوس الأرضي الذي فيه (لم يفترس الأسد ولم يختطف الذئب الحمل وليس فيه عجوز أو شيخ ولم يندب فيه أحد ولم يعرف فيه شر أو مرض) كان يعوزه الماء العذب فتضرّعت إلهة دلمون إلى (أنكي)، إلٰه (سومر) وإلٰه مدينة (أريدو) المقدسة أن يمنح مدينتها الماء العذب، فاستجاب دعاءها وأمر الإلٰه (شمس) أن يخرج الماء العذب من الأرض فتفجرت ينابيع المياه العذبة في دلمون.

وبالإضافة إلى القصة البابلية المشهورة بملحمة (جلجامش) التي ورد فيها ذكر الطوفان توجد قصة سومرية تتعلق بالطوفان كذلك وهي لا شك أصل الأسطورة البابلية. وعلى الرغم من أن هذه القصة السومرية ناقصة مخرومة في عدة مواضع إلا أن فيها إشارة مهمة إلى أرض دلمون وكونها موضعاً مقدساً. وتبدأ بخلق الإنسان والحيوانات وتأسيس المدن الخمس القديمة التي أنشئت، ثم حدوث الطوفان لإفناء البشر، ولكن ندم بعض الآلهة ولا سيما إلٰه (أريدو) (انكي)، فعزم على تخليص جنس البشر. فأخبر هذا الإلٰه نوح الطوفان السومري الصالح التقي أن ينقذ نفسه بأن يبني فلكاً، وبعد أن صنع الفلك حل الطوفان الذي عمّ الأرض ودام سبعة أيام وسبع ليال. وبعد الطوفان جوزي (زيوسدرا)، نوح الطوفان عند السومريين، بأن خلدته الآلهة وأسكنته في أرض دلمون. وإلى أرض دلمون ركب جلجامش الأسفار الطويلة وحجّ إلى جده كي يعلمه سر الخلود.

بلاد (باصو أو بازو) (نجد) وبلاد (حاسو) (الإحساء):

اتصل غير واحد من الملوك الآشوريين من العهد الحديث بأجزاء من جزيرة العرب، واتصلوا بالقسم الذي نبحث عنه الآن، وهو الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي، ومع ذلك فإن الملك (أسرحدون) امتاز عن غيره من ملوك الأمبراطورية الآشورية الثانية في أنه أوغل في حملاته الحربية إلى مسافات بعيدة في بلاد العرب، وقد وصف بعض هذه الأجزاء البعيدة وصفاً ينطبق على بلاد نجد، ويذكر موضعاً آخر هو الإحساء ويذكر أحدهما باسم باصو أو بازو وهو نجد على ما يرجّح والآخر (حاسو) وهو الإحساء.

ومما يجدر ذكره عن الإحساء أن تحريات أثرية قد أجريت في الإحساء في عام 1940 وكذلك في جزيرة البحرين ويوجد في الإحساء الآن ميناء صغير يدعى (العقير) توجد بالقرب منه، إلى جهة الشمال ـ الشرقي، خرائب قديمة يظن أنها موضع (الجرعاء) القديمة. وقد اشتهرت الجرعاء في العهد اليوناني والروماني (Gerrhae) بصفتها مركزاً تجارياً مهماً في الشرق، ويظن أن مستعمرين من بلاد بابل. هم الذين شيّدوا المدينة، واشتهرت بتجارة اللبان والبهار والبضائع الأخرى الآتية من جنوبي الجزيرة والهند وأفريقيا، حيث كانت طرق مهمة آنذاك تمرّ في خليج فارس وجزيرة العرب إلى الغرب. وقد حصلت الجرعاء على ثروة عظيمة من تجارتها وبولغ في تلك الثروة حتى قيل إن جدران المدينة وسقوفها كانت مزينة بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة. ووصف المؤرخ الروماني (بليني) المدينة أن محيطها يبلغ خمسة أميال وفيها أبراج من حجر الرمل. ووصف (سترابو) الجغرافي اليوناني أن تربتها كثيرة الأملاح وأن أهل المدينة يعيشون في بيوت مشيّدة من الملح. ولعل المقصود بذلك الحجارة المستخرجة من أراضيها الملحة السبخة المنتشرة هناك. وإذا صحّ ذلك فمن يدري لعلّ هذا هو السبب الذي صيّر من الجرعاء إحدى مدن الجزيرة الضائعة، وورد ذكر الجرعاء في أخبار الملك السلوقي (أنطيوخس) الثالث الذي عدل عن غزو المدينة بعد أن رضخت ودفعت الجزية.

مراجع مختارة

عن أحدث البحوث الآثارية في جزيرة العرب، وتأريخها القديم.

1. P.K. Hitti, **History of the Arabs** (5th edition).
2. Carl Rathjens G.H. Wissman, **Suedarabiens Reise** (1934).
3. C.M. Doughty **Travels in Arabia Deserta.**
4. T.E. Lawrence, **Seven Pillars of Wisdom.**
5. Alois Musil, **Northern Hijaz.**
6. Dietlef Nielsen, **Handbuch der Altarabischen Altertumkunde** vol. I (1927).
7. W.F. Albright **«The Chronology of Ancient South Arabia»** in BASOR, No. 119 (1950).
8. F. Stark, **The Southern Gates of Arabia** (1936).
9. G.F. Hourani, **«Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia», in JNES,** XI, No. 4 (1952).
10. D.E. O'Leary, **Arabia Before Muhammad** (1927).
11. J. Philby, **The Background of Islam** (1947).
12. **Bertram Thomas, Arabia Felix. Across the Empty Quarter** (1932).
13. **Beckingham,** «Some Early Travels in Arabia», **JRAS,** vol. 12 (1949).
14. **Bruce** Howe, «Two Groups of Rock Engraving from Hijaz» in **JNES, IX,** (1950).
15. **Ryckmans, Les Religions Arabes Pre-islamiques** (1951).
16. **Jamme, Le Pantheon Sued-arabe Preislamique in Le Muséom** LX (1947).
17. **The Biblical Archaeology** XV (1952).
18. **BASOR,** 119 (1950).
19. **R.B.** Serjeant; **«Materials for South Arabian History» in Bull. of the Sch. of Orient. andt Afr. Studies.** XIII.

20. Cornwall in the **National Geographical Magazine,** vol. 93 (1948).

21. BASOR, Nos. 120 (1950); 129 (1952).

22. F.V. Winnett, **«The Place of the Minaens in the History of Pre-Islmaic Arabia» in BASOR,** XIX (1939).

23. W.F. Albright, **«The Chronology of the Minaen Kings of Arabia» in BASOR,** No. 129 (1953).

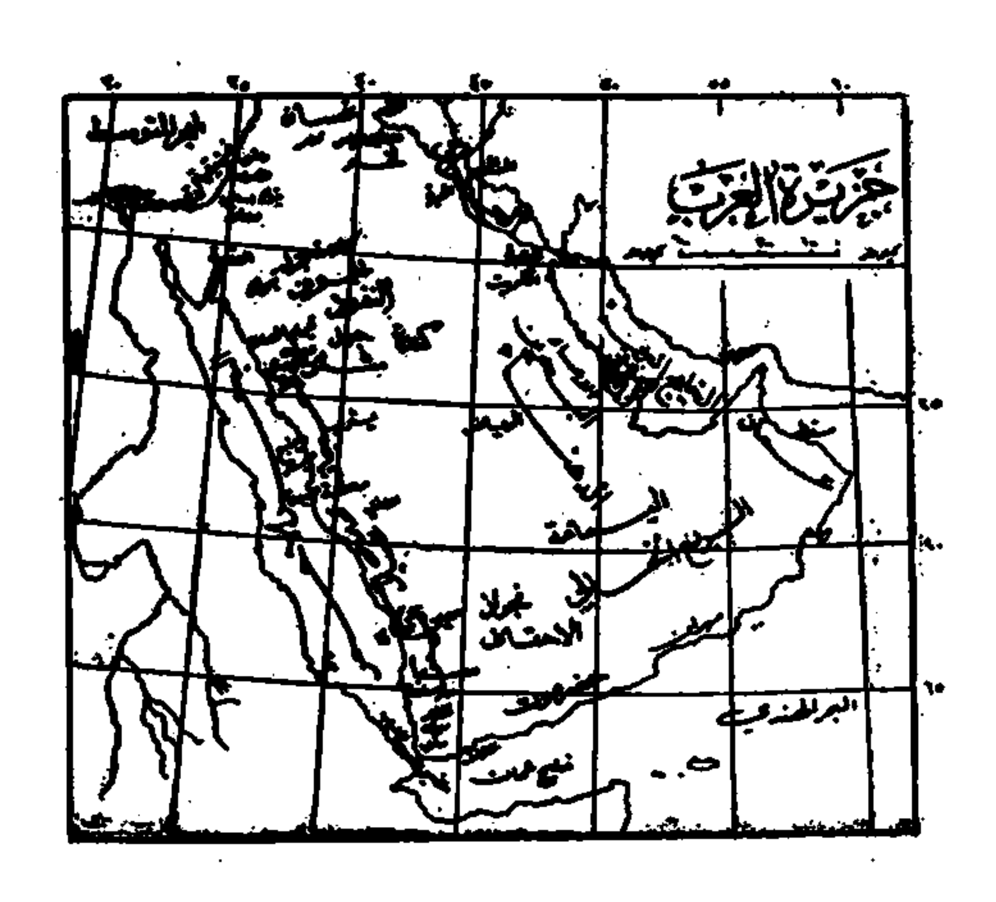
24. Mohammed Towfik, **Les Manuments de Main** (Cairo, 1951).

25. Ahmed Fakhri, **An Archaeological Journey to Yemen** (1947).

26. K.Y. Nami, **Les Monuments de Ma'in** (1952).

27. Van Beek, **«Recovering the Ancient Civilization of Arabia» in Biblical Archaeology,** vol. 15 (1952), 2 ff.

28. Rathjens in **Jahrbuch des Kleinasiatischen Forschung,** 1 (1950).



جزيرة العرب
البحر المتوسط
اليمامة
نجران
الأحقاف
البحر الهندي

الفصل السابع والعشرون

موجز جغرافية بلاد الشام
وعصور ما قبل التاريخ فيها

لقد فاتنا أن ننبّه الدارس للحضارات القديمة بوجه عام وحضارات الشرق الأدنى بوجه خاص على أمر مهم لفهم هذه الحضارات ومواطن نموها وانتشارها، ذلك هو ألّا يلتزم بالحدود الجغرافية السياسية الحالية، فإنها في الواقع حدود مصطنعة لا تمثل لنا مراكز الثقافات القديمة ولا سعة انتشارها واتصالاتها. ولعل أكثر ما يصدق هذا القول على تأريخ سوريا القديم وعلاقته بحضارات العراق القديم. ونحن نستعمل كلمة عراق مضطرين لشيوع هذا المصطلح، أما الواقع بالنسبة إلى الحضارات التي درسناها في كلامنا على العراق فهو أن نسميها بحضارة ما بين النهرين، ويدخل في ذلك ثقافات الأقوام التي قامت في بلاد الشام مما سنتكلم عنه في الصفحات الآتية، ويدخل فيها أيضاً أو يمتّ إليها بصلة قوية على الأقل ما يُعرف بالحضارة الحثية في بلاد الأناضول وشمالي بلاد سوريا. هذا وقد نوّهنا في كلامنا على العراق القديم[1] في صلات بلاد الشام الحضارية بحضارة وادي الرافدين، وكيف أن مراكز مهمة للحضارة السومرية قد قامت في مواطن شهيرة تدخل في سوريا بحسب حدودها السياسية الحالية مثل «ماري» (تل الحريري)، وشغر بازار وتل براك. وإذا جاز لنا لسهولة فهم التأريخ الإقليمي تقسيم تلك الحضارة بحسب الأقاليم الجغرافية بالنسبة إلى العراق وسوريا فلا يصح ذلك

---

(1) انظر الجزء الأول.

بالنسبة إلى سوريا أو بلاد الشام نفسها[1] أي لا يصح أن نلتزم بالتقسيمات السياسية المصطنعة الحالية كلبنان وشرق الأردن وفلسطين وإنما سنسير في عرضنا لموجز تأريخ هذه البلاد على اعتبارها إقليماً حضارياً واحداً بحسب الخطة التي وضعها الأستاذ «حتي»[2].

وقبل أن نبدأ بإيجاز عرض الأدوار الحضارية والتأريخية في بلاد الشام نمهّد لهذا العرض بذكر أبرز ما تمتاز به هذه البلاد من الصفات الجغرافية ليعيننا ذلك على فهم تأريخها.

ولعل أهم ما يميِّز جغرافية البلاد السورية أنها مؤلفة من بقاع واطئة ومناطق جبلية مرتفعة تتجه بوجه عامودي من الشمال إلى الجنوب، فيمكن تمييز خمس مناطق فيها بين البحر والبادية وهي ابتداء من البحر:

(1) الشقة الساحلية.

(2) منطقة جبلية (جبال لبنان الغربية).

---

(1) يجدر في هذا الصدد أن نورد بعض الملاحظات المفيدة عن اسم بلاد سوريا، تلخيصاً بالدرجة الأولى من كتاب «حتي» المشار إليه في الهامش رقم 2. فاسم سوريا (Syria) صيغة يونانية محوّرة عن أصل سامي قديم. فقد جاءنا اسم (SHRYN) في النصوص المكتشفة حديثاً في «أوغاريت» (رأس الشمرة) في حدود القرن الرابع عشر ق.م..

Cyrus Gordon, **Ugaritic Handbook** (1948, p.142).

واستعملت كلمة «سريون» في المصادر العبرية أولاً لإقليم «انتي لبنان» ثم أطلقت على الكل (انظر سفر التثنية 3: 9، المزامير 9: 6، حتي، ذات المصدر، ص 58). وسمى البابليون إقليماً في الفرات الأعلى باسم «سو ـ ري» و«سر ـ ري» (حتي. ذات المصدر، ص 74). واستعمل مصطلح سوريا منذ العهد اليوناني على جميع بلاد الشام وظل في الاستعمال إلى الأزمنة الحديثة. وسمى العرب هذه البلاد باسم «الشام» (أو اليسار أو الشمال) بالمقابلة مع «اليمن» (اليمين أو الجنوب) (وذلك بالنسبة إلى أهل الحجاز، كما يقولون اليد اليمنى واليد الشومى). وسنرى في كلامنا على الأموريين (وهم أولى الموجات السامية الكبرى في بلاد الشام) أن سكان العراق القدماء أطلقوا على بلاد الشام اسم «أمورو» (من السومرية مارتو) التي كانت ترادف الغرب عندهم أيضاً.

(2) انظر كتابه القيم الذي كان أهم مرجع لنا في تلخيص تاريخ بلاد الشام:

P. Hitti, **History of Syria** (1951).

(3) شقة منخفضة واطئة (مثل البقاع وطبرية الخ).

(4) منطقة جبلية ثانية، جبال «انتي» لبنان (جبال لبنان الشرقية، وجبل الشيخ الخ).

(5) البادية.

أما المنطقة الأولى وهي الشقة الساحلية فتمتد على الساحل الشرقي من البحر المتوسط من طور سيناء إلى خليج الإسكندرونة، وهي شقة ضيقة محصورة بين البحر والجبال، وتبلغ أكبر سعة لها في الشمال والجنوب، ولكنها تكون مجرد ممر غير متّسع في سفوح جبال لبنان، ففي بعض المواضع مثلاً لا تزيد سعتها على أكثر من أربعة أميال وأحياناً ميل واحد، ولكنها تبلغ عند عسقلان (عسقلون) زهاء عشرين ميلاً، كما أن ارتفاع الجبال بمحاذاة الساحل يكون في بعض المواضع ارتفاعاً حاداً عامودياً. ففي شمالي بيروت بقليل يحاذي السهل الساحلي الضيق (حيث عرضه نحو ميل واحد) سفح جبل يرتفع زهاء (2500) قدم، وعند مصب نهر الكلب[1] إلى الجنوب من الموضع الأول

---

(1) اسم نهر الكلب في المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) «ليكوس» أي الذئب (Lycus) والمعتقد أن منشأ تسميته بنهر الكلب من صورة كلب (أو ذئب؟) منحوتة وقد وضعت هنا لتحمي محل المرور من قرب هذا المرتفع الجبلي، وتروي الأساطير أن هذه الصورة كان يخرج منها عند اقتراب عدو صوت عال يسمعه الناس القريبون فيهبون للدفاع. ويقال إن هذه الصورة رميت في البحر في أوائل الفتح الإسلامي. وقد وجدت حديثاً في عام 1942 في القاع صورة ذئب، لعلها هي الصورة التي نشأت عنها الأسطورة، وهي الآن موجودة في المتحف الوطني في بيروت (حتي، ذات المصدر، ص 30، 134).

ويكاد يكون مصب نهر الكلب متحفاً للنقوش التأريخية التذكارية التي نقشها على جدران الحجر القائمة الملوك الغزاة من المصريين والآشوريين والبابليين في أثناء مرورهم من هذا الموضع الشهير. وقد سبق أن عددنا هذه النقوش بحسب تسلسلها التأريخي في الجزء الأول من هذا الكتاب، ولعل في تكرار ما ذكرناه ونقله هنا فائدة لمن لا يتيسر عنده الجزء الأول، فنذكرها بحسب تسلسلها التأريخي على الوجه الآتي:

كتابة الفرعون رعمسيس الثاني (1292 ـ 1225 ق.م)، وهي مكوّنة من ثلاثة نقوش مشوّهة غير واضحة.

=

بنحو ثلاثة أميال يلامس الجبل البحر ويدخل فيه، مكوّناً في هذا الموضع نقطة «استراتيجية» مهمة إزاء الأعداء. وفي الكرمل نجد أن لسان الجبل هنا قد أزال السهل الساحلي بحيث لم يترك سوى زهاء (2200) ياردة على الساحل. وتمتاز هذه الشقة الساحلية ببعض السهول المشهورة في العهود التأريخية وبخصبها وبأستقامتها وخلوّها من الخلجان باستثناء خليج الإسكندرونة.

وإذا ما تركنا هذه الشقة الساحلية إلى الشرق فنجد القسم الثاني من الأقسام الخمسة التي ميّزناها في بلاد سوريا، أي سلسلة الجبال والنجاد المرتفعة المطلة على الشقة الساحلية، وتبدأ هذه المرتفعات من جبال «أمانوس»(1) في الشمال وتمتد جنوباً إلى طور سيناء، وتكون سلسلة جبال لبنان الغربية بمثابة العمود الفقري لهذه المنطقة حيث تحيط به السهول والأراضي الواطئة المجاورة. إن هذه الشقة الجبلية تكون عائقاً للمواصلات لربط الساحل بالأراضي الشرقية الداخلية، وهو حاجز لا يوجد له منفذ إلّا في

= (2) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش الملك الشهير أسرحدون (671 ق.م).
(3) نقش الملك نبوخذنصر الكلداني.
(4) آثار نقش يوناني ممسوح.
(5) عدة نقوش رومانية للأمبراطور «كره كالا».
(6) نقش عربي لا يُعلم صاحبه.
(7) أزال الفرنسيون إحدى الكتابات المصرية ونقشوا في مكانها تذكار احتلالهم لبنان (1860 ـ 1861).
(8) نقش الجنرال غورو (Gauraud) وإلى جانبه نقش الجنرال «اللنبي».
(9) نقش يسجل تذكار جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1942).
(10) نقش لبناني لتخليد خروج الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان (1946).
(انظر: P. Hitti, Op. Cit., 134, F.H. Weissbach, **Die Denkmaeler und Inschriften an den Mündung des Nahrel-Kelb** (Berlin, 1922).)

(1) وقد جاء اسمه في المصادر العربية «اللكام» (بضم اللام وتشديد الكاف، من السريانية **أوكاما**، الأسود) وفي التركية «كاور داغي» (جبل الكفار)، لأنه كان يؤلف سدّاً حاجزاً إزاء البيزنطيين بالنسبة إلى الدول الإسلامية وجبل «أمانوس» فرع قصير أو طية تفرّعت جنوباً عن سلسلة جبال طوروس التي تفصل سوريا عن آسيا الصغرى.

نهايتيه المتطرفتين، عند خليج الإسكندرونة حيث ينفذ منه من سفوح جبال «أمانوس» إلى سهول ما بين النهرين، وفي خليج السويس حيث يؤدي إلى البحر الأحمر أو إلى الصحراء الغربية. وبين هاتين النهايتين لا يكسر هذا الحاجز إلّا في وادي النهر الكبير[1] شمال طرابلس، وفي سهل مرج ابن عامر[2] شرق عكا وحيفا. ويطوف أمانوس حول خليج الإسكندرونة مكوّناً حاجزاً بين سوريا وكليكيا، ويرتفع هنا زهاء (5000) قدم فوق مستوى البحر، ويشقّ حدّه الجنوبي نهر العاصي[3] عند مروره في طريقه إلى البحر، وتعبر الجبل طرق تؤدي إلى أنطاكية وحلب، وأكبر مجاز فيه مجاز «بيلان»[4]، المشهور باسم «الأبواب السورية»، وتستمر سلسلة أمانوس جنوب مصب العاصي حيث يتصل بها الجبل «الأقرع»[5] الأجرد الذي يرتفع زهاء (4500) قدمٍ ويمتد إلى قرب اللاذقية[6] حيث يعرف باسم جبال النصيرية[7] إلى أن ينتهي في النهر الكبير الذي ينبع من هذه الجبال ويكون الآن الحد بين لبنان وسوريا كما أنه يحدّ هذه الجبال عن جبال لبنان[8]، أي لبنان الغربي (تمييزاً

---

(1) وهو النهر الوارد اسمه في المصادر الكلاسيكية باسم «ايلو ثيروس» (Eleutherus).

(2) وهو سهل يزرعيل (Esdraelon) الوارد ذكره في التوراة.

(3) «أورونتس» (Orontes) في المصادر الكلاسيكية.

(4) وباسم (Belian) و(Pylae Syriae) في المصادر الكلاسيكية.

(5) وهو جبل كاسيوس (Casius) في المصادر الكلاسيكية.

(6) (Laodicea) وهو اسم أم سلوقس المشهور حيث سُمّيت خمس مدن باسمها.

(7) واسمها في المصادر الكلاسيكية (Bargylus)، ولعل الاسم العربي مأخوذ من اسم محمد بن نصير من الكوفة (القرن الثالث للهجرة) من أتباع الإمام الحسن العسكري. ومن أسماء هذه الجبال «البهراء». وقد اشتهرت هذه الجبال بأنها كانت من بين المعاقل التي اعتزّ بها الحشاشون الذين كانوا في سوريا، وكذلك استوطنتها فرقة النصيرية المتفرعة عن المذهب الإسماعيلي ولا تزال خرائب بعض القلاع من عهد الصليبيين قائمة في مرتفعاتها.

(8) اسم لبنان مشتق من المادة السامية «لابن» (أي أبيض، صار أبيض) ومنشأ التسمية على ما هو واضح من الثلوج التي تتوجّ قمم الجبال طوال ستة أشهر من السنة، ويكون الثلج في بعضها طوال السنة كلها.

لها عن جبال لبنان الشرقية، انتي لبنان). وجبال لبنان الغربية أهم جزء في هذا القسم الثاني من أقسام البلاد السورية الذي نتكلم عنه، وتمتد جبال لبنان الغربية من النهر الكبير إلى القاسمية شمال صور (حيث المجرى الأسفل من نهر الليطاني بين صور وصيدا ويسمى نهر القاسمية) أي مسافة نحو (105) أميال. وهي جبال شاهقة جليلة تبلغ أعلى قمة فيها (المعروفة باسم القرنة السوداء) زهاء (11024) قدماً فوق البحر، وبجوارها الموضع الجبلي المعروف باسم «ظهر القضيب» الذي يقل عنها زهاء (100) قدم، حيث توجد بقايا الأرز القديمة[1] التي اشتهر بها لبنان، ثم تأتي منطقة جبل «صنين» الشامخ المطل على بيروت وخليجها، وهو أوطأ من ظهر القضيب بنحو (100) قدم أيضاً. وتتألف صخور لبنان من طبقتين عليا وسفلى من الأحجار الكلسية (Limestone) تتخلل ما بينهما طبقة من الحجارة الرملية (Sandstone) ويتراوح ثخن الطبقة الكلسية العليا من بضعة مئات من الأقدام إلى ثخن خمسمائة آلاف قدم، وهذه الطبقة العليا التي تميّز لبنان في مشاهده ومناظره، كما أن ما يحدث فيها من تحات (Erosion) ينتج التربة الخصبة للزراعة، وحجارتها صالحة للبناء. وتتخلل مياه الأمطار هذه الطبقة إلى أعماق بعيدة إلى طبقة الحجارة الرملية والطينية حيث تستقر المياه ويتكوّن منها الينابيع الشهيرة التي تفيض بالحياة والخير على المنحدرات والوديان.

وتُعدّ فلسطين من الناحية الجغرافية الجيولوجية استمراراً أو امتداداً

---

(1) يرى الجيولوجيون أن موضع الأرز هذا يحدد نهاية «ثلاجة» جليدية في عصور ما قبل التأريخ، والمعروف أن العصور الجليدية الحقيقية لم تحدث هنا كما حدثت في أوروبا الشمالية وأمريكا الشمالية، ولكن شدة البرد الهائلة في تلك العصور قد ولدت في لبنان وفي مواضع أخرى من الشرق الأدنى «ثلاجات» محلية (Hitti, Op. Cit., 34) حول جيولوجية لبنان وتكوين هذه الجبال وتأريخ الأقاليم المجاورة. انظر:

(1) G. Zumoffen, **Géologie du Liban** (Paris, 1926).

(2) Louis Dubertret et al, **Contributions à l'étude géologique de la Syrie Septentrionale** (Paris, 1933).

جنوبياً من لبنان من ناحية امتداد الشقة الساحلية السهلية حيث تتصل بسهل «شارون» الممتد من الكرمل إلى جنوب يافا بقليل حيث يتصل بالساحل الفلسطيني، كما أن القسم الجبلي (وهو القسم الثاني من البلاد السورية) من لبنان يستمر من بعد موضع قطع نهر القاسمية له، إلى مرتفعات جبال الجليل العليا وكذلك سلسلة المرتفعات الواطئة التي يطلق عليها اسم منطقة الجليل السفلى، وتبلغ جبال الجليل العليا في الجرمق (شمال صفد) ارتفاعاً قدره (3955) قدماً وهو أعلى نقطة في جبال فلسطين، وترتفع الجليل السفلى قرب الناصرة زهاء (1843) قدماً، ثم تقطع المنطقة المرتفعة من فلسطين بسهل مرج ابن عامر الذي يفصل منطقة الجليل في الشمال عن منطقة التلال الجبلية التي تكون إقليم السامرة ويهوذا في الجنوب. وتشتهر السامرة بتلالها ووديانها، وأشهر جبالها الجبل الشمالي (المسمى ايبال بالعبرية) وجبل «جرزيم» وهو جبل السامريين المقدس. ومن مرتفعات يهوذا جبل «يطا» (Juttah) (يوطة المذكور في التوراة) (الذي يرتفع 3847 قدماً)، وأورشليم (التي ترتفع 2550 قدماً)، ثم تنحدر منطقة يهوذا إلى أرض متموّجة إلى «بير سبع» (بير شيبا في التوراة) حيث المنطقة المعروفة باسم النقب (Negeb) الذي يعني في العبرية (الأرض اليابسة اللافحة). والجدير بالذكر عن هذه المنطقة الجبلية من الناحية الأثرية كثرة الكهوف فيها منها ما هو في لبنان وفي جبل الكرمل حيث عثر الباحثون في عدد منها على آثار الإنسان وبقاياه العظمية من أقدم عصور ما قبل التأريخ (العصور الحجرية القديمة) مما سننوّه به فيما بعد.

والقسم الثالث من الأقسام الخمسة من البلاد السورية مؤلف من السهول المنخفضة مثل (البقاع)، وهو سهل ضيق يبتدىء شمالاً من المنعطف الشمالي لنهر العاصي حيث يكون سهلاً عريضاً نوعاً ما هو سهل «العمق»[1]، ويستمر السهل إلى حماه ولكنه يرتفع هنا إلى نحو 1015 قدماً فوق البحر، وفيما بين

---

(1) وقد ورد ذكر هذا السهل في المصادر الآشورية باسم «اونقي» (Luckenbill, Ancient Records of Assyria G Babylonia, 1. 769. 821).

جبل لبنان الغربي والشرقي (لبنان وانتي لبنان) نجد السهل المشهور المعروف باسم البقاع الذي يستمر جنوباً خلال الأردن إلى البحر الميت ومن ثم يمتد في خلال العربة (العرابة) إلى العقبة، وهي اللسان الشرقي من البحر الأحمر. وينحدر هذا الوادي الغريب في تكوينه الجغرافي بانخفاض عجيب، ففي الحولة لا يترفع عن البحر سوى سبع أقدام، ولكنه يكون عند بحيرة طبرية تحت مستوى البحر بـ 685 قدماً وفي البحر الميت 1292 قدماً تحت مستوى البحر. ويختلف سهل البقاع[1] في عرضه من 6 ـ 10 أميال، ويرتفع بالقرب من بعلبك نحو 2770 قدماً فوق البحر، ويوجد في القرب من هذا الموضع محل تقسيم المياه حيث يتّجه من هنا العاصي ويأخذ مجراه شمالاً ويجري الليطاني[2] جنوباً. والعاصي والأردن هما النهران الكبيران في بلاد الشام (باستثناء الفرات الذي يمرّ من سوريا الشمالية). أما الليطاني فإنه يكاد يكون متمماً لمجرى العاصي وهو ينعطف غرباً[3] في مجراه الأسفل، ويمر من خلال الطبقة الحجرية الكلسية ويعرف هنا باسم «القاسمية» حيث يصب في البحر بين صور وصيدا. وسهل البقاع خصب التربة وموضع مراع جيد. أما وادي الأردن (ويعرف الأردن بغور الأردن ونهر الشريعة كما يسمى أيضاً في المصادر العربية) فيبلغ طوله زهاء (65) ميلاً، ويتراوح عرضه بين 3 ـ 15 ميلاً، ويفرغ مياهه في البحر الميت، وهو بحيرة مياهها شديدة الملوحة والمرارة، وتحتوي على كميات كبيرة من «البرومين» والبوتاس وكلوريد المنغنيز وتوجد قربه مناجم

(1) البقاع جمع بقعة أو بقيع أي «متجمع المياه الراكدة»، وقد ورد ذكره في المصادر اليونانية والرومانية باسم (Coele-Syria) (أي سورية الغور) ولكنه كان يدخل ضمنه في الأزمان اليونانية والرومانية مناطق أخرى مثل حوران وشرقي الأردن. كما يرجّح كثيراً أن اسم بعلبك مأخوذ من كلمة «بعل البقاع» أي سيد أو ربّ البقاع، من اسم الإله «بعل».

(2) (Leontes) في المصادر الكلاسيكية.

(3) توجد عند منعطفه قلعة صليبية تسمى الآن باسم قلعة الشقيف. (شقيف أرنون الذي لعله محرّف عن أرنولد). (وهي قلعة بيلفورت) (Belfort) التي تشرف على الطريق الجبلي من دمشق إلى صيدا وتتحكم فيه.

غنية من الحجارة الجيرية والقير كما توجد أيضاً مثل هذه الحجارة في «حاصبيا» في السفح الجنوبي الغربي من جبل الشيخ.

إن هذه المنطقة الثالثة تتميز أيضاً بوجود البراكين، كما تدل على ذلك مناطق الأحجار البركانية «اللابة» الكائنة شرقي جبل الشيخ وجنوب دمشق، كالحرة. كما أن تأريخ بلاد الشام لم يخل من الزلازل، فقد أصاب أنطاكية الكائنة في النهاية الشمالية من الإقليم كثير من الزلزال، حتى أنها خربت ما لا يقل عن عشر مرات في خلال القرون الستة الأولى قبل المسيح[1]، كما توجد آثار الاضطرابات الزلزالية في جدران معبد الإله الشمس في بعلبك والقلاع الصليبية في سوريا، كما قاست صور وصيدا كثيراً أيضاً، وقد وقع زلزال عنيف في عام (1822) حوَّل حلب ومدناً أخرى ركاماً.

وتكون سلسلة الجبال الشرقية القسم الرابع من أقسام البلاد السورية، حيث يبدأ ارتفاعها جنوب حمص وتكون مقابلة في ارتفاعها وفي طولها تقريباً لجبال لبنان الغربية، حيث تعرف باسم جبال «انتي لبنان» (لبنان الشرقي)، ثم تبدأ بالانحدار من جبل الشيخ[2] إلى نجد حوران، الذي تحادده منطقة التلال في الجولان[3] حيث تستمر في شرق الأردن بمرتفعات جلعاد وتتصل بنجد موأب وإقليم «أدوم» (سعير) جنوب البحر الميت. ويقسم مجرى نهر بردى[4] هذه المرتفعات الشرقية (انتي لبنان) إلى قسمين متميزين، قسم شمالي[5] يمتاز

---

(1) انظر: E.C. Semple, The Geography of the Mediterranean Region (1932), p.42. المشار إليه في حتي ذات المصدر ص 40.

(2) (Hermon) وذكر أيضاً في التوراة باسم «سريون» (Serion) (في المزامير 29: 6، وسفر التثنية 3: 9)، وذكر في بعض المصادر العربية مثل المقدسي «أحسن التقاسيم» باسم «جبل الثلج».

(3) من العبرية «جولان» (بلفظ الجيم كافاً فارسية، ومعناه الدائر أو الدائرة، أو المحيط)، وفي المراجع الكلاسيكية باسم «كولنيتس» (Gaulanitis).

(4) واسمه القديم «ابانه» (كما ورد في التوراة مثلاً)، وينبع من جبل الشيخ أيضاً النهر المسمى «الأعوج» (فرفر القديم) بالقرب من دمشق جنوباً.

(5) وقد سمى البلدانيون العرب هذا الجزء باسم «سنير» (انظر ياقوت مثلاً).

بأن جانبه الغربي أجرد عديم القرى والسكنى، وقسم جنوبي أشهر مرتفعاته جبل الشيخ الذي يعدّ من أعلى مرتفعات سوريا (زهاء 9383 قدماً)، وهو عكس القسم الأول مزدهر بالسكنى والقرى في سفوحه الغربية. ويمتاز لبنان الشرقي بوجه عام بقلة أمطاره مما جعله أقل استيطاناً من جبال لبنان الغربية. ويأتي نهر بردى من قرب الزبداني ويجري شرقاً ويروي قسماً مهماً من أراضي الشام التي لولاه لأصبحت جرداء، وبضمن ذلك منطقة دمشق وما ازدهر فيها من عمران وحضارة. إذ إنه بعد أن يمر من غوطة دمشق الشهيرة ويسقي جنانها الفياحة (مما جعل العرب يسمون دمشق بالفيحاء) يتفرع منه خمسة جداول لإرواء شوارع دمشق ودورها حيث تقسيم مجاري مياهها وتوزيعها الذي يرجع في أصله إلى العهد الأموي. ويمتاز سهل «حوران»[1] بأنه مكوّن من صخور بركانية من حجر البازلت وتربته خصبة، وتنتشر حقول الحجارة البركانية (اللابة) في جنوب دمشق (عند الموضع المسمى بالتلول) وتشمل رقعة واسعة تبلغ زهاء ستين ميلاً (طولاً وعرضاً)، ويحدّ هذه المنطقة من جهة الشمال الشرقي صخور اللجأ ومن الجهة الجنوبية الشرقية المنطقة الجبلية المسماة جبل حوران أو جبل الدروز (ومعدل ارتفاعه 4000 ـ 5000 قدم). إن إقليم حوران خال من الأشجار ولكنه منتج للغلة كثيراً وفيه مراع جيدة، وتدلّ البقايا الأثرية في هذا الإقليم التي تبدأ من عصور ما قبل التأريخ إلى العهد الروماني والبيزنطي على أهمية هذه البقعة الزراعية، حيث لا تزال بقايا الطرق والحصون والقنوات والخزانات من العهود الرومانية. وتمتد هذه البقعة البركانية إلى الجهة الجنوبية الشرقية وتتصل في خلال بادية «الحماد» بالبقع البركانية الحجازية المعروفة بالحرات (جمع حرة).

وتؤلف بادية الشام القسم الخامس من الأقسام الجغرافية التي ميّزناها

---

(1) لقد ذكر في التوراة باسم «باشان» وفي المصادر الآشورية باسم «حورانو» وفي المصادر الكلاسيكية باسم «أورانيتس» (Auranitis) وهو السهل الواسع في شرق الجولان وغرب اللجأ وجبل الدروز.

في بلاد الشام، حيث تتصل نجاد حوران الشمالية الشرقية، وشرقي الأردن بمناطق السهوب (Steppes) والحرات والرمال، ثم بادية الشام الكبرى التي هي امتداد لصحراء بلاد العرب الكبرى وتفصل بلاد الشام عن العراق كما أنها تفصل أيضاً ما بين طرفي الهلال الخصيب الشرقي والغربي، ويُعرف القسم المحاذي للطرف الشرقي من الهلال أي العراق باسم بادية الجزيرة (أي بادية ما بين النهرين)[1]، والقسم الجنوبي من هذه البادية يعرف باسم بادية العراق (أو السماوة). ويعرف القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام باسم الحماد وهو مكوّن من رمال وأحجار ويكثر فيه العشب والكلأ في فصل الربيع. وتؤلف البادية الشامية ـ العراقية رقعة شاسعة على هيئة مثلث تستند قاعدته في خليج العقبة من جهة الغرب وعلى خليج الكويت من جهة الشرق ويمتد رأسه إلى جهة حلب في الشمال، ويبلغ أكبر عرض له نحو (800) ميل، وهي موطن البدو الذين يتاجرون مع الحضر، وعلاقتهم التأريخية والعرقية (العنصرية) مع أقاليم الهلال الخصيب تمتد إلى أبعد العصور، فهم أهم مصدر لسكانه على ما رأينا في تأريخ العراق القديم وعلى ما سنرى من الهجرات السامية الكبرى في كلامنا على تأريخ بلاد الشام.

ويتميز مناخ البلاد السورية التي أجملنا صفتها الجغرافية بمواسم مطرها ومواسم جفافها، فهناك فصل ممطر يبتدىء تقريباً من منتصف تشرين الثاني إلى نهاية آذار، ثم يعقبه فصل الجفاف طيلة أيام السنة الأخرى، وصفة المناخ هذه مما يميِّز أغلب إقليم البحر المتوسط. وبالإمكان تقسيم بلاد الشام من ناحية النباتات والأشجار إلى ثلاث مناطق، فتتميز الشقة الساحلية وسفوح الجبال الغربية بنوع النباتات الخاصة بسواحل البحر المتوسط، كالأشجار الدائمة الخضرة، وغلّتها الأساسية القمح والشعير والذرة وهي الحبوب الأساسية التي زرعها الإنسان في العصر الحجري الحديث في ربوع الشرق الأدنى، وتكثر فيها أشجار الزيتون والتين والكروم منذ الأزمان القديمة، وفي الأزمان

(1) (Mesopotamia).

المتأخرة أدخلت زراعة التبغ (كما يشتهر تبغ اللاذقية في العالم) والموز وأشجار الحمضيات كالليمون والبرتقال الخ، ودخلت زراعة قصب السكر من الشرق منذ الفتح العربي. وتتألف المنطقة الثانية من أعالي جبال لبنان الغربي والشرقي حيث تقتل شدة البرودة فيها الأشجار والنباتات مما ينبت في المناطق المعتدلة ولا يمكن أن يعيش فيها سوى الأشجار القوية كالأرز والصنوبر ولا سيما في لبنان الغربي، حيث يكون لبنان الشرقي أجرد تقريباً بالمقارنة مع المنطقة الجبلية الغربية. وتتميز المنطقة الثالثة المؤلفة من السهول والبقاع ومن النجاد الشرقية بين لبنان الغربي والشرقي بشدة حرارتها وتناقص أمطارها مما يجعلها شبيهة بمناطق السهوب من ناحية قلّة أشجارها باستثناء الشجيرات والأدغال والعوسج، كما أن الأعشاب فيها موسمية، ولما كان العاصي والأردن يجريان في واديين عميقين فلا يفيدان في الإرواء إلّا قليلاً، ويعوض ذلك نجداً شرقي الأردن وحوران حيث تكثر فيهما الأمطار المساعدة على إنبات الغلة والكلأ، وتشتهر حوران بغلات الحبوب بحيث كان مخزن الغلال السورية منذ العصور القديمة.

أثر سوريا في التاريخ والعوامل المؤثرة فيها:

إذا أضفنا إلى الصورة التي كوّناها عن بلاد الشام مما مرّ بنا من وصفها الجغرافي موقعها الجغرافي بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى، فنستطيع أن نكوّن صورة كاملة عن المسرح الذي تكوّنت فيه حوادث تأريخ سوريا، ولعل أول ما يلفت إليه النظر في موقعها الجغرافي أنها في موقع سوقي مهم، فهي تصل ما بين ثلاث قارات تأريخية (آسيا وأفريقيا وأوروبا)، وإلى هذا الوضع السوقي نذكر الظروف التأريخية التي أحاطت ببلاد الشام منذ أقدم عصور التأريخ من وقوعها ما بين حضارتين عظيمتين: حضارة وادي الرافدين من الشرق وحضارة وادي النيل إلى الجنوب، مما جعلها ملتقى التأثيرات الثقافية المنبعثة من هذين المركزين الحضاريين، كما أن نشوء هاتين الحضارتين الأصليتين منذ تأريخ متطاول وضغطهما على البلاد السورية (سواء كان ذلك من الناحية العسكرية أو

الثقافية) كان من العوامل المهمة التي عملت على عدم نشوء حضارة أصلية[1] في سوريا من أطوار عصور ما قبل التأريخ فيها على غرار ما حدث في وادي النيل ووادي الرافدين. وإنما نشأت فيها حضارة فرعية أو عدة ثقافات فرعية على ما سيتّضح لنا ذلك فيما بعد. وإلى هذه التأثيرات الثقافية فإن موقع سوريا الجغرافي جعلها معرضة إلى الغزو ومرور الجيوش منها على الدوام، فقد سبق أن رأينا ذلك من تأريخ وادي الرافدين وتأريخ مصر، وكيف أن هذه البلاد دخلت في حوزة الأمبراطورية المصرية منذ القرن الخامس عشر ق.م.، ثم من بعد ذلك تعرّضت إلى ضغط الآشوريين الهائل وإلى غزو البابليين والفرس والمقدونيين والرومان الخ.

وتعرضت البلاد السورية في موقعها الجغرافي والتأريخي إلى التأثيرات المختلفة من الأقوام الهندية الأوروبية في جزر إيجه واليونان والرومان ومن البر تأثرت أيضاً بفارس والهند. ولعل أخطر التأثيرات التي كوّنت تأريخها وطبعته بطابعه الخاص موقعها المحادد (من جهة الشرق والجنوب) إلى مهد الأقوام السامية فكانت محطاً لهجرات البدو الساميين منذ أقدم العهود، فإذا صحّ كونها موضع ملتقى الحضارات وبوتقة انصهار الثقافات فإنها كانت أيضاً بوتقة انصهار الحضارة والبداوة. وسنرى من كلامنا على أدوار تأريخ بلاد الشام أن حصة هذه البلاد من موجات الأقوام السامية كانت أعظم من حصة أي من أقطار الشرق الأدنى التي هاجر إليها الساميون، وبوجه خاص وادي الرافدين، فقد جاءت إليها خمس هجرات مهمة.

---

(1) لقد سبق أن نوّهنا بالمقصود من الحضارة الأصلية جرياً على تعريف الباحث الشهير «توينبي» لها، حيث قلنا إنها الحضارة التي تنشأ مباشرة من الأطوار البدائية في عصور ما قبل التأريخ، وأحسن مثال على ذلك حضارة وادي الرافدين الأولى وحضارة وادي النيل. أما في سوريا فيبدو لنا من كلامنا على أدوار تأريخها أنه نشأت فيها ثقافة فرعية أي مدنية متأثرة بالحضارتين السالفتي الذكر وهي الحضارة السورية أو السريانية (كما سمّاها توينبي) التي نشأت منذ منتصف الألف الثالث ق.م.

(انظر كتاب توينبي (A Study of History) وترجمته إلى العربية من جانب المؤلف.

ولهذه الصورة التي تبدو فيها سوريا وهي متأثرة بالحضارات والثقافات والأقوام الخارجية وجه آخر تظهر فيه سوريا بدورها وهي مؤثرة أثراً مهماً في تأريخ الحضارات البشرية. ولما كنا سنقف على هذه التأثيرات المنبعثة من سوريا في كلامنا على تأريخها فنكتفي هنا بذكر أمثلة بارزة على هذه التأثيرات، فنذكر من ذلك مثلاً كونها مهد نشوء ديانتين ساميتين، وهما الديانة اليهودية والمسيحية وأثرهما البالغ في تأريخ العالم جميعه، وننوّه أيضاً بأثر بعض الأقوام التي استوطنت سوريا كالكنعانيين والفينيقيين من مساهمتهم في الحضارة البشرية عن طريق نشرهم عناصر الحضارة بين شعوب العالم وعلى رأس ذلك نشرهم الحروف الهجائية، وكونهم على ما يرجّح أول من اكتشف المحيط الأطلسي، ونذكر الآراميين أيضاً وأثرهم الكبير في تأريخ الشرق الأدنى من الناحية اللغوية والخط الهجائي. وكان ينبغي علينا أن نذكر الأموريين (أول الأقوام السامية في سوريا)، وكيف أنهم أثّروا في تأريخ حضارة الرافدين، فقد رأينا من تأريخ العراق القديم كيف أنهم أسسوا سلالة في العراق ، فكأن بلاد الشام صارت بدورها مهداً للهجرات السامية الثانوية إلى جهات الشرق الأدنى. وسيتضح من تلخيصنا لتأريخ بلاد الشام في العهد الهلنستي مساهمتها المهمة في الحضارة اليونانية الرومانية، حيث زوّدت سوريا العالم الهلنستي بعدد مهم من أعاظم المفكرين والشعراء والأدباء. وأخيراً وليس آخراً ينبغي التنويه بدور بلاد الشام في نشوء الحضارة العربية الإسلامية وسير تأريخها.

مصادر تأريخها وأدوار هذا التأريخ:

سوف لا نطيل الكلام على المصادر الأساسية التي تستند إليها معرفتنا بتأريخ بلاد الشام إذ يمكن إجمال ذلك بقولنا إنها بالدرجة الأولى من التنقيبات والبحوث الآثارية الحديثة التي كشفت لنا عن فصول مهمة من تأريخ هذه البلاد مما قبل العهد اليوناني والروماني والعربي، منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ حيث عرفتنا بسكنى البشر في العصور الحجرية وفي عصور ما قبل

التأريخ الأخرى التي تلت العصور الحجرية، والعهود التأريخية المهمة التي تمثلها لنا آثار الأموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والأنباط. وأنه حتى في الأدوار التي تكثر عنها المصادر المدوّنة المعروفة سابقاً، كتأريخ العبرانيين وعلاقاتهم مع الأقوام السورية المختلفة مما جاءت أخبارها في التوراة، والمصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) والمصادر العربية الإسلامية، نقول إنه حتى في هذه الأدوار المتوفرة فيها مصادر البحث فإن التنقيبات في المواضع الممثلة لها قد أنارت لنا جانباً مهماً منها حيث مخلفات الحضارة المادية وفنونها ونواحيها المهمة الأخرى. ولما كنا سنشير إلى مراجع البحث الخاصة في كلامنا على الأدوار المختلفة فإننا ننهي هذه الملاحظة عن مصادر التأريخ السوري بذكر نوع آخر من المصادر المهمة تلك هي ما ورد في الأخبار المدوّنة مما جاءنا من حضارتي مصر والعراق بالدرجة الأولى.

إن هذه المصادر التي عددنا أنواعها قد مكّنت الباحثين المحدثين أيضاً من تمييز الأطوار المختلفة المتميزة في تأريخ بلاد الشام وضبط تسلسلها التأريخي. ونذكر هذه الأطوار بحسب تسلسلها التأريخي منذ أقدم عهود ما قبل التأريخ على الوجه الآتي[1]:

أدوار التاريخ الرئيسة في بلاد الشام:

أولاً: عصور ما قبل التأريخ:

1 ـ العصر الحجري القديم بأدواره المختلفة.

2 ـ العصر الحجري الوسيط.

3 ـ العصر الحجري الحديث.

4 ـ العصر الحجري المعدني.

(1) انظر: (Hiti, Op. Cit., 57 ff.)

ثانياً: العهود السامية: (في حدود 2400 ـ 538 ق.م)

1 ـ الأموريون.

2 ـ الكنعانيون ـ الفينيقيون.

3 ـ الآراميون.

4 ـ العبرانيون.

5 ـ عهد دويلات الأنباط والساميين المتأخرين الآخرين.

ثالثاً: العهد اليوناني ـ الروماني (الهلنستي): من فتح الإسكندر (333 ق.م) إلى الفتح العربي (633 ـ 640 م).

رابعاً: العهد العربي الإسلامي[1]: من الفتح العربي في القرن السابع للميلاد إلى الفتح التركي (1516 م).

خامساً: العهد العثماني: وقد انتهى في الحرب العامة الأولى.

---

(1) ذكر هذان العهدان إتماماً للفائدة وسوف لا يدخلان في موضوع بحثنا.

عصور ما قبل التأريخ

تنتهي عصور ما قبل التأريخ في بلاد الشام في زمن متأخر عن بداية عهد التدوين في حضارتي وادي النيل ووادي الرافدين، فبعد زمن ما من اختراع الكتابة في هاتين الحضارتين وانتشار استعمالها في التدوين انتقلت بعدئذ طريقة التدوين إلى بلاد الشام. والمعروف تأريخياً أن سوريا لم تقتبس الكتابة الهيروغليفية وإنما أخذت الخط المسماري من حضارة وادي الرافدين. ولعله من الممكن تحديد نهاية عصور ما قبل التأريخ في بلاد الشام في حدود منتصف الألف الثالث ق.م. ويسبق هذا العهد عصور ما قبل التأريخ الموغلة في قدمها إذ إنها تبدأ من العصر الحجري القديم، لعله منذ (200,000 ـ 150,000).

العصر الحجري القديم:

ونبدأ في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ بذكر ما أسفرت عنه التحريات الأثرية عن آثار استيطان الإنسان في أولى هذه الأطوار، أي في العصر الحجري القديم[1]. ومما يقال في هذا العصر في سوريا بوجه خاص كثرة التحريات المهمة التي تمّت في جملة مواضع ولا سيما عدد من الكهوف في لبنان وفلسطين وفي مواضع مكشوفة في بادية الشام (ولا سيما بالقرب من

(1) يحسن بالدارس أن يراجع ما ذكرناه عن العصور الحجرية في تأريخ العراق، إذ إن الكثير مما جاء عنها ميزات عامة عن هذه العصور في الشرق الأدنى.

الرطبة) مما جعل معرفتنا بهذا العصر وبأطواره المختلفة وأشكال البشر الذين عاشوا فيه أكثر منها بالنسبة إلى جهات الشرق الأدنى الأخرى. فمن هذه الكهوف الشهيرة في لبنان كهف في منتصف الطريق تقريباً بين صور وصيدا (واسمه عدلون) وفي كهوف نهر إبراهيم ونهر الكلب وكهف «أنطلياس»[1] حيث وجدت آثار العصر الحجري القديم من نصفه الأول الذي أغلب ما يميز بصنع آلات الصوان من لب الحجر مما يعرف باسم (Core flint industry) كما نذكر كهف جبل الكرمل الذي نقبت فيه «دوروثي گارود» و«بيت»[2] ومواضع أخرى في شمال غربي البحر الميت وشمالي غربي بحر الجليل ووجدت فؤوس حجر يدوية من أدوار هذه العهود في مواضع أخرى في عقيق نهر الأردن، جنوب جسر بنات يعقوب[3]، كما وجدت آثارها أيضاً في رأس الشمرة (أوغاريت القديمة).

أما بقايا الإنسان العظمية من النصف الأول من العصر الحجري القديم فلم يعثر بعد على نماذج لها، ولكن مما لا مراء فيه أن تكون من نوع الإنسان العتيق البائد (Palaeoanthropic) الذي عاش في مثل هذه الكهوف التي عددناها لحمايته عن الأمطار والبرد القارس واتقاء شر الحيوانات المفترسة. وقد عاشت أنواع من الحيوانات انقرض معظمها، كحيوان الرنة (الرنديز) (Rhinoceros) وفرس الماء وبعض الحيوانات الشبيهة بالفيل. وكان المناخ مختلفاً عمّا هو عليه الآن بشدة برده القارس، إذ إنه مع عدم تقدم طبقات الجليد (الثلاجات) إلى سوريا الجنوبية إلا أن المناخ كان قارساً من أثر العصور الجليدية التي عمّت أوروبا، أما في الشرق الأدنى فكان على ما ذكرنا

---

(1) انظر بحث ذلك في المرجع الآتي:

G. Zumoffen, **La Phénicie Avant les Phéniciens** (Beirut, 1900).

ومجلة (**Anthropos**, III (1906), 431 ff.

(2) Dorothy A.E. Garrod G.D.M. Bates **The Stone Age of Mount Carmel** (Oxford, 1937).

(3) انظر المجلة التي تصدرها دائرة الآثار في فلسطين.

The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, VI (1936), 214 ff.

سابقاً يقابل مثل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة (Pluvial Period). وإذا انتقلنا إلى النصف الثاني من العصر الحجري القديم فتكثر لدينا الهياكل البشرية العظمية، كما وجدت في كهوف جبل الكرمل مثل «مغارة الطابون» و«مغارة السخول»[1] وفي كهوف أخرى حيث وجدت معها آلات من النوع المسمى بالمستيري (Mousterian) (من حدود 100000)، أما أنواع هذه الهياكل فبعضها شبيه بإنسان النياندرتال وبعضها يقرب من نوع الإنسان الحديث (Hamo Sapiens) ولعلها تكون حلقة الاتصال في تطور الإنسان من النوع العتيق البائد إلى نوع الإنسان الحديث وقد سمي هذا النوع بإنسان «فلسطين». وكان الإنسان لا يزال يعيش في الكهوف، واستعمل أسلوباً جديداً في صنع أدوات الصوان حيث استعمل الشظايا بعد هندمتها آلات له. وتوجد في جامعة بيروت الأمريكية نماذج ممثلة لآثار العصور الحجرية القديمة. وهناك أمارات على تبدّل في المناخ حدث في أواخر العصر الحجري القديم في بلاد الشام، من الرطوبة إلى الجفاف، ويسمى الطور الأخير من العصر الحجري القديم في أوروبا باسم الطور «الأورغنيشي» الذي وجد ما يضاهي أدواته وآلاته في الكهوف القريبة من بيروت مثل كهوف نهر الكلب وكهف أنطلياس[2]، كما وجدت حديثاً (1938) في كهف يسمى «كسار العقيل»[3] قرب أنطلياس مع هياكل عظمية.

العصر الحجري الحديث:

قبل أن ينتقل الإنسان في سوريا إلى العصر الحجري الحديث انتقل من العصر الحجري القديم إلى فترة فاصلة بين الطورين سبق أن أشرنا إليها في

---

(1) انظر: Garrod G Bates, Op. Cit., chaps. 4-7.

(2) انظر مجلة «الكلية»، مجلد 12 (1926).

(3) انظر مجلة المشرق (1947) ص 74 فما بعد وانظر أيضاً:

J.F. Ewing, «Aurignacian Man in Syria», in Amer. Jour. of Physical Anthropology IV, (1946), 252 ff.

تأريخ العراق القديم باسم العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) الممثل في بلاد الشام أحسن من غيرها من أقطار الشرق الأدنى (من حدود 10,000 ق.م) حيث أطلق عليه الباحثون اسم الدور «النطوفي»، كما وجد في فلسطين في الموضع المعروف باسم «وادي النطوف» (شمال غربي القدس) في كهف اسمه «الشقبة» نقّب فيه في عام 1928 ووجدت له آثار أخرى ممثلة في مواضع أخرى في فلسطين[1] حيث يقدر بأنه دام إلى حدود 6000 ق.م.، ويميز من الناحية الأثرية بدقة أدوات الصوان من ناحية صغر حجمها مما يعرف باسم (Microlith). ووجدت مناجل من الصوان في هذا العهد ولكن استعمال الإنسان لها في حصد الحبوب المزروعة أمر غير مؤكد. واستطاع الإنسان في نهاية هذا العصر (أي العصر الحجري الوسيط) من تحقيق ما أسميناه بالانقلاب العظيم في حياة الإنسان، في تعلمه الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار الساذج، وتوجد في ديار الشام أنواع من الحيوانات صالحة للتدجين، كما يوجد الشعير والقمح على هيئة وحشية برية في شمالي سوريا[2]. وعلى نحو ما رأينا في كلامنا على العصر الحجري الحديث في وادي الرافدين كانت زراعة الإنسان في هذا العصر محدودة أي بمقياس صغير وأكثر ما تتّصف بإنتاج الاكتفاء الذاتي، كما أن الإنسان لم يستقر استقراراً دائمياً، إذ كان يتنقل من موضع لآخر كلما استنفد خصب شقة الأرض التي يزرعها، وزرع الإنسان إلى جانب القمح والشعير بعض الحبوب الأخرى كالذرة، وتعلم من بعدئذ زراعة أشجار الأثمار والعناية بها على هيئة بساتين، كما بدأ الإنسان في بعض أنحاء سوريا يسكن في بيوت من الطين كما يدل على ذلك نماذج بيوت الطين التي عثر عليها في أثناء التنقيبات في «أريحا» (في فلسطين) وفي الجديدة ورأس الشمرة (أوغاريت القديمة)[3]، ووجدت قرى أخرى من العصر

---

(1) D.A.E. Garrod in **the Palestine Exploration Fund** (1928).

(2) P. Hitti, **Op. Cit.**, p.16.

(3) Garstang, **The Story of Jericho** (London, 1940); C.F. Schaeffer, **Ugaritica** (Paris, 1939), 3 - 4.

الحجري الحديث في سوريا مثل جبيل، وسنعود فنذكر مثل هذه المواضع في كلامنا على العهد الذي أعقب العصر الحجري المتأخر، وهو العهد الذي أطلقنا عليه اسم العصر الحجري المعدني، لأن آثاره الممثلة قد وجدت في هذه المواضع وفي مواضع أخرى في لبنان وسوريا وفلسطين وهي تقوم فوق آثار القرى الصغيرة من العصر الحجري الحديث.

العصر الحجري المعدني:

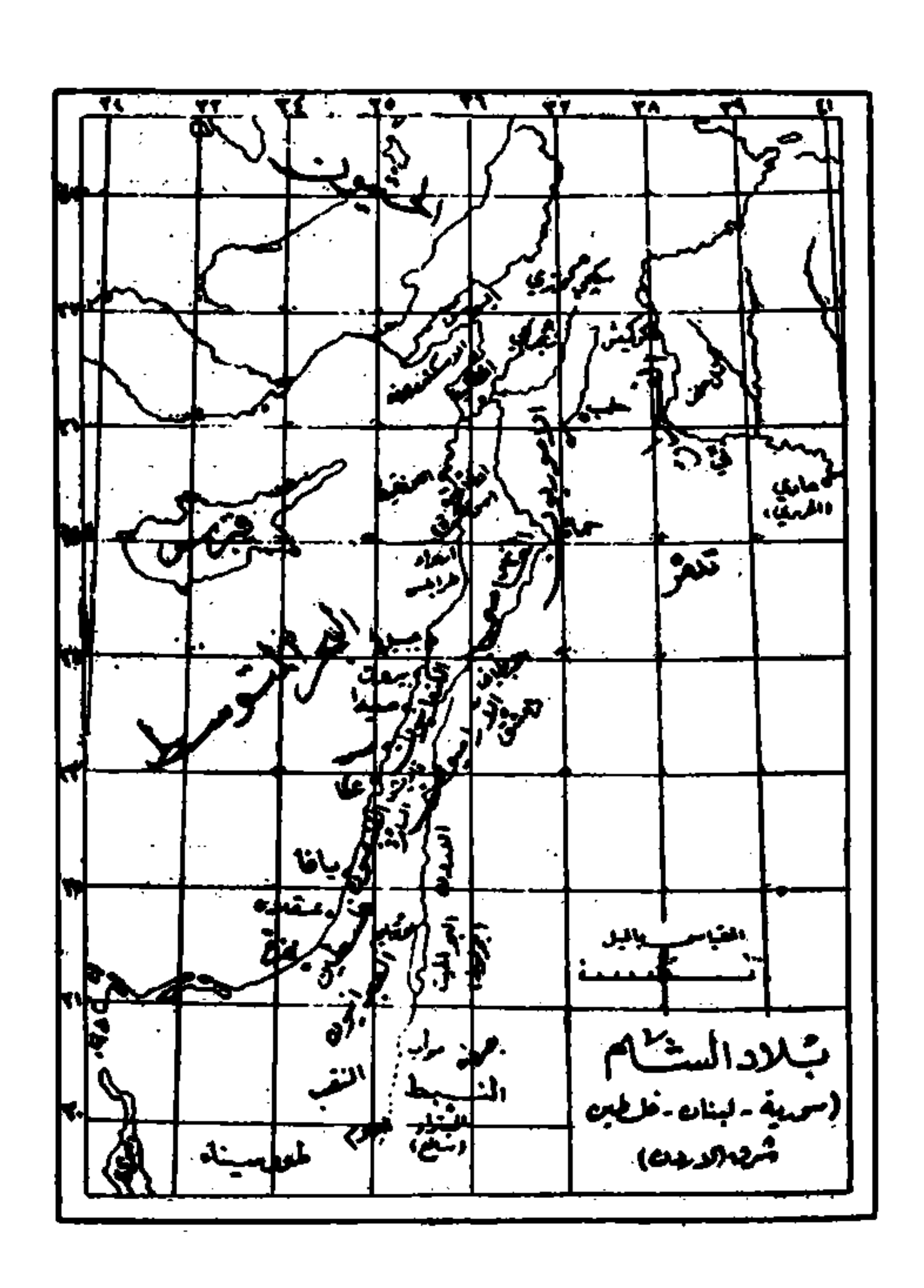
بما أننا سبق أن ذكرنا ميزات العصر الحجري المعدني في كلامنا على العراق فلا نكرر ذلك إلا بأن نذكركم بأن أهم ما يميز هذا العهد من حيث التقدم الحضاري بداية معرفة الإنسان باستعمال المعادن ولا سيما النحاس، ثم البرونز، ولكن الإنسان في جميع أنحاء الشرق الأدنى بوجه عام لم يستغن عن الحجر في صنع أدواته وآلاته المهمة، وهذا هو منشأ مصطلح العصر الحجري المعدني (Calcholithic)، ومن الخصائص المهمة التي تميز هذا العهد من الناحية الآثارية الأواني الفخارية الملونة الجميلة التي عمّت صناعتها جميع أنحاء الشرق الأدنى، والجدير بالذكر بهذا الصدد أن الطور الذي سميناه باسم «حلف» في العراق المتميز بأواني الفخار الدقيقة الصنع الملونة بعدة ألوان إنما اشتق اسمه من اسم تل حلف (گوزان القديمة) في سوريا على الخابور حيث اكتشفت آثار الطور المميزة لأول مرة[1]، ووجدت أيضاً في جهات أخرى في سوريا مثل رأس الشمرة وفي العراق مثل الأربجية وتل بلا وغيرها وفي وادي الأردن في الموضع المعروف باسم «تليلات الغسول» (بفتح الغين وتشديد السين)[2]، أما عهد العصر

---

(1) Von Oppenheim, **Der Tell Halaf** (Berlin, 1943).
Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 110 ff. 217 ff.

(2) يقع بنحو 5,5 كم شرق الأردن. وقد نقبت فيه في عام (1929 ـ 1932) بعثة آثارية من المعهد التوراتي في روما (The Pontifical Biblical Institute).
انظر: A. Mallon et al, **Teleilàt Chassul** II (Rome, 1934), Robert Koeppel, **Teleilàt Chassul**, II (Rome, 1940); Childe, ibid, 229 - 230.

الحجري المعدني في بلاد الشام فقد استغرق الألف الرابع ق.م. تقريباً، وأعقب طور هذا الموضع (أي حلف) بداية استعمال البرونز في بلاد الشام كما وجدت آثاره في جملة مواضع وبوجه خاص في «مجدو» وأريحا حيث اتسعت القرى وأصبح بعضها مدناً صغيرة محصنة بأسوار. وعندما نصل إلى نهاية هذا العهد في بلاد الشام نكون قد وصلنا إلى عهد نضج الحضارة الراقية في وادي الرافدين حيث تغلغلت تأثيراتها في بلاد الشام، كما يدل على ذلك نشوء جملة مواضع تمثل الحضارة السومرية مثل «ماري» (تل الحريري). وهذه هي العهود التي سنتكلم عنها الآن.


بلاد الشام
(سورية - لبنان - فلسطين
شرقي الأردن)
البحر المتوسط
قبرص
تدمر
يافا
النقب
النبط
طور سيناء

الفصل الثامن والعشرون

الأقوام السامية في بلاد الشام
الأموريون والكنعانيون والفينيقيون

1 ـ الأموريون[1]:

يمثل لنا استيطان الأموريين في بلاد الشام أولى الهجرات السامية الكبرى في هذه البلاد وهي الهجرات السامية التي أطلق عليها الباحثون اسم الأقوام السامية الغربية ولغاتها «اللغات السامية الغربية» تمييزاً لها عن الكتلة الشرقية التي تمثلها اللغة الآكدية وفروعها البابلية والآشورية في العراق واللغات العربية الجنوبية. أما سكان بلاد الشام قبل مجيء أولى الهجرات السامية إليها في الألف الثالث ق.م. أي في عصور ما قبل التأريخ التي تكلمنا عنها في الفصل السابق فلا نعرف عنهم حقائق مؤكدة على الرغم من العثور على كثير من الهياكل العظمية، ولكن المرجّح كثيراً أنهم لم يكونوا من عرق واحد ولا يُستبعد أن يكون بينهم بعض الساميين والسومريين والحوريين وغيرهم من الأقوام المنحدرة من الجماعات التي استوطنت بلاد الشام منذ العصور الحجرية القديمة. ومهما كان الحال فالأموريون أول قوم ساميين نعرف اسمهم الخاص وأخبارهم التأريخية. ويرجّح كثيراً كما سنشير إلى ذلك في موضع آخر، أن الكنعانيين جاؤوا أيضاً إلى بلاد الشام مع الأموريين في هجرة كبرى واحدة، ولكن الأموريين هم الذين اشتهروا بتكوينهم دولاً مهمة قبل الكنعانيين.

---

(1) يراجع ما ذكرناه سابقاً عن الأقوام السامية وعائلة اللغات السامية وفروعها في كلامنا على تأريخ العراق القديم (الجزء الأول، الفصل السابع)، وما ذكرناه أيضاً في الفصل السابع والعشرين من هذا القسم.

أما اسم الأموريين فقد أطلقه عليهم سكان وادي الرافدين، من المصطلح السومري «مارتو» (ومنه الكلمة الآكدية أمورو)، وكذلك يقال في أصل اشتقاق اسم المدينة الأمورية «ماري» (تل الحريري) وأطلقوا أيضاً اسم «بلاد مارتو» على الغرب، وأطلقوها توسعاً على جميع بلاد الشام[1]، حتى أنهم دعوا البحر المتوسط باسم آخر بالإضافة إلى اسم «البحر الأعلى أو البحر الكبير» هو «بحر أمورو العظيم». ومما لا شك فيه أن اتصالات واسعة مهمة قد نشأت بين سكان وادي الرافدين وبلاد سوريا على أثر الفتوح الآكدية المشهورة التي درسناها في تأريخ العراق. ومما يدل على هذه الاتصالات أن أول ذكر للأموريين في أخبار ملوك وادي الرافدين قد جاء في أخبار الملك الآكدي الشهير سرجون[2]، مؤسس السلالة الآكدية (في حدود 2350 ق.م)، وقد تمركز الأموريون في مبدأ أمرهم في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا من بعدئذ ينتشرون في أواسط سوريا وفي لبنان حتى امتدوا جنوباً إلى فلسطين. وقد أظهرت التحريات الحديثة في سوريا الشمالية (في مدينة ماري مثلاً) وجود مواطن ازدهرت فيها حضارة وادي الرافدين من العهد الشبيه بالكتابي (الوركاء وجمدة نصر كما في تل براك والخابور) قبل مجيء الأموريين إلى سوريا، وقبل أن يغزو سرجون الآكدي بلاد الشام ويتصل بالقبائل الأمورية. ومما لا مراء فيه أن هذه القبائل الأمورية البدوية قد تعلمت من هذه المراكز الحضارية السومرية، ودخلت في طور التحضر والمدنية، وتصف لنا هؤلاء الأموريين بالبدو قبل تحضرهم نصوص جاءتنا من المآثر السومرية، «وكيف أنهم كانوا بدواً متجولين لا يعرفون سكنى البيوت ولا يعرفون الزرع

(1) ومن الطريف التنويه به هنا أن منشأ مصطلح «مارتو»، و«أمورو» أي بلاد الغرب بالنسبة إلى وادي الرافدين مثل المصطلح الذي أطلقه عرب الجزيرة على بلاد سوريا أي الشام (اليسار أو الشمال).

(2) A. Poebel, **Historical Texts** (1914), p.17.

والفلح ولكنهم تعلموا ذلك بعدئذ»[1]، ونجدهم بعد حين من تعلمهم من حضارة وادي الرافدين في سوريا يؤسسون دويلات مهمة في الفرات الأوسط قامت من بعد الدولة السومرية في «ماري» في الألف الثاني ق.م.، وتكوّنت لهم علاقات مهمة مع بلاد الرافدين كما أنهم أسسوا سلالات حكمت في العراق نفسه مثل سلالة «ايسن» التي قامت على أنقاض سلالة أور الثالثة السومرية[2]، وكان أصل سلالة بابل الأولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) من الأموريين أيضاً، ويرجّح أيضاً أن السلالة المهمة التي تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها «شمسي ـ أدد» أصلها أيضاً من الساميين الغربيين، أي من الأموريين.

ولنعد إلى ذكر بعض الأشياء المفيدة عن مدينة ماري التي قلنا إن الأموريين أسسوا فيها عاصمتهم في الألف الثاني ق.م. على أنقاض الحضارة السومرية. فقد أسسوا في الفرات الأوسط دولة مهمة ضمت إليها بعدئذ معظم البلاد السورية، وظلّت مزدهرة إلى أن قضى عليها حمورابي وضمها إلى أمبراطوريته. وقد أظهرت لنا التنقيبات الخطيرة التي قام بها الفرنسيون حديثاً في «تل الحريري»[3]، ماضي هذا الموطن الآثاري الحافل

---

(1) انظر النص المنشور في:

Edward Chiera, **Sumerian Religious Texts** (1924), 20 - 21.

(2) ومن الأخبار التأريخية الطريفة التي تشير إلى علاقات الأموريين بالسلالات الحاكمة في العراق أن أحد ملوك سلالة أور الثالثة (شو ـ سين) قد شيّد سوراً في أور وسماه بعبارة تصفه بأنه (الجدار الذي يصدّ الأموريين) وحاربهم آخر ملوك هذه السلالة المسمى «أبي ـ سين» حيث جاء في إحدى سني حكمه المؤرخ بها: «لقد أخضعت مارتو الذين قوّتهم كالعاصفة والذين لا يعرفون المدنية منذ القدم».

(**Reallexikon der Assyriologie, II**, 144 - 80).

(3) كانت هذه التنقيبات بإدارة الآثاري الفرنسي (أندريه بارو) (André Parrot) وقد أسفرت هذه التنقيبات عن نتائج خطيرة لا يزال درسها والبحث فيها مستمرين من جانب العلماء وللوقوف على نتائج هذه البحوث الكثيرة المنشورة في المجلات العلمية مثل مجلة (Syria, 1937 ff.) والنشرات الخاصة انظر:

André Parrot, **Archéologie Mesopotamienne**, 2 vols. 1946 - 1953.

بعهوده منذ عصور فجر السلالات السومرية وما قبل ذلك بقليل، كما كشفت لنا أيضاً عن البقايا المهمة في هذه المدينة في عهد سلالتها الأمورية، كالقصر الملكي الواسع[1] الذي عثر فيه المنقبون على أكثر من 20,000 لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الآكدية ولكن لهجتها تميل إلى السامية الغربية (الأمورية) وهي تتضمن أنواعاً مهمة من الوثائق والسجلات الملكية والخاصة، ومنها الرسائل والوثائق التجارية والإدارية الخاصة بأحد ملوك سلالة «ماري» الأمورية المسمى «زمري ـ ليم» (1730 ـ 1700 ق.م)[2]، وكان هذا آخر ملك من هذه السلالة حيث قضى على مملكته حمورابي البابلي. إن هذه الوثائق المدوّنة قد ألقت ضوءاً كاشفاً على جوانب مهمة في تأريخ بلاد الشام والأموريين بوجه خاص في الألف الثاني ق.م. وتأريخ الشرق الأدنى بوجه عام، ففيها ندرس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعتقدات الدينية والعلاقات الدولية بين سوريا ودول وادي الرافدين وعن تعاصر ملوك ذلك الزمان[3]، كما فيها نواح مهمة عن الحياة السياسية. فندرس منها مثلاً أن مدينة ورد اسمها بهيئة «خلبو» (أي حلب) كانت عاصمة مملكة أمورية اسمها «يمخد»، وأن أحد ملوكها كان اسمه

---

(1) إن هذا القصر يعدّ من المآثر المهمة في تأريخ حضارات الشرق الأدنى فهو قصر واسع يشغل مساحة تقدّر بنحو ستة «إيكرات» ووجد فيه أكثر من (300) حجرة زيّنت جدران الكثير منها بصور ملوّنة زاهية كما وجدت فيه عدا الساحات والمرافق الأخرى مواضع خاصة للحمامات، ووجدت في بعض الحجرات دكاك ومناضد لعلها تشير إلى المدرسة.

(Hitti, Op. Cit., 68; Syria, XVII (1936) XXIX (1952); Frankfort, Art and Architecture in the Ancient Orient (1954).

(2) حول هذه الوثائق انظر مجلة:

(Syria, XIX (1938) XX (1939); J.R. Kupper, Archives royales de Nari (1948).

(3) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على ضبط تسلسل أدوار التأريخ في العراق القديم وأدوار السلالات الحاكمة أن الباحثين المحدثين استندوا من جملة ما استندوا إليه من المصادر إلى وثائق مدينة ماري ولا سيما ما يتعلق منها بالتعاصر بين حمورابي وبين ملوك سلالة ماري.

«يريم ـ ليم»[1]، وأن مدينة «جبلا»[2] (وهي جبيل) كانت من المراكز الصناعية المهمة للنسيج وأن مدينة أخرى باسم «قطنا»[3]، كانت مركزاً تجارياً مهماً لسلالات الحكام الأموريين.

إن هذه المآثر وغيرها لتشير إلى ازدهار ملحوظ كانت عليه الدول الأمورية، ومما لا مراء فيه أن تكون أهم عوامل هذه الازدهار زراعتها الجيدة المعتمدة على خصب أراضيها وكثرة أمطارها المساعدة والاعتناء بالشؤون الزراعية، وإلى هذا العامل كان هناك عامل خطير آخر هو ازدهار تجارتها وعلاقاتها التجارية مع أقطار الشرق الأدنى كما أنها كانت واسطة للتجارة المهمة بين أقطار البحر المتوسط وبين بلاد ما بين النهر، فكانت بذلك أيضاً واسطة لنشر الثقافة والتأثيرات الثقافية.

والجدير بالذكر بمناسبة كلامنا على الوثائق التي وجدت في القصر الملكي في ماري أن الأموريين لم يخلفوا لنا كتابات مهمة بلغتهم الأمورية الخاصة[4] (أو بالأحرى بلهجتهم) وإنما اتخذوا اللغة البابلية القديمة التي شاعت آنذاك كلغة رسمية للتدوين، ولكن مع ذلك فإن لغتهم شبيهة باللهجة الكنعانية بحيث يمكن عدهما لهجتين متقاربتين، اللهجة الكنعانية الشرقية (أي الأمورية) واللهجة الكنعانية الغربية (أي الفينيقية). أما ديانتهم فهي تشبه في أصلها ديانة الأقوام السامية البدائية التي تدور بالدرجة الأولى على عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات آدمية. كما أنهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الإلهة عشتار[5]. وكان من

---

(1) انظر: Albright in The Bullt. of the Amer. Sch. of Orient. Res. No. 67 (1937)

(2) بضم الجيم الملفوظ كافاً فارسية وتسكين الباء.

(3) بفتح القاف وفتح الطاء (أو تسكينها)، وتقوم خرائبها الآن في التل المعروف باسم «المشرفة» شمال شرقي حمص.

(4) من الأشياء التي خلفوها في لغتهم أسماء ملوكهم وحكّامهم وأسماء جملة مواضع في سوريا.

(5) من الصور الطريفة التي وجدت تزين جدران القصر الملكي في ماري صورة تمثل أحد ملوك المدينة (الذي يرجّح كونه «زمري ـ ليم») وهو يتسلم شارات السلطان من الإلهة عشتار (انظر الصورة المنشورة في حتي «تأريخ سوريا» (Hitti, Op. Cit., p.69)

آلهتهم الخاصة الإله «أمورو» (مارتو)[1] ومعه آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها مع الآلهة الكنعانية (حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الأمورية وعلى آلهتها) مثل «حدد» (حداد أو هدد)[2]، إله المطر والزوابع، ومثل وهو مقترن مع الثور وشرارة الصاعقة. ويرجّح كثيراً أن نفس هذا الإله قد عُبد من بعد ذلك في جهات بلاد الشام باسم «بعل». ومن آلهة الأموريين أيضاً إله جاء اسمه عند الفينيقيين باسم «رشف» وسماه الآراميون «ريشوف»، والمرجّح أنه من الآلهة ذات العلاقة بالنار، وقد اتخذه المصريون في عهد الأمبراطورية. وعبدوا أيضاً إلهاً مهماً دخلت عبادته إلى حضارة وادي الرافدين هو الإله «داجون» أو «دجان» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) وأصله من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام[3]. ويعزى إلى الأموريين أنهم هم الذين أدخلوا إلى أنحاء سوريا الجنوبية عبادة نوع من الأنصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب قائمة في مواضع مطهرة كالكهوف في الغالب مع مذبح من الحجر[4] والمرجّح كثيراً أنهم هم الذين أدخلوا إلى بلاد الشام عادة تقريب الابن البكر وكذلك عادة التضحية في أسس البناء (تضحية الأطفال الآدميين) وهي عادة استمرت إلى زمن العبرانيين.

ومما لا شك فيه أن الدويلات الأمورية قد استعادت استقلالها من بعد عهد ضمها المؤقت إلى أمبراطورية حمورابي وظلّت كذلك إلى زمن تأسيس الأمبراطورية المصرية، فدخلت في العلاقات الدولية المعقدة التي تكوّنت

---

(1) وكانت عبادة هذا الإله معروفة في وادي الرافدين. وكان للإله «أمورو» الأموري إلهة زوجة هي «عشرتا» (أو اشيراتا)، إلهة الحب والشهوة والقوة، وهي شكل من أشكال عشتار البابلية (انظر الأسطورة الخاصة بزواجه في S. N. Kramer, Sumerian Mythology.

(2) مما لا شك فيه أن يكون هذا الإله نفس الإله الذي عُبد في ديانة العراق القديم باسم «أدد» إله الرعد والزوابع والصواعق، ولا يعلم بوجه التأكيد هل أصل «أدد» البابلي من الإله السوري أم العكس، ولعل الرأي الأول هو المرجّح. وسمي «حدد» أو «أدد» باسم آخر هو «رمان أو رمانو» أي المرعد.

(3) لقد وجد المنقبون في رأس شمرا (أوغاريت) معبداً خُصّص لعبادة هذا الإله.

(4) انظر التوراة (سفر الخروج 20: 25).

آنذاك بين دول الشرق الأدنى ولا سيما بين المصريين والبابليين والآشوريين والحثيين. ودخلت تحت النفوذ المصري على ما بيّنا في كلامنا على الأمبراطورية المصرية في تاريخ مصر. ومما يقال بوجه الإجمال إن بلاد الشام أصبحت مدار النزاع والكفاح بين الأمبراطورية المصرية وبين الأمبراطورية الحثية المنافسة لها في بلاد الشام التي أصبحت من جرّاء هذا التنازع في فوضى ضاربة، فقسم منها كان موالياً لمصر وقسم حافظ على استقلاله وقسم كان متقلباً في ولائه فمن حوادث هذا العهد الطريفة في سوريا ما نقرؤه في الرسائل الشهيرة (رسائل العمارنة)[1] عن علاقة أحد الأمراء الأموريين المسمى «عبد ـ عشرتا» (أو عبد ـ اشرتا) الذي كان يتظاهر في ولائه وتبعيته لمصر[2] وينتهز فرص النزاع بين الحثيين والمصريين على بلاد الشام. وكان هذا يحكم في مملكة مركزها في أعالي نهر العاصي، ومع تظاهره بالولاء للفرعون المصري إلا أنه كان يساعد الحثيين في غزوهم إقليم السهل الكائن بين أنطاكية وجبال «أمانوس»، كما أنه استولى لحسابه الخاص على مدن كثيرة في الساحل وفي داخل البلاد، وخلفه ابنه المعروف باسم «عزيرو» الذي سار على خطة أبيه ووسع من حدود مملكته أيضاً في حماه وإقليم دمشق. وكان للمصريين على بلاد الشام والٍ من قبلهم اسمه «رب ـ عدي». وكان هذا يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى سيده الفرعون المصري مبيناً فيه مؤامرات «عبد ـ عشرتا» وابنه

(1) جاءت أخبار هذه العلاقات المعقدة في الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة» المدوّنة بالخط المسماري واللغة البابلية، وهي الرسائل التي قلنا إنها الرسائل التي تبادلها ملوك الشرق الأدنى والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وولاتهم في بلاد الشام، والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وملوك بابل وآشور، انظر نشرها في:
J.A. Knudtzon, **Die el-Amarna Tafein** 2 vols. (1908).

(2) انظر الرسالة رقم 66 في ذات المصدر المنشورة فيه تلك الرسائل. وهي الرسالة التي أرسلها إلى سيده الفرعون المصري أمنحوتب الثالث (1375) يظهر فيها ولاءه ويتعهد بولاء الأموريين أيضاً.

«عزيرو»[1] الذي وجد الفرصة سانحة على أثر ضعف الأمبراطورية المصرية في عهد الملك أمنحوتب الرابع (وهو أخناتون صاحب الثورة الدينية في مصر) فتشجع في غزو المدن والأقاليم السورية التابعة إلى مصر على الرغم من تحذير الوالي المصري «رب ـ عدي» للبلاط الفرعوني[2]، ويبدو أن «عزيرو» قد اتفق مع الحثيين على اقتسام البلاد السورية، ولكن قام بذلك بدهاء إذ استطاع أن يخدع البلاط المصري في ولائه حيث ذهب بنفسه إلى مصر مؤكداً خضوعه ولكن لما عاد إلى بلاده استمر في تعاونه مع الملك الحثي «شبوليوليوما» ونجح الطرفان في زعزعة أسس الأمبراطورية المصرية في سوريا بحيث اضطرت مصر إلى التخلي عن سوريا الشمالية وعن بلاد فينيقيا، وثبت الحثّيون فتحهم لشمالي سوريا وسوريا الوسطى.

الكنعانيون والفينيقيون:

لقد سبق أن نوّهنا بالصلة القريبة بين الأموريين وبين الكنعانيين[3] أو

---

(1) انظر الرسالتين رقم 75، و85 في المرجع السابق.

(2) انظر الرسالة رقم 109.

(3) لا يعلم بوجه التأكيد أصل اسم الكنعانيين، فكان يظن أن اسم «كنعان» من كلمة سامية تعني الشيء الواطىء أي الأرض الواطئة بالإشارة إلى موطنهم في الساحل (من جذر «كنع» و«خنع») بالمقابلة مع الأراضي الجبلية العالية المحاذية لموطنهم، ولكن رأي الباحثين حديثاً يميل إلى اشتقاق اسم «كنعان» من أصل غير سامي، حيث يرون اشتقاقه من كلمة «حورية» تعني الصبغ القرمزي، إذ يبدو أن هذا الإقليم اشتهر بصناعة هذا الصبغ لما اتصل الحوريون ببلاد سوريا في القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق.م. ومن الأصل الحوري لاسم كنعان جاءتنا الصبغ المشهورة في البابلية مثل «كنخني» والكلمة الواردة في رسائل تل العمارنة «كنخي»، والكلمة الفينيقية «كينع» والعبرانية كنعان وكذلك يقال في اسم «فينيقية» (Phoinix) حيث ارتُئي اشتقاقه من الكلمة اليونانية التي تعني القرمز أو الأرجوان وتشير إلى صناعة الأصباغ القرمزية التي اشتهر بها الساحر. انظر:

(Hitti, Op. Cit., p.79; Albright in Studies in the History of Culture (1942) p.25; Classical Philogoty, XXXVI (1941), 1 ff.

وصارت كلمة «فينيقي» تُستعمل مرادفة لكلمة «كنعاني» منذ القرن الثاني عشر ق.م.

الفينيقيين كما سمّاهم اليونان بعدئذ، حيث قلنا إنهم على ما يرجّح من قبيلة سامية كبرى واحدة نزحت إلى ديار الشام في هجرة واحدة، ويفسّر لنا ذلك ما لاحظناه من التشابه اللغوي والقومي بين الأموريين والكنعانيين بحيث يصح عدّ اللغتين الأمورية والكنعانية لهجتين من فروع كتلة اللغات السامية الغربية (أي اللغات السامية في سوريا)[1]، والاختلافات الموجودة بين القومين ناشئة بالدرجة الأولى من استيطان كلّ منهما في قسم خاص من بلاد الشام حيث التأثيرات الثقافية الأجنبية التي أثرت في كل منهما وهو في هذا الموطن الخاص به. فالأموريون تمركزوا أولاً في شمالي سوريا، وكان أكثر تأثرهم الثقافي من حضارة وادي الرافدين، وقد دخلت فيهم عناصر من السومريين والحوريين، أما الكنعانيون فإن حقيقة كونهم استوطنوا السواحل بالدرجة الأولى جعلتهم يتأثرون من الناحية الثقافية بحضارة مصر بالدرجة الأولى، كما أن عناصر محلية أخرى كانت موجودة قد دخلت معهم وهم في موطنهم هذا.

وكان اسم بلاد كنعان يطلق في مبدأ الأمر على الساحل والقسم الغربي من فلسطين، ولكنه عمّ استعماله بعدئذ وشمل قسماً كبيراً من سوريا وأطلق على كل فلسطين أيضاً، كما نجد ذلك في الأقسام القديمة من التوراة حيث أطلقت صفة كنعاني على جميع سكان فلسطين بدون تمييز عرقي، وكذلك سميت اللهجات السامية في فلسطين. وتدل أسماء كثير من المواضع في فلسطين وفي لبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزء من البلاد الشامية، حيث تشير أسماء مثل هذه المدن إلى أصلها الكنعاني. ومن الأمثلة على ذلك مدينة «أريحا» (Jericho) التي يعني اسمها الكنعاني «يريحو» مدينة القمر، ومدينة «بيسان» (بيت ـ شان، أي بيت الإله شان)، و«مجدو» أو «مجدون»[2]، وقد أبانت التحريات الآثارية الحديثة أن هذه

(1) بالأحرى اللغات السامية الشمالية الغربية تمييزاً لها عن فرع آخر من اللغات السامية الغربية يمكن تسميته بالفرع الشمالي، وهي اللهجات العربية الشمالية، أما اللغات العربية الجنوبية فتُصنَّف مع كتلة اللغات السامية الشرقية (أي مع الآكدية والبابلية والآشورية).

(2) من جذر جد، وجذ أي قطع، ويعرف موضعها الآن باسم «تل المتسلم».

المدن الكنعانية قد أسست في حدود منتصف الألف الثالث ق.م. وهناك أسماء مدن سامية أخرى يرجّح أصلها الكنعاني، وقد وردت أسماؤها في النقوش الكتابية في منتصف الألف الثاني مثل «عكا»[1]، وصور[2] وصيدا[3] وجبيل (جبلا).

وما قلناه عن الظروف التأريخية التي أحاطت بالأموريين من وجودهم بين حضارتين معظمتين (حضارة وادي النيل ووادي الرافدين) مما عرقل تكوين دول معظمة في بلاد الشام ينطبق أيضاً على الكنعانيين والفينيقيين، بالإضافة إلى قربهم من دولة معظمة أخرى هي الدولة الحثية. وإلى ذلك فإن الآشوريين بدأوا في إنماء قوّتهم السياسية وأخذهم مكان الأمبراطورية المصرية في بلاد الشام، وسنجد أن الآراميين من بين الأقوام السامية الأخرى قد تعرّضوا إلى أعظم الضغط والتدمير من الدولة الآشورية. وبالنظر إلى مثل هذه الظروف التأريخية فإن الكنعانيين لم يتح لهم تكوين دولة كبيرة موحدة، وإنما كانوا منقسمين إلى وحدات أو دويلات صغيرة على غرار دول المدن حيث مركز الدويلة مدينة مهمة محصّنة ذات قلاع وحصون لدفع غائلة الهجوم. ولكن لم تسلم مثل هذه المدن ودويلاتها من أن تكون فريسة للغزو من الخارج، ومما سهّل ذلك أنها لم تكن متّحدة بل كانت في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب. وكانت المستوطنات الكنعانية في مبدأ أمرها منتشرة في طوال الساحل من جبل الأقرع (كاسيوس) إلى جبل الكرمل جنوباً، ثم اضطرت هذه المستوطنات إلى التمركز بعدئذ في سفوح جبال لبنان للاستفادة من حماية هذه الجبال الطبيعية من خلفهم أكثر مما كان يمتاز به جبل الكرمل أو جبل الأقرع وجبال أمانوس في الشمال. وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية الدائمية في

---

(1) «عكو»، التي تعني الرمال الحارة، وسميت باليونانية باسم (Ptolemais).

(2) (Tyre)، من «سور» أو «صور» أي صخر.

(3) صيدون من الصيد (أي صيد السمك) واسم الإله «صيدون» الكنعاني ـ الفينيقي.

سفوح لبنان مثل «طرابلس»[1] و«بترونا»[2]، وجبيل و«بيروت»[3] وصيدا وصور و«عرقة»[4] وفي الجنوب غزة[5] وعسقلان (عسقلون القديمة) في الساحل وهناك مدن أخرى في الأرض الداخلية مثل «جزير»[6] (جازر) و«مجدو» وأورشليم[7] وغيرها.

وكان كل من هذه المدن وغيرها نواة لمستوطن على هيئة دويلة صغيرة أشبه ما يكون بالوضع السياسي في بلاد اليونان، ولكن مما خفّف عزلة هذه الدويلات بعضها عن بعضها وعدم تكوينها وحدة سياسية كبرى أنه كانت تنشأ فيما بينها بين الحين والحين اتحادات أو جامعة دويلات مؤقتة إما بسبب اتفاق مصالحها أو بسبب أخطار تهددها، فكانت إحداها تتزعم مثل هذه الاتحادات، كما حدث لمدينة «أوغاريت» في أواخر القرن السادس عشر ق.م. وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا في مطلع القرن الحادي عشر ثم خلفتها صور وصارت أقوى الدويلات ولا سيما في عهد ملكها الشهير حيرام. ومن الأمثلة

---

(1) هذا هو اسم المدينة اليوناني (Tripolis) (أي المدن الثلاث)، ولا يعرف اسم المدينة بالفينيقية.

(2) وهي البترون الآن واسمها باليونانية «بوتريس» (Botrys).

(3) وقد وردت في رسائل العمارنة بهيئة «بيروتا»، والصيغة المصرية «بئروتا» و«بيروت» بالسامية جمع بئر.

(4) وهكذا تعرف الآن وهي مدينة قريبة من طرابلس (نحو 12 ميلاً إلى الشمال الشرقي منها) وذكرت في المصادر الكلاسيكية باسم «أركا» (Arka).

(5) غزة ترادف الكلمة العربية «عزة» أي القوة والمنعة. وتعرف خرائب المدينة القديمة الآن باسم تل« العجول» بفتح العين وتشديد الجيم.

(6) وتعرف الآن باسم تل الجزر جنوب شرقي الرملة، وقد وجدت فيها في التنقيبات الحديثة آثار عصور ما قبل التأريخ.
(R.A. Macalister, **The Excavation of Gezer**, 3 vols. (1912).

(7) اسم المدينة من أصل كنعاني من «يرو ـ شالم» أو «يرو ـ شلم»، و«شالم» أو «شلم» اسم إله كنعاني معنى اسمه السلام، ونجده يدخل في أسماء أعلام عبرانية مهمة مثل «أبشالوم» (أي أبو السلام وهو ابن داود)، وسليمان أيضاً، وهناك اسم إله آشوري هو «شلمانو» نجده يدخل في أسماء أعلام مهمة مثل «شيلمنصر» «شلمانو أشاريدو».

على نشوء الأحلاف لدرء خطر الغزو الخارجي الحلف العسكري الشهير بزعامة «قاديش» على العاصي، وهو الحلف الذي سحقه الفرعون المصري طوطمس الثالث في موقعة مجدو الشهيرة (1479 ق.م)، وقد استفاد الكنعانيون من العربة والخيول التي أدخلها الهكسوس[1] في أثناء إقامتهم في سوريا في حدود القرن الثامن عشر ق.م.، وقد شملت ثقافة الهكسوس في سوريا القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م.، ومن سوريا بدأ الهكسوس يتغلغلون إلى مصر ثم غزوها ومكثوا فيها في حدود 1730 ق.م.

ومن المدن الشهيرة التي تستحق التنويه بها بوجه خاص، جملة مدن ساحلية مثل صور وصيدا وأرواد (أرادوس)، عُرفت بمآثرها الحافلة في التأريخ وبتحصيناتها الطريفة، فقد كانت محصّنة بسورين، كما أنها كانت كل منها عبارة عن مدينتين: مدينة في الساحل، حيث يستوطن فيها الناس لأداء شؤونهم الاعتيادية كالتجارة والزراعة، والأخرى في جزيرة قريبة ملاصقة يعتصم بها السكان في أثناء الغزوات والأخطار الآتية من المجازات الجبلية. ويتجلّى ذلك في المدن الثلاث التي عددناها حيث لا تزال آثار المدينة الساحلية التابعة لأرواد[2] وبقربها الجزيرة الصغيرة التي كانت ذات أبنية شاهقة مؤلفة من عدّة طوابق، واشتهرت مثل هذه الجزر بمهارة أهاليها في طرق جمع مياه الشرب من الأمطار التي تجمع مياهها من السطوح في أحواض خاصة، ثم زيادة هذا

---

(1) انظر الكلام على الهكسوس في تأريخ مصر، ونذكر هنا بمناسبة استيطانهم في سوريا أن آثارهم وجدت في جملة مواضع مثل «قطنا» التي يرجّح أنها كانت عاصمتهم (وهي كما قلنا تعرف خرائبها الآن باسم المشرفية شمال شرقي حمص) وفي مواضع في فلسطين مثل «شكيم» (وتعرف الآن باسم البلاطة قريباً من نابلس) وفي «الخيش» (تل الدوير الآن) وشاروهين وأريحا وكانت حصناً مهماً للهكسوس، واشتهرت مواضع الهكسوس في سوريا بشكل حصون مُحاطة بخنادق المياه، كما أنهم فرضوا الحكم الإقطاعي على سوريا، حيث كانوا طبقة حاكمة مؤلفة من نبلائهم وصنفوه من المحاربين بالعربات الحربية.

(2) وتسمى خرائبها الآن طرطوس شمال «عمريت» حيث خرائب المعبد والمقابر لا تزال تُشاهد، وسماها الصليبيون «توتوسا».

المصدر باستخراج الماء من بعض الينابيع تحت الأرض في الجزيرة. وكانت صور أيضاً على شاكلة «أرواد» كما ذكر المؤرخ «سترابون»[1]. ولما أن حاصر الإسكندر الكبير المدينة بنى رصيفاً من الساحل إلى الجزيرة طوله نحو نصف ميل، وقد أظهرت التحريات الحديثة في المدينة الكائنة في الجزيرة حيث جرى التحري في البحر وما أخذ لها من الصور الفوتوغرافية من الجو أن الميناء الرئيسي كان في الطرف الجنوبي من الجزيرة، وأنه كان للمدينة سد عظيم يحميها (هو الآن تحت السطح بنحو 50 قدماً) كان طوله زهاء 750 متراً وثخنه نحو ثمانية أمتار، وكان لها أسوار ضخمة وحصنان عظيمان في كل طرف[2]، والمأثور أن الملك «حيرام» الشهير المعاصر لسليمان هو الذي جعل صورَ في عهده أمنع وأقوى ميناء بحري في ساحل البحر المتوسط، وكوّن لها أمبراطورية تجارية واسعة. وكان «حيرام» المذكور على صلات حسنة مع الملك العبراني سليمان (أوائل القرن التاسع ق.م) وتاجر معه حيث ساعده في بناء معبد الهيكل في القدس مقابل ما دفع الملك العبراني من الذهب والفضة والحبوب. ونشأت بين الفينيقيين والآشوريين علاقات واسعة، وكانت بلاد فينيقيا تتقي شر الآشوريين بدفع الهدايا والجزية، فاستفاد الفينيقيون من ذلك في استمرار تجارتهم، ولكن أحد ملوك الآشوريين وهو شيلمنصر الثالث (القرن التاسع ق.م) أراد بسط الحماية الآشورية على بلاد الفينيقيين فهاجم بلادهم واستولى على كثير من مدنهم. وفي عهد الأمبراطورية الآشورية الثانية تحسنت العلاقات نوعاً ما مع الفينيقيين حيث ساعد هؤلاء الملك الآشوري «آسرحدون» على غزو مصر بأن أمدّوه بالسفن والرجال والمال. وظل الفينيقيون في ازدهارهم وصلاتهم الحسنة مع الدولة المعظمة التي قامت في

---

(1) انظر وصف ذلك الوارد في «سترابون» (Strabo, Bk. XVI, ch.2) المعبد والمقابر لا تزال تُشاهد، وسماها الصليبيون «توتوسنا».

(2) انظر «حتي» ذات المصدر ص 84 والمصدر المشار إليه.
(A. Poidebard, Un Grand Port disparu: Tyre (Paris, 1939).

الشرق من بعد البابليين مثل الفرس الإخمينيين. واشتهرت صور بأنها تحدّت الإسكندر الكبير في فتوحه للشرق، ولم يستطع أخذها إلّا بعد حصار دام زهاء عشر سنوات.

الحياة الاقتصادية:

وإذا لم تستطع الدويلات الكنعانية ـ الفينيقية أن تكون دولاً كبيرة تشتهر بالفتح والغزو فإن الكنعانيين وجهوا همهم إلى تنمية نواحي الحياة الأخرى كالزراعة والصناعات المهمة والتجارة الخارجية وإقامة المستعمرات التجارية خارج موطنهم على ما سنبيّن فيما بعد. وكانت الزراعة والصيد (ولا سيما صيد الأسماك) والتجارة الخارجية أسس الحياة الاقتصادية عند المجتمعات الكنعانية، ومع أن الرقاع القابلة للزراعة غير واسعة إلا أنهم استغلوا كل بقعة في الجبال مهما صغرت، حتى أنهم غرسوا شرفات الجبل بالأشجار المثمرة، كالكروم والتين والرمان والتفاح. واستغلوا كذلك زراعة أشجار الزيتون. وكان الفلاحون يكونون الطبقات الدنيا في المجتمع، والصناع والتجّار الصغار الطبقة الوسطى في المدن الكنعانية بالمقارنة مع ملاك الأرض الكبار الإقطاعيين.

ومن الصناعات المهمة التي اشتهر بها الصنّاع الكنعانيون والفينيقيون صنع الفخار الذي بلغ طوراً عالياً من الإتقان من منتصف الألف الثاني ق.م.، واستعار الفخارون الكنعانيون دولاب الخزاف من بلاد ما بين النهرين، كما تأثرت صناعة الفخار السورية منذ 1500 ق.م. بقبرص ومسين من البلاد الإيجية. وعرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية الألف الثاني ق.م.، وبدأوا يستعملون الحديد بكثرة منذ الألف الأول ق.م.، وقد ساعدتهم أسفارهم التجارية البعيدة للحصول على المعادن كالقصدير لصنع البرونز والبحث عن الذهب والفضة، وترقى فن الصياغة عندهم في القرن السادس عشر ق.م.، وقد مدح هوميروس الشهير المعدّنين الفينيقيين (في الإلياذة الشهيرة). واشتهر الفينيقيون بصناعة العاج النفيسة حيث صنعوا من العاج والعظم أدوات جميلة. وقد جاءتنا أقدم آثار عاجية من القرن الرابع عشر

ق.م.، وكثرت هذه الصناعة واشتهرت في جميع أنحاء العالم المعروف كما في الأمشاط التي كانت تصدّر إلى أنحاء بعيدة، إلى إسبانيا مثلاً.

وبرع الكنعانيون والفينيقيون في صناعة الزجاج، حتى أنه يؤثر أنهم هم الذين أوجدوا هذه الصناعة[1]، ولكن الثابت تأريخياً أن المصريين القدماء عرفوا صناعة الزجاج قبل الفينيقيين (منذ القرن الثامن عشر ق.م)، ونذكر من الصناعات الوطنية المهمة أيضاً، صناعة النسيج مثل نسيج الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وعرفت المنسوجات القطنية في الأزمان المتأخرة، وقد رأينا كيف أن الملك الآشوري «سنحاريب» قد أدخل زراعة (الأشجار التي تحمل الصوف) إلى العراق. ويبدو أن صناعة المنسوجات القطنية قد انتقلت من سوريا إلى اليونان في العهود الهلنستية ومعها اسم القطن من اللغات السامية. والمرجّح أن نسيج الكتان كان معروفاً أيضاً في القرن العاشر ق.م.، كما ترجّح معرفة الحرير في صور في القرن السادس ق.م. ومن الصناعات المهمة التي نوّهنا بها سابقاً بالنسبة إلى علاقتها باسم (كنعان وفينيقيا)، صناعة الأصباغ ولا سيما القرمز والأرجوان، وقد وردت الكلمة الأخيرة (أرجمن) في كتابات أوغاريت القديمة (رأس الشمرة)[2]، حيث تكثر في السواحل الفينيقية أنواع المحار التي يستخرج منها صبغ الأرجوان[3]

---

(1) لعل منشأ ذلك من رواية المؤرخ الطبيعي الشهير «بلني» الذي يروي أن جماعة من التجار كانوا يطبخون بالقرب من عكا واستعملوا (أثافي تحت القدور) قطعاً من النطرون الذي كان محملاً في سفنهم، فاكتشفوا وجود حجارة شفافة بسبب اختلاط النطرون بالرمل وانصهاره.
(Pliny, natural History, Bk. XXVI, ch. 65).

(2) انظر: Journal Asietique CCXXX (1938), 146.
وفي الكتابات الآشورية ذكر الصبغ بهيئة «أرجمانو» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) وبالعبرية (أرجامان).

(3) واسمها العلمي (Murex Trunculus).
واستعملت أقوام أخرى مثل الإيجيين واليونان لاستخراج هذا الصبغ الخاص بعض الحيوانات المفصلية وتروي لنا الأساطير اليونانية أن هيلين الطروادية حينما كانت في الأسر كانت مرة تتمشى في الساحل وكان يصاحبها كلبها، فشاهدت أن هذا قد اصطبغ فمه بلون جميل=

واشتهرت صور بهذه الصناعة شهرة واسعة[1] حيث يوجد قرب صور وصيدا نوع ممتاز من المحار الخاص بصبغ الأرجوان، كما أنها كانت تستورد كميات أخرى من قرطاجة وتونس، وكان هذا الصبغ غالياً جداً لأن طريقة استخراجه معقدة تتطلب الدقة وبذل الجهود. وبالإضافة إلى الأرجوان اشتهر الفينيقيون بصناعة صبغ القرم (Crimson) المستخرج عادة من حشرات خاصة في أشجار السنديان أو البلوط (Oak)[2].

وسننوّه بوجه خاص في صناعة بناء السفن التي اشتهر بها الفينيقيون شهرة واسعة عند كلامنا على أسفارهم البحرية وتأسيسهم المستوطنات التجارية في الخارج.

الأسفار البحرية:

اشتهر الفينيقيون بالملاحة العالمية، ولعلهم كانوا أعظم الأقوام القديمة في هذا الشأن[3]. فقد وجد فينيقيو الساحل اللبناني الضيق أنفسهم في شقة ضيقة من الأرض، أمامهم البحر ووراءهم جبال لبنان الحاجزة لهم نوعاً ما من الاتصال بالداخل، ولكن هذه الجبال زوّدتهم بأنواع قوية جيدة من الخشب، فأستجابوا لهذه الأوضاع الناشئة من بيئتهم مستغلين إمكانياتها بأن صنعوا السفن وعوّلوا على الملاحة أولاً بمقياس صغير في صيد الأسماك وتصريف

= أحمر بسبب أكله محارة خاصة بذلك الصبغ، فأعجبت باللون حتى أنها اشترطت على كل خاطب لها أن يقدم لها رداء مصبوغاً بالأرجوان قبل أن تجيبه إلى طلبه.

(1) قارن الصفة الإنجليزية (Tyrian Purple). حول الروايات المختلفة عن صنع صبغ الأرجوان وتأريخ الصناعة في العهود المتأخرة انظر: (Hitti, Op. Cit., 94 ff.)

(2) انظر بحث المؤلف في نباتات العراق القديم في مجلة سومر 1952 ـ 1953.

(3) السبب في وضع هذه الحقيقة بقيد الاحتمال ترجيح استثناء أهل جزر بحر إيجة (وهم أهل الحضارة المينية) الذين اشتهروا بالملاحة حتى أن اليونان سموا مملكة مينوس في كريت بالمملكة البحرية. كما أن هناك احتمالاً باتصال الفينيقيين بالإيجيين وأخذهم عنهم بعض عناصر الحضارة، ولا سيما فن الملاحة. وتعلموا كذلك من حضارة مصر القديمة.

بضائعهم في المواطن القريبة من سواحل البحر المتوسط الشرقية، ولكن سرعان ما تطوّرت خبرتهم في الملاحة البحرية فوسعوا من مقياس بناء السفن وامتدوا في أسفارهم البحرية البعيدة، موغلين في البحر المحيط، حتى أنهم احتكروا أشهر الطرق البحرية الموصلة بين أقسام العالم المعروف آنذاك، وإليهم يرجع الفضل في الكشف عن مجاهل المحيط الإطلنطيقي، وأسدوا خدمة جلى في نشر حضارات الشرق القديم ونشر ثقافاتهم الخاصة إلى عوالم نائية مظلمة لم تكن قد أشرقت عليها أنوار المدنية. كما أنهم أخذوا من نهاية القرن الثالث عشر أو الثاني عشر ينشئون لهم مستعمرات ومستوطنات تجارية سنذكر أشهرها فيما بعد. وكانت أشهر الطرق البحرية وأول طريق مهم بين مدينة «جبيل» وبين «مصر»، وكان هذا الطريق قد بدأ به الملاحون المصريون وكانت جبيل مركزاً مصرياً مهماً للتجارة والملاحة[1]. ومن الطرق البحرية المشهورة التي طرقها الملاحون الفينيقيون بعد طريق «جبيل - مصر» الطريق الذي كان يربط أيضاً صور وصيدا بمصر وبقبرص إلى الشمال، وكان ينعطف غرباً من قرب خليج طوروس ويمر من ليقية (Lycia) ثم يمر من جنوب رودس ومن كريت وقورسيرا[2] إلى صقلية، ثم من الجزيرة «قورسيرا» إلى المستعمرات الفينيقية في شمالي أفريقيا، ومن هنا غرباً إلى مستعمراتهم في إسبانيا، لأن الفينيقيين احتكروا ملاحة البحر المتوسط وتجارته بحيث يصح القول إنه كان بحرهم الخاص قبل أن يدّعيه الرومان في العصور المتأخرة. وبالإضافة إلى ما نوّهنا به من خدمتهم في نشر الحضارة فإنهم أسدوا خدمات جليلة إلى فن الملاحة البحرية وأصولها ومبادئها، فإليهم تعزى الاستفادة من النجم القطبي في تعيين الاتجاه في السير، ومهروا في الملاحة الليلية على هدي النجوم. وقد سمى اليونان النجم القطبي باسم الفينيقيين. كما يجب أن نذكر لهم فضلاً آخر هو كونهم أقدم كاشفين جغرافيين في البحر، فمن أعمالهم

---

(1) انظر ذلك في تاريخ مصر.

(2) (Corcyra) وتسمى حديثاً بنتليريا (Pantelleria) وهي «قوصرة» الواردة في كتب البلدانيين العرب.

العظمى في الملاحة البحرية إبحارهم حول سواحل أفريقيا سابقين البرتغاليين بهذه المأثرة من الكشوف الجغرافية بأكثر من ألفي عام. والذي وجّه الملاحين الفينيقيين وساعدهم في إنجاز ذلك العمل الباهر أحد فراعنة مصر من السلالات المتأخرة (وهو ينخو 609 ـ 593 ق.م. من السلالة السادسة والعشرين) الذي أعاد حفر القنال القديم الذي يربط الفرع الشرقي للنيل بالبحر الأحمر[1]، وقد استغرق طوافهم حول القارة زهاء عامين. ويروي لنا هيرودوتس بهذه المناسبة رواية طريفة يقول فيها عن الفينيقيين بأن البعض يعتقد أنهم بإبحارهم حول ليبيا (أي أفريقيا) كانت الشمس على يمينهم، ولكن شيخ المؤرخين لا يصدق بذلك، مع أن الذي أنكره من هذه الحقيقة يثبت في الواقع حجة الرواية، لأن السفن عندما تبحر غرباً حول رأس الرجاء الصالح فإن شمس النصف الجنوبي من الكرة الأرضية تكون على يمينهم.

هذا وقد جاءتنا نماذج من صور السفن الفينيقية من حدود 1400 ق.م. وهي مصوّرة في المآثر المصرية[2]، وكانت أقدم سفنهم تسير بالمجاذيف والأشرعة كما وردت إلينا نماذج أخرى من سفنهم وهو مصورة في المنحوتات الآشورية وبوجه خاص في منحوتات قصر سنحاريب (في حدود 700 ق.م) وفي مقدمها عمود من الحديد (ram) مدبّب حاد لاستعماله في الهجوم، وكان بعض هذه السفن ذات طابقين، ويعزى إلى الملاحين الفينيقيين استعمال صفين أو أكثر من المجاذيف والجاذفين، أحدهما فوق الآخر. وقد يصل عدد المجاذيف في العهود المتأخرة زهاء 50 مجذافاً، أما الطابق العلوي فخصص لركوب المسافرين. وبمناسبة كلامنا على صور السفن الفينيقية في المنحوتات الآشورية نذكر ما اشتهر به الفينيقيون من أنهم كانوا يقومون بصنع السفن والأساطيل لحساب الدول والأقوام الأخرى، كما كانوا يساعدون حلفاءهم أيضاً من الدول الكبرى في الغزوات البحرية، ونذكر للأمثلة على ذلك تجهيز

---

(1) Hitti, Op. Cit., 100.

(2) حول وصف هذه السفن وصورها انظر ذات المصدر (رقم 3، ص 349) ص 99 فما بعد.

الملك حيرام، ملك صور، صديقه وحليفه سليمان بالسفن[1]، وقاموا بمثل ذلك للملك الآشوري سنحاريب في غزوه البحري لبلاد عيلام.

وإلى الطرق البحرية كان للفينيقيين محطات برية أيضاً لإنماء تجارتهم ومن أشهر هذه المراكز التجارية الأديسة (الرها)، ولعله «نصيبين» أيضاً، ويقال إنه كانت لهم مواضع في خليج العرب تربطه والبحر الهندي بالبحر المتوسط. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مآثر الفينيقيين ترجع أصلهم إلى سواحل خليج العرب حيث تروى أنه كانت لهم مدن أسماء بعضها أرواد وصور وصيدا قبل استيطانهم في ساحل البحر المتوسط السوري[2].

أشهر مستوطناتهم ومستعمراتهم في الخارج:

ومن مظاهر نشاطهم التجاري ومهارتهم في الملاحة البحرية تأسيسهم المستعمرات المهمة خارج بلادهم، وقد بلغ بعضها مركزاً مهماً مشهوراً في التأريخ، واّتبعوا أساليب ناجحة في إقامتهم مثل تلك المستعمرات. فبالنظر إلى ضيق رقعة موطنهم الأصلي واتساع تجارتهم الخارجية كانوا يحتاجون إلى مراكز في أنحاء سواحل البحر المتوسط لتسهيل شؤون تلك التجارة، وكانوا يقيمون مثل هذه المستعمرات أولاً بمقياس صغير على هيئة مركز تجاري أو صناعي ويذهبون لإعماره بهيئة جماعة قليلة فلا يثيرون الشبهات حولهم ولا عداء المواضع التي يحلون فيها، كما أنهم لم يفرضوا سلطانهم السياسي، وامتازوا بقابلية التكيف مع العادات والأوضاع الجديدة على «نحو ما يفعل المهاجرون اللبنايون في الأزمان الحديثة»[3] فيصيبون النجاح والفلاح. ثم تنمو مثل هذه المراكز التجارية والصناعية وترتبط بعضها ببعض، وتتحوّل الجماعة التجارية إلى مستوطن نام دائم مرتبط بالتجارة البحرية بالبلد الأصلي. والمعتقد أن مستعمراتهم في شرقّي البحر المتوسط، وأشهرها قبرص، كانت أقدم من

---

(1) التوراة، سفر الملوك الأول 9: 27.

(2) Hitti, ibid., 100; Strabo, Bk. XVI, ch.3.

(3) انظر: (Hitti, Op. Cit., 102).

مستعمراتهم الأخرى في وسط هذا البحر مثل صقلية وسردينية التي يرجع عهدها إلى حدود منتصف القرن الحادي عشر ق.م.، ثم تلا هذه المستعمرات في القدم مستوطناتهم في شمال غربي أفريقيا وإسبانيا. ويرجّح كثيراً أن تونس في إقليم تونس الآن (واسمها القديم عوتيقا)[1] وقادس[2] في إسبانيا قد تأسستا في حدود (1000) ق.م.، ويليهما المدينة الشهيرة قرطاجة.

هذا وإن النقوش الفينيقية المكتشفة في سردينية وقبرص لا يمتد عهدها إلى ما قبل القرن التاسع ق. م، وأشهر هذه النقوش نقش الإله «بعل لبنان» الذي وجد في قبرص ويرجع عهده إلى منتصف القرن الثامن ق. م. فيبدو أن أعظم دور في نشاط الفينيفيين في إقامة مستعمراتهم في غربي البحر المتوسط كان بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق. م.

وقد سبق أن نوّهنا بالاكتشاف الخطير الذي حقّقه الفينيقيون في الملاحة البحرية، ذلك هو ملاحتهم في المحيط الأطلسي، فإن إنشاءهم لمركزهم المهم في قادس فيما وراء أعمدة هرقل (المقابل لجبل طارق) قد جعلهم يكتشفون ذلك الأقيانوس[3] الذي سماه العرب ببحر الظلمات، وعنهم تعرف اليونان بذلك البحر. ولا يعلم إلى أي مدى تغلغل الفينيقيون في هذا المحيط الواسع، ويرى بعض الباحثين أنهم وصلوا إلى إنكلترا (إقليم كورنوال) بحثاً عن القصدير. ولا يقرّ هيرودوتس أنهم وصلوا إلى جزائر القصدير[4] القريبة

---

(1) (Utica) أي المدينة «العتيقة» تمييزاً لها عن قرطاجة (قرت حدشت) أي القرية الحديثة التي تأسست من بعد تونس في حدود 850 ق.م.

(2) اسم قادس مشتق من كلمة فينيقية تعني الجدار، ومنها اسم المدينة بالبربرية «أجادير»، و«أغادير» من الجدار.

(3) لا يعلم مدى صحة الآراء التي ساقها بعض الباحثين من أن الكلمة الإغريقية «أوقيانوس» (Okeanos) ومنه الكلمة الإنجليزية (Ocean) مشتقة من الكلمة السامية «عوج» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) التي تعني «الدائرة»، أي الشيء المحيط كالدائرة (انظر المراجع المذكورة في (Hitti, Op. Cit., 103).

(4) كاستيراديز (Cassiterides)، (من الكلمة اليونانية للقصدير (Kassiteros) ومنه الكلمة العربية قصدير.

من «كورنوال»، وهي الجزائر التي يقول عنها ذلك المؤرخ إنها مصدر قصدير اليونان. أما المؤرخ «سترابون» (أواخر القرن الأول ق.م) فيرى عكس ذلك من أن الفينيقيين احتكروا تلك التجارة في الأزمان القديمة من قادس، وكانوا يخفون طريق الوصول إليها عن كل أحد. ومهما كان الحال فالمعروف، كما يروي المؤرخ «ديودوروس الصقلي»[1]، أن القصدير كان يحمل من بريطانيا إلى سواحل فرنسا ومن ثم إلى مرسيليا[2]، وقد عثر على نقش فينيقي في بريطانيا هو الوحيد من نوعه. وتعليل وجوده على الأرجح أنه جلبه أحد الجنود أو العمال الرومان بعد استعمارهم لإنكلترا واحتلالهم قرطاجة أيضاً[3]. ووجد أحد المنقبين في غزة قرطاً ذهبياً يعتقد المنقب الذي عثر عليه أن أصله من إيرلندا وتأريخه من حدود 1450 ق.م.[4].

وهناك أسماء عدة مواضع في إسبانيا أصلها من الفينيقية مؤيدة ما سبق أن ذكرناه عن المستعمرات التي أقامها الفينيقيون في إسبانيا كما توجد أيضاً أسماء مواضع في بلاد اليونان أصلها من السامية حيث تقرن بها عدّة أساطير متعلقة بالفينيقيين مما يدلّ على مدى الانتشار الذي حقّقه الفينيقيون من الناحية التجارية والثقافية[5].

---

(1) (Diodorus Siculus) الذي عاش في القرن الأول للميلاد.

(2) واسمها القديم مسيليا (Massilia) وكانت مستعمرة يونانية، ولعلها تقوم على موضع مستعمرة فينيقيا أقدم منها .(Hitti, Op. Cit., 104).

(3) انظر مجلة .Iraq, VII (1940), 67 ff

(4) Flinders Petrie, Ancient Gaza, II (1932), p.7 المشار إليه في .(Hitti, Op. Cit., 104).

(5) حول هذه الأسماء الفينيقية في إسبانيا واليونان راجع (Hitti, Op. Cit., 105, 106) أما عن الأساطير فننوّه بالأسطورة اليونانية الطريفة عن الإله اليوناني الأعظم «زوس» وكيف أنه انقلب ثوراً واختطف «يوروبا» العذراء الجميلة من الساحل السوري، وكانت «يوروبا» ابنة الملك الفينيقي «اجينور» (أو فينيق (Phoenix) بحسب الإلياذة) وجلبها إلى كريت، وعاد إلى شكله الأصلي وتزوجها فولد من هذا الزواج الملك الكريتي الشهير «مينوس»، وسميت قارة أوروبا باسم تلك العذراء الفينيقية «يوروبا».

قرطاجة[1]:

لقد سبق أن نوّهنا بهذه المدينة الفينيقية المهمة التي تأسست قرب مدينة تونس التي قلنا إنها كانت أيضاً من المستعمرات الفينيقية قبل زمن تأسس قرطاجة، واشتهرت هذه المدينة بالإضافة إلى مركزها التجاري والبحري بأنها أصبحت قوة دولية معظمة كان لها دور مهم في التأريخ ولا سيما في علاقاتها مع الرومان. فإنها لم يكد يمضي عليها زمن طويل حتى زاحمت وطنها الأصلي الذي بدأ يخيم عليه الخمول في القرن الثامن، وكان من أسباب هذا التقهقر مزاحمة المستعمرين الإغريق وضربات الآشوريين لبلاد سوريا بوجه عام والمدن الفينيقية بوجه خاص. أما القرطاجيون فقد ازدهروا في التجارة والأسفار البحرية مع الشعوب المختلفة، ومع الأقوام الهمجية في سواحل أفريقيا، ومن طريف ما يرويه هيرودوتس عن أساليب القرطاجيين في التجارة مع هؤلاء الأقوام أن الملاحين عندما يصلون إلى سواحل أفريقيا الغربية يفرغون حمولة سفنهم على الساحل وينسحبون إلى سفنهم ويوقدون ناراً لينبّهوا الأقوام الهمج على وجودهم، ولما أن يبصر هؤلاء هذه العلامة يأتون فيضعون ذهباً مقابل البضاعة المطروحة، وعندئذ ينزل القرطاجيون من سفنهم ويشاهدون كمية الذهب فإذا اقتنعوا بها فإنهم يأخذونها ويذهبون في طريقهم، وإلا انسحبوا مرة ثانية إلى سفنهم تاركين الذهب والبضاعة في محلها، وينتظرون محاولة أخرى من القوم، وهكذا يتمّ التبادل التجاري بهذه الطريقة من المعاملة الخرساء[2].

واتسعت قرطاجة بتجارتها وملاحتها ونفوذها بحيث إنها أنشأت منذ القرن السادس ق.م. أمبراطورية ممتدة من ليبيا[3] إلى أعمدة هرقل وكانت

(1) هناك مستعمرة فينيقية أخرى في إسبانيا اشتق اسمها من قرطاجة (Carthage) وهي قرطاجنة (Carthegena) التي تعرف الآن بهذا الاسم أيضاً في إسبانيا، فيجب عدم الخلط بين الاسمين.

(2) Herodotus, Bk. II, ch. 196.

(3) طرابلس الآن (Cyrenaica).

تضم إليها جزائر «بلريك» ومالطة وسردينية وجملة مستوطنات في الساحل الإسباني والفرنسي، وهكذا عوضت هذه المستعمرة الفينيقية عن وطنها الأم في صور وصيدا في عدم قدرتهما على إنشاء مملكة قوية موحّدة بسبب ضغط المصريين والآشوريين.

لقد سبّب هذا الاتساع التجاري البحري والاتساع السياسي اصطدام قرطاجة مع الدولة الرومانية الناشئة حيث أخذت تنازعها على سيادتها البحرية، وقد بلغت سيادة القرطاجيين في البحر المتوسط وسيطرتهم عليه مبلغاً بحيث إن الرومان حذروا من غسل حتى أيديهم في مياهه بدون موافقة قرطاجة. ويقال إن الرومان قلّدوا صناعة سفينة قرطاجية قد نبذت قرب سواحلهم وبنوا على شاكلتها 130 سفينة في ستين يوماً[1] وسرعان ما نشبت الحروب الطاحنة بين الطرفين التي دامت أكثر من مائة عام (264 ـ 146 ق.م) وعرفت في تاريخ الرومان باسم الحروب البونية (نسبة إلى اسم فينيقيا). وكانت آخر الحروب بقيادة هانيبال[2] (218 ق.م) الذي خلف أباه «هملكار» وهو شاب فأخذ يعدّ العدّة لحرب روما وقام بمشروع حربي خطير هو غزو إيطاليا من إسبانيا باجتياز الألب، وبعد خمس عشرة سنة من حروبه في التربة الإيطالية هوجمت في أثنائها روما نفسها، استدعى هانيبال إلى قرطاجة حيث أرسل الرومان حملة بحرية كبرى لمهاجمتها وكانت الموقعة الشهيرة «زاما» حيث دحر فيها هانيبال (196 ق.م)، فهرب إلى صور والتحق بالملك السلوقي أنطيوخس، ملك سوريا، وانضم إليه في حربه مع الرومان وانتحر في عام 183 ق.م. في آسيا الصغرى، وكان من أعاظم قواد الحرب في التأريخ. ومع رضوخ قرطاجة إلى الرومان ودفعها غرامة حربية كبرى فإن الرومان لم يتركوها وشأنها بل تحرّشوا بها وأعلنوا الحرب عليها مرة ثالثة، وعلى الرغم مما أبداه القرطاجيون من

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 107).

(2) اسم هانيبال من الفينيقية «حني ـ بعل» أي (فضل بعل)، ويلقب أبوه باسم هملكار برقة (من البرق والصاعقة).

بطولة وتضحية فذتين فقد دارت الدائرة عليهم ولما يئسوا من الظفر أشعلوا النار في مدينتهم، وتمّم الرومان هذا التخريب بحيث زالت مدينة قرطاجة من الوجود في عام 146 ق.م.، وهكذا تفرّد الرومان بزعامة البحر المتوسط.

شيء عن الآداب والديانة عند الكنعانيين والفينيقيين:

الحروف الهجائية:

اشتهر الفينيقيون باقتران اسمهم بالحروف الهجائية من كونهم هم الذين يدين إليهم العالم بهذا الاختراع العظيم. وبالنظر لأهمية هذا الموضوع في تأريخ الحضارات البشرية نقول شيئاً موجزاً عمّا وصل إليه البحث الحديث في أصل ذلك الاختراع. ولكي يدرك القرّاء أهمية هذا الاختراع يلزم أن يعيدوا إلى أذهانهم ما قرأوه عن خطوط الحضارات القديمة (كالخط الهيروغليفي في حضارة مصر والخطوط المسمارية في وادي الرافدين وعند الأقوام الأخرى التي اقتبست الخط المسماري) وصعوباتها الجمة كأداة للكتابة من ناحية كثرة العلامات المستعملة وصعوبة فهمها وغموضها وعدم ملاءمتها الملائمة الكافية في تأدية أصوات اللغات البشرية، فهي مكوّنة من عدّة مئات من العلامات الناشئة عن أصل صوري بعضها يقوم مقام الكلمات[1]، وأنها حتى في انتقالها إلى الطور الصوتي لم تنتقل إلى الطور الهجائي الصرف بل استخدمت عدداً كبيراً (بالنسبة إلى حروف الهجاء القليلة) على هيئة مقاطع صوتية وظلّت مع هذا الانتقال تستعمل العلامات الرمزية. وقاربت الهيروغليفية أن تتطور إلى المرحلة الهجائية حيث قلنا إن المصريين القدماء خصصوا (24) علامة هيروغليفية استعملت بهيئة «هجائية مقطعية» (أي بهيئة حرف صحيح مع أي حرف علة)، كما استخدموا علامات أخرى لتقوم مقام حرفين صحيحين مع أي حروف علة. أما الكتابة المسمارية فقد ظلّت مقطعية صرفة. وبالمقابلة مع هذا الطرق الثقيلة من الكتابة اهتدى البشر إلى اختراع مبدأ الحروف الهجائية التي

(1) وهو الذي سميناه بـ (ideogram) أو (logogram).

ينبغي عدّه من بين الاختراعات العظمى في تاريخ البشر. فأين حدث هذا الاختراع؟ ومن هم القوم الذين أوجدوه؟ ولنسأل أولاً ما هي الحروف الهجائية بالمقابلة مع طرق الكتابة الرمزية والصوتية المقطعية؟ والجواب على ذلك باختصار أن الحروف الهجائية علامات مصطلح عليها، تقوم كل علامة منها للتعبير عن صوت واحد في الكلام[1]. وفي جوابنا عن أصل اختراع الحروف الهجائية سوف نقتصر على إيجاز أهم النتائج الحديثة في الموضوع[2] دون الدخول في المناقشات الفنية المعقدة، فنقول إن أصل حروف الهجاء لم يكن من الفينيقيين بوجه مباشر ولا تمثل أقدم حروفهم الهجائية أصل الحروف الهجائية في العالم، وإنما الذي يصحّ قوله في هذا الموضوع أن أصل الحروف الهجائية من كتابات الأقوام السامية الغربية (أي من سوريا بوجه التحديد) أي من منطقة جغرافيّة تمتد من طور سيناء إلى أقاصي حدود بلاد الشام شمالاً وغرباً. والأمر الثاني المهم حول أصل الحروف الهجائية أنها كما نعرفه وهي في طور نضجها لم تنشأ دفعة واحدة وهي كاملة النضج كما أننا لا نستطيع أن نعين بوجه التحديد المنطقة الخاصة من بلاد الشام التي اخترعت فيها الحروف الهجائية لأول مرة ولا القوم الخاصين الذين يرجع إليهم فضل اختراعها. وإنما وجدت أنواع كثيرة من النقوش السامية الغربية المدوّنة بأنواع من

---

(1) ومن ناحية الأصل التأريخي يمثل هذا الصوت الصوت الأول للشيء المادي الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً هجائياً فمثلاً صوت الحرف (أ) هو الصوت الأول من لفظ ألف «وأليف، أو «ألبو» ومعناه الثور في اللغات السامية حيث أخذ شكل رأسه المبسط واستعمل بهيئة حرف للألف) وصوت «ب» مأخوذ من الصوت الأول للفظ «بيت» الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً للباء وصوت (س) هو الصوت الأول من اللفظ (سن) أي السن الذي استعملت صورته حرفاً للسين) وهكذا. ونذكر بهذه المناسبة أنه مع ابتعاد الحروف الهجائية العربية الحالية عن أصلها الصوري فإن بعض حروفها لا يزال يمثل صور الأشياء التي استعملت أصواتها الأولى حروفاً، مثل حرف السين (س) وحرف العين (ع) الخ..

(2) انظر أحدث البحوث في الموضوع والإشارة إلى الآراء السابقة مع بحث قيم في طرق الكتابة المختلفة عند البشر في المرجع الآتي:

I.J. Gelb, A Study of Writing. The Foundations of Grammatology (1952).

مجموعات العلامات التي يصحّ أن نعدها أصل الحروف الهجائية الصرفة الناضجة، وقد بدأت مثل هذه النقوش تظهر منذ منتصف الألف الثاني ق.م. ونذكر فيما يأتي أشهر هذه النقوش بالنظر لأهميتها في علاقتها بأصل الحروف الهجائية:

(1) النقوش المشهورة التي وجدت على الأحجار والأنصاب في شبه جزيرة طور سيناء في الموضع المعروف باسم «سرابيط الخادم»، وقد أرّخت هذه في حدود 1600 ـ 1500 ق.م. وعلّل وجودها في هذه المنطقة أنها من آثار العمال الساميين الذين كانوا يشتغلون في مناجم سيناء[1]، وقد كتبت هذه النقوش بعلامات محدودة العدد، وقد استعملت بهيئة صوتية حيث تمثل كل علامة صوتاً خاصاً ولكن ليس الصوت الأول على الدوام أي إنها كانت أقرب ما تكون إلى «الهجائية ـ المقطعية».

(2) ووجدت حديثاً في جملة مواضع في فلسطين مثل «الخيش» (تل الدوير) ومجدو وشكيم (نابلس) وتل الحصى نقوش لكتابات كنعانية ـ فينيقية شبيهة بالهجائية وهي من أدوار مختلفة ولكن يرجع معظمها إلى ما قبل العهد العبراني وأقدمها يرجع في تاريخه مثل نقوش طور سيناء إلى حدود 1600 ـ 1500 ق.م.

(3) ومن الاكتشافات الآثارية الخطيرة ما وجد في رأس الشمرة (أوغاريت القديمة) قبل نحو 24 عاماً، حيث وجد فيها جملة ألواح من الطين مكتوب بنوع غريب من العلامات المنتهية بالمسامير على غرار شكل الخط المسماري البابلي، ولكنها ليست من نظام الخط المسماري بل إنها شكل من أشكال الحروف الهجائية، وعددها 29 علامة تعبّر عن الأصوات السامية المألوفة في اللغات السامية الغربية، ويرجع تأريخها إلى حدود 1400 ق.م. أما سبب شبهها بالعلامات المسمارية فناشىء من كتابتها على ألواح الطين

---

(1) انظر Gelb, Op. cit. والمرجع الآتي: BASOR, No. 110 (1948), 1 ff.

واستعمال القلم الخاص الشبيه بالقلم المستعمل في كتابة الخط المسماري البابلي[1].

(4) ومن أنواع الخطوط المهمة التي كشفت حديثاً خط وجد في الكتابات التي عثر عليها في جبيل ويرجع عهدها إلى حدود 1000 ق.م.، وبعضها نقوش تعود إلى الملك «أحيرام» ملك جبيل. وكانت هذه الطريقة من الكتابة أقرب الطرق وأنجحها في تأدية المبدأ الهجائي وتتألف من 22 حرفاً، والمرجّح فيها أيضاً أن منها اشتقّت الكتابات السامية الهجائية الأخرى التي تمثلها الفروع الرئيسية الآتية وهي:

(1) الفينيقية.

(2) الحروف الفلسطينية (العبرانية القديمة).

(3) الآرامية.

(4) العربية الجنوبية[2]. ولكن ذلك لا يعني بوجه التأكيد كون هذه الحروف الجبيلية التي هي أصل أنواع الحروف السامية قد اخترعت في جبيل بوجه خاص أو حتى في فينيقيا، بل إن ما وجد في جبيل حتى الآن يمثّل نموذجاً من هذه الحروف التي هي أقرب أنواع الحروف التي ذكرناها يكونها أصل الخطوط السامية الأخرى.

وموجز القول كان منشأ الحروف الهجائية من بلاد الشام من الأقوام

---

(1) انظر التوراة، سفر الملوك الأول 9: 27. والمرجع Hans Bauer, Das Alphabet von Ras Shamra (Halle, 1932).

(2) واشتقت من الحروف الفينيقية الحروف الإغريقية ومنها الأتروسكية ومن هذه اللاتينية ومنها سائر الحروف الأوروبية في القرون الوسطى. وتفرع عن الخط الآرامي الخط العبراني والهندي والخطوط المختلفة في تدمر وخط الأنباط والخط السرياني ومن النبطي تفرع الخط العربي، ومن الخط الآرامي أيضاً الخط البهلوي والأفستي والخط الأرميني والجورجي والصغدي والخط المندائي، ومن فروع الخط العربي الجنوبي الخط الثمودي واللحياني والصفوي والحبشي.

السامية التي استوطنتها، وأنها تتألف من عدد محدود من العلامات (22 ـ 30 علامة) تمثل أصوات اللغات السامية بحسب المبدأ الهجائي وبعضها كان صورياً وبعضها خطياً، فكيف نشأت هذه الطريقة العظيمة في الكتابة؟ وهل يرجع أصلها إلى الكتابة المسمارية أو إلى الكتابة الهيروغليفية؟ الواقع أن أقرب هذه الخطوط القديمة إلى الحروف الهجائية السامية هو الخط الهيروغليفي، فقد سبق أن ذكرنا عن هذا الخط أنه خليط من الكتابة الرمزية والكتابة «الهجائية ـ المقطعية»، إذ رأينا أن فيه 24 علامة تدل على الحروف الصحيحة مقرون كل منها بأي حرف علة. فإذا كان لا بدّ للساميين الذين أوجدوا الحروف الهجائية من تأثرهم بإحدى الطرق الكتابية في الحضارات القديمة فإن تلك الطريقة ينبغي أن تكون تلك المجموعة من العلامات الهيروغليفية المشابهة للمبدأ الهجائي. أما مدى الصلة بين هاتين الطريقتين من الكتابة وهل أن الحروف السامية الهجائية مشتقة من العلامات الهيروغليفية مباشرة أو أنها أخذت الحافز منها على نحو ما يراه الباحثون في صلة الخط الهيروغليفي نفسها بالخط المسماري القديم، فكل ذلك لا يمكن البتّ به على وجه التأكيد. وقد سبق أن ذكرنا اشتقاق الحروف الهجائية الإغريقية من الحروف السامية، عن طريق الفينيقيين على ما يرجّح، كما يقرّ الإغريق أنفسهم[1]، وكما تشير إلى ذلك أسماء الحروف الهجائية وترتيبها عندهم حيث احتفظ الكثير منها باسمه السامي[2]، وكذلك جعلت لها قيم عددية مطابقة لقيم الحروف الأبجدية السامية[3]. وقد حسَّن الإغريق في الحروف الهجائية التي

---

(1) حول هذا الموضوع الطريف راجع:

(1) M. Dunand, Byblia grammata (Beyrouth, 1945), 189 ff.

(2) G.R. Driver, Semitic Writing (London, 1948) 128 ff.

(2) I.J. Gelb, Op. Cit., 176 ff.

(3) هناك اختلاف كبير حول الزمن الذي أخذ فيه الإغريق الحروف الهجائية من الفينيقيين ولعل القرن التاسع ق.م. أقرب الأزمان إلى الحقيقة، ويحتمل القرن الثامن أيضاً. I.J. Gelb, Ibid, 178.

استعاروها مثل اتخاذهم حروف العلة الطويلة والقصيرة وكتابتها ضمن الكلمات بخلاف الطريقة السامية بوجه عام، حيث خصّصوا بعض الحروف السامية التي يطلق عليها اسم الحروف الصحيحة الضعيفة وجعلوها حروفاً للعلة. كانت هذه التحسينات على درجة من الأهمية بحيث يميل بعض الباحثين إلى الرأي إن نظام الحروف الهجائية الصحيحة الناضجة لم يظهر بوجه كامل صحيح إلّا على أيدي اليونان[1].

وبعد هذا البحث الموجز عن أصل الحروف الهجائية ننتقل إلى ذكر بعض الأشياء العامة عن مآثر الآداب الكنعانية ـ الفينيقية.

ومما لا شك فيه أن الكنعانيين والفينيقيين كتبوا بعض آدابهم بالحروف الهجائية ولكن لم يأتنا من هذه أشياء كثيرة ولعلها كُتبت بالدرجة الأولى على مواد قابلة للتلف، كما استعملوا الخط المسماري البابلي في بعض مواطنهم. وقد دخل جزء مهم من آدابهم في تراث العبرانيين ولا سيما في كتاباتهم المقدسة كأقوال الحكمة والأمثال والمزامير ونشيد الإنشاد وبعض الأساطير مما جاء في سفر التكوين وسفر الأنبياء[2].

الاكتشافات الأثرية في أوغاريت:

ومما يؤيد الرأي الذي ذكرناه عن اقتباس العبرانيين من أدب الكنعانيين والفينيقيين ما أسفرت عنه الاكتشافات الآثارية الحديثة في أوغاريت (رأس الشمرة القريبة من اللاذقية)[3]. وكان من بين الآثار القيِّمة التي وجدت فيها ما

---

(1) I.J. Gelb, Ibid, 166.

(2) Hitti, Op. Cit., 115 - 116.

(3) لقد ورد ذكر هذه المدينة مراراً حيث أظهرت التنقيبات الفرنسية فيها منذ عام (1928 ـ 1929) نتائج على قدر عظيم من الأهمية، فقد كشف عن أدوار كثيرة مرّت على المدينة منذ العصر الحجري المعدني (منذ الألف الخامس ق.م. حيث وجدت أواني الفخار الجميلة الملونة من طور حلف)، ويبدو أن عهد ازدهارها كمدينة مهمة كان في حدود القرن الرابع عشر ق.م. ويشير اسم المدينة المأخوذ من اللغة السومرية (أوغاريت من أوجار بلفظ الجيم كافاً فارسية أي مثل عقار العربية وتعني الحل) إلى تأثر هذا الإقليم بالثقافة السومرية وكان=

سبق أن نوّهنا به في كلامنا على الحروف الهجائية وهو مجموعة ألواح الطين المكتوبة بعلامات مسمارية التي قلنا إنها من أنواع الحروف الهجائية السامية القديمة من القرن الرابع عشر ق.م. ولعلها نسخ عن أصول أقدم، وقد كتبت بلهجة من اللغة الكنعانية. أما مادتها فتدور على النصوص الدينية، وتُعدّ أقدم نماذج للآداب الكنعانية وقد جاء بعضها على هيئة أساطير شعرية تدوّن لنا إحداها أسطورة النزاع أو الحرب السنوية التي تقوم بين إلٰه الخضار الذي سمّوه «عليان بعل» وبين عدوّه الإلٰه «موت» (أي الإلٰه الموت)، ويكون النصر في مبدأ الأمر للإلٰه «موت»، ولكن الإلٰه «بعل» ينتصر عليه في الخريف في بداية سقوط الأمطار الخريفية. ولا يستبعد أن هذه الأسطورة كانت تمثّل بهيئة دراما دينية. وقد وجد الباحثون في هذه الاكتشافات الحديثة مواطن كثيرة تتشابه فيها النصوص الأوغاريتية مع الآداب العبرانية المقدّسة مثل سفر أيوب، كما يوجد شبه أيضاً في اللغة والبحر الشعري والتأليف بما هو موجود في المزامير[1]. فمثلاً العبارة الواردة في الأدب الأوغاريتي «ممتطي الغمام» صفة الإلٰه بعل، وهي نفس الصفة المنعوت بها إلٰه العبرانيين (المزمور السادس والثمانون: 4)، كما أن الرعد صوت «بعل» والرعد صوت «يهوه» أيضاً كما جاء في (أيوب 37: 2 ـ 5، والمزمور 29: 3 ـ 5) وورد ذكر الحيوان الخرافي «اللوياثان» الذي ذبحه «بعل» كما فعل الإلٰه «يهوه».

وترينا هذه الأسطورة الخاصة بالإلٰه «بعل» والأساطير الكنعانية الأخرى

= للمدينة ميناء بحري (ويسمى الآن المينا البيضاء، وتبعد خرائب المدينة عنه إلى الداخل بنحو ميل واحد). وقد كشفت التنقيبات عن قصر فخم أعمدته موشاة بالفضة وهو يعود إلى أحد ملوكها الذي عاش في حدود 1400 ق.م.، ويعرف باسم «نقماد» أو «نقم أدا» (أي نقمة الإلٰه أدد أو حدد). ويعزى ازدهارها إلى تجارتها البحرية. وقد دمّرها أهل البحر الإيجيون الذين اندفعوا بفلولهم على أثر الهجرات اليونانية في حدود 1200 ق.م.، ولم يقم لها قائمة من بعد هذا التأريخ.

(1) انظر: John H. Patton, Canaanite Parallels in the Book of Psalms (1944). وكذلك (Hitti, Op. Cit., 115 ff.) حيث تجد بعض الأمثلة على أوجه الشبه في العبارات الموجودة في سفر أيوب والمزامير.

أن أساس ديانة الكنعانيين عبادة القوى الطبيعية المنتجة المولدة وقوى النموّ والخصب مما يميز المجتمعات الزراعية. كما تأثر الكنعانيون، مثل غيرهم من الأقوام التي استوطنت سوريا، في أديان الحضارات المجاورة ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل. وتدور هذه العبادة على إلٰه الخصب وفكرة موته والنواح عليه وتغلبه على الإلٰه الموت ثم اقترانه بإلهة الخصب التي سميت بأسماء مختلفة منها «بعلة» و«عناة» (عاناة) التي هي شكل من أشكال الإلهة عشتار. كما أن إلٰه الخصب الذي يموت عرف بأسماء مختلفة منها «بعل» (كما عند الكنعانيين) وكذلك عرف باسم «تموز» وهو الإلٰه البابلي الذي سبق أن ذكرنا علاقته بالإلهة عشتار. وأن فكرة الإلٰه الذي يموت ويقوم من بعد الموت الذي يمثل حياة الخضار الدورية في الطبيعة قد دخلت في مآثر الديانة المسيحية[1]. ومن الأسماء الكنعانية المهمة لإلٰه الخصب «تموز» اسم «آذون» (أي السيد أو الرب) ومنه الاسم اليوناني للإلٰه الشهير «أدونيس»[2] الذي عبده اليونان في حدود القرن الخامس ق.م.، وتوجد أسطورة تروي ما حلّ به من المصاب إذ إن تموز قتله خنزير وحشي في أثناء ما كان يصطاد، ولما انتقل إلى العالم الأسفل حلّ في الطبيعة الموت ولا سيما في حياة النبات، فنزلت عشتار إلى العالم الأسفل وأقامته من عالم الموت فعادت حياة الخضار إلى الأرض[3]. وقد قدس الفينيقيون الإلهة عشتار واشتهرت مدينة

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 117).

(2) ومنه أيضا الكلمة التي يطلقها العبرانيون على الإلٰه «يهوه» الذي حرموا النطق باسمه بل سموه بدلاً من ذلك «أدوناي» (أي ربي أو سيدي). كما أن لهذا الإلٰه علاقة بالإلٰه المصري «أوسيريس»، ولعل الاثنين أصلهما إلٰه واحد للخصب هو «تموز».

(3) قارن أسطورة نزول عشتار إلى العالم الأسفل لإنقاذ بعلها تموز في أساطير العراق القديم (فقد جاءتنا من ذلك روايتان سومرية وبابلية، انظر ذلك في الجزء الأول، وترجمة الأسطورتين إلى العربية في مجلة سومر 1950). وقد اشتهرت حران بعبادة تموز وعادة النواح عليه كما كان الحال عليه في العراق، وقد ظلت عادة النواح في حران إلى أيام الإسلام كما روى ذلك ابن النديم من فهرسته. وأخذ اليونان الأسطورة الخاصة بأدونيس وأفروديت.

جبيل بعبادتها[1]، كما أنهم خصصوا موضع الفاجعة التي حلّت بالإله «تموز ـ أدونيس» عند منبع نهر إبراهيم، مما جعل ماء النهر يتغير أحمر في موسم خاص من جرّاء دم الإله[2]، ونشأت عند الفينيقيين من ذلك جملة طقوس دينية كانت تُقام بالدرجة الأولى في جبيل (التي تقع شمال مصب نهر إبراهيم بنحو خمسة أميال)، ومن الشعائر المهمة بحث النسوة عن الإله المختفي، وكان العيد السنوي يستغرق سبعة أيام، وعندما يقوم «تموز» من الموت يعمّ الفرح الناس ولا سيما النسوة حيث ينذر بعضهن عفافهن ويخصي بعض الرجال أنفسهم ويكرّسون أنفسهم للخدمة في معبده الخاص[3].

---

(1) لقب الفينيقيون عشتار بربة أو سيدة جبيل، وقد شيّد لها فيها معبد شهير شاهده بعض الكتّاب الرومان وهو «لوشيان» في حدود 148 م ووصف رسوم العبادة الخاصة به.
انظر كتابه «الآلهة السورية» (Lucian, De Dea Syria)

(2) ولعله من الممكن ربط ما يقوم به الناس الآن عند منبع النهر حيث يزورون «سيدة المكان» التي صارت عندهم السيدة مريم العذراء، ويكرسون السرج المضاءة في محراب صغير تحت شجرة تين يعلق بها الناس (من مسيحيين وشيعة) قطعاً من ملابسهم طلباً للشفاء والتبرّك. وهناك رواية أخرى للأسطورة تجعل «تموز ـ أدونيس» الملقّب بالفينيقية بلقب «نعمان» يتحوّل إلى شقائق النعمان وهو النبات الذي سمي باسم الإله واكتسب لونه من دم أدونيس القاني (Hitti, Op. Cit., 117).

(3) نشأت ممارسة البغاء المقدس مع عبادة الإلهة عشتار، وهناك إشارات في مآثر العراق القديم إلى وجود ما يسمى «بنساء المعبد» أو «بغايا المعبد»، وانتشرت هذه الممارسة على ما يروي هيرودوتس وسترابون في جبيل بالاقتران مع عبادة عشتار وكذلك في بابل وقبرص واليونان وصقلية وقرطاجة. انظر:
(Hitti, Ibid., 118; Herodotus, I, ch. 199; Strabo, XVI, ch.I).
كما ذكرت التوراة وجود «بغايا المعبد» (حزقيال، 8: 14، وسفر التثنية 23: 18، وميخا 1: 7). إن هذه الإباحية الجنسية من العناصر المهمة في عبادة الخصب في المجتمعات البشرية القديمة في جميع العالم. ولعل من آثار تكريس النسوة أنفسهن إلى الإلهة عشتار العادة المتّبعة الآن بين الراهبات المسيحيات عندما ينذرن أنفسهن إلى العروس الإلهية حيث يجززن شعرهن (Hitti, Ibid, 118) ويروي بعض الباحثين أن الختان، وهو عادة سامية قديمة، نشأ من عبادة إلهة الخصب عشتار بتضحية جزء من عضو الذكر لهذه الإلهة «ذات المصدر»، ولكن يشك في هذا التفسير لأصل عادة الختان لأن المصريين القدماء كانوا يمارسونه والمرجّح أن العبرانيين أخذوا العادة منهم.

وهناك إلٰهان مهمان في عبادة الكنعانيين بوجه خاص والساميين بوجه عام منشؤهما من عبادة الظواهر الطبيعية، حيث انتخب منها إلٰهان بارزان هما الإلٰه السماء، وهو الإلٰه الأب. والإلهة الأرض، وهي الإلهة الأم، فعبد الإلٰه السماء في أوغاريت باسم «إيل» (EL) والإلهة باسم «أشيرة» أو «أشيرات» (عشتار). وكان «إيل» الإلٰه الأسمى عند الأقوام السامية في سوريا ولا سيما الكنعانيين والعبرانيين. ولقب بلقب «عليان» (بفتح العين وتسكين اللام) وعبد أيضاً باسم بعل. ويرجّح أن الإلٰه الذي كان العبرانيون يضحّون له الأطفال باسم «مولوخ» أو «مولك»[1]، وهو الإلٰه الذي عبد في صور باسم «ملك ـ قرت» (أو ملكرت، ملك كرت) (أي ملك أو إلٰه المدينة). أما الإلهة الأم فقد ذكرت وعبدت بصيغ مختلفة منها ما ذكرناه من اسم «أشيرة» وكذلك عشتارة وعثتارة، وسماها العبرانيون «عشتوريت» (وأطلق اسم عشتار في جنوبي الجزيرة العربية على اسم إلٰه مذكر)، وهي عشتار عند البابليين، وقد عبدها اليونان باسم «أفروديت» والرومان باسم فينوس، ودعيت أيضاً في بلاد الشام باسم «بعلة» (السيدة) بالنسبة إلى المواضع المختلفة مثل «بعلة جبلا» (أي بعلة جبيل)، وعرفت أيضاً باسم «ملكة» (أي الملكة)، (والمقصود بذلك ملكة

---

(1) أو «مولوك» الذي ورد ذكره في التوراة (سفر الملوك الأول 11: 5، 33، وسفر الملوك الثاني 23: 13)، وقد وجدت في مواضع مزاراته بقايا أطفال مدفونين في الجرار مما يؤيد رواية التوراة، والمأثور عن هذا الإلٰه أنه أقيم له صنم من نحاس مجوّف وكانوا يشعلون فيه ناراً حامية ثم يقربون له الذبيحة البشرية، وعلى الرغم من تنديد أنبياء اليهود وتحذيرهم الناس من عبادة مولوك إلا أن اليهود مارسوا مراراً هذه العبادة الشنيعة ولا سيما في الموضع المسمى وادي بني هنوم (2 ملوك 23: 1) وفي مواضع أخرى. والوادي الأول أي «وادي بني هنوم» أو «وادي هنوم» يقع جنوبي أورشليم وغربها (ويعرف باسم وادي ربابة الآن)، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي بوادي توفة أو وادي القتل، ولكي ينقطع الناس عن أتباع العادة مطلقاً أخذوا يرمون فيه الفضلات والقاذورات ويصبون فيه مياه القاذورات من المدينة. وكانوا يحرقون الكناسات فيه، وأخذ من اسم الموضع أي «جي ـ هنوم» اسم «جهنم» لإطلاقه على موضع العقاب (انظر أيضاً العهد الجديد، متى 5: 22، 10: 28، 23: 15).

السماء)، وباسم «عناة» أو عاناة[1]، حيث جاء ذكرها في لوح من أوغاريت وهي أخت «عليان بعل»، وإنها العذراء، وباستطاعتها الإحياء والإماتة، كما أن الحب والحرب من أبرز صفاتها.

وقد أسفرت التحريات الحديثة في بلاد الشام عن الكشف عن المعابد القديمة، وبعضها يرجع إلى عهود قديمة جداً (الألف الثالث ق.م)، كما وجدت في «أريحا» و«مجدو» وكانت بأبسط صورها مؤلفة من حجرة واحدة ولها باب في ضلعها الطويل، ولكن تطور بناء المعابد من بعد منتصف الألف الثاني ق.م.، وازدادت مرافقها وأجزاؤها كما تمثلها لنا المعابد التي كشفت عنها التنقيبات الحديثة في «بيسان» (بيت شان)[2] وأوغاريت وغيرها. وتشترك مثل هذه المعابد[3] جميعها بعناصر أساسية:

(1) مذبح من الحجر.

(2) النصب المقدس.

(3) وبجانبه العمود المقدس.

(4) والحجرات التي تحت أرضية المعبد. وكان المذبح الذي تُقدّم فوقه القرابين أهم أجزاء المعبد.

---

(1) وقد دخل اسمها في جملة مواضع في بلاد الشام مثل «بيت عناث» الواردة في التوراة (سفر يشوع 19: 35، 38، وقضاة 1: 33) وهي الموضع المسمى الآن «البعنة» قرب عكا إلى الشرق. ومثل «بيت عنوث» (يشوع 15: 59) وتعرف الآن باسم «بيت عينون» شمال شرقي حبرون بنحو ثلاثة أميال، ومثل «عناثوث» (يشوع 21: 18) وهي مسقط رأس أرميا وتعرف الآن باسم «عناتا» إلى الشمال الشرقي من القدس بنحو أربعة أميال، ويرجّح أن اسم عانة، المدينة العراقية الآن من اسم هذه الآلهة، وكانت مركز إقليم مهم في العهود البابلية القديمة.

(2) انظر:

Rowe, The Four Canaanite Temples of Beth-shan (1940).

وقد وجدت في هذا الموضع أربعة معابد كنعانية لعبادة الحيات والأفاعي وهي عادة كانت شائعة في الشرق الأدنى القديم وفي كريت.

(3) اسم المعبد في الكنعانية «هيكلو» (الهيكل) (بفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة) مأخوذ من المصطلح السومري «أي ـ كال» (E-gal) أي البيت الكبير أو الجليل.

أما النصب أو الحجرة القائمة (وتسمى مصيبة) فهي ترمز إلى الإلٰه ويقوم بجانبها العمود المقدس أو الشجرة المقدسة (وهي أشيراه بالعبرانية، أي الأكمة) التي ترمز إلى إلٰه الخصب أو إلهة الخصب. والمرجّح أن الحجرات التحتية كانت تستعمل لغرض العرافة والفأل ومعرفة إرادة الآلهة. وكان النصب والعمود المقدسان يقومان مقام الأصنام الممثلة للآلهة، وإلى جانب ذلك استعملوا الدمى الصغيرة المصنوعة من البرونز، ووجد بعضها وهو يمثل الإلٰه «بعل»، وتمثل الإلهة عادة بدمية عارية ويداها على جانبيها أو ماسكتان لثدييها.

وإلى جانب المعابد المبنية استعمل الكنعانيون لعبادة آلهتهم معابد محلية في العراء، في قمم التلال. وهذه هي «المواضع العالية» المشار إليها في التوراة[1]، حيث لا ينصب فيها على ما يحتمل سوى مذبح الحجر وعمود الحجر المقدس.

وتدل عادة الدفن التي اتبعها الكنعانيون من دفن بعض الحاجيات العائدة إلى الميت على وجود فكرة عودة الحياة من بعد الموت أو ما شاكل ذلك. ولم يمارسوا التحنيط إلّا في حالات قليلة عند بعض الملوك الكنعانيين بتأثير العادة المصرية. ومن التأثيرات المصرية أيضاً فيما يخصّ عادة الدفن صنع التوابيت الملكية التي اشتهر بها الفينيقيون حيث كانت تُصنع بهيئة إنسان يمثل الملك[2]، وقد وجد عدد كبير من هذه النواويس غطاؤها ممثل على هيئة رأس إنسان أو جسم إنسان كامل مع الرأس، ويتراوح أزمانها من القرن السادس إلى القرن الثالث ق.م.، وأشهرها ناووس الملك «اشمن ـ عزر» بن «تبنيت» الذي حكم من بعد فتح الإسكندر بنحو نصف قرن. وقد نقش غطاء الناووس المصنوع على هيئة آدمية بنص مطول حيث اعتادوا كتابة مثل هذه النصوص لضمان عدم العبث بالجثة إذ يؤكّد النقش أنه لم يدفن مع الجثة أشياء ثمينة. ويوجد في المتحف الوطني في بيروت مجموعة ممثلة من هذه النواويس.

---

(1) سفر الملوك الأول 13: 2، وأرميا 32: 35، وهوشع 10: 8.

(2) وسُمّيت لذلك بمصطلح (Anthropoid Sarcophagus).

الفصل التاسع والعشرون

الآراميون

الآراميون:

الآراميون، كما سبق أن ذكرنا، هم الجماعة الكبرى الثالثة من الهجرات السامية في بلاد الشام، وكانوا قبل استيطانهم واستقرارهم في بلاد الشام، من بين الجماعات البدوية التي كانت تجول في بوادي الجزيرة الشمالية، وكانت تتغلغل منها جماعات بين الحين والحين في البلدان المتحضرة المجاورة مثل سوريا والعراق، وقد استوطنوا أخيراً في جهات الفرات الأوسط منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وهنا نمت لغتهم وقوميتهم وثقافتهم الخاصة بهم، وقد اقتبسوا من الأموريين والكنعانيين ومن الحضارات التي جاوروها ولا سيما حضارة وادي الرافدين والحثيين، ولكنهم حافظوا على لغتهم ولهجتهم الخاصة بهم، وقد كان لهذه اللغة أثر عظيم في جميع آسيا الغربية. واللغة الآرامية من فروع كتلة اللغات السامية الغربية التي انتشرت في بداية الألف الثاني ق.م. شمال غربي ما بين النهرين، أما اسمهم فإن أقدم استعمال له على ما نعلم من المصادر المعروفة حتى الآن يبتدىء منذ عهد الملك الآشوري تجلاثبليزر الأول (1100 ق.م)[1]، حين كانت مواطنهم منتشرة في الفرات الأوسط إلى سوريا غرباً، ولا يعلم معنى اسم آراميين والمرجّح اشتقاق كلمة «ارم» المذكورة في القرآن من اسمهم. ومما سهل عليهم التوطّن في مواطنهم اضطراب الأحوال في القرن السادس عشر ق.م. في بلاد بابل على أثر غزو

---

(1) Hitti, Op. Cit., 115 - 116. و G. H. Kraeling, Aram and Israel (1918).

الحثيين لها وقيام السلالة الكشية فيها وكذلك تدمير الحثيين لمملكة ميتاني من بعد قرن ونصف القرن.

وكان الآراميون مكونين من جملة عشائر وقبائل، جاءت أسماء بعضها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة ولا سيما في عهد أخناتون، فمنهم فرع جاء اسمه بصيغة «أخلمو» (أخلامو)، ومعنى هذا الاسم الرفاق أو الأصحاب، ولعل الأموريين في الفرات هم الذين أطلقوا هذا الاسم على جملة قبائل آرامية متحدة[1] وقد اتصل بهم الآشوريون في العهد الذي سميناه بالعصر الآشوري الوسيط فيروي لنا أحد ملوك هذا العهد وهو «أدد ـ نراري» الأول (1300 ق.م) أن أباه غزا جموع «الاخلامو» في شمال ما بين النهرين[2]، ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يُطلق على جميع الآراميين. ومن الآراميين فرع تغلغل إلى وادي الفرات الأسفل وعرف باسم «كلدو» (ومنهم الكلدانيون الذين رأيناهم يؤسسون الأمبراطورية البابلية الأخيرة). ولكن أهم المواطن التي انتشر إليها الآراميون من مقرّهم في الفرات الأوسط في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر كانت أراضي ما بين النهرين الشمالية وفي شمالي سوريا ووسطها، وأخذوا يضغطون على جماعات الأموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي وحلّوا محلهم. وصدّتهم جبال لبنان من التوغل أكثر من ذلك ومن أخذ مكان الأموريين الآخرين، كما أن الكنعانيين والفينيقيين في الساحل ظلوا في مواطنهم غير متأثرين نوعاً ما بضغط الهجرة الآرامية. هذا وقد سبق لنا أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا

(1) Hitti, Op. Cit., 162.

(2) Luckenbill, Ancient Records of Bab. G Assyria, I, 73. وقد ورد ذكر اسم «بلاد الآراميين» (مات أرمي) واسم الآرامين أيضاً في الكتابات الآشورية من العهد الآشوري الوسيط.
(Luckenbill, Ancient Records, I, 239, 366).
والمعنى الشائع لكلمة «آرام» الأرض العالية أو لعله النجد فنجدها مضافة إلى أسماء مواضع مثل «آرام صوبا» و«آرام معكه» و«آرام النهرين» و«آرام بيت رحوب» و«آرام دمشق» و«فدان آرام» وقد وردت هذه الأماكن في التوراة مراراً.

الكتاب الحروب الرهيبة الطويلة التي دارت بين الآشوريين في عهدهم الوسيط وبين الآراميين الذين انتشروا من الفرات الأوسط إلى أراضي ما بين النهرين الشمالية وكادوا يقضون على الآشوريين، واستمر النزاع بين الآشوريين والآراميين في العهد الآشوري الحديث في زمن الأمبراطورية الآشورية الأولى (911 ـ 745 ق.م)، ولكن انتقل النزاع الآن إلى بلاد الشام حيث أسّس الآراميون دويلات مهمة قاست من غزوات الآشوريين أشد الضغط، مما كان من الأسباب المهمة في عدم تمكن الآراميين من إنشاء دولة كبرى معظمة في بلاد الشام على ما سنذكره بعد قليل.

أهم الدويلات الآرامية في بلاد الشام وفيما بين النهرين:

بدأ الآراميون يقيمون دولاً تجارية مهمة في الفرات الأوسط وما بين النهرين وفي مدن الشام المهمة منذ نهاية القرن الثالث عشر ق.م.، حيث استقروا في مواطنهم الجديدة[1]. فمن أشهر دويلاتهم وأقدمها في الفرات الأوسط الدويلة التي أقاموها في المنطقة الواصلة بين سوريا وبين ما بين النهرين. فمن هذه الدويلات دويلة سميت باسم «آرام ـ نهرايم» (أي آرام النهرين)، والمقصود بهذين النهرين الفرات ورافده الخابور. وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم «نهارين»، وهو الاسم الذي ذكرت به مراراً في المصادر المسمارية في أواخر القرن الثالث عشر ق.م.، ويظهر أنها اختفت من الوجود في حدود القرن التاسع ق.م. حينما قضى الآشوريون على جميع الآراميين في هذا الإقليم[2] ومن دويلاتهم الشهيرة فيما بين النهرين دويلة وردت باسم «فدان آرام»[3] وهي دويلة صغيرة لم تكن بسعة دويلة «آرام ـ

(1) وفي حدود هذا الزمن أيضاً انتهت تنقلات العبرانيين واستقروا في مواطنهم الخاصة على ما سنبينه من بعد كلامنا على الآراميين.

(2) Roger T. O'Callagan, **Aram Naharaim** (Rome, 1948), 143.

(3) (Padan Aram) وكلمة «فدان» مثل فدان العربي وتعني الحقل والسهل وقد ورد ذكرها في التوراة (سفر التكوين 25:20، 28: 2 ـ 7، 46: 15).

نهرايم» وكان مركزها في حران[1]، بحيث إن الكلمتين وردتا مترادفتين في التوراة. وحران ذات موقع مهم حيث يمرّ منها طريق تجاري كبير، وازدهرت فيها الثقافة الآرامية ازدهاراً كبيراً. وتقول المآثر العبرانية إن الآباء اليهود الأول جاؤوا من هذه الناحية قبل استيطانهم في فلسطين، حيث تزوج إسحاق بن إبراهيم من امرأة حرانية (وهي رفقة) كما أن إسحاق أرسل ابنه يعقوب إلى حران حيث تزوج أيضاً[2]، ويتبين من ذلك صلة العبرانيين بالآراميين، هذا ويظهر أثر الثقافة الآرامية في لغة سفر التكوين من ناحية التعابير والمفردات اللغوية[3] ويظن أن أجداد العبرانيين كانوا يتكلمون الآرامية قبل استيطانهم في فلسطين واتخاذهم اللهجة الكنعانية المحلية[4].

مملكة دمشق:

ومن الممالك الآرامية التي اشتهرت بأهميتها وسعتها أكثر من شهرة الدويلات المتعددة التي أسسها الآراميون الدولة التي صارت عاصمتها في دمشق وعرفت بأسم آرام دمشق[5]، وتأسست في أواخر القرن الحادي عشر

---

(1) معنى «حران» في اللغات السامية الطريق، وفي الآكدية بصيغة «خرانو».

(2) تزوج ليه (Leah) و«راحيل» ابنتي لابان خاله (أي أخو رفقة) انظر خبر ذلك وذكر فدان آرام في التوراة (سفر التكوين 24: 4، 29: 21).

(3) Hitti, Op. Cit., 164.

(4) Hitti, Op. Cit., 164.

(5) لقد استوطن الآراميون في دمشق في حدود القرن الثاني عشر ق.م. حتى أن حوليات الفرعون رعمسيس الثالث (1198 ـ 1167 ق.م) تذكر دمشق بالصيغة الآرامية حيث جاء ذكرها بهيئة «ترمسكي» من الآرامية «دار ـ ميشيق» (أي قلعة أو حصن مشيق)، وذكرت في رسائل العمارنة بصيغة «دمشقا» بضم الدال و«دمشقا» بكسر الدال و«تمشجي» (بلفظ الجيم كافاً فارسية وكسر التاء وفتح الميم).

انظر: (Knudtzon, El-Amarna, Nos. 107, 197, 53).

هذا ولا يعلم أصل اشتقاق اسم المدينة ولكن الشق الثاني من الاسم «ميشيق» لعله إله غير سامٍ. حول بحث هذا الموضوع ولا سيما الكلمة في المصادر المسمارية انظر:

Hitti, Op. Cit., 163; Clay, Miscellaneous Inscriptions (YOS, I,) 1 - 2; Speiser in JROS, 71 (1951), 257 ff.

ق.م. في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الملكية عند العبرانيين. وقد نمت وتطورت من بعد تأسيسها وأصبحت دولة كبيرة فاقت على جميع الدويلات الآرامية والدويلات الأخرى التي قامت في بلاد الشام حيث اتسعت في حدودها وامتدت من جهة الشرق إلى الفرات وإلى اليرموك من جهة الجنوب على حساب الدولة العبرانية، كما أنها تاخمت أملاك الدولة الآشورية من جهة الشمال. وقد صارت جميع سوريا الداخلية إلى الشرق من لبنان وجميع شمالي سوريا وحوران (في إقليم باشان القديم) تحت سيطرتها في حدود بداية الألف الأول ق.م. وقد كان العداء مستفحلاً بين أرامي هذه الدولة وبين العبرانيين طوال قرنين من الزمان.

وقد بدأ العداء والحروب بين الآراميين وبين العبرانيين قبل اتخاذ دمشق مركزاً للدولة الآرامية يوم كانت المدينة القديمة المعروفة باسم صوبا (صوبة)[1] مركزاً لمملكة آرامية عُرفت باسم مملكة «صوبا» أو «آرام صوبا» وقد بدأت الحرب بين ملوكها وبين أول ملك عبراني وهو «شاؤل» مؤسس المملكة العبرانية إلى الجنوب. وقد تغلب داود الذي خلف شاؤول على ملك مملكة صوبا المسمى «حدد عزر»[2]، مما مكن العبرانيين من مصدر مهم للنحاس، وتمكّن داود أيضاً من الاستيلاء على دمشق مؤقتاً. وقد استأنف النزاع أحد ملوك دمشق المسمى «رزون» (Rezon) حيث حارب العبرانيين طيلة أيام سليمان، وبدأت الكفة تنقلب على العبرانيين كما أن مركز أهمية المملكة

---

(1) (Zobah) ويرجّح أن اسم المدينة «صوبا» مشتق من «صيهوبا» التي تعني النحاس واللون الأحمر ويحتمل أن معنى صوبه «المحلة». ويظن أن هذا الموضع هو الذي عُرف في المصادر الكلاسيكية باسم «كلسيس» أو «خلسيس» (وهي الكلمة اليونانية للنحاس) التي يعينها الآن الموضع المسمى الآن «عنجر» جنوبي زحلة في البقاع. انظر:

(Kraeling, Aram and Israel, p.40; Hitti, Op. Cit., 166).

وقد صارت «كلسس» موضع عاصمة مملكة عربية في إقليم البقاع في العهد السلوقي عُرفت باسم مملكة «أتورية» (Hitti, Op. Cit.,ibid., 166, 247)

(2) (Hadadezer) (أي الإله حدد عون) واسمه في التوراة العربية «هدد عزر».

الآرامية انتقل من صوبا إلى دمشق. وساعد انقسام المملكة العبرانية إلى مملكتي إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب الآراميين (في حدود 922 ق.م) من بسط سلطانهم وفرضه حتى على العبرانيين. فإن يهوذا دفعت الجزية إلى ملك دمشق المسمى «بن حدد» (بنهدد) (في حدود 879 ـ 843 ق.م)، ثم هاجم مملكة إسرائيل وضمّ جلعاد (في شرق الأردن) إلى المملكة الآرامية[1] وقد قويت المملكة الآرامية في عهد ملكها «بن حدد» بحيث أصبحت مملكة إسرائيل تحت حمايتها في الأيام الأخيرة من حكم ملكها المسمى «عومري» (في حدود 875 ق.م) وأعاد «بن حدد» فرض الحماية الآرامية والجزية على إسرائيل في عهد «آحاب» بن «عومري»[2].

غزو الآشوريين بلاد الشام:

لقد سبق أن نوّهنا في أكثر من موضع واحد[3] بالصراع والحروب الشديدة التي دارت بين الآشوريين وبين الآراميين، فقد سبق أن قسمنا النزاع بين المعسكرين إلى حقبتين كانت الحروب في الحقبة الأولى بينهم وبين الآشوريين وهم في بلادهم وفي أثناء تدرجهم السياسي إلى دولة كبرى في أواخر العهد الذي سمّيناه بالعصر الآشوري الوسيط (في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م) لما كان الآراميون في أثناء تنقلهم في الفرات الأوسط وفي مواطنهم في شمال ما بين النهرين، وقد بلغ من ضغط الآراميين على الدولة الآشورية مبلغاً كادوا يزيلونها من الوجود، ولكن سرعان ما تغيّر الموقف منذ القرن العاشر ق.م.، حيث استعاد الآشوريون قواهم وخلصوا مملكتهم من خطر القبائل الآرامية التي كانت تضغط على بلادهم وأسسوا أولى أمبراطورية عظمى في عهدها الحديث، فنقلوا الكفاح مع الآراميين إلى

(1) انظر أخبار ذلك في التوراة (سفر الملوك الأول 15: 18 فما بعد وسفر الأيام الثاني 16: 2 فما بعد).

(2) سفر الملوك الأول 20: 1 فما بعد.

(3) انظر الجزء الأول في كلامنا عن الآشوريين.

مواطنهم الجديدة في بلاد الشام حيث قام ملوك الأمبراطورية الأولى (900 ـ 745 ق.م) بجملة غزوات مدمرة لبلاد سوريا، وضموا معظم بلاد الشام إلى نفوذهم.

ومن الغزوات الآشورية العنيفة في هذا العهد الغزوة التي قام بها شيلمنصر الثالث على سوريا حيث جرت الموقعة الحربية الشهيرة التي عُرفت بموقعة «القرقار» على العاصي في عام 853 ق.م. ولدرء الخطر الآشوري اتحد ملوك الدويلات السورية وتألف اتحاد من اثني عشر ملكاً، وترأس الاتحاد ملك المملكة الآرامية في دمشق وهو «بن ـ حدد» (بنهدد) الذي ذكرناه، مما يدلّ على أهمية هذه المملكة، وكان أشهر ملوك الاتحاد من بعده آحاب ملك إسرائيل وملك حماه وكذلك ساعدت الاتحاد جملة مدن فينيقية، بحيث بلغ جيش الاتحاد زهاء (60,000) مقاتل قابلوا الآشوريين في القرقار على العاصي، ولم تكن الحرب حاسمة، حيث انسحب الجانبان.

واستمرت المملكة الآرامية في القوة وازدادت عن ذي قبل في عهد ابن «بن حدد» وخليفته المسمى «حزائيل»، الذي كان من عظماء الملوك المحاربين فأستطاع أن يصمد إزاء هجومين آشوريين وجههما شيلمنصر الثالث (في عام 842 ق.م.، و838 ق.م)، ومن ثم هاجم «حزائيل» مملكة إسرائيل ووسع سلطانه في شرقي الأردن إلى جهة الجنوب، ووسع فتوحه في سهل فلسطين الساحلي من أجل السيطرة على طرق التجارة مع مصر وبلاد العرب. وتمكّنت مملكة دمشق من إسرائيل بحيث أصبحت هذه تحت رحمتها، وكذلك أخذت الجزية من مملكة يهوذا. ولكن الهجمات الآشورية المدمرة المستمرة استنفدت قوى المملكة الآرامية بحيث إن خلفاء «حزائيل» لم يستطيعوا المحافظة على الأقاليم التابعة. وقام في إسرائيل ملك قوي هو «يربعام» الثاني (في حدود 785) بحيث استطاع أن يرجع حدود مملكته حتى أنه تجرأ فهاجم دمشق وحماه.

ولكن الضغط تفاقم خطره على المملكة الآرامية في عهد الملك

الآشوري «تجلاثبليزر» الثالث (745 ـ 727 ق.م) حيث سنحت لهذا الملك الفرصة حين ساءت العلاقات بين الدويلات السورية الثلاث وهي مملكة دمشق وإسرائيل ويهوذا، حيث استنجد بالملك الآشوري أحاز ملك يهوذا الذي هدّده «فقح» ملك إسرائيل و«رصين» ملك دمشق، فوجه تجلاثبليزر ماكينة الحرب الآشورية الهائلة في عام 734 ق.م. على سوريا، غازياً ومدمراً المدن التابعة لدمشق وحوّلها أنقاضاً[1] وسقطت دمشق (في عام 722 ق.م) بعد حصار رهيب وقتل ملكها[2] وأحلّ الآشوريون الدمار والخراب فيها ولم تسلم حتى بساتينها وأشجارها، وأجلى سكانها. وهكذا انتهت حياة هذه المملكة الآرامية المزدهرة وانتهى معها سلطان الآراميين. واستعيدت الأمبراطورية الآشورية في بلاد الشام منذ عهد تجلاثبليزر الثالث وخلفائه شيلمنصر الخامس وسرجون الذي أزال دولة إسرائيل من الوجود.

شيء عن الثقافة الآرامية:

وهكذا عمل الضغط الآشوري العنيف على خنق الثقافة الآرامية من الناحية السياسية، فإنه لم يقتصر على الحيلولة دون قيام دولة آرامية كبيرة في

---

(1) انظر وصف ذلك في أخبار الملك الآشوري (Luckenbill, Ancient Records, I, 777)

(2) كان من الملوك التابعين للآشوريين حينما ثاروا على السلطان الآشوري وانضموا إلى حلف دمشق ملك آرامي اسمه «بنمو» الثاني (بفتح الباء الملفوظة فاء وفتح النون وتشديد الميم). حيث قتل في معركة مدينة دمشق، وكان هذا ملك مملكة آرامية أخرى في شمال سوريا عُرفت باسم عاصمتها «شمأل» (وهي سنجرلي الحالية) غرب عينتاب في منتصف الطريق تقريباً بين أنطاكية ومرعش، وكانت ثقافتها متأثرة بالحثيين المجاورين لها، ولكن كان ملوكها آراميين، وقد خلفوا لنا نقوشاً كتابية مهمة بالحروف الفينيقية وقد أجريت في «شمأل» حفريات في زمن قديم (1888 ـ 1891) انظر المراجع الآتية:

(1) Luschan, Ausgrabungen in Sendschirli (Berlin, 1893).

(2) AJSL, XXXII, 223.

(3) «Zu d en Inschriften on Sendschirli» in Zeit. für Assyr., 20 (1907) 159 ff.

وكان أقدم ما وجد فيها نقش كتابي مهم للملك «بررکب» الذي يلقب نفسه بوكيل تجلاثبليزر الثالث، والكتابة باللغة الآرامية وبالحروف الهجائية.

سوريا وفي شمال ما بين النهرين بل إنه أزال الدويلات الأخرى من الوجود. ولكن مع إخفاق الآراميين السياسي فإن نفوذهم التجاري والثقافي قد فاق في مقداره وعظم أثره على أهميتهم السياسية في تأريخ الحضارة البشرية، فإن تراثهم الثقافي في البلاد الشامية وفي أنحاء الشرق الأدنى لا يزال محسوساً به إلى الأزمان الحديثة، ولا سيما من الناحية اللغوية بوجه خاص على ما سنبين فيما بعد.

ومن الناحية التجارية كانت قوافل التجارة الآرامية تجوب أنحاء الهلال الخصيب، وقد احتكروا طوال قرون كثيرة تجارة سوريا الداخلية كما احتكر أقرباؤهم الكنعانيون تجارة الساحل السوري. وتاجر الآراميون بصبغ الأرجوان من فينيقيا وبالأنسجة المزركشة والكتان والنحاس وبالأخشاب الثمينة كالأبنوس وبالعاج من أفريقيا.

انتشار اللغة الآرامية:

انتشرت مع التجارة الآرامية اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً حتى أن الآشوريين استعملوها في بعض شؤونهم. فمن آثار تجلاثبليزر الثالث الطريفة أثر صور فيه كاتب آرامي وهو يدوّن بالآرامية (ولعله في الرق أيضاً) أو في ورقة بردي على ما يرى الأستاذ حتي[1] الغنائم والأسلاب التي أخذها الملك الآشوري من مدينة غزاها، وبلغت اللغة الآرامية منذ القرن الخامس ق.م. أوج انتشارها، فلم نقتصر على كونها لغة التجارة الرسمية بل صارت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب، منتصرة بذلك على اللغة المنافسة لها وهي اللغة العبرية، كما صارت لغة النبي عيسى وأتباعه، وكتب بها الإنجيل[2] على ما يرجّح وصارت الآرامية في عهد الملك الفارسي الإخميني

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 168)

(2) انظر:

C. Torrey, our Translated Gospels (New York, 1936).

دارا الأول (521 ـ 486 ق.م) لغة المملكة الرسمية ولغة الأمبراطورية، من تخوم الهند إلى الحبشة. وهذا أعظم وأغرب انتشار تحرزه لغة لم يسندها سلطان سياسي. ولم يقتصر الأمر على انتشار اللغة وحدها، إذ إنه بانتشارها انتشر استعمال الحروف الهجائية التي كتب بها الآراميون لغتهم، فأقتبستها أقوام عديدة في جميع أنحاء آسيا في كتابة لغاتها المختلفة. فأخذ اليهود خطهم من الخط الآرامي بين القرنين السادس والرابع ق.م. وكانوا قبل ذلك يستعملون حروفاً فينيقية قديمة. والخط العبراني المسمى بالخط المربع الذي تُطبع به كتب التوراة مشتق من الخط الآرامي الذي اقتبسه اليهود. كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الخط النبطي الذي هو شكل من أشكال الخط الآرامي. وهذا هو الخط الذي كتب به القرآن وتطوّر عنه الخط العربي الحديث. وأخذ الأرمن والفرس والهنود (الخط البهلوي والسنسكريتي) خطوطهم من أصول آرامية. ونقل الكهنة البوذيون الخط السنسكريتي (المشتق من مصدر آرامي كما قلنا) من الهند إلى قلب الصين وإلى كوريا، وهكذا يكون الخط الفينقي (أصل الخط الآرامي) قد انتقل على أيدي الآراميين إلى جميع نصف العالم الشرقي في حين أن اليونان نشروا الخط نفسه إلى نصف العالم الغربي.

أما اللغة الآرامية فالمرجّح فيها أنها نشأت من إحدى اللهجات السامية الغربية التي كانت شائعة في النواحي الشمالية الغربية من أرض ما بين النهرين في منتصف الألف الثاني ق.م. ولم يكتسب الآراميون اسمهم الخاص وكذلك اسم اللغة الآرامية إلّا في حدود القرن الحادي عشر ق.م. (وبوجه خاص منذ زمن الملك الآشوري تجلاثبليزر الأول 100 ق.م). واللغة الآرامية بدورها انقسمت بمرور الأزمان إلى لهجات يمكننا أن نحصرها بفرعين. الفرع الشرقي في وادي الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية. ويمثل الفرع الغربي آرامية التوراة[1]

(1) وهناك تسمية شائعة مغلوطة تطلق على الآرامية هي الكلدانية، ومنشأ هذه التسمية مما ورد في سفر دانيال من استعمال الكلدانيين للآرامية. ولكن الواقع أن اللغة الكلدانية التي تكلم بها =

والإنجيل و«الترجوم»[1] واللهجات الآرامية في مملكة «شمأل» (وخرائبها الآن في سنجرلي بين أنطاكية ومرعش كما ذكرنا من قبل) وفي حماه وتدمر والأنباط. وتكلم بالمندائية طائفة باطنية (غنوسطية) في جهات الفرات من القرن السابع إلى التاسع للميلاد[2]. أما السريانية فكانت في الأصل لغة إقليم الرها (أديسا) وصارت لغة الكنائس المسيحية المتعددة في سوريا ولبنان وشمالي العراق (ما بين النهرين)، وظلت في الاستعمال من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للميلاد حين حلّت محلها العربية. ولما اتخذ المسيحيون الذين هم من أصل آرامي اللهجة الرهوية جاعلين إياه لغة الدين والثقافة صاروا يعرفون باسم السريان أو السوريين (ولغتهم باسم السريانية)[3] مبدلين تسميتهم بالآراميين التي أصبحت لديهم تسمية غير محببة لاقترانها بالعهد الوثني. ويُستعمل مصطلح «سريانية» الآن ليعني اللهجة الرهوية وما طرأ عليها من تغييرات.

الديانة:

أما عن ديانة الآراميين فقد تأثروا بديانة الأقوام السامية المجاورة كالكنعانيين وقبل ذلك بالأموريين. وكان أعظم إله خصّوه بالعبادة الإله «حدد» أو «هدد» أو «أدد» أو (أدو) وهو الإله الذي ذكرناه من بين الآلهة الرئيسية عند

= الكلدانيون (أي البابليون في العهد البابلي الأخير) إنما كانت اللغة البابلية المتأخرة المشتقة من الأصل الآكدي. ونجد آثار الآرامية في سفر عزرا (4: 8 ـ 6، 18، 7: 12 ـ 26) وفي سفر دانيال (2: 4 ـ 7، 28).

(1) أي التفسير والشرح (من العبرانية عن الآرامية)، ويطلق على النسخ الكثيرة التي دوّنت بها جملة أقسام من التوراة باللغة الآرامية.

(2) ولا تزال لغة الدين والطقوس بين من يسمون بالصابئة (المندائيين) الآن.

(3) وكثيراً ما وردت هذه التسمية في التوراة اليونانية التي تعرف «باسم السبعينية» (Septuagint) (حيث يقال إنها ترجمت من جانب 70 أو 72 مترجماً)، والتي يظن أنها كُتبت في حدود 270 ق.م. ولا تزال مستعملة في الكنيسة الشرقية. وكذلك في صورة التوراة اللاتينية المسماة (Bulgate) التي وضعها القديس «جيروم» في القرن الرابع للميلاد، وهي مستعملة عند الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

الأموريين وعنهم انتقلت عبادته إلى الكنعانيين، حيث ذكرنا أن من بين ألقابه «رمون» و«رمان» أي «المرعد»[1]، وهو الإله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار. وقد أقيم معبده الرئيس في المدينة التي عُرفت في المصادر العربية باسم «منبج»[2] وشيّدت له أيضاً جملة معابد في الأنحاء الأخرى من سوريا ولبنان، واختلطت عبادته مع عبادة الإله الشمس، ولعله هو جوبتر المعبود في بعلبك[3] وصار في العهد الروماني «جوبتر» الخاص بمدينة دمشق[4]. ووجد له في «شمأل» «سنجرلي» تمثال ضخم (نحو تسعة أقدام ونصف القدم). أقامه له الملك «بنمو» الأول (Panammu) (في القرن الثامن ق.م). وعبدت مع الإله «حدد» في منبج وفي المواطن الآرامية الأخرى، الإلهة زوجته التي ذكر اسمها في المصادر اليونانية والرومانية بصيغة «أترغاتس» (Atargatis)[5]، حيث نعتت بالإلهة السورية. وقد وصف هذه الإلهة وعبادتها الكاتب السوري «لوشيان» (من أهل سموساته، سميساط) الذي ألف باليونانية[6]، وتبدو هذه الإلهة في وصف «لوشيان» وهي تتصف بالصفات الأساسية الخاصة «بالأم ـ الإلهة» السامية، وصورت في النقود التي ضربت في منبج وهي تلبس تاجاً ويصحبها أسد في بعض الصور (على غرار الإلهة البابلية عشتار)، كما اتّخذ لها رمز

---

(1) لقد سبق أن نوّهنا بانتقال عبادة الإله أدد إلى حضارة وادي الرافدين.

(2) واسمها بالآرامية (Nappigu) ومابج (Mabug) أيضاً ووردت في المصادر الآشورية بصيغة «نمبيجي» (nampigi)، وهي باليونانية (Bambyce) وفي المصادر اليونانية والرومانية باسم «هيرابوليس أو هيروبوليس أيضاً». (ومعنى الاسم السامي المنبع) أي من جذر «نبق».

(3) Hitti, Op. Cit., 172.

(4) Hitti, Op. Cit., 172.

(5) وهذه الصيغة محرفة عن الاسم المركب من اسمين أولهما «عتار» أو «عتار» (بتشديد التاء) أي «اشتارته، عشتار» و«عتاه» وهما بالأصل اسمان لإلهتين متميزتين اندمجت عبادتهما أخيراً فأندمج اسماهما.

(6) الذي ولد في حدود 125 للميلاد. انظر كتابه في الموضوع المترجم إلى الإنجليزية بالعنوان الآتي: **Lucian, De Dea Syria**

H.A. Strong, **The Syrian Goddess** (Londn, 1913).

مؤلف من الهلال وقرص الشمس، وعبدت في فلسطين أيضاً في عسقلان. وانتشرت عبادتها في العهد السلوقي بين اليونان، ثم عنهم أخذها الرومان حيث أقيم لها معبد في روما، ومثلت في المآثر الرومانية وهي جالسة على عرشها بين أسدين، وكان كهنتها في الغالب من الخصيان.

وبالإضافة إلى هذين الإلهين عبد الآراميون جملة آلهة أخرى استعاروا بعضها من الأقوام المجاورين للآراميين، ومن هذه الآلهة المهمة الإلٰه «إيل» و«ركتاب» أو «ركب ـ إيل» (بتشديد الكاف في كلتا الحالين) وشمش و«رشوف». وقد ذكرت أسماء هذه الآلهة في كتابة ملك «شمأل» (سنجرلي) «بنمو» الأول في نقش تمثاله. فالإلٰه شمش، الإلٰه الشمس البابلي السامي، و«رشوف» و«رشف» الإلٰه الكنعاني الفينيقي، وقد ذكر بأسماء أخرى أشهرها «بعل شمين» (سيد أو رب السموات)[1].

---

(1) وقد جاء ذكر «بعل شمين» في النقوش الكتابية المهمة التي عثرت عليها مديرية الآثار العراقية في تنقيباتها في الحضر في معبده الخاص في الحضر (انظر مجلة سومر مجلد 1951 ـ 1952).

الفصل الثلاثون

العبرانيون

العبرانيون هم الجماعة السامية الرابعة من الهجرات السامية التي استوطنت بلاد الشام، فقد سبق أن تكلمنا عن الأموريين في الشمال والكنعانيين في الساحل والآراميين في الوسط وحلّ العبرانيون في الجزء الجنوبي، في فلسطين. كما سبق أن نوّهنا بأصل العبرانيين البعيد، حيث إنهم مثل الجماعات السامية الأخرى. نزحوا من بوادي الجزيرة العربية. والمفروض أن مجيئهم إلى الجزء الخاص بهم من بلاد كنعان، أي فلسطين، قد تمّ في ثلاث هجرات مفترضة وغير معروفة بوجه التأكيد وإنما هي مستنتجة بالدرجة الأولى من المآثر العبرانية كما جاءت في التوراة. فنستنتج من هذه المآثر أن أقدم هذه الهجرات قد كانت من بوادي جهات ما بين النهرين الشمالية. والمرجّح كثيراً أن هذه الهجرة قد حدثت في القرن الثامن عشر ق.م. مع زمن هجرات الأقوام الأخرى التي جاءت بالهكسوس والحوريين إلى جهات شرقي البحر المتوسط. ونقرن الهجرة الثانية في زمنها مع هجرة الآراميين في القرن الرابع عشر ق.م. في زمن «العمارنة»، أما الهجرة الثالثة فكانت خروجهم من مصر ومن النواحي الجنوبية الشرقية مع «موسى» ويوشع كما جاءت أخبار ذلك في التوراة، والمرجّح أن زمن ذلك يرجع إلى أواخر القرن الثالث عشر ق.م.[1].

---

(1) انظر المرجع الآتي:

Theophile J. Meek, Hebrew Origins (New York, 1936).

المشار إليه في **Hitti, Op. Cit., 176 ff.**

وبموجب الأزمان المقترحة لهذه الهجرات الثلاث عندما جاءت الهجرة الأولى كان الكنعانيون يؤلفون القسم الأعظم من السكان، والأموريون يستوطنون الجهات المرتفعة التي لم تكن مزدحمة بالمستوطنين مما سهّل على المستوطنين الجدد استيطانهم فيها، كما كانت عدة عناصر أخرى غير سامية كالفلسطينيين والحوريين والحثيين فاختلط العبرانيون بهؤلاء وبالأقوام السامية الأخرى التي كانت قبلهم ونتج عن ذلك العبرانيون كما نعرفهم في التأريخ. كما تأثر العبرانيون بهذه الأقوام الأخرى من حيث تعلمهم منها الزراعة والحياة الحضرية المستقرة والكتابة وغير ذلك من عناصر الحضارة. حتى أنهم هجروا لهجتهم السامية الأصلية واتخذوا اللغة الكنعانية. وورث العبرانيون عن الكنعانيين أسس الثقافة المادية الكنعانية، كما أنه دخل إليهم الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية[1].

وأهم ما يتميز به عهد الهجرة الأولى بحسب مآثر التوراة وقصصها أنه زمن الآباء الأول وأولهم إبراهيم[2] حيث جاء في قصص التوراة أنه جاء من «أور» الكلدانيين إلى حران، وأنه استوطن في مبدأ الأمر في «حبرون»، وأن ابنه «إسحاق»[3] ولد يعقوب الذي فضل من بعد إقامته عدة سنين في «فدان آرام» على أخيه عيسو وجعل وريث أبيه وبدل اسمه إلى «إسرائيل»[4]، كما بدل اسم عيسو بأدوم (أي الأحمر)، وسُمّيت ذريته بالأدوميين بعد أن حلّوا محل السكان الأصليين في «جبل سعير»، وهكذا أخرج أحفاد عيسو من العبرانيين كما أخرج إسماعيل[5] وأبناؤه، حيث فضل عليه أخوه إسحاق. وجاء من

---

(1) Hitti, Op. Cit., 177

(2) ويعني اسمه في العبرانية «الأب سام» (أب ـ رام).

(3) معنى اسم إسحاق في العبرانية (يصحاق) أي «عساه يضحك» (والإشارة إلى الإله إيل)، ومعنى اسم يعقوب بالعبرانية (عساه يحمي).

(4) «يسري ـ إيل» ومعناه (الإله «إيل» يحكم).

(5) وإسماعيل (بالعبرية يشمع ـ إيل أي ليسمع إيل) ابن إبراهيم من سرية مصرية اسمها هاجر. راجع قصص ذلك في التوراة.

يعقوب الأسباط الاثنا عشر، وأن الابن الحادي عشر وهو يوسف[1] (ابن راحيل الأكبر) قد بيع في مصر فنال حظوة عظمى في بلاط الفرعون. وبعد أن عاش أحفاد يوسف وأحفاد إخوته في مصر عدة أجيال رجعوا إلى فلسطين تحت قيادة موسى. وهذه هي بداية الهجرة الثالثة التي نعرف عن حقيقتها التأريخية أشياء أكثر من الهجرتين الأوليين، إذ إن مصادرنا عنهما كما قلنا مقتصرة على ما جاء من أخبار وقصص في الأسفار الأولى من التوراة، وهي الأسفار التي لم تدوّن بالكتابة إلّا من بعد مضي مئات من السنين على الحوادث التي ترويها. ولم يكتف كتّاب هذه الأسفار بتدوين أخبار هذه العهود البعيدة عن زمنهم بل إنهم دوّنوا تأريخ البشر منذ الخليقة، مقتبسين الكثير من قصص حضارة وادي الرافدين وأساطيرها كأسطورة الخليقة البابلية وقصة الطوفان وغيرها، ولكن هؤلاء الكتّاب حسّنوا في وضع هذه الأساطير والقصص وهذّبوا منها وجعلوها تنطوي على مغزى أخلاقي.

خروج الإسرائيليين من مصر واستيطانهم:

لقد سبق أن قلنا إن خروج الإسرائيليين من مصر يحدّد لنا مبدأ الهجرة الثالثة من هجرات العبرانيين، وإنه بالنظر إلى حقيقته التأريخية يمكن عدّه بداية التأريخ الحقيقي للإسرائيليين. والمرجّح كثيراً أن زمن استيطان يوسف وأحفاده في مصر قد كان في عهد حكم الهكسوس في مصر، وأن الحظوة المأثورة التي نالها يوسف في بلاد الفرعون يرجع عهدها إلى زمن أحد ملوك هؤلاء الهكسوس الذين يمتون بصلة إلى الأقوام السورية، كما أنهم غزوا مصر من سوريا التي أقاموا فيها قبل ذلك الغزو. وبعد طرد الهكسوس من مصر، على ما رأينا في كلامنا على مصر، دارت الدائرة على هؤلاء العبرانيين، ويرجّح أيضاً أن الضغط اشتد عليهم في عهد الفرعون رعمسيس الثاني (1299 ـ

(1) اسم يوسف من العبرانية (ياسف، بفتح السين) ويعني (عساه يزيد) ويحسن الرجوع إلى قصته في التوراة التي تُعدّ من أمتع القطع الأدبية الروائية.

1232 ق.م)، وهو الفرعون «الذي لم يعرف يوسف» (كما جاء في التوراة، سفر الخروج 1: 8) ووقع في زمنه الخروج المأثور (في حدود 1290 ق.م). والجدير بالذكر بهذا الصدد أن كلمة إسرائيل ذُكرت لأول مرة في مسلة الفرعون «مرين فتاح» بن رعمسيس التي وجدت في طيبة (في حدود 1230 ق.م)، ولعل هذه تشير إلى الإسرائيليين الذين بقوا في مصر ولم يخرجوا منها إلى فلسطين[1]. وبعد خروج هذه القبيلة الإسرائيلية من مصر ظلت تجول سنين كثيرة في طور سيناء والجهات القريبة منها، وهذا هو التيه المأثور، حيث قاسى فيه الإسرائيليون مصاعب كثيرة. وكان قائدهم المشهور «موسى» قد تلقى بحسب مآثر التوراة «العهد المأثور في «مدين»، وهو الجزء الجنوبي من شبه جزيرة طور سيناء. وتزوج قائدهم «موسى»[2] في مدين أيضاً من ابنة كاهن مدين (أو مديان) الذي كان على ما يرجّح موحداً ويعبد الله باسم «يهوه»[3] وهو الاسم الشهير الذي عبد به العبرانيون الله، والمرجح أن أصل اسم «يهوه» إله من آلهة البدو العرب الشماليين. وهكذا اختلطت هذه القبيلة الإسرائيلية

---

(1) (Hitti, Op. Cit., p.178)

(2) يرى الباحثون في اسم «موسى» أنه ليس عبرانياً بل اسماً مصرياً يعني «ابن» حيث نجده يدخل في أسماء جملة فراعنة مثل أحموسه وطحموسه الخ. هذا وقد سبق أن نوّهنا بالفرضية الطريفة التي وضعها «فرويد» في كتابه (Moses and Monotheism, 1940) حيث يرى هذا بالأدلة التأريخية والاستنتاجات الخاصة بالطريقة الفرويدية أن موسى قائد مصري من أتباع الملك أخناتون الشهير الذي ابتدع فكرة الوحدانية، وأن موسى بعد فشل الحركة من بعد موت هذا الفرعون ذهب إلى حدود مصر في سيناء وأخذ يبشّر بفكرته بين العبرانيين. والغريب في هذا الأمر أن النبيين «عاموس» و«أشعيا» لم يذكرا موسى مع أن دعوتهما سبقت تدوين أسفار التوراة الخمسة الأولى بنحو قرن.

(3) لا يعرف بوجه التأكيد أصل الإله «يهوه». فيرى بعض الباحثين أنه من الآلهة التي كانت تقرن بالبراكين، وبعضهم يرى في أصله إلهاً خاصاً بعبادة القمر البدوية، حيث معبده أي مسكنه الخيمة وتدور عبادته بالدرجة الأولى على الأعياد وتقريب الذبائح. أما اسمه «يهوه» أو «ياهوه» فلا يعرف اشتقاقه بوجه التأكيد ولعله من الجذر «هوى» أو «هاواه» (أي سقط أو حدث أو وقع الخ).

بالقبائل العربية الشمالية ولا سيما المدينيين والقينيين. وفي حدود 1250 ق.م أخذت تتهيأ عند الجهة الجنوبية الشرقية من بادية شرقي الأردن للدخول إلى فلسطين، ولا يعلم عددها بالضبط ولكن لعلها لم تكن تتجاوز الـ6000 ـ 7000 نفساً[1]، ومرت في طريقها بالدويلات الصغيرة مثل «أدوم» وموآب و«أمون» الواقعة إلى الجنوب والشرق والشمال الشرقي من البحر الميت، ولم يجرؤ العبرانيون على التعرّض لها بالهجوم. ولكنهم أحرزوا انتصاراً على ملك دويلة أو شيخ إمارة أمورية ورد ذكرها باسم مملكة الملك «سيحون» ثم انتصروا على ملك دويلة أخرى هو «عوج» بن عنق المأثور في التوراة رئيس باشان (أي حوران) المشهور بأنه من بقايا العمالقة[2]. واستولوا في فلسطين نفسها على بعض المدن الكنعانية المسورة وأولها لخيش (تل الدوير الآن)، و«عاي»[3] و«أريحا» التي دمروها وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الأطفال بأمر «يهوه» كما جاء في التوراة[4]، كما استولوا على بعض المدن الكنعانية الشمالية بعد تغلغلهم في الجليل. أما المدن الأخرى المهمة مثل «بيت شان» (بيسان) وأورشليم فلم يستولِ عليها العبرانيون إلّا بعد أزمان (في حدود 1000 ق.م).

وبعد تمكّن هؤلاء العبرانيين من الأجزاء التي احتلوها في فلسطين اختلطوا بالسكان بالتزاوج وتكاثروا كما انضم إليهم أقرباؤهم الذين كانوا في البلاد قبلهم، وأخذوا يتغلغلون أيضاً إلى أجزاء أخرى بالتدريج، ويؤخذ من أخبار التوراة أنهم قسموا ما استولوا عليه من الأراضي بين إحدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة المنسوبة إلى الأسباط الاثني عشر، أما القبيلة الثانية

---

(1) (Hitti, Op. Cit., p.179)

(2) انظر وصفه في التوراة في سفر التثنية 3: 11، وسفر الخروج 3: 18، 5: 1.

(3) بالقرب من دير ديوان الآن (انظر: يوشع 10: 30 ـ 31).

(4) انظر سفر يوشع 6: 15 فما بعد، 6: 2، 24.

عشرة وهي قبيلة «لاوي» فقد وزّعت بين القبائل اليهودية الأخرى لتقوم لها بإدارة الشؤون الدينية بهيئة كهنة.

ويطابق هذا العهد من الاستيطان العهد الذي يُعرف في تأريخ اليهود بعصر القضاة الذي شغل بوجه التقريب الربع الأخير من القرن الثاني عشر ق.م. وثلاثة الأرباع الأولى من القرن الحادي عشر. أما هؤلاء القضاة (واسمهم بالعبرانية شنوفطيم، جمع شوفيط) فكانوا في الواقع زعماء قوميين وحكاماً يظهرون ويبرزون في أزمان الشدائد لقيادة قومهم في الحرب مع الأقوام المجاورة كالكنعانيين والمدينيين والفلسطينيين وغيرهم. ونذكر من مشاهير هؤلاء القضاة المقرون اسمهم بالبطولة «شمشون» الجبار الذي اشتهر في حربه مع الفلسطينيين، وصارت أخباره عند كتبة التوراة أخباراً قصصية روائية مقرونة بالمبالغة البطولية[1]. وكان الفلسطينيون أشد أعداء الإسرائيليين الذين نازعوهم على استيطان الأرض الجديدة والاستيلاء عليها. وكان هؤلاء الفلسطينيون، الذين سُمّيت باسمهم أرض فلسطين، جماعة من الأقوام الإيجية التي فرّت من وجه الهجرات اليونانية التي أزاحتهم من مواطنهم، وقد هاجر قسم من هذه القبائل إلى سوريا بعد إخفاقهم في النزوح إلى مصر حيث صدهم الفرعون «رعمسيس» الثالث في معركة بحرية (1191 ق. م)، فاستولوا على الساحل السوري الجنوبي الذي سمي باسمهم «فلسطين»، وكان يمتد من غزة إلى جنوبي يافا، ومن المدن المشهورة الأخرى التي أخذوها في هذا القسم من الساحل السوري عسقلان (عسقلون) وأشدود وعقرون و«جت»[2]. وكان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين إلى الشمال. وكانت مدن الفلسطينيين الخمس المشهورة تؤلف دول مدن كل منها تحت زعيم وتؤلف جميعها فيما بينها اتحاداً، وكانت «أشدود» أشهر هذه المدن التي حازت على

---

(1) راجع أخبار هذا العهد في سفر القضاة.

(2) أي المعصرة ويرجّح أن يكون موقعها الآن التل المعروف الآن باسم «عرق المنشية» الواقع بنحو 6 ميلاً غرب «بيت جبرين».

الزعامة على اتحاد دول المدن. وقد بلغ هؤلاء الفلسطينيون في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق.م. أوج قوتهم، وأوقعوا في حدود 1050 ق.م. في العبرانيين هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على «تابوت العهد» المشهور[1] وأخذوه إلى أشدود، وظلت اليد العليا لهم على العبرانيين إلى زمن حكم أول ملك على العبرانيين وهو شاؤل (في حدود 1020 ـ 1004 ق.م)[2]. ومن العوامل المهمة التي مكّنت الفلسطينيين على العبرانيين أسلحتهم المصنوعة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنعوا منه الدروع والأسلحة الماضية. ولم يتعلم العبرانيون صناعة الحديد إلّا في عهد داود (في حدود 960 ق.م)، وتمكّن هذا الملك الذي خلف شاؤل من الغلبة على الفلسطينيين وإخضاعهم، كما استولوا على دويلة «أدوم» التي كانت غنية بالحديد الخام. والمرجّح كثيراً أن الفلسطينيين هم الذين علموا الأقوام السورية صناعة الحديد، ولعل الفينيقيين تعلّموا منهم أيضاً صناعة السفن والجرأة على الإبحار، باعتبارهم من موطن بحري. ومن آثار عهد الفلسطينيين في فلسطين التي وجدت في التنقيبات الأثرية صناعة نوع من الفخار يشبه الصناعة المينية (الإيجية)، وهذا من جملة الأدلة على أن أصلهم من جزر إيجة. وبدؤوا يتضاءلون في القوة والبأس منذ عهد «داود»، واندمجوا بمرور الأزمان بالعبرانيين وبالسكان الساميين الآخرين وفقدوا كيانهم كقوم مستقلين من الناحية السياسية والثقافية.

نشوء الملكية والمملكة الموحدة:

إن الأزمات التي تعرّض لها العبرانيون في صراعهم مع الأقوام المجاورة ولا سيما حروبهم مع الفلسطينيين وتقليدهم للأقوام المجاورة التي

---

(1) (The Ark of the Covenant) أو (The Ark) تابوت العهد أو الشهادة وهو بحسب المأثر العبرانية صندوق طويل صنعه موسى من الخشب وصار يشغل أقدس جزء من المعبد بعد بناء الهيكل، وأودع فيه لوحا الحجر المنقوشان بالوصايا العشر وأشياء أخرى دينية (انظر سفر الخروج 25: 1 فما بعد). وقبل أن يشيّد المعبد كان العبرانيون يحملون التابوت معهم في رحيلهم.

(2) انظر سفر صاموئيل الأول 13: 3 فما بعد، 31: 12.

كانت يحكمها الملوك قد عملت على ظهور نظام الملكية عندهم، وقد كان ذلك بتعيين أول ملك عليهم وهو شاؤل (في حدود 1020 ـ 1004 ق.م) الذي يحدد عهده بداية تأريخ العبرانيين كقوم لهم كيان سياسي. وكانوا من جميع الأقوام السامية قد تميزوا وتفرّدوا بتمسكهم الشديد بقوميتهم وبدينهم، وتكاد تكون هذه القومية والديانة شيئاً واحداً. وتروي لنا التوراة أن زعماء العبرانيين طلبوا من زعيمهم الديني صاموئيل (وكان آخر القضاة) أن يعيّن لهم «ملكاً ليحكم ويقضي بينهم مثل الأقوام والشعوب الأخرى»[1]، فاختير شاؤل الذي بذَّ قومه ببطولته وقيافته و«مُسح» ملكاً (في حدود 1020 ق.م)[2] واقتبس العبرانيون في تنظيم ملوكيتهم عرف الأقوام المجاورة وأنظمتهم، محتفظين ببعض الميزات والأنظمة الخاصة بهم، ولا سيما أصول التنظيم القبلي لأغراض إدارة المملكة، وحكم الملك بموجب أحكام الإلٰه «يهوه» كما كان يستوحيها كهنته ورجال الدين المقدسون عندهم. ومما يذكر عن «شاؤل» الذي كان أول ملك عندهم أنه لم يكن كفوءاً للحكم فيهم. وأخفق حتى في تخليص قومه من نفوذ الفلسطينيين وتحكمهم فيهم. وفي معركة اشتبك بها معهم قتل أبناؤه الثلاثة وجرح جرحاً خطيراً، وانتحر فقطع الأعداء رأسه وعلّقوا جسمه وأجسام أبنائه في بيسان وأودعوا درعه وسلاحه قرباناً في معبد الإلهة «عشتاروت»[3]. وكان «داود» حامل درع الملك شاؤل فصار ملكاً من بعده (في حدود 1004 ـ 960 ق.م)، وكان في أول أمره يحكم في الواقع بصفته تابعاً للفلسطينيين، ولكنه تمكّن أخيراً من إحراز الاستقلال التام واشتهر بنزاله في عهد شاؤل مع «جالوت» البطل الفلسطيني الشهير. ولم يكتف بذلك بل إنه وسع حدود مملكته إلى جهات لم تبلغها المملكة قبله ولا بعده. فأولاً استطاع أن يصدّ الفلسطينيين ويقضي على سلطانهم تقريباً واستولى على دويلات «أدوم»

---

(1) انظر سفر صاموئيل الأول 8: 5.
(2) سفر صاموئيل الأول 9: 2.
(3) سفر صاموئيل الأول 31: 1 ـ 10.

و«موأب» و«أمون» (عمون)، كما أنه غزا دمشق. ومكّنه استيلاؤه على «أدوم» من السيطرة على الطريق التجارية المهمة بين بلاد الشام وبلاد العرب. واستطاع أن ينشيء دولة قوية ويوحّد قومه مؤقتاً. واتخذ عاصمته في «أورشليم» التي انتزعها من سكانها من غير الساميين (اليبوسيين)، وكان هذا اختياراً موفقاً لموقعها بين القسمين الشمالي والجنوبي، وبنى فيها قصره الملكي على أيدي معماريين من أهل صور، بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور (981 ـ 947 ق. م)، وأقام داود معبداً قومياً لليهود وهو معبد «يهوه»، جاعلاً بذلك عبادة «يهوه» الديانة الرسمية للمملكة الموحدة.

وخلف «داود» ابنه سليمان (960 ـ 925 ق.م) الذي بلغت في عهده المملكة أوج ازدهارها. واشتهر بأهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعدين والبناء والتعمير بمقياس كبير. ولكنه حكم حكماً مستبداً قاسياً وعاش عيشة بذخ وإسراف في أبهة القصر والبلاط على غرار ملوك مصر وآشور، وأسرف في بناء قصره الذي استغرق بناؤه زهاء ثلاثة عشر عاماً وقام ببنائه البناؤون الفينيقيون كما كان الحال في قصر أبيه، واستعمل في بنائه عمداً كثيرة من أرز لبنان حتى سمي باسم «بيت غابة لبنان»[1]. واشتهر أكثر من ذلك في بنائه المعبد المشهور باسم «هيكل سليمان» الذي يظن أن موضعه الآن تحت قبة الصخرة، واستغرق بناؤه سبع سنين، واقتبس الكثير من فن العمارة الكنعاني حتى أن اسمه «الهيكل» (هيكال) مأخوذ من الكنعانية (ويرجع المصطلح إلى أصل بابلي سومري كما ألمحنا إلى ذلك من قبل). واهتم سليمان ببناء الحصون والقلاع والثكنات والإسطبلات، وقد عثر على خرائب اسطبلاته في التنقيبات الحديثة التي أجريت في «مجدو». وأنشأ أيضاً بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور أسطولاً من السفن لتجارة البحر الأحمر في سواحل الجزيرة وشرقي أفريقيا لجلب البهار والصموغ والعاج والذهب والأحجار

(1) سفر الملوك الأول 7 : 2 (Hitti, Op. Cit., 189)

الكريمة، وكانت قاعدته في رأس خليج العقبة[1]. واشتهر سليمان في الأساطير والقصص بالحكمة والثروة، ونسبت له الأساطير أن الجن كانت تبني له[2]، ومن ذلك القصة الطريفة مع ملكة عرب الجنوب (ملكة سبأ) الوارد اسمها في المآثر العربية باسم بلقيس، وتدعي السلالة الحاكمة في الحبشة أنها متحدرة من سليمان من زواجه ببلقيس ويلقب ملك الحبشة بأسد يهوذا.

ولكن الوثائق التأريخية لا تؤيد كل الشهرة أو القدرة التي اشتهر بها سليمان، فإن المملكة التي ورثها عن أبيه كانت أكبر وأغنى مما عليه المملكة في عهده وأورثها من بعده إلى خلفه. وقد بدأ في عهده تدخل فراعنة مصر في مدن الساحل الجنوبي من فلسطين وتزوج سليمان من ابنة الفرعون المصري (ولعل ذلك اضطراراً). وذكرت التوراة أن سليمان كان له 700 زوجة و300 سرية[3]، واستطاع ملك دمشق الآرامي «رزون» التخلص من نفوذه[4]، وكان لبذخ سليمان وإسرافه في حياته الخاصة والعامة على طراز ملوك الشرق القديم وفرضه العمل القسري على رعاياه أثر عظيم في تقهقر المملكة وانقسامها من بعده إلى مملكتين على ما سنرى بعد قليل.

انقسام المملكة:

وإلى العوامل التي نوّهنا بها مما عمل على ضعف المملكة وانقسامها

---

(1) وقد نقب في عام 1938 في الموضع الذي كان قاعدة الأسطول وهو تل الخليفة انظر تقرير الحفريات في:

Bulit. Amer Schools of Orient Research, No.72 (1938).

(2) وقد ورد ذلك في شعر العرب مثل قول النابغة الذبياني في تدمر (وخبر الجن أني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد) وتروي التوراة (2 أيام 8: 4) أن سليمان بنى تدمر، وهذه الرواية إما لتمجيد سليمان أو خلط اسم تدمر بمدينة في أدوم اسمها «تمار» أو «تمر» بناها سليمان.

(3) سفر الملوك الأول 11: 3 وكان لبعض نسوته تأثير عظيم في تصرف سليمان حتى أنه أقام بناء على طلبهن مواضع للعبادة الوثنية قرب أورشليم لعبادة آلهة صيدا وموآب وعمون (سفر الملوك الأول 11: 5 ـ 8).

(4) انظر الفصل التاسع والعشرين.

يُضاف عامل آخر مهم هو اختلاف أهل الجنوب عن أهل الشمال في الثقافة وأسلوب الحياة والعيش. فكان أهل الشمال أهل زراعة يعيشون على زراعة القمح والزيتون والكروم والحاصلات الزراعية الأخرى الناتجة من أراضيهم الخصبة بالنسبة إلى أراضي الجنوب. أما أهل الجنوب فكانوا رعاة بالدرجة الأولى كما أن أهل الشمال كانوا أكثر تأثراً بالكنعانيين وبثقافتهم وديانتهم الوثنية ولم تتمكن منهم عبادة إله العبرانيين «يهوه» كما كانت في الجنوب. ولما أن توفي سليمان (في حدود 825 ق.م) اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة لانتخاب ابنه البالغ ستة عشر عاماً وهو «رحبعام» خليفة له وسأله المجتمعون عمّا إذا كان سيتعهد بتقليل فداحة الضرائب التي كانت في عهد أبيه فأجابهم جواباً طائشاً هو كما جاء في التوراة: «لقد أدبكم أبي بالسياط، أما أنا فسأؤدبكم بالعقارب»[1]، وعندها رفضت عشر قبائل الاعتراف بخلافته واختارت بدلاً منه رئيس الجمعية وهو «يربعام» من سبط «أفرايم». فتكوّن من هذه القبائل العشر المملكة الشمالية التي عُرفت باسم «إسرائيل»، وكانت عاصمتها في مبدأ الأمر في «شكيم» (قرب نابلس) ثم في «ترصه» وأخيراً في مدينة السامرة الشهيرة (وهي سبسطية الآن)، وتألف من القبيلتين الباقيتين - وهما «يهوذا» و«بنيامين» - اللتين بقيتا على عهد «رحبعام» المملكة الجنوبية التي عُرفت باسم مملكة «يهوذا» وعاصمتها في أورشليم.

إسرائيل:

وهكذا نشأت هاتان المملكتان وهما تحملان بذور التنافس والتنافر، بل غالباً ما استحكم العداء فيما بينهما ونشبت الحروب، فمرة تكون اليد العليا لإسرائيل ومرة ليهوذا، الأمر الذي أضعفهما علاوة على الانحلال الداخلي. وإلى هذه الأخطار الناجمة من الداخل فإن كلتا المملكتين تعرضتا لضغط الآشوريين وضرباتهم المهلكة، إذ كان الآشوريون في أوج عظمتهم العسكرية

(1) سفر الملوك الأول 12: 11.

في عهد الأمبراطورية الآشورية الأولى. وكان من مشاهير ملوك مملكة إسرائيل «عومري» (885 ـ 874) الذي أسس مدينة السامرة[1] حيث حصنها ونقل مقر العاصمة إليها من (ترصه). وخلفه آحاب (874 ـ 852 ق.م) وكان حليفاً لدمشق في موقعة القرقار الشهيرة وفي زمنه حدث نزاع حاد في المملكة بتأثير زوجته ابنة ملك صور وصيدا التي حملت زوجها على إدخال العبادة الوثنية الخاصة ببعل مما حرّض عليه كهنة «يهوه» ثم انتهى النزاع بثورة قام بها «يهو» أو (ياهو)، أحد قواد الجيش الذي قضى على سلالة «عومري» وصار ملكاً في عام 842 ق.م. والجدير بالذكر أن «يهو» هذا هو الذي ورد مصوراً هو ورسله في مسلة الملك الآشوري شيلمنصر الثالث المشهورة باسم المسلة السوداء، حيث نجده ساجداً يقبل الأرض أمام الملك الآشوري ويقدم له الجزية. وكان آخر ملك قوي من ملوك هذه المملكة «يربعام» الثاني (785 ـ 745)، وقد صادف عهده ضعف الأمبراطورية الآشورية في فترة الضعف التي سبقت قيام تجلاثبليزر الثالث (747 ـ 727 ق.م)، وتأسيسه الأمبراطورية الآشورية الثانية، حيث استطاع هذا، على ما مرّ بنا، أن يعيد الأمبراطورية الآشورية الثانية بجملة حملات حربية سريعة في بلاد الشام، فدخلت ضمن السيطرة الآشورية مملكة إسرائيل ويهوذا حيث دفعتا الجزية ولما أن رفض ملك إسرائيل «هوشع» أداء الجزية بتحريض مصر هاجم مملكته شيلمنصر الخامس خليفة تجلاثبليزر، فحاصر السامرة زهاء ثلاث سنوات وأكمل فتحها خلفه سرجون (في حدود 722 ـ 721 ق.م) فأسر زهرة رجال المملكة (زهاء 27,280 شخصاً) وأجلاهم أسرى إلى بلاد ماذي[2]، وتحطمت مملكة إسرائيل، وأحلّ

---

(1) ويعرف موضعها الآن باسم سبسطية المأخوذ من الاسم اليوناني (سيبستوس) (Sebastos) (أي المبجّل نسبة إلى اسم الأمبراطور الروماني أوغسطس)، وقد سمّاها بهذا الاسم هيرود الكبير بعد أن أعاد بناءها عام 27 ق.م.، وسماها باسم أوغسطس تبجيلاً له. وقد أظهرت التنقيبات الحديثة فيها عن آثار قصر هذا الملك ومجموعة من الآثار العاجية.

(انظر: Crowfool, Early Ivories from Samaria (London, 1938).

(2) سفر الملوك الثاني 17: 6.

محل هؤلاء الأسرى المبعدين جماعات من السكان جلبهم من بلاد بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب وأسكنهم في بلاد السامرة[1]، فاختلط هؤلاء مع الإسرائيليين ونشأ عن ذلك ما يُعرف في تأريخ اليهود باسم السامريين حيث اختلطت عبادة هؤلاء الأقوام الوثنيين بعبادة «يهوه»، ونجد أثر عبادة بعض الآلهة البابلية واضحة ولا سيما عبادة الإلٰه نرجال إلٰه «كوثى»، حيث كان من جملة الأقوام الذين أحلّهم محل يهود السامرة سكان من أهل «كوثى» (تل إبراهيم الآن). فكان ذلك مما فاقم من شقة الخلاف بين أهل السامرة وأهل يهوذا، بحيث حرم التزاوج ما بين القومين، حتى أنه لما عاد «عزرا» و«نحميا» من الأسر البابلي (في حدود 432 ق.م) بدأ بتطهير اليهود في أورشليم، فطردا من أورشليم حفيد الكاهن الأعلى لزواجه بابنة الحاكم السامري[2]، وظلت طائفة السامريين بهيئة مذهب متحجّر إلى الزمن الحاضر ويمثلهم الآن زهاء 200 شخصٍ يعيشون في نابلس (وهي شكيم القديمة، أول عاصمة للسامريين).

مملكة يهوذا:

عاشت مملكة الجنوب، أي مملكة يهوذا، من بعد زوال دولة إسرائيل بزهاء قرن وثلث القرن[3]. ومن الحوادث السياسية المهمة التي وقعت لمملكة يهوذا غزو مصر لها، حيث غزاها الفرعون الليبي «شيشونك» (وهو شيشق الوارد في التوراة) مؤسس السلالة الثانية والعشرين، وتوغل فيها (في حدود 920 ق.م) في زمن رحبعام وخرب مدنها وضرب أورشليم وأخذ

(1) انظر: Luckenbill, Ancient Records of Assyria G Babylonia II, 17, 118
وانظر ما ذكرناه في الجزء الأول عن سياسة تهجير السكان التي اتبعها الآشوريون.

(2) (سفر نحميا 13: 28).

(3) لقد حكم في مملكة يهوذا عدد من الملوك يعادل عدد ملوك إسرائيل، إذ حكم في كلتا المملكتين تسعة عشر ملكاً .(Hitti, Op. Cit., 198)

غنائم كثيرة، ومن بين ذلك خزائن القصر والهيكل[1]. واستفادت يهوذا في القرن الثامن من توقف الفتوح الآشورية والمصرية. ولكن زوال مملكة إسرائيل من الوجود (في عام 721 ق.م) على يد الدولة الآشورية، كما مرّ بنا، عرض مملكة يهوذا إلى هجمات الآشوريين هجمات مباشرة أشد من ذي قبل. وصارت تؤدي الجزية إلى المملكة الآشورية في عهد الملك «حزقيا» (721 ـ 693 ق.م) بن آحاز فسلمت من هجمات الآشوريين، ولكن هذا لم يستمر طويلاً لأن «حزقيا» تحدى السلطان الآشوري بتحريض مصر وتشجيع النبي «أشعيا»، فقوى نفسه بالتحالف مع الدويلات المجاورة وتهيأ لحصار طويل حتى أنه حفر قناة طويلة (طولها زهاء 1700 قدم في الجبل) ليضمن الماء لعاصمته. وكان الملك سرجون وابنه سنحاريب قد قام بسلسلة حملات حربية على المدن الفينيقية والفلسطينية، وحاصر سنحاريب أورشليم في 701 ق.م. وترك على حصارها جزءاً من جيشه بعد أن استولى على أكثر المدن الفينيقية وذهب لملاقاة الجيش المصري بقيادة الملك «ترهاقة» (طهراقا)[2]. وأخفق حصار سنحاريب لأورشليم لعله بسبب تفشي الوباء، وتروي التوراة[3] أن ملاك الرب ضرب العدو وأهلك عدداً غفيراً منهم في ليلة واحدة. ومع أن أورشليم لم تسقط إلّا أن الجيش الآشوري ترك البلاد خراباً ولم يستطع حزقيا الاحتفاظ بعرشه إلّا بعد أن دفع ما كان يترتب عليه من الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين. وظل الأمر كذلك حتى نهاية الدولة الآشورية وسقوط نينوى على أيدي الماذيين والبابليين الكلدانيين في عام 612 ق.م. ويبدو أن مملكة يهوذا انحازت إلى جانب الدولة البابلية الجديدة منذ البدء، فإن ملكها «يوشيا» (Josiah) (638 ـ 608 ق.م) قاد جيشاً لمحاربة الجيش المصري بقيادة «نيخو» الذي جاء للاستيلاء على

(1) سفر الملوك الأول 14: 25 ـ 26.
(2) انظر ذلك في الكلام على الآشوريين (الجزء الأول).
(3) سفر الملوك الثاني 19: 35.

بلاد الشام، ومات مجروحاً في موقعة «مجدو»[1]، واشتهر الملك «يوشيا» بإصلاحاته الدينية والقضاء على الشعائر الوثنية الدخيلة وظلت مملكة يهوذا الصغيرة من بعد موت «يوشيا» تتقلب في سياستها بين الخضوع إلى الدولة البابلية الجديدة وبين تحالفها مع مصر. وكان لسوء حظ ملكها الجديد ابن «يوشيا» وهو «يهوياقيم» (608 ـ 957 ق.م) أن اختار معارضة بابل والتحالف مع مصر في عهد «نيخو» الذي عيّنه على عرش يهوذا، وكان نبوخذنصر ملك بابل قد دحر جيش نيخو في كركميش (605 ق.م) وبذلك ثبت النفوذ البابلي في جميع بلاد الشام، ووجه نبوخذنصر جيشاً على يهوذا فدخل العاصمة «أورشليم» (597 ق.م) فأسر الملك المنشق «يهوياقيم» وأخذه مقيداً بالسلاسل إلى بابل[2] (سفر الأيام الثاني 36:6)، ونصب ملكاً على يهوذا ابنه «يهوياكين» الذي لم يشغل العرش سوى ثلاثة أشهر (في 597 ق.م) لأنه طمع أيضاً بالثورة، فجاء نبوخذنصر بحملة يقودها بنفسه وحاصر أورشليم التي استسلمت بعد حصار قصير الأمد، فأخذ نبوخذنصر الملك الشاب «يهوياكين» وزوجاته وموظفيه و7000 من جنده ونحو 100 من الصناع، وحملهم أسرى إلى بابل. وكان حزقيال (ذو الكفل في المصادر العربية) من بين رؤساء الدين المهمين الذين أُخذوا أسرى وكان هذا هو السبي البابلي الأول. وعين نبوخذنصر «صدقيا» أحد أبناء «يوشيا» وعم «يهوياكين» على يهوذا، وحكم هذا الملك (597 ـ 586 ق.م) برهة من الزمن وهو محافظ على ولائه لنبوخذنصر، ولكنه سوّل له من بعدئذ أن يحاول العصيان والاستقلال ولعل ذلك بتحريض مصر، فغضب نبوخذنصر في هذه المرة غضباً شديداً وأرسل حملة قوية حاصرت أورشليم، وأرسل

---

(1) سفر الأيام الثاني 35: 20 ـ 22. 34 وسفر الملوك الثاني 23: 29 ـ 30.

(2) لا يعلم بوجه التأكيد هل أُخذ أسيراً إلى بابل أو أنه مات أو قتل في أورشليم. والطريف ذكره بهذا الصدد أن النبي «أرميا» الذي كان ضد يهوياقيم وكفره قد تنبأ عنه أنه سيدفن كما يُدفن الحمار (أرميا 22: 18، 19).

الفرعون المصري (حوفرا أو افريز الوارد في هيرودوتس) نجدة لحليفه، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، وبعد حصار دام زهاء السنة ونصف السنة سقطت أورشليم في عام 586 ق.م.، وحاول ملكها التعس الهرب ولكنه قبض عليه وأخذ إلى مقر قيادة الملك البابلي في «ربلا» (ربلة) على العاصي فذبح أبناؤه أمام عينيه ثم فُقئت عيناه وقيّد بالسلاسل حيث أخذ مع الأسرى إلى بابل. أما أورشليم فقد خربت ودمرت تدميراً كاملاً وأزيل الهيكل من الوجود وأخذ أهم السكان أسرى، ويقدر عددهم بزهاء (50,000) شخص ولم يترك سوى قلة بائسة، كما أن المدن المهمة في يهوذا قد خربت وظلت خراباً. وهذا هو السبي البابلي المشهور. وبعدها أكمل نبوخذنصر في عام 582 ق.م. فتح المدن الأخرى المجاورة ولا سيما مدن فينيقية إلّا مدينة صور التي قاومت زمناً طويلاً حتى 572 ق.م.، ثم غُزيت صور مرة أخرى في 564 ق.م.، فأصبحت جميع بلاد الشام خاضعة للدولة الكلدانية.

لقد سبق أن نوّهنا[1] بأثر السبي البابلي وبقاء اليهود في بابل في تطور ديانتهم حيث قلنا إن الديانة وتطور فكرة الوحدانية الشاملة وتساميها الروحي إنما حدث وهم في الأسر يعانون الاضطهاد وأن الديانة اليهودية كما نعرفها إنما ولدت في أثناء الأسر في بلاد بابل، كما أن أسفار التوراة قد دوّنت معظمها في هذه الفترة المظلمة بعيد رجوع اليهود إلى فلسطين في عهد الملك الفارسي كورش، وقد عاش دانيال في بابل في عهد الملك بيلشاصر على ما تروي التوراة وهو الذي فسر للملك «الكتابة على الحائط»[2]، ونال هو وجملة من اليهود البارزين معه حظوة لدى البلاط البابلي.

أما من ناحية التوراة فإن الأسفار الأولى التي تبتدىء بها التوراة عادة فقد أخذت شكلها الذي جاءتنا به في خلال مكث اليهود في بلاد بابل في أثناء السبي (586 ـ 538 ق.م) الذي ذكرناه، ولكن المرجّح أن كتابتها قد أعيدت

(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر الجزء الأول وسفر دانيال.

ونقّحت كثيراً في خلال القرنين اللذين انتهيا في غزو الإسكندر الكبير للأمبراطورية الفارسية (أي في العهد الفارسي الإخميني 538 ـ 330 ق.م) ومع أنه يوجد في الأسفار الخمسة الأولى مادة قديمة، ولكن هذه الأسفار ليست في الواقع أقدم كتب التوراة تدويناً، وإنما الراجح أن أسفار الأنبياء هي أقدم كتب التوراة. وكتب في العهد الفارسي كثير من أسفار التوراة الحديثة في تأريخها، وبعضها لم يدوّن إلّا في العهد السلوقي مثل كتاب دانيال (في حدود 168 ـ 165 ق.م)، كما يحتمل أن جملة من مجاميع المزامير تعود إلى هذا العهد[1]. فيبدو أن مما لا شك فيه أن كهنة اليهود وأهل المعرفة منهم قد أخذوا معهم إلى بلاد بابل سجلاتهم القديمة الخاصة بتواريخ يهوذا وإسرائيل، كما استصحبوا معهم الكتابات الدينية المقدسة الخاصة بالأنبياء من «عاموس» إلى «هوشع» (القرن الثامن ق.م) إلى كتاب حزقيال من بعد قرنين من الزمان.

وبمناسبة كلامنا على تدوين أسفار التوراة ننوّه بخبر الاكتشاف الأثري الحديث حيث عُثر (في عام 1947) على مخطوطات بالعبرانية في إقليم البحر الميت ثبت أنها أجزاء من التوراة تعدّ أقدم ما لدينا من المخطوطات التوراتية حيث يرجع عهدها إلى القرن الثالث أو الثاني ق.م. بالمقارنة مع أقدم مخطوط بالعبرية للتوراة من تأريخ 916 للميلاد[2]. وجدت هذه المخطوطات الجديدة في كهف في موضع في شرقي الأردن يسمى «خربة قمران» (أي خربة الحجر) واستطاع الباحثون أن يعينوا من بين المخطوطات العبرية المكتشفة نصاً كاملاً لسفر «أشعيا» وأجزاء من أسفار التوراة الأخرى، ومخطوطاً طريفاً

(1) Ernest William Barnes, The Rise of Christianity (1948), 16.

(2) وهو المخطوط المعروف باسم (Codex Babylonicus Petropolitanus) أما نصوص المخطوطات الأخرى فهي الترجمة اليونانية من القرن الثالث أو الثاني ق.م.، وهي المعروفة باسم الترجمة السبعينية (Septuagint) حيث قلنا إن التسمية ناشئة من الاعتقاد بأن هذه الترجمة تمّت على أيدي 70 أو 72 مترجماً، والمرجّح أن الترجمة تمّت في مصر ثم الترجمة اللاتينية المعروفة باسم (Vulgate) التي قام بها القديس جيروم (345 ـ 420 م) الذي عاش في سوريا وقضى شطراً من حياته في التنسّك وصارت ترجمته المعول عليها في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

عنوانه «حرب أبناء النور لأبناء الظلام» ثبت أنه من الكتابات الدينية الخاصة بالطائفة اليهودية المعروفة باسم الـ «ايسينيين» (Essenes)[1]، وهي طائفة كانت تعيش عيشة الزهد والتقشف وتمارس التعميد وجملة أشياء تشبه ما في الديانة المسيحية وترى في الحياة جرياً على المبدأ الزرادشتي الفارسي، حرباً بين الخير والشر، بين النور والظلام. وأنها التجأت إلى هذا الموضع في أثناء الحروب اليهودية الرومانية.

ولما فتح كورش الفارسي بابل (539 ـ 538 ق.م) على ما رأينا في أخبار الدولة الكلدانية في الجزء الأول وجد هناك المهجرين من أسرى نبوخذنصر (أسر 597 وأسر 586 ق.م) فأحسن إليهم ولا يستبعد أنهم ساعدوه في فتح المدينة[2] وأصدر أمره بالسماح لمن أراد منهم الرجوع إلى موطنه وسمح لهم بإعادة بناء المعبد[3]، ولعل الحافز الذي دفعه إلى ذلك، بالإضافة إلى ما اشتهر من التساهل، أن يجعل من هؤلاء اليهود العائدين إلى وطنهم جماعة بجانب السلطة الفارسية في بلاد سوريا ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصري، وإزاء هذه المعاملة رحّب اليهود بكورش ناعتين إياه بالمخلص الإلٰهي أو المسيح المنتظر[4]. هذا ولا يعلم كم من اليهود من انتهز هذه الفرصة فرجع إلى موطنه. ولكن الرأي الحديث على ما نوّهنا سابقاً[5] لا يميل

---

(1) انظر حول ذلك وحول خبر الاكتشاف André Dupont-Sommer, The Jewish Sect of Qumrân and the Essenes أما الطائفتان اليهوديتان الأخريان فهما طائفة الفريسيين (Pharisee) وطائفة الصدوقيين (Sadducee).

(2) Hitti, Op. Cit., 221.

(3) إن أخبار ذلك مدوّنة بالتفصيل في سفر عزرا (وحول سماح كورش لهم بالرجوع) انظر: عزرا 6: 3 ـ 5.

(4) أشعيا 44: 28، 45: 1.

(5) انظر الجزء الأول، وحول عدد الراجعين وأسرهم. انظر عزرا 2: 64، ونحميا 7: 66. وحول الرأي القائل بقلة من رجع منهم انظر: Olmstead, History et the Persian Empire.
ولعله مما يؤيد هذا الرأي ما نعرفه من أخبار اليهود في بلاد بابل من بعد رجوع جماعة من الأسرى إلى فلسطين حيث كما نعرف نشأت التعاليم اليهودية المهمة المعروفة باسم التلمود =

إلى الأخذ بالأعداد التي يذكرها سفر «عزرا» و«نحميا» (42360)، ولعل الذين رجعوا انحصر عددهم في أولئك الذين لم يفلحوا كثيراً في الأرض الجديدة، ومن المتعصبين لإعادة الوطن القومي، كما أن المعروف من الوثائق التأريخية التي جاءتنا من العراق من العهود التي أعقبت العهد البابلي الحديث تشير إلى أن اليهود أصابوا النجاح والفلاح وظلّ قسم مهم منهم بعد السماح لهم بالرجوع إلى موطنهم، كما يشير إلى ذلك نشوء التلمود البابلي.

ومهما كان الحال فإن اليهود الذين عادوا إلى فلسطين بقيادة «زرو بابل»[1] قد أعادوا معهم كنائز الهيكل التي سلبها نبوخذنصر، وصار أول حاكم على فلسطين وتابعاً للدولة الفارسية، وشرع يعيد بناء الهيكل الذي لم يتم بناؤه إلّا بعد صعوبات في عهد دارا الكبير (عام 515 ق.م). وهناك جماعة أخرى من اليهود رجعت إلى موطنها بسماح من الملك الفارسي «أرتحشتا» الأول (465 ـ 424 ق.م) فعادت جماعة بقيادة «نحميا» والأخرى

= في بلاد بابل، ولا سيما التلمود البابلي (في حدود القرن الخامس للميلاد)، وهناك تلمود آخر هو المعروف باسم تلمود أورشليم (الذي دوّنه حاخامو طبرية بين القرنين الثالث والخامس للميلاد) والتلمود (ومعناه تعليم) يقسم إلى قسمين: (1) المشنا (ومعناه الموضوع والتكرار). (2) الجمارة (التفسير)، فتعني «المشنا» مجموعة من مآثر اليهود وتقاليدهم مع بعض الآيات من التوراة حيث يعتقد فيها اليهود أنها لقّنت إلى موسى في الجبل وأخذها عنه هارون وأليعازر ويشوع ونُقلت عنهم إلى الأنبياء ثم إلى المجمع اليهودي العظيم، وقد دوّنت في القرن الثاني للميلاد (حيث جمعها الحاخام يهوذا). أما الجمارة فهي مجموعة التفاسير والشروح والمناظرات التي جرت في مدارس اليهود الدينية من بعد «المشنا». انظر حول التلمود:

(1) H. L. Strac, **Einleitung in Talmud und Midrash** (1921).

(2) H.S. Linfield, «**The Rlation of the Jewish Talmud to Babylonian Law**» in AJSL, XXXVI, 40 ff.

(1) «زرو بابل» وهو اسم بابلي مأخوذ من «زيرو بابلي» (أي زرع أو ولادة بابل)، وقد تحدّر هذا من «يهو ياكين»، ويدعى زرو بابل أيضاً باسم «شيشبصر» الذي قلنا إنه اسم بابلي أيضاً (لعله مأخوذ من شمس ـ أبال ـ أوصر، انظر الجزء الأول).

بقيادة «عزرا»، فحكم نحميا على اليهود بصفته تابعاً للدولة الفارسية، حيث سمح لهم بالحكم الذاتي. ومما يجدر ذكره بصدد اللغة العبرانية في هذا العهد أنها بطلت أن تكون لغة الكلام المحكية وحلّت محلها الآرامية، هذا وسنذكر أحوال اليهود في العهود التي أعقبت العهد الفارسي في الكلام الموجز الذي سنفرده لأحوال البلاد السورية في تلك العهود.

شيء عن الأوجه الثقافية والدينية:

وقبل أن نذكر مجمل أحوال البلاد السورية في العهود المتأخرة التي نوّهنا بها نورد هنا بعض الأمور الموجزة عن الأوجه الثقافية والدينية في حياة العبرانيين. فمن الأمور العامة التي تُذكر بهذا الصدد أن العبرانيين ساروا في بدء حياتهم على طراز ما كان سائداً من نمط الحضارة والثقافة في الشرق الأدنى بالشكل الكنعاني. فأخذوا من الكنعانيين لغتهم وحروف الهجاء، وكذلك تعلموا منهم الزراعة، حيث دخل العبرانيون إلى موطنهم وهم بدو، فانتقلوا من الرعي إلى الزراعة في موطنهم الجديد. واقتبسوا من الكنعانيين أيضاً بعض الشعائر والطقوس الدينية، ولا سيما تلك التي تتعلق بالزراعة، وأن ما جاء في التوراة من تحريم هذه الشعائر المقتبسة يدلّ على أن العبرانيين كانوا يمارسونها. وحتى «يهوه»، الإِله الرسمي للعبرانيين، أخذ كثيراً من الصفات الخاصة بآلهة الكنعانيين ولا سيما «بعل»، حيث كانت عبادته تهدِّد عبادة يهوه.

وتأثر العبرانيون أيضاً في فنهم الديني بالكنعانيين، فمثلاً إن هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على أن بنّائيه كانوا من صور بل إنه بُني بموجب تصميم معبد كنعاني وكذلك يقال في زخرفته وتزويقه. وهكذا كان قصر ملوكهم في أورشليم. كما استعاروا من الكنعانيين الموسيقى وآلاتها، ولا سيما الموسيقى الدينية. ويوجد شبه قوي بين الشعر العبراني والشعر الكنعاني كما وجدت نماذج منه حديثاً في «أوغاريت» (رأس الشمرة)، كما تأثر الأدب العبراني بوجه عام بالأدب الكنعاني. وتأثروا أيضاً بالعادات الكنعانية فيما

يخص مراسيم الدفن وبعض العقائد الخاصة بالعالم الآخر. وبوجه الإجمال لم يكن أثر العبرانيين في الحضارة البشرية من الناحية المادية شيئاً يُذكر، وإنما انحصر تراثهم الكبير في الناحية الدينية، في مسألة الوحدانية التي تطورت وتهذبت عندهم، كما أثرت التوراة في معظم العالم المتمدن الآن، والديانة المسيحية من ناحية الأصل التأريخي بنت الديانة اليهودية.

ولكن قبل أن تأتينا التوراة بشكلها النهائي المدوّن كانت مادتها قد مرّت بعدة أدوار تطورية، من الرواية الشفهية والانتخاب والحذف ثم التدوين. أما مدونو التوراة فيصحّ أن نقول إنه اشترك في تدوينها جماعات كثيرة متنوعة منهم المشرّعون مثل موسى المتكلم بوحي من الله (يهوه)، وتحتوي كتب الشريعة المنسوبة إلى موسى على الشريعة العبرانية المقدسة، وقد وجد الباحثون عدة أوجه من المقارنة والشبه بين شريعة حمورابي وشريعة موسى[1]، ومع قدم الشريعة الأولى بأكثر من 500 عام على شريعة موسى إلّا أنها تمثل مرحلة أرقى وأنضج من التطور الاجتماعي بالمقابلة مع شريعة موسى التي انحصرت في تنظيم شؤون مجتمع رعي وزراعة. ومن الأشخاص الذين أثروا في تطور المجتمع العبراني والديانة اليهودية والتوراة «الكاهن» (كوهين) الذي كانت وظيفته تعليم الشريعة وشرحها، وكان يقوم علاوة على ذلك بالإشراف على إقامة الشعائر والرسوم الدينية، ويصحّ القول إنه كان الواسطة بين الإنسان وبين الله[2]، وكانت وظيفة الكهانة عند العبرانيين وراثية حيث حصرت في نسل هارون، وهم اللاويون[3]. ومن الشخصيات الذين أثروا في العبرانيين أيضاً طبقة أهل الحكمة، ولم تكن وظيفة الحكيم رسمية، كما أن مصدر ما يتّصف به الحكيم من تجاربه وليست مثل الشريعة موحى بها. ويمثل الحكمة في التوراة سفر الأمثال

---

(1) انظر نموذجاً من هذه المقارنات في .(Hitti, Op. Cit., 210)

(2) .(Hitti, ibid, 210)

(3) سفر الخروج 28: 1، العدد 16: 4.

وسفر «أيوب» الذي يعدّ من أمتع كتب التوراة من الناحية الأدبية والإنسانية كما أنه يحتوي على نوع رفيع من الشعر، فهو يجمع بين الشعر والحكمة، وموضوعه شبيه بموضوع القصيدة البابلية الشهيرة التي عنوانها «لأمجدن رب الحكمة»[1] إذ تدور على ما يحلّ بعبد صالح من عذاب وبلوى لامتحانه وابتلائه من قبل الرب.

الأنبياء:

ولعل أهم هؤلاء الأشخاص الذين أثروا في سير تأريخ العبرانيين «الأنبياء». والنبي[2] يعني هنا المتكلم أو المخبر عن الله. ولإدراك أهمية الأنبياء في تأريخ الديانة العبرانية نقول إن الدين العبراني كما وصل إلينا إنما بدأ منذ ظهور الأنبياء، وقد ظهر نظام النبوة عند العبرانيين كرد فعل أو استجابة عنيفة إزاء العبادة الغريبة الوثنية من الأقوام المجاورة للعبرانيين، ولا سيما عبادة الأبعال من الكنعانيين، كما قويت حركة ظهور الأنبياء أيضاً بالاستجابة إزاء تبذير الملوك وزيغهم وإسرافهم منذ زمن سليمان بحيث كانت تبدو على دعوة مثل هؤلاء الأنبياء مسحة الاشتراكية البدائية. لقد ظهر الأنبياء ليحافظوا على ديانة «يهوه» نقية خالصة من شائبة العبادات الوثنية المجاورة. وتطور الأنبياء بمرور الأزمان إلى مرحلة روحية سامية، بحيث يصحّ القول إنهم أوجدوا ديانة تختلف عن ديانة الإسرائيليين القديمة، أهم ما يميزها الوحدانية النقية التي تدور على عبادة إله عالمي عام، عادل، يحاسب على السلوك والأخلاق. وإذا كانت الديانة القديمة تقوم على الطقوس والعبادات الظاهرية ولا سيما التضحية والقرابين، فإن الأنبياء المتأخرين أعلنوا بين قومهم على أن الله الأعظم يريد من عباده بالدرجة الأولى السلوك والأخلاق أكثر من التعبّد، وهكذا تميّزت ديانة هؤلاء الأنبياء الجديدة بالإله الواحد الأعظم الذي يهتم

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) كلمة النبي في العربية والعبرانية (نابئي) بحسب اشتقاقها اللغوي يعني المعلن أو المبلغ وهي كلمة مأخوذة من جذر سامي موجود في اللغات السامية، فجذر «نبو» في الآكدية يعني دعا وأخبر، ومنه اسم الإله البابلي «نبو».

بالعدل والأخلاق. أي إنهم في الواقع قاموا بمحاولة جريئة وهم وسط ذلك العالم القديم ذي الديانة المشبعة بالطقوس الوثنية، وجهروا بتفسير انقلابي جديد للإله وطبيعته وصفاته، وتفسير علاقة الإنسان بهذا الإله، وعلاقة الإنسان بالإنسان، والتبشير بالعدالة الاجتماعية في الدين أكثر من العبادات الطقوسية. وقد أثرت تعاليم هؤلاء الأنبياء المصلحين الجريئين في العالم أثراً بالغاً ولا سيما في الشعوب التي تدين بإحدى الأديان السامية الكبرى. فالمسيح مثلاً لم يؤسس تعاليمه على تعاليم الكهنة والقوانين الموسوية مثلما أقامه على تعاليم أولئك الأنبياء، وبذلك يكون الأنبياء العبرانيون قد «بدأوا بأعظم حركة في تأريخ البشر الروحي»[1]، ونتج عن تبشير هؤلاء الأنبياء وتعاليمهم نوع جديد من الأدب الديني في التوراة، يمتاز بالجاذبية والتأثير والحماس العاطفي والنظم والتأليف المتميز بالموسيقى والإيقاع الخاصين، ويرجع عهد القسم الأعظم من هذا الأدب إلى حدود 750 و550 ق. م. ولعل أهم أثر لهؤلاء الأنبياء ما سبق أن نوّهنا به من سعيهم للتبشير بالوحدانية الصحيحة النقية، إذ إن الأنبياء كما يدل الواقع التاريخي هم الذين أوجدوا الوحدانية الصحيحة عند العبرانيين، أما ما قبل عهد الأنبياء فلم يكن العبرانيون موحدين بالمعنى الدقيق لمصطلح «التوحيد» (Monotheism)[2]، بل أصح ما يوصفون به أنهم أدركوا مبدأ التفريد (Henotheism). وهكذا كان موسى وداود على غرار ما رأيناه في الحضارات القديمة حيث كان يخص إلٰه واحد من بين مجموعة آلهة بالتعظيم والتقديس بدون نبذ عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها، كما أن هذا الإلٰه الذي تصوّره العبرانيون في عهد موسى وما قبل موسى كان إلهاً قبلياً خاصاً بقبيلة إسرائيل وينافس آلهة الأقوام الأخرى، ويفاضله عباده مع هذه الآلهة، كما أن صفاته الأخرى لم تكن لتتميز بالصفات العليا التي تطور إليها تصور لأنبياء لله الأعظم، إله جميع الكون. والواقع أن أهم ما يميّز مبدأ الوحدانية

---

(1) انظر .(Hitti, Op. Cit., 212), J. A. Bewer, The Literature of the Old Testament

(2) ومن الباحثين من وضع مصطلح (Monolatry) أي عبادة إله واحد مع جواز الاعتراف بوجود آلهة أخرى.

الصرفة الصحيحة هو أن لا تتساهل بوجود الآلهة الأخرى وبعبادها، بل يعمد أصحاب الأديان الموحّدة إلى اضطهادهم وجواز قتلهم إن لم ينبذوا الشرك. والتفريد يمكن عدّه مرحلة تطورية بين الشرك (Polytheism) وبين طور الوحدانية الصرفة. فتطورت فكرة الإِلٰه «يهوه» منذ ظهور الأنبياء بين العبرانيين من إِلٰه قبلي لا يهمه من العالم والخلق سوى قبيلة إسرائيل (أو شعبه المختار) يحارب معها كما كان الحال عليه في آلهة دول المدن في العراق القديم ـ نقول إن هذا الإِلٰه القبلي المحلي تطور تصور الناس له إلى إِلٰه متسام، هو إِلٰه جميع العالم، يتّصف بحبه لخلقه وبعدالته ورحمته وعفوه. وهذا في الواقع تطور عظيم لا نعلم بوجه التفصيل الخطوات التي تمّ إدراكه بها. ومن الإبداعات الأخلاقية التي ابتدعها أنبياء بني إسرائيل تعليلهم وتفسيرهم لما كان يقع على شعبهم من اضطهاد الشعوب، ولا سيما ضربات الآشوريين المهلكة. فبموجب التفكير الضيق القديم الذي شاركوا فيه الحضارات القديمة الأخرى أن القوم المغلوبين يعني أن إِلٰه القوم الغالبين أقدر وأقوى من إلههم. أما أنبياء العبرانيين فلم يقروا بأن الإِلٰه «آشور» أقوى من إِلٰههم «يهوه» بل إنهم لم يعترفوا بوجود الإِلٰه «آشور» ولا بغيره من آلهة الأقوام الأخرى، وعلّلوا ما كان يقع عليهم من ضربات أنه ناشىء من ذنوبهم وآثامهم ومعصيتهم للإِلٰه «يهوه» الذي سخّر الآشوريين ليكونوا «سوط نقمة الله» لتأديب العبرانيين حينما يعصونه (كما جاء في التوراة). وهذه في الواقع براعة خلقية عظمى في تعليل النكبات وتحويل الهزيمة إلى نصر والذل إلى مجد.

ونختتم بحثنا عن العبرانيين بذكر أشهر أنبيائهم الذين أثروا في مجرى حياتهم الدينية والخلقية. فأول هؤلاء الذين أعلنوا الوحدانية الصرفة «عاموس»[1] وكان هذا راعياً ضئيل الشأن مهلهل الثياب، من قرية حقيرة في

---

(1) (Amos). ومعنى اسمه في العبرانية (حمل)، وله سفر في التوراة مشهور هو السفر الثلاثون من أسفار العهد القديم.

يهوذا قرب بيت لحم اسمها «تقوع». فكيف استطاع هذا الراعي أن يتصور الله بوحدانيته وشموله وعالميته فيبشر بفكرته في حدود 750 ق.م.؟ وكان «عاموس» نبياً مبشراً ونذيراً اعتمد على الكلام دون الكتابة على غرار أعاظم الأنبياء كعيسى ومحمد عليهما السلام. وقد بشّر بمبادئه في مملكة إسرائيل (مملكة الشمال) في عهد ملكها «يربعام» الثاني الذي امتاز عهده بالثروة والبذخ فندّد بسلوك هذه المملكة كما وبّخ مملكة يهوذا، وكان صريحاً عنيفاً في تبشيره. وكان أول من تصور الإلٰه «يهوه» بأنه إلٰه الشعوب الأخرى من غير الإسرائيليين[1]، كما أنه تصوره إلهاً يتّصف بالعدل الاجتماعي ولا يريد الطقوس والقرابين[2].

ونذكر من مشاهير هؤلاء الأنبياء «هوشع» الذي كان من أهل مملكة إسرائيل (وقد عاش في حدود 745 ـ 735 ق.م)، وله سفر مهم في التوراة، وقد بشر في مملكة الشمال في زمن الملك «يربعام» الثاني وكان معاصراً للنبي أشعيا الذي سنذكره، وقد بشّر بفكرة طريفة هو مبدأ الحب في الله وأن جوهر الله الحبّ[3]. أما «أشعيا» الذي بدأ نبوته في حدود 738 ق.م. فقد أكّد مثل «عاموس» على وحدانية الله الخالصة، وقد اعتبر الآلهة الأخرى من خلق الإنسان لا حقيقة ولا قيمة لهم[4]، كما أكّد على قدسية الله وكماله، وقد عاش في يهوذا في أيام عصيبة بالنسبة للعبرانيين فقد دمرت في عهده مملكة السامرة وأزيلت من الوجود على يد الملك الآشوري سرجون (772 ق.م).

وشاهد أيضاً تدمير سنحاريب لمملكة يهوذا وحصاره لعاصمتها أورشليم. وقد امتاز في هذه المحن بقوة روحه ووطنيته وتحريضه لقومه على المقاومة، فقد صرف ثلاثة أعوام وهو يجول حافياً عارياً تقريباً مبيّناً للناس

---

(1) انظر عاموس، 9: 5 ـ 7.

(2) ذات المصدر الإصحاح الخامس.

(3) سفر هوشع 14:4.

(4) سفر أشعيا 2:8، 18، 10:10.

كيف يعامل الأسرى الآشوريون. وقد بشر أشعيا بظهور المسيح المخلص لبني إسرائيل.

ونذكر من مشاهير أنبيائهم «ارميا»[1] (626 ـ 586 ق.م) الذي امتاز عن سابقيه من الأنبياء بأنه كتب تعاليمه، وقد عاش ليشاهد هجوم نبوخذنصر على يهوذا في عام 597 ق.م. وتخريب أورشليم والسبي البابلي الثاني في عام 586 ق.م. وقد أكّد أيضاً على الوحدانية، وحلم بظهور «طوبيا» يسود فيها الحق والعدل بين الناس[2]، وقد ورد في سفره[3] تعاليم وآراء تعد أسمى تفكير في التوراة، فقد فسّر فكرة العهد بين الله وبين بني إسرائيل ليس بأشياء ظاهرية خارجية مما يكتب على ألواح الحجر كما في عهد الله لموسى، وإنما هو عهد يكتب في القلوب كما أنه أكّد على مسؤولية الفرد الجاني دون غيره من أقربائه بخلاف العقيدة السابقة التي تأخذ الأبناء بجريرة الآباء[4] وهذه مرحلة مهمة في تطور العدالة الأخلاقية.

---

(1) (Jeremiah) ومعنى اسمه بالعبرانية «معظم من يهوه». وسفر «أرميا» هو السفر الرابع والعشرون من العهد القديم.

(2) سفر أرميا 23: 5.

(3) وبوجه خاص الإصحاحات 30 ـ 33.

(4) أرميا 31: 9 ـ 30.

الفصل الحادي والثلاثون

موجز تاريخ بلاد الشام
في العهود المتأخرة

كنا نوّهنا فيما سبق ببعض الحوادث التأريخية المهمة في بلاد الشام في عهد الأمبراطورية الآشورية الثانية (745 ـ 612 ق.م) من غزوات الآشوريين المتتابعة وقضائهم على الكيانات السياسية التي كانت تقيمها الأقوام السامية في سوريا مثل دولة الآراميين في دمشق، وغزواتهم لبلاد فينيقيا، كما ذكرنا أيضاً قضاء الآشوريين على الدولة اليهودية الشمالية «إسرائيل» (721 ق.م)، وتخريبهم لمدن الدولة الثانية أي مملكة يهوذا. ورأينا أيضاً أن مجيء البابليين المتأخرين (الكلدانيين) لم يخفّف من وطأة دول العراق القديم في بلاد الشام، فقد رأينا نبوخذنصر يزيل نفوذ مصر من سوريا ويفرض السلطان البابلي في جميع أنحائها، كما أنه أزال الدولة اليهودية الثانية (يهوذا) من الوجود.

ونوّهنا أيضاً ببعض الحوادث المهمة في بلاد الشام في العهد الفارسي الإخميني الذي حلّ محل الأمبراطورية البابلية على أثر فتح كورش لبابل (539 ـ 538 ق.م)، وكيف عامل «كورش» يهود السبي في بابل وعودة جماعة منهم إلى فلسطين وقيامهم بإعادة الدويلة اليهودية التابعة للفرس مع شيء من الاستقلال الذاتي. هذا وقد امتاز العهد الفارسي بالنسبة إلى اليهود وبلاد فلسطين بالهدوء والاستقرار فإن زمن القرنين اللذين استغرقهما هذا العهد (من رجوع اليهود من السبي عام 538 إلى غزو الإسكندر للأمبراطورية الفارسية عام 330 ق.م) لم يتميز في تاريخهم بحوادث جسام، حتى أن مصادرنا الوحيدة عن تأريخهم في هذين القرنين تقتصر على سفري «عزرا» و«نحميا» من أسفار العهد القديم، ونجد حوادث هذا التأريخ مشوشة ملتبسة والتواريخ المخصصة

غير مضبوطة في هذين السفرين[1]، ومهما كان الحال فالمؤكد أن اليهود ظلوا على أحسن حال في علاقتهم مع الفرس الحاكمين، أما ما نشأ من علاقات عدائية فإنها كانت مقتصرة على الأقوام السامية الأخرى المجاورة لهم. فلم تنشأ بينهم ثورات ولا اضطرابات بالمقابلة مع الثورات العنيفة التي قاموا بها في العهد السلوقي الذي أعقب العهد الفارسي الإخميني والاضطرابات العنيفة في العهد الروماني على ما سنبيّن ذلك فيما بعد. أما الدويلات السورية الأخرى فقد دخلت ضمن الأمبراطورية الفارسية الكبيرة التي ضمّت معظم العالم المتمدن آنذاك من مصر إلى مدن الساحل اليونانية في آسيا الصغرى وإلى البنجاب في الهند[2]، ومما يجدر ذكره بهذا الصدد اتخاذ اللغة الآرامية مع الفارسية لتكون لغة هذه الأمبراطورية الشائعة كما اتخذت الحروف الهجائية بالإضافة إلى الخط المسماري الخاص بالإخمينيين. وازدهرت المدن الفينيقية في هذا العهد بصفتها مراكز مهمة للتجارة الدولية كما كان الأسطول الفينيقي عاملاً مساعداً للفرس في مواصلاتهم البحرية وساعدهم في غزو اليونان أيضاً. وامتازت إدارة الأمبراطورية ولا سيما التنظيمات التي وضعها دارا الأول (521 ـ 486 ق.م) بنظامها الدقيق الجامع بين الاستقلال الذاتي المحلي للولايات التابعة وبين السلطة المركزية والسيطرة التامة من جانب الأمبراطور. وبموجب تقسيم دارا للأمبراطورية إلى 23 ولاية دخلت بلاد الشام (وبضمنها فلسطين وقبرص) في إدارة الولاية الخامسة المسماة «عبر النهر» أو ما وراء النهر (عبر نهارا أي عبر نهر الفرات)، وكان على هذه الولاية أن تؤدي مثل الولايات الأخرى جزية أو ضريبة قدرها (350) وزنة من الفضة[3]. وإلى هذه الضريبة فإن بلاد الشام ولا سيما فينيقيا ساعدت الفرس في وارداتها وسفنها في غزو

---

(1) انظر: Erneste William Barnes, The Rise of Christianity (4th ed. 1948) 15.

(2) انظر البحث الخاص بالفرس الإخمينيين في هذا الكتاب.

(3) أي (Talaont) وهي وزن ومقدار من النقود أيضاً وتحتوي (كما في النظام البابلي) على 60 مناً والمنا 60 شيقلاً. وتختلف قيمتها النقدية باختلاف العصور. وسنرى من كلامنا على الإخمينيين أن هذه الضريبة خفيفة إذا قيست بضريبة ولاية بلاد آشور (1000 وزنة) وولاية مصر (700 وزنة).

مصر في عهد قمبيز بن كورش (529 ـ 522 ق.م)، فنتج ذلك إضافة ولاية جديدة إلى الأمبراطورية الفارسية. والمرجّح أن قمبيز مات في سوريا بعد عودته من غزو مصر[1]. كما أن الأسطول الفينيقي، على ما ذكرنا، ساعد أحشويرش (486 ـ 465 ق.م) في غزوه لبلاد اليونان حيث جهز بنحو (207) سفن، كما ساعده المهندسون الفينيقيون في حفره قنالاً لإيواء سفنه من العواصف[2].

وقد ازدهرت دمشق في العهد الفارسي وكانت أهم المدن السورية كما ازدهرت أربع مدن فينيقية وهي «أرواد» وجبيل وصيدا وصور، وقد سمح لكل منها بالاستقلال الذاتي في دويلتها الصغيرة. وقد اتحدت هذه الدويلات في القرن الرابع ق.م. وكوّنت اتحاد ولايات جعل مركزه في مدينة جديدة هي طرابلس، التي يعني اسمها المدن الثلاث. ومنشأ هذه التسمية أن كلاًّ من المدن الثلاث وهي صور وصيدا وأرواد كان لها مستوطن يمثلها في طرابلس قبل أن يتكوّن منها هذا الاتحاد الجديد، حيث اتحدت أجزاء المدينة أيضاً في السنة الأولى من حكم الملك الفارسي أرتحشتا الثاني (359 ـ 338 ق.م)، فأصبحت عاصمة لمملكة فينيقيا الموحدة حيث يجتمع فيها المجلس المشترك في كل عام ويشترك فيه نحو (300) ممثل. ومن الحوادث المهمة في تأريخ فينيقيا في عهد هذا الملك تدهور إدارة الأمبراطورية وظهور علامات تفسخها وانهيارها، فعزمت بلاد فينيقيا على الثورة من جرّاء معاملة الطغيان التي سار عليها الموظفون الفرس، وقد بدأت الثورة في طرابلس ثم انتشرت إلى صيدا، وقد نالت تشجيعاً من مصر، ولكن أرتحشتا أعدّ حملة كبرى من بابل (عام 351 ق.م) تقدر بـ (300000) من المشاة و(30,000) من الفرسان، وبالرغم من استبسال الفينيقيين والصيداويين بوجه خاص فإن مقاومتهم لم تجد نفعاً، ودمرت صيدا تدميراً كاملاً، فخضعت المدن الفينيقية الأخرى على أثر ذلك.

---

(1) يروي جوزيفوس المؤرخ اليهودي أنه مات في دمشق ولكن هيرودوتس يجعل وفاته في «أكبتانا» في ماذي (Josephus, **Antiquities**, XI ch.2).

(2) (Hitti, Op. Cit., 224).

أما من الناحية الثقافية فلا نعلم عن تأريخ بلاد الشام أموراً يعتدّ بها، لقلة المآخذ والمصادر ليس من الناحية الثقافية بل فيما يخصّ النواحي التأريخية الأخرى. كما أن التنقيبات الآثارية لم تكشف لنا عن نواح مهمة. والذي يقال بوجه عام إن الثقافة الغالبة كانت الثقافة السامية مع الاقتباسات الجديدة الأخرى. وأثّر الفرس بوجه خاص في الديانة اليهودية وانتقل منها التأثير إلى المسيحية ولا سيما من ناحية المبدأ الفارسي الثنائي من الخير والشر، وإلٰه الخير والشر وفكرة الحساب واليوم الآخر ومبدأ العقاب والثواب والملائكة[1]، كما دخلت بضع كلمات فارسية إلى العبرية الآرامية مثل كلمة «الفردوس».

العهد السلوقي والروماني في بلاد الشام:

سنقف من كلامنا عن الفرس الإخمينيين وقيام الإسكندر الكبير على كيفية سقوط الأمبراطورية الإخمينية وفتوح الإسكندر للشرق والتقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم ونشوء ما يعرف باسم العهد الهلنستي، أما الآن فنستبق ذلك ونذكر أشياء موجزة عن هذه الحوادث فيما يخص بلاد الشام فنقول إنه بعد اندحار الجيش الفارسي بقيادة دارا الثالث (336 ـ 330 ق.م) في موقعة أبسوس الشهيرة قرب خليج الإسكندرونة (333 ق.م) انهزم دارا، ولكن الإسكندر لم يلاحقه مباشرة بل إنه سار جنوباً لتأمين سيطرته على البحر فغزا فينيقيا سائراً على طوال الساحل من «أبسوس» وأرسل أحد قواده إلى دمشق حيث كانت مركز الجيوش الفارسية. فخضعت له معظم المدن الفينيقية المهمة مثل أرواد وجبيل وصيدا إلّا صور التي اشتهرت بعزتها ومقاومتها المأثورة للفاتحين السابقين حيث تحدّت سنحاريب وأسرحدون ونبوخذنصر، فحاصرها الإسكندر وبنى رصيفاً (طوله 200 قدم) من الساحل إلى جزيرتها المنيعة التي كانت تنتظر المعونة من المدن الفينيقية ومن قرطاجة، ولكن

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 226)

المعونة لم تصل، وبعد حصار سبعة أشهر استسلمت صور، فقتل من أهلها (2000) وباع (30,000) عبيداً. كما أن غزة قاومت الإسكندر ولكن بعد حصار قصير لم يدم أكثر من شهرين فتحت ودمرت وبيع أهلها عبيداً. وبعد ذلك توجه الإسكندر إلى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر، وأسس الإسكندرية المشهورة التي صارت مركزاً مشرقاً مهماً للثقافة فيما بعد. وعاد الإسكندر في عام 331 إلى سوريا ليلاحق جيش دارا حيث التقى به في السهل الكبير بين نينوى وأربيل، فدحر الجيش وفر دارا، وسار الإسكندر من بعد ذلك لإكمال فتح بلاد بابل، فرحّب به أهلها، وذهب من بابل إلى مدينة السوس ومنها إلى برسيبوليس التي أحرقها الإسكندر في ساعة طيش وعربدة وبعد مغامرات قام بها فيما وراء النهر وفي تخوم الهند في ناحيتها الشمالية الغربية عاد الإسكندر إلى بابل ومات فيها في قصر نبوخذنصر بالحمى في حزيران عام 323 ق.م. وهو لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين عاماً.

لقد بدأ الإسكندر بمشاريع عمرانية واسعة فقد كان يحلم بدمج الغرب بالشرق ونشر الثقافة الهلينية كما سنفصل ذلك فيما بعد، ونكتفي لموضوعنا الآن أن نذكر مآل امبراطورية الإسكندر بعد موته إذ إنها تمزقت وظل قواده يتنازعون فيما بينهم عليها زهاء 30 عاماً حتى انقسمت أخيراً بين أربعة من مشاهير قواده، فصارت مصر من حصة بطليموس، وبلاد بابل من حصة سلوقس وملك «أنتيكونس» في آسيا الصغرى و«أنتيباتر» في مقدونية. أما بلاد سوريا وبضمنها فلسطين فقد أُلحقت في مبدأ الأمر بآسيا الصغرى. وبعد معارك بين سلوقس وبطليموس متحدين وبين صاحب آسيا الصغرى ألحقت فلسطين في عام 312 ق.م. بمملكة بطليموس. وفي العام نفسه استعاد سلوقس بابل التي فقدها ثم بعد معركة أخرى في عام 301 ق.م. في فريجية أخذ الجزء الشرقي من آسيا الصغرى وجميع بلاد سوريا من الفرات إلى البحر المتوسط. وقد بنى في سوريا أنطاكية الشهيرة على العاصي وسماها باسم أبيه (أنطيوخس) وصارت مركز الحكم السلوقي في سوريا.

وقد عدّ عام 312 ق.م. بداية العهد السلوقي (ويسمى بالعهد اليوناني في بلاد الشام) وتأسيس المملكة السلوقية في سوريا، وصار السلوقيون يلقّبون أنفسهم بملوك سوريا. وصارت السنة السلوقية يسير عليها معظم الشرق الأدنى، حيث اتخذت في بلاد بابل التي دخلت في حوزة السلوقيين.

ولقد حذا سلوقس حذو الإسكندر في تحويل الشرق إلى الهلينية فمثلاً نجده يؤسس ما لا يقلّ عن ست عشرة مدينة سمّاها باسم أبيه (أنطيوخس) (Antiochus) أشهرها أنطاكية العاصي، كما أسس تسع مدن وسماها باسمه أشهرها سلوقية دجلة وسلوقية العاصي وخمس مدن سماها باسم أمه «الوديقية» (Laodicea)، وأشهرها مدينة اللاذقية كما أسس ثلاث مدن باسم زوجته (من بلاد البخت) «أفامه» (Apama)، وأشهر هذه المدن مدينة «أفامية» (Apamea) على العاصي (ويعرف موضعها الآن باسم قلعة المضيق). ولكن ضعف أمر السلوقيين من بعد سلوقس الأول في نزاعهم مع البطالمة (البطالسة) وبسبب ثورة الفرثيين في خراسان حيث استطاعوا أن يستقلوا عن سيطرة السلوقيين في عام 249 ق.م. تحت ملكهم إرشاق (Arsaccs)[1]، وكان أعظم ملك قام من السلالة السلوقية أنطيوخس الثالث الملقب بالكبير (223 ـ 187 ق.م) الذي استطاع أن يعيد كثيراً من الأجزاء التي فقدتها الأمبراطورية بعد حروب مستمرة دامت عشرين عاماً تقريباً. ومن الأمور التي تذكر عن أنطيوخس أن حدث في عهده أول اتصال بين قوة روما الجديدة وبين السلوقيين حيث حذرت روما أنطيوخس من التدخل في مصر كما أن «هانيبال» التجأ في عهده إلى سوريا وحرّضه على حرب الرومان، فتشجع هذا في إرسال حملة على اليونان ولكنه دحر في المعركة التي نشبت في «ثرموبيلي» (191 ق.م)، كما اندحر في معركة أخرى في مغنيسيا في آسيا الصغرى (190 ق.م)، فاضطر في عام 188 ق.م. على التنازل إلى الرومان عن جميع الأقاليم الكائنة في ما وراء طورس ودفع غرامة حربية كبيرة وبذلك فقد جميع آسيا الصغرى.

---

(1) انظر البحث الخاص بالفرثيين في تأريخ إيران.

وتأثرت سوريا تأثراً ملحوظاً بالثقافة اليونانية (الهلنستية) منذ العهد السلوقي فيها، حتى أن اليهود المشهورين بتعصبهم لقوميتهم، قد تأثر أغنياؤهم والطبقات الوسطى منهم بالتيارات الجديدة، حيث اتخذوا اللغة اليونانية والعادات والأزياء الغريبة. وبلغ الأمر أن الإله اليوناني «زوس» طوبق بالإله «يهوه»، وأقام أنطيوخس مذبحاً لزوس في الهيكل في أورشليم، مما أثار كهنة اليهود والمتعصبين منهم الذين رأوا في ذلك دنساً لهيكل الإله «يهوه»[1]، فنشبت ثورة يهودية في فلسطين (في عام 168 ق.م) بقيادة «جوداس» من العائلة المعروفة باسم «الهسمونيين» أو «الاسمونيين»، واتخذ هذا الثائر لقب «مكابوس» وتمكّن من الاستيلاء على «أورشليم» وتطهير الهيكل[2]. وتطورت هذه الحركة التي كانت دينية في أصلها إلى ثورة قومية بين اليهود لتحرير اليهود من العادات والعبادات الدخيلة، ووجهت الثورة أيضاً ضد اليهود الموالين المتساهلين المعتنقين للثقافة الإغريقية السلوقية، وسمح السلوقيون لليهود بالاستقلال الذاتي في المملكة التي كوّنوها واستمرت في الوجود إلى عهد الرومان في سوريا بعد ثمانين عاماً على تأسيسها (في حدود 168 ق.م).

ولم يقتصر الأمر في انحلال المملكة السلوقية على استقلال اليهود وغيرهم بل إن جملة دويلات عربية (نبطية) في سوريا قد استغلت الفرصة في الحدود الجنوبية. فظهرت في حدود 130 ق.م. سلالة عربية حكمت في «أديسا» (الرها)، وقد لقّب ملوكها باسم «أبجر»، وكانت تابعة اسمياً إلى الفرثيين، كما نشأت دويلة عربية أخرى مركزها في حمص (Emesa) ولم تكن تابعة للسلوقيين إلّا بالاسم. ونشأت دولة ثالثة في سوريا البقاع (Coel-Syria) ومركزها في الموضع المسمى «عنجر»[3]، كما أن الأنباط العرب الذين سبق

---

(1) انظر سفر دانيال 11: 31.

(2) لقد نشأ عيد عند اليهود بمناسبة هذا التحرير سمي باسم «هنوكه» (Hanukkah).

(3) خلسيس (Chalcis) في المصادر الكلاسيكية، وعرف أهل هذه المملكة باسم «أتوريين» (Ituraean).

لهم أن طردوا الآدوميين من البتراء في حدود 312 ق.م. قد كوّنوا في هذا العهد مملكة قوية. واستطاع هؤلاء الأنباط أن يأخذوا من السلوقيين جميع سوريا البقاع (في حدود 85 ق.م) ودخلت دمشق في حمايتهم أيضاً.

وبعد حروب معقدة بين الرومان والأرمن والسلوقيين استطاعت روما في عام 64 ق.م. من السيطرة على البلاد السورية (في عهد بومبي) فدخلت سوريا تحت الحكم الروماني.

وقبل أن نوجز أحوال البلاد السورية في العهد الروماني نذكر نواحي أخرى من الأوجه الثقافية في العهد السلوقي. فمن الأمور الجديرة بالذكر ما أشرنا إليه من تأسيس السلوقيين مدناً هلنستية جديدة في سوريا وفي أنحاء الشرق الأدنى الأخرى، ولم يكتفوا بذلك في سوريا بل إنهم أعادوا تسمية جملة مدن قديمة بأسماء تنمّ عن الصبغة اليونانية. وحين كان البطالمة يحكمون في فينيقيا وفلسطين سموا مدينة عكا باسم «بتولمياس» (Ptolemais) تكريماً لاسم بطليموس الثاني فيلادلفوس (285 ـ 247 ق.م)[1]، كما سميت باسمه المدينة القديمة «رباث ـ أمون» (وهي عمان الحالية) فدعيت «فيلادلفيا». وسميت حماه باسم «أبيفانيا» (Epiphania) تمجيداً لأنطيوخس الرابع الملقب «أبيفانس». ولكن هذه المدن وغيرها استعادت أسماءها السامية القديمة على الرغم من تبديل أسمائها.

وكان أكثر الأجزاء التي تأثرت بالثقافة الهلنستية الأجزاء الشمالية حيث شمل التبديل عدا أسماء المدن والمواضع أسماء الآلهة المحلية. فقد طوبق الإله «بل» مثلاً بالإله اليوناني «زوس»، ويأتي بعد ذلك في درجة التحول إلى

(1) (Ptolemy Philadelphus). ومن المدن التي ظهرت في العهد السلوقي اليوناني بانياس (Paneas). وهي «بانياس» الآن، حيث خص موضع منابع الأردن بالتقديس وخصص إلى الإله اليوناني (Pan) وهو إله مشهور في عبادة الجماهير ولما بنيت مدينة هناك سميت باسم «بانياس» كما ذكرت في الإنجيل باسم قيصرية فلبي حيث أعاد الحاكم فيليب بناءها ووسعها وسماها قيصرية تبجيلاً للأمبراطور «طيبريوس».

الهلينية المدن الفينيقية، حيث ازدهر الأدب الإغريقي والفلسفة الإغريقية، وقد ظهر في صيدا وصور جملة كتّاب ومفكرون كتبوا بالإغريقية في القرنين الأخيرين قبل الميلاد. فنذكر مثلاً اسم «زينو» من صيدا الذي كان مدرساً كزينو الرواقي (333 ـ 261 ق.م)، كما أن المدينة التي عاش فيها «زينو» الرواقي وهي «سيتيوم» (Citium) كانت مستعمرة فينيقية، وقد ذهب إلى أثينا وعلم في الرواق (Stoa) المشهور في 302 ق.م. ومن الفلاسفة اليونان المشهورين في أثينا «ديودورس» المشائي (من أتباع أرسطو) الذي كان من صور (في حدود 110 ق.م) ومنهم أيضاً «أنطيوخس» العسقلاني (من عسقلان) الذي حاول التوفيق بين الأفلاطونيين والرواقيين[1]. كما ظهر في سوريا في هذا العهد أيضاً جملة مؤرخين وجغرافيين وفلكيين وعدد من الشعراء. فمن الكتّاب المؤرخين المشهورين «بوزيدونيوس»[2] من أفامية (135 ـ 51 ق.م)، وكان فيلسوفاً رواقياً ومؤرخاً وعالماً طبيعياً، وقد درس في أثينا ومات في رودس. ومن الشعراء السوريين الذين يجدر ذكرهم «أنتيباتر» (Antipater) الصيداوي، وقد عاش في صور أيضاً (في القرن الأول ق.م)، وكان أبيقورياً في فلسفته. ومنهم أيضاً الفيلسوف الأبيقوري والشاعر «فيلوديموس» (Philodemus) الذي ولد في القرن الأول ق.م. في جدره (قرب الموضع المعروف الآن باسم أم قيس في فلسطين)، وهي مستعمرة مقدونية في شرق الأردن وتطل على منحدر اليرموك (Hieromax)، وقد استوطن هذا الشاعر في روما في عهد شيشرون.

هذا وينبغي ألّا نستنتج أن السوريين كلهم كانوا يعرفون اليونانية، بل انحصر تعلمها في الطبقة المثقفة. أما في المدن التي استوطنت من جانب السلوقيين فكان الناس يتكلمون بلغتين، اللغة اليونانية واللغات السامية المحلية ولا سيما الآرامية.

---

(1) ولكن الفلسفة التي عمّت في سوريا أكثر كانت الفلسفة الرواقية. Hitti, Op. Cit., 256.

(2) (Posidonius).

وأتبع السلوقيون سياسة تشجيع التجارة الداخلية والخارجية، وكان ينافس المملكة السلوقية في سوريا المملكة المصرية في عهد البطالسة، ولذلك نشأت الحروب المستمرة بين الطرفين، وازدهرت التجارة مع الهند بالبحر عن طريق اليمن ومن ثم بالطرق البرية بالقوافل عن طريق البتراء، أو بطريق آخر في البحر في السواحل الغربية من خليج فارس إلى الجرعاء (Gerrhae)[1] التي كانت مدينة عربية ومركزاً تجارياً مهماً في خليج فارس ثم في دجلة إلى سلوقية ومنها على طريق الفرات في خلال «دورايوربوس» (الصالحية الآن) ثم إلى أنطاكية أو في الطريق القديم شرق دجلة عبر جزيرة ابن عمر ومن ثم غرباً إلى نصيبين وأديسا وإلى أنطاكية أو إلى دمشق. وهكذا كانت سلوقية على دجلة مركزاً تجارياً مهماً. وكان السلوقيون إبان قوتهم مسيطرين على تجارة الحرير، في الطريق المتغلغل في إيران وأواسط آسيا إلى منغوليا. وازدهرت الحياة في سوريا من جراء ازدهار التجارة والزراعة واستعمال النقود المسكوكة. وقد عملت هذه الأسباب على ازدياد وارتفاع مستوى المعيشة. فقد ورد مثلاً تقدير لسكان سلوقية دجلة بنحو 600,000[2].

العهد الروماني:

لقد سبق أن نوّهنا ببداية العهد الروماني في سوريا حيث قلنا إنه ابتدأ بفتح بومبي لسوريا عام 64 ق.م.[3]. وكانت أحوال البلاد السورية في نهاية العهد السلوقي فيها في وضع اضطراب وفوضى، من تعدد الدويلات المحلية المتنازعة إلى انعدام الأمان في الأسفار البحرية لكثرة قراصنة البحر، إذ أصبح القراصنة قبل عهد «بومبي» قوة دولية مرهوبة حيث استولوا على القسم الشرقي

(1) ولعلها الآن الموضع المعروف باسم العقير (العجير) (انظر ما سبق أن ذكرناه في كلامنا على جزيرة العرب).

(2) انظر (Hitti, Op. Cit., p.279; Pliny, Bk. VI, ch.30).

(3) يحدّد هذا التأريخ المهم في تاريخ بلاد سوريا دخولها تحت الحكم الروماني باسم «ولاية سوريا» (Provincia Syria)، وعاصمتها أنطاكية.

من البحر المتوسط مما هدد روما في تموينها ومواصلاتها فعمل بومبي على استئصال شأفة القرصنة البحرية.

وكانت سوريا من أعظم وأهم الدويلات الرومانية بحيث وضعت تحت الحكم المباشر من جانب وال روماني (Proconsul) وخوّل سلطات واسعة من تجنيد الجيوش وشنّ الحروب، وكان أول حاكم فيها من هذا النوع «جبينيوس» (Gabinius) (57 ـ 55 ق.م) الذي قلص من نفوذ المملكة اليهودية وأعاد بناء جملة مدن في فلسطين، وأعقبه «كراسوس» الذي كان عضواً في الحكم الثلاثي الأول في روما (Triumvirate) وكان معه في الحكم بومبي ويوليوس قيصر. وقد جعل كراسوس من سوريا قاعدة مهمة لعملياته العسكرية ضد مملكة الفرثيين الذين كانت عاصمتهم في طيسفون. ولكنه لاقى اندحاراً شنيعاً في ربيع عام 53 ق.م. قرب حران على أيدي الفرثيين، وقتل في المعركة، وخلفه «كاسيوس» الذي جمع جيشاً قوياً للدفاع عن سوريا إزاء الفرثيين الذين انسحبوا منها (عام 51 ق.م) لما أدركوا قوة «كاسيوس». وأعقب ذلك عهد فوضى واضطراب ليس في بلاد سوريا فحسب بل في بلاد الرومان نفسها على أثر الحرب الأهلية والنزاع بين بومبي وقيصر، ثم صارت سوريا ومصر من حصة «أنطونيوس» (Mark Antony) على أثر اقتسام المملكة الرومانية، فحكم هذا أربع سنوات (40 ـ 36 ق.م) لم تتميز بالهدوء والاستقرار وقد ركن إلى حياة البذخ مع كليوبترا وأهمل شؤون الدولة. فانتهز الفرثيون الفرصة واستطاعوا أن يضموا إلى أمبراطوريتهم سوريا (40 ـ 38 ق.م). وبعد المعركة البحرية الشهيرة في «اكتيوم» (31 ق.م) دحر «أوكتافيوس» أنطونيوس وكليوبترا، فأعاد الحكم الروماني في سوريا، وتوج أمبراطوراً بعد أربع سنوات في روما باسم «أوغسطس». ومما يقال في العهد الروماني في سوريا من الناحية الثقافية استمرار الثقافة الهلنستية التي رأيناها في العهد السلوقي مع التبديلات المقتضية في العهد الروماني في الناحية السياسية، وحلول اللغة اللاتينية محل الإغريقية، إذ الواقع أن الثقافة الرومانية بوجه عام امتداد للثقافة الهلنستية التي نشأت من بعد الإسكندر. واستمرت الثقافة الرومانية في سوريا

منذ الفتح الروماني عام 64 ق.م. إلى 323 للميلاد، حيث نقل الأمبراطور قسطنطين عاصمة الأمبراطورية من روما إلى القسطنطينية (بيزنطية)، حيث بدأ عهد جديد في أقاليم الشرق الأدنى. ومما يميّز الحكم الروماني في سوريا وسائر أنحاء الشرق الأدنى تساهل الرومان في إعطاء نوع من الحكم الذاتي للأقاليم التابعة لهم والسماح لها بالاحتفاظ بأديانها ولغاتها وعاداتها.

وقد استعادت سوريا في خلال القرن الأول من الحكم الأمبراطوري في روما (30 ق.م. ـ 70 للميلاد) ازدهارها الاجتماعي والاقتصادي من بعد عهد الارتباك والفوضى من جرّاء الحروب الداخلية والخارجية، وصارت بلاد الشام ولاية مهمة من أمبراطورية عظمى كانت تمتد من الأطلسي والبحر الشمالي إلى الفرات ومن الراين والدانوب إلى مناطق الصحارى. وتميز هذا القرن في حياة الأمبراطورية باستتباب السلم والاستقرار. هذا وسنرى من كلامنا على الرومان اشتهارهم بالكفاءة في الإدارة وإقامة الطرق الكبرى وإنشائهم البريد ومقدرتهم الهندسية مما سهّل إدارة الأمبراطورية الواسعة وتوحيدها. وكذلك استمر ازدهار الأمبراطورية في القرن الثاني للميلاد (96 ـ 180 م) حيث حكم جملة أباطرة صالحون أكفّاء، وقد وصلت الأمبراطورية في عهد تراجان (98 ـ 117 م) وفي عهد خلفه «هادريان» (Hadrian) (117 ـ 138 م) أوجها في السعة والاستقرار.

وكانت بلاد الشام مركزاً عسكرياً مهماً للرومان، حتى أن أحد القواد الرومان في سوريا وهو «فسباسيان» (Vaspasian) قد ساعده جنوده «اللجيون» في سوريا على صيرورته أمبراطوراً (69 للميلاد) ضد مرشح الجيوش الرومانية في ألمانيا. وبالنظر لازدهار الحياة الاقتصادية من الزراعة والتجارة والصناعة فقد ارتفع مستوى المعيشة وكثر السكان حتى أن سكان سوريا في القرن الثاني للميلاد قدر عددهم بنحو سبعة ملايين[1].

---

(1) انظر. H. Lammens, La Syrie, Précis historique (1921).
المشار إليه في Hitti, Op. Cit., 292)

واشتهرت في العهد الروماني جملة مدن استمرت في ازدهارها من العهد السلوقي، أشهرها «أنطاكية» وضاحيتها المشهورة «دفنى»[1]، وقد أصبحت أنطاكية ثالث مدينة معظمة في الأمبراطورية من بعد روما والإسكندرية واشتهرت ببذخها وحياة اللهو فيها وألعابها[2]. وكانت تزاحم أنطاكية في ازدهار الحياة مدينة اللاذقية التي اشتهرت بكرومها التي كانت تغطي التلال المطلة على المدينة وتمتد شرقاً إلى مدينة «أفامية» تقريباً، وكانت تصدر الكروم والخمور منها إلى ميناء الإسكندرية. وإلى الجنوب من «أفامية» على العاصي تأتي حمص التي حافظت في العهد الروماني على حكمها الذاتي حيث كان يحكمها ملوك كهان منها. ومن المدن الأخرى التي حافظت على حكمها الذاتي دمشق وتدمر وأديسا (الرها)، حيث كان كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة. وقد نمت تدمر إلى دولة مهمة (انظر الكلام عن تدمر في موضع آخر). وقد أعلى هادريان من شأن دمشق وجعلها مدينة رئيسية (Metropolis)، وصارت في زمن «ديوقليشيان» موضع مصانع للأسلحة، وقد تحول إلٰهها «ادد»، حدد، أو «رمان» إلى جوبتر الدمشقي حيث انتشرت عبادته إلى إيطاليا وموضع معبده في دمشق تحت الجامع الأموي حيث يقوم الجامع فوق أنقاض كنيسة مسيحية وتقوم هذه الكنيسة فوق المعبد. ونالت بيروت حظوة كبرى في عهد أوغسطس[3] حيث وسع ميناءها. وأقام فيها «أكريبا» (Agrippa) الأول (31 ـ 33 م) حفيد هيرودوس الكبير ملهى وملعباً كبيرين، كما أنها كانت مركزاً مهماً لمدرسة من القانونيين والفقهاء في القانون الروماني ازدهرت من

---

(1) دفنى أصلها متنزه من الحدائق والجنائن في ضواحي أنطاكية إلى الجنوب بأربعة أميال. واشتق اسمها (Daphne) من حورية أو آلهة تبعها الإلٰه «أبولو» إلى هذا الموضع وتحوّلت هنا إلى شجرة الدفلى. وقد أقيم مزار لأبولو في «دفنى» قرب أنطاكية، حيث الجنائن والأشجار النضرة التي أقيم في وسطها تمثال كبير «لأبولو».

(2) George Haddad, **Aspect of Social Life in antioch in the Roman-Hellenistic Period** (Chicago, 1949).

(3) وقد سماها باسم ابنته تبجيلاً لها حيث دعيت باسم (Colonia Julia Augusta Felix).

بداية القرن الثالث إلى القرن السادس للميلاد. وقد عبد فيها الإله «بوزيدون» (Poseidon) (أي نبتون) الذي جاءت صورته منقوشة على النقود. ومن المدن الشهيرة في لبنان، في البقاع، «مدينة الشمس» (هليوبوليس) وهي بعلبك. وقد سميت بهذا الاسم اليوناني (هليوبوليس) في العهد السلوقي حينما عيّن إلهها «بعل» بالإله الشمس. وقد جعلت المدينة مستعمرة في عهد أوغسطس الذي أقام فيها حامية عسكرية جيشها جزء من جيش بيروت، ولكن بعلبك حافظت على ساميتها أكثر من بيروت وأنطاكية. وقد اشتهرت بعلبك بزماريها العازفين على الناي مثلما اشتهر موسيقيو أنطاكية، حيث كانوا يقومون بالطقوس الخاصة بمعبد بعلبك الذي اشتهرت به المدينة، وكان بالأصل قد أقيم لعباده الإله السوري «حدد ـ أدد» لعله فيما قبل العهد السلوقي وقد اشتهر المعبد بصدق فأله (Oracle)، وقد أعاد بناءه ووسعه الأباطرة الرومان وأشهر من قام بذلك «أنطونيوس بايوس» (Antoninus Pius) (138 ـ 161 م) واستمر العمل أيضاً إلى زمن «كره كالا» (Caracalla) (211 ـ 217 م) وغيرهما، فصار المعبد يعدّ من عجائب فن العمارة، كما أن خرائبه الآن[1] أعظم ما جاءنا من الآثار الهلنستية في سوريا.

أما عن الناحية الأدبية والعقلية فإن المدن السورية لم تضاه مصر (ولا سيما الإسكندرية) في العهد الروماني[2]، وكان أدباؤها ممّن كتب باللاتينية لم يتميزوا بالإبداع، ولكن ظهر في سوريا كتّاب مبرزون بالإغريقية منهم المؤرخ اليهودي «جوزيفوس» (ولد عام 37 م في أورشليم) الذي كتب كتابه التأريخي المشهور عن اليهود وعن الحرب اليهودية الرومانية[3] فكان

---

(1) لقد أجريت فيه بعض التحريات الأثارية على يد «بخشتاين» (O. Puchstein) منذ عام 1902 انظر تقاريره عن الحفريات التي نشرت في 1902، 1903، و1905 وانظر أيضاً: Theodore Wiegand, **Baalbek**, 3 vols. (1921 - 1925).

(2) (Hitti, **Op. Cit.**, 319)

(3) Josephus, **Antiquities of the Jews and the Jewish War**. (William Whiston).

وقد ترجمه إلى الإنجليزية ثم نشر ونقّح من جانب (H.St. J. Thackeray) في سبعة مجلدات (طبع لندن 1926 ـ 1943).

مصدراً مهماً لتأريخ سوريا، وقد كان نفسه شاهد عيان في تلك الحرب التي سننوّه بها إذ صار قائداً في الجيش اليهودي، وهناك أسماء بضعة مؤرخين آخرين في سوريا لا يُعرف عنهم الشيء الكثير، منهم مؤرخ طريف عاش في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد اسمه «يامبليخوس» (Iamblichus) كتب في تأريخ بلاد بابل. ومن المؤلفين القلائل الآخرين في الجغرافية والطب، جغرافي مهم اسمه «مرينوس» (Marinus) من أهل صور وقد عاش في منتصف القرن الثاني للميلاد، وكان أول من وضع الخرائط العلمية المرسومة بالطرق الرياضية على أساس خطوط الطول والعرض، وقد اقتبس منه بطليموس كثيراً[1]، ونذكر الطبيب الذي عاش في «أفامية» ومارس الطب في روما في عهد تراجان وبداية القرن الثاني للميلاد واسمه «أرخيجينس» (Archigenes) الذي كتب رسالة في النبض علّق عليها «جالينوس» المشهور. ونذكر أيضاً «لوشيان» (Lucian) من سموساته (سميساط) من القرن الثاني للميلاد، وكان قانونياً ثم محاضراً متجولاً في آسيا الصغرى ومقدونيا واليونان وإيطاليا وفرنسا[2] وساهم المفكرون السوريون في حقل الفلسفة أيضاً ولا سيما الأفلاطونية الحديثة، ويذكر لنا سترابون عن الفلاسفة الصيداويين، كما يذكر لنا فيلسوفاً رواقياً عاش في صور اسمه «انتيباتر» (Antipater) ولعله نفس «أنتيباتر» الشاعر[3]، كما اشتهر من صور الفيلسوف «مكسيموس» (Maximus) في عهد «مرقس أوريليوس». وصارت «أفامية» في القرن الثالث للميلاد مركزاً مهماً لمدرسة من الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين أسسها «إيميلوس» (Aemelius) بتشجيع الملكة العربية الشهيرة «زنوبيا» ملكة تدمر. وكان نفسه تلميذاً لأفلوطين مؤسس الأفلاطونية الحديثة[4].

---

(1) انظر جغرافية بطليموس الكتاب الأول الفصل السادس المشار إليه في: .(Hitti, Op. Cit., 320).

(2) .(Hitti, Op. Cit., 322) وقد جاءنا من مؤلفاته الشهيرة كتابه «الآلهة السورية» (De Dea Syria) (انظر نشر مؤلفاته من جانب (A.M. Hammon, Lucian, 1913)

(3) .(Hitti, Op. Cit., 232)

(4) حول أسماء الفلاسفة الآخرين من هذه المدرسة انظر «ذات المصدر» ص 324 فما بعد.

ومما يقال بوجه عام أنه على الرغم من تغلغل النفوذ الروماني والثقافة الرومانية ـ الهلنسنية في سوريا وعلى الرغم من تساهل الرومان مع رعاياهم ومنحهم الرعوية الرومانية إلى طبقات مهمة من الولايات الرومانية[1]، فإن السكان الأصليين ظلوا محافظين على كيانهم الوطني، وكانت تبدر منهم ردود فعل بعضها قصدية شعورية وبعضها لا شعورية إزاء عملية التحوّل إلى الثقافة الهلنستية، وبوسعنا عدّ ظهور المسيحية من جملة هذه الاستجابات من الناحية الدينية، حيث تمثل لنا انتصار المقاومة السورية للروح الهلينية ووثنيتها، ومن الباحثين من يعدّ ظهور الإسلام وانتصاره على الأمبراطورية الرومانية أعنف رد فعل إزاء التحول إلى الثقافة الهلينية[2]. وكان اليهود أكثر السكان مقاومة لتغلغل الروح الهلينية بصفتهم ذوي ديانة موحدة بلغ تمسكهم بها أن جعلوها قومية لهم. ومع أن الطبقات المثرية والأرستقراطية اليهودية قد تقبّلت التغلغل الروماني وتعاونت مع اليونان إلّا أن الجمهور ورجال الدين والوطنيين المتعصبين كانوا يقاومون ذلك التحول حتى بلغت المقاومة الثورة العلنية على روما. وقبل أن نلخص هذه الثورة اليهودية نذكر أن الرومان في عهد «أنطونيوس» قد خلعوا العائلة المكابية اليهودية من حكم اليهود ونصبوا بدلاً منها سلالة يهودية أخرى صار منهم ملوك اشتهروا باسم «هيرود» (هيرودس)، وأشهرهم هيرود الملقّب بالأكبر الذي حكم من 40 ـ 4 ق.م. الذي اشتهر بولادة السيد المسيح في السنة الأخيرة من حكمه[3]. وعمل هيرود على تمشية المصالح الرومانية ضد مصالح قومه اليهود فنجح إلى حدّ ما في نشر الثقافة الرومانية ـ الهلنستية حتى أنه أقام في أورشليم ملاعب على الطراز الروماني

---

(1) وقد بلغت حركة منح الرعوية الرومانية إلى سكان الولايات الرومانية أوجّها في عام 212 للميلاد لما أصدر الأمبراطور «كره كالا» مرسومه الشهير القاضي بمنح الجنسية الرومانية إلى سكان الولايات من الأحرار.

(2) انظر توينبي «بحث في التأريخ» (Toynbee, A Study of History) وترجمة الموجز من جانب المؤلف.

(3) انظر إنجيل «متى» 2: 1 ـ 18.

واتخذ العادات الرومانية. وقد وجّه عنايته إلى مدينة السامرة حيث جدّد بناءها وأعاد تسميتها باسم «سبسطية» (أي مدينة أوغسطس)، كما أنه وجّه همه إلى تعمير معبد الهيكل مداراة لليهود. واشتهر ابنه المسمى هيرود أيضاً بأنه هو الذي قتل يوحنا المعمدان[1] الذي عمّد المسيح وبشّر به وعاش في زمنه.

وأخيراً نجح الحزب المناوىء للرومان بزعامة الفريسيين فحدثت الثورة اليهودية عام 66 ـ 70 للميلاد في حكم «نيرون» وقامت ثورة أخرى في عهد «هادريان» في 132 ـ 134 م. فقضى على الثورة الأولى القائد «فسباسيان» (Vespasian) الذي دمر القطر وحاصر أورشليم ولما تبوأ العرش الروماني بعد موت نيرون عهد إكمال القضاء على أورشليم إلى ابنه «طيطوس» حيث حاصر المدينة زهاء خمسة أشهر انتهت في 70 للميلاد، فأوقع الرومان مذبحة مريعة في السكان وخربت المدينة وأُحرق الهيكل وأزيل من الوجود حتى أن الناس فيما بعد لم يهتدوا إلى موضعه، وقد قدر عدد اليهود الذين هلكوا في هذا العهد زهاء المليون نفساً. أما الأسرى فقد صار يتسلى بهم الرومان بأن أجبروا على قتل بعضهم البعض أو على مصارعة الأسود والوحوش الضارية. وزالت يهوذا من الوجود. وكأن هذا لم يكف حتى ثار اليهود ثورة ثانية من بعد نحو 62 عاماً في عهد هادريان، حيث ثار «سيمون بركوكبا» في 132 ـ 135 م فسحق هادريان العصيان بقسوة وحوّل أورشليم إلى مستعمرة رومانية، مبدلاً اسمها إلى «إيليا كبتولينا» (Aelia Capitolian)، وأقام في محل الهيكل معبداً للإله «جوبتر».

---

(1) انظر قصة هذه المأساة الفريدة في متى 11 فما بعد، حيث إن هيرود سجن يوحنا لتوبيخه له على الزنا بهيروديا التي حنقت عليه ودبّرت قتله. حيث جلبت ابنتها «سلومة» ورقصت أمام هيرود يوم عيد ميلاده فسرّ كثيراً حتى أنه وعدها إعطاءها أي شيء تطلبه فطلبت هذه من بإيعاز أمها رأس يوحنا المعمدان على طبق، فتمّ لها ما أرادت. وقد صارت الحادثة موضوعاً للفن.

نشوء الديانة المسيحية:

نشأت في بلاد سوريا ثاني ديانة عليا من الأديان السماوية السامية، ولما كنا قد نوّهنا بأولى هاتين الديانتين وهي الديانة العبرانية، فيحسن بنا أن نأخذ بعض الأشياء الأساسية عن الديانة المسيحية لما لها من الأثر العظيم في حياة الشعوب قديماً وحديثاً، وهي إلى ذلك من بين الأمور الخطيرة التي ساهمت فيها سوريا في تأريخ الحضارة البشرية، فيجدر عرضها في هذا الموجز من تأريخها.

وإذا كان يتعذّر على نطاق هذا الكتاب الدخول في التفاصيل عن تأريخ المسيحية وتطورها وانتشارها وذكر مللها ونحلها فنجتزىء هنا على النقاط الأساسية في الموضوع كمقدمة تعريفية لمن أراد التتبع والتوسع.

ومهما ساق النقاد المتشككون من الشكوك في شخصية عيسى التأريخية وتفاصيل سيرة حياته[1]، فإن الذي لا يمكن نكرانه من الوجهة التأريخية أن هناك حقائق تأريخية أساسية عن حياته وتعاليمه مأخوذة بالدرجة الأولى من الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل والرسائل الخاصة بالحواريين، وما ورد عنه

(1) لا مجال للدخول في نقاش مثل هؤلاء المتشككين وحججهم، ويكفي أن ننوّه ببعض مواطن شكهم على سبيل المثال، فمثلاً يقولون إن المسيح لم يذكره أحد من المؤرخين المعاصرين باستثناء عبارة قصيرة وردت في تأريخ «تاسيتوس» (الذي عاش في منتصف القرن الأول أو الثاني للميلاد) من أن «كريستوس» أي «المسيح» قاسى عقوبة الموت في حكم الأمبراطور طبيريوس على أثر الحكم الذي أصدره الحاكم الروماني «بونتيوس بيلاطس» (Tacitus, XV, ch. 44) ثم ذكره وذكر أتباعه المسيحيين المؤرخ اليهودي «جوزيفوس» (ولادة عام 37 م) وكان شاهد عيان في الحرب الرومانية اليهودية (70 م)، ولكن بعض النقّاد يشكون في أصالة هذه الإشارة وصحتها بيد أن الواقع أنّ ولادة المسيح في تلك القرية الضئيلة الشأن من تلك الأمبراطورية الواسعة وسير تبشيره وصلبه. كل ذلك كان من الأمور التافهة في نظر المؤرخين المعاصرين الذين عاشوا في تلك الأمبراطورية المترامية ذات الوقائع والحوادث الجسام. هذا وإن عدم الأخذ بسكوت المصادر المعاصرة لا يقتصر على هذه الحالة، بل إن هناك حوادث تأريخية من شاكلتها.

في المصادر المتأخرة. فمن هذه الحقائق الأساسية أن شخصاً تأريخياً (حقيقياً) اسمه «المسيح»[1]، قد ولد في موضع صغير (بيت لحم) في فلسطين من بلاد سوريا في العهد الروماني في حدود عام 4 ق.م. في أواخر حكم الملك اليهودي على فلسطين التابع لروما وهو «هيرود» (هيرودس) الملقّب بهيرود الأكبر في عهد (الأمبراطور) الشهير أوغسطس قيصر، وظهر يبشر بديانته في عهد الأمبراطور طبيريوس (42 ق.م. ـ 37 م) وأنه مات صلباً على الصليب في عهد هذا الأمبراطور (في عام 28 أو 29 للميلاد) في عهد الوالي الروماني المسمى «بيلاطس» (الملقّب بالبنطي) حيث سلم المسيح إلى اليهود. واتخذت ولادته حداً فاصلاً في التأريخ البشري بين العهد القديم والعهد الحديث.

ونفرّدت نبوءة عيسى ورسالته على ما جاء في الأناجيل ببعض الأمور التي لم تكن مألوفة في تجارب النبوات في الشرق الأدنى كولادته من عذراء (هي مريم العذراء التي كانت مخطوبة ليوسف) بدون أن يمسسها بشر، والعجائب والمعجاز التي حدثت في السماء، والموت على الصليب ثم قيامته، ولكن جميع تعاليمه التي بشّر بها قد سبق ما يضاهيها من تعاليم أنبياء بني إسرائيل، حتى الحكم والأمثال والعبر، بيد أن هذا النبي تفرّد عن سابقيه من الأنبياء بأن أقام ديانته على أساس أسمى يدور حول حب الله وعلاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالإنسان (بنوة الإنسان لله وأبوة الله لجميع البشر) فجمع شمل البشرية في عائلة واحدة كبرى عن طريق الحب الإلٰهي. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن غير واحد من الفلاسفة السابقين حلم بمبدأ الأخوة البشرية وحاول الإسكندر الكبير محاولته الجريئة العظمى من جمع العالم في دولة واحدة، ولكن كانت تنقص مبادىء هؤلاء قوة المعتقد الديني وحرارته، ولعل

(1) المسيح (Christ) أو كما في اللفظ العبراني «مشيح» يعني «الممسوح» (أي الممسوح بالزيت) وهو لقب الملوك اليهود بالإشارة إلى أن ملكاً مسيحياً سيظهر بينهم ويعيد مملكة داود. أما اسم عيسى (Jesus) فمأخوذ من يسوع (Jehoshia) من «يهوشع» العبراني (أي يهوه خلاص أو إنقاذ).

الفلسفة اليونانية الرواقية أقرب الفلسفات اليونانية إلى المسيحية من ناحية تبشيرها بمبدأ الحب الجامع، كما أن مؤسسي الكنيسة المسيحية الأوائل استعانوا بكثير من مبادىء الأفلاطونية (وبوجه خاص الأفلاطونية الحديثة) في شرح مبادىء المسيحية وتوجيهها وتعليل تعاليمها. ومن تعاليم المسيح الأساسية الانقلابية مبدأ «مملكة السماء» التي يدخل فيها جميع البشر المشمولين بأبوة الله وحب الله. ولعل هذا أبرز عامل كرهه بأعين اليهود، إذ إنه موجّه في الواقع على احتكارهم لله بموجب مبدأ «الشعب المختار» حيث أكّد المسيح على أن ليس هناك شعب مختار في «مملكة السماء»، لأن الله هو الأب الحي لجميع الحياة والأحياء، فلا يخصّ بشراً أو شيئاً من خلقه بالعطف، ويميّزه عن غيره.

كان انتشار المسيحية انتشاراً بطيئاً في مبدأ الأمر، محفوفاً بالمهالك والاضطهاد وكان الرومان حتى القرن الأول للميلاد ينظرون إلى المسيحية وكأنها مذهب يهودي أو بدعة يهودية غامضة، ولم يظهر الاهتمام بالديانة الجديدة إلّا في عهد الأمبراطور الروماني «تراجان» (98 ـ 117 م). ولاقت الديانة الجديدة مقاومة ومناوأة شديدتين من جانب الكتاب الرومان الذين كانت لديهم الديانة الرومانية القديمة وآلهتها تمثّل لهم أمجاد الأمبراطورية السابقة وقوّتها وسلطانها. وقد عمل الآباء المسيحيون الأول ولا سيما بولس على تقريب مبادىء المسيحية إلى أفهام اليونان والرومان، وكان بولس يعرف اليونانية وواقفاً على طرق الفلسفة اليونانية فأستعان بالمصطلحات الفلسفية والمنطقية الكلامية في شرح أصول المسيحية، وكان بولس في الواقع أول من بدأ بمحاولة التوفيق بين المسيحية وبين الثقافة الهلنستية، وسنذكر أيضاً استعمال الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) للمصطلحات اليونانية، وبوجه خاص مبدأ «الكلمة» (اللوجوس Logos).

ولكن قبل أن تتمكن المسيحية من الانتشار في أرجاء الأمبراطورية الرومانية خارج الحظيرة اليهودية في فلسطين قاسى المبشرون بها ومعتنقوها

شتى ضروب العذاب والاضطهاد، وهناك سجل حافل بالشهداء من هؤلاء المسيحيين الأوائل. ومع أن الرومان كانوا متساهلين في أمور الدين مع الديانات الوثنية الأخرى المنتشرة في أمبراطوريتهم إلا أن المسيحيين كانوا متعصبين في معتقدهم وتبشيرهم بدينهم الجديد، ولم يتساهلوا كأصحاب الديانات الأخرى في مراعاة الطقوس الدينية الخاصة بديانة الأمبراطورية الرسمية، وهو أمر لم يكن ليتطلب منهم سوى مراعاة الرسوم الظاهرية، ولا سيما تقديس شخص الأمبراطور الروماني بصفته إلٰهاً، وفيما عدا هذا كانوا أحراراً في معتقداتهم الدينية الخاصة وعبادة آلهتهم الخاصة. ففضل المسيحيون الأذى والاضطهاد على الرضوخ إلى ذلك. وكان أول اضطهاد خطير حلّ بهم في عهد الأمبراطور الأهوج «نيرون» المشهور بغرابة أطواره، وحرقه لروما لإشباع عاطفة جنونية وصادف أن حدث في روما (عام 64 للميلاد) حريق فظن السكان أن أمبراطورهم الغريب الأطوار هو الذي أحدث ذلك الحريق، ولكي يدفع عنه تلك الشبهة اتّهم المسيحيين فأمر بإفنائهم جميعاً[1]. وأعقب هذا الاضطهاد المحلي اضطهاد شامل، امتد إلى الولايات الرومانية. فحكم على «بولس» بالموت في روما (68 للميلاد) واستشهد بطرس صلباً في روما في نفس الوقت الذي مات بولس بالسيف. كما وقت اضطهاد رسمي آخر في عام 95 للميلاد في عهد الأمبراطور «دوميشان». وأعلن تراجان في عام 112 م أن المسيحيين الذين يرفضون إظهار الخضوع إلى آلهة الدولة الرسمية وإلى عبادة شخص الأمبراطور يجب أن يحلّ بهم العقاب على أنهم رعايا خونة. ولما بدأت الأمبراطورية تسير في طريق الانهيار منذ القرن الثالث للميلاد في حين أن الكنيسة أخذت تتوطد وتقوى حاول حكّام الأمبراطورية الرومانية القضاء على الديانة الجديدة، واستمر الاضطهاد يتناوب شدة وضعفاً حتى أصدر الأمبراطور «ديوقليشيان» في عام 303 م أمره الرسمي بإزالة الكنائس وحرق الكتب المسيحية وطرد جميع الموظفين المعتنقين للمسيحية من خدمة الدولة،

---

(1) Tacitus, Annales, Bk. XV, ch.44.

ولكن تيار انتشار المسيحية كان أقوى من الاضطهاد، حتى آل الأمر إلى انتصار هذه الديانة بأن اعتنقها رسمياً رأس الأمبراطورية وهو قسطنطين الأكبر في عام 324 م، وهذا معناه أنها أصبحت ديانة الدولة الرسمية تقريباً. فانتصرت المسيحية ليس على قوى الاضطهاد بل إن الأديان الوثنية التي كانت تنافسها[1] أخذت تموت، حتى أن ثيودوسيوس (Theodosius) أمر بتحطيم تمثال الإله «جوبتر سيرابيس» المقام في الإسكندرية.

لقد سبق أن نوّهنا بأصول الديانة المسيحية، فتمدنا الأناجيل الأربعة بمعلومات مهمة عن سيرة المسيح والحوادث التي اقترنت في تبليغ رسالته

---

(1) حينما كانت المسيحية تبشّر بنفسها بين سكان الأمبراطورية كان ينافسها عدّة ديانات ونحل بعضها من أصل شرقي وبعضها من أصل يوناني، ومن ذلك جملة نحل باطنية سرية، مثل عبادة الإله «ديونيسيس»، وهو إله الخمرة والخضار والخصب وأصل عبادته من اليونان، ومثل عبادة الإلهة المصرية «إيسيس» (التي ذكرنا أنها زوجة الإله أوسيريس) وقد اعترف بعبادتها رسمياً الأمبراطور «كليجولا» (Caligula) في عام 40 م، وقد شاعت عبادة هذه الإلهة في جميع أنحاء الأمبراطورية في القرن الثاني للميلاد. وانتشرت أيضاً الديانة «المثرائية» وعبادة الإله «مثرا»، وهو الإله الشمس الذي ترجع عبادته في أصلها إلى الزرادشتية، وانتشرت هذه العبادة في القرن الثالث الميلادي، ولا سيما بين الجند. كما كان في بلاد سوريا نفسها عبادات من بقايا عبادة الآلهة الوثنية في العصور السامية القديمة مثل عبادة الإله «ادد ـ حدد» الذي عين بالإله «جوبتر» و«زوس». ولكن أصبح للمسيحية في بلاد سوريا مراكز مهمة مثل أنطاكية فقد صارت كنيستها أم الكنائس في الخارج، وخرج منها الحواريون والآباء الأول مثل بولس كما كان هؤلاء يرجعون إليها. وبعد تدمير أورشليم صارت أنطاكية عاصمة العالم المسيحي وقد كان أساقفتها يلقبون في القرن الرابع للميلاد بلقب المطران (Metropolitan) أي ما يقابل «رئيس الأساقفة» (Archbishop) وقد انعقد فيها ما لا يقل عن ثلاثين مجمعاً كنسياً (أي سنودس) (Synod) وهي مجامع الأساقفة للنظر في الشؤون الدينية العليا، أولها كان في عام 269 للميلاد. وإلى جانب أنطاكية ظهرت «أديسا» (الرها) أيضاً وكانت مركز الثقافة المسيحية الآرامية (السريانية) كما كانت أنطاكية مركز اليونانية والآرامية وكانت الرها أقدم مراكز المسيحية فيما بين النهرين، والمرجّح أن النسخ السريانية الأصلية للكتاب المقدس قد كُتبت فيها في أواخر القرن الثاني للميلاد.

وتعاليمه، ولكن لا نجد فيها إلّا قليلاً من المبادىء التي قامت عليها الكنيسة المسيحية ونظامها، حيث ترجع أسسها إلى أعمال الرسل ورسائل أتباع المسيح المشهورة ولا سيما رسائل يونس، حيث تكمل هذه ما ورد في الأناجيل الأربعة، وتضيف إلى ذلك جهود آباء الكنيسة الأول باختلاف أزمانهم والمجامع الكنسية المختلفة وأعمال الأساقفة البارزين.

ومما يجدر التنويه به عن الأناجيل أن الأناجيل الثلاثة الأولى بحسب ترتيبها المأثور (أي إنجيل متى ومرقس ولوقا) متشابهة تقريباً في مادتها من ناحية سيرة المسيح وأعماله[1] وهي تختلف كثيراً عن الإنجيل الرابع، أي إنجيل «يوحنا». ويرجع ترتيب الأناجيل المأثور إلى عهد الآباء المسيحيين مثل أوغسطين (354 ـ 430 م) الذي اعتقد بقدم إنجيل متى وأنه يسبق في عهده الأناجيل التالية. ولكن النقد الحديث (منذ نهاية القرن التاسع عشر) أبان بأن هذا الترتيب المأثور لا يقوم على أساس صحيح، فقد ظهر أن إنجيل «مرقس» استُعمل مصدراً في كتابة إنجيل «متى» و«لوقا» وأن مؤلف إنجيل متى غير معروف، كما أن لوقا قد دوّن من بعد عام 93 أو 94 م (بعد نشر تأريخ المؤرخ اليهودي جوزيفوس)[2]. واشتهر الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) باختلافه الأساسي عن الأناجيل الثلاثة الأخرى من حيث إدخاله مبدأ «الكلمة» (Logos) بتأثير الفلسفة اليونانية حيث يرى الباحثون المحدثون أن هذا الإنجيل كُتب في مدينة «أفسس» الشهيرة، وكان أول من أورد هذا المبدأ الفيلسوف اليوناني الشهير «هيراقليطس» الذي عاش في «أفسس» نفسها في حدود 500 ق.م. ولم يستعمل مبدأ الكلمة «اللوجوس» إلّا في مقدمة الإنجيل[3]، ولكن مع ذلك فقد أثر هذا الاستعمال تأثيراً عميقاً في عقائد المسيحية الأصولية.

---

(1) ولذلك تسمى الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا) باسم (Synoptic Gospels).

(2) انظر أحدث مرجع في الموضوع .(Ernest William Barnes, The Rise of Christianity (1948)

(3) «في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله وكانت الكلمة الله».

ولعل «بولس» (Poul) كان أعظم من أثر في وضع أسس المعتقد المسيحي[1]، وكان واسع الثقافة يعرف اليونانية ومطلعاً على أديان عصره وعلى فلسفة مدارس الإسكندرية فنقل كثيراً من آرائهم ومصطلحاتهم إلى المسيحية. وكان أول من فسرّ طلب المسيح بأنه ضحية إلٰهية لإنقاذ البشر من خطيئتهم الأولى. وكذلك تأثر بولس بعبادة الإلٰه المصري أوسيريس، ولا سيما من ناحية مبدأ القيامة.

هذا ولا يسعنا أن ندخل في تفاصيل الاختلافات بين الفرق والنحل المسيحية المختلفة التي نشأت بالدرجة الأولى من الجدل والاختلاف حول طبيعة المسيح وشخصيته وألوهيته وعلاقته بالله الأعظم. فهل المسيح من مادة تختلف عن طبيعة الإلٰه ولكنها شبيهة بمادة الله على ما اعتقد «أريوس» (Arius) بطرك الإسكندرية اليوناني (280 ـ 336) وفرقته المشهورة بالأريوسية (Arianism)، أو أن مادة المسيح من مادة الله الأب وأن الله نفسه كان ثلاثة في واحد، الأب، والابن والروح القدس كما رأى «أثناسيوس» أسقف الإسكندرية أيضاً (296 ـ 373 م)، وبعد حروب ومشاحنات تغلب المبدأ الأثناسي وأقرّ في مجمع نيقية (325 م) وأيّدته روما ولكن الأريوسية انتشرت زمناً طويلاً بين أقوام أوروبا البربرية الشمالية قبل أن تتمكن منهم المسيحية الأصلية. ومن الفرق المسيحية الكبرى الناشئة عن العقائد الخاصة بطبيعة المسيح النسطورية نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius)، بطرك القسطنطينية في بداية القرن الخامس، وصاحب المبدأ الذي استحق من أجله التحريم في مجمع أفسس (عام 431 م) إذ قال بأنه تتّحد في عيسى الشخصية الإلٰهية أو العنصر الإلٰهي (اللوجوس) والعنصر البشري. وقد انتشر المذهب النسطوري في المشرق ولا سيما في العهد الساساني وعُرف باسم الكنيسة الشرقية (انظر الكلام على بلاد إيران)

---

(1) لم يعش «بولس» في زمن المسيح ولم يره، وكان يعيش في طرسوس واسمه في الأصل شاؤل وكان يهودياً متعصباً (فريسياً) فاضطهد المسيحيين القلائل، ولكنه اعتنق المسيحية (في عام 37 م)، وصار من واضعي أسسها.

ويأتي بعد النسطورية في عظم الانشقاق في الكنيسة مذهب الطبيعة الواحدة[1] (مذهب اليعاقبة) ويعني هذا المصطلح المسيحيين الذين رفضوا مبدأ الطبيعتين في المسيح (أي الطبيعة الإلٰهية والبشرية) وهو المبدأ الذي أقرّ في مجمع خلقيدون (451 م)، ورأوا أن الطبيعة البشرية والطبيعية الإلٰهية ما هما إلّا طبيعة واحدة مركبة. وقد انتشر هذا المذهب في القرن الخامس والسادس في معظم شمالي سوريا بفضل حماس المبشّرين به ولا سيما «برصوما» أسقف نصيبين (484 ـ 496) وبطرك أنطاكية «سويروس» (512 ـ 518 م).

(1) Monophysite.

القسم الثالث

موجز في
تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

الفصل الثاني والثلاثون

موجز في
تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

بعد أن أنهينا الكلام على حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل اللتين كانتا أهم حضارات أثّرت في حياة العالم القديم والحديث وأوجزنا الكلام على تأريخ بلاد الشام يحسن بنا أن نستعرض استعراضاً موجزاً أشهر الحضارات والأمم القديمة التي نشأت في العالم القديم وأثّرت كذلك بدورها في حياة الأمم ومصائر الشعوب في الشرق والغرب. وقد كان بعض هذه الحضارات من الحضارات الأصلية التي لم تشتق من غيرها بل نشأت مثل حضارتي مصر والعراق، من الأطوار البدائية. وقد ظهر بعضها مثل الحضارة المينية وحضارة وادي السند في أزمان قديمة، في الألف الثالث ق.م.، ونشأ بعضها من بعد ذلك منذ الألف الثاني ق.م. وكان بعضها من الحضارات الفرعية التي اشتقت من الحضارات القديمة الأصلية ولا سيما حضارة وادي الرافدين أو تأثرت بها وبحضارة وادي النيل أيضاً. ونذكر فيما يأتي أشهر هذه الحضارات مرتبة بحسب قدمها[1].

1 ـ حضارة وادي نهر السند والحضارة الهندية الآرية:

نشأت في وادي نهر السند وفي سهل روافده الخمسة (البنجاب) حضارة قديمة سبقت هجرة الأقوام الآرية (الهندية ـ الأوروبية) إلى الهند التي ابتدأت

(1) يرجى من القارىء أن يلاحظ أن بعضاً من هذه الحضارات قد ألحقناها بمواضع أخرى من هذا الكتاب مثل الحضارة المينية التي ذكرت مقدمة لتأريخ اليونان والأتروسكيين حيث ألحقوا في مقدمة تأريخ الرومان وسيجد القارىء الكلام على العيلاميين في القسم الخاص بتأريخ إيران.

في الألف الثاني (في حدود 1600 ق.م). ويرجّح كثيراً أن هذه الحضارة، مثل الحضارة السومرية والمصرية، من الحضارات الأصلية وأن زمن نشوئها يقرب من زمن نشوء هاتين الحضارتين أي في بداية الألف الثالث ق.م. أو منتصفه، وسبقت ظهور هذه الحضارة الناضجة عصور حجرية طويلة من العصر الحجري القديم والحديث حيث وجدت آثارهما منتشرة في جميع شبه القارة الهندية[1]. أما زمن نشوء هذه الحضارة الراقية فيرجع إلى العهد الحجري المعدني ومن الطريف في أمر هذه الحضارة أنها ظهرت إلى العالم منذ زمن حديث جداً في عام 1922 حيث بدأت التنقيبات في موضع يسمى «موهنجو دارو» وهي أول مدينة أظهرتها التنقيبات من تلك الحضارة[2]، ثم تناولت أعمال التنقيب مواضع أخرى أظهرت لنا أنه نشأت في وادي نهر السند الواسع حضارة راقية ذات مدن معظمة منسقة التخطيط منتظمة الشوارع والبيوت مبنية بالآجر. وقد عرفت الفنون الجميلة والتعدين واشتهرت بالتجارة. وقد ثبت أنها كانت على اتصال بالحضارة السومرية في العراق ووجدت بعض الآثار الخاصة بالحضارة السومرية مثل الختوم الأسطوانية في حضارة وادي نهر السند كما

---

(1) حول العصور الحجرية في الهند انظر المراجع الآتية:

(1) V. Smith, **Oxford History of India**, 2.

(2) Childe, **The Most Ancient East.**

(3)**Archaeological Survey of India** (Govern. Departement of Arch. 1947).

(2) تقع «موهنجو دارو» على الضفة الغربية من نهر السند إلى الشمال الشرقي من كراجي بنحو 140 ميلاً وقد بدأ البحث فيها بطريق الصدفة عندما كان أحد الآثاريين الهنود (وهو بنرجي Banerji) ينقب في معبد بوذي في ذلك الموضع فعثر تحت ذلك المعبد على آثار تلك المدينة القديمة. ثم اتسعت التنقيبات من بعد ذلك في موضع «موهنجو دارو» بإشراف (السير جون مارشال). وشمل التنقيب أيضاً مواضع أخرى تمثل هذه الحضارة مثل «هاربا» (Harappa) إلى الشمال الغربي من دلهي بنحو 300 ميلاً.

انظر:

(1) Sir Marshall, **Mohenjo Daro and the Indus Civilization.**

(2) Dr. Mackay **The Indus Civilization.**

وجدت بعض الختوم الخاصة بالحضارة السندية في العراق. فاستعان العلماء بهذه الاتصالات الثقافية في تأريخ الحضارة السندية أي تعيين زمنها. ووجدت في الموضعين السابقين آثار أخرى ممثلة لحضارة وادي السند كالأدوات المنزلية والآلات والأسلحة المصنوعة من النحاس وحلي من الذهب وأواني الفخار البسيطة والملوّنة.

واستعملت الحضارة السندية نوعاً من الكتابة الصورية لم تحلّ رموزها بعد. ومع اتساع التنقيبات التي جرت في الأماكن التي تمثل هذه الحضارة فإنه لم يعثر من تلك الكتابة على نماذج كافية تمكّن العلماء من حلّ رموزها وإنما وجدت منها نماذج قليلة موجزة فيما يسمونه بالختوم أو الحروز مما لا يساعد الباحثين في محاولتهم، ولا يعلم بوجه التأكيد لماذا لم يجد المنقّبون كتابات مطولة في مآثر هذه الحضارة، فيرى البعض أن سبب ذلك أنهم كتبوا على مواد قابلة للتلف كالجلود أو الخشب وما أشبه ذلك.

لقد سبق أن قلنا إن الحضارة السندية سبقت العهد الآري في الهند الذي بدأ في الألف الثاني ق.م. وأنها بدأت بالانهيار منذ ذلك التأريخ ولا شك أن الآريين هم الذين قضوا عليها. ومع أننا لا نزال نجهل الشيء الكثير عن هذه الحضارة من حيث أصولها القديمة إلا أن الباحثين وجدوا بعض الاتصالات بينها وبين الأطوار الحضارية في العراق مما يرجّح أنها تأثرت بالحضارة السومرية في نشوئها ولكنها على حال سارت فيما بعد بوجه مستقل الأمر الذي يجعلها، كما قلنا، من الحضارات الأصلية.

العهد الآري:

ومع الغموض الذي يكتنف نهاية الحضارة السندية والأقوام التي تقرن بها فيما قبل العهد الآري فيبدو أن الآريين لما غزوا الهند في منتصف الألف الثاني ق.م. وجدوا من الأقوام الأصلية في الشمال جماعات اشتهرت بعبادة «الثعابين» وهم «الناگا» (Naga)[1] الذين لا يزال أحفادهم الآن في المرتفعات

---

(1) Gour, Spirit of Buddhism.

الشمالية. واستوطنت في الجنوب جماعات سود الألوان فطس الأنوف، وهم «الدرافيديون» الذين كانوا متحضرين لما داهمهم الغزاة الآريون[1]، فتعلموا منهم مبادىء الحضارة. ولا يزال إقليم «الدكن» إلى يومنا هذا يسود فيه العنصر الدرافيدي وعاداته ولغته وفنه.

وبعد أن أمضى الآريون زمناً ما في الفتح والتوسع وقتل السكان الأصليين شرعوا في حياة الاستقرار، فاستقرت القبائل واتحدت جملة منها مكوّنة دويلات في أنحاء القطر، يحكمها ملوك ومجلس شورى من المحاربين، ويرأس كل قبيلة «راجا». ولما كان الآريون الغزاة أقلية بالنسبة إلى السكان الأصليين، فإنهم لم يكتفوا للمحافظة على كيانهم ونقاوة عرقهم بقتل هؤلاء السكان الأصليين، بل نشأت عندهم عادة الانفصال التام عنهم وتحريم الزواج منهم والاختلاط بهم، وهذه هي عادة التنجس التي ورثتها الهند في العصور الحديثة، من عهد الفتح الآري.

إن أحسن ما يصور لنا أوضاع الهند في عهد الفتح الآري الكتابات المقدسة المعروفة باسم «الفيدا» (أو الريج فيدا) حيث نستطيع أن نطلق على هذا العهد اسم العهد «الفيدي» (2000 ـ 1000 ق.م)، أعقبه عهد البطولة (1000 ـ 500 ق.م) الذي يمثله أدب الـ «مهابهراتا» (Mahabharata) والـ «رامايانا» اللتين كانتا بمثابة الأوديسة والإلياذة عند اليونان في عصور الأبطال. وبعد حين توطد الاستقرار والاختصاص كما تثبت نظام الانقسام إلى طوائف. ففي رأس طبقات المجتمع يأتي صنف المحاربين الـ «الكشاتريا» ثم كهنة «البراهمان» الذين لم يكن نفوذهم عظيماً في مبدأ الأمر وإنما كانوا مجرد مساعدين للرؤساء أو الملوك الكهنة، ولكن ازداد نفوذهم بمرور الأزمان حين زاد استقرار المحاربين وشغلوا بصناعات السلم دون الحرب، وصاروا عدا وظيفة الكهانة الدينية معلمين ومحافظين لتأريخ الفاتحين ومآثرهم وآدابهم

---

(1) Smith, Oxford History of India, 14.

وشرائعهم حتى بلغ نفوذهم في المجتمع في زمن البوذا (563 ـ 483 ق.م) أنهم نافسوا نفوذ الطبقة النبيلة المحاربة. ويقوم أساس المعتقد «البراهماني» على ثلاثة أركان أو على ثالوث إلٰهي مما يعرف باسم الـ «ترمورتي» (Trimurti) أي الثالوث المقدس وأولها الإلٰه الأعلى «البراهما» وهو المبدأ الخالق المتّصف بالمعرفة والحكمة ثم الـ «فشنو» (Vishnu) وهو المبدأ المدبّر الحافظ المتميز بالحب والعاطفة، ومبدأ الـ «شيفا» (Shiva)، وهو المبدأ المخرّب المدمر، من الإرادة والقوة. ويأتي بعد هاتين الطبقتين الحاكمتين طبقة التجار الـ «فسيا» (Vaisya) وطبقة الصُنّاع والعمال، الـ «شدرا» (Shudra)[1] الذين يدخل فيهم معظم السكان الأصليين، ثم طبقة المنبوذين، الـ «فارياه» (Pariah) المؤلفين من السكان الأصليين ممن لم يندمجوا بالفاتحين وممّن أسرهم هؤلاء الفاتحون في الحرب، وتبلغ طائفة المنبوذين في الهند الآن أكثر من 40 مليوناً[2].

هذا ولا نعلم أشياء مهمة عن ديانة الهند فيما قبل العهد الآري ولعله كان يدور على مبدأ الطوطمية والحيوية، حيث الأرواح تكمن في قوى الطبيعة المختلفة، كما عبدت الحيات والأفاعي ويرجّح أن بعض الآلهة الهندية الآرية أصلها مما قبل العهد الآري مثل الإلٰه «ناجا» (Naga) الممثل على هيئة تنين، و«هنومان» (Hanuman) «الإلٰه القرد» والإلٰه «نندي» (Nandi) وهو الثور المقدس ومجموعة من الآلهة الخاصة بالشجر. أما الآلهة القديمة الواردة في «الفيدا» فأصلها من قوى الطبيعة وعناصرها مثل الجو والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء[3]. فالإلٰه الجو «دايوس» (Dyaus) مثل الإلٰه الإغريقي «زوس»، ثم شخص الإلٰه الجو وصار أباً باسم «فرونا» (Varuna) وشخصت الأرض أيضاً على هيئة أم باسم «فريثيفي» (Prithivi) ومن الآلهة المهمة الإلٰه النار

(1) Will Durant, The Story of Civilization, 399.

(2) Will Durant, The Story of Civilization, 399.

(3) Will Durant ibid, 402.

«أجني» (Agni) والإله «أندار» (Indra) إله الصواعق والبرق والرعد، والإله الشمس «فشنو» (Vishnu). إن هذه الآلهة وغيرها أكثر ما تتميز بصفة التشبيه. ولم يكن في الديانة الفيدية القديمة إشارات إلى معابد تشيد للعبادة وإنما كانت القرابين تُقدّم في مواضع عامة عند الحاجة، ثم إيقاد النار المقدسة ومارسوا نوعاً من تضحية البشر(1).

وكان في الهند جملة لهجات ولغات آرية أشهرها ما يسمى بالسنسكريتية التي دوّنت بها كتب «الفيدا» المقدسة، أما الكتابة فالمرجّح أنها دخلت إلى الهند عن طريق التجار في حدود القرن التاسع أو الثامن ق.م.، من الحروف الهجائية السامية. أما هذه «الفيدا» فتعني المعرفة أو الحكمة المقدسة(2)، وقد اشتهر من هذه الكتب الخاصة بالحكمة مما وصل إلينا أربع مجموعات أشهرها «الريج فيدا» (Rig - Veda) وهي القصائد الخاصة بالتراتيل والتمجيد والمدائح والنصائح والحكمة والفلسفة، وتنقسم كل فيدا إلى أقسام أربعة(3)، يتضمن القسم الرابع منها قسم الحكمة والفلسفة.

---

(1) Eliot, **Buddhist India**, I, 241.

(2) (Veda) من نفس الجذر الإنجليزي (Wit) و(Wisdom) واللاتينية (Video) والإغريقية (Foida) وهذا مثال على التشابه الموجود بين السنسكريتية واللغات الأوروبية القديمة والحديثة بصفتها من عائلة لغوية واحدة.

(3) (Will **Durant**, **ibid**, 407).

البوذية

1 ـ الجينية:

تميز القرن السادس ق.م. في الهند وبقية أجزاء العالم المتحضر بيقظة فكرية بين المفكرين والفلاسفة، ففي اليونان بدأت عقول الناس تتفتح لمعالجة شؤون الكون وقضاياه الكبرى، وفي الصين كان كونفشيوس يبشّر بتعاليمه و«لاؤ ـ تصي» في الصين أيضاً، وكان بعض أنبياء بني إسرائيل مثل «أرميا» و«أشعيا الثاني» مشغولين في تبليغ رسالتهم. وفي الهند ظهر جملة رجال فكّروا في سلوك الإنسان والحياة البشرية منهم «مهافيرا» (Mahavira)[1] مؤسس الجينية (Jainism) الشبيهة بالبوذية والبراهمانية، وتدور على تقديس الرجال القديسين من العصور الماضية وهم «الجينا» أو «الجين» (Jain) وكان المهافيرا من «البوذات»، لأن البوذا (Buddha)[2] يطلق بوجه عام على الشخص الذي وهب الحكمة والنور الإلٰهيين وأطلقت على جملة مؤسسين لفرق ومذاهب دينية، ولكن اختص بهذا اللقب البوذا «غوتاما سدهرثا». وتدور تعاليم المهافيرا على ضبط النفس ونكران الحياة ولزوم حياة التقشف والتنسّك، وتطهير النفس من عواطفها. وبعد أن عاش زهاء (13) عاماً في حياة نكران الذات سماه بعض

---

(1) لا يعلم زمن المهافيرا بالضبط وهناك تاريخان محتملان وهما (599 ـ 552 ق.م. و549 ـ 477 ق.م).

(Will Durant, Op. Cit., 419).

(2) من السنسكريتية «بوذ» (Budh) أي استيقظ.

أتباعه «جينا» أي الغازي أو الفاتح إشارة إلى تغلبه على شهوات نفسه وعلى حياة المادة، وهو لقب يُطلق على المبشرين القديسين العظام الذين يظهرون مدفوعين بقوى علوية للتبشير بين الناس ثم سموه «مهافيرا» أيضاً، أي «البطل العظيم» ولكن اسم «الجين» و«الجينية» غلبت على هذا المذهب. وقد نظم المهافيرا رجال دينه من الرهبان والراهبات وفرض عليهم العزوبة، ولما أن مات بعمر 72 عاماً خلّف وراءه زهاء أربعة عشر ألف من الأتباع وكان للجينيين فلسفة خاصة بهم، فقد رأوا في المعرفة أنها شيء نسبي وقتي غير مطلق. ولا يوجد شيء حقيقي إلّا من وجهة نظر خاصة، فقد يكون باطلاً من وجهات نظر أخرى. وإليهم تنسب الأسطورة الطريفة الخاصة بالعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على جزء خاص من الفيل فوصفه بشيء يشبه الجزء الذي تحسسه بيده، فوصفه الذي تحسس أذنه بأنه مروحة كبيرة والذي وضع يده على رجله بأنه عمود كبير مدور إلخ. وهكذا فجميع أحكامنا نسبية محدودة ومشروطة، أما الحقيقة المطلقة فلا يعرفها إلا المخلصون الذين يظهرون بين البشر في فترات معينة وهم «الجينا» من أمثال «المهافيرا». كما أن الحكمة المودعة في كتب «الفيدا» لا تغني شيئاً، لأنها لم توح من الله، وهم بوجه عام لم يروا ضرورة لوجود الآلهة، فعندهم أن هذا من البديهي المنطقي الذي يدركه حتى الطفل ذلك هو أن صعوبة فهم أو إدراك خالق غير مخلوق أو إدراك السبب الأول، أي سبب بدون مسبب، كصعوبة إدراك عالم غير مخلوق أو غير مسبب[1] وعندهم أن الأسهل من الناحية المنطقية الافتراض بأن الكون وجد منذ الأزل وأن ما يطرأ عليه من تغييرات وتقلّبات مسببة عن قوى الطبيعة وقوانينها بدون الاضطرار إلى افتراض تدخل آلهة أو إله خاص[2].

إن هذه الفلسفة الطبيعية، الشبيهة بمذاهب الفلاسفة اليونان الطبيعيين في العهد الذي سبق سقراط، لم تجد التربة الملائمة لها في الهند. فإنها بعد أن

Will Durant, Op. Cit., 420. (1)

Will Durant, Op. Cit., 420. (2)

أخلت السماء والكون من الآلهة ملأته بدلاً من ذلك بالقديسين المؤلّهين من «الجينا»، حيث عبد هؤلاء كما يعبد الآلهة على الرغم من عدّ هؤلاء معرضين إلى التفسخ والتناسخ، كما أنهم لم يكونوا بمثابة الآلهة الخالقة الحاكمة للكون. هذا ولم يكن الجينيون ماديين مطلقاً وإنما كانوا يرون مبدأ «الثنائية» في الحياة والطبيعة، أي مبدأ وجود المادة والروح أو الفكر حتى في الأشياء الجامدة، وتستطيع النفس إذا عاشت حياة لا شائبة فيها، أن تصير نفساً عليا خالصة[1] فتنطلق من لباسها المادي ويتم ذلك بحياة التنسك والامتناع من إحداث الأذى في أي شيء حي. وينبغي لكل «جيني» أن يقسم على نفسه خمسة أشياء: لا يقتل أي شيء، ولا يكذب، ولا يأخذ ما لا يُعطى له، وأن يحافظ على العفة وينبذ اللذة والمسرات الحسية. وبلغ من الجينيين الصادقين أنهم كانوا يمتنعون حتى من أكل عسل النحل لأنه حياتها ويصفّون الماء الذي يشربونه لئلا يكون فيه بعض الحيوانات الدقيقة، ويطبق الجيني شفتيه لئلا يدخل في فمه الهواء وفيه بعض المخلوقات، حتى أن بعضهم أقام مستشفى في «أحمد أباد» لإيواء الحيوانات الكبيرة السن والحيوانات المصابة. فلا يسمح للجيني قتل أي حياة باستثناء حياته، التي يمكنه أن يقضي عليها بالجوع والصيام، وفي ذلك انتصار عظيم للروح على الإرادة العمياء للحياة. وهكذا فإن هذا المبدأ الصارم لم يجذب إليه أتباعاً كثيرين. وحلّ فيهم الانقسام في حدود 190 للميلاد حول مبدأ العري، فقسم تمسّك بالعري التام وقسم ارتأى لباس رداء بسيط أبيض، ولكنهم الآن جميعاً يسيرون وهم لابسون الأردية المعتادة، ولكن رؤساء الدين منهم والقديسين يسيرون عراة، وهناك انقسامات أخرى، ويبلغ عددهم جميعاً الآن زهاء المليون ونصف المليون، وقد تأثر غاندي بمذهبهم من ناحية التقشف في الملبس والمأكل.

---

(1) وبمصطلحهم «فرماتمان» (Paramatman).

(2) البوذا والبوذية:

ومع جهلنا بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي عملت على ظهور الجينية والبوذية الشبيهة بها في الهند في حدود القرن السادس إلا أنهما في مبادئهما يبدوان وهما ردّ فعل عنيف إزاء الانغماس في الملذات من جرّاء تجمع الثروات الهائلة عند الطبقات العليا من المجتمع.

وتروي لنا المآثر الهندوسية أن أبا البوذا كان من النبلاء المثرين من قبيلة «الغوتاما»، وكان أميراً أو ملكاً على إقليم في سفح جبال هملايا، ويخصص البحث الحديث لولادته عام 563 ق.م. ولا نعرف عن قصة حياته سوى ما جاءنا من المآثر والقصص، فبموجب هذه المآثر تزوج البوذا في عمر 19 عاماً بابنة عمه الجميلة وعاش سعيداً زمناً ما ولكن أدرك فجأة عقم حياته الفارغة التي لم تملؤها أسباب السعادة التي كانت في متناول يده من ناحية الثروة وأسباب الحياة السهلة. وفيما هو في هذا الحال التقى بأحد أولئك المتقشفين المتزهدين فاستهوته طريقتهم، وفيما هو يفكر بتغيير سير حياته وافته الأنباء بأن زوجته الجميلة قد ولدت له ولداً فوجد «غوتاما» في ذلك رباطاً جديداً يجب قطعه، فعاد إلى موطنه واحتفل بعودته وبولادة الطفل، وفي ليلة مقمرة دخل إلى مخدع زوجته فوجدها تحيط بها الأزهار والطفل نائم بين ذراعيها فأحس بشوق لعناق الطفل ولكن خاف إيقاظ زوجته، فخرج مسرعاً وامتطى جواده وهام على وجهه في عالم الهند الواسع، وظل يسير طوال الليل حتى ابتعد عن ربوع عشيرته. ولما أن أصبح الصباح وجد نفسه عند نهر، فتمهل هنا وقطع بسيفه شعره الطويل المسرح بهيئة ضفائر ورمى جميع حليته وبدأ تجواله ووجد في طريقه رجلاً مرتدياً أسمالاً بالية فاستبدلها «غوتاما» بحلته الزاهية، وبذلك أصبح حراً في هيامه الآن بحثاً عن الحكمة والحقيقة ووجد في أثناء تجواله جماعة من الرهبان المتبتلين فعاش معهم في الكهوف وكان يذهب إلى المدينة والقرى المجاورة للتبشير بتعاليمهم وتضلع بجميع المعارف الميتافيزيقية في عصره، ولكنه لم يجد فيها حلاً لأزمته الفكرية فاتبع سبيل التقشف المتطرف

مع خمسة من أتباعه وأصحابه حيث قضى معهم في غابة حياة مارس فيها الصوم القاسي الشديد ونكران الذات والجسم، فذاعت شهرته. وفيما كان مرة يسير ذهاباً ومجيئاً مفكراً بحل لعذابه النفسي أصابه الإعياء الشديد فسقط على الأرض فاقداً شعوره وألفى نفسه وقد وجد سبيل الحكمة الأبدية واضحاً أمامه. فطلب من أصحابه أن يطعموه الطعام العادي تاركاً صومه وزهده فأنكر ذلك أتباعه، ولكنه نفسه أدرك الحقيقة من أن الإنسان لا يستطيع إدراك أي حقيقة مهما كانت إلّا بعقل سليم في جسم سليم معافى، وهذه أفكار غريبة بالنسبة إلى متنسكي الهنود، فتركه أصحابه وأتباعه، فأخذ «غوتاما» يتجول وحيداً. وتروي المآثر أنه حصل على الإلهام بالحكمة المطلقة لما كان يفكر بلا حراك ليلاً ونهاراً تحت شجرة في ضفة النهر. فعاد إلى «بنارس» وجمع حوله الأتباع من جديد حيث أسّس مجتمعاً منهم يعيش في الأكواخ. وكانت تعاليمه الجديدة تدور على كبح النفس وضبطها، فإن جميع ما يصيب الإنسان من شقاء منشؤه من رغبات الفرد وأطماعه. وهناك ثلاثة أشكال تبدو فيها أشواق النفس ورغباتها وكلها شر، فأولها الرغبة الحسية والشهوات وجميع أشكال الملذات الحسية وثانيها شهوة النفس الأنانية للخلود وثالثها الرغبة في النجاح الشخصي في المادة والأطماع. وإذا استطاع المرء من الغلبة على هذه الرغبات والشهوات فتحصل سعادة الروح الكاملة وهي بلوغ حالة «النرفانا»، وهي أسمى فضيلة، وعنها تنتج الاستقامة العقلية وسموّ الغرض والهدف في الحياة والسلوك الفاضل في العيش والحياة. ومع أن «النرفانا» في تطرّفها قاسية ترمي إلى إفناء النفس بضبط الشهوات إلا أنه يكمن فيها السر للسيطرة على النفس، وهو أمر اتفق فيه جميع المصلحين من الجنس البشري سواء كانوا أنبياء أو فلاسفة. كما أخذ «غوتاما» بمبدأ العقاب والثواب في هذه الحياة الذي يعيش فيها المرء أو في حياة أخرى عن طريق التناسخ، وهذا هو المبدأ الهندي المعروف باسم «الكرما» (Karma)، وهو ما قُدّر على الفرد من عقاب أو ثواب جزاء أعماله السابقة التي تحد مصيره في المستقبل بموجب الناموس العام من أن أي عمل يجازى خيراً أو شراً بحسب طبيعته. واشتهر «غوتاما» بطريقة بثّ تعاليمه في تجوله مع أتباعه من موضع إلى موضع آخر

على غرار السفسطائيين اليونان، كما أنه كان يشبه سقراط في طريقة عرض تعاليمه بطريقة إلقاء الأسئلة والوصول منها إلى الحقيقة المطلوبة. ونسبت إليه المآثر وضعه «الحقائق الأربع النبيلة» وهي: أن الحياة ألم والألم ناشىء من الشهوة والرغبة، وأن الحكمة تكمن في كبت جميع الشهوات. ويتّضح مما أوردناه شبه تعاليم «البوذا» بالمذهب «الجيني» الذي أسسه «المهافيرا» على ما لخّصناه فيما سبق.

ومع أن «البوذية» لم تكن في حياة مؤسسها تنطوي على نظام خاص للكهنة إلّا أنه سرعان ما نشأ منها بعد موت مؤسسها نظام خطر من الكهان على طراز كهنة الهندوس، و«البراهمان» كما أن أتباع «البوذا» أخذوا من بعده يؤلهونه ويقدسونه، ووقعت في تعاليمه تحويرات وإضافات وأساطير لم تكن موجودة بالأصل ولم يكن المؤسس ليرتضيها.

وننهي كلامنا على الهند القديمة بذكر شيء موجز عن العهد المهم الذي أعقب غزو الإسكندر للهند. فقد عبر الإسكندر في عام 327 ق.م. من إيران مرتفعات «هندوكوش» ودخل في الهند، وبقي يحارب عاماً واحداً في الولايات الشمالية الغربية التي كانت تابعة للأمبراطورية الفارسية، وحصل منها على الموارد لجيشه وعلى الذهب، وعبر في عام 326 السند وحارب من لاقاه في طريقه شرقاً وجنوباً ولاقى جيش الملك الهندي المشهور المعروف باسم «فور» (Porus) ودحر جيشه الهائل مع فيلته. وبعد هذا الانتصار أعجب الإسكندر بشجاعة «فور» وشخصيته فعفا عنه وولّاه على جميع ما فتحه من بلاد الهند ليكون تابعاً لأمبراطوريته، فبقي «فور» مخلصاً. ولكن نفوذ المقدونيين لم يبق في الهند زمناً طويلاً من بعد موت الإسكندر، إذ إنه ثار عليهم أمير شاب اسمه «جندرا كوفتا» (Chanragupta) (332 ـ 298 ق.م) فاستطاع أن يتغلب على الحامية المقدونية ومد فتوحه وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وأفغانستان زهاء 137 عاماً (322 ـ 185 ق.م) وهذه هي السلالة المورية (Mauraya) التي صارت في زمن مؤسسها أمبراطورية كبيرة وأعظم دول العالم القديم الموجودة آنذاك، وكانت تعاصر الحكم السلوقي في سوريا والعراق وعلى

صلات مع السلوقيين، وقد أعجب السفير السلوقي الذي جاء إلى عاصمة هذه المملكة «فتاليفترا» (Pataliputra) عاصمة مملكة «مغاذا» السابقة، حيث اندهش بالحضارة الباهرة التي كانت في هذه المملكة وحسن أخلاق أهلها وانتظام شرائعها[1] واشتهرت من مدن المملكة (البالغة ألفي مدينة) في عهد مؤسسة السلالة مدينة «تسكلا» (Taxila) الواقعة على بعد نحو عشرين ميلاً من مدينة «روليندي» الحديثة وهي الآن مشهورة بآثارها الباقية[2]. واشتهر من هذه السلالة ملكها الشهير «اصوكا» (Asoka) (273 ـ 232 ق.م) حفيد مؤسس السلالة. وقد اعتنق هذا المذهب البوذي وجعله المذهب الرسمي في الدولة، وقد استطاع أن يمدّ فتوحه ويجعلها تشمل معظم أجزاء الهند، ويعدّ حكمه الذي دام 28 عاماً من العهود المجيدة في التأريخ البشري، لما قام به من أعمال ومشاريع عمرانية كان البعض منها سابقاً لأوانه ومما يميّز اتجاهات العصور الحديثة في تاريخ الإنسان . فقد أسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة وخصص مزارع لإنماء الحشائش والعقاقير الطبية. وأوجد وزارة تعنى بشؤون الطوائف الخاضعة والمنبوذة في الهند، كما شرع في تعليم النساء، وعني بالبحوث والتأليف ووجه الكتبة البوذيين إلى نقد أدب الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والأساطير، وبعث البعوث التبشيرية إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية. ومما يؤسف له أن خلفاء «أصوكا» لم يكونوا أكفّاء له. فظهرت مقاومة الكهنة «البراهمانيين» الذين كانوا يعارضون تعاليم البوذية الصريحة البسيطة، فأضعفوا المعتقد البوذي وشاعت الآلهة العديدة المتّصفة بالوحشية مما في الديانة الهندوسية البراهمانية التي أخذت تحل محل البوذية بالتدريج وجعلتها تنهار في شبه القارة الهندية، ولكن مع ذلك انتشرت البوذية في خارج الهند حتى تمكّنت من الصين وسيام وبرمة واليابان، ولا تزال البوذية في هذه الأقطار هي الديانة السائدة.

---

(1) انظر تقرير هذا السفير المسمى (Megasthenes) في .Dutt, Civilization of India, 50
وكذلك اقتباسه في: (Will Durant, Op. Cit., 441).

(2) انظر .Sir Marshall, Taxila 3 vols

الحضارة الصينية

من المرجّح كثيراً أن الحضارة الصينية أو حضارة الشرق الأقصى من الحضارات الأصلية التي نشأت من الأطوار البدائية في العصر الحجري الحديث في الصين نفسها، ولا يستبعد أنها تأثرت بعض الشيء بحضارات الشرق الأدنى. ومهما كان الحال فإنها بلغت طور نضجها في وادي النهر الأصفر الأسفل منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وظهرت منها سلالات حاكمة منذ هذا التأريخ. وكانت البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها الحضارة الصينية، بيئة قاسية شديدة، فكانت الأهوار والأحراش والفيضانات تعمّ وادي النهر الأصفر (هوانغ هو) وقد حوّل الإنسان هذه البيئة إلى مهد الحضارة الصينية، وامتازت بيئة هذه الحضارة أيضاً بتغيير متطرف من الحر والبرد في الفصول المختلفة. وبلاد الصين[1] بوجه عام أعظم إقليم جغرافي في قارة آسيا، ويحيط بها أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقي، كما يحدها أعلى الجبال وأوسع الصحارى في العالم (صحراء كوبي)، مما جعلها تتمتع بالعزلة والثبات والركود أيضاً. وتشير بقايا الإنسان القديم في الصين المعروف باسم إنسان بكين إلى أقدم استيطان الإنسان في العصور الحجرية القديمة في الصين.

ومما يقال في أصول الحضارة الصينية أن انقلاب العصر الحجري

---

(1) إن اسم الصين تسمية حديثة من القرن الثالث ق.م.، أما اسمها القديم المألوف فهو «تيين - هوا» (Tien - Hua) ومعناه «تحت السموات» ولها أسماء قديمة أخرى.

المتأخر قد حدث في الصين أيضاً (3000 ق.م)، حيث عرفت زراعة الحبوب ولا سيما الأرُزّ وتدجين الحيوان ولا سيما الخنزير والبقر. وظهرت من هذه البداية بعد أزمان حضارة الصين الناضجة والسلالات الحاكمة فيها في القرن الثامن عشر ق.م. وأول سلالة تعرف أخبارها التأريخية المضبوطة هي المعروفة بسلالة «شانغ» التي حكمت في أولى المدن التي ظهرت في الصين وهي «آنيانغ». وعرفت حضارة الصين فن التعدين، مثل صناعة البرونز ودولاب الخزاف والكتابة الصورية الاصطلاحية واستعملت العربات التي تجرّها الخيول في الحرب. ومع ما يلاحظ من بعض أوجه الشبه بين الحضارة الصينية وحضارات الشرق الأدنى إلا أنها تختلف عنها في التفاصيل التي ظهرت بتأثير موارد الاقتصاد المحلية في حضارة الصين مثل الاعتماد على الأرُزّ بدلاً من الشعير والحنطة والاعتماد على صناعة الحرير بدلاً من القطن أو القنّب.

واشتقت من حضارة الصين القديمة حضارة الشرق الأقصى أي حضارة الصين الحديثة وحضارة اليابان قبل أن تتخذا الحضارة الغربية. ولعل أبرز ما يلاحظه المتتبع لتأريخ الحضارة الصينية شدة محافظتها على مآثرها وتقاليدها الأساسية أكثر من أربعة آلاف عام، وقد آلت في أطوارها الأخيرة إلى أن تكون من نوع الحضارات المتحجرة. وكانت ديانتها القديمة تدور على عبادة القوى الطبيعية مثل الجو والسماء والأجرام السماوية والرياح والأمطار وغير ذلك مما له أثر في الحياة الزراعية. وامتازت أيضاً بتقديس «التنين»، رمز الأمبراطور المقدس، الذي كان من العناصر المهمة في الفن الصيني. ولعل أصله من الحيوانات من نوع التماسيح التي كانت تملأ أنهار الصين وصارت حيوانات مقدسة تُعبد. وامتازت الحضارة الصينية القديمة بالروح الاجتماعية، وأن العائلة لا الفرد كانت الوحدة الأساسية في بناء المجتمع، وكانت عادات الأجداد وعرفهم هي الشريعة والقانون المتّبع في المحافظة على تماسك المجتمع.

وتثبّت النظام الاجتماعي وتبلور في عهد سلالة «شو» (1122 ـ 255 ق.م) التي أعقبت سلالة «شانغ» وبلغ التوطيد الاجتماعي في القرن الخامس ق.م.، أشده وكان لتعاليم «كونفشيوس» (551 ـ 478 ق.م) أثر بالغ في ذلك

التبلور الاجتماعي. وقد وصفت «الكوفنشيوسية» على أنها ديانة، والواقع أنها ليست ديانة صرفة ولا فلسفة صرفة بل كانت أقرب ما تكون إلى النظام الاجتماعي والأخلاقي الذي كان يرمي إلى تثبيت المجتمع بتنظيم علاقاته الاجتماعية بموجب عرف وقواعد قاسية حتى في أتفه الأمور وعمّت الكونفشيوسية في الصين الشمالية. ولكن نشأت في وادي نهر «اليانغستي» في الصين الجنوبية عند سكانه عقائد وآراء وأنظمة تختلف عمّا كان عند الصينيين في الشمال في وادي النهر الأصفر (هوانغ هو)، وظهرت بينهم ديانة تعرف بـ «التاثوية» نسبة إلى «تاو» وهو المبدأ الأعظم الذي يمثل الطبيعة أو قوى الطبيعة ونواميسها وسيرها. وتنسب هذه التاثوية (Taoism) بالدرجة الأولى إلى أحد حكماء الصين المشهورين الذي عاش قبيل «كونفشيوس» واسمه «لاؤ ـ تصي» (Lao Tse) (في حدود 604 ـ 517 ق.م) حيث عاش في عصر كثر فيه الحكماء والفلاسفة والمفكّرون. ويبدو أنه كان يبشّر بنوع من السلوك الرواقي (نسبة إلى الفلسفة الرواقية) والرجوع إلى حياة البساطة التي كانت في العهود القديمة. ومن تعاليمه الطريفة أن الحكمة والمعرفة ليستا شيئين مترادفين كما أن أسوأ الحكومات هي التي يتولى فيها الحكم الفلاسفة بعكس ما كان يرى أفلاطون في جمهوريته كما أن المثقف خطر على الدولة لأنه يريد أن تسير الأمور والدولة نفسها بموجب نواميس مطردة، ويقيم بناء المجتمع كالبناء الهندسي. واشتهر سكان ذلك الوادي بحبهم وشغفهم بالطبيعة وقد اعترفت تعاليمهم بقيمة الفرد عكس تعاليم «كونفشيوس». وبينا كانت هذه المبادىء تنتشر في الصين غزا البلاد جماعة كبيرة من قبائل التتر يعرفون بـ «التسين» (الصين) الذين أسسوا سلالة حاكمة قوية (255 ـ 206 ق.م) أنشأت أمبراطورية امتازت بالحكومة المركزية، وقد أقامت هذه السلالة «سور الصين العظيم» لصدّ القبائل البربرية في جهة الشمال[1]. والجدير بالذكر عن هذه

---

(1) كان يعيش في حدود الصين الشمالية قبائل بدوية عديدة وهي متشابهة في أصلها ولغتها وقد سموا بموجات متعاقبة مثل «الهون» و«المغول» والترك والتتر.

السلالة أن اسم «الصين» مشتق من اسمها. وغلب هؤلاء «التسينيين» جماعة من أتباع «كونفشيوس» هم «الهان» (الهون) الذين أسسوا سلالة عُرفت باسمهم (206 ق.م. ـ 221ب.م)، وقد وسعت هذه السلالة من فتوح الصين غرباً لحماية البلاد من برابرة أواسط آسيا، وللمحافظة على طرق التجارة المهمة التي كانت تنقل بها تجارة الصين، ومنها حرير الصين المشهور، إلى أقاليم الأمبراطورية الرومانية غرباً. ودخلت إلى الصين في هذا العهد الديانة «البوذية المهايانية» من الهند حيث التقت الثقافتان الهندية والصينية. وأعقب هذه السلالة سلالات أخرى منها سلالة المغول التي أسسها «جنكيز خان» وابنه «قوبلاي خان» ودامت هذه السلالة من 1280 إلى 1368 للميلاد. وكانت آخر سلالة حكمت الصين سلالة المانشو (المنشوريون) (1644 ـ 1911 م).

ومن الملاحظات المفيدة عن تأريخ الصين القديم أنه لا يعرف نوع العروق البشرية التي كانت تستوطن الصين في عصور ما قبل التأريخ، ومع أن العنصر الغالب الآن وفي العصور التأريخية المعروفة هو العرق المغولي (الأصفر) إلا أنه من المحتمل أن يكون أهل الحضارة الصينية القديمة منذ انقلاب العصر الحجري الحديث ليسوا مغوليين، ولعل ذلك الانقلاب قد تأثر بالمراكز الغربية التي وقع فيها مثل التركستان وإيران وشمالي العراق. ومما يقال في تأريخ الصين إن حوادثه وتواريخه غير معلومة بوجه الضبط فيما قبل 1800 ق.م.، كما أن السنين التي أعقبت هذا التأريخ تقريبية، ويبدأ التأريخ المضبوط منذ السنة الشهيرة التي ولد فيها «كونفشيوس» (551 ـ 478 ق.م). هذا مع العلم بأن تأريخ الصين القديم يمتاز بكثرة السجلات التأريخية التي خلفها لنا المؤرخون الصينيون القدماء الذين اهتموا بتدوين كل ما اعتقدوا بحدوثه، ولكن لا يسع المؤرخ الحديث الملتزم لأصول النقد التأريخي أن يأخذ برواياتهم فيما قبل عام 776 ق. م. وهو العهد التأريخي في الصين الذي امتاز بالإقطاع. ويشبّه المؤرخون الصينيون القدماء كتاب أسفار التوراة الأولى ومؤلفي أساطير الخليقة في الحضارات القديمة بأنهم يدونون لنا تأريخ الصين منذ الخليقة. وبموجب تلك الأساطير اشتغل أول بشر (بيان كو) زهاء

18 ألف عام في خلقه للكون والخليقة التي وجدت في عام (2,299,000 ق.م) بحسب التقويم الصيني، وقد تولد من نفسه الهواء والريح ومن لحمه الأرض ومن شعره الحشائش والأشجار ومن عظامه المعادن ومن عروقه الأمطار، وصارت الحشرات التي كانت متعلقة بجسمه «الجنس البشري»[1]. ويقول لنا هؤلاء المؤرخون إن الملوك الأقدمين حكم كل منهم (18 ألف) عام، وقد بذلوا جهداً عظيماً في تحويل «القمل» الذي في جسم «بيان كو» إلى جنس متحضر من البشر. وقبل أن يجيء هؤلاء الأباطرة السماويون كان البشر كالوحوش لا يعرفون المدنية والحضارة «يلبسون الجلود ويأكلون اللحم النيء ولا يعرفون آباءهم بل أمهاتهم». وتنسب المآثر تمدين البشر إلى الأمبراطور الأسطوري «فوهسي» (Fu Hsi) (2852 ق.م)، وإلى غيره من الملوك القدماء.

أما عن ديانات الصين فقد سبق أن نوّهنا بأشهر مذاهبها وهي «التائوية» و«الكونفشيوسية»، ثم نوهنا في كلامنا على البوذية في الهند بانتشار هذه الديانة إلى الصين حيث تمكّنت فيها، ومما يساعد على انتشارها الشبه الموجود بينها وبين «التائوية»، ويجدر التنويه هنا بأثر البوذية الكبير في حياة الصين حيث كانت عاملاً محفزاً على بث روح جديدة في الفن وفي النحت، والتصوير.

---

(1) Gowen G Hall, **Outline History of China** (New York, 1927); Will Durant, Op. Cit., 642.

الحثيون في آسيا الصغرى وأقوام أخرى

1 ـ حضارة الأناضول قبل مجيء الحثيين:

كشفت التحريات الآثارية الحديثة عن وجود أدوار حضارية في آسيا الصغرى سبقت استيطان الحثيين فيها وتأسيسهم دولة في حدود 1800 ق.م. وأصل الحثيين على ما سنذكر فيما بعد من الأقوام الهندية الأوروبية، أما سكان آسيا الصغرى الأصليون فيما قبل العهد الحثي فلا سبيل لمعرفة أصلهم، ولا لغتهم لأنهم لم يخلفوا لنا آثاراً مدوّنة مكتوبة. ومهما كان الحال فإن الأدوار التي أظهرها البحث الحديث ترجع في عهدها إلى العهد الذي سميناه بالعصر الحجري المعدني الذي يؤرخ في الأناضول من الألف الرابع إلى حدود 2500 ق.م. ويليه طور من الحضارة يتميز باستعمال معدن النحاس (2500 ـ 2000 ق.م)، ثم عهد الدولة الحثية والحضارة الحثية ويشمل معظم الألف الثاني ق.م. وتأتي من بعد ذلك الأدوار المتأخرة مثل عهد الفريجيين والليديين الخ. ومما يقال بوجه الإجمال إن الكشف عن مثل هذه الأطوار وعن الحضارة الحثية يعدّ من أروع ما قامت به «الأركيولوجيا» (علم الآثار) في العصر الحديث ولا سيما في المواضع التي ازدهرت فيها مثل عاصمتها القديمة «حاتوشاش» (ويعرف موضعها الآن باسم بوغاز كوي) حيث وجدت فيها الآثار المدونة التي عرفتنا بهذه الحضارة. وقد وجدت من العهد النحاسي السابق ذكره في موضع يسمى «الجا»[1] مقبرة عثر فيها على آثار نفيسة من

---

(1) انظر خبر الاكتشافات الآثارية الحديثة في مواضع مهمة في الأناضول مثل الموضع المعروف=

الحلي والأدوات الذهبية والفضة والالكتروم (سبيك من الذهب والفضة) وكذلك أدوات النحاس وأواني الحجر النفيسة، مما يشبه ما وجد في المقبرة الملكية في «أور» في العراق من عهود فجر السلالات السومرية. وقد سبق أن نوّهنا بعدم معرفتنا بالأقوام التي أوجدت هذه الحضارة قبل الحثيين، وكل ما يمكننا قوله إنهم ليسوا من الأقوام الهندية الأوروبية التي ينتمي إليها الحثيون، ولغتهم ليست آرية أيضاً بل من اللغات الآسيوية، ولكن أشارت إليهم الوثائق الحثية باسم «خاتي» وهو الاسم الذي أطلق على الحثيين أنفسهم، كما يستشف من المآثر الحثية أن بلاد الأناضول كانت قبل أن يفرض عليها الحثيون دولة موحدة واحدة يحكم فيها جملة دويلات صغيرة، على طراز دول المدن السومرية ولا بدّ أن نشير هنا إلى تأثر بلاد الأناضول بالحضارات القديمة التي ظهرت في وادي الرافدين، فقد سبق أن ألمحنا إلى الحملات الحربية التي قام بها ملوك السلالة الآكدية في بلاد الأناضول والمستعمرة الآكدية التي قامت في كبدوكية، وتروي لنا المآثر المتأخرة (المدوّنة في حدود 1400 ق.م) أن الملك الآكدي «نرام ـ سين» (في حدود 2200 ق.م) قد حارب في الأناضول اتحاداً يشمل سبعة عشر ملكاً. وأثرت حضارة العراق القديم أيضاً في الحضارة الحثية في العهد الحثي (منذ الألف الثاني)، وسنرى كيف أن الحثيين استعملوا الخط المسماري واللغة البابلية في كتابة وثائقهم وتأثروا بأساطير وآداب ما بين النهرين. وقد وجد المنقبون حديثاً (1948 ـ 1949) في وسط الأناضول مستعمرة آشورية في «كول تبه»[1] يرجع عهدها إلى الزمن الآشوري

= باسم «الجا» (Alaça) الواقع عند عطفة نهر قزل ايرمق (نهر الهليس) وكذلك الاكتشافات الأخرى في:

Bulletin of the University Museum. Un. of Pennsylvania vol. 17 (1952), 47 ff.

وأحدث مرجع سهل كتب عن الحثيين والحضارة الحثية المرجع الموجز:

O.R. Gurney, **The Hittites** (1952, Pelican Publication); Illustrated London News, 21 July, 1945.

(1) وقد عين الاسم القديم لهذا الموضع حيث جاء اسمها بهيئة «كنيش» (Kanesh) وهي قرب قيصرية انظر: **Illustrated London News**, 14 January (1950).

القديم (منذ 1900 ق.م)، ولعلها تقوم على أدوار أقدم ترجع إلى العهد الآكدي.

(2) أما العهد الحثي (2000 ـ 1200 ق.م) فهو العهد المتميز بكثرة مصادره التأريخية المدوّنة بالحثية وبالبابلية حيث نجد فيه جماعات (هندية ـ أوروبية) وقد فرضت سلطانها على السكان الأصليين. وقد تكوّنت في هذا العهد دول معظمة قوية، ونشأت فيه بوجه خاص أمبراطوريتان أقدمهما في حدود (1800 ـ 1500 ق.م) وكانت هذه الدولة هي التي غزت بابل في أواخر سلالة بابل الأولى أي سلالة حمورابي ويرجّح أنها هي التي قضت على تلك السلالة، ولكن الحثيين لأسباب غير معلومة تماماً، لم يبقوا في العراق وحلّ محلهم الكشيون كما ذكرنا ذلك من قبل. أما الأمبراطورية الثانية فقد بقيت من 1450 إلى 1200 ق.م. وكانت تعاصر الكشيين في العراق والأمبراطورية المصرية (1580 ـ 1085 ق.م) وحدث نزاع حاد بين الحثيين والمصريين للاستيلاء على البلاد الشامية دام زهاء القرن الواحد فأضعف الأمبراطوريتين واستفاد الآشوريون من ذلك فوائد عظيمة كما مرّ بنا ذلك وتحطمت الأمبراطورية الحثية في حدود 1200 ق.م. بسبب هجرات من الأقوام الهندية الأوروبية مثل (الفريجيين) و(الكاريين) وغيرهم، فتكوّنت دول صغيرة في آسيا الصغرى على أنقاض الأمبراطورية الحثية.

(3) ويبدأ العهد الثالث من انهيار الأمبراطورية الحثية في عام 1200 ق.م. وقد انتقلت فلول من الحثيين من آسيا الصغرى إلى شمالي سوريا، فانتقل بذلك مركزهم الحضاري والسياسي. فتكوّنت من فلول الحثيين في شمالي سوريا دول صغيرة بقيت زهاء خمسة قرون وقد احتفظ الحثيون في هذا المركز الجديد بالمآثر الحثية. وكانت أشهر ممالكهم في هذا العهد مملكة (كركميش) نسبة إلى عاصمتهم (وهي جرابلس الآن). ولسوء حظ الحثيين صادف عهدهم هذا توسع الآشوريين وزمن عنفوانهم العسكري فشددوا عليهم الخناق حتى قضوا على كيانهم السياسي في آخر الأمر حين غزا سرجون الآشوري أهم مدنهم وهي «كركميش» في عام 717 ق.م..

شيء عن الحضارة الحثية:

1 ـ الحثيون على ما بيّنا من الأقوام الهندية الأوروبية، ولغتهم شبيهة بفروع عائلة اللغات الهندية الأوروبية، وتعد الحثية من الفروع القديمة من هذه العائلة، ومن الباحثين من يرى أن اللغة الحثية تؤلف مع عائلة اللغات الهندية الأوروبية الأخرى كتلة أو عائلة كبرى تحدرتا من أصل بدائي قديم يصح أن نطلق عليه اسم «اللغات الهندية ـ الحثية» وقد جاء الحثيون من موطن الأقوام الهندية الأوروبية المفترض في جوار قزوين وجنوبي روسيا. وقد دوّن الحثيون بخط هيروغليفي قديم وبخط مسماري مقتبس من المسماري في العراق القديم. أما الخط الهيروغليفي فشكله صوري ولا علاقة له بالهيروغليفي المصري، وكان مستعملاً منذ 1500 ـ إلى حدود 700 ق.م.، بالدرجة الأولى في منطقة كبيرة تمتد من أواسط الأناضول إلى شمالي سوريا، وقد بدأ العلماء يحلّون رموز هذا الخط منذ عام 1930 ولما ينته عملهم[1]، وكتب الحثيون أيضاً بعض سجلاتهم الأخرى بلهجة أو لغة حثية خاصة في خط مسماري اقتبسوه من العراق القديم، كما قلنا. وقد استعمل كلا الخطين في آن واحد في عهد الأمبراطورية الحثية، وكان الخط الحثي المسماري محدود الانتشار اقتصر استعماله بالدرجة الأولى في إقليم بوغاز كوي وما جاورها وقد

---

(1) حول هذا الخط والمحالاوت التي تمّت لحله انظر (O.R. Gurney, Op. Cit.) والجدير بالذكر بهذا الصدد أنه وجد حديثاً في «قره تبه» (Karatepe) في جنوبي الأناضول في ولاية أطنه (عام 1947 م) كتابات مهمة ستكون مفتاحاً جديداً لحل رموز الهيروغليفية الحثية، إذ إن هذه الكتابات مكوّنة من نصين متطابقين أحدهما بالهيروغليفية الحثية والثاني مكتوب بحروف هجائية فينيقية، وبذلك صار هذا الأثر بمثابة حجر رشيد في حلّ الخط المصري القديم وحجر بهستون في حل الخط المسماري. انظر المراجع الآتية:

(1) **Bult. of the Un. Museum,** Vol. 17 (1952), 52 ff.

(2) **Journal of the Near Easten Studies, VIII** (1949), 116 ff.

(3) **Orientalia, XVIII** (1949), 173 ff. **Archiv Orientalni** (1950).

(4) **Obermann, New Discoveries at Karatepe** (New Haven 1949).

(5) O.R. Gurney, **Op. Cit.**

مات هذا الخط من الاستعمال بنهاية الحثيين في الأناضول في حدود 1200 ق.م.، في حين أن الخط الهيروغليفي الحثي ظل في الاستعمال إلى حدود 700 ق.م.[1]. واستعمل الحثيون أيضاً إلى جانب هذين الخطين اللغة البابلية والخط المسماري في كتابة جملة من وثائقهم.

2 ـ ومن الأمور الطريفة عن كيان المملكة الحثية ونظام الملكية فيها احتمال أن الملوك في الأزمان القديمة كان يتم اعتلاؤهم على العرش بطريق بيعة طبقة النبلاء على غرار الملوك بين القبائل الأنكلوسكسونية والجرمانية، كما جاء من الحثيين ما يمكن تسميته بالدستور أو القانون الأساسي للدولة ولا سيما تنظيم وراثة العرش، حيث نظم ذلك الملك الحثي «تليبنيوس» (Telipinus) بموجب قانون وضعه[2]. وكان ملوك الحثيين يلقبون أنفسهم بالملوك العظام. ولم يؤله الملوك الحثيون ولكن نشأ نوع من العبادة والتقديس لأرواح الملوك القدماء. وكان الملك الحثي القائد الأعلى للجيش وأعلى سلطة قضائية والكاهن الأعلى أيضاً.

3 ـ وكان يقوم على رأس المجتمع الحثي الملك والأسرة المالكة حيث كان أعضاؤها يتولون المناصب العليا في الدولة، وكان كبار المدينة (شيوخها) يحكمون في المدينة في الأمور القضائية، ثم هناك الطبقة النبيلة، وطبقة الصنّاع والتجار والعوام ولا سيما الفلاحون. وقد عثر في خرائب العاصمة «بوغاز كوي» (1922) على أجزاء كثيرة من ألواح الطين التي دوّنت بالشرائع الحثية القديمة، ومن بين ذلك لوحان كاملان تقريباً دون في كل منهما نحو (100) مادة قانونية، وقد عدّت المواد البالغة مائتي مادة في اللوحين المذكورين كأنهما شريعة واحدة، وفيها شبه ملحوظ بشرائع القديم من ناحية الأحكام والصيغة الفنية[3].

---

(1) انظر: **Gelb, A Study of Writing**

(2) O.R. Gurney, **Op. Cit., 64.**

(3) انظر ذات المصدر ص 88 فما بعد، وأحدث ترجمة القوانين الحثية في:
Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950), 188 ff.

4 ـ وقد أمدتنا الألواح المدوّنة التي عثر عليها في «بوغاز كوي» بمعلومات ثمينة عن ديانة الحثيين القدماء، وكان أبرز إلٰه عُبد في الأناضول في العهد الحثي الإلٰه الجو الذي مثل في المآثر الحثية في الأناضول وفي سوريا. ففي المآثر الحثية السورية يمثل هذا الإلٰه (واسمه «تشوب») بهيئة آدمية وهو يحمل فأساً ورمز الصاعقة. وفي الأناضول يمثل وهو راكب في مركبة تجرها الثيران، وكان الثور حيوانه المقدس[1]، وقد يقوم الثور وحده رمزاً للإلٰه في بعض المآثر. وقد أقيمت له معابد في طوروس وفي سوريا الشمالية، حيث كان الحوريون منتشرين هناك، وأثروا في ديانتهم في الحثيين، وعنهم دخل جملة آلهة من العراق القديم إلى الحثيين مثل «آنو» و«أنليل» و«أيا» وزوجاتهم وعبد الحثيون أيضاً الإلٰه الشمس بهيئة إلهة، حيث طغت في عبادتها في مركز الأناضول على عبادة الإلٰه الجو الذي صار زوجها.

الفريجيون والليديون:

رأينا فيما سبق كيف أن حياة الحثيين السياسية كدولة ذات كيان قد انتهت في حدود 1200 ق.م. على أثر هجمات موجة من الأقوام الهندية الأوروبية هي التي جاءت بأقدم الهجرات اليونانية إلى اليونان. وأعقب الدولة الحثية في الأناضول جملة أقوام أسست بدورها دولاً هناك، أشهرهم وأقدمهم القوم الذين سموا نسبة إلى الإقليم الذي أقاموا فيه مملكتهم (فريجية) وعرفوا باسم الفريجيين (وقد يجوز العكس أي إن الإقليم سمي باسم القبيلة الخاصة). وقد ظهرت منهم دولة في القرن التاسع ق.م.، كانت واسطة الاتصال الثقافي بمملكة ليديا وباليونان. وقد وضع الفريجيون بعض الأساطير التي فسروا بها أصل مملكتهم وأصل الملوك الذين ظهروا من بينهم، ومن بينهم أول ملك حكم عليهم واسمه «جورديوس» (Gordios) الذي لم يكن سوى فلاح فقير لا

(1) قارن ذلك بالإلٰه «أدد» الذي عُبد في العراق القديم. ولكن يرجّح أن أصله من سوريا.

يملك غير ثورين[1]، وخلفه في الحكم ابنه المسمى «ميداس» (Midas) الذي كان مبذراً مسرفاً أضعف المملكة. وتروي الأسطورة أنه دعا الآلهة لتمنحه القدرة على تحويل كل شيء يمسّه إلى ذهب، فاستجابت له الآلهة حتى أن الطعام الذي كان يمسه يتحول إلى ذهب، فكاد يموت جوعاً فتضرّع إلى الآلهة أن تزيل منه تلك الأمنية التي تحوّلت إلى لعنة، فاستجابت له الآلهة ودلّته على الخلاص منها بتطهير نفسه في نهر اسمه «بكتولس» (Pactolus) الذي صار ينتج حساب الذهب منذ آنئذاك[2]. وقد قضى الكميريون على هذه المملكة في عهد ملكها «ميداس» (انظر كلامنا على الماذيين).

لقد أسس الفريجيون عاصمتهم في الموضع الذي عُرف بعدئذ باسم «أنقرة» (Ancyra)، واتخذوا لعبادتهم الآلهة المحلية التي وجدوها، واشتهرت من بين آلهتهم إلهة باسم «سبيلة» أو «كبيلة»[3] ولعلها إلهة حثية تمثل الخصب مثل الإلهة البابلية عشتار، وقد روت الأساطير اليونانية أن الفريجيين مارسوا البغاء المقدس في عبادة هذه الإلهة. وقد اتخذ الرومان عبادة «سبيلة» وجعلوها ضمن عبادة آلهة الدولة الرسمية، وكان للإلهة حبيب وزوج هو «أتيس»[4] وصار الرومان يقيمون المهرجانات الدينية المتّصفة بالخلاعة والتهتّك في الأعياد الخاصة بعبادة هذين الإلهين.

---

(1) تروي الأسطورة (كما جاءت في المصادر اليونانية مثل هيرودوتس) أن الإله «زوس» أوحى إلى الفريجيين أن ينتخبوا ملكاً أول من يقصد المعبد راكباً في عربة، فتم اختيار «جورديوس»، فكرّس هذا الملك عربته إلى الإله، وقد اشتهرت هذه العربة بوجود «عقدة» تربط بين أجزائها (ولا سيما خشبة النير المربوط بالعربة)، وقد أوحى الإله بأن من استطاع حلّ هذه العقدة تمكّن من حكم آسيا. ولم يستطع ذلك أحد غير الإسكندر الكبير الذي فك العقدة بضربة من سيفه من بعد معركة «إيسوس» الشهيرة. وصارت عبارة (The Gordian Knot) في اللغات الأوروبية مضرباً للمثل على العقدة العسيرة الحل.

(2) Will Durant, Op. Cit., 288.

(3) Cybele أو Kybela.

(4) تروي الأساطير أن هذا الإله ولد من إلهة عذراء هي «نانا» بدون أن تتصل بذكر بل إنها حبلت به بعد أن وضعت رمانة بين ثدييها.

انتهت حياة المملكة الفريجية بقيام دولة أخرى أعقبتها في آسيا الصغرى عرفت باسم مملكة «ليديا» (Lydia)، وتقول المآثر إن الملك «جايجز» (Gyges) هو الذي أسس هذه المملكة وجعل عاصمتها في «ساردیس»، ثم خلفه الملك «الياتيس» (Alyattes) الذي أوصل المملكة إلى الازدهار والرخاء. واشتهر من هذه المملكة الملك (قارون (كروسس (Croesus)) (570 ـ 546 ق.م) الذي خلفه ووسع المملكة بحيث جعلها تشمل معظم آسيا الصغرى، كما ميّز «قارون» نفسه بأنه سك نقود الذهب والفضة وختمها بنقوش جميلة، ولعل هذا هو سبب اشتهاره بالثروة. ولكن المعروف تأريخياً أن سك النقود قد سبق عهد قارون في آسيا الصغرى لعله بزمن نصف قرن[1].

لقد كان «قارون» آخر ملوك المملكة الليدية إذ قضى كورش في عهده عليها، وكانت ليديا متأثرة بالحضارة اليونانية إلى درجة أن هيرودوتس لما زار هذه المملكة وجدها لا تختلف في ثقافتها عن الثقافة الإغريقية، كما أن جلّ مصادرنا المدوّنة عن أحوال هذه المملكة قد جاءتنا من الإغريق، إذ لم يترك لنا الليديون شيئاً عن أدبهم. ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن سقوط «قارون» فأولاً يقصّ لنا قصة زيارة «صولون»، المشرّع الأثيني المشهور لقارون، وكيف أن هذا عرض على الحكيم اليوناني ثروته العجيبة وسأله أن يخبره عن أسعد رجل بين الناس. فسمى له صولون ثلاثة رجال مغمورين، غير موجودين في الحياة، ولم يسم اسم «قارون» حتى بين السعداء معللاً ذلك بأنه لا يستطيع أن يخبره إن كان أسعد الناس حقاً حتى يعرف نهاية حياته. وكان الملك الفارسي «كورش» في ذلك الأثناء قد أقام مملكته الموطدة، وسعى من بعدئذ لتوسيعها بالفتوح الخارجية التي شملت حدود آسيا الصغرى أيضاً، ويروي لنا هيرودوتس أيضاً تتمة طريفة لحياة «قارون» إذ يقول إن هذا لما سمع باقتراب الفرس من حدود الأناضول أرسل إلى معبد الفأل يسأله هل سينال

---

(1) لقد سبقت الإشارة في كلامنا على الآشوريين أن قطعاً معدنية سكها سنحاريب (في حدود 700 ق.م) زنة كل قطعة نصف «شيقل».

النصر إذا هو عبر النهر (ولعله نهر الهليس، وهو قزل ايرمق الآن) لملاقاة الجيش الفارسي، فأجابه «فأل» الإلٰه بأنه «إذا عبر النهر حطم مملكة عظيمة». أما نتيجة الالتحام مع الفرس فكانت تحطيم جيشه ومملكته، فلما أن شاهد النتيجة المحزنة (546 ق.م) صمم على الانتحار هو وعائلته فأحضر ناراً لتهيئة جنازته بالحرق. وفيما هو كذلك مرّ به «كورش» فأخبر بحقيقته، وتذكر «قارون» قول «صولون» له فبكى وقصّ القصة على «كورش»، فرأف به هذا وجعله مرافقاً له من بين مستشاريه[1].

(1) انظر رواية هيرودوتس الممتعة .(Herodotus, I, 87)

السوباريون والحوريون والميتانيون والأرمن

1 ـ السوباريون:

يجد الباحثون المشتغلون في كتابات حضارة وادي الرافدين إشارات عديدة إلى قومين حاروا في تعيينهما في مبدأ الأمر وهما «السوباريون» و«الحوريون»، وقد أوردوا عدة نظريات وتفسيرات حول أصلهما وعلاقة أحدهما بالآخر[1]، فذهب بعض الباحثين إلى أن الاسمين متطابقان وأنهما يطلقان على قوم واحد. ولكن أحدث الآراء وأصحها[2] هو أن هذين المصطلحين ليسا كلمتين تطلقان على قوم واحد بل على قومين متميزين بعضهما عن بعض.

فأما السوباريون[3] فقد كانوا أقدم القومين، ووردتنا عنهم إشارات في النصوص المسمارية من عهودها القديمة (منذ عصور فجر السلالات). فيستدل

---

(1) أبرز المراجع التي كتبت في الموضوع:

(1) Speiser, Mesopotamian Origins (1930).

(2) Ungnad, Subartu (1936).

(3) Gelb, Hurrian and Subarians (1944).

(2) انظر الحاشية رقم (1) المرجع رقم 3.

(3) السوباريون أو كما جاء اسمهم في المصادر المسمارية (SU-A) (Shubur) و«سوبارتو» أو «شوبارتو».

(حول الصيغ المختلفة لهذا الاسم والمواطن التي وردت فيها في النصوص المسمارية انظر المرجع رقم 3 الهامش 1).

من هذه الإشارات على وجود جماعة تُعرف باسم السوباريين في العراق كانت تعيش جنباً إلى جنب مع السومريين والآكديين، كما يستدل منها أيضاً على وجود إقليم سمي ببلاد السوباريين التي لا تعلم حدودها بالضبط، ولكن يؤخذ من المصادر الكتابية المتنوعة أن هذا الإقليم الخاص بالسوباريين يقع بين دجلة العليا وجبال «زجروس» وديالى. وكانت بلادهم تتضمن بالنسبة إلى سكان القسم الجنوبي من العراق شمالي العراق أيضاً ولا سيما بلاد آشور وبلاد الكوتيين. أما بالنسبة إلى الآشوريين فكانت بلاد «سوبارتو» بلاداً أجنبية معادية. وكانت جهات العالم بموجب المآثر البابلية أربع جهات «سوبارتو» أي جهة الشمال وبلاد «آكد» الجنوب، و«عيلام» الشرق، وبلاد «أمورو» (أي سوريا) جهة الغرب. هذا ولا يعلم أصل هؤلاء السوباريين بالضبط. والشيء الوحيد الممكن قوله بهذا الصدد إنهم ليسوا من الأقوام السامية ولعلهم من الأقوام الهندية الأوروبية، وكانت بلاد السوباريين مصدراً للرق (لأسر العبيد) عند البابليين والآشوريين. كما أنه لا يعرف أنهم كوّنوا لهم كياناً سياسياً خاصاً بهم، وإنما المرجّح أنهم هجرة من هجرات الأقوام التي جاءت إلى العراق واختلطت بسكانه بعد إقامتها واستيطانها في جزء خاص من العراق ، هو القسم الشمالي من العراق الذي استحوذ عليه الآشوريون فيما بعد، ومما لا شك فيه أن السوباريين دخلوا في بناء الآشوريين العرقي.

2 ـ الحوريون:

أما الحوريون فنعرف عنهم أشياء أكثر وأوضح من السوباريين فأولاً لم يكونوا من السوباريين، كما أن عهدهم في التأريخ متأخر عن عهد السوباريين. ولعلهم غزوا الإقليم الذي كان يستوطنه هؤلاء السوباريون. فكانوا بحسب الإشارات الواردة في النصوص المسمارية، موجودين بقلة في العراق في العهد الآكدي في بعض المواضع من العراق شرقي دجلة، وبدأ عددهم بالازدياد منذ عهد سلالة أور الثالثة وعهد سلالة بابل الأولى. واتسع استيطانهم في منتصف الألف الثاني وتكوّن لهم كيان سياسي، حيث نجدهم منتشرين في شمالي

سوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين وإلى حدّ ما إلى الأناضول، ولكن الساميين كانوا الأكثرية في سوريا الجنوبية وإقليم ماري في الفرات الأوسط وفي فلسطين، على ما رأينا في كلامنا على تأريخ بلاد الشام، ولعل الحوريين هم الذين غزوا بلاد آشور من بعد عهد «شمسي أدد» الآشوري وحمورابي، حيث بلغ اتساعهم أوجّه، إذ نجدهم يؤسسون، بالإضافة إلى وجودهم في العراق، دولة قوية في شمالي سوريا، كما أبانت التنقيبات التي أجريت في «رأس شمرا» (أوغاريت القديمة) حيث وجدت بعض الألواح المدونة بكلمات حورية وشرحها بالسومرية كما وجدت نصوص باللغة الحورية[1]. ووجدت آثارهم أيضاً في مواضع أخرى من سوريا مثل الموضع المسمى الآن «تل المشرفة» (الذي يرجّح أن يكون موضع المدينة القديمة المسمى «قطنا»، جنوب حماه، حيث قلنا إنها كانت مركز الهكسوس في سوريا) ووجدت وثائق حورية عهدها من منتصف الألف الثاني، ووجدت آثارهم في تل العطشانة في سهل أنطاكية، وهي وثائق مهمة بعضها يرجع في عهده إلى زمن حمورابي وبعضها من عهد «العمارنة» (القرن الرابع عشر ق.م)[2]، وكان مركزهم في العراق في «توزي» (يورغان تبه قرب كركوك إلى الشرق بـ 10 أميال) وفي كركوك أيضاً (رابخا القديمة)[3] أما أصل هؤلاء الحوريين[4] ونسبتهم إلى الأقوام المعروفة فلم يبت

(1) انظر مجلة .(Syria, XII (1931).

(2) انظر : .S. Smith, in the Antiquaries Journal, XIX (1939), 38 ff

(3) لم يعثر على آثار على آثار الحوريين في توزي من العهد الآكدي، مما يدل على أنهم لم يكونوا مستوطنين في هذا القسم من البلاد في ذلك العهد. وكانت «توزي» تسمى في العهد الآكدي باسم «كاسور» (Gasur).

(انظر : .(T.J. Meek, Old Akkadian, Sumerian, Texts from Nuzi 1935).

وتتميز آثارهم المادية من ناحية الطبقات الآثارية بنوع الفخار الخاص الملون المعروف بالفخار الحوري والتوزي كما وجد في عدة مواضع مثل توزي وإقليم الخابور وبلاد آشور وتل العطشانة، ويؤرخ هذا الفخار في حدود 1500 ـ 1200 ق.م.

(4) المرجّح كثيراً أن مهدهم في النجاد المرتفعة الواقعة شمالي شرقي الهلال الخصيب في موضع ما بين بحيرة أورمية وجبال «زجروس» وغزوا بلاد ما بين النهرين في القرن الثامن عشر ق.م.

به بعد على وجه التأكيد، كما أن لغتهم لا يمكن القطع بها بكونها من اللغات الهندية الأوروبية ولكنها على كل حال ليست من اللغات السامية. ومن الباحثين من يقارنها باللغة الأورارطية (لغة بلاد الأرمن في إقليم وان)، ولكن إذا صحّ ذلك فتكون لغتهم أقرب إلى عائلة اللغات الهندية الأوروبية، كما أن من الباحثين من يقارنها بالعيلامية والكشية الخ. وكانت ثقافة الحوريين عنصراً مهماً في ثقافة الهكسوس المتأخرين في سورية.

3 ـ دولة ميتاني:

يبدو أن الحوريين تقلصوا في نفوذهم من بعد (1500 ق.م)، ولكن قامت في الإقليم الذي تمركز فيه الحوريون في شمالي ما بين النهرين دولة قوية عُرفت باسم دولة «ميتاني» كان سكانها بالدرجة الأولى من الحوريين، ولكن يؤخذ من أسماء الملوك الذين حكموها أن أصل الطبقة الحاكمة فيها من الأقوام الهندية الأوروبية، كما يستدل على ذلك أيضاً من الآلهة التي عُبدت في هذه المملكة مما ورد ذكرها في المعاهدات التي أبرمها ملوكهم مع الدول المجاورة، مثل الإله «مثرا» و«فارونا» (Varuna) و«أندرا»، وهي الآلهة الهندية الأوروبية كما عرفت في عبادة الهند القديمة. لقد سميت هذه المملكة أيضاً باسم آخر هو «خانيكلبات» وهو الاسم الوارد في الكتابات المسمارية، والمرجّح أن هذه الصيغة هي الاسم الجغرافي لهذه المملكة أما مصطلح «ميتاني» فيبدو أنه الاسم السياسي لهذه الدولة. وسمّاها أيضاً بعض الأقوام السامية (مثل الكنعانيين والآراميين) باسم «نهارين» (أي ما بين النهرين) كما سمتها المصادر المصرية بهذا الاسم أيضاً. وكان يدخل في هذه المملكة في أيامها القديمة جزء من شمالي سوريا وإقليم كركوك (أرابخا) ولكن تقلصت حدودها في الأيام الأخيرة وانحصرت في شمال ما بين النهرين، وقد اتخذوا في هذا الإقليم موضعاً لعاصمتهم ورد اسمه في المصادر المسمارية بهيئة «وشوكني»[1]، ولا يعلم

(1) (Washshukkanni).

موقعها بالضبط، ولكن يظن أنها في الموضع المعروف الآن باسم الفخارية على الخابور، إلى الشرق من تل حلف وحران.

اتخذ ملوك ميتاني اللغة البابلية والخط المسماري في أغلب وثائقهم ومراسلاتهم الدولية، ولكن المرجّح أن اللغة الرسمية المحلية كانت اللغة الحورية، وهي لغة أغلبية سكان المملكة، وقد وجدت رسالة من أحد ملوكهم المسمى «تشراتا» إلى الفرعون أمنحوتب الثالث باللغة الحورية. كما وجدت ستة نصوص أخرى باللغة الحورية من مدينة ماري (تل الحريري).

لقد دامت هذه المملكة منذ زمن تأسيسها (في حدود 1500 ق.م) إلى زمن ابتلاعها من جانب الآشوريين زهاء القرنين من الزمان، والمعتقد أن الحوريين أثروا في الآشوريين في هيئات أجسامهم، كما أن الشكل العبراني اليهودي يرجّح أنه نشأ بتأثير الاختلاط بالحثيين والحوريين، وأثر الحوريون في سكان سوريا وبوجه خاص في الشكل اللبناني من ناحية شكل الرؤوس المدورة[1].

أما تأريخ دولة ميتاني السياسي وأسماء ملوكها فلا يسع هذا الموجز التأريخي إسهاب القول فيه وإنما نكتفي بالتنويه بما ذكرناه عن الآشوريين والعلاقات الدولية في عهد الأمبراطورية المصرية حيث أصبحت دولة ميتاني في القرن الرابع عشر ق.م. محاطة بدول وأمبراطوريات معظمة، ولقد كانت صديقة لمصر في نزاعها مع الأمبراطورية الحثية، كما تدل على ذلك رسائل العمارنة الشهيرة ولا سيما المراسلات بين أشهر ملوكهم «تشراتا» وبين الفرعون المصري أمنحوتب (أمنوفس) الثالث، وقد تزوج هذا من أخت الملك الميتاني، وكانت مملكة ميتاني قبل ذلك في حرب مع الأمبراطورية المصرية في عهد سلالتها الثامنة عشرة. وبلغ من قوّتها قبيل عهد الملك الآشوري «آشور أوبالط»

---

(1) أي الرؤوس المعروفة في الأنثروبولوجيا بمصطلح (brachycephalic). انظر: (Hitti, Histyro of Syria, 154).

أن فرضت نفوذها على آشور وقلصت المملكة الآشورية وضيّقت عليها الخناق، ولكن نزاعها مع الحثيين أضعفها حيث هاجم الحثيون في عهد «شوبيلو ليوما» الملك الميتاني تشراتا، كما ضيّقوا عليها في عهد ابنه «متيوازا». فضعفت المملكة الميتانية وصارت تؤدي الجزية إلى الآشوريين (في عهد أدد نراري 1304 ـ 1273 ق.م) الذين اتفقوا مع الحثيين للقضاء عليها، ولم تستطع مصر من مساعدتها بسبب ضعفها ثم ابتلعتها الأمبراطورية الآشورية.

4 ـ الأرمن:

الأرمن من الأقوام الهندية الأوروبية التي استوطنت في شمال موطن الآشوريين واتصل معهم الآشوريون منذ نشوء كيانهم السياسي وتوسّعهم الحربي، فقد اتصل أكثر من واحد من الفاتحين الآشوريين ببلاد الأرمن غازياً إياها، منذ أيام شيلمنصر الأول (1266 ـ 1243 ق.م) وتجلاثبليزر الأول (1117 ـ 1080 ق.م)، وازدادت العلاقات الحربية مع الآشوريين في العهد الآشوري الذي سميناه بالعهد الآشوري الحديث (900 ـ 612 ق.م) بحيث يستطيع المؤرخ أن يستخلص من هذه العلاقات مع الآشوريين التي ذكرت في أخبار ملوكهم الفاتحين مصادر مهمة عن تأريخ الأرمن، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التي تركها لنا الأرمن القدماء في بلادهم وما جاء عنهم في المصادر الكلاسيكية من كتابات المؤرخين اليونان والرومان.

وقد عرفت بلادهم لدى الآشوريين بأسم «أورارتو» وعرفت لدى العبرانيين في التوراة باسم «أراراط»، وعرفوا أيضاً باسم «الهالديين». ويبدو من المصادر التي بين أيدينا أن الأرمن أسسوا في بلادهم، في إقليم بحيرة وان «وأورمية» مملكة مهمة استمرت عهوداً طويلة منذ المنتصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ومما لا شك فيه أن الأرمن تعلموا من علاقاتهم مع الآشوريين أموراً مهمة عن فنون السلم والحرب. ونشأ منهم ملوك مثل «أرجيتيس» الثاني (في حدود 708 ق.م) الذي أوصل المملكة إلى حالة ملحوظة من الرخاء، فقد استغل الأرمن في عهده استخراج الحديد وتعدينه والتجارة به إلى آسيا

واليونان، كما اشتهر من ملوكهم «روساس» الذي حاربه الملك الآشوري سرجون في حملته في بلاد أرمينيا، وكان ضغط الآشوريين على المملكة الأرمينيا شديداً في عهد الملوك الذين أعقبوا سرجون، ودخلت بلاد الأرمن في حكم الأمبراطورية الفارسية على أثر فتوح «كورش» مؤسس السلالة الإخمينية. واستقلت في العهد السلوقي والعهد الفرثي ولكنها كانت مدار نزاع شديد بين روما والفرثيين، وبين روما أيضاً والساسانيين فمرة تكون إقليماً تابعاً لإحدى هذه الأمبراطوريات ومرة تكون مستقلة (انظر البحث الخاص ببلاد إيران).

وكان يعيش إلى الشمال من بلاد الأرمن على طوال سواحل البحر الأسود القبائل المتنقلة التي عرفت باسم «الاسكيثيين» (Scythian)، وهم قبائل هائلة، يرجّح أن تكون خليطاً من القبائل المغولية والقبائل الهندية الأوروبية. وقد اشتهرت هذه القبائل الشرسة القوية بغزواتها المدمرة لدول العالم القديم المتمدنة آنذاك، فكانوا يقومون بغزوات كبرى للأمبراطورية الآشورية ولعلهم ساهموا في غزو الدولة الآشورية في أيامها الأخيرة، وكانت أعظم غزواتهم المدمرة في آسيا الغربية (في حدود 630 ـ 610 ق.م) حيث لم يقل تدميرهم للمدن والسكان عن تدمير غزوات الهون والمغول في العصور المتأخرة، حتى أنهم بلغوا في انجرافهم إلى حدود مصر وسوريا وسميت مدينة في بلاد الشام بأسمهم هي «مدينة الاسكيثيين» (Scythopolis) وهي «بيسان الآن»، وقد استطاع الماذيون من دفعهم (في القرن السادس ق.م) إلى حدود مواطنهم الأصلية بعد أن فرضوا سلطانهم على بلاد إيران زهاء 28 عاماً ولكن أخطارهم على مراكز العالم المتمدن استمرت إلى زمن الرومان.

جاء وصف هذه القبائل في هيرودوتس، حيث يصفهم بأنهم قبائل متوحشة يركبون الخيل العارية الوحشية، ويشربون دماء أعدائهم ويستعملون جماجمهم للشرب[1].

---

(1) انظر تأريخ هيرودوتس (Herodotus, Bk. IV, 64) كما يصفهم هيوقراط (أبو قراط) (Hippocrates) في مؤلفه عن أثر المناخ والمياه والبيئة. الخ... =

حضارات أمريكا القديمة:

وإتماماً للفائدة نذكر تعريفاً موجزاً بالحضارات القديمة التي نشأت في القارة الأمريكية قبل مجيء الفاتحين البيض من الغربيين فقد أثمرت هذه القارة أربع حضارات مهمة كانت مواطنها في أمريكا الوسطى، وقد انبعثت من هذا المركز الحضاري تأثيرات حضارية إلى جهات أمريكا فتأثرت بهذا الأقوام البربرية من قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والجنوبية، فنشأت مراكز ثانوية من حضارات بدائية أقل مرتبة وتقدماً من المركز الأصلي، وهذه إحدى الحالات التي ينطبق عليها قانون انتشار الحضارة. والمرجّح كثيراً أن الإنسان دخل إلى القارة الأمريكية في نهاية العصر الحجري القديم عن طريق مضيق «بهرنج».

وكانت اثنتان من هذه الحضارات الأربع من الحضارات الأصلية حيث نشأتا ونمتا من الأطوار البدائية ولم تشتقا من حضارة سابقة لهما. وأقدم هاتين الحضارتين حضارة «المايا» التي نشأت قبل (500 ق.م) في منطقة الغابات الاستوائية في أمريكا الوسطى، وقد تغلبت على هذه البيئة الصعبة التي نشأت فيها. وقد قامت من هذه الحضارة أمبراطورية (300 ـ 690 للميلاد) ثم حلت بها نهاية سريعة في القرن السابع للميلاد، وقد تركت وراءها سجلاً مهماً في خرائب المدن العظيمة في الغابات المشبّعة بالأمطار في «يوكتان»

= (Hippocrates, Airs, Waters, Places, XVII-XXI).

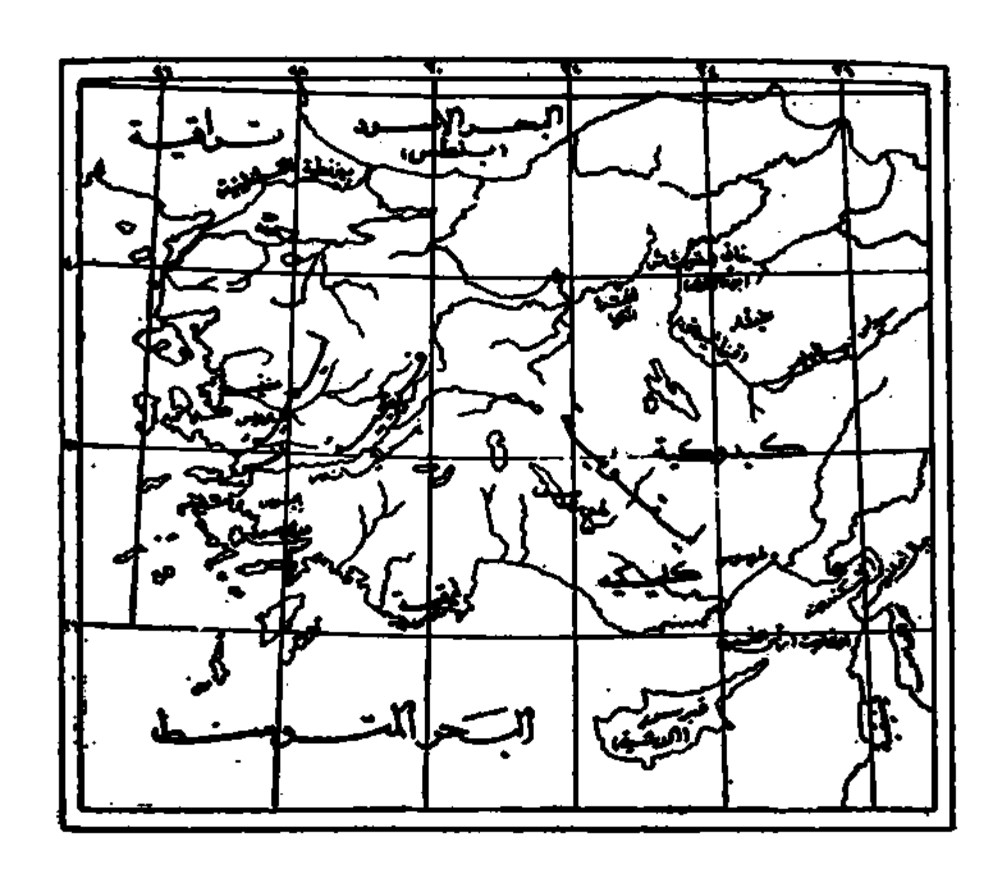
بأن نساءهم ما دمن عذارى يركبن الخيل ويمارسن الحرب، وإن المرأة منهن لا تتزوج ما لم تقتل ثلاثة من الأعداء. ويقول عن نسائهم أيضاً بأنهن ليس لديهن أثداء في صدورهن لأن الأمهات يكوين صدورهن بآلة من البرونز بحيث إذا كبرن لا تنمو أثداؤهن. وهناك بعض الباحثين من يعين هذه القبائل بأنها «يأجوج ومأجوج» المذكورين في التوراة والقرآن. حول لمح من تأريخ الاسكيثيين انظر:

(1) Maspero, The Passign Empires.

(2) Cambridge Ancient History, Passim.

وانظر تأريخ بلاد إيران أيضاً.

(يوقطان). وقد اشتهرت بحذقها في الفلك وطريقة التقويم المضبوطة. وقد ولدت حضارة «المايا» حضارتين فرعيتين هما حضارة المكسيك وحضارة «اليوكتان»، وقد نشأتا في جزء من شبه جزيرة «اليوكتان» قاحل أجرد وذلك من بعد 629 للميلاد، ونشأت عن حضارة المكسيك أمبراطورية الأزتيك التي بقيت إلى زمن الفتح الإسباني على يد القائد «كورتيز» في القرن السادس عشر الميلادي. أما الحضارة الرابعة فهي ثاني الحضارتين الأصليتين، وهي الحضارة «الأندية» وقد نشأت في الساحل الأندي وفي النجد الأندي في بداية العهد المسيحي، وقد تغلبت هذه الحضارة على البيئة الصعبة من الأرض البادية والمناخ القارس وفقدان التربة الخصبة في النجد الأندي وقد نشأت منها أمبراطورية «الأنكا» (1430 ـ 1530) في (بيرو) وقد قضى عليها الفاتح الإسباني« بيزارو» في 1530 للميلاد.



موطن الحثيين في الأناضول

القسم الرابع

بلاد إيران

العيلاميون ـ الفرس الإخمينيون ـ الإسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

الفصل الثالث والثلاثون

عصور ما قبل التأريخ وتأريخ عيلام والماذيين

1 ـ مقدمة في جغرافية إيران وعصور ما قبل التاريخ فيها:

تبدو هضبة إيران[1] وهي شبيهة بالمثلث، محصورة ما بين منخفضين هما خليج فارس في الجنوب وبحر قزوين في الشمال، وهي توصل بين آسيا الوسطى وآسيا الغربية، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا فيما وراءها. وتحيط بتلك الهضبة المثلثة سلاسل من الجبال ترتفع محيطة بصحراء منخفضة هي قاع بحر يابس (دشتي لوط). وتدعى السلسلة الغربية بجبال زجروس الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وطولها نحو (620) ميلاً وعرضها نحو 120 ميلاً، وتتراوح ارتفاعاتها بين 3280 و5570 قدماً، وهي تتألف من جملة سلاسل متوازية تخترقها أودية تتراوح في

---

(1) سيتضح من كلامنا على الأقوام التي استوطنت إيران أن اسم الآريين مأخوذ من نفس مادة «إيران»، وأول من استعمل مصطلح «بلاد إيران» «أريانا» (Ariana) الجغرافي الشهير «أراتو ستينيز» (Eratosthene) (القرن الثالث ق.م) الذي كان مديراً لمكتبة الإسكندرية الشهيرة، وكان في متناول يده الكتابات والمعلومات التي جمعها موظفو الإسكندر، ولكن المرجّح كثيراً أن هذا المصطلح يرجع في استعماله إلى العهد الإخميني إذ ورد في التراتيل والصلوات الدينية في الأفستا.

(Herzfeld, Iran in the Ancient East (1941), 192).

كما أن شيلمنصر الثالث اتصل في العام السادس عشر والرابع والعشرين من حكمه (843، 835 ق.م) بالقبيلتين الإيرانيتين الرئيسيتين وهما ماذي ومارس على ما سنبين فيما بعد، كما سيأتي ذكر الأسماء الخاصة بالأقسام الجغرافية الأخرى من إيران.

أطوالها من 60 ـ 30 ميلاً طولاً ومن 12 ـ 6 أميال عرضاً، ويمتد من السلسلة الوسطى من جبال زجروس ذراع يتّجه غرباً إلى سهل ما بين النهرين (جبال حمرين)، الأمر الذي أحدث انعطافاً وانحرافاً في نهر دجلة جعلاه يقترب كثيراً من الفرات في منطقة بغداد[1]. وكان سهل وادي الرافدين مهدداً بالغزو من هذا الامتداد المطل عليه (في الإقليم المسمى لورستان)، وكان الغزو متبادلاً على ما سيتضح ذلك فيما بعد. ويحدّ الناحية الشمالية من إيران سلسلة جبال «البرز» التي يرتفع أعلى جبل فيها (وهو «دماوند»، شمال طهران وهو المسمى في المصادر المسمارية بجبل بكني أي جبل اللازورد) زهاء 19,000 قدم وتحاذي جبال «البرز» الساحل الجنوبي من بحر قزوين، وتصل في نهايتها الغربية إلى أذربيجان الإيرانية التي تتوسطها بحيرة «أورمية» الملحة. ويمتاز إقليم أذربيجان بكثرة سكانه وتنمو في وديانه الخصبة الغلات المهمة كالحنطة والدخن والقطن والأرُزّ والتبغ كما أنه ذو شهرة تأريخية خاصة، إذ ظهرت منه سلالات الماذيين والفرس التي حكمت إيران، واستوطنته الأقوام الأخرى كالكرد والمغول والترك (التتر)، وهو إلى ذلك يعدّ الباب المؤدي إلى إيران مما دعى الدول الفارسية إلى أن تهتم في المحافظة عليه إزاء الفاتحين الآتين عبر القوقاز من السهوب الكائنة جنوب روسيا، فقد أُقيمت الحصون المنيعة التي لا تزال بعض آثارها ماثلة الآن.

وتتفرع من جبال البرز إلى الشرق جبال خراسان التي لا ترتفع كثيراً، كما أنه يسهل العبور منها، وهي ذات وديان وسهول خصبة تنمو فيها غلات الحبوب والأرُزّ والقطن والكروم والخشخاش، وتعدّ خراسان مخزناً للغلات بالنسبة إلى إيران. وتؤلف خراسان المدخل الثاني إلى بلاد إيران. فقد عبّر منها في خلال العصور غزاة فاتحون مختلفون جاؤوا من سهول آسيا الوسطى، فكانت معرّضة لغزوات التركمان إلى القرن التاسع عشر للميلاد. وأقام ملوك

---

(1) اعتمدنا في هذه المقدمة وفي تأريخ الأدوار الرئيسية في إيران على الكتاب القيم الموجز:
R. Ghirshman, Iran (Pelican, 1954).

السلالة الساسانية في خراسان حصوناً لصدّ الفاتحين، واشتهر إقليم خراسان في تأريخ إيران بكونه مهد سلالات حاكمة مشهورة، كالفرثيين والصفويين والقاجاريين. وتكمل سلاسل الجبال المحيطة بهضبة إيران سلسلة جبال «مكران» في جهة الجنوب، حيث يمرّ من هذه الجبال مجازان أحدهما في بندر عباس (الذي كان فيما مضى ميناء مزدهراً في خليج عمان) والممر الآخر يؤدي إلى بلوجستان.

ويقع في وسط هضبة إيران منخفض صحراوي شاسع يعدّ أشد بقاع الدنيا قحولة وجفافاً. وهو ينقسم إلى صحراوين شاسعتين تسمى إحداهما «دشتي كوير» في الشمال والأخرى «دشتي لوط» في الجنوب[1]، فالأولى عبارة عن طين وملح لا ينمو أو يعيش فيها شيء إلّا في بعض الواحات القليلة. أما «دشتي ـ لوط» فهي صحراء جافة على وجه الإطلاق، ويصف هذه المفازة الروّاد القلائل الذين جازفوا بارتيادها بأنها لو قورنت بأقحل صحارى آسيا الوسطى مثل صحراء «كوبي» لبدت هذه خصبة بالنسبة إليها. وهكذا فقد انحصرت حياة الإنسان واستيطانه في إيران في الهضبة فقط وفي السهول والوديان بين سلاسل الجبال وفي الواحات والسهول الواسعة مثل سهل «خوزستان» المشهور (في الجهة الجنوبية الغربية)، وهذا هو بلاد السوس القديمة (خوزستان) أي بلاد عيلام التي تعدّ من الناحية الجغرافية امتداداً لسهل ما بين النهرين الأسفل لأنها تتألف من الأرض الرسوبية التي كوّنها نهر كارون وروافده الكثيرة. وكان هذا الإقليم[2] أقدم أجزاء إيران في استيطان الإنسان له كما ظهرت فيه أقدم الأطوار الحضارية، وهو إلى ذلك أصلح جزء لأن يكون

---

(1) دشتي لوط أو «دشت لوط» وتسمى صحراء الملح وسماها البلدانيون العرب باسم «المفازة الكبرى».

(2) معنى خوزستان بلاد «الخوز» أو «الهوز» ويجمع على أهواز، وهو اسم حاضرة هذا الإقليم في العصور الوسطى، وسمي عربستان ثم أعيدت تسميته القديمة «خوزستان» في أيام البهلوي رضا شاه. وسمى البلدانيون العرب نهر كارون باسم دجيل الأهواز، ولكارون رافد مهم هو نهر «كرخه» الذي يمر قرب السوس (قرب دزفول)، (انظر كلامنا على أصل اسم عيلام).

مركزاً لإدارة الدولة الإيرانية لما اتّسعت هذه عبر «زجروس» إلى ما بين النهرين وإلى آسيا الصغرى. وهناك سهل آخر في محاذاة الجبال المتاخمة لبحر قزوين، وهي جبال مهمة من ناحية جذبها للرياح الممطرة الغزيرة في هذا السهل الذي يكتسب خصباً بسبب ذلك، فكثرت فيه الغابات والغياض، والأحراش، كما ينمو فيه الأرز والقطن والشاي والتبوغ وقصب السكر والبرتقال والليمون، والتوت، والتين، والرمان، وهو يجهز القوت لزهاء 3/ 1 السكان. أما السهول الأخرى فهي ليست على هذا الخصب، وعديمة المطر تقريباً فلا يمكن زرعها إلّا بالإرواء الاصطناعي، الذي استُعمل في بلاد إيران منذ عصور ما قبل التأريخ، وأتسع في العهد الإخميني حيث كانت شبكة من القنوات تحت الأرض (بالفارسية قناة أو غناة أو كهريز) وفي الوقت الحاضر «تبزل» المياه في سفوح الجبال وتجمع في حفر عميقة يجري الماء فيها إلى الموضع البعيد المراد إرواؤه، وتظهر مثل هذه القنوات في كل عام. وهكذا أمكن لسفوح جبال زجروس والبرز بفضل مياه أمطارها أن تكون صالحة للزراعة ولسكنى البشر، حيث تكون هذه الجبال مصدراً لينابيع المياه والسيول.

ومع أن بلاد إيران، على ما رأينا، مُحاطة بالجبال إلا أنها مفتوحة من جهاتها الأربع (بطرق مسالك الجبال) إلى سهول ما بين النهرين (وسنتطرق إلى العلاقات والاتصالات منذ أقدم الأزمان) ومفتوحة أيضاً إلى روسيا والهند وخليج فارس. كما أنه يمرّ منها منذ أقدم الأزمان طرق مواصلات عالمية تربط الشرق بالغرب، فيخترقها طريق تجارة الحرير الشهير الذي كان طريق الفتوح أيضاً، وكانت إيران في الواقع معرّضة إلى الفتوح والغزوات الخارجية وهجرات الأقوام البربرية. ومن الناحية الحضارية تقع بلاد إيران بين مركزين حضاريين مهمين، هما بلاد ما بين النهرين ووادي نهر السند.

ومن الأمور المهمة التي يجدر ذكرها عن جغرافية إيران مما كان لها أثر في تأريخها وحضارتها في هذه البلاد من الموارد الطبيعية، فهي بالدرجة

الأولى زراعية وفيها حيوانات صالحة للتدجين، وهي موطن أشجار مثمرة مهمة وحبوب برية مما مكّن ظهور انقلاب العصر الحجري الحديث. ومن مواردها الطبيعية المهمة أنها غنية بأنواع الحجارة الجيدة كالمرمر والرخام والأخشاب، وبعض الأحجار الثمينة كحجر اللازورد (Lapis Lazuli) والفيروز (Turquoise) وقد استخرجت هذه الأحجار منذ أقدم العصور، وكانت مصدراً مهماً للأمراء السومريين الأوائل في العراق مما جعل إيران تتصل بمواطن الحضارات القديمة وتتأثر فيها. ويوجد فيها من المعادن النحاس والحديد والقصدير والرصاص مما جذب إليها الفاتحين الطامعين من دول العراق القديم، وتتكوّن سفوح زجروس ومنحدراتها من حجارة الكلس وتحتوي على النفط الذي كان معروفاً منذ أقدم الأزمان. وهناك ميزة جغرافية أخرى حدّدت من إمكانيات إيران في نشوء الحضارة والدول الكبرى في عصور أقدم، تلك هي أحوال الجفاف النسبي ومحدودية الأراضي الزراعية الصالحة للري بالأنهار مما كان يحتم على الفلاحين الهجرات الموسمية من الوديان إلى الجبال وبالعكس للمحافظة على الماشية، ولا يوجد في إيران، كما في العراق، مناطق زراعية كبيرة مستمرة تعتمد على الأنهار وتسبّب قيام الوحدات الاقتصادية والسياسية الكبيرة، وكانت الوحدات الزراعية في الواحات في العصور القديمة أقرب ما تكون إلى الاستقلال الذاتي في اقتصادها، ولهذه الأسباب تأخر نشوء الحياة الحضرية والحضارة في إيران عن نشوئها في وادي الرافدين، بآستثناء بلاد عيلام بسبب احتكاكها واتصالها بالعراق القديم وقربها منه.

2 ـ عصور ما قبل التاريخ:

قبل أن نتكلم عن الأدوار التأريخية في بلاد إيران نذكر بعض الملاحظات العامة عن مصادرنا الرئيسية، فنذكر على رأسها التحريات والتنقيبات الأثرية في العصر الحديث، منذ منتصف القرن التاسع عشر وهي مستمرة حتى الآن، ومع أن لدى المؤرخ الحديث مصادر مهمة عن تأريخ إيران من غير التحريات الآثارية، إلا أن هذه التحريات قد زوّدتنا بمعلومات مهمة

من أقدم عصور ما قبل التأريخ إلى العهد الساساني وحتى العهد الإسلامي وسنشير إلى نتائج هذه التحريات في أثناء كلامنا على أدوار التأريخ المختلفة. وبالإضافة إلى هذا المصدر الرئيسي فلدى المؤرخ مراجع أخرى أساسية مهمة نشأت من صلات الأقوام الإيرانية بالأقوام الأخرى وأهم كتابات عنهم ما جاء في المصادر اليونانية والرومانية، وعلى رأس ذلك تأريخ هيرودوتس الشهير وهو مصدر مهم ومعاصر للحوادث التي نشأت من جرّاء غزو الفرس الإخمينيين لبلاد اليونان، ويزوّدنا هذا المصدر بعد تطبيق أصول النقد التأريخي عليه بمادة مهمة عن تأريخ إيران في العهد الإخميني والماذي. ومن المصادر المهمة ما جاء في التوراة عن أحوال فارس في العهد الإخميني أيضاً من الصلات المهمة بين اليهود والفرس من بعد فتح كورش لبابل. وتذكر الأخبار الواردة أيضاً في الأفستا (التي هي كتاب الفرس المقدس) وسننوّه باتصال الآشوريين ببلاد إيران وما جاء في كتابات الملوك الآشوريين الفاتحين إذ ورد فيها أول ذكر للأقوام الإيرانية بعد هجرتهم بقليل، واتصل قبل الآشوريين ملوك العراق الأقدمون منذ أقدم عهود التأريخ ببلاد عيلام وذكروا في كتاباتهم أشياء مهمة عن تأريخ العيلاميين على ما سيتّضح ذلك لنا فيما بعد. وننوّه أيضاً بالمصادر الرومانية المهمة ولا سيما عن العهدين الفرثي والساساني حيث نشأت علاقات واسعة أكثرها حربية بين الفرثيين والساسانيين وبين روما وبيزنطية (في العهد الساساني). وزوّدتنا نتائج التنقيبات بالإضافة إلى الآثار المادية والفنية بمصادر مدوّنة معاصرة باللغة العيلامية والفارسية عن تأريخ بلاد عيلام وعن الفرس الإخمينيين والساسانيين. وتكون أخبار المؤرخين العرب موثوق بها نوعاً ما عن العهد الساساني.

لقد أنتجت التحريات الأثرية الحديثة في إيران معرفتنا بآثار العصر الحجري القديم في جملة كهوف في الجبال مثل كهف «تنك - ببدا» (Tang-i-Pabda) في جبال «بختياري» إلى الشمال الشرقي من ششتر[1] حيث

---

(1) كشف عن هذا الكهف حديثاً في عام 1949. انظر: R. Ghirshman, Iran, 27.

عاش الإنسان الصياد واستعمل أدوات الصوان، والأدوات المصنوعة من العظام. وكان الجفاف آخذاً بالازدياد في إيران وجهات الشرق الأدنى الأخرى من بعد العصور الممطرة التي تقابل العصور الجليدية في أوروبا. فأثّر ذلك في استيطان الإنسان حيث انتقل من الجبال ولا سيما الكهوف إلى الوديان والسهول الخصبة.

وكانت الأحوال ملائمة للانقلاب الذي تمّ في العصر الحجري الحديث بتعلم الإنسان الزراعة وتدجين الحيوان، وقد كشف البحث عن أقدم مستوطن في إيران فيه آثار العصر الحجري الحديث في الموضع المسمى «تبه سيالك» في السهل قرب كاشان، جنوب طهران، وهو موضع ظلّ يستوطنه الإنسان في العصور التي أعقبت العصر الحجري الحديث في الأطوار التي أطلقنا عليها اسم العصر الحجري المعدني، كما وجدت آثار العصر الحجري الحديث في تل صغير قرب برسيبوليس وكشف فيه عن آثار العصر المعدني أيضاً التي وجدت في مواضع أخرى من إيران[1] وفي عيلام وسننوّه بهذه الأطوار في عيلام بوجه خاص.

---

(1) يمثل لنا موضع «سيالك» بدوره الأول والثاني والثالث تدرج التقدم الحضاري في عصور ما قبل التأريخ من العصر الحجري الحديث إلى أطوار العصر الحجري المعدني. حول نتائج التحريات في المواضع الأخرى مثل «تبه كيان» في نهاوند و«تبه حصار» قرب دمغان والمواضع الأخرى في لورستان وسـتان انظر المراجع الآتية:

(1) Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), ch.X.

(2) Mc Cown, **The Comparative Stratigraphy of Early Iran** (1942).

(3) Ghirshman, **Fouilles de Sialk** (1938).

(4) Schmidt, **Excavations at tepe Hissar - Museum Journal, XXII** (1933).

(5) Contenau G Ghirshman, **Fouilles du Tepe-Giyan** (1935).

بلاد عيلام والحضارة العيلامية

لقد سبق أن نوّهنا بأن هذا الجزء من بلاد إيران أقدم حضارة وعمراناً من بقية بلاد إيران، فقد ظهرت فيه في عصور ما قبل التأريخ الأطوار التمهيدية إلى نشوء الحضارة الناضجة بتأثير حضارة وادي الرافدين على ما سنبين ذلك عمّا قليل.

لقد سمى السومريون الإقليم الكائن إلى شرق وادي الرافدين الأسفل بمصطلح «نم» (NIM) الذي يعني النجد المرتفع، وسماه الآكديون الساميون في العراق باسم «إيلامتو»[1]. وفي التوراة يبتدىء الاسم بحرف (ع) أي «عيلام»[2]. أما العيلاميون فقد سموا أنفسهم باسم يختلف عن ذلك حيث جاء في المصادر العيلامية المسمارية بهيئة «حاروتي» أو «حافرتي» (Ha-Pir-ti) ويجوز قراءة العلامة الوسطى بلفظ (TAM) ويكون الاسم المحتمل «خاتمتي» (Ha-tam-ti)[3] وسمّت النصوص الفارسية المتأخرة إقليم عيلام باسم (Uvàja)

---

(1) لا يُعلم بوجه التأكيد هل أن هذه الكلمة الآكدية ترجمة للمصطلح السومري أو أنها تعريب أو تصحيف للكلمة السومرية NIM (E) بإبدال النون لاماً ولكن يجوز احتمال اشتقاق الاسم السومري من الاسم السامي «عيلام ـ ايلام». انظر:

Speiser, Mesopotamian Origins, 1930. chap. II.

(2) وتذكر التوراة أن بلاد عيلام سكنها بنو سام وأنها سُمّيت باسم عيلام الابن البكر لسام (سفر التكوين 1 : 22) وأن عيلام أبو قبيلة العيلاميين وأبو الفرس (عزرا 4 : 9).

(3) انظر .Speiser, Ibid., 26

ولعل هذا الاسم مأخوذ من اسم إحدى القبائل العيلامية الكبيرة.

و(Huvàja) ومنه الكلمة العربية «خوز» وخوزي و«حويزة» أي إقليم «خوزستان» وهو بلاد عيلام التأريخية بالضبط ودعا الإغريق بلاد عيلام والعيلامين باسم عاصمتهم الشهيرة «السوس» (سوسا)[1] فسموها «سوسيانه» (أي بلاد سوسا) وورد جزء مهم من بلاد عيلام باسم «إنشان» و«إنزان»، وكان من شهرة هذا الإقليم أن صار في بعض الأزمان القديمة يُطلق على جميع بلاد عيلام[2]، كما كانت هناك مدينة مهمة بالاسم نفسه إلى الشمال الغربي من مدينة السوس، وعلى نهر الكرخا. ولما أخذها ملوك الفرس الإخمينيين من العيلاميين صار من جملة ألقابهم الرسمية «ملك إنشان».

وتُعدّ عيلام، على ما ألمحنا إلى ذلك من قبل، جزءاً من جنوبي وادي الرافدين من ناحية الخصائص الجغرافية ومن الناحية الثقافية حيث التشابه الحضاري الكبير والاتصالات الثقافية منذ عصور ما قبل التأريخ وهي في الواقع لا تبعد عن بلاد سومر أكثر من (100) ميل، وكثيراً ما صارت ولاية تابعة للدول التي قامت في وادي الرافدين كما أنها غزت العراق أكثر من مرة في عهود ضعف الدول القائمة في العراق. كما أن بلاد عيلام كانت واسطة مهمة للاتصال الثقافي بين حضارة وادي الرافدين وبين سائر جهات إيران من جهة وبين الهند والتركستان وحتى الصين.

لقد كشف البحث الحديث عن وجود أطوار ما قبل التأريخ في بلاد عيلام وهي ممثلة في جملة مواضع، ولا سيما في مدينة السوس نفسها حيث وجدت أدوار العصر الحجري المعدني ذي الفخّار الملون الجميل، ووجد ما يضاهي طور العبيد في العراق بما عرف بالدور الأول من سوسة الذي يرى فيه

---

(1) ورد ذكرها في التوراة باسم «شوشان» أو «شوشن»، وتُكتب في المصادر المسمارية (العيلامية والبابلية) بهيئة رمزية بالعلامتين المسماريتين (INANNA-ERIN).

(2) وهكذا ورد اسم «إنشان» وهو يرادف عيلام في الحوادث المؤرخ بها من عهد ملك «أور» «أبي - سين».

(Royal Inscriptions from Ur, Nos. 290, 292).

بعض الباحثين أنه أصل حضارة العبيد في العراق ومهما كان الأمر فالثابت من الوجهة الحضارية أن بلاد عيلام تأثرت أثراً بالغاً في ثقافتها بالحضارة السومرية واشتقت منها عناصر أساسية من الحضارة، وبدأت هذه التأثيرات واضحة أكثر في العهد الذي سميناه في تأريخ العراق باسم «العهد الشبيه بالكتابي»، أي النصف الثاني من طور الوركاء وجمدة نصر، وأول ما يلاحظ من هذه التأثيرات الواضحة اقتباس العيلاميين للخط المسماري، حيث ظهر في عيلام نوع من الكتابة الصورية في عهد جمدة نصر (في حدود 3000 ق.م. على غرار الخط المسماري القديم، وقد سُمّي هذا الخط بالمسماري العيلامي القديم (Proto-Elamite) كما دوّن في عدة مئات من ألواح الطين وجدت في السوس وظل مستعملاً إلى العهد الآكدي، ولكن لا يزال هذا الخط مجهولاً. وقد ترك العيلاميون استعمال هذا الخط القديم في منتصف الألف الثالث، واستعملوا بدلاً منه طريقة من الكتابة المسمارية مشتقة من الخط المسماري في العراق بعد تعديلات وتغييرات لجعله ملائماً لأصوات لغتهم. وتتألف هذه الكتابة الجديدة من نحو (131) علامة مسمارية مقطعية (أي تُستعمل استعمالاً صوتياً بهيئة مقاطع) و(25) علامة كل منها تقوم لكلمة (أي بطريقة الكتابة الرمزية) و(7) علامات دالة، واختصروا في هذا الخط أيضاً مرة أخرى وجعلوه يتألف من (113) علامة، منها (102) علامة مقطعية و(11) علامة للكلمات وعلامات دالة[1].

استوطن بلاد عيلام أقوام لا نعرف عن أصلها أشياء مؤكدة، فهي ليست من الأقوام الإيرانية التي هاجرت إلى إيران في بداية الألف ق.م.، مما سنذكره في تأريخ إيران من بعد العيلاميين. فيكون عهد العيلاميين قد سبق العهد الإيراني أو الآري في بلاد إيران ولعل أصل العيلاميين من المنطقة الجبلية التي تتاخم سهول عيلام في الشمال والشرق، ومن الباحثين من يسمي سكان إيران قبل مجيء الإيرانيين باسم القزوينيين نسبة إلى إقليم بحر قزوين

(1) Gelb, A Study of Writing, 121.

ومنهم الكوتيون واللولوبو والكشيون، وإن اسم هؤلاء الكشيين مثل اشتقاق كلمة قزوين كما أن من الباحثين من يعدّ اللغة الكشية لهجة من اللغة العيلامية، أما هذه اللغة فلا نعلم صلتها بوجه التأكيد بعوائل اللغات البشرية المعروفة ولعلها من جملة اللغات المحكية في جنوب القوقاز، وهي شبيهة بعائلة اللغات القوقازية. وظلّت اللغة العيلامية في الاستعمال زهاء أربعة آلاف عام، وأقدم ما دوّن بها يرجع في عهده إلى بداية الألف الثالث ق.م.، ولعل مفردات وعناصر منها قد دخلت في الاستعمال في وادي الرافدين منذ الألف الرابع. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن الجغرافي العربي الإصطخري (منتصف القرن العاشر للميلاد) يروي أن أهل خوزستان كانوا يتكلمون في زمنه باللسان الخوزي إلى جانب الفارسية، ومصطلح اللغة الخوزية استعمل أيضاً في زمن الفرس الإخمينيين لإطلاقه على اللغة العيلامية. وقد حلّت رموز اللغة العيلامية من النقوش الإخمينية في برسيبوليس وبهستون، وهي النقوش المدوّنة بثلاث لغات (البابلية والعيلامية والفارسية الإخمينية)، والتي كانت مفتاحاً في حلّ رموز الخط المسماري واللغة البابلية أيضاً، على ما بيّنا في كلامنا على تأريخ العراق.

موجز تأريخ بلاد عيلام:

بدأت عيلام منذ بداية الألف الثالث ق.م. تزوّدنا بشيء من المصادر عن تأريخها، وكثرت هذه المصادر في العصور التأريخية المتأخرة، أما في العصور القديمة فمصادرنا المهمة مأخوذة من الكتابات التأريخية في حضارة وادي الرافدين، فندرس من هذه المصادر قيام إمارات وسلالات حكمت في عيلام في منتصف الألف الثالث ق.م.، وامتد سلطانها إلى بعض الأقاليم الجبلية المجاورة وإلى منطقة الخليج وإقليم بوشير. وقد عُثر هنا على كتابة باللغة السومرية يرجّح أنها تعود إلى أحد هؤلاء الأمراء. وقد سبق أن نوّهنا بغزوات الأمراء السومريين لبلاد عيلام، ولعل أقدم إشارة إلى بلاد العيلاميين هي التي جاءتنا من سلالة لجش الأولى من كتابات حاكمها «اياناتم» الذي غزا

عيلام حيث يتبجح في تلقيب نفسه بأنه «غازي عيلام»، الجبل الكثير الأشجار[1]، وتكرّرت الإشارات إلى فتح هذا «الأمير لعيلام»، وكذلك من الأمراء الآخرين من السلالة نفسها، وكلها تشير إلى غزو عيلام، ولكنها لا تذكر لنا شيئاً عن غلبة العيلاميين لبلاد سومر وهو أمر مرجّح ولكن لا ينتظر أن تذكرها أخبار هؤلاء الأمراء، إلّا في إشارة واحدة من أواخر عصر فجر السلالات تسمى العيلاميين «ناهبي لجش»[2].

وتعرضت بلاد عيلام إلى ضغط شديد بقيام السلالة الآكدية القوية في العراق حيث غزاها سرجون الآكدي وأحرز نصراً كاسحاً وضمّ بلاد السوس إلى أمبراطوريته[3]. وظلت عيلام خاضعة لسيطرة الآكديين في عهد «مانشتوسو» بن سرجون ولكنها ثارت في عهد «نرام ـ سين» فأخضعها هذا العاهل القوي بعنف وقسوة، وعين من قبله في مدينة السوس حاكماً شيّد أبنية مهمة فيها. وبلغ من نفوذ حضارة وادي الرافدين في عيلام في العهد الآكدي مبلغاً كبيراً بحيث إن اللغة الآكدية حلّت محل اللغة العيلامية في بلاد عيلام، وسمى كثير من السكان أنفسهم بأسماء سامية. وكان هذا أعظم خطر تعرّضت له عيلام في ثقافتها وقوميتها. ومهما كان الحال فيبدو أن العيلاميين تظاهروا بالركون إلى سياسة الخضوع والطاعة فأفادوا من ذلك إذ حصلوا على رضا فاتحيهم وسلموا من التدمير والتخريب حتى أن «نرام ـ سين» لم يخش من أن يعيّن على بلاد عيلام والياً من العيلاميين أنفسهم خلفاً للحاكم الآكدي الذي عيّنه من قبل. فأستغل هذا الحاكم العيلامي (واسمه بوزر ـ أنشوشناك) ثقة الآكديين وأخذ يبذر بذور الحركة القومية العيلامية حتى صارت النصوص

---

(1) انظر النص في: **Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad,** 32, Col.6, 10 - 12.

(2) ذات المصدر.

(3) وقد سمى سرجون نفسه «ضارب عيلام وبراهسي». وبراهسي أحد أجزاء عيلام المهمة وحّدها الشمالي الغربي.

(Poebel, **Historical Texts,** P.185).

تُكتب في عهده باللغة العيلامية والخط العيلامي القديم إلى جانب اللغة الآكدية، كما اشتهر بأعماله العمرانية البنائية في مدينة السوس، واستطاع أن يفتح جملة أقاليم إلى جهة الشمال واتصل بإقليم الكوتيين (في المنطقة الجبلية شرق الزاب الأسفل) متظاهراً بحماية ولاية عيلام التابعة إلى الدولة الآكدية. ولما مات «نرام ـ سين»، أقوى ملوك السلالة الآكدية، أعلن هذا الوالي العيلامي استقلاله عن السلطة الآكدية، ولم يكتف بذلك بل إنه غزا بلاد الآكديين نفسها في عهد الضعف الذي حلّ بالسلالة الآكدية، ولعله وصل إلى العاصمة «آكد».

ولكن لم يدم هذا الازدهار السياسي زمناً طويلاً في عيلام، إذ إن ضعف السلالة الآكدية من بعد «نرام ـ سين» الذي استغله العيلاميون في انسلاخهم من ربقة السلطة الآكدية قد عرض العيلاميين إلى خطر آخر جاء من الأقوام الجبلية المجاورة للعراق، حيث هجم عليه بعض هؤلاء الأقوام، وبوجه خاص القوم الذين ورد ذكرهم في نصوص العراق القديم باسم «الولوبو» ثم أعقبهم الكوتيون. وكان «اللولوبو» يحتلون إقليماً يمرّ منه الطريق المهم القديم المؤدي من بغداد إلى كرمنشاه وهمدان وطهران. وقد سبق لسرجون الآكدي وحفيده نرام ـ سين أن قاما بغزو هذا الإقليم. وقد ضربهم «نرام ـ سين» بوجه خاص حيث حطم اتحاداً مكوّناً من اللولوبو والكوتيين على أثر معركة كبرى خلد انتصاره فيها في نصب عظيم نقشه في منطقة شهرزور. وكان هؤلاء الجبليون يسيطرون على الطرق التجارية المهمة الواصلة بين سهل وادي الرافدين وبين إيران. ومع أنهم كانوا أعداء العراق القديم إلا أنهم كانوا في أزمان السلم واسطة مهمة للتجارة. وقد وجد لأحد ملوك اللولوبو في جبال «سري بول زوهاب» في هورين شيخان منحوتة بالحجر تضاهي منحوتات نرام ـ سين، وفيها كتابة مشوّهة يظن أن فيها اسم الملك أو الرئيس «تار ـ لوني»[1]، كما خلفوا نقشاً آخر في الجبل المؤدي إلى القرية المسماة الآن «سري ـ بول»

(1) Ghirshman, Iran.

حيث اسم الملك «آنو ـ باتينيني» أمير اللولوبو مع صورته وصورة الإلهة عشتار[1] ويبدو أن الكوتيين الذين قضوا على السلالة الآكدية في العراق قد فرضوا سيطرتهم أيضاً على بلاد عيلام. وبعد طرد الكوتيين من العراق وقيام سلالة أور الثالثة العظيمة وإنشائها أمبراطورية كبرى دخلت بلاد عيلام ضمن هذه الأمبراطورية، وظلت كذلك أكثر من قرن واحد إلى سقوط هذه السلالة التي رأينا أن العيلاميين ساهموا في إسقاطها مع الأموريين حيث نشأت في عيلام سلالة وطنية جديدة، جاءتنا بعض أخبار ملوكها وجملة وثائق تجارية مدوّنة باللغة الآكدية، وتظهر فيها أسماء بعض الآلهة العيلامية، أشهرها الإلهة «شالا» وزوجها «آن شوشناك» كما شاعت عبادة الآلهة البابلية. وقد سبق أن رأينا من تأريخ العراق القديم كيف أن العيلاميين غزوا العراق في نهاية سلالة أور الثالثة وكيف أسّس أحد ملوكهم المسمى «كودر مابك» سلالة لارسه ثم كيف قضى «ريم ـ سين» العيلامي على سلالة ايسن المعاصرة لها ورأينا أيضاً حرب حمورابي لريم ـ سين واندحار هذا الملك العيلامي ففقد العيلاميون استقلالهم ودخلت عيلام ضمن أمبراطورية حمورابي. ولكن استعادت بلاد عيلام استقلالها في نهاية سلالة بابل الأولى وقامت فيها سلالة حاكمة مهمة في العهد الكشي في بلاد بابل، وقد سبق أن رأينا في كلامنا على تأريخ العراق كيف أن العيلاميين هم الذين قضوا على السلالة الكشية في العراق بقيادة ملكهم «شوترك ناخنتي» وأخذوا غنائم مهمة أشهرها المسلة التي نقش فيها حمورابي شريعته المشهورة ومسلة نرام ـ سين، حيث وجدت مثل هذه الآثار في السوس عاصمة عيلام، وقد قام منهم في هذا العهد ملوك أقوياء مثل شوترك نانخنتي المذكور و«كوتر ناخنتي» و«شلهاك آن شوشناك» وقد ازدهرت عيلام في هذا العهد في عمرانها وثقافتها، وفي قوتها السياسية حتى أن الملوك العيلاميين كوّنوا في نهاية العهد الكشي مملكة كبيرة ضمت معظم بلاد إيران. كما نشطت الثقافة الوطنية، حيث انتشر استعمال اللغة العيلامية بالخط

---

(1) Ghirshman, Iran.

العيلامي. ولكن لم يدم هذا العهد زمناً طويلاً إذ حلّ التدهور في عيلام في بداية الألف الأول ق.م.، وقد صادف ذلك قيام ملوك أقوياء في بلاد بابل أشهرهم «نبوخذنصر» الأول الذي حطم جموع العيلاميين واستولى على عاصمتهم السوس، وقد أعاد تمثال مردوخ الذي أخذه العيلاميون سابقاً. ويحدّد لنا هذا العهد فقدان بلاد عيلام لاستقلالها زهاء ثلاثة قرون، وصادف ذلك تعاظم الآشوريين وسيطرتهم على معظم الشرق الأدنى، وبضمن ذلك بلاد عيلام، وقد قاسى العيلاميون كثيراً من ضربات الآشوريين الشديدة، وكانت آخر الضربات القاصمة هي التي وجّهها الملك الآشوري «آشور بانيبال» على بلاد عيلام حيث دمرها ودمر العاصمة وأزال الدولة العيلامية من الوجود ودخلت بلاد عيلام من بعد ذلك تحت سيطرة السلالات الإيرانية الحاكمة كالماذيين والإخمينيين.

مجيء الإيرانيين إلى بلاد إيران والمملكة الماذية

هجرة الإيرانيين:

هجرة الإيرانيين إلى هذه البلاد التي سمّيت باسم «إيران» جزء من هجرة أقوام كبرى بدأت منذ أزمان أقدم من مجيء الإيرانيين إلى إيران، تلك هي الأقوام الهندية ـ الأوروبية. وكانت هذه قبائل كثيرة تتكلم بإحدى لغات العائلة اللغوية الكبيرة المعروفة باسم اللغات الهندية الأوروبية أيضاً، وكانت تعيش في خلال الألف الثالث في الأقسام الجنوبية من روسيا في السهوب الواسعة (سهوب أوراسيا)، حيث كانت تعيش على هيئة مجموعات قبلية، يحكم كل قبيلة رئيس أو ملك ينتخب من الأسر النبيلة، ويساعده في الحكم مجلس شورى من الوجهاء، ومن الرجال المحاربين. ومع أن هذه القبائل كانت تعرف الزراعة إلا أنها كانت متنقلة وأشبه ما تكون بالبدو، وكان شغل هؤلاء الأقوام المفضل «مهنة الحرب» والفروسية، وقد ساعدتهم الخيول والعربات البدائية على الحرب كثيراً.

بدأت هذه القبائل الهندية ـ الأوروبية أو الآرية تهاجر من مواطنها قبيل نهاية الألف الثالث ق.م.، وقد سلكت في هجراتها جهات مختلفة وفي أزمان متعاقبة على هيئة هجرات أو موجات متعاقبة، ففرع كبير منها اتجه غرباً حوالي البحر الأسود وعبر البلقان والبسفور وتوغل في آسيا الصغرى حيث كانت تقطن فيها أقوام آسيوية، وكان من هذا الفرع الحثيون على ما نوّهنا بذلك من قبل، وذهبت قبائل من هذا الفرع منذ منتصف الألف الثاني ق.م. إلى بلاد

اليونان، واستوطنت جماعة أخرى من الآريين في إيطاليا وفي أوروبا. ومن هجرات الأقوام الهندية الأوروبية الكبرى الهجرات التي اتجهت إلى الشرق. ويصحّ أن نسمي هذا الفرع من الأقوام الهندية الأوروبية باسم الفرع «الهندي ـ الإيراني» فقد اتجهت جملة قبائل شرقاً حول قزوين، وعبرت جماعات منها القوقاز وانتشرت بعيداً إلى عطفة الفرات الكبرى، وسكن هؤلاء مع الحوريين، وأقاموا بينهم دولة ميتاني (انظر كلامنا على الحوريين)، ولعل القبائل الكردية من هذه الهجرة، أي من الميتانيين، ولكن الأكراد الآن يتكلمون بإحدى لهجات اللغة الإيرانية القديمة، ومن الفرع الشرقي على ما يرجّح الكشيون الذين أسسوا سلالة حاكمة في العراق. ومن الفرع الشرقي أيضاً جماعات. مهمة اتجهت شرقاً أبعد وعبرت ما وراء النهر وسيحون واجتازت مجازات هندوكوش وغزت الهند (انظر كلامنا عن الحضارة السندية). ودخلت القبائل الإيرانية إلى إيران في مطلع الألف الأول ق.م.، إذ الشائع بين معظم الباحثين أن هذا الفرع من القبائل الآرية قد أخذ بالنزوح والتنقّل في بلاد إيران في بداية الألف الأول ق.م.، وأنه حدثت من جرّاء ذلك تغييرات أساسية في سكان إيران وتأريخها منذ هذا الزمن بمجيء تلك القبائل إليها. ومن الباحثين[1] من يحدّد مهد الآريين بالإقليم المسمى «ايرانويج» (Eränvej) بين سيحون وجيحون في إقليم خوارزم وسمرقند.

ومهما كان الحال فإن القبائل الإيرانية لم تستقر وتتوطن في بداية دخولها إلى بلاد إيران قبل 900 ق.م. وأول إشارة تأريخية مهمة إلى هذا العهد من مجيء الإيرانيين نجدها في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث في عام حكمه السادس عشر والرابع والعشرين (أي عام 843 وعام 835 ق.م) حيث اتصلت الجيوش الآشورية في حملاتها على زجروس بقبائل إيرانية كبيرة ويذكر لنا هذا الملك اسم قبيلتين مهمتين وهما (Amadai)

(1) Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).
..., **Iran in the Ancient East** (1941).

أو (Màda) أي الماذيون (Parsua) أو (Parsa) أي فارس، وكانت هذه لا تزال في تنقلها بين بحيرة أورمية ونجد همدان، وكذلك اتصلت جيوش الملك «شمسي ـ أدد» الخامس[1] و«أدد ـ نراري» الثالث بالأقوام الإيرانية التي كانت بين بحيرة أورمية وهمدان وقزوين. ويصف لنا الملك «تجلاثبليزر» الثالث وخلفاؤه الماذيين بأنهم أشداء، وكانوا قد انتشروا في حدود هذا الزمن بعيداً إلى الجبال التي ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم جبال «بكني» (أي جبال حجر اللازورد) وهي جبال «دماوند» كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وهكذا فيبدو من هذه الإشارات التأريخية المهمة الواردة في أخبار الملوك الآشوريين من القرن التاسع ق.م. أن مجيء الإيرانيين إلى إيران كان في حدود بداية الألف الأول، وأن القبائل الإيرانية الواردة في هذه الأخبار لم تكن قد استقرت في القرن التاسع ق.م.، والاستنتاج المهم الثاني أن أكبر هذه القبائل وأشهرها الماذيون والفرس وكان مجيئهما إلى بلاد إيران في نفس الزمن تقريباً، وبالإمكان تتبع اتجاهات هاتين القبيلتين الكبيرتين في بلاد إيران حتى استقرّت كل منهما في الموطن التأريخي الخاص بها. أما القبائل الفارسية فقد أوغلت بعيداً في اتجاهها جنوباً من نجد همدان وبلغت الأراضي السفلى المتاخمة لكرمنشاه، وسار الماذيون بأثر الفرس واستقروا في إقليم همدان وأوغلت جماعة منهم إلى أصفهان. ويبدو أن اندفاع الفرس أبعد إلى الجهة الجنوبية الغربية وعدم مكثهم في شمال غربي إيران إنما كان بسبب ضغط الآشوريين الشديد والأقوام الأخرى الشديدة المجاورة لإيران ولا سيما الأرمن الذين فرضوا سيطرتهم بعض

---

(1) يذكر شمسي أدد الخامس (823 ـ 810 ق.م) أنه دحر أحد الزعماء الإيرانيين في الإقليم الكائن شمال أورمية وأنه غزا (1200) مدينة من مدنه، والآشوريون يسمون القرى والحصون مدناً.

(Luckenbill, **Ancient Records**, I).

الوقت على إيران ولا سيما إبان ضعف الدولة الآشورية، ولكن انعكس الوضع في عهد تجلاثبليزر الثالث حيث غزا هذه الأقاليم وأخضعها. وبعد سقوط الدولة العيلامية على أيدي الآشوريين في زمن آشور بانيبال انفتح الطريق أمام توغل الفرس أكثر إلى الجهة الجنوبية الغربية، ويبدو أنهم انحازوا إلى العيلاميين في حربهم مع الآشوريين.

الماذيون

استقرت القبائل الماذية، على ما ذكرنا، وراء الحاجز الجبلي بين وادي الرافدين وإيران، وهي الجبال الممتدة من خليج فارس تقريباً إلى بحيرة «وان» بموازاة وادي الرافدين (سلسلة زجروس)، وكان موطنهم في إقليم همدان بمحاذاة بلاد آشور تقريباً، وقد عاش هؤلاء الماذيون منذ القرن التاسع ق.م. وهم خاملون من الناحية السياسية بسبب ضغط الآشوريين وضغط مملكة الأرمن أيضاً، ولكنهم كانوا يقتبسون من الآشوريون فنون السلم والحرب، فاستطاعوا بعد مضي نحو قرنين من الزمان أن يقضوا على الدولة الآشورية (612 ق.م) وتنحصر أخبارنا القليلة عن الماذيين في الإشارات الواردة عنهم في أخبار الملوك الآشوريين الذين سيطروا على بلاد ماذي وألحقوها بالأمبراطورية الآشورية وكذلك تكون أخبارنا قليلة عن العهد الذي أسسوا فيه مملكة قوية إذ لم تجر تنقيبات وتحريات أثرية مهمة في موطنهم كما أنهم لم يخلفوا لنا سجلات خاصة بهم، وتقتصر أخبارنا على الأساطير و«الأفستا» وأخبار هيرودوتس وعلى الأخبار القليلة في المصادر الآشورية. فمن هذه الأخبار ما يذكره تجلاثبليزر الثالث من أنه أخذ من الماذيين 65,000 أسيرٍ وأسكنهم في منطقة ديالى على طوال حدود بلاد آشور وأسكن في محلهم جماعات من الآراميين. ومن الأخبار الطريفة الخاصة بحروب الآشوريين مع مملكة الأرمن ما ورد في أخبار حروب سرجون الثاني الذي كان الميدان الماذي بارزاً في حروبه فقد قاد حملة كبرى ضد ملك الأرمن «روساس» وأخضع جملة رؤساء من حلفائه من الماذيين، من بينهم شخص ورد اسمه

بهيئة «دياكو» (Daikku) وأن سرجون نفاه في عام 715 إلى حماه في سوريا. ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا هو نفس الشخص الذي تقول عنه المآثر إنه أسس الأمبراطورية الماذية[1]. وسمى الآشوريون «اكبتانا»، عاصمة الماذيين، باسم «بيت دياكو». ووجد الماذيون في موطنهم الجديد المعادن المهمة كالنحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والأحجار الكريمة. وعاشوا حياة زراعية. ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن نشوء أول ملك على الماذيين وهو «ديوسيس»[2] فيقول إن الماذيين كانوا يعيشون في قرى وليس لديهم حكومة مركزية، وكان يعيش في إحدى القرى شخص اسمه «ديوسيس» اشتهر برجاحة العقل والعفة والنزاهة في الأحكام مما جعل الناس يلجؤون في الاحتكام إليه من القرى المجاورة، ولما رأى ازدحام الناس عليه امتنع عن الاستمرار قائلاً إنه لا يسعه أن يصرف كل أوقاته في تسوية خصومات الناس فيهمل شؤونه الخاصة وعند ذلك عمّت الفوضى وزال العدل من بين الناس، فاجتمع الماذيون وتكلم المتكلمون منهم (ولعلهم من أصدقاء ديوسيس) وعرضوا عليه أن ينصبّوه ملكاً عليهم، فجرى انتخاب وأحرز الأكثرية «ديوسيس». ولما تمّ له ذلك طلب من الناس أن يبنوا له قصراً، وبعد حين سلك طريق الاستبداد، ولعل ذلك من جرّاء تقليده للملوك الآشوريين. وقد سبق أن نوّهنا بأن المآثر تنسب إلى هذا الملك تأسيس عاصمة الماذيين المشهورة (اكبتانا) (والمرجّح أنها همدان الحالية)، ويعني اسمها (Ecbatana) «ملتقى الطرق الكثيرة». وموضع اكبتانا في وادي خصب نضر وكان يجمل العاصمة قصر ملكي تبلغ مساحته نحو 2/ 3 الميل (بحسب رواية المؤرخ بوليبوس)[3]، وبقيت المدينة عامرة إلى العهد الإخميني والعهد السلوقي، وقد

---

(1) ورد ذكره في تأريخ هيرودوتس بهيئة «ديوسيس» (Deioces - Herodotus, 1, 96 ff.)

(2) ورد ذكره في تأريخ هيرودوتس بهيئة «ديوسيس» (Deioces - Herodotus, 1, 96 ff.)

(3) بوليبيوس مؤرخ من العهد السلوقي (204 ـ 122 ق.م)، فيكون وصفه للمدينة من بعد تأسيسها بزهاء 450 عاماً على ما يرجّح (Polybius, Bk. X, 27).

أما وصف هيرودوتس فهو أقرب إلى الأساطير. راجع أيضاً ما ورد عن اكبتانا في التوراة (سفر عزرا 5: 1 ـ 2).

نهبت إبان فتح الإسكندر لبلاد إيران ولم يبق من خرائبها الآن الشيء الكثير إلا أن أطلالها واسعة، وتقوم المدينة الحديثة (همدان) فوقها، وكثيراً ما يجد الناس في همدان وثائق مكتوبة في خرائب المدينة من عهد السلالة الإخمينية، ولا سيما من عهد دارا[1].

ومن ملوك الماذيين المعروفين «فراورطيس» (Phraortes) الذي يرجّح أنه حكم في حدود (655 ـ 633 ق.م) وأنه خلف «ديوسيس» الذي حكم في حدود 708 ق.م. وقد جرأ «فراورطيس» على الهجوم على بلاد آشور، ولكنه دحر في عام 653 ق.م.[2]. وكان الفرس تابعين إلى الماذيين ولكن بلاد فارس استقلت من بعد هذه الحادثة (في حدود 651 ق.م)، حيث انضم أحد ملوكهم كورش الأول (وهو غير كورش الثاني الأكبر) إلى العيلاميين في إرسال المدد إلى «شمش ـ شوم ـ اوكن» حاكم بابل وأخي «آشور بانيبال» في الحرب التي دارت بين الأخوين. ولكن كورش غيَّر سياسته لما أدرك قوة بلاد آشور الهائلة، فأظهر خضوعه وأرسل جزية مع ابنه إلى نينوى لكسب الصداقة الآشورية وضمان استقلال الفرس.

الاسكيثيون والكميريون:

ومن الحوادث الخطيرة في تأريخ الشرق الأدنى في هذا العهد مما كان لها أثر مباشر في بلاد إيران والماذيين بوجه خاص تنقل الأقوام الشبه همجية وهجراتهم إلى حدود إيران، وهؤلاء هم الاسكيثيون الذين سبق أن ذكرناهم ومعهم «الكميريون» (Cimmerians) وهم أيضاً من القبائل الهندية الأوروبية وقد عبروا مع الاسكيثيين القوقاز في هجرة جديدة في أواخر القرن الثامن مسببين اضطرابات كبرى في الأنحاء الشمالية الغربية من إيران، تلك الأنحاء التي قاست كثيراً من حروب الآشوريين والأرمن والماذيين. كما سبّب هؤلاء

---

(1) Herzfeld, Arch. History of Iran, 27 - 28.

(2) Olmstead, History of Assyria.

الأقوام اضطراباً شديداً في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، وكانت هجرتهم سريعة وعنيفة، وكانوا فرساناً محاربين سريعي الحركة، وقد اندفعوا كحمم البراكين من السفوح الجنوبية من القوقاز. وسبق أن أشرنا إلى أخبار هيرودوتس وما سببوه من الدمار. وورد ذكرهم في المصادر الآشورية باسم (Gimirrai) أي الكميريون[1] والاسكيثيون باسم (Ishkuzai)، وهما اسمان مذكوران في التوراة أيضاً. ويروي هيرودوتس أن الاسكيثيين قد أزاحوا الكميريين، ولكن الواقع التأريخي خلاف ذلك، لأن هذين القومين كانا متحدين تقريباً، كما أن لغتيهما متطابقتان تقريباً، وعاشوا على الغزو والنهب، وقد قاست مملكة الأرمن منهم في عهد الملك الآشوري «سرجون» حتى أن الملك الأرمني «روساس» الأول انتحر من جرّاء تدميرهم لمملكته. وقد توطّن الكميريون في السواحل الجنوبية من البحر الأسود قرب مصب نهر الهليس (قزل ايرمق)، ومن هذا الموطن كانوا يندفعون في غزوهم وتدميرهم أقاليم آسيا الصغرى، وهم الذين حطموا الدولة الفريجية، حتى أن آخر ملوكها ميداس مات منتحراً. ثم حاربهم الملك الآشوري «آشور بانيبال» وهزمهم في المجازات الجبلية الصعبة في كيليكيا، فانتشرت فلولهم واندمجوا مع الاسكيثيين الذين استقروا نوعاً ما في الجهات الجنوبية الشرقية من بحيرة أورمية.

ويبدو أن استيطان الاسكيثيين حول بحيرة أورمية لم يعرقل قيام الدولة الماذية في مبدأ الأمر، فقد تمكّن الملك الماذي «فراورطيس» ـ الذي من ذكره سابقاً ـ من توحيد القبائل الماذية في مملكة واحدة وسّع من حدودها كثيراً، وقد حالف الكميريين وهادن الاسكيثيين ومن بعدها هجم على المملكة الآشورية، كما ذكرنا من قبل، ولكن الاسكيثيين نكثوا عهد حيادهم وكانوا حلفاء للآشوريين، فهاجموه من المؤخرة، وفقد حياته عام (653 ق.م) ويروي هيرودوتس أن الماذيين بقوا تحت نير الاسكيثيين زهاء 28 عاماً (653 ـ 625 ق.م) ووسع الاسكيثيون

(1) ويرجّح كثيراً أن اسم القرم وشبه جزيرة القرم مأخوذ من اسم هؤلاء الأقوام. (Ghirshman, Iran, 97).

من هجماتهم غرباً حتى أنهم خانوا حلفهم مع الآشوريين وانقضوا على تخوم المملكة الآشورية والتحق بهم فلول الفرسان الكميريين الذين دحرهم آشور بانيبال، على ما بيّنا من قبل، وهجموا على آسيا الصغرى وشمالي سوريا وفنيقيا وأحدثوا التدمير فيها. وقبل أن ننهي كلامنا على هؤلاء الاسكيثيين من ناحية علاقتهم ببلاد إيران في هذا العهد ننوّه هنا بالمجموعات الأثرية التي قوامها أدوات حربية بالدرجة الأولى مصنوعة من البرونز، وقد اكتسبت شهرة خاصة في المتاحف العالمية (ويوجد في المتحف العراقي مجموعة منها) حيث تعرف باسم «برونزيات لورستان»، فقد وجد الفلاحون مجموعات من الخناجر والسيوف ورؤوس السهام والفؤوس في منطقة كرمنشاه (أي شمالي لورستان)[1]. إن معظم هذه الأدوات مزخرفة بأطرزة فنية بعضها شبيه بالأطرزة الخاصة بحضارة وادي الرافدين، وقد وجد أكثرها في مقابر لم ينقّب فيها تنقيباً علمياً، وأكثرها خفيفة النقل مما يحمله عادة الفرسان المحاربون المتنقلون، حيث لا أثر لوجود مستوطنات قرب تلك المقابر. فلمن تعود هذه الأدوات؟ الجواب على ذلك بموجب أحدث الآراء العلمية أنها تخصّ جماعات من الفرسان الغزاة المتنقلين، وأن معظمها يرجع في زمنه إلى القرن الثامن أو السابع ق.م. وهي من آثار الاسكيثيين والكميريين في إيران ويؤيد ذلك الاكتشافات الأثرية الجديدة التي وضّحت لنا عهد الغزوات الاسكيثية في إيران وعلاقتهم بالدولة الماذية، ومن هذه الاكتشافات المهمة ما وجده الفلاحون بالصدفة في الموضع المسمى «سكيز» إلى الجنوب من بحيرة أورمية، حيث عثروا على كنز كبير يحتوي على أسلحة وحلي مختلفة المعادن، بعضها ذهبية، ومصنوعة صنعاً دقيقاً فيه أثر من الصناعة الآشورية، ولعلها كنز ملكي يعود إلى الاسكيثيين.

---

(1) انظر أحدث المراجع حول الموضوع في:

(1) Ghirshman, Iran, 99 ff.

(2) H. Frankfort, History of Art and Architecture in the Ancient Orient (1954).

وبعد هذه الملاحظات الضرورية نعود فنوجز أحوال الماذيين فنقول إنه جاء إلى عرش الماذيين من بعد «فراورطيس» السابق الذكر ابنه المسمى «كياخسار» (Uvakshatra) (Cyaxares)، وكان هذا أعظم ملوك الماذيين (633 ـ 584 ق.م)، فبعد أن ظلّ تابعاً للاسكيثيين زمناً قصيراً تمكّن من طردهم[1] كما فرض سيطرته على الفرس. ووجه همه من بعد ذلك للهجوم على الدولة الآشورية بعد الهجوم الفاشل الذي شنّه أبوه. وقد تحالف مع نبوبولاسر الكلداني ويبدو أنه قبل هذا التحالف هجم على نينوى في عام 615، ولكنها قاومت مقاومة عنيفة فتركها ووجّه هجومه على مدينة آشور، وتمّت في أثناء ذلك معاهدة الحلف مع «نبوبولاسر» التي تزوج بموجبها ابنه نبوخذنصر بابنة الملك الماذي المسماة «أميتيس». واستؤنف الهجوم على نينوى التي سقطت في عام 612 ق.م. وتحطّم الجيش الآشوري بقيادة آشور أوبالط في حران عام 610 ق.م. على ما رأينا من قبل، وبذلك أصبحت الدولة الماذية رابع دولة كبرى في الشرق من بعد تحطيم الدولة الآشورية، أما هذه الممالك فهي مملكة مصر، والمملكة البابلية الحديثة وليديا، وقد أصبحت المملكة الماذية في عهد هذا الملك أمبراطورية تشمل بلاد آشور وماذي وفارس ووسعها إلى تخوم آسيا الصغرى. ولكن لم تدم هذه الأمبراطورية زمناً طويلاً من بعد وفاة «كياخسار»، وقد خلفه في الحكم ابنه المسمى «استياجز»[2] الذي كان آخر ملوك الماذيين حيث انتقل الحكم في عهده إلى الفرس على ما سنبين ذلك في كلامنا على الفرس الإخمينيين، ولم يشتهر هذا الملك الماذي الأخير إلّا بالتبذير والإسراف، كما ترك الماذيون الأشداء المتقشفون في عهده حياة الزهد والبطولة، فأنجرف نبلاؤهم أيضاً في حياة الإسراف وهكذا كانت حياة المملكة الماذية قصيرة الأمد فلم تساهم كثيراً في تاريخ الحضارات البشرية، ولكن الماذيين أثروا في الفرس، ولعل الفرس الإخمينيين أخذوا منهم طراز العمارة

(1) ورد ذكره في المصادر البابلية بلقب «أومان ـ مندا» لتغلّبه على الاسكيثيين.

(2) اسمه بالإيرانية القديمة «أرشتيويجا» (Arshtivaiga) أي «رامي الرمح».

الخاص بالعمد، كما يحتمل كثيراً أخذهم من مآثرهم وشرائعهم وديانتهم. هذا ولا نعرف أشياء مهمة عن تنظيم الدولة الماذية، ولعلها اقتبست من تنظيم الدولة الآشورية. وسنتطرق إلى كيفية تغلب كورش الثاني على الملك الماذي «استياجز».



الفصل الرابع والثلاثون

الفرس الإخمينيون ـ الأمبراطورية الإخمينية والإسكندر والعهد السلوقي

السلالة الإخمينية ونشوء الدولة الإخمينية:

لقد تطرقنا فيما مرّ بنا من كلامنا عن هجرة الإيرانيين ومجيئهم إلى بلاد إيران إلى أصل الفرس وعلاقتهم بالماذيين حيث قلنا إن أشهر القبائل الإيرانية التي استوطنت إيران منذ الألف الأول ق.م. هما القبيلتان الماذية والفارسية وإن زمن استيطانهما كان واحداً تقريباً، ورأينا أيضاً أين كان موطن الماذيين في بلاد إيران، وموطن القبيلة الفارسية حيث قلنا إنها استقرّت في ذلك الجزء من إيران الذي عُرف باسم بلاد فارس أي الجزء الجنوبي الغربي من بلاد إيران المحادد لخليج فارس، حيث صار مركز الأمبراطورية التي كوّنها كورش واشتهر هذا الموطن بمدنه الشهيرة مثل برسيبوليس وبزرگاده. وكان الفرس في وطنهم هذا يجاورون العيلاميين في سفوح جبال البختيارية قرب كارون، وكانت عيلام ضعيفة فلم تستطع التدخل في استيطان القبائل الفارسية في جزء من مملكتها، ولا يمكننا البت هل اعترف الفرس بسلطان العيلاميين، ومهما كان الأمر فإنهم أقاموا في هذا الإقليم مملكتهم الصغيرة، وظلت تتدرج في النمو فتارة تكون خاضعة كولاية للماذيين وأخرى مستقلة. وساعد انشغال العيلاميين بدفاعهم إزاء الهجمات الآشورية المميتة وبعدهم نوعاً ما عن مركز الدولة الماذية على تدرج كيان الفرس السياسي. وقبل أن يظهر فيهم الملك كورش الأكبر (في حدود 558 ق.م) بأكثر من قرن واحد، حكم الفرس في موطنهم بعض الملوك أو الرؤساء وكانوا إما مستقلين أو تابعين للماذيين. فأول

هؤلاء الملك المسمى في تأريخ هيرودوتس «تسبيس» (Teispes) وبالفارسية (Chishpish) (675 ـ 640 ق.م) شخص اسمه «هاخمانيش»، وهو رأس السلالة الإخمينية الحاكمة. وقد لقّب نفسه بملك «إنشان» ويروي هيرودوتس أن هذا الملك مع استقلاله عن العيلاميين اضطر إلى الاعتراف (عام 670 ق.م) بسيادة الماذيين في عهد ملكهم «فراورطيس» الذي سبق أن رأيناه يقوم بهجوم فاشل على بلاد آشور، مات من جرّائه (653 ق.م). وبموت هذا وبغزو الاسكيثيين لبلاد ماذي، على ما رأينا من قبل، تقوّى مركز الملك الفارسي، وبعد موته قُسّمت مملكته بين ولديه «أريارامنيس» (Ariaramnes) (640 ـ 590 ق.م) الذي لقب نفسه «الملك العظيم، ملك الملوك ملك بلاد فرسا»[1]، والابن الثاني كورش الأول (640 ـ 600 ق.م) (Kurash). ونسمع من أخبار آشور بانيبال في حروبه مع العيلاميين التي دمر بها مملكتهم اسم «كوراش» (وهو كورش المذكور) وأنه سلّم ابنه الأكبر إلى الدولة الآشورية المنتصرة رمز ولائه لها. ولكن لم يتمتع هذان الملكان الأخوان باستقلالهما في مملكتهما زمناً طويلاً إذ تبوأ عرش المملكة الماذية «كياخسار» الذي مرّ بنا في كلامنا عن الدولة الماذية والذي رأيناه يحطّم الدولة الآشورية، ففرض السيادة على مملكة الفرس. وصار ملوكها تابعين للملك الماذي. وقد خلف في فارس الملك الذي ذكرناه باسم «أريارامنيس» ابنه المسمى «أرساميس» (Arsames) الذي وجد له أيضاً لوح ذهبي مكتوب في همدان (اكبتانا القديمة). ولم يحكم هذا زمناً طويلاً حيث اضطره على ما يرجّح قمبيز الأول ابن كورش الأول إلى التخلي عن الملك، ولعل ذلك تمّ بموافقة الماذيين. وقد تزوج قمبيز هذا من ابنة الملك الماذي «استياجز» الذي خلف «كياخسار» وكان قمبيز

(1) اكتشفت بطريق الصدفة في همدان لوحة من الذهب منقوشة بالخط المسماري الإخميني وباللغة الفارسية القديمة بألقاب هذا الملك، ولعل هذه الوثيقة (إن صحّت أصالتها) أقدم مآثر السلالة الإخمينية المدونة. حيث بدأ قبيل زمن هذا الملك تدوين اللغة الوطنية الفارسية بكتابة مسمارية خاصة بالفرس الإخمينيين.

تابعاً لاستياجز. والذي لا شك فيه أن هذا الزواج عظّم من مكانة السلالة الإخمينية. وجاء من هذا الزواج ابن اشتهر في تأريخ الفرس، فقد كان هذا الولد «كورش» الأكبر الذي أسّس الأمبراطورية الإخمينية.

كورش الأكبر (558 ـ 530 ق.م)

استغل كورش حفيد استياجز من ابنته مركزه فأخذ يقوّي نفسه، وأسس عاصمة جديدة هي «بزرگاده» التي سنذكرها في موضع آخر، وأخذ يدبر أمر انفصاله واستقلاله عن الماذيين وكان يحكم في بلاد بابل الملك «نبونهيد» الذي أعدّ الخطط للاستيلاء على بعض الأقاليم التابعة لمملكة ماذي، ولا سيما حران، فدارت مفاوضات سرية بين نبونهيد وبين كورش ليكونا حليفين، وكان الحلف لا شك موجهاً ضد «استياجز» الذي شمّ رائحة المؤامرة من تابعه وقريبه فاستدعاه إلى العاصمة «اكبتانا»، فرفض كورش الامتثال للأمر، فلم ير الملك الماذي بدّاً من شن الحرب على كورش، ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن هذه الحرب فيبدو أن استياجز عيّن كبير قواده «هرباخوس» لحرب كورش، ولكن هذا انحاز إلى جانب كورش بناء على خطة واتفاق مدبرين بسبب الظلم الفادح الذي أوقعه استياجز بقائده سابقاً ثم قاد استياجز جيشاً آخر بنفسه لما تقدم كورش من العاصمة اكبتانا لأخذها، فدارت معركة مريرة دحر فيها جيش الملك الماذي ووقع أسيراً بيد كورش، ولكن هذا أحسن معاملته، بسبب صلة القربى معه. وهكذا صفا الجو لكورش، فاتخذ «اكبتانا» عاصمة المملكة المتحدة، وفتح عهداً جديداً في تأريخ إيران حيث اتحد الفرس والماذيون، ولم يمض طويل عهد على كورش حتى أسس أمبراطورية عظمى على ما سنوجزه بعد قليل.

وقبل أن نفعل ذلك نروي الرواية الطريفة التي ساقها هيرودوتس عن علاقة كورش باستياجز ونهاية حكم هذا الملك بسبب طغيانه وظلمه، ونحن

نرويها ملخصة على علاتها لطرافتها، ولأنها نموذج ممثل لطريقة هيرودوتس في عرض جانب من تأريخه[1].

قرّر الملك استياجز ألا يزوج ابنته (مندانة) من أحد الأمراء الماذيين لحلم رآه (وفحواه أنه رأى مجرى ماء يخرج من ابنته ويغمر عاصمته وجميع آسيا فعبّره له الكهنة المجوس بأن ولداً من ابنته سيأخذ منه الملك)، فزوجها إلى رجل من الأسر الشريفة في فارس اسمه قمبيز، إذ لم يكن في ذلك خطر لأن الفرس كانوا دون الماذيين مرتبة. ولكن استياجز رأى حلماً آخر كأن كرمة نمت من رحم ابنته وظللت جميع آسيا، فأرسل خلف ابنته وأحضرها إلى عاصمته وكانت لا تزال حاملاً، ووضع عليها حراسة شديدة، عيّن عليها «هرباخوس» أحد نبلاء مملكته، آمراً إياه أن يقضي على طفل ابنته. ولما جاء الطفل رقّ له «هرباخوس» وتهيّب من قتل طفل بريء، وخاف أيضاً من انتقام ابنة الملك لو حكمت من بعد أبيها الذي لم يكن له ولد. فأودع الطفل إلى أحد رعاته ليتولى قتله فلا يقع عليه وزر ولا تأنيب. ولما أخذ الراعي الطفل ـ وقد عرف حقيقته ـ إلى زوجته رقّت له وتوسلت زوجها أن يبقي عليه وأن يأخذ بدلاً منه ولدها الرضيع الذي ولد ميتاً فيضعه في مكان جبلي موحش ويدّعي أنه حفيد الملك. ففعل هذا بموجب ذلك وعاد بعد بضعة أيام إلى «هرباخوس» وأخبره بتنفيذ أوامره، فأرسل هذا جماعة جلبت جثة الطفل ودفن دفناً رسمياً باعتباره ابن بنت الملك. وهكذا سلم كورش (وكان هذا هو اسمه الذي سمّاه به الراعي) وعاش في بيت الراعي، ولما بلغ عشر سنين اكتشف جده حقيقته بصدفة عجيبة طريفة، ذلك أن أتراب كورش من الصبيان انتخبوه في اللعب ملكاً عليهم فأخذ يحكمهم ويوزع الأوامر عليهم فأطاعوه إلّا صبياً هو ابن أحد الأشراف المسمى «ارتمباريس» فعاقبه كورش بجلده، فشكى ذلك لأبيه الذي اغتاظ جداً وبلغ الملك بذلك فلما أحضر الصبي كورش بحضرة الملك وسأل عن فعلته أجاب جواباً ينمّ عن رجاحة عقله وكرم محتده (كما

(1) Herodotus, I 107 ff.

يقول هيرودوتس) ولاحظ استياجز على ملامح الصبي شبهاً به وبأمه وكان سنه ينطبق مع سن حفيده الذي حكم عليه بالموت، وبعد استجواب «هرباخوس» اعترف بأنه لم يقتل الطفل بيده وإنما سلمه إلى أحد رعاته الذي اعترف بدوره بواقع الحال، وعندها لم يبد الملك غضبه وإنما أظهر السرور لنجاة الطفل وأمر هرباخوس بأن يحضر ابنه ليشارك كورش الصبي في لعبه، وأولم الملك وليمة دعا إليها وجهاء مملكته احتفالاً بهذه المناسبة، فلما جلسوا إلى الطعام وضِع إلى جانب هرباخوس سفط مغطى، وبعد أن أكل من اللحم الذي أمامه وشبع أمره الملك أن يكشف عن السفط فإذا به يشاهد منظراً تقشعر له الأبدان، إذ وجد فيه رأس ابنه ويديه ورجليه مطبوخة بهيئة طعام فأدرك «هرباخوس» التعس أنه أكل من لحم ابنه، فلم يجزع وتجلّد حتى أنه لما سأله الملك هل عرف أي نوع من اللحوم قد أكل أجابه أنه يعرف ذلك حقاً. وبعدها استفسر الملك من الكهنة عمّا إذا كان لا يزال حفيده الطفل خطراً عليه فأجابوه بزوال الخطر، فسر الملك وأرسل الصبي إلى أمه وأبيه في فارس فسرّا به بعد أن كانا يحسبانه من الأموات. فنما كورش وبلغ مبلغ الرجال وصار أحزم وأشجع رجال قومه، أما هرباخوس فقد أضمر حقداً قاتلاً للملك فعزم على الانتقام واستغل تذمر الماذيين من ظلم «استياجز» وطموح كورش في أخذ الاستقلال لعشيرته عن سيادة الماذيين، وأخذ يحيك الدسائس والمؤامرات واتصل بكورش سراً مخبراً إياه بأن نبلاء الماذيين معه. ولما أرسل استياجز الجيش لتأديب كورش وكان قائد الجيش «هرباخوس» نفسه انحاز بجيشه إلى جانب كورش ثم حلّ به المصير الذي ذكرناه سابقاً، وبذلك أصبح كورش في عام 550 ملكاً على مملكة ماذي وفارس المتحدة.

لقد كوّن كورش من بعد ضمّه بلاد ماذي في زمن جيل واحد أمبراطورية معظمة شملت معظم العالم القديم المعروف، ممتدة من الهند إلى البلاد الإيجية وإلى البحر العربي، وبفتح قمبيز لمصر وبفتوح دارا اتسعت هذه الأمبراطورية فكانت أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم، وبعد توطيد كورش لمملكته في فارس وسّع حدودها إلى آسيا الصغرى فقضى على مملكة ليديا،

واستولى على عاصمتها «ساردیس» عام (547 ـ 546 ق.م) في عهد ملكها قارون (كروسوس) على ما رأينا في كلامنا على المملكة الليدية وباستيلائه على مملكة ماذي ورث حقها في الأجزاء التابعة لها في بلاد ما بين النهرين، كما أن توسع آخر ملوك البابليين «نبونهيد» في سوريا واستيلائه على حران جعل نقض الحلف بين كورش وبين الملك البابلي أمراً لا بدّ منه، ولذلك صمّم كورش على تصفية الحساب مع بابل، وبعد غزوات قام بها في الأنحاء الشرقية من إيران ضد القبائل الإيرانية وصل بها إلى بلاد الصغد وسيحون وجيحون عاد فوجّه حملته إلى بلاد بابل، وفتح بابل نفسها (في عام 538) على ما بيّنا في كلامنا عن العراق القديم في الجزء الأول، وبذلك أنهى كورش آخر الممالك السامية وأنهى حكم الساميين في الشرق القديم الذي سادوا فيه عدة آلاف من السنين. واشتهر كورش بتساهله وسياسته الحكيمة ومقدرته الفذة في الإدارة والتنظيم فكان في الواقع من أعاظم الملوك في التأريخ، وقد اشتهر بكرمه وتساهله إزاء حتى أعدائه الذين حاربوه، ونستشهد من ذلك بحادثة قارون الطريفة التي رويناها عن هيرودوتس في معاملته لقارون ومعاملته للبلدان المفتوحة، والمثال على ذلك بلاد بابل، فكان معتدلاً في الفتح متحاشياً لتخريب المدن وذبح السكان. وقد مات في إحدى غزواته البعيدة ضد قبائل «الساجا» البربرية الشديدة عبر سيحون وجيحون.

خلف كورش في الحكم ابنه الأكبر «قمبيز» (530 ـ 522 ق.م)، وكان هذا قاسياً غريب الأطوار، وقد أشركه أبوه في الحكم في خلال الثماني سنوات الأخيرة من حكمه فكان يلقب بملك بابل، وكان لكورش ابن ثان هو «بارديا» (Bardia)[1] أودع إليه أبوه إدارة الأقاليم الشرقية من الأمبراطورية. ولما تبوأ قمبيز العرش بدأت الاضطرابات الناشئة عن المؤامرات التي يرجّح اشتراك «بارديا» فيها فاتهمه أخوه، ودبر أمر اغتياله، مما جعل الإغريق يلقّبونه بالطاغية. ومع أن قمبيز اشتهر بغزو مصر إلا أن الواقع أن أباه هو الذي وضع

(1) واسمه في المصادر اليونانية «سميرديس» (Smerdis).

خطة الفتح ووكل أمر تهيئة الحملة إلى ابنه في حياته، فبعد أن وطّد الأمور داخل مملكته قاد الحملة إلى وادي النيل. فالتجأ آخر فراعنة مصر المسمى «أماسيس» إلى عقد حلف مع أحد الحكام الطغاة في الجزر اليونانية وهو «بوليفراط» القوي صاحب جزيرة «ساموس»، ولكن هذا تخلى عنه لما كان الجيش الفارسي في غزة، والتحق أعظم قائد يوناني كان في خدمة الفرعون بجيش الفرس مفشياً لهم أسرار الدفاع المصرية. لقد عبر قمبيز صحراء سيناء بمساعدة البدو ووصل إلى مدينة رفح (Pelusium) فلاقى هناك «بسماتيك» الثالث الذي خلف أباه «أماسيس»، حيث مات لحسن حظه قبل وصول الجيش الفارسي. وكان مع الجيش المصري جيش من الإغريق المرتزقة، وبعد معركة شديدة تقهقر الجيش المصري إلى «منفس»، فسقطت المدينة بيد الفرس، ووقع الفرعون أسيراً فأرسل إلى «سوسة». وسلك قمبيز في مبدأ الأمر الاعتدال فاحترم الآلهة المصرية، وعين موظفاً مصرياً كبيراً على إدارة القطر، وأمر بإجراء بعض الإصلاحات. وأعد قمبيز من بعد ذلك الخطط لثلاث حملات حربية أخرى لمد السلطان الفارسي على قرطاجة التي كانت تسيطر على سواحل البحر المتوسط الغربية، وأخرى على واحة «أمون» الموغلة في بادية طرابلس للسيطرة على الطريق المؤدية إلى ليبيا، والثالثة ضد الحبشة. أما الحملة المعدة على قرطاجة فلم تنفذ بسبب رفض الفينيقيين بالسماح لأسطولهم في غزو أقربائهم القرطاجيين. وتروي لنا المصادر اليونانية أن جيشاً قوامه (50,000) أخفق في إحراز نتيجة مهمة في واحة أمون بسبب الزوابع الرملية المخيفة، ومع ذلك فقد خضع إغريق ليبيا وقورينا وبرقة إلى سلطان الفرس. أما حملة الحبشة وقد قادها الملك بنفسه فلا تعلم نتيجتها بوجه التأكيد، ولكن المصادر الإغريقية، ولعلها متأثرة بالروايات المصرية[1]، تقول إنها أخفقت، وإن الجيش قاسى من نقص المؤن وفقد الكثير من قواه في أثناء رجوعه. ولعل الأنباء السيئة عن الثورة التي قامت في إيران في أثناء غياب قمبيز قد وافته وهو

---

(1) لقد اعتمدنا في تلخيص هذه الحوادث على المرجع السهل المتناول Ghirshman, Iran, 136 ff.

في أثناء تقهقره إلى مصر فاضطر إلى الإسراع وأخذ طريق مختصر عبر الصحراء مما سبّب الكارثة في جيشه ومهما كان الحال فإن قمبيز أول فاتح توغل في جميع مصر، وإنه عين لحكمها ثلاث حاميات. وهناك روايات متضاربة عن بقاء قمبيز القصير في «منفس» بعد رجوعه من الحملة الحبشية. فيؤخذ من المصادر الإغريقية أن قمبيز تخلى عن سياسة التساهل الديني التي تحلّى بها أبوه، فحقّر ديانة المصريين وخرب معابدهم وقتل العجل المقدس أبيس في منفس، وهذه أعمال طيش وتهور بالنسبة إلى سياسي إزاء المصريين المشهورين بتمسكهم بآلهتهم ولذلك فسرت المصادر المصرية سلوك قمبيز بنوع من الجنة واضطراب العقل. وفيما هو في طريق عودته إلى بلاده أكّدت له الأنباء وهو في فلسطين أنباء الثورة التي قام بها الدعي «گوماتا» (Gaumata) المجوسي الذي كان يشبه أخاه «بارديا» أو «سميرديس» الذي قتله، فادّعى هذا بالعرش وأعلن نفسه ملكاً (عام 522 ق.م). فقبلت الولايات جميعاً تقريباً هذا الملك الدعي، الذي دارى الجماهير بأن أعفاهم من الضرائب ثلاث سنوات ولا يعلم مصير قمبيز في أثناء عودته، هل انتحر عمداً أو أنه جرح نفسه في أثناء نوبة الصرع التي انتابته، ولا يعلم أين مات في بابل أو في دمشق أو في اكبتانا. وعلى كل فقد رجع الجيش وظل موالياً للسلالة الإخمينية حيث انحاز إلى النبلاء السبعة الذين تآمروا على الدعي بزعامة «دارا» بن «هستابس» (Hystaspes)، وإلى ولاية بلاد الفرثيين ولعل هؤلاء النبلاء اتفقوا منذ البداية على تنصيب دارا ملكاً إذا نجحوا ولكن المآثر(كما جاءت في هيرودوتس) تقول إن هؤلاء الثائرين اتفقوا على تنصيب أحدهم ملكاً عليهم بطريق اقتراع طريف هو تتويج من يصيح فرسه أول الكل من بعيد غياب الشمس، فكان أول الأفراس فرس دارا.

دارا الأول (522 ـ 486 ق.م):

لقد كان دارا سريعاً قديراً في التغلب على الدعي، فقد استطاع أن يقضي عليه ولم يمض على موت قمبيز أكثر من شهرين، وقد أسر «كوماتا»

وقتل. ومع ذلك فلم يستتب الأمر لدارا إلا من بعد عامين قضاهما في إخماد الثورات التي نشبت في أنحاء الأمبراطورية للانسلاخ من السيطرة الفارسية، وكان على دارا في الواقع أن يعيد فتح ولايات الأمبراطورية من جديد بالإضافة إلى تغلبه على الثورات الداخلية. وبعد عناء أعيدت الولايات ومنها مصر وبلاد سوريا وليديا وبلاد السوس وماذي وأرمينيا، وبلاد آشور وبلاد بابل. وكانت ثورة بابل شديدة وكلف إخضاع الولاية ثمناً غالياً فقد ظهر شخص اسمه «ندنتو ـ بيل» ادعى أنه متحدّر من نبونهيد وأعلن نفسه ملكاً على بلاد بابل باسم نبوخذنصر الثالث[1]، ولاقى الجيش مصاعب في الاقتراب من العاصمة، حيث وضع هذا الملك جيشاً قوياً وأسطولاً على ضفة دجلة الغربي، وبعد هجوم مباغت عبر دارا النهر ثم وصل إلى بابل وحاصرها، وفيما كان في الحصار بلغته الأنباء بثورة ثانية في بلاد السوس، فاضطر إلى إرسال جزء من جيشه المحاصر لبابل لإخماد هذه الثورة. وقد قاومت المدينة، ويبالغ لنا هيرودوتس بمدة حصارها حيث يقول إنها قاومت عامين، ولكن ذلك مبالغة، وتشير ألواح الطين المؤرخة بحكم الثائر البابلي إلى أن المدينة استسلمت في الشهر الحادي عشر من حكمه (كانون الثاني ـ شباط 521 ق.م) حيث اعترف بدارا ملكاً على بابل، وبقي دارا بضعة أشهر في بابل قتل فيها «ندنتو ـ بيل» ويروى أنه صلب زهاء ثلاثة آلاف رجل من وجهائها.

لقد سجل لنا دارا انتصاراته وتغلبه على هذه الثورات العنيفة في الداخل والخارج في المنحوتات الجبلية المشهورة المطلة على الطريق بين كرمنشاه وهمدان (بهستون)، حيث نشاهد هذا الملك وفوقه يحميه الإله «اهورا مزدا» الذي يخرج رأسه وكتفاه من شكل قرص الشمس المجنح (وهو شعار شبيه بشعار الإله آشور) وقد وضع قدمه على جسم الثائر الدعي (كوماتا) وخلفه

(1) لا تعلم حقيقة هذا الادعاء، ويخبرنا دارا في الأخبار التي دوّنها في نقش بهستون الشهير أن هذا كان دعياً خدع البابليين، ومهما كان الأمر فقد التف حوله البابليون وقد جاءتنا منه رقم طين مؤرخة بحكمه (من تشرين الأول إلى كانون الثاني وشباط عام 522 ق.م).

ثمانية ملوك أدعياء مربوطون بالحبال. ودوّن حول هذه المشاهد بالفارسية القديمة والبابلية والعيلامية أخبار دارا في إخماد الثورات بعون الإله «اهورا مزدا». وقد علّمت هذه الثورات والاضطرابات العنيفة الملك الشاب درساً في وجوب إعادة تنظيم الأمبراطورية وتحوير سياسة التساهل التي سار عليها كورش، ووضع إدارة الأمبراطورية على أسس أوطد وأثبت ومع ذلك فلم يركن دارا إلى العنف، وإنما اتخذ سبل السياسية الحكيمة الحازمة في ضبط الأقاليم التابعة، التي سمح بها بالمحافظة على كيانها الثقافي من اللغة والنظم الخاصة بها. وقسمت الأمبراطورية الواسعة إلى عشرين ولاية كل ولاية يحكمها وال فارسي (Satrap) (هو «المحافظ على المملكة»)، وكان هؤلاء الولاة يختارون من النبلاء الفرس وحتى من أسرة العائلة المالكة، وكان هؤلاء مسؤولين مباشرة إلى الملك. وسنعود إلى ذكر أشياء أخرى عن نظام الإدارة بعد انتهائنا من إيجاز الحوادث السياسية، وننهي كلامنا على دارا في هذا الموضع بذكر بعض الحملات التي وجهها إلى الجهات الشرقية ولا سيما ضد الاسكيثيين في جنوب روسيا حيث عبر البسفور والدانوب إلى «الفولغا»، ووجه حملة عسكرية أيضاً عبر أفغانستان إلى وادي نهر السند. وننوّه أيضاً باصطدام الفرس في عهد دارا باليونان على أثر ثورة الأيونيين، ثم إرسال الحملة المشهورة ضد أثينا التي أحرزت انتصارها الباهر العجيب في موقعة «مراثون» الشهيرة (490) مما سنكرر الكلام عليها في بحثنا الخاص باليونان فلا حاجة لتفصيل القول فيها في هذا الموضع. وانشغل دارا بثورة قامت في مصر فلم يستطع استئناف الحرب مع اليونان. ومات «دارا» (عام 486 ق.م) ولم يشاهد تحقيق سحق اليونان ولا إخماد الثورة في مصر.

خلفاء دارا

يُعدّ حكم دارا أوج قوة الفرس الإخمينيين وأعلى ما بلغته الأمبراطورية الفارسية في الإدارة والتنظيم والتماسك، كما أنه يمثّل لنا أوج الثقافة الفارسية الإخمينية.

وخلف دارا في الحكم «أحشويرش» الأول (Xerxes) (486 ـ 465 ق.م) الذي عيّنه دارا نفسه خلفاً له، واعتلى العرش الفارسي بعد أن كان نائباً للملك على بابل طوال اثني عشر عاماً. وكان أول عمل أنجزه لما تبوأ العرش إخماد الثورة التي نشبت في مصر في عهد أبيه، وقد قضى عليها بقسوة وعنف، وسلك سبيل العنف نفسه في بابل التي حاولت الاستقلال أيضاً وثارت على السلطة الفارسية. وقد ظهر في هذه الثورة جملة أشخاص في بابل جاءتنا من بعضهم وثائق مؤرخة بحكمهم مثل «بيل ـ شماني» و«شمش ـ أريا». وقد بلغ من غضب احشويرش أنه بعد أن قضى على مقاومة الثائرين خرب مدينة بابل، ولا سيما حصونها ومعابدها، ونهب تمثالاً من الذهب للإله مردوخ وصهره (على ما يروي لنا هيرودوتس) حيث خرب معبد ايساكلا الشهير والزقورة. وبلغ التدمير مبلغاً حيث يروى أن الإسكندر لما فتح بابل حاول تعمير المعابد ولكنه وجد أن ذلك يكلفه عملاً كبيراً. وتخلى احشويرش من بعد قضائه على ثورة بابل عن اللقب المأثور الذي أوجده كورش وهو «ملك بابل»، واقتصر على لقب «ملك الفرس والماذيين». فيبدو أن ثقة ملوك السلالة الإخمينية منذ احشويرش بل من عهد دارا قد انحصرت في الفرس واعتبرت الأقاليم الأخرى مجرد رعايا تابعين. وكان احشويرش في الواقع أميل إلى حياة ترف البلاط وتشييد القصور منه إلى الحرب، ولكنّه لم ير بدّاً من استئناف الحرب بضغط الجماعات التي كانت تريد الحرب ولا سيما حرب اليونان. فسار احشويرش على رأس جيش عرمرم مصمماً على جعل الهجوم بالبر لا بالبحر فبنى له الفينيقيون جسراً على مضيق البسفور عبرت عليه جيوشه (وقد استغرق ذلك طوال سبعة أيام متوالية)، فسار من تساليا ومقدونيا دون أن يلاقي مقاومة تذكر، كما خضعت بلاد الإغريق الشمالية، فوصل الجيش إلى مجاز ثرموبيلي الشهير حيث وجد مقاومة بطولية على يد جيش صغير من اليونان بقيادة ملك إسبارطة، واستولى الجيش على أثينا حيث هجر سكان أتيكة مواطنهم، ولكن الأمر لم ينته فقد أحرز الإغريق النصر بأسطولهم الذي حطم الأسطول الفارسي في سلاميس (840 ق.م)، ومع أن الجيش الفارسي

البري لم يتأثر بهذه الموقعة إلا أن تحطيم الأسطول الفارسي قد أثر في أعصاب احشويرش لعله بسبب خوفه من التفاف الأسطول اليوناني عليه فتقهقر مع الجيش البري تاركاً بلاد الإغريق.

لقد كان أثر هذا الاندحار على يد دويلة تكاد لا تُقارن بالنسبة إلى ضخامة الأمبراطورية الفارسية أثراً بالغاً في الإخمينيين عدا التكاليف الجسيمة في المال والمعدات، كما أن احشويرش يئس من استئناف الحرب، وشغل نفسه في التعمير في العواصم الفارسية مثل برسيبوليس (اصطخر) والسوس حيث أكمل الأبنية التي لم يكملها أبوه. ومما يقال عن هذا الملك أنه يكاد يكون آخر الملوك الأقوياء في السلالة الإخمينية على الرغم من أنه صرف حيويته في حياة الدعة والملذات والمسرات. وبدأت السلالة الحاكمة تنهار في معنوياتها، فالواقع أن الأمبراطورية التي وضع أسسها كورش وأعادها دارا لم تدم أكثر من قرنين، وبدأت أمارات الانهيار تظهر منذ أواخر حكم احشويرش حيث ساد الانحطاط والعنف والاغتيالات ومؤامرات نساء القصر، وعمّت حياة الخنوثة والملذات بين الطبقات الأرستقراطية التي كانت في الواقع تقوم عليها إدارة الأمبراطورية وانتهت حياة احشويرش (465 ق.م) بأن اغتاله أحد حجّاب القصر ولا شك في أن يكون وراء ذلك مؤامرات نساء القصر. واستتبع اغتياله موجة من الاغتيال تشبه ما ساد بين أباطرة الرومان المتأخرين.

وخلف احشويرش ابنه «ارتحشستا» الأول (Artaxerxes) (465 ـ 424 ق.م) وكان ضعيف الشخصية، وقد بدأ حكمه بثورة قام بها أخوه والي بلاد البخت، فأخمدت هذه الثورة وأعقب ذلك قتله لجميع إخوته. وثارت مصر بمساعدة أثينا التي كانت تحتاج إلى غلات مصر لتعذر الحصول عليها عبر البسفور بسبب سيطرة الفرس. وفشلت الحملة الفارسية الأولى في إخماد الثورة، ولكن مدداً عظيماً مكّن الجيش الفارسي من إخمادها ومن التغلب على الأسطول الأثيني في الدلتا. وخسرت فارس في عهده نفوذها في آسيا الصغرى في فشلها في حملة حربية وجهتها على اليونان بعد أن أغرت إسبارطة بالذهب

لتكون ضد أثينا، ولكن «سيمون» الزعيم الأثيني أفلح في إبرام اتفاق مع إسبارطة، فواجه اليونان متحدين جيش الأمبراطورية الفارسية وتمّت التسوية بتنازل الملك الفارسي عن المدن الأيونية في آسيا الصغرى وجعل نهر الهليس (قزل ايرمق) الحد بين نفوذ الأمبراطورية الفارسية وبين اليونان. وكان هذا انخذالاً للفرس، ولكن الفرس التجؤوا مرة أخرى إلى إرشاء الدول اليونانية لإضرام الحرب بين أثينا وإسبارطة.

سار أرتحششتا في بابل على سياسة أبيه، مع نوع من التساهل في حرية العبادة إزاء البابليين، ولكنه شجّع استيطان الفرس في بلاد بابل ومن بينهم طبقة كهنة المجوس وصارت إدارة الولاية مقتصرة على الفرس كما أنه أقطع الأراضي للفرس وفرضت الضرائب الباهظة على السكان مما جعلهم متحفزين لأية إشارة إلى الثورة. ومما يجدر التنويه به عن عهد أرتحششتا الأول ما سبق أن ذكرناه عن رجوع جماعة أخرى من اليهود إلى فلسطين بعد الرجوع الأول في عهد كورش. فقد سمح الفارسي لعزرا أن يعود إلى أورشليم مع (1500) يهودي، ولكن نشب نزاع بين هؤلاء العائدين وبين اليهود الذين في فلسطين مما جعل الملك الفارسي يتدخل في الأمر فيرسل ساقيه «نحميا» اليهودي لتهدئة الوضع هناك، وسمح لليهود بإعادة كيانهم وإعادة بناء المدينة في 445 ق.م. كما اعترف بالكاهن الأعلى حاكماً على أورشليم ويهوذا وتابعاً للملك الفارسي.

لقد ساءت الأوضاع في عهد خليفة أرتحششتا الأول المسمى احشويرش الثاني (424 ق.م) الذي اغتيل بعد زمن قليل من اعتلائه العرش من جانب أخيه من أبيه، وقتل هذا بدوره على يد دارا الثاني (424 ـ 404 ق.م) الذي عمّ في عهده الفساد والمؤامرات، وبذرت الأموال الفارسية على التدخل في الحروب الأثنية الإسبارطية، وآل الأمر بعد ثورة الوالي الفارسي في «سارديس» إلى التحالف بين إسبارطة وفارس، حيث أعلن دارا الثاني الحرب على أثينا. وعمّت الثورات في جهات أخرى، في بلاد ماذي وفي مصر وأثمر التدخل الفارسي في الحرب البيلوبونيزية استسلام أثينا لإسبارطة.

زينفون وحملة العشرة آلاف إغريقي:

لقد خلّف دارا الثاني ابنه أرتحششتا الثاني (404 ـ 359 ق.م) وقد بدأ حكمه بمحاولة فاشلة لأخيه المسمى «كورش» الأصغر لاغتياله بطعنة خنجر في أثناء الاحتفال بالتتويج في المعبد الذي في «بزر گاده»، ولكن نجا كورش من العقاب بتوسلات أمه وتضرعها، وكانت هذه تساند ابنها كورش لأخذ العرش من الوريث الشرعي، فنجحت في إصدار العفو عنه وإعادته أيضاً إلى حاكمية ولاية آسيا الصغرى، وقيادة الجيوش الفارسية هناك، ولم يمض زمن طويل على بقاء كورش الأصغر في مقر ولايته حتى جدّد العصيان والثورة على أخيه لاغتصاب العرش فقاد جيشاً من آسيا الصغرى وألحق به جيشاً من الإغريق المرتزقة اشتهروا بحملة العشرة آلاف، المقترنة باسم زينفون الذي قاد الإغريق في تقهقرهم من العراق بعد مقتل كورش في الموقعة التي جرت قرب بابل، حيث نازل كورش أخاه بنفسه وجرحه ولكنه قضى عليه بضربة رمح قوية، فانهزمت جموعه. أما الإغريق فكانوا في جناح كورش الأيمن معتصمين بالفرات، ولكن قائدهم لم يترك موضعه فيساعد كورش في محنته. يؤلف سير هذه الحملة ورجوع الإغريق إلى بلاد اليونان أخباراً طريفة مهمة جاءتنا مدوّنة في كتاب زينفون[1] الذي رافق الحملة وكان جندياً بسيطاً ثم صار قائداً للإغريق في أثناء رجوعهم، ولأخبار هذه الحملة أهمية خاصة في الجغرافيا التأريخية للشرق وفي وصف جوانب مهمة لأحوال العراق والأقطار المجاورة، فنوجزها على الوجه الآتي:

بدأت حملة كورش من «ساردیس» (عاصمة ليديا سابقاً) فاجتاز بجيشه ممر كيليكيا (ويسمى الآن كولاك بوغاز) المؤدي من هضبة الأناضول إلى سهل كيليكيا باتجاه البحر، ثم وصل إلى طرسوس المشهورة عند اليونان بالنسيج المصنوع من شعر المعز، وسلك كورش من بعد طرسوس الممر المعروف

---

(1) انظر: Xenophon, Anabasis: The Expedition of Cyrus The Younger.

بالمجاز السوري الذي يجتاز جبال أمانوس باتجاه أنطاكية وحلب، ثم مرّ من مدينة «أيسوس» الشهيرة التي جرت فيها الموقعة بين دارا والإسكندر من بعد مائة عام. ويذكر لنا زينفون مدينة باسم «مرياندوس» يرجّح أن تكون قريبة من الإسكندرونة. وتوجد فترة في قصة زينفون من بعد مرياندوس لم نسمع فيها شيئاً سوى مسيرة الجيش سيراً متصلاً زهاء أربعة أيام، ثم يذكر لنا من بعد اجتياز الجيش حلب نهرا يسميه «خالسيس» وهو نهر «الباليخ». ثم عبر الفرات من موضع مشهور باسم «ثبساكوس» وسار على الشاطىء الأيسر من الفرات حتى بلغ الخابور (الذي يدعوه زينفون باسم أراكوس). وبعد مدة من اجتياز هذا النهر يصف لنا زينفون «البادية العربية» وصفاً ممتعاً ذاكراً حيوانات الصيد فيها كالحمر الوحشية والأيل والحبارى والنعام، ثم يصف لنا ما حلّ بالجيش من قلة الطعام والمؤن وما قاسوه من صعوبة سير العربات في الوحل. ويصل الجيش أخيراً إلى موقع شمالي الرمادي بنحو خمسين ميلاً ذكره زينفون باسم «الأبواب»،ولا يعلم موضع هذا الممر، كما أن الجيش تاه من بعده مدة أسبوعين، ثم يدخل الجيش بلاد بابل ويلاقي كورش الأصغر جيوش أخيه الملك أرتحشتا الثاني في موضع يرجّح أن يكون قرب طريق الحلة ـ بغداد الآن ولا يبعد عن المسيب كثيراً، وهو الموضع الذي سمّاه زينفون «كوناكسه».

وبعد مقتل كورش سمح للإغريق بالتراجع وكانت عودتهم إلى بلادهم محفوفة بالأخطار وتعدّ ظاهرة عجيبة لا سيما وهم يبعدون بمسافة أكثر من ألف ميل عن أقرب موضع لموطنهم ويجهلون البلاد المعادية، وليس لهم أدلاء. وقد عدل قائد الإغريق عن سلوك نفس الطريق الذي جاء منه كورش فسار بالإغريق شرقاً إلى دجلة ماراً من عقرقوف (على ما يرجّح) ثم اجتازوا السور المادي الذي بناه نبوخذنصر ووصلوا إلى دجلة قرب موضع سمّاه زينفون باسم «ستاسه»، وعبروا النهر من جسر، ثم ساروا شمالاً إلى موضع يتّصل فيه دجلة بأحد روافده الذي سماه زينفون «فسكوس» وهو نهر العظيم، كما تمهلوا قليلاً في مدينة «أوبس». وحدث للإغريق نكبة، تلك هي أن القائد

الفارسي «تسافيرنوس»، الذي كلف أمر مراقبة الإغريق حتى يتركوا حدود المملكة الفارسية قد اقترح على قائد الإغريق «كليرخوس» عقد مؤتمر حضره قواد الإغريق، ولكن القائد الفارسي قتلهم جميعاً. وعند ذلك انتخب الجند قائداً جديداً لهم هو «زينفون» الشهير الذي دوّن لنا أخبار الحملة، على ما بيّنا من قبل. وتابع الإغريق سيرهم من بعد تلك الحادثة. ويذكر لنا زينفون موضعين هما «كينه» و«لارسه» ولعلهما العاصمتان الآشوريتان آشور ونمرود، ثم خاضوا نهر الزاب الأعلى من بعد ذلك ويسمي لنا زينفون موضعاً هو «مسبلا» أي الموصل على ما يرجّح[1]، ومع أن الجيش كان يسير في الجانب الشرقي من النهر فإن زينفون لم يذكر «نينوى». التي لا شك أن يكون قد سار على أنقاضها بدون أن يميّزها، مع أنه لم يكن مضى على سقوطها أكثر من مائتي عام. ولما وصل الجيش منطقة زاخو يذكر لنا زينفون قوم «الكردوجي» (أي الأكراد) ويصفهم بأنهم قوم محاربون أشداء يعيشون في الجبال «ولا يطيعون الملك»، ثم ساروا إلى جزيرة ابن عمر ودخلوا في الأراضي التركية وواصلوا سيرهم حتى وصلوا في النهاية إلى البحر الأسود فصرخوا من شدة فرحهم «البحر! البحر!»، وعانق بعضهم بعضاً وعيونهم مغرورقة بالدموع.

وننهي كلامنا عن عهد «أرتحششتا» الثاني بذكر بعض الأمور الأخرى المهمة في سير تأريخ الأمبراطورية الفارسية، ومن ذلك استمرار تدخل الملك في إرشاء المدن الإغريقية ولا سيما إسبارطة وأثينا إحداهما ضد الأخرى وبلغ إنهاك قوى هاتين المدينتين أنهما قبلتا بمعاهدة الصلح والسلم الذي اقترحه الملك مما عرف باسم «سلام الملك»، وأصبحت معظم المدن الإيونية تحت سيطرة الفرس. ولكن هذا النصر الدبلوماسي قابلته نكبات وقعت للمملكة الفارسية بسبب ثورات الولاة الذين اتحد عدد منهم وألفوا اتحاداً صار يسكّ النقود المشتركة باسمه، وهو امتياز كان محصوراً بيد الملك، كما استقلت مصر مما حرم الخزانة الملكية من موارد مهمة، وكادت الأمبراطورية تنهار

---

(1) لعلها محرّفة عن الكلمة الآشورية «مشفالو» (بضم الميم وسكون الشين) التي تعني العمق.

لولا أن خلصها النزاع الداخلي في الولايات نفسها وخيانة الولاة بعضهم بعضاً واغتيالهم بعضهم بعضاً، فتمكن الجيش الفارسي بقيادة الملك نفسه من إعادة الأمور إلى نصابها مؤقتاً، وقد مات الملك (وقد حكم زهاء نصف قرن) ولا تزال الاضطرابات تسود معظم جهات الأمبراطورية وداخل المملكة أيضاً. وخلفه في الحكم أرتحششتا الثالث، وكان قاسياً شديداً، ولكنه على شيء من الرجاحة والحنكة السياسية. وكان أول شيء فعله لما تبوأ العرش هو قتل جميع إخوته وأخواته، وقد بلغ عددهم العشرات. ثم وجّه همه لإخماد بعض الثورات واستعادة مصر، ولكنه فشل في ذلك، وقد تحالفت صيدا مع مصر وثارت على سلطان الفرس، فدمرها هذا الملك تدميراً وحشياً حيث أحرقها مع ألوف من سكانها في أنقاض البيوت، وأرسل بعدئذ حملة جديدة على مصر نجحت في إرجاعها إلى حظيرة الأمبراطورية الفارسية. وهكذا فيبدو أن الأمبراطورية استعيدت إلى أيام ازدهارها في عهد دارا الأول، ولكن المؤامرات لم تنته من البلاط الفارسي فقد مات هذا الملك القوي مسموماً وبموته طعنت المملكة الفارسية طعنة نجلاء لم تبرأ منها، في الوقت الذي ظهرت إلى الوجود دولة قوية في مقدونيا هي مملكة فيلب أبي الإسكندر الكبير، حيث كان يعدّ العدة لغزو آسيا، مما سنقصّ خبر ذلك في كلامنا على الإسكندر والسلوقيين. أما عن أحوال العرش الفارسي فقد سم ابن أرتحششتا الثالث ونصّب مكانه قريب منه هو دارا الثالث الملقب بلقب «كودومانوس» (Codomannus) وكان من الممكن لهذا الملك الشجاع أن يخلص المملكة الفارسية لو لم تواجهه مملكة مقدونية وقد اتحد معها الإغريق، بقيادة قائد محنك يُعدّ فلتة في العبقرية الحربية هو الإسكندر الذي قضى على السلالة الإخمينية وعلى الأمبراطورية معها وهو موضوع أجلناه إلى بحثنا عن الإسكندر.

شيء عن الحضارة والنظم الخاصة بالفرس الإخمينيين:

يتضح مما مرّ بنا من عرض أحوال الدولة الفارسية الإخمينية أن الفرس أسسوا أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم، وأن حكم السلالة الإخمينية دام

زهاء قرنين من الزمان (550 ـ 331 ق.م)، حكم فيها ابتداءً من كورش الكبير أحد عشر ملكاً تفرّد منهم جملة ملوك امتازوا بحسن الإدارة والتنظيم والحنكة السياسية وعلى رأسهم كورش ودارا الأول حيث كان الأول مؤسس الأمبراطورية واضطلع الثاني بتنظيمها. ولقد دخلت في هذه الأمبراطورية التي شملت الشرق القديم وآسيا الصغرى وجزءاً من العالم اليوناني أقوام وشعوب متحضرة، وعلى مستوى من الثقافة أعلى مما كان عليه الإيرانيون أنفسهم، مثل بلاد بابل وآشور ومصر وآسيا الصغرى والمدن الإغريقية وبلاد الشام، وهي مراكز حضارية ذات مآثر عريقة في العمران والمدنية فاستفاد الفرس منها في بناء أمبراطوريتهم وتنشئة ثقافتهم. كما شملت هذه الأمبراطورية أقواماً بعضها متأخر في مضمار الحضارة وبعضها لا يزال في طور البربرية. فتمازجت الثقافات القديمة، وانتشرت الحضارة مدى أبعد، ثم إن الأمبراطورية الإخمينية قد مهّدت السبيل لتحقيق النتائج الثقافية لفتوح الإسكندر، كما أن الإسكندر نفسه قد اتخذ الأمبراطورية الفارسية مثالاً احتذاه في تكوين أمبراطوريته وتنظيمها. واصطبغ السلوقيون بالصبغة الشرقية الفارسية، والواقع أن سلالة السلوقيين الحاكمة نصفها إيراني لأن سلوقس تزوج من «افامة» (Apama) الإيرانية. وقد يصحّ، كما جرى على ذلك بعض المؤرخين[1] أن نعدّ تأريخ الإسكندر امتداداً لتأريخ الأمبراطورية الفارسية، وقد سرنا في موجزنا على الأسلوب نفسه. والثقافة الهلنستية نفسها ليست سوى نتائج التقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم. وإذا قارنا الأمبراطورية الإخمينية بالأمبراطورية الرومانية وجدنا بينهما فروقاً جوهرية، فالأمبراطورية الرومانية، على ما سنرى في بحث الرومان، كانت نتيجة توسع تدريجي بطيء استغرق عدّة قرون، ولكن الإيرانيين أنشؤوا فجأة مملكة في فارس كانت ضئيلة الشأن ثم وسع هذه المملكة ملك واحد هو كورش وجعلها أمبراطورية واسعة، ومما لا شك فيه أن أبرز عامل في نشوء الأمبراطورية الفارسية

---

(1) Legacy of Persia, P.7.

نشوءاً سريعاً هو أن دول العالم القديم كانت في أدوار ضعفها وتدهورها، كالدولة البابلية والمصرية ومملكة ليديا، وقد سبق لأعظم أمبراطورية في الشرق وهي الأمبراطورية الآشورية أن تمزّقت قبل قيام كورش بنحو ستين عاماً فخلا الجو للفرس لغزو مراكز الحضارات القديمة. ومن الاختلافات المهمة أن الأمبراطورية الرومانية نظام في الحكم نشأ وتطور ولم يكن مجرد توسع مملكة صغيرة وضمّها شعوباً إلى سيادتها. ولعل دخول الأقاليم ذات التراث الحضاري قد جعل الأمبراطورية الفارسية تختلف عن الأمبراطورية الرومانية من حيث استطاعة هذه الأمبراطورية أن تجعل الشعوب التابعة تتمثل بالرومان وتتأثر بالثقافة الرومانية أثراً بعيداً، في حين أن الفرس تركوا الثقافات القديمة تحافظ على أنفسها، وصرفوا همهم إلى توطيد الإدارة وتماسك الأمبراطورية.

ومع ذلك فقد نظمت الأمبراطورية الفارسية تنظيماً ناجحاً بحيث إنها بقيت متماسكة طوال قرنين من الزمان تحت سلطان السلالة الإخمينية التي لم تكن قبل كورش سوى حكام محليين خاملين في إقليم ناءٍ في بلاد فارس. هذا وقد سبق أن نوّهنا باستفادة الإخمينيين من تراث نظام الإدارة عند الآشوريين، ولكن الإخمينيين حسّنوا في الطريقة الآشورية بل إنهم بدلوها. فقد كانت الأقاليم التابعة إلى الآشوريين ممالك كبرى لا يربطها بالآشوريين سوى دفع الجزية والاعتراف بالسيادة الآشورية، في حين أن كورش قسّم أمبراطوريته إلى عشرين ولاية يحكم كلاً منها والٍ تابع إلى الملك الفارسي ويعينه من النبلاء الفرس، ووطّد دارا تنظيم الأمبراطورية وأقامها على أسس أثبت. وقد حافظ على عدد الولايات البالغ عشرين ولاية تشمل الأقاليم والممالك الآتية:

(1) مصر.

(2) فلسطين.

(3) بلاد سوريا.

(4) فينيقيا.

(5) ليديا.

(6) فريجية.

(7) أيونية (المدن اليونانية في سواحل الأناضول الغربية).

(8) كبدوكية.

(9) كليكيا.

(10) أرمينيا.

(11) بلاد بابل وآشور.

(12) بلاد ماذي.

(13) فارس.

(14) إقليم القوقاز.

(15) إقليم أفغانستان وبلوجستان.

(16) الهند.

(17) بلاد الصغد.

(18) بلاد البخت.

(19) ولاية مساغيتا.

(20) ولاية تضم بعض القبائل التركمانية في أواسط آسيا.

وكان الملك يعيّن لكل ولاية حاكماً يعني بالفارسية القديمة «محافظ المملكة»[1] وكانت ولاية هذا المحافظ في الواقع مملكة كبرى، وكان لمعظم الولايات كيان سياسي عظيم، فكان الوالي ملكاً ذا نفوذ كبير، ولذلك حق

---

(1) وقد جاءنا هذا الاسم عن اليونان بصيغة (Satrap) والولاية (Satrapy) من الكلمة الفارسية القديمة «خشاثرابوان» (Khshathrapavan).

للملك الفارسي أن يلقّب نفسه بملك الملوك. ومن الناحية الثانية كان الوالي بسبب هذا النفوذ مصدر خطر جسيم على الملك الفارسي إذا حاول الاستقلال بولايته أو إذا جعلت وظيفته وراثية على ما رأينا في الأخطار التي تعرّض لها عرش الملك الفارسي بسبب ثورات الولايات. ولذلك وضع كورش نظاماً خاصاً حسّنه دارا هو تعيين قائد لجيوش الولاية يكون تابعاً للملك مباشرة ومستقلاً عن حاكم الولاية كما كان سكرتير الولاية والموظف المالي الأكبر مرتبطين بالملك رأساً. وإلى هؤلاء كان للملك موظفون خاصون يرسلهم لتفتيش شؤون الولاية كل عام تقريباً مثل «عين الملك» و«رسول الملك» و«أذن الملك»[1]. وقد سبق أن نوّهنا بأن هؤلاء الولاة كانوا من الأسر الفارسية النبيلة. والذي مكّن الملك من زيادة سيطرته على هؤلاء الولاة ما أنشأه دارا من نظام الطرق الملكية والبريد المنظم بين مراكز تلك الولايات وبين العاصمة. ولعل أهم واجبات محافظ الولاية، بالإضافة إلى الإدارة ومسك الولاية، جمع الضرائب نقداً أو عيناً. وكانت جميع الولايات خاضعة إلى مثل هذه الضرائب باستثناء ولاية فارس التي كانت معفاة منها لكونها مهد السلالة الحاكمة.

وكانت ولاية الهند على رأس الولايات في مقدار خراجها السنوي حيث كانت تدفع إلى خزانة «ملك الملوك» 4680 وزنة[2] ويأتي بعدها العراق (ولاية بابل وبلاد آشور) ومقدار جبايتها (1000) وزنة ثم مصر ومقدار جبايتها 700 وكيليكيا 360 وزنة وسوريا (وبضمن ذلك فلسطين) 350 وزنة وولايات آسيا الصغرى الأربع (1760) وزنة. وإلى هذه الجباية السنوية كان يترتب على كل ولاية أن تزود الملك بالمؤن والاحتياجات بحسب طاقة كل ولاية. فكان على ولاية مصر مثلاً أن تزود كل عام حبوباً تكفي لـ 120,000 شخص وكانت بلاد

(1) Olmstead, The History of the Persian Empire, 59.

(2) أي وزنة (Talent) من الفضة أو النقد، وقد سبق تعريف الوزنة وهي «بلتو» البابلية التي كانت تساوي 60 مناً والمنا 60 شيقلاً (والمنا نحو رطل إنجليزي أو نصف كيلو غرام).

ماذي ترسل كل عام 100,000 رأس من الغنم وبلاد الأرمن 30,000 طير.
وبالإضافة إلى هذه المصادر من الثروة كان الملوك يحصلون على ثروات معدنية وثروات من مورد النقود المسكوكة، ولكي تكون لنا فكرة عن ثروة الخزانة الملكية نقول: إن بعض الباحثين قدّر ما وجده الإسكندر في خزائن دارا الثالث نحو (180,000) وزنة من النقود المسكوكة (وبتقدير الدولارات الأمريكية زهاء 2,700,000,000 دولار)[1] هذا مع العلم بأن دارا الثالث أخذ معه في هزيمته نحو (8000) وزنة وبعد مضي زهاء مائة عام من التبذير الهائل، وما صرف على الثورات والحروب، وقد رأينا فيما سبق كيف أن الملوك الفرس بعد فشلهم في إخضاع اليونان بالحرب أخضعوهم بطريق الرشوة بالذهب. ومما ساعد على تنظيم الأمبراطورية وتماسكها اتخاذ النقود المسكوكة في عهد دارا الأول[2]، ونظام الطرق والبريد، واتخاذ الآرامية والخط الآرامي إلى جانب الخط المسماري الفارسي واسطة للتعامل التجاري.
ومع عدم انتظام الطرق البحرية والملاحة إلا أن الطرق البرية المهمة التي أنشأها الإخمينيون والاستفادة من الطرق القديمة قد ربطت أجزاء الأمبراطورية، ولا سيما ربط العراق بمصر وسوريا والأناضول وبلاد العرب وبلاد فارس، وكانت تسير في هذه الطرق المنتظمة وسائل المواصلات السريعة، وقد اشتهر الفرس عند اليونان بهذه السرعة في البريد، كما اصطلحوا عبارة «طريق الملك» على ما جاء في هيرودوتس. وكان بريد الملك يسير في تلك الطرق المتشعبة من العاصمة «سوسة» إلى أقصى أجزاء الأمبراطورية. وهو يحمل أوامر الملك إلى ولاته وقواده، ويزوّده بالتقارير السريعة. وينبغي

---

(1) Will Durant, The Story of Civilization, 363.

(2) أخذ الإغريق والفرس من ليديا النقود المسكوكة، وكذلك استعملت الأوزان الخاصة بالنقود التي هي من أصل بابلي مثل «المنا» والشيقل (ودعوه Siglos) و«رؤوس عشتار» (التي استعملت في عهد سنحاريب وتزن كل قطعة نصف شيقل) وسموها (Stater) وكانت هذه وحدة العملة في ليديا (وتساوي 217 حبة) وقسمت إلى أثلاث وأسداس وجزء من اثني عشر جزءاً الخ مما يدلّ أن أجزاء النقود قد اتّخذت على أساس نظام العدد البابلي.

أن ننوّه بأهمية الجيش في المحافظة على مسك أجزاء الأمبراطورية الواسعة، وكان الجيش الأساسي صغيراً قوامه النبلاء وتابعوهم من الفرس تحت قيادة القواد الأكفّاء، وقد سبق أن رأينا كيف أن الملك نفسه كثيراً ما كان يتولى القيادة العامة بنفسه. ويساعد الجيش الفارسي الأساسي جيوش الولايات التابعة.

كان اليونان يلقبون الملك الفارسي بلقب «الملك العظيم» (Basileus) ولعل ذلك ترجمة اللقب الفارسي «ملك الملوك». ومع أن الملك الفارسي كان في الواقع قمة الهرم المكوّن منه المجتمع الفارسي ويمثّل الحكم الأتوقراطي إلا أن سلطانه لم يكن مطلقاً كل الإطلاق، وإنما كان مقيداً نوعاً ما بالعرف والمآثر والتقاليد المرعية في بلاد فارس، فكانت معظم الأوامر والإرادات التي يصدرها إنما تصدر عن «الملك وهو في مجلس شوراه».

2 ـ عواصم الفرس الإخمينيين:

اتخذ مؤسسو الدولة الإخمينية جملة مدن شهيرة معظمها كان من المدن القديمة الشهيرة لتكون عواصم للدولة الجديدة، والأغلب أن أكثر من عاصمة واحدة كانت تتّخذ مركزاً للأمبراطورية في آن واحد. فقد انتخب كورش مدينة سوسة، العاصمة العيلامية الشهيرة، لتكون مركز إدارته حينما كان حاكم «انشان» في عهد تبعيته للماذيين ثم اتخذ «اكبتانا» العاصمة الماذية الشهيرة حينما قضى على الدولة الماذية، كما اتخذ بابل أيضاً بعد فتحها عام 538 ق.م. وقد اعتاد كورش أن يمكث في كل من هذه العواصم فترة من الزمن. ثم شيّد مدينة جديدة هي «بزركاده» أو «بسركاده»[1] (بالكاف الفارسية) لتكون رمز العهد الجديد الذي ساد فيه الفرس. وتقول المآثر إن كورش شيّدها في

---

(1) (Pasargadae) وتقع إلى شمال برسيبوليس (إصطخر) بحوالي (50) ميلاً وقد عينت حديثاً بالخرائب المسماة «مشهدي مرغاب» (بضم الميم وتسكين الراء). ويرى الباحثون في معنى اسمها (Parsagad) أنه يعني «مخيم الفرس».

موضع المعركة الحاسمة التي انتصر فيها على «استياجز» آخر ملوك الماذيين، ولا يعلم زمن تأسيسها، وإنما يقع بين 559 و550 ق.م.[1] وتشير خرائبها إلى أنها كانت على هيئة مخيم واسع يحيط بها سور تقوم في وسطه القصور والمعابد مع البساتين والحدائق، ووضعت في المداخل الثيران المجنّحة على الطراز الآشوري، ولا يزال يقوم في باب الحجرة الشمالية زوج من نوع الملاك الحارس المجّنح. وشيّد فيها معبد للنار بهيئة برج مشيد من الحجر، وهو يشبه المعبد الذي يقوم أمام قبر دارا في «نقش ـ رستم».

أما مدينة السوس فهي أشهر المدن وأقدمها في بلاد إيران وقد سبق أن ذكرنا أنها كانت عاصمة بلاد عيلام الشهيرة، وقد اتخذها كورش مقراً له، ثم عمر فيها دارا وبنى قصراً له بعد تعميره في مدينة بابل. والسوس من ناحية صلاح موقعها بالنسبة إلى أجزاء الأمبراطورية تأتي بعد بابل، ولكنها تفضل العواصم الفارسية الأخرى وهي اكبتانا وبزركاده وبرسيبوليس وقد سكن دارا في بابل في قصر نبوخذنصر في الجزء الشمالي من المدينة، حيث وجدت له مسلة من الديوريت منقوشة باللغة البابلية[2] ثم بنى في بابل بعدئذ قصراً جديداً خاصاً به موقعه غرب قصر نبوبولاسر، وقد بناه على الطراز البابلي الخاص بقاعات الأعمدة مما يعرف بمصطلح (Appadanna) (أي قاعة الاجتماع) تقليداً لطراز العمارة في قصر نبوخذنصر، واستعمل الآجر المزين المزخرف بالمينا[3] على غرار نقوش باب عشتار. ولكن دارا لم يقتنع بواحدة من العواصم القديمة التي لا تمثل العهد الجديد ولا تليق بضخامة الأمبراطورية التي أعاد تأسيسها، فأقدم على تأسيس عاصمة جديدة في موطن قومه الفرس فاختار الموضع الذي

---

(1) وجدت كتابة في خرائب المدينة منقوشة بثلاث لغات. بالفارسية والبابلية والعيلامية نصها: «أنا كورش الملك، الإخميني» ـ وهي ألقاب يؤخذ منها أن عهدها يرجع إلى الزمن الذي كان فيه كورش لا يزال تابعاً إلى الماذيين.

(2) Koldewey, Excavation at Babylon (1914), 166.

(3) Koldewey, ibid, 127.

شيّد فيه العاصمة التي سماها اليونان باسم «برسيبوليس» (أي مدينة الفرس)، وهي «إصطخرا» (Stakhra) (أي الحصن)، التي صارت أصل مدينة اصطخر الشهيرة. بدأ دارا بناء المدينة في عام 520 ق.م. ولم يكمل بناؤها إلّا في عهد أرتحشستا الأول في حدود 460 ق.م. وقد أمدّتنا نتائج التنقيبات التي قام بها المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو) بنماذج مهمة عن الفن الفارسي القديم بمختلف نواحيه، كالعمارة[1] والنحت والنقوش، كما وجدت فيها وثائق مهمة دوّنت بالخط العيلامي وكانت برسيبوليس هي التي أقام فيها الإسكندر وليمة شرب ثم أحرقها. وإذا كانت «بزركاده» مدينة فارسية صرفة فإن برسيبوليس مدينة خليطة في عماراتها وفنها وزينتها ويوجد فيها عناصر من فن حضارة وادي الرافدين على المحنا.

3 ـ الديانة:

قبل أن تتوطد الديانة الزرادشتية التي تدور على عبادة الإلٰه «أهورامزدا» في زمن دارا الأول كان الفرس وثنيين مشركين مثل القبائل الهندية الأوروبية الأخرى ويعبدون قوى الطبيعة المختلفة التي جسّموها وشخصوها على هيئة آلهة، فعبدوا الشمس بهيئة إلٰه سمّوه «مثرا» والقمر باسم (ماه)[2] والأرض باسم «زام» (Zam) والنار باسم «أتار» (Atar) والماء باسم «أفام نفت» (Apam Napat) والريح باسم «وهيو» (Vahyu). ومع أن دارا والملكين اللذين أعقباه لا يذكرون في كتاباتهم اسم أي إله آخر مع «أهورامزدا» ولكن الواقع أن ما ندرسه من كتابات هؤلاء الملوك إنما هو ديانة الدولة الرسمية وليس ديانة

---

(1) حول نتائج التنقيبات في برسيبوليس والفن الفارسي من العمارة والنحت انظر المراجع الآتية:

(1) Herzfeld, **Iran in the Ancient East** (1941).

(2) Ghirshman, **Iran** (1954) 165 ff.

(3) G.G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablets** (1948).

(4) **Erich F. Schmidt, the Treasury of Persepolis and Other Discoveries** (1939), **Persepolis** (1951).

(2) (Mah) وهو اسم القمر في اللغات الهندية الأوروبية (قارن الإنجليزية والكردية).

الجماهير التي ظلت محتفظة بعبادات الآلهة القديمة على الرغم من اتخاذ الملوك عبادة أهورامزدا الموحدة، ولكن أضيفت إلى أهورامزدا أسماء آلهة أخرى منذ زمن «أرتحششتا» الثاني ولا سيما الإله الشمس «مثرا»، المقرون بأنه إله العدل[1] والخلاص، وهو من الآلهة الإيرانية القديمة، والإلهة الشهيرة «أناهيتا» (Anahita) إلهة المياه والخصب والإنتاج، التي توجد في صفاتها وعبادتها آثار من عناصر غير إيرانية، وقد استمرت عبادتها واشتهرت معابدها في العهد الساساني على ما سنبين في كلامنا عن الساسانيين. ولقد تأثر الفرس في عبادتهم بالأقوام الأصلية قبل مجيئهم إلى إيران وبالأقوام المتحضرة المجاورة. وكانت عبادة الفرس لآلهتهم تقترن بالتضحية والقرابين، وقد وصف لنا هيرودوتس هذه الطقوس التي ترجع في أصلها إلى الأقوام الهندية ـ الإيرانية، وكان يقوم برسوم التضحية طبقة من الكهنة مؤلفة بهيئة إخوة أو جمعية دينية، وهؤلاء هم المجوس (Magi) (المؤبذان) المشهورون الذين يرجّح أن أصلهم من الماذيين، وكانوا ذوي امتيازات سياسية ودينية وعلى أهمية عظيمة في المجتمع، وكانوا يصحبون الجيوش للقيام برسوم الضحايا، كما كانوا يقومون بتعبير رؤى الأحلام، ويشركون في احتفالات تتويج الملوك التي كانت تُقام في العاصمة القديمة «بزركاده»، كما كانوا يتولون تعليم الصبيان وسدانة قبور الملوك، مثل قبر كورش[2] ومهما كان الأمر فإن هؤلاء (المجوس) مجهولو الأصل ولا يعلم عن ديانتهم التي لم تكن فارسية في أصلها إلّا أشياء قليلة. وهم كطائفة يؤلفون جماعة لا يدخل فيها أحد، وتبيح الزواج بالأقارب القريبين. وكانوا يرون في عقائدهم عن الكون وجود مبدأين، مبدأ الخير والشر، والواقع أنه لا يوجد في العبادة المجوسية آلهة حقيقيون،

---

(1) قارن وظائف الإله الشمس البابلي «شمش». وقد شاعت الديانة المثرائية إلى أنحاء بعيدة، واتخذها الرومان.

(2) Ghirshman, Op. Cit., 156.

وإنما هناك عدد غفير من الشياطين الشريرة وعلى رأسها الروح الشرير الأعظم. ويستطيع المجوس بالسحر والتعاويذ دفع الشرور عن البشر، ومن الشياطين الشريرة الشياطين الكامنة في أجسام الموتى، فمنذ اللحظة التي يحلّ فيها الموت يصبح الجسم خطراً على الأحياء، ولذلك كانوا يبعدون أجسام الموتى في أعلى المواضع لتأكلها الوحوش والطيور الجارحة، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع في صندوق صغير[1] مثقوب ليستطيع الميت رؤية الشمس.

الزرداشتية:

ومع وجود هذه العبادات الوثنية كان الفرس الإخمينيون يتجهون إلى الديانة الوحدانية وينبذون الشرك، وقد تمّ ذلك بوجه واضح وبصورة رسمية في عهد دارا الأول، وهذه هي عبادة الإله الواحد «أهورامزدا»، كما سماه النبي الذي بشّر به «زراوستر» أو الأصح «زراثوشترا» (Zarathushatra) الذي لا يعلم زمنه بوجه التأكيد ولكن الرأي الحديث يرى أنه بدأ تبشيره حوالي منتصف القرن السادس ق.م. في الجهة الشمالية الغربية من نجد إيران، كما يرجّح أنه ولد في بلاد ماذي ولكنه اضطر إلى هجر موطنه والتبشير في جهات إيران الشرقية[2]. وتروي المآثر أن الحمل به وولادته قد تمّت بمعجزة إلٰهية فإن

---

(1) (Ossuary). والجدير بالذكر بصدد اسم المجوس أن الكلمة التي تُطلق على السحر في اللغات الأوروبية أي (Magic) مشتقة من اسم المجوس.

(2) حول أحدث الآراء عن هذا النبي الإيراني انظر:

(1) Olmstead, The History of the Persian Empire (1948), ch., VII.

(2) Ghirshman, Op. Cit., 161 ff.

وكان الباحثون القدماء يرون إرجاع زمنه إلى عهد أقدم، إلى بداية الألف الأول ق.م.، وإلى القرن الثامن ق.م. والمرجّح أنه كان من بين معتنقي ديانته الأوائل أبو الملك دارا نفسه وكان والياً على بلاد الفرثيين. ويدل اسم زراوستر الذي يعني «مع الجمال الذهبية» واسم أبيه «فوروشسبا» (Pourushaspa) الذي يعني «مع الخيل السمر» وعشيرته المسماة «سبتاما» =

ملاكه الحارس حلّ في النبات المسمى «هوما»[1] وانتقل مع عصير النبات إلى جسم كاهن، ودخل في الوقت نفسه شعاع من السماء المقدسة في عذراء من أصل نبيل، فتزوج الكاهن بها فاتحد الملاك المحبوس (في جسم الكاهن) بالشعاع الإلٰهي (في جسم العذراء)، فتكوّن «زراوستر»، ومنذ اللحظة التي ولد فيها ضحك عالياً، وانهزمت من حواليه الأرواح الشريرة والشياطين التي تحوم في الحياة. ولما شبّ شغف بحب الحكمة والتقوى والعدل واعتزل حياة المجتمع وعاش في متاهات الجبال. وقد حاول الشيطان أن يغويه ولكنه لم يفلح. وقد شقّ صدره بالسيف وملئت أحشاؤه بالرصاص المذاب فلم يجزع بل إنه ظل على عقيدته بإلٰهه أهورامزدا، الذي تجلى له وأوحى له بالتعاليم المقدسة «الافستا»، وهي كتاب المعرفة والحكمة، وبلغه رسالته بأن يبشر بها بين البشر، فأصابه من هذا التبشير اضطهاد وازدراء، ولكن المآثر تقول إن أميراً عظيماً اسمه «وشتسبا» أو «هستابس»[2] اعتنق ديانته، وأوعده بأنه سينشرها بين الناس، ولما بدأ يبشر في إيران وجد الناس على ما رأينا سابقاً وثنيين يعبدون آلهة أصلها من القوى الطبيعية والحيوانات والأجداد الأموات (على نحو ما كان شائعاً بين الهنود الآريين في عهد الفيدا) وكان الكهنة

= (Spitama) (أي البيض) على أن أصله من قوم شبه رعاة، وورد اسمه في المصادر اليونانية بهيئة (Zoroaster) وهو الاسم الشائع في اللغات الأوروبية.

(1) وهو النبات الذي كان يستخرج منه الكهنة المجوس شراباً مسكراً لاستعماله في الطقوس الدينية و«الهوما» أيضاً الإلٰه العجل الذي يموت ويحيا وجعل دمه إلى الناس لينالوا الخلود إذا شربوه، حيث يتمثل الإلٰه بعصير ذلك النبات.

(2) لقد سبق أن نوّهنا باحتمال كون هذا الأمير أبا دارا الأول، وأن ذلك من جملة الأسباب التي دعت الباحثين المحدثين إلى تخفيض زمن زراوستر إلى منتصف القرن السادس ق.م. ومع أن هذا التأريخ أحدث ما وصل إليه البحث الحديث إلا أن هناك مآثر أخرى تجعل زمنه موغلاً في القدم فمثلاً عدّه الإغريق شخصية تأريخية وجعلوا زمنه يسبق زمنهم بـ (5500) عام، أما بيروسس (برعوشا) المؤرخ البابلي الذي كتب تأريخ بابل باليونانية (في القرن الثالث ق.م) فقد عيّن زمنه بنحو 2000 ق.م. أما أزمان الباحثين المحدثين فتتراوح من القرن العاشر إلى القرن السادس ق.م.

المجوس، على ما بيّنا، يقومون برسوم التضحية لهذه الآلهة، فثار على هذه العبادات وأعلن أنه لا يوجد سوى إله واحد هو «أهورامزدا»[1] لا يوجد معه إله آخر سوى صفاته وأهمها «الروح القدس» و«العدل»، والنية أو فكر الخير والتقوى والخلود. ومع أن «أهوردامزدا» هو الإله الأوحد السائد في السموات، إلا أنه وجدت معه منذ البدء روح الشر أو مبدأ الشر التي أخذت تنازعه، فمنذ البدء كان هناك مبدآن توأمان، الخير والشر، وعن هذين المبدأين نشأت الحياة والفناء أو اللاحياة، أو الوجود السيئ المتّصف به أتباع الشر، أما الوجود الأفضل فلاتباع الخير والعدل ويتجسد مبدأ الخير بالإله «أهورامزدا» أي إن الخير نوع من أقنوم[2] من هذا الإله، والشر متجسد في المبدأ الذي دعاه «أهريمان». ويحيط بأهورامزدا أتباع إلهيون خيرون يحاربون مبدأ الشر، وهي حرب مستمرة تنتهي بانتصار مبدأ الخير. إن هذا المبدأ الثنائي (dualism) يجعل من الديانة الزرادشتية غير مطلقة التوحيد. أما الإنسان فلا مفر له من أتباع أحد المبدأين، وهو حر في اختيار أي منهما، فينبغي على كل إنسان أن يختار المبدأ الذي يرتئيه. أما الأشرار فيصيرون من أتباع أهريمان، والأخيار من أتباع «أهورامزدا» وهناك دينونة ويوم آخر يحاسب فيه الإنسان ، حيث ستنتصر مملكة «أهورامزدا»، ويهلك أهريمان وأتباعه، وستعيش أرواح الأخيار حياة أخرى في عالم سعيد خال من الشر، وتهلك نفوس الأشرار. وهناك مجموعات من الشياطين (daeva) هي نتاج تفكير الشر والكذب والغرور، وتنحصر أعمال هذه الشياطبن في الأرض، موطن الإنسان، وإن الإنسان بمجرد عمل الشر يسر شياطين الشر ويكون من أتباعها. وسيكون أهورامزدا الديّان الأعظم يوم الحساب، ويساعده «زراوستر» الذي سيقود الصالحين عبر الصراط الفاصل بين النعيم والجحيم.

لقد نظمت العبادة الزرادشتية بموجب قواعد شديدة فقد حرّمت الضحايا

---

(1) وورد في تراتيله أيضاً بصيغة «أهورا»، و«مزدا» و«أهورامزدا» و«مزداأهورا».

(2) (Hypostasis).

والقرابين، كما حرم شراب «الهوما» المسكر الذي كان يستعمله المجوس في الطقوس الدينية ويعتبرون عصير ذلك النبات بمثابة دم الإلٰه العجل المسمى «هوما»، واتخذ مبدأ عدم دفن الميت أو حرقه أو غسله مخافة تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة (التراب والنار والماء) فكانت أجسام الموتى تعرض في أماكن مرتفعة في الجبال أو على أبراج تُبنى لهذا الغرض وبعد تخليص اللحم منها بواسطة الجوارح والوحوش تجمع العظام في صندوق وتقبر في قبر خاص على ما بيّنا في عادة المجوس.

كانت الديانة الزرادشتية تعاصر في زمنها تقريباً الديانة البوذية وهي تشبهها في أمر مهم واحد هو أنهما كلتاهما رد فعل عنيف إزاء الديانات الآرية البدائية المتصفة بالقرابين والتضحيات القاسية. ولكن اختلفت البوذية عن الزرادشتية في مصيرها إذ انتشرت البوذية انتشاراً بعيداً واسعاً ولا يزال أتباعها يعدون بمئات الملايين في حين أن الزرادشتية تكاد تكون الآن في حكم الديانات الميتة باستثناء جماعة قليلة في إقليم فارس وباستثناء المجوس (البارسي) في الهند الآن (وعددهم نحو 90 ألفاً)[1] ولعل من أهم أسباب عدم انتشار الزرادشتية بالنسبة إلى البوذية أن الديانة الأولى فُرضت أو أُسندت من جانب حاكم، أي من الطبقات العليا في المجتمع، في حين أن البوذية كانت تعبر عن آمال الجماهير، وهناك عامل مهم هو محاربة الإسلام للزرادشتية في إيران وتعرضها لاضطهاد غزوات التتر لبلاد إيران.

وإذ بقيت الديانة «الزرادشتية» زمناً قصيراً وهي على بساطتها وصفائها ولا سيما في زمن حاميها الملك دارا الذي جعلها الديانة الرسمية فإنه سرعان ما عاد الناس إلى العبادات القديمة ولا سيما عبادة الإلٰه مثرا وعبادة الإلهة «أناهيتا»، حيث نجدهما يذكران في الكتابات الملكية منذ عهد أرتحشستا

(1) إن هؤلاء متعلقون بالكتابات المقدسة القديمة ويعبدون النار والأرض والماء والهواء بصفتها عناصر مقدسة ويعرضون جثث موتاهم في «أبراج الصمت» لتأكلها الطيور الجوارح، ويتّصفون بحسن المعاملة والصدق.

الثاني، ومن ثم أخذ مثرا المكانة البارزة في حين أن عبادة أهورامزدا أخذت بالتضاؤل، حتى انتشرت عبادة مثرا أخيراً من إيران إلى أنحاء الأمبراطورية الرومانية[1] ولا سيما في القرن الثالث للميلاد، كما أقيمت المعابد والتماثيل الخاصة بالإلهة أناهيتا، وهي عشتار أو أفروديت الفارسية، وخصصت بعض الكتابات المقدسة الخاصة بأهورامزدا للسحر والعرافة، كما برزت مكانة الكهنة المجوس، واشتهروا بالزهد والعفة والحكمة حتى بين اليونان وصار ملوك الفرس بمثابة تلاميذ لهم يستشيرونهم في الأمور المهمة. وحاول الملوك الساسانيون إحياء الديانة الزرادشتية، كما سنشير إلى ذلك في كلامنا على الساسانيين.

ويروي لنا هيرودوتس أنه لم يكن للفرس معابد ولا مذابح (هياكل) ولا تماثيل للآلهة، وهذا صحيح من وجهة النظر اليونانية لأنه لم يكن للفرس في الواقع معابد تؤمها الجماهير للعبادة. ولكن مع ذلك كانت لهم معابد خاصة، نعرف منها ثلاثة معابد من العهد الإخميني، أحدها في «بزركاده» بناه كورش والثاني بناه «دارا» الكبير في الموضع المسمى «نقش ـ رستم» أمام قبر دارا والثالث في سوسة، ويرجّح أن زمنه من عهد «أرتحشستا» الثاني.

إن قوام كل من هذه المعابد برج مربع يضم غرفة واحدة يرقى إليها بسلم، وهنا كان يتولى المجوس شؤون النار المقدسة. أما الاحتفالات الدينية فيبدو أنها كانت تُقام في العراء، حيث المذابح تقام بمسافة عن المعبد[2]. كما أن الفرس مارسوا تمثيل آلهتهم بالصور والأصنام المنحوتة، فنعرف مثلاً أن أرتحشستا الثاني أقام جملة تماثيل للإلهة «أناهيتا» في سوسة واكبتانا وبابل

---

(1) وقد أثرت بعض الطقوس الخاصة بعبادة هذا الإله في أعياد الديانة المسيحية، حيث إن عيد الميلاد لم يكن بالأصل سوى عيد شمسي يقام في كانون الأول (في الشتاء) رمز انتصار الإله الشمس على أعدائه حيث يبتدىء اليوم بالطول. فصار من الأعياد المثرائية ثم اتخذ يوماً مقدساً مقروناً بعيد الميلاد المسيحي. (Will Durant, Op. Cit., 372).

(2) Ghirshman, Op. Cit., 160.

وفي المراكز الأخرى المهمة من الأمبراطورية. كما مثل الإلٰه أهورامزدا في معظم المنحوتات البارزة في واجهات القبور الملوكية الخاصة بالسلالة الإخمينية، حيث مثل الملك وهو يضحي أمام مذبح فيه النار المقدسة ويعلو فوقه القرص المجنح الذي يخرج منه رأس أهورامزدا وكتفاه، وهذه هي نفس الصورة التي تعلو المنحوتات البارزة في بهستون وفي جملة مآثر في برسيبوليس. وهذا الرمز إما أنه مأخوذ من أسلوب تمثيل الإلٰه المصري هورس (الإلٰه الصقر) أو من رمز الإلٰه آشور.

4 ـ شيء عن الشريعة واللغة والفن والحياة الاقتصادية والاجتماعية:

كان الفرس الإخمينيون من الأقوام التي عنيت بالفتح وإدارة الدولة وتنظيم الجيوش والطرق أكثر من الأوجه الثقافية الأخرى، ولعل أقرب شبه بهم الرومان، وسنرى أن فنهم كان أقرب ما يكون إلى الفن الانتخابي منه إلى الفن الإبداعي، ويصدق ذلك على فروع الفن المختلفة.

ومهما كان الحال فإنه حالما أعاد دارا الأمبراطورية دعت الحاجة إلى ضرورة وضع أسس القانون والإدارة، وقد سد دارا هذه الحاجة. ونستطيع أن ندرس الأسس القانونية من النقوش الكتابية التي خلفها لنا دارا في عدة مواضع، في بهستون وبرسيبوليس وسوسة ونقش رستم، وقد وجد الباحثون الذين اشتغلوا فيها عدداً من أوجه الشبه بين كتاباته الخاصة بتنظيماته وشريعته وبين شريعة حمورابي[1]، وكانت مثل هذه النصوص الملكية الرسمية تنسخ على المسلات أو الألواح أو البردي وترسل إلى مراكز الولايات المهمة. وكان دارا مركّزاً جلّ اهتمامه في نظام الإدارة على تطبيق العدل، وأن قوانينه وأوامره التي أصدرها بقيت يسار عليها في إيران زمناً طويلاً من بعد زوال الأمبراطورية. ويروي لنا هيرودوتس أن «القضاة الذين كانوا يختارون من الفرس يظلون في مناصبهم مدى الحياة، ما لم يخلعوا بسبب زيغهم في تطبيق

(1) Ghirshman, Op. Cit., 152 - 53.

العدالة» ولكن شرائع الأقوام التابعة ظلت معمولاً بها. وكان الملك مصدر القوانين والشرائع وإراداته هي القانون، واشتهر الفرس لدى الإغريق وفي التوراة بالتمسك بالقانون. وكانت الأحكام والإرادات التي يصدرها الملك تعتبر موحاة من الإله «أهورامزدا» نفسه، كما أن الملك كان المحكمة العليا التي يستأنف إليها، ويلي ذلك محكمة عليا خاصة للعدل مكوّنة من سبعة حكّام، ويلي هذه المحكمة العليا المحاكم المنتشرة في أنحاء المملكة، ونشأ بمرور الزمن وبكثرة الأقضية السابقة جماعة خاصة متضلعة بالشؤون القضائية كانت بمثابة الفقهاء والمحامين. وكانت الرشوة من جانب الحكام من الجرائم الكبرى. ويروى أن قمبيز عاقب مرة أحد القضاة الذي لم يلتزم أصول العدل بأن سلخه وهو حي، واستعمل جلده مقعداً في منصة القاضي وقد عيّن ابنه مكانه[1]. وكانت هناك أنواع مختلفة من العقوبات كالجلد والتشويه وقطع الأعضاء، وسمل العيون والسجن والموت بالصلب والشنق والرجم، وسحق الرأس بين حجرتين كبيرتين، والحرق، وهناك حالة خاصة عجيبة من عقوبة الموت يصحّ أن نسميها موت «القوارب»[2].

لقد أوجد الفرس الإخمينيون خطاً مسمارياً خاصاً بهم اشتقوه من الخط

---

(1) Cambridge Ancient History, III, 347.

(2) يروي لنا فلوطرخ في ترجمة حياة أرتحشستا الثاني (Plutarch, Lives, III 464) أن أحد الجنود صرّح في حالة سكر أنه هو الذي يرجع إليه الفضل في قتل احشويرش الأصغر في موقعة «كوناكسه» ولبس إلى الملك. فأمر الملك بأن يعاقب ذلك الجندي (واسمه مثريداتس) بوضعه في القوارب. أما هذه الطريقة من الموت فقوامها أن يهيأ قاربان يطابق أحدهما الآخر فيوضع في أحدهما المحكوم عليه على ظهره ويطبق عليه القارب الآخر بحيث ينطبقان تماماً ولا يخرج من الشخص سوى رأسه ويديه ورجليه، وبعد أن يطعموه طعاماً يصبون فوق رأسه وفمه خليطاً من اللبن والعسل، ويجعلون وجهه مواجهاً للشمس على الدوام، وسرعان ما يهجم عليه الذباب فيعضه، ثم إن ما يفرزه جسمه المغطى بالقاربين يولد الديدان والحشرات التي تدخل إلى أحشائه الداخلية، حتى يتلف جسمه وتأتي الديدان على جميعه، وقد قاسى بهذا الأسلوب مثريداتيس سبعة عشر يوماً ثم مات من بعدها.

المسماري البابلي بعد تبسيط ما أخذوه وجعله أشبه ما يكون بحروف الهجاء (أو بالأحرى هجائي ـ مقطعي)، وقد اقتصر استعمال هذا الخط المكوّن من (43) علامة مسمارية على بضعة ألواح وعلى النقوش في الحجر. ولكن اتساع المملكة الفارسية إلى أمبراطورية معظمة ودخول جملة أقوام متحضرة فيها جعلت من المتعذر استعمال اللغة الفارسية بالخط المسماري، فظلت العيلامية في عيلام والبابلية بخطها المسماري في بلاد بابل، وكانت الآرامية المكتوبة بالهجائية قد انتشرت في معظم أجزاء الشرق الأدنى، فاستخدم الفرس الإخمينيون الآرامية لتكون لغة المعاملات المشتركة في أنحاء الأمبراطورية. ولصعوبة الخط المسماري الإخميني الذي دوّنت به الفارسية القديمة اتخذ الفرس أيضاً الخط الآرامي لكتابة لغتهم إلى جانب الخط المسماري، الذي انحصر كما قلنا في نقوش مآثر الحجر، وقد وجد نموذج من الفارسية المكتوبة بالحروف الآرامية في قبر دارا ولعل الكتابات الأخرى نقشت على الرق أو البردي فلم يصلنا منها شيء. أما ألوف الوثائق التي جاءتنا من «برسيبوليس» فلم يكن نص واحد من بينها مكتوب بالفارسية ويوجد عدد قليل منها بالآرامية، أما الغالبية فمدوّنة بالعيلامية.

لم ينشأ الفن الفارسي الإخميني بطريقة التدرج والتطور البطيء، فكان شأنه مثل نشوء الأمبراطورية السريع، ومع أن الفن الإيراني انتخابي في جوهره، وأخذ الشيء الكثير من أنماط الفنون والحضارات الناضجة التي دخلت أقوامها في حظيرة الأمبراطورية، ومع أنه تأثر بالفن اليوناني ولا سيما بالفنانين الأيونيين، نقول مع كل ذلك فقد تميّز فنهم بالطابع الخاص ولا سيما فن العمارة. فقد جاءنا من ملوكهم العظام، كورش ودارا واحشويرش الأول نماذج من فن العمارة الراقي في القصور الشهيرة في عواصمهم المشهورة ـ بزركاده وبرسيبوليس والسوس وبابل، ونلاحظ في فن العمارة في القصور آثار أصول العمارة البابلية. وقد سبق أن أشرنا إلى نتائج التنقيبات المهمة في

العاصمة برسيبوليس[1] حيث القصور الفخمة وقاعات العمد، والجدران المزينة بأفاريز المنحوتات والكاشي الملوّن بالمينا، ولقد توقف فن العمارة من بعد أرتحشتا الأول فلم يطرأ عليه شيء جديد. أما عن النحت المجسم فلا يعرف عن النحت الفارسي أشياء يعتدّ بها باستثناء تماثيل أشخاص صغيرة وجدت حديثاً في برسيبوليس[2]، واقتصر فن نحت التماثيل على تمثيل الملوك والأمراء. ومما يقال عن الفن الفارسي بهذه المناسبة إنه فن البلاط الرسمي ولذلك حرم من الحرية التي تمتع بها الفن اليوناني. وينبغي التنويه بالفن بواسطة المعدن ولا سيما البرونز الذي جاءتنا منه نماذج طريفة في تمثيل الحيوانات كالأسود والخيل. كما أن فن الصياغة والحلي يستحق التقدير والإعجاب وقد أمدّتنا التنقيبات في برسيبوليس بآلاف من أواني الحجر بعضها مزيّن برؤوس الأوز والبط (وهو طراز شائع في الفن الاسكيثي). كما جاءتنا مجموعات من الأحجار والفصوص والخواتم الأسطوانية والمنبسطة ولدينا ختم نفيس منقوش باسم دارا[3].

ونختتم كلامنا على الأوجه الحضارية للعهد الإخميني بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن الحياة الاقتصادية، فنقول إن جملة عوامل مهمة عملت على ازدهار الحياة الاقتصادية في إيران وحسنت التجارة الخارجية ما بين أجزاء الأمبراطورية. وعلى رأس هذه العوامل ما سبق أن رأيناه من توحيد جميع آسيا الغربية والشرق الأدنى تحت حكم السلالة الإخمينية، وتقسيم هذه الرقعة الشاسعة إلى ولايات تحت إدارة مركزية، وإيجاد نظام من طرق المواصلات البرية والبحرية ونظام البريد لربط أجزاء هذه الأمبراطورية

---

(1) بدأ التحري من جانب المعهد الشرقي في برسيبوليس منذ عام 1931.
انظر النشرة الأخيرة لهذه التنقيبات .(Erich Schmidt, Persepolis 1951)
وكذلك .(1939) ..., The Treasry of Persepolis

(2) Ghirshman, Op. Cit., 175, pl.22.

(3) Ghirshman, ibid., 178.

الواسعة، وإيجاد نظام متوازن من الضرائب، وإدخال الأوزان والقياسات المطردة، وأخيراً وليس آخراً إدخال النقود المسكوكة. فقد سبق أن نوّهنا بنشوء نظام النقود المسكوكة في ليديا قبيل عهد «قارون»، فانتشر استعمالها سريعاً في آسيا الصغرى وأدخل استعمالها دارا في أمبراطوريته. ونستطيع من دراستنا ألواح الطين المكتوبة من برسيبوليس أن نقف على دور الانتقال في الاقتصاد من نظام دفع الأجور بطريقة المبادلة أي دفع الأجور عيناً: باللحوم، والحبوب، والخمور، الخ. ولكننا نجد دفع الأجور في عهد احشويرش يتم بدفع ثلثيها عيناً والثلث الآخر نقداً، ثم تناقص الدفع بالمواد العينية في عهد الملك نفسه إلى الثلث. وملخص القول اقتضى مرور زهاء نصف قرن قبل أن يحلّ النظام النقدي محل المقايضة. وقد بلغ حجم التجارة في القرنين السادس والخامس ق.م. مقداراً لم يعرف من قبل.

واهتم معظم ملوك السلالة الإخمينية في تحسين إنتاج الأراضي الزراعية، فقد اشتهر الملوك الإخمينيون بحفر القنوات (الكهاريز) تحت الأرض. واتسعت الزراعة وعملت الاتصالات بين أجزاء الأمبراطورية في نقل بعض النباتات والأشجار من قطر إلى آخر، ومن ذلك انتقال البرسيم (Lucerne) الذي يكثر في وديان بلاد ماذي ويصلح علفاً للحيوانات، وقد نقله الفرس إلى بلاد اليونان في حروبهم هناك، ونقل أيضاً بواسطة هذه الحروب الدجاج المدجّن والحمام الأبيض والطاووس[1]. واهتم دارا بوجه خاص بزراعة الأشجار وزرع الأنواع الجديدة منها، ليس في فارس وحسب بل في أجزاء الأمبراطورية، فقد حاول الفرس زرع نوع جديد من الكروم في دمشق وأدخلوا الفستق إلى حلب وأدخلوا زراعة السمسم إلى مصر والأرُزّ إلى العراق، وسارت الدول التي قامت من بعد الإخمينيين في العهد الهلنستي على نفس السياسة. وننوّه بما ذكره هيرودوتس عن ازدهار العراق في الزراعة في هذا العهد، ومع أن هذا امتداد من العصور السابقة، ولكن المحافظة عليه والاعتناء بشؤون الري في هذا العهد لمما يستحق التسجيل. واستمر نظام

(1) Ghirshman, ibid., 182.

الزراعة على أساس ملكية الأراضي الكبيرة التي يشتغل فيها فلاحون مربوطون بالأرض أشبه ما يكونون بالرق، وكذلك استعمال الرق من أسرى الحروب. وكانت الملكية الصغيرة معروفة، ولكن أهميتها دون النوع الأول من الإقطاعات الكبيرة.

وكانت الأمبراطورية الفارسية بولاياتها الغنية بمختلف الموارد على درجة عالية من الاكتفاء الاقتصادي. فهناك مراكز مهمة للأخشاب الجيدة لاستعمالها في البناء والقوارب والعربات والأسلحة ومكائن الحرب المختلفة. ونذكر من أشهر هذه المراكز آسيا الصغرى وكريت وقبرص ولبنان والهند. كما كانت هناك مراكز مهمة لاستخراج المعادن، فمثلاً ينتج من قبرص الفضة والنحاس والحديد ومن آسيا الصغرى النحاس والفضة، ومن مصادر النحاس والحديد المهمة لبنان وأقسام دجلة والفرات العليا. وينتج إقليم كرمان الذهب والفضة، واشتهر إقليم سستان بالقصدير وجنوبي القوقاز بالفضة والحديد، وكذلك سواحل البحر الأسود الجنوبية. وازداد الاعتناء باستخراج الأحجار من مواضعها المشهورة حيث أصبحت الحاجة إليها شديدة بأتساع أعمال البناء. فأشتهرت جبال عيلام بحجارة البناء الجيدة واللازورد من «بدكشان» والفيروز (Turqoise) والعقيق من خراسان. كما زادت العناية بالصيد حيث مواضع صيد السمك المشهورة في خليج فارس ودجلة والفرات، وقد ازدهرت تجارة الأسماك المملحة المقددة.

العراق في العهد الإخميني:

وننهي هذه الملاحظات ونختم كلامنا على المملكة الإخمينية بالتنويه بأهمية العراق بصفته ولاية من ولايات الأمبراطورية الفارسية. فقد سبق أن رأينا من تقسيم الأمبراطورية إلى ولايات أهمية الولاية[1] التاسعة أي ولاية

---

(1) انظر ما ذكرناه عن اسم الولاية والوالي (Satrap) التي يرجع أصلها إلى الفارسية القديمة. وقد ترجم البابليون كلمة «سترابي» بمصطلح «بختو» (Pakhatu) وسميت بالآرامية «مدينة»، وتعني منطقة قضائية.

بابل وآشور. ولكن فصلت هذه الولاية في حدود 478 ق.م. (كما في أخبار زينفون) إلى ولاية بلاد بابل وبلاد آشور، وألحقت ولاية آشور بالولاية السادسة التي كانت في عهد دارا، وهي الولاية التي أطلق عليها اسم «عبر النهر» (عبر نهارا) وهي تشمل سوريا وفلسطين وقبرص. ورأينا أهمية بلاد بابل من الضريبة السنوية المترتبة عليها فكانت تأتي ثاني ولاية في مقدار تلك الضريبة (1000 وزنة) ثم يلي ذلك مصر. ويخبرنا هيرودوتس أن «الملك العظيم وجيشه كانوا يجهّزون بالطعام والمؤن طيلة أربعة أشهر من السنة من بلاد بابل وفي الأشهر الثمانية الباقية من بقية آسيا». وكان يعين لولاية بابل كما في سائر الولايات حكّام من الفرس من الطبقات النبيلة، ونحن لا نعرف الأسباب الحقيقية التي دعت البابليين إلى الثورة على الفرس في أثناء غياب قمبيز في مصر، أهي من جرّاء فداحة الضرائب أم بدوافع قومية ضد الحكم الفارسي الأجنبي، على الرغم من السياسة التي سار عليها كورش من مداراة أهل البلاد ودعواه في تخليصهم مما حلّ بهم من الاضطهاد في أواخر عهد الملك البابلي نبونهيد. ومهما كان الحال فقد كانت هذه الثورة شديدة وكلّف إخمادها الملك دارا جهوداً كبيرة، على ما رأينا. ورأينا بلاد بابل تثور أيضاً على الحكم الفارسي في عهد احشويرش الأول، وكيف أن هذا الملك أخمد الثورة بقسوة شديدة، حتى أنه دمر المعابد والقصور. ومهما كان الأمر فإنه باستثناء هذه الثورات ازدهرت الحياة في بلاد بابل، وحافظت على شهرتها القديمة في الإنتاج الزراعي وفي الاعتناء بشؤون الري، وقد أدهش هيرودوتس بذلك وبما شاهده من عمران بابل وقصورها وعجائبها، وترك لنا أخباراً طريفة عن أحوال العراق في هذا العهد[1].

ومع أن الفرس الإخمينيين اتخذوا خطاً مسمارياً خاصاً بهم على ما ذكرنا واتخذوا الآرامية إلا أنهم اعتمدوا كثيراً على طرق السجلات والوثائق

---

(1) نحيل القارىء إلى هذه الأخبار الممتعة في هيرودوتس. انظر ترجمة تأريخه:

The History of Herodotus, By George Rawlinson (Everymans Library), (1936).

التي وجدوها في المركزين الحضاريين المهمين، بلاد عيلام وبلاد بابل، حيث ظلت السجلات التجارية المهمة تدوّن بالعيلامية وبالبابلية، ولذلك فإن مصادرنا المهمة عن أحوال الأمبراطورية مأخوذة من الوثائق البابلية والعيلامية والآرامية. وقد وجدت ألوف كثيرة من هذه الوثائق في مختلف مدن العراق القديمة، وألوف أخرى في مدينة السوس. ويمكننا القول بالنسبة إلى كثرة الوثائق التي جاءتنا من العراق القديم في هذا العهد أنه لا توجد حقبة من حقب الثلاثة آلاف عام من تأريخ بلاد بابل الاقتصادي والاجتماعي ما يعادل حقبة القرنين وربع القرن منذ عام 625 (وهو بداية العهد البابلي الأخير)، حيث قدّر ما جاءنا من هذا العهد بزهاء (10) آلاف وثيقة من الوثائق التجارية والإدارية، وهي موزّعة بالتساوي تقريباً بين العهدين البابلي الحديث وبين القسم الأول من العهد الإخميني في العراق، وقد درست هذه الوثائق ونشرت جميعها مما جعل في متناول الباحث مصدراً غزيراً لمعرفة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العراق. وبالإضافة إلى هذه الوثائق التجارية جاءنا من هذا العهد نحو (600) رسالة[1]. وإذا كان مجال البحث لا يمكننا من بحث هذه الوثائق فنكتفي بالتنويه بأهميتها بكونها تجهز الباحث الاقتصادي بمادة وفيرة تمكّنه من كتابة فصل ممتع مهم في تأريخ الأسعار والحياة الاقتصادية، موضحاً بالخطوط البيانية[2]. وننوّه أيضاً بالمصارف المعبدية المهمة. وكان ظهور المصارف قبل هذا العهد في بلاد بابل من الظواهر المهمة في الحياة الاقتصادية، وكان أبرز ما فيها ظهور مبدأ «الكريدت» (Credit) وهو مبدأ كان معروفاً في بلاد بابل قبل العهد الإخميني بأزمان، وكانت القروض متمركزة في أهم مؤسسة اقتصادية هي المعبد، واستمرت المصارف المعبدية في العهد

---

(1) أحسن بحث في هذه الوثائق وفي أحوال العراق في هذا العهد يجده القارىء في:

Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948), ch. V.

(2) وقد كتبت في الواقع مثل هذه البحوث، ونخص بالذكر منها:

W.H. Dubberstein, «Comparative Prices in Later Babylonia» (625 - 400 B.C.) in **Amer Jour. of Sem. Languages**, 1939) 20 ff.

الإخميني. وكانت القروض التي يعطيها ملاك الأرض للفلاحين إلى موسم الحاصل الجديد تتم في الأغلب بدون فائض، ولكن في حالة عدم الدفع تُضاف إليها الأرباح. وإلى جانب المصارف المعبدية ظهرت المصارف الخاصة وكان ذلك بوجه واضح في حدود 648 ـ 626 ق.م.[1].

واشتهرت من الشركات المصرفية الشهيرة في بابل شركة عُرفت باسم «ايكيبي» (Egibi)، ويرى الباحثون أن هذه عائلة يهودية وأن مؤسسها محرف عن يعقوب[2] وعائلة أخرى باسم «ايرانو». واشتهرت عائلة تجارية مصرفية في عهد دارا الثاني (423 ـ 404 ق.م) وأرتحششتا باسم «موراشو»، وكانت عبارة عن شركة مالية مهمة في نفر، وهي يهودية أيضاً، وقد جاءتنا منها ألواح كثيرة مدوّنة بالشؤون المالية[3].

---

(1) W.H. Dubberstein, «Assyrian Babylonian Chronology» in Jour. of Near East. Studies, III (1944), 38 ff.

(2) Olmstead, Op. Cit., 83 ff.

(3) انظر نشر هذه الألواح في: The Bab. Expd. of the Un. of Pennsyl., IX.

الإسكندر والعهد السلوقي

كان المقدونيون في عهد «فيلب» والد الإسكندر محصورين في القارة الأوروبية بسبب عزلتهم عن مراكز الحياة اليونانية السياسية. وتكون بلادهم الجزء الوسطي من شبه جزيرة البلقان وتتألف من سهول واسعة مستوية يحددها ويخترقها آكام وحزون وعرة، مناخها قارس شديد ولها موارد طبيعية غزيرة. وهي بلاد زراعية ممتازة. لقد أدرك «فيلب» مؤهلات قومه وبلاده فشرع في إنماء ثروتهم بفتحه مناجم الذهب ووحّد قبائلهم تحت عرشه، وهيأهم إلى الفتح والتوسّع بتدريبهم تدريباً عسكرياً شاملاً، وبعد خمس عشرة سنة من حرب متواصلة مع الدويلات الإغريقية انتخب أخيراً في مؤتمر «كورنث» قائداً عاماً لجميع الإغريق ليتولى الحملة على بلاد فارس. إذ إن نجاح الثورة الإغريقية وصدّ الجيوش الفارسية التي أُرسلت إلى بلاد الإغريق منذ الثورة «الإيونية» وتعرف اليونان على بلاد فارس ومواطن ضعفها كل ذلك جرّأ المقدونيين واليونان المتحدين وحوّلهم من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم على الأمبراطورية الفارسية. ولكن «فيلب» اغتيل في اليوم الذي خصص لبدء الحملة فخلفه ابنه الشهير «الإسكندر» الكبير.

ولا يسعنا في هذا الموجز أن نسهب القول في ترجمة الإسكندر ومزاياه الشاذة الخارقة فنكتفي بالتنويه ببعض العوامل المؤثرة في شخصيته وعلى رأس ذلك وراثته عن أبيه شجاعته وإقدامه وأخذه عنه التدريب العسكري، فقد قاد في عهد أبيه الجيوش في حرب المدن اليونانية وأبدى مهارة فائقة، كما ينبغي التنويه بوراثته عن أمه «أولمبياس» المشهورة بحدة العاطفة. ونذكر أيضاً علاقته

بالفيلسوف اليوناني الشهير «أرسطو» حيث تولى هذا تثقيفه وهو في سن ثلاثة عشر عاماً، واشتهر عنه أنه كان مغرماً بالشعر والأدب اليوناني، حتى أنه كان يحمل معه على الدوام نسخة من الإلياذة أصدرها له أرسطو نفسه، ولعل من آثار تعليم أرسطو له ما أوثر عنه من اهتمامه بالفلسفة والمعرفة والعلوم والطب. وتروى عنه حادثة طريفة في أواخر حياة أبيه. وهي أن أباه طلّق أمه ليتزوج من ابنة أحد قواده التي أحبها، وفي الحفلة التي أقيمت بهذه المناسبة طلب أبو البنت، وكان ثملاً، أن يشرب المجتمعون نخب وارث العرش الآتي (من ابنته) فما كان من الإسكندر إلّا أن قذف كأسه بوجه القائد لأنه أهانه وأهان أمه. فنهض «فيلب» مجرّداً سيفه ولكنه سقط لأنه كان ثملاً.

وعندما خلف الإسكندر أباه[1] وافق الجميع على توليه أمر الحملة على فارس فأستعد لها خير استعداد، وبدأ أولاً إخضاع «تراقية» لئلا يبقى في مؤخرته عدو، ونقل من بعد ذلك جيشه بأساطيل عبر الدردنيل. ويروى أن الإسكندر كان أول من قفز إلى الشاطىء فقصد على الفور «طروادة» لزيارة مزار هناك فأهدى درعه وأخذ بدلاً منه تذكاراً من آثار «أخيلوس» (بطل إلياذة هوميروس) كان معلقاً على الجدران. وصادف من بعد ذلك أول جيش فارسي فجرت معركة عند نهر «الغرانيق» (Granicus) دحر فيها الجيش الفارسي وكانت معركة ملتحمة كاد الإسكندر يفقد فيها حياته. ثم زحف إلى الجنوب وسلك من «سارديس»[2] نفس الطريق الذي سلكه «كورش» و«زينفون» من قبله. أي إنه مرّ من طرسوس ثم إلى «الباب السوري» المؤدي من كيليكيا إلى شمالي سوريا. أما «دارا» الثالث، الملك الفارسي فإنه استطاع أن يحشد جيشاً قوامه

---

(1) ولد الإسكندر في عام 356 ق.م. واعتلى العرش في 336 ق.م. وبدأ حملته على آسيا في عام 334 ق.م. وفتح العراق في 331 ق.م. وتوفي في عام 323 ق.م. وهو بسن 33 عاماً.

(2) قبل أن يلاحق الإسكندر جيش الفرس الذي انهزم معظمه ما عدا المرتزقة الإغريق الذين قتلهم جيش الإسكندر باعتبارهم خونة، حرر الجيش المقدوني المدن اليونانية في آسيا الصغرى التي كانت تابعة للفرس. والغريب في أمر إحدى هذه المدن (وهي هليكار ناسوس مسقط رأس هيرودوتس الشهير) أنها أبت التسليم وفضلت بقاءها تابعة للفرس فأحرقت ودمرت.

40,000 رجل وزحف للدفاع عن مملكته، ولكنه سار في الطريق الجبلي حاسباً أنه سيلاقي الإسكندر فانتظره في مجازات جبال «أنتي ـ طوروس» وعندما وصل إلى (توبر اكاله) وجد نفسه في مؤخرة الإسكندر الذي كان يستهدف (سكل ـ توتان)، وعندما كان الإسكندر يقترب من سوريا أعاقته زوبعة في (مرياندوس) في الوقت الذي بلغته الأنباء عن مكان (دارا). فرجع في أثره وتلاقى الجمعان على جانبي مجرى ماء في (إيسوس) بمسافة قليلة إلى الشمال من (المجاز). فجرت أولى المعارك الكبيرة التي تحطم فيها الجيش الفارسي وانهزم الملك.

وكانت جيوش الإسكندر على نظام خاص يحسن أن نلقي نظرة عجلى على تأليفه. فأكثر ما يمتاز به نظام التعبئة عند الإسكندر نظام الصف (Phalenx)، الذي كان أقوى أجزائه وقد بلغ في وقت من الأوقات 20,000 رجل من الجنود المسلحين بحراب كبيرة طولها 20 قدماً، وسيوف وبيضات وتروس ودروع وقد درّبوا على القتال في ستة عشر صفاً، صفاً بعد صف، وتروسهم متصلة بعضها ببعض، وقد سلحت الصفوف الخمسة الأولى برماح مشهرة (طولها 13 ـ 14 قدماً). ويأتي من بعد ذلك صنف من المشاة مسلح تسليحاً ثقيلاً[1] ويحمل تروساً مقدونية مدورة. وصفوة هذا الصنف المشاة المشهورون المدرعون بالدروع الفضية، ويليه صنف آخر يحمل تروساً أخف[2] ثم رماة القذائف الذين هم في الغالب من الشعوب التابعة. وكان حرس الإسكندر الخاص مؤلفاً من الطبقة النبيلة من المشاة، وكذلك خيالة من المقدونيين يسمون «بالأصحاب» ويأتي بعد ذلك عربات تجرها خيول محمية بالزرد. وأضيفت الفيلة إلى قوام الجيش من بعد غزو الإسكندر الهند. وكانت الفيلة تعصب بعصائب وقنازع وتحمل في القتال عدا السائق أبراجاً من الخشب في كل منها أربعة رجال مسلحين. ومما يؤثر عنها أنه كان يقدم أمام أنظارها

---

(1) ويصطلح على هذا النوع من الجنود اسم (Hoplite).

(2) (Peltast).

قبل دخولها القتال عصير ثمر أحمر «إما لإهاجتها أو لمنع ارتباكها واضطرابها عند رؤية الدم».

كاد المقدونيون يخسرون المعركة في «إيسوس»، وذلك عندما عبرت الصفوف النهر فتعثرت في الضفة المقابلة وحلّ فيها الاضطراب. ولكن الهجوم الناجح الذي شنّته خيالة الإسكندر على ميمنة الفرس قرب الإسكندر إلى حيث كان الملك واقفاً في عربته. وبعد معركة خذلت دارا شجاعته فولى هارباً تاركاً جيشه في ارتباك وفوضى (انظر الشكل ص 441)، وخلف وراءه نساءه وأهل بيته وقد عاملهم الإسكندر معاملة شريفة لائقة. ومما يؤثر أن الإسكندر كتب إلى دارا بعد قليل بقوله له: «ليس عليك إلّا أن تأتي لتسألني فأعيد إليك زوجك وأمك وأطفالك وأي شيء آخر ترغب فيه. أما في المستقبل فإذا كتبت إليّ فعليك أن تخاطبني باسم ملك آسيا العظيم ولا تكتب إليّ كند بل خبرني عمّا تحتاج إليه كسيد كل ما تملك وإذا نازعتني المملكة فتمهل وحارب من أجلها مرة أخرى. ولا تهرب لأنني سأزحف عليك أينما كنت».

لم يلاحق الإسكندر دارا إلى قلب آسيا فكان ذلك منه بُعد نظر وحُسن تدبير. ولكنه عرج جنوباً ليحصل قبل كل شيء على بلاد الشام وفينيقيا ومصر، فخضعت له كل المدن الساحلية إلّا صور، فكان حصارها ثم فتحها (332 ق.م) من أصعب مشاريع الإسكندر الحربية. وقد دمرها الإسكندر بعنف.

وقد استقبل الإسكندر في خلال الحصار وفداً من دارا قدم له فدية كبيرة عن عائلته واقتراحاً بحلف عسكري. وقد روي أنه عندما بدأ الإسكندر ببحث الاقتراح في مجلس الشورى قال «بارمينو» أحد أصحاب الإسكندر: «لو كنت مكانك لقبلت». فرد الإسكندر على ذلك بالجواب المشهور: «وكذلك كنت أفعل لو كنت مكانك». وبدلاً من أن يقبل الإسكندر ذلك الاقتراح قصد مصر(عام 332 ق.م) بعد أن حاصر غزة زهاء شهرين جرح في المعركة في أثناء ذلك ثم زحف على مصر حيث لاقى مقاومة قليلة من الحاكم الفارسي. وقد أبحر من «منفس» وخطط بنفسه في موضع بين بحيرة مريوط والساحل

مكان الإسكندرية[1]، أشهر مدنه الجديدة. وقبل أن يتجه إلى بابل قام بعمل حكيم عندما أبقى إدارة البلاد بيد أهلها بالدرجة الأولى، ما عدا قيادة الحامية التي أودعها إلى قواده واحترم ديانتها وقدّم القرابين للآلهة المصرية ولقّب نفسه «ابن آمون» حيث زار معبد هذا الإله الذي أنبأه أنه سيحكم العالم.

ثم توجّه من بعد ذلك إلى العراق من قرب دير الزور[2] فسار شرقاً إلى دجلة وعبره بمسافة قليلة إلى شمالي الموصل. وسار إلى «كوكميلة» حيث وجد دارا معسكراً فجرت معركة كانت حاسمة في القضاء على الإخمينيين[3]. وكانت «كوكميلة» غربي نهر «الخازر»، شمالي غربي أربيل بنحو 20 ميلاً. ويميل الكثيرون إلى تسمية الموقعة باسم «أربلا»، ومصدره أن الإسكندر جلب الغنائم بعد انتهاء المعركة إلى (أربيل) إلى الجنوب الغربي من موضع المعركة بعشرين ميلاً.

بلغ جيش دارا، كما يروى، المليون رجل بضمنهم مرتزقة من الإغريق ومائة عربة ذات فؤوس. وكانت خيالته وحدها تربو على جيش الإسكندر بكامله (بلغ جيش الإسكندر زهاء 40,000 من المشاة ونحو 7000 فارس) فكان المقدونيون معرضين إلى حركة التفاف مفاجئة أو الهجوم عليهم من المؤخرة، ولذلك فإن خطط الإسكندر التعبوية تجاه هذه الصعوبات حرية

(1) تروي المآثر أنه بنى زهاء 170 إسكندرية، ولا يعلم مبلغ صحة ذلك ولكن المؤكد أنه بنى ما لا يقل عن عشرين مدينة وسمّاها الإسكندرية، بعضها في العراق وبعضها في بلاد إيران مثلاً في هيراة وهندوكوش.

(2) عبر الإسكندر الفرات في الموضع المسمى «ثبساكوس» جنوب غربي حلب، وقد أقام القائد «بارميتيو» جسراً هناك بعد أن فتح دمشق ثم التحق به جيش الإسكندر الأصلي.

(3) يبدو أن الجزع اشتد بدارا وحاول تسوية الأمر صلحاً مع الإسكندر فاقترح عليه إنهاء الحرب وجعل الفرات فاصلاً بين الأمبراطوريتين، وأنه يزوج ابنته من الإسكندر، وأن ابنه يبقى رهينة عنده على أن يطلق سراح أمه وابنته (وقد توفيت زوجته وهي لدى الإسكندر الذي دفنها باحتفال مهيب) ويقدم له مقابل ذلك فدية كبيرة (قدرها 30,000 وزنة من نقد الفضة)، وأنه سيقاسم الإسكندر سلطانه ويشاركه في الحكم بصفته زوج ابنته. ولكن الإسكندر رفض هذه العروض.

بالدرس والملاحظة. فبعد أن أنِف من تبييت عدوه رتّب جيوشه في الصباح واضعاً (بارمينيو) والخيالة في الميسرة، والصفوف في القلب، ووضع في الميمنة المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، ووضع جنداً من صنف كل من الميمنة والميسرة خلف ذلك بصورة منحرفة اتقاء حركة التفاف من العدو. وبدأت المعركة بتعرض جيش الإسكندر إلى حركة التفاف من ميسرة جيش العدو. فحمل الإسكندر تجاه ذلك متجهاً بهيئة مائلة إلى اليمين واستمرّ في نقل كتائبه وصفوفه الثقيلة في الاتجاه نفسه. فأمر دارا بهجوم على جناح الإسكندر ليصدهم، ولكن نبالة الإسكندر أسقطوا الخيول والسواق فأنفتحت كتائب المشاة وقد أحدثت العربات ثغرة في جناح الفرس الأيسر اقتحمها الإسكندر على رأس خيالته، شاطراً صف الفرس شطرين وزحفت الصفوف زحفاً عنيفاً على قلب جيش دارا، ففقد الملك الفارسي صوابه، فأدار عربته وولّى هارباً، وبعد ذلك بقليل تقرر مصير آسيا وكانت نهاية الأمبراطورية الفارسية الإخمينية. وبعد أن تمهل الإسكندر قليلاً في «أربيل» سار منحدراً إلى بابل.

لم يلاق الإسكندر حرباً في بابل بل إن الحاكم الفارسي (مازيوس) سلم المدينة إلى الفاتح. وأتبع الإسكندر في بابل سياسة التسامح والمداراة التي اتبعها في مصر. فأعاد الحاكم (مازيوس) إلى منصبه، وألقى في روع السكان أنه خلّصهم من اضطهاد البرابرة. وصمم على إعادة بناء معابد الآلهة. ومن الأمور المثيرة أن الإسكندر وجد صرح بابل المدرج الشهير العائد إلى مردوخ في حالة أنقاض (على أثر تدمير احشويرش) وقد قدر أن (عشرة آلاف رجل يعملون مدة شهرين لا يستطيعون رفع الأنقاض المتساقطة منه).

ترانا في غنى عن أن نتابع الإسكندر في حملاته إلى بلاد فارس بعد فتحه بابل إلى السوس ثم إلى (برسيبوليس) ذات القصور المحصّنة التي جعلها دارا فخر السلالة الإخمينية. وقد استراح هنا أربعة أشهر انغمس في خلالها في ولائم وأفراح، وقد أحرق قصر الملك في آخر وليمة على أثر سكر. فعندما ثمل القوم اقترحت إحدى البغايا التي تسمى (تايس) أن تضرم النار في

القصر (الذي طالما وضعت فيه خطط تدمير بلاد الإغريق) فبدأ الإسكندر بالشعلة الأولى، فتوهج البناء الشامخ بالنار التي التهمت أخشاب الأرز الثمينة والزخارف المنحوتة، وتوجه الإسكندر من «برسيبوليس» إلى «اكبتانا» العاصمة الماذية التي فرّ إليها دارا، ولكنه تركها في النهاية قاصداً بلاد البخت، وقبل أن يتوغل الملك التعس بعيداً ثارت عليه حاشيته وقتلته. وتابع الإسكندر تقدمه إلى أواسط آسيا وشمالي الهند وعند رجوعه مرّ ببلاد السند. ولقد بدأ التذمر والسخط يعمان جيش الإسكندر لاشتطاطه في مغامراته وأظهر عدم مطاوعته لمتابعة الإسكندر في مغامراته في مجاهل آسيا، فعاد إلى سوسة وهنا شرع في سياسته في مداراة الفرس وإشراكهم في الحكم، حتى أنه ألّف جيشاً من الإيرانيين الشبان ليتدربوا على أساليب الحرب الغربية. وشرع الإسكندر أيضاً في تحقيق إصلاحه بدمج الغرب بالشرق حتى أنه تزوج زوجة فارسية وحذا حذوه 80 قائداً من قواده و(10,000) جندي من جنوده. ومن بعد ذلك رجع إلى بابل وأقلع إلى أعالي دجلة من خليج فارس حتى «اوبس»، وقد أظهر أتباعه في «أوبس» تذمراً عظيماً فخطب بهم غاضباً وأرجعهم إلى الطاعة، وقد رفع في طريقه السكور التي وضعها الفرس ليعيقوا سير السفن في النهر.

لقد صمم الإسكندر على أن يجعل بابل مركزاً مهماً في أمبراطوريته لربط الغرب بالشرق وعزم على ربطها بطرق تجارية ليس بالهند فحسب بل بمصر بقنوات من البحر الأحمر والنيل حتى أنه شرع في بناء ميناء عظيم، وأخذ يهيئ في الوقت نفسه حملة إلى جزيرة العرب، وبعد ولائم دامت يومين وفي مساء بدء الحملة مرض الإسكندر بالحمى ومات في اليوم السادس (في حزيران من العام 323 ق.م) في قصر نبوخذنصر، ملك بابل الشهير. وهكذا انتهت حياة هذا الشاب العجيب (الذي جمع في عمر ثلاث وثلاثين سنة همم كثير من الأعمار وتجاربها) ولم يكن (موته نزوة من نزوات القضاء بقدر ما كان نتيجة حتمية للشدة التي احترق فيها لهب حياته) وقد دام حكمه ثلاث عشرة سنة وقد عرفت الثلاثة قرون التي أعقبت موت الإسكندر باسم العصر «الهلنستي» الذي

سنوجز عنه بعض الشيء. وقبل أن نبدأ بذلك نذكر بعض الملاحظات الأخرى المفيدة عن شخصية الإسكندر العجيبة، فأول ما يدهش في الإسكندر قابليته الفذة وفتوحه الخاطفة ثم موته وهو في ريعان الشباب، ولعل جسمه لم يتحمل الطاقة العظمى التي كانت تكمن في نفس هذا الشاب العجيب[1]. وقد يكون من حسن حظ الإسكندر أن يموت وهو في ذلك السن وفي أوج مجده، إذ لم يكن من المتوقع أن تزداد شهرته، بل الواقع أن بوادر الغرور والعجب بالنفس أخذت تبدو في سلوكه ولو أنه عاش أكثر من ذلك لارتكب على ما يرجّح حماقات تحط من شهرته الفذة التي اكتسبها. كما أن من المشكوك فيه أن يستغل هذا الشاب نجاحه المنقطع النظير في إدارة تلك الأمبراطورية العالمية وقد بدت عليه بوادر الثمل بنشوة النجاح والانتصار. ومن هذه البوادر الخطيرة أمارات العصبية التي تجلّت في قتله بعض خيرة قوّاده، وقتله الفيلسوف المشائي الشهير (من أتباع أرسطو، المسمى كليسثينيز)، وقد غضب أتباع أرسطو وأخذوا يشنعون به فساقوا نظرية تقول إن نجاح الإسكندر لم يكن عن حسن تدبير منه بل إنه تمّ بطريق الصدفة، وإن سقوطه وموته كانا بسبب تفاقم نجاحه وغروره. وبدأ الإسكندر أيضاً في أواخر أيامه يعجب بالتملق والإطراء حتى أنه قبل أن يجعله بعض المتزلفين ابن الإله «زوس» وابن الإله المصري أمون، كما أدخل عادة السجود بين يدي الملك واتخذ بعض العادات الأخرى الشائعة بين ملوك الشرق.

وعلى الرغم من أن الإسكندر لم يتح له الوقت الكافي لوضع أسس إدارة أمبراطوريته إلا أنه قام ببعض الإصلاحات منها تنظيماته المالية في التوفيق بين القيم الفارسية واليونانية، وكانت بابل ثانية مدينة مهمة في ضرب النقود في عهد الإسكندر. كما جعل إدارة الولايات مكوّنة من ثلاث سلطات،

---

(1) ولعل لآراء أرسطو دخلاً في سلوك الإسكندر واشتطاطه في إنهاك قواه الجسمية، حيث المبدأ المشهور القائل إن خير سلوك إنما يكون في فعالية النفس وسيطرتها على الجسم. ومن آثار ذلك ما اشتهر عن الإسكندر من عزوفه عن النساء.

من الحاكم العسكري والحاكم الإداري والمدير المالي، وقد اقتصر في الحكّام العسكريين على المقدونيين واليونان.

وننهي ملاحظاتنا هذه عن شخصية الإسكندر بالتنويه بأن الإسكندر وما اشتهر به من أعمال جسام صار موضوعاً طريفاً للقصص والأساطير لدى الأجيال التي أعقبته في مختلف الأزمان والأمكنة. وفي الآداب والقصص العربية شيء كثير من ذلك، حتى أن البعض يجعلون الإسكندر هو ذو القرنين المذكور في القرآن وأنه صاحب السد الخاص بيأجوج ومأجوج[1].

(1) انظر القرآن الكريم حول خبر ذي القرنين (سورة الكهف، الآية 82 فما بعد)، وحول قصص الإسكندر في الروايات العربية وتأريخ الإسكندر بوجه عام انظر:

(1) M. Lidzbarski, «Zu den Arabishen Alexander geschichte» in **Zeit. Für Assyrologie, VIII** (1893) 263 ff.

(2) Tarn, **Alexander the Great** (1947).

(3) A.R. Anderson, **Alexander's Gate, Gog and Magog and the Enclosed Nations** (1932).

مملكة السلوقيين

لقد رأينا مما مرّ بنا في كلامنا على الإسكندر أن الأمبراطورية الضخمة التي أسسها هذا الفاتح العظيم لم تعش من بعده إذ سرعان ما تحطمت من بعد موت مؤسسها، ودخل قواده وولاته في نزاع فيما بينهم من أجل الاستحواذ على أكبر حصة من أجزاء أمبراطوريته الواسعة وقد دامت تلك الحروب زهاء أربعين عاماً. ولم يكن عند موت الإسكندر من المدعيين بعرشه إلّا أخ أصغر منه كان مضطرب العقل، وكانت زوجته الريفية (روكسانه) قد ولدت ابناً ضاع حقه في المنازعات بين قوّاده. وقد برز من بين المدّعين المتخاصمين (من بعد معركة أبسوس عام 301 ق.م) ثلاثة من مشاهير قواد الإسكندر اقتسموا أمبراطوريته، فنجح أحدهم المسمى بطليموس في تأسيس سلالة البطالسة (البطالمة) في مصر، وصارت مقدونيا وبعض من بلاد اليونان من حصة القائد «أنتيكونس» (بالكاف الفارسية). ودخلت في حوزة القائد الثالث «سلوقس» بلاد الشام[1] والعراق وإيران.

لقد كان سلوقس من بين جميع خلفاء الإسكندر متشبعاً بآراء الإسكندر ومتعلقاً بمثله العليا ولا سيما تعلقه بالثقافة الهلينية ونشرها في الأقاليم الشرقية. كما كان على معرفة تامة بالإيرانيين وببلاد إيران فقد صار قائداً على جيش مؤلف من أشراف الفرس في عهد الإسكندر وقد تزوج نفسه بأميرة

(1) راجع ما ذكرناه عن أحوال بلاد الشام في العهد السلوقي.

فارسية هي «أفامه»[1] التي جاءت منها سلالة السلوقيين الحاكمة. وقد ورث أحسن أجزاء الأمبراطورية الفارسية الإخمينية وتنازل عن بعض الأقاليم الكائنة إلى الشرق من إيران إلى الملك الهندي «جندرا كوفتا» (مؤسس السلالة المورية التي اشتهرت بملكها أصوكا) مقابل ما جهزه هذا بأفيلة كان بحاجة إليها. ومما يذكر عن سلوقس أنه وضع الأسس الإدارية والسياسية والاقتصادية لأمبراطوريته، كما أنه قسمها إلى قسمين تقريباً، القسم الشرقي الذي شيّد له عاصمة جديدة هي سلوقية على دجلة في العراق وأسس في القسم الغربي (ومركزه بلاد الشام) العاصمة الثانية الشهيرة أنطاكية العاصي. وسماها باسم أبيه (أنطيوخس) وصارت أنطاكية من المراكز المهمة وأغنى مدينة في العالم آنذاك، وقد نافست الإسكندرية، كما صارت مركزاً مهماً من مراكز الحضارة الهلنستية. وقد أشرك سلوقس ابنه أنطيوخس الأول في الحكم، وجعله حاكماً على القسم الشرقي منها، ومقره سلوقية. ومع أهمية هذه المدينة إلا أن استقرار الملك نفسه في العاصمة الغربية قرب البحر المتوسط يشير إلى تغير في اتجاه السلوقيين في نقل مركز الثقل في سياستهم من الشرق إلى الغرب إلى قرب مركز العالم الهليني، وكان لهذا النقل أثر سيئ في تضاؤل سلطان السلوقيين ونفوذهم في الأقسام الشرقية حتى انفصلت عنهم نهائياً وآل أمرهم إلى أن انحصرت مملكتهم في بلاد الشام ثم ابتلعتها روما على ما سنبيّن فيما بعد. وكان تأسيس سلوقية على دجلة أهم عامل في موت مدينة بابل حيث بدأ أرباب التجارة والطبقات المهمة تهجرها إلى العاصمة المهمة، وتضاءل شأن بابل إلى مدينة صغيرة.

توالى على العرش السلوقي من بعد مؤسس المملكة سلوقس الأول ثمانية عشر ملكاً معظمهم باسم أنطيوخس وسلوقس، وسنرى أن أكثرهم كانوا ملوكاً ضعفاء، وأنه لم يكد يمضي قرن ونصف قرن على تأسيس المملكة على

---

(1) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على بلاد الشام أن سلوقس شيّد زهاء أربع مدن سميت باسم أفامه، أشهرها أفامية على العاصي.

يد سلوقس (312 ـ 280 ق.م) حتى فقدت جميع أراضيها في الشرق وانحصرت في سوريا. وظهرت أولى بوادر الضعف في عهد أنطيوخس الأول ابن سلوقس (الملقّب سوتير المخلص 280 ـ 261 ق.م) فقد استقلت في عهده بلاد فارس وأصبحت تابعة بالاسم فقط، كما أنه في عهد خلفه أنطيوخس الثاني (الملقب نيوس أي الله 261 ـ 246 ق.م) انفصلت أقاليم مهمة من أجزاء الأمبراطورية الشرقية. فقد انفصلت مملكة بلاد البخت التي أسسها الإغريق شرقي بلاد إيران[1]، وانفصلت بلاد الفرثيين من بعد عام واحد (249 ـ 248 ق.م). وقد حاول الملك الذي خلف أنطيوخس وهو سلوقس الثاني (646 ـ 226 ق.م) إعادة الأوضاع في الشرق فأرسل جيشاً على الفرثيين أوقع فيهم الهزيمة ولكن ثورة خطيرة في أنطاكية اضطرته إلى ترك بلاد إيران ومنعته من متابعة انتصاره، حيث عاد إلى سوريا، وتفاقم الحال من بعد موت سلوقس حيث فقد السلوقيون أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى.

وفي هذه المرحلة الحرجة من تأريخ السلوقيين جاء إلى العرش السلوقي ملك كفوء هو أنطيوخس الثالث الملقّب بالكبير (223 ـ 187 ق.م)، وقد تميّز هذا بمقدرة وبُعد نظر سياسي، فاستعادت في عهده المملكة سابق عهدها. فقد استطاع أن يخضع الولايات الثائرة وغزا بلاد إيران وسحق الثورات هناك، وحارب الفرثيين، وهزم ملكهم (ارشاق) فخضع له وقدم الجزية، فسار بجيشه المظفر إلى بلاد البخت وشنّ الحرب على ملكها الإغريقي «يوثيديموس» الذي

---

(1) كانت هذه المملكة تشمل أفغانستان الحالية وتمتد إلى شمال سيحون، وقد أسكن الإسكندر في هذه المواضع نحو (20,000) جندي من جنوده من المرضى والجرحى، وقد ثاروا من بعد موت الإسكندر مطالبين بإرجاعهم، ولكن بقيت منهم جماعة كوّنت قوة عسكرية في ذلك الإقليم، وبرز منهم شخص إغريقي باسم «ديودوتس» صار والياً على بلاد البخت، واستقلت هذه البلاد في عهد سلوقس الثاني عن سلطان السلوقيين وقد اندمج فيها الإغريق بالإيرانيين، واشتهرت بالزراعة والتجارة ولا سيما تجارة «الترانزيت» حيث كانت تربط إيران والغرب بالصين وجنوبي روسيا، وكانت هذه المملكة من جملة الوسائط التي انتشرت بها الثقافة الإغريقية في هذه الجهات وإلى الهند وأواسط آسيا.

أسس سلالة حاكمة جديدة وانتهت الحرب بين الطرفين بمعاهدة صداقة تزوج على أثرها ابنه «ديمتريوس» من ابنة الملك السلوقي، وعبر أنطيوخس من بعد ذلك هندوكوش فلاقى ملك الهند في وادي كابل وجدد معاهدة الصداقة السابقة. ورجع من بعد ذلك عن طريق خليج فارس إلى سلوقية. ويبدو أن نشوة هذه الانتصارات قد أثرت في أنطيوخس فقرر التحرش بالرومان، كما حاول فتح مصر ولكن الرومان حذروه من ذلك لأنه كانت لهم مصالح حيوية في الإسكندرية. كما عزم على استرجاع آسيا الصغرى ولم يكتف بذلك بل إنه عبر المضايق ليستولي على مقدونيا ولكن روما علمته درساً قاسياً حيث اندحر في معركة مع الجيوش الرومانية في مغنيسيا، وفرضت عليه معاهدة صلح (188 ق.م) لم يقتصر الأمر فيها على أنه فقد ممتلكاته في آسيا الصغرى بل فرضت عليه غرامة باهظة. وقتل من بعد ثلاث سنوات في غزوة له في بلاد اللر (لورستان). وقد ظهر في عهد أنطيوخس الكبير «يهوذا المكابي» الذي قاد ثورة اليهود في زمن أنطيوخس الرابع وقد نجحت الثورة، وأطلق لليهود حرية العبادة حسب شعائرهم الدينية، على ما بيّنا ذلك في كلامنا على تأريخ سوريا.

وكان أنطيوخس الرابع (175 ـ 164 ق.م) آخر ملك من السلوقيين وهو على شيء من القوة، وقد جاهد لمنع سير الأمبراطورية والمملكة إلى الانحلال والانهيار، ومع أنه نجح في حربه في مصر ضد البطالسة إلا أن هذا النصر لم يفده شيئاً. كما حاول توحيد الأقوام التابعين للسلوقيين عن طريق غرس الثقافة اليونانية فلم يفلح في هذه المحاولة. ولم يمض على موته عهد طويل حتى فقد السلوقيون العراق. وكانت نهاية السلوقيين بصفتهم عاملاً مؤثراً في التأريخ في زمن ملكهم المسمى أنطيوخس السابع (139 ـ 129 ق.م) إذ عظم في زمنه شأن الفرثيين في بلاد خراسان وامتدت فتوحهم من بلاد البخت إلى الفرات. وقد نجح أنطيوخس في بادىء الأمر في الاحتفاظ ببلاد بابل ولكن الملك الفرثي (افراهاط) الثاني دحر جيشه وأفنى معظمه في المعركة، وانتحر الملك السلوقي. وسنذكر أخبار السلالة الفرثية في البحث الخاص بالفرثيين. وتوالت على السلوقيين المحن بانفصال الولايات وظهور المدّعين والغاصبين في

العرش السلوقي، وانحصرت مملكتهم في سوريا، ثم فقدت استقلالها إزاء قوة روما المتعاظمة. وكان آخر ملوكهم أنطيوخس التاسع (115 ـ 95 ق.م).

ملاحظات عن العهد السلوقي في العراق:

دام العهد السلوقي في العراق زهاء القرنين (312 ـ 135 ق.م) وقد انتهى نفوذهم في العراق في عهد أنطيوخس السابع (الملقب سيديتس 8/ 139 ـ 129 ق.م) الذي دحره الملك الفرثي المسمى «افراهاط» الثاني (137 ـ 127 ق.م)، فانحصر نفوذ السلوقيين في سوريا وكانت مملكتهم قد أخذت في الانهيار حتى في سوريا إذ إنها تجزأت إلى ثلاث دويلات استمرت حتى 95 ق.م. ومما يجدر ذكره عن العهد السلوقي في العراق أن نوعاً من الانتعاش قد أصاب الحضارة البابلية، ولا سيما في علم الفلك والرياضيات فقد جاءتنا مجموعة من السجلات الفلكية والرياضية المهمة من عهد سلوقس (نيقاطور) (312 ـ 280 ق.م) تدوّن أرصاداً فلكية لها قيمة علمية كبيرة. وقد استمر الانتعاش إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. وجاءنا من عهد الملك التالي الذي خلف سلوقس وهو أنطيوخس (سوطر) (280 ـ 260 ق.م) نموذج من التدوين التأريخي يسجل بعض الحوادث المعاصرة من ذلك ذكر بعض المدن البابلية مثل بابل وكوثى وبورسبا وورد اسم سلوقية بصفتها مدينة الملك أي العاصمة، وجاءنا من زمن هذا الملك سجل (على ختم طين) بالخط المسماري دوّن فيه بعض أعمال الملك العمرانية مثل تعميره معبد الإله «نبو» في بورسبا. وقد سمى الملك نفسه في هذا الختم «ابن سلكو» المكدوني. وعلى الرغم من هذا الإحياء الطارىء على الخط المسماري فإنه كان يسير إلى الموت وقد انحصر استعماله في السجلات الفلكية والنصوص الرياضية وعدد قليل من العقود والوثائق التجارية وبعض الأعمال المتعلقة بالشعائر الدينية. ومن الطريف ذكره أن بعض ألواح الطين التي جاءتنا من هذا العهد قد كتبت باللغتين البابلية والإغريقية (لغة اليونان من القرن الثاني ق.م) إذ ترجمت فيها الكلمات البابلية. وقد استمر الخط المسماري في الحياة في

السنة 10 و9 و6 ق.م. ومما يذكر كذلك عن العهد السلوقي أن أحد الكهنة البابليين المسمى «برعوشا» (بيروسس) قد كتب جميع ما يعرفه عن تأريخ العراق في عهد الملك السلوقي «سلوقس» وقد كتبه باللغة اليونانية ولكن الأصل ضاع ولم يأتنا من كتاباته إلا الاقتباسات التي أخذها عنه بعض مؤرخي الرومان. وقد دوّن أثبات الملوك من أقدم الأزمان إلى عهد الإسكندر الكبير. وكانت كتابات برعوشا من جملة المصادر الرئيسية القليلة عن تأريخ العراق قبل أن تحلّ رموز الخط المسماري.

ملاحظات عن الأمبراطورية السلوقية:

1 ـ مع أن السلوقيين كانوا ضعفاء بالنسبة إلى البطالسة في مصر غير أنهم كانوا هم ورثة الإسكندر الكبير لأنهم أخذوا القسم الأعظم من أمبراطوريته وقد كانت تخوم مملكتهم في مبدأ الأمر تمتد من الساحل الإيجي إلى تخوم الهند ولكن أمبراطوريتهم لم تكن ثابتة في حدودها، وبالنظر لسعتها لم يكن من السهل حكمها والمحافظة عليها. ومما أضعف أمرها النزاع المستمر بين البطالسة وبين الملوك السلوقيين، وكانت أساطيل البطالسة عائقاً كبيراً في ازدهار التجارة في المملكة السلوقية، حتى أنه كان يعسر على السلوقيين الاتصال باليونان للتجارة أو بسط النفوذ. وآل أمر الأمبراطورية السلوقية إلى أنها انحصرت في ديار الشام، حتى أنها دُعيت باسم مملكة «سوريا»، ولكن إذا قيس حكم السلوقيين من الناحية الحضارية فإنه كان أهم من عهد البطالسة في مصر بالنظر لاستمرار الحضارة الإغريقية (بشكلها الهلنستي) في أنطاكية وغيرها من المدن. فقد نشأت جملة مدن إغريقية عاشت حياة إغريقية وتمتعت بنوع من الاستقلال السياسي مع اعترافها بالنفوذ السلوقي. وقد عمل مؤسس السلالة سلوقس وابنه أنطيوخس الأول على تشجيع قيام مثل هذه المدن والدويلات في آسيا الصغرى وفي سوريا وفي فارس وفي تخوم الهند التي نشأت فيها «دولة البخت» الإغريقية، وهكذا حقق هذان الملكان بعض ما كان يحلم به الإسكندر من بثّ الحضارة الإغريقية في

الشرق وتشجيع الإغريق على تأسيس مستعمرات لهم في أنحاء الشرق. وكانت هذه الدويلات جمهوريات صغيرة يدير شؤونها الداخلية السكان أنفسهم. وعن طريق هذه الدويلات وغيرها من طرق الاتصال انتشرت حضارة الإغريق في الشرق وتأثرت بحضارة الشرق فنشأت من التقاء الحضارتين حضارة يصحّ أن نعدّها حضارة إغريقية ولكنها متأثرة بحضارات الشرق، وهذه هي الحضارة التي أطلقنا عليها اسم الحضارة «الهلنستية» أي الحضارة الشبيهة بالهلينية. وسنذكر عنها بعض الشيء في موضع آخر. وكان من جملة هذه الدويلات الإغريقية مدينة نشأت على الفرات هي «دورا يوروبس» (الصالحية الآن) التي قامت في حدود 300 ق.م.، وعندما ظهر الفرثيون وعظم شأنهم صارت في حوزتهم، ولكن الرومان استعادوها منهم وصارت مدينة رومانية مهمة. وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت فيها مظاهر مهمة عن الحضارة الهلنستية والرومانية. ومن الدويلات التي نشأت في هذا العهد دولة عربية من الأنباط في «البتراء» فقد استغل الأنباط النزاع بين البطالمة والسلوقيين فأنشؤوا مملكة واتخذوا البتراء (سلع القديمة) عاصمة لهم، كما نشأت تدمر في أثناء النزاع بين الفرثيين الذين أعقبوا السلوقيين وبين الرومان. وقد ازدهرت دولة البتراء وعاشت زهاء الثلاثة قرون، منذ القرن الثاني ق.م. (164 ق.م) إلى أن أصبحت تحت نفوذ الرومان وضمها الأمبراطور تراجان في النهاية إلى الأمبراطورية الرومانية، وقد سيطر النبط أصحاب «البتراء» على طرق البادية المهمة المؤدية إلى موانىء البحر المتوسط وإلى موانىء اليمن فنافسوا تجار الإسكندرية الإغريق في تجارتهم بين الهند وأنحاء الأمبراطورية الرومانية. وقد صاحب انتعاش النبط الاقتصادي تعاظم في النفوذ السياسي، فامتد نفوذهم وسلطانهم من طور سيناء إلى دمشق ومن تيماء إلى بئر سبع.

وعلى الرغم من محاولة السلوقيين الاحتفاظ بالحضارة الإغريقية فإنهم لم يسلموا من تأثيرات الحضارات الشرقية، فكما أن الإسكندر الكبير قد تأثر بنظام الحكم في الشرق وصار ملكاً مقدساً يستمد سلطته من الآلهة كذلك اتخذ الملوك السلوقيون هذه العادات. فصار الملك ذا صبغة مقدسة بل إنه صار إلهاً تجب

عبادته والخضوع له. ولكن بوسعنا أن نقول إنه مع ضعف الأمبراطورية السلوقية فإنها هي التي حفظت الحضارة اليونانية في الشرق وسلمتها إلى روما.

2 ـ ومن الأمور التي تُذكر عن سياسة السلوقيين الأوائل في إدارة أمبراطوريتهم المؤلفة من أقوام مختلفة وبضمنها الأقوام الإيرانية ما سبق أن نوّهنا به من إدخال الجماعات الإغريقية في مواطن هذه الأقوام وتأسيس المستعمرات من الإغريق ومن هؤلاء وقد استهدف السلوقيون من ذلك عدا محاولتهم نشر الثقافة والنفوذ تسهيل شؤون إدارة الأمبراطورية، فأُنشئت المستعمرات العسكرية وغير العسكرية وهي عين السياسة التي شرع بها الإسكندر، وقد ظهرت هذه الخطة واضحة بوجه خاص في بلاد إيران حيث أُنشئت جملة مدن مهمة على الطريق العسكري بين سلوقية وبلاد البخت، وهو الطريق القديم المار من كرمنشاه وهمدان، ولإيصال هذا الطريق إلى البحر أسست ما لا يقل عن تسع مدن في سواحل خليج فارس ومن بين ذلك مدينة سُمِّيت أنطاكية في بوشير التي أخذت مكان مدينة عيلامية سابقة كما أعيد تأسيس «اكبتانا» وبنيت مدينة جنوبها وسميت باسم اللاذقية (نهاوند)، وسميت مدينة الري القديمة باسم «يوربوس» وكان سكان المدن الجديدة خليطين من السلوقيين والمواطنين المحليين. هذا وقد سبق أن رأينا المدن التي أسسها السلوقيون أو أعادوا تسميتها في بلاد الشام. وأوجد السلوقيون جهازاً كفوءاً في الإدارة واتبعوا نظاماً مالياً مرناً شبيهاً بالنظام الإخميني، وكان لهم جيش من الموظفين لجمع الضرائب.

ومما يلاحظ عن نتائج فتوح الإسكندر من تأسيس أمبراطوريته العالمية ثم انقسامها إلى ثلاث ممالك هلنستية (أو بالأحرى إلى ثلاث أمبراطوريات) أنها أوجدت انقلاباً في حياة العالم الاقتصادية آنذاك، بسبب الاتصالات الوثيقة بين أقطار العالم، بحيث إنه إذا وقع اضطراب ما في الحياة الاقتصادية لأحدها أثّر ذلك في الجهات الأخرى، كما أن أوضاع العالم الاقتصادية أصبحت تتأثر إلى حد كبير بالأوضاع الاقتصادية المحلية، وهذا حال لم يكن مألوفاً بهذه الدرجة في

الأزمان السابقة. كما أن انتشار العملة النقدية في هذه الرقاع الشاسعة واستعمالها أساساً للتعامل بمقياس لم يكن معهوداً من قبل كان له أثره البعيد في تطور العالم الاقتصادي. وإن الثروات الكبيرة والكنوز المعدنية التي وضعها فتح الإسكندر في السوق العالمية قد أثرت أثراً عميقاً بحيث إن قيمة الذهب والفضة قد هبطت عن قيمتها السابقة بنحو (50) بالمائة.

ومن الممكن القول إن المملكة السلوقية في العهد الذي شغل بحكم سلوقس الأول وخلفائه الأوائل قد ازدهرت في الناحية الاقتصادية. فقد تم نوع من التوازن بين الأجور والأسعار مما أدّى إلى تحسن أوضاع معيشة السكان[1]. وإن ازدياد أسعار الفائض يدل على ازدهار المصالح التجارية والطلب المتزايد على رأس المال. ولكن لم تدم هذه الحال من الموازنة والازدهار الاقتصادي زمناً طويلاً، إذ حلّ الاضطراب في المملكة السلوقية من جراء ضعف السلطة المركزية وضياع بعض الأقاليم المهمة، كما أن الأزمة تفاقمت بتدخل روما في الأقاليم السلوقية وتغير الأوضاع السياسية. ويرى بعض الباحثين أن الدولة السلوقية مؤسسة رأسمالية قوية، وكان الملك على رأس هذه المؤسسة، يدير احتكار المواد الخام والمواد المصنوعة وهذه بذور التصميم والسيطرة الاقتصادية في العهود الحديثة.

شيء عن الحضارة الهلنستية:

لقد نتجت فتوح الإسكندر في الشرق وقضاؤه على الأمبراطورية الفارسية الإخمينية كما مر بنا سابقاً نتائج أثرت في الحضارة البشرية بإمكاننا أن نحصرها في صنفين: نتائج سياسية ونتائج ثقافية (حضارية). أما النتائج

(1) يراجع في ذلك المرجعين المهمين:

(1) Ghirshman, Op. Cit., 219 ff.

(2) Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, II, ch, VI.

السياسية فهي تأسيس أمبراطورية أوروبية غربية ضمت إليها أقطار الشرق القديم المتمدن ونستطيع أن نعدها فاتحة النفوذ الأوروبي في الشرق.

أما النتائج الثقافية لفتح الإسكندر فإنها فاقت في أهميتها النتائج السياسية وكان لها تأثير بعيد المدى في سير الحضارة. لقد نشر الإسكندر الحضارة الهلينية في جميع الأقطار الشرقية. وكانت هذه الأقطار تعيش ببقايا من الحضارات الشرقية الآفلة مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية، وتحت نفوذ الفرس الإخمينيين الذين ورثوا عن هذه الحضارات. فالتقت الحضارة الإغريقية ببقايا حضارات الشرق. ونتج من هذا الالتقاء اقتباس الشرق الحضارة الإغريقية وتأثر الحضارة الإغريقية والإغريق أنفسهم بحضارات الشرق. فتكوّنت حضارة يصح أن نعدها خليطة، هي حضارة إغريقية متأثرة بحضارات الشرق. ولذلك نسميها بالحضارة الشبيهة بالهلينية أي الحضارة الهلنستية (Hellenistic) شملت القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح، أي القرون الثلاثة التي أعقبت موت الإسكندر، فمن أمثلة تأثر الغرب الإغريقي بالشرق انتشار الديانة المسيحية الشرقية من فلسطين إلى الغرب. وكان اليونان أول من اعتنق هذه الديانة من الأوروبيين ونشروها بدورهم في بعض جهات أوروبا.

ولهذه الحضارة أهمية خاصة لأنها عدا أهميتها في الحياة الشرقية والغربية كانت تراثاً مهماً للرومان عندما أخذوا يوسعون سلطة دولتهم ويزيدون في أسس تراثهم اللاتيني الضعيف. ويصح أن نعد الدولة الرومانية نفسها دولة «هلنستية». وانتقل تراث الإغريق إلى أوروبا الغربية في العصور الوسطى بهيئة حضارة «رومانية ـ هلنستية».

ومن مظاهر الحضارة الهلنستية انتشار اللغة الإغريقية في الشرق واستعمالها في معظم شؤون الحياة المهمة. وكانت هذه اللغة باللهجة «الأتيكية» التي صارت لغة العلم والحضارة. ومن أمثلة ذلك أن اليهود الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية قد اضطروا إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية ليتسنى لليهود المتعلمين أن يقرؤوا التوراة بسبب انتشار اللغة الإغريقية. وقد اشتهرت

في هذا العهد جملة مدن مهمة كانت مواطن لهذه الحضارة وعلى رأسها مدينة الإسكندرية المشهورة ويلي ذلك أنطاكية ومدن أخرى مثل سلوقية في العراق و«دورا يوروبس» (الصالحية الآن على الفرات) و«برغاموم» في ساحل آسيا الصغرى الغربي. وقد بلغت الحضارة الهلنستية في هذه المدن، ولا سيما في الإسكندرية، أوج نموها. ولعل أكثر ما تتّصف به هذه الحضارة «الحياة الحضرية» التي بلغت في كثير من أوجهها ومظاهرها حدّاً تشبه فيه الحياة العصرية (Modern) الحاضرة في أوجه المعيشة المختلفة كالترف والأناقة في البيوت والعيش واتساع التجارة وتجمع الثروة، وكان فيها اتجاهات واضحة في الاختراع وتطبيق العلوم على الاختراعات وصنع الآلات و«المكائن» لتحسين وسائل العيش المادية. ولعل أكثر ما يظهر ذلك في بناء البيوت والعمارات العامة وتجهيز دور السكنى بالمياه الجارية بالأنابيب، وبالحمامات وتصريف مياه القاذورات. وكانت الشوارع والبيوت والأبنية العامة توضع تصاميمها بالحساب والتخطيط.

ولكن حصل في نتاج الحضارة الهلنستية في الأدب والفن تدهور بالنسبة إلى الحضارة الإغريقية، ولا سيما من عهد «بريكلس». فقد نجد في النحت اتجاهات جديدة في زيادة المهارة واتساع مدى التعبير (كما في منحوتات برغاموم وهي الدويلة التي تكوّنت في ساحل آسيا الصغرى الغربي)، مما جعل بعض النقاد يقدرونه تقديراً عالياً. ولكن هذه الاتجاهات الجديدة في النحت لا تعوض ما فقده النحت من الخصائص في عهد الإغريق، ولا سيما بساطته وما يتّصف به من صدق التعبير. والتدهور الذي طرأ على الأدب أوضح من ذلك. فمن العبث أن نبحث في آداب هذا العهد عن الموسيقى الرزينة التي نجدها في أشعار «ايسكيلوس» و«سوفوكلس». وكان يغلب على شعراء هذا العهد أنهم من العلماء، كما في شعراء الإسكندرية. وقد تركوا مواضيع الشعر القديمة، وهي المواضيع «الدراماتيكية» كالحروب والمصير والنكبات، وصاروا يفضلون المواضيع المفرحة المسرة والنقد الهزلي. وعلى رأس هؤلاء الشاعر الكوميدي «مياندر» (342 ـ 290 ق.م) الذي أوجد هذا النوع الجديد من «الكوميدي»،

وأحب الشعراء كذلك مواضيع تصور مشاهد الطبيعة الجذابة كمشاهد الريف والرعاة والجداول والشجر، وقد صوروها بالشعر الموسيقي الجذاب، الذي كان يحبه سكان المدن المنشغلين بشؤون التجارة والأعمال. وكان أعظم شعراء هذا العهد في مثل هذه المواضيع شاعر صقلي اسمه «ثيوقريطس»[1] (القرن الثالث ق.م).

التعليم والعلم والفلسفة:

وبقي أن نقول كلمة موجزة في التعليم والعلم والفلسفة في هذا العهد. ولعل أول ما يلفت انتباهنا في هذا الموضوع كثرة المدارس نتيجة رغبة الناس في التعليم والتثقيف. وكان كثير من هذه المدارس على نفقة الدولة. وأسست المكتبات وخزانات الكتب وضمت فيها المؤلفات الكثيرة فقد قيل إن مكتبة الإسكندرية كانت تحتوي على نصف مليون مجلد (أي نصف مليون لفة من ورق البابيروس) وقد راج في هذا العهد فن استنساخ الكتب ونشرها، وترقى فن تنظيم خزانات الكتب، وكذلك علوم اللغة من نحو وصرف ومفردات. وقد ظهر في هذا العهد أول كتاب في نحو اللغة اليونانية ألفه «ديونيسوس» (120 ق.م) وقد أسس البطالسة في الإسكندرية تحت رعايتهم معهداً للبحوث سمي «المتحف» الذي كان يضم جماعة من العلماء والباحثين كان تحت تصرفهم الكتب والمختبرات ولهم الحرية في اختيار الموضوعات التي يريدون أن يبحثوا فيها. ولما كانت الرغبة في التحري والبحث عن الحقائق قد انتشرت في جميع الأقطار الواقعة تحت تأثير هذه الحضارة، فإن البحوث العلمية لم تنحصر في «متحف» الإسكندرية فقد عاش أرخميدس المشهور (287 ـ 212 ق.م) مثلاً في «سرقوسة» واشتهر بالرياضيات والفيزياء. وقد بنى البطالسة مرصداً فلكياً في الإسكندرية[2]. ومع أن التلسكوب لم يخترع فإن هذا المرصد

---

(1) وقد اكتسبت قصيدته (Idylls) مكانة في الأدب العالمي مدة ألفي عام.

(2) انظر كلامنا على تأريخ مصر حول الإسكندرية وخزانة كتبها وأخبار حرقها.

قد حقق ملاحظات واكتشافات فلكية مهمة. وكان أحد الفلكيين من أهل جزيرة «ساموس» (وهو أرستارخوس) قد برهن على أن الأرض والسيارات الأخرى تدور حول الشمس ولكن الظاهر أنه لم يأخذ بنظريته أحد من معاصريه. ومن مشاهير الفلكيين «راتوسثينيز» من علماء الإسكندرية (القرن الثالث ق.م) الذي كان أول من قاس حجم الأرض وكانت الطريقة التي اتبعها تدل على مهارة ومعرفة عالية، فإنه قاس الفرق بين سمت الشمس في نقطتين معينتين، أولاهما بئر في الشلال الأول من النيل والأخرى في الإسكندرية أي إنه قاس بالدرجات جزءاً من قوس محيط الأرض وهو الجزء الواقع بين الإسكندرية والشلال الأول ومن ذلك استطاع أن يحسب طول الدرجة من محيط الأرض. وقد حصل على نتيجة قريبة جداً من الواقع. ومن أعلام علماء الإسكندرية الرياضي الشهير «إقليدس» (القرن الثالث ق.م) الذي لا تزال هندسته تدرس في الوقت الحاضر. وقد اشتهر هذا العهد بالرحلات والاستكشافات الجغرافية، فتمكن الفلكي «اراتوسثينيز» الذي أشرنا إليه من تأليف كتاب في الجغرافية وقد رسم للعالم المعروف خريطة وضع فيها الأقاليم بصورة صحيحة، وكان أول جغرافي وضع في خريطته هذه خطوط الطول والعرض، فيكون بذلك مؤسس الجغرافية العلمية. أما البحوث الخاصة بعالم الحيوان والنبات فقد ظل أرسطو وتلاميذه القادة فيها، ولم يضف إليهم المتأخرون شيئاً يذكر. ولكن امتازت دراسة علم التشريح بأن صارت دراسة جسم الإنسان في «متحف» الإسكندرية تطبق على أجسام البشر من المجرمين المحكوم عليه بالإعدام، فاكتشفت بعض المعلومات عن الجملة العصبية. وصارت الإسكندرية بوجه عام مركزاً مهماً من مراكز البحوث الطبية في العالم القديم.

أما عن الفلسفة الهلنستية فقد احتفظت «أثينا» بالزعامة في الفلسفة حيث استمرت بحوثها في مدارسها المشهورة مثل «الأكاديمية» التي أسسها أفلاطون و«الليسيوم» التي أسسها أرسطو. ومع ذلك فإن المآثر وطرق البحث والمواضيع التي اشتهرت بها هذه المدارس لم تحقق متطلبات العهد الجديد. فمثلاً إن محور

التفكير السياسي الأخلاقي في كل من المدرستين كان يدور على «دولة المدينة» ولكن هذا النظام من الحكم لم يكن في العهد الجديد النظام الأساسي السائد. فبدلاً من دولة المدينة صار مصير الناس في حكومات ملكية ليس لهم فيها نصيب في إدارة الحكم، وعاش الناس في مجتمعات عالمية خليطة تركت عبادة الآلهة القديمة ومقاييس الأديان القديمة، فأصبحوا مجردين من إيمان ما أو من ضمان ما، فالتجأ أوساط الناس إلى عبادات أشبه ما تكون سرية كانت شائعة في الشرق وكانت عناصر مهمة دخلت في المسيحية. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن كلمة (Cosmopolitan) ترجع إلى هذا العهد، ومعناها المواطن العالمي.

أما الطبقة المثقفة فلم تتخل عن التعليل العقلي الفلسفي واستمرت في تحريها، ونشأ من ذلك نوعان من الفلسفة تميزان هذا العهد الجديد. وهما الفلسفة الرواقية[1] التي أسسها (زينو). والأخرى الفلسفة الأبيقورية لمؤسسها «أبيقور» وتتّفق الفلسفتان في نظرتهما التشاؤمية في تقدير الحياة والزهد بها وبقيمتها. ولكن لما كان محتماً على الإنسان أن يعيش هذه الحياة، فقد أوصى الرواقيون في فلسفتهم بمبدأ أخلاقي مبني على التحمل وعدم الاكتراث بالبؤس والتعرض إلى الألم. فكانت الفضيلة عندهم الصبر والتحمل. أما العلاج الذي ارتأته الفلسفة الأبيقورية فهو سبيل «اللذة والمسرة» ولكن اللذة والمسرة عند مؤسس الفلسفة تشمل لذة الجسم والعقل غير أن أتباعه لم يراعوا اللذتين على الدوام. ولذلك أصبحت الكلمة «أبيقوري» تعني عندنا الانغماس في اللذة والشهوة وتستعمل كلمات «رواقية» في لغات الغرب مرادفة للصبر والتحمل وعدم المبالاة[2].

---

(1) وهي Stoicism المشتقة من Stoa أي الرواق وهو رواق مشهور في أثينا كان يدرس عنده «زينو» مؤسس الفلسفة فعرفت فلسفته بالرواقية وأتباعه بالرواقيين. وزينو نفسه من أصل سامٍ من جزيرة قبرص وقد عاش بين القرنين الرابع والثالث ق.م.

(2) انظر كلامنا أيضاً على الفلسفة اليونانية في القسم الخامس من هذا الكتاب.

صورة تبين صفوف العمد الفخمة في القصر الملكي في برسيبوليس كما كانت عليه في الأصل.





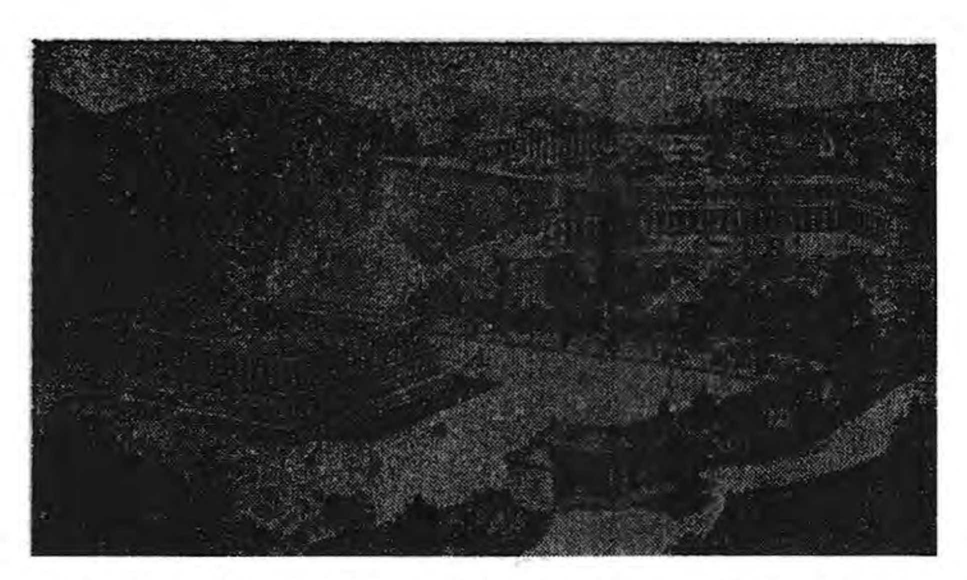
نماذج قديمة من النقود الفضية المسكوكة التي انتشر استعمالها في الأمبراطورية الفارسية من بعد اختراعها في ليديا (القرن السابع ق.م). فالرقم (1) نقد ليدي (550 ق.م) ورقم (2) نقد إغريقي من جزيرة خيوس (500 ق.م) ورقم (3) نقد كاري (650 ـ 550 ق.م) ورقم (4) دراخما (درهم) أثيني يرى في وجهه رأس الآلهة أثينا وفي قفاه بومة مع غصن زيتون واسم أثينا.



نماذج من جنود الفرس النبالة (يحمل هذان الجنديان الرماح لأنهما من حرس القصر الملكي). لاحظ زي لباس الجنود المقتبس عن الزي البابلي. صور مثل هؤلاء الجنود على جدران القصور بالآجر المزجج.



مشهد طريف يمثل نهاية موقعة إيسوس الشهيرة بين الإسكندر الكبير (وهو الشاب في الجهة اليسرى من الصورة) وبين دارا الثالث (الذي يشاهد في اللحظة التي أدار عربته في هربه).



بعض الأبنية العامة في مدينة «برغاموم» كما كانت عليه بالأصل. وبرغاموم مدينة شهيرة ازدهرت في العصر الهلنستي في الساحل الغربي من آسيا الصغرى وصارت في القرن الثالث ق.م. دولة مدينة مزدهرة في عهد خلفاء الإسكندر. ويشاهد في الصورة المرافق المهمة في المدينة كسوقها ومكتبتها الشهيرة وقصرها الملكي. وقد هدّد الأمبراطور الروماني تراجان (القرن الثاني للميلاد) بعض أبنيتها ولا سيما معابدها.



رأس منحوت من الرخام يمثل الإلهة أفروديت (من العهد الهلنستي أي السلوقي في العراق).

الفصل الخامس والثلاثون

الفرس الفرثيون والساسانيون

الفرثيون (247 ق.م. - 226ب.م):

لا يعرف بوجه التأكيد أصل الفرثيين الأوائل وتشير أزياؤهم وعاداتهم ولغتهم إلى أنهم كانوا من القبائل البدوية (الهندية الأوروبية) هذا وإن مصادرنا عن أصلهم قليلة ضئيلة، وتشير هذه المصادر القليلة إلى أنهم ينتمون إلى القبيلة المسماة «فرني» أو فارني (بارني (Parni)) وهذه بدورها من مجموعة قبائل اسكيثية واسعة اسمها «داهي» (Dahae) كانت تعيش حياة بدوية في السهوب الكائنة بين بحر قزوين وبحر آرال، واشتهرت بالفروسية والحرب. واسم الفرثيين نسبة إلى الإقليم الذي استولوا عليه في إيران، فقد قطنوا هضبة إيران في إقليم خراسان الذي يحدد بلاد فرثية. أما اسمهم وهو «الفرثيون» فقد عرفوا به بعد أن نزحوا إلى الجنوب إلى الإقليم الفارسي المسمى «بارثوا» (وهو إقليم خراسان) قبل 250 ق.م. ولذلك فإن اسم الفرثيين الوارد في المآثر الفارسية الإخمينية وفي المصادر اليونانية لا يشير إلى هؤلاء الفرثيين بل إلى أقوام أقدم عهداً استوطنوا في هذا الإقليم. وقد ورد ذكر هذه البلاد من أزمان أقدم في الأخبار الآشورية ولا سيما من عهد «أسرحدون» (القرن السابع ق.م) الذي أرسل حملة توغلت إلى جنوبي بحر قزوين وجاءت ببعض الأسرى من بلاد وردت باسم «برتوكا» وهذا هو إقليم «بارثوا» الوارد في أخبار كورش. فيتضح مما ذكرناه أن اسم الفرثيين نسبة إلى الإقليم الذي استوطنوه في إيران ولا يعلم الاسم الذي سموا به أنفسهم، ويرى بعض الباحثين أن اسم فرثي معناه

«محارب فارسي». وعرفت سلالة ملوكهم أيضاً بالأرشاقية نسبة إلى أرشاق (Arsaces) الذي كان أبرز شخصية قاد الثورة على السلوقيين. والمعروف عن تأريخ نشوء دولتهم أنه ظهر بينهم في حدود 250 ق.م. قائدان أخوان هما أرشاق الذي ذكرناه و«تيريداتس»، وقد قاد هذان جموع الفرثيين واستوليا على إقليم كبير في جوار بلاد البخت، كما استحوذا على الإقليم المسمى بلاد فرثية وقتلا الوالي من قبل السلوقيين.

وعلى الرغم من اختلاط الفرثيين بالأقوام الأخرى وتأثرهم بالحضارات الشرقية والحضارة الهلنستية فإنهم ظلوا يحافظون على عاداتهم البدوية القديمة مثل الفروسية والعصبية العائلية والقبلية والصيد والحرب اللذين كانا الشغل الشاغل لنبلائهم وأشرافهم. وامتاز الفرثيون بالدأب والعمل والمثابرة. ومهما كانت لغتهم الأصلية قبل استيطانهم في البلاد التي عرفوا بها فإنهم اتخذوا إحدى لهجات اللغة الفارسية المسماة «بهلويك» (أي البهلوي الفرثي) وكانت تكتب بالخط الآرامي، وهي قريبة الشبه بالبارسيك (أي البهلوية الساسانية). ويمكن إرجاع كلتا اللهجتين إلى اللغة الفارسية القديمة في العهد الإخميني. وقد اعتاد الفرثيون الكتابة في الرقوق مما كان سبباً لهلاك أكثر مآثرهم. وقد غزت الرقوق بلاد بابل وأخذت تحلّ محل الخط المسماري في الطين. ومما تجدر ملاحظته عن الكتابة في الرقوق أنها حفزت الصينيين في القرن الثاني للميلاد (105 للميلاد) على اختراع الورق.

بدأ ظهور الفرثيين كمملكة مستقلة في العهد السلوقي، في منتصف القرن الثالث ق.م.، في الوقت الذي كانت فيه المملكة السلوقية في مشاكل وشدائد ولا سيما في نزاعها مع البطالسة في مصر، فتشجعت الأقاليم الشرقية التابعة على الثورة على سلطة السلوقيين في عهد «أنطيوخس» الثاني فلما نجحت بلاد البخت في ثورتها تحفز الفرثيون فثاروا على السلوقيين وكان ذلك قبيل 247 ق.م. (لعله في 250 ق.م) وعندما نجح بالثورة «أرشاق» وأخوه في عام 247

عُدّت هذه السنة بداية العهد الفرثي[1] واستمرت الحروب بين الفرثيين والسلوقيين نزاعاً على الولايات الشرقية وكذلك على بلاد العراق. وقد سبق فتح العراق انتزاع بلاد ماذي من السلوقيين وحاول سلوقس الثاني أن يقضي على الفرثيين على ما ذكرنا في كلامنا على السلوقيين ولكن فشل بسبب الثورة التي اندلعت في أنطاكية. وبعد موت أرشاق الأول تفرد بالحكم من بعده أخوه تيريداتس الذي حكم زهاء 37 سنة تمكّن في خلالها من توطيد المملكة الفرثية وتوسيعها إلى الغرب، ونقل عاصمتها إلى مدينة أسسها الإغريق وسموها «هيكاتومبيلوس» ثم اتخذ الفرثيون مدينة اكبتانا القديمة ثم أسسوا طيسفون الشهيرة وتمثل لنا هذه العواصم مراحل توسع الفرثيين إلى الغرب. وخلف «تيريداتس» أرطبان الأول الذي لم يقو على مواجهة جيش أنطيوخس الثالث واضطر إلى الاعتراف بسيادة السلوقيين ولكن الملك الذي خلف أرطبان وهو «فريا فاطوس» (195 ق.م) انتهز فرصة اندحار انطيوخس الثالث على أيدي الرومان فأعاد الاستيلاء على إيران وتخليصها من نفوذ السلوقيين. وتحقق فتح العراق في عام 141 على يد الملك الفرثي (مثريداتس) الأول الذي يُعدّ المؤسس الحقيقي للأمبراطورية الفرثية فقد أدخل في مملكته جميع إيران تقريباً وضم بلاد بابل وآشور وسلوقية التي أبقاها على وضعها بدون تخريب ولكن الفرثيين أسسوا عاصمة جديدة في العراق في طيسفون التي ذكرناها سابقاً. واتخذ مثريداتس بصفته وريثاً للأمبراطورية الإخمينية لقب «الملك العظيم»، ولقّب نفسه «محب الهلينيين» مداراة منه للمستوطنات الإغريقية في إيران وقد مات مثريداتس في عام 137 ق.م. مخلفاً لابنه فراهاط الثاني (Phraates) أمبراطورية تمتد من الفرات إلى هراة. وبذل السلوقيون في عهد أنطيوخس السابع (سيدتس) آخر محاولة لاسترجاع الأقاليم السلوقية السابقة، فنجح هذا

---

(1) ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أنه وجد في نينوى لوح طين من بداية العهد الفرثي وهو مؤرخ تأريخاً مضاعفاً أي بتقويمين: بالعهد السلوقي وبالعهد الفرثي.

في اختراق ما بين النهرين وبلغ اكبتانا وكاد يقضي على الفرثيين، ولكن ثورات داخلية نشبت في بلاد إيران ضد الجيوش السلوقية مكّنت «فراهاط» من مباغتة السلوقيين وتمزيق جيشهم وقتل أنطيوخس وأسرت جيوشه وضمت إلى الفرثيين. وهكذا فشلت محاولة السلوقيين وانكمشوا في داخل سوريا على ما بيّنا سابقاً ولم تسلم سوريا من هجوم الفرثيين إلّا بانشغال فراهاط في صدّ الجموع الغفيرة من الاسكيثيين الذين كادوا يقضون على الدولة الفرثية حتى قتل الملك الفرثي في حربه معهم وخلفه عمه أو خاله المسمى أرطبان الثاني الذي قتل بدوره في المعارك فحل اضطراب شديد في المملكة الفرثية وانفصلت عنها جملة ولايات تابعة. وفي هذه الفترة الحرجة اعتلى عرش المملكة الفرثية مثريداتس الثاني (123 ق.م) الذي كان من أعاظم قادة الفرثيين فأعاد الأمور إلى سابق وضعها وخلص المملكة من الأخطار التي أحاقت بها فصدّ هجمات الاسكيثيين وأعاد الاستيلاء على الأقاليم التابعة ومما يذكر عن عهد هذا الملك الفرثي نشوء علاقات صداقة بين الفرثيين والصين لتسهيل التجارة فيما بينهما وسنلخص الأوضاع السياسية في المملكة الفرثية في كلامنا على الحروب الفرثية الرومانية. ولكن ظل النزاع مستمراً ولم يتثبت سلطان الفرثيين في العراق إلا منذ 135 ق.م. وظلوا يحكمون القطر حتى حلّ محلهم الفرس الساسانيون في 226 للميلاد. وبدخول الفرثيين العراق والأقاليم التي حواليه أخذوا يقتبسون نظم الإدارة القديمة ولا سيما النظم السلوقية، وكانت أمبراطوريتهم بوجه عام مقسمة إلى إمارات وممالك يحكمها حكّام يعينهم الملك وتميّزت دولتهم بكونها دولة إقطاعية بهيئة هرم قمته (ملك الملوك)، ومما يذكر عن الفرثيين أنهم كانوا يهدفون إلى استتباب السلم وحرية التبادل التجاري وقد حصلوا على موارد مالية من الضرائب والجزية والگمارك. ولكي يقضوا على أهمية العاصمة السلوقية القديمة بنوا بعض المدن الجديدة في العراق منها (طيسفون) (طاق كسرى) وكانت في عهدهم معسكراً للجنود. وبنوا كذلك قرب بابل مدينة عُرفت باسم (أولغاشية) نسبة إلى الملك الفرثي

(أولغاش) الأول (52 ـ 80)[1]. وكذلك أسسوا مدينة الحضر لتكون ثغراً على الطريق الآتي من بلاد بابل إلى نصيبين ويرجّح أن القصر الموجود في الحضر يعود إلى الملك «أورود» ولكن لا يعلم أي واحد من الملوك الذين سموا بهذا الاسم. وأظهرت التنقيبات التي أجراها الألمان في آشور أبنية فخمة شيدها الفرثيون هناك. ومع ذلك فإن بابل بقيت مركزاً مهماً للفرثيين ولا سيما لسكنهم في الشتاء. أما «اكبتانا» فقد اتخذوها عاصمتهم الشتوية المهمة في بلاد ماذي، وكانوا قد اتخذوا في مبدأ أمرهم مدينة «هيكاتو مبوليس» عاصمة لهم، وكانت هذه إحدى المدن الجديدة التي بناها الإسكندر في الإقليم الذي ظهر فيه الفرثيون وكان جزءاً من أمبراطورية الإسكندر وأمبراطورية خلفائه السلوقيين قبل ثورة الفرثيين واستقلالهم.

وبعد استتباب أمر الفرثيين في العراق نشأ بينهم وبين الرومان نزاع حاد على الشرق، فبعد تعاظم سلطة روما نشأت لها مصالح مهمة في بلاد الشرق وقد بدأ ذلك في الواقع في العهد السلوقي. وكانت الطرق التجارية المهمة المارّة بأقاليم الهلال الخصيب[2] من أبرز عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين، فقد تولدت عند الرومان مطامع استعمارية في هذه البلاد ومنها العراق. ونتج عن ذلك نشوب الحروب المستمرة بين الطرفين. والواقع أن أبرز أخبار الدولة الفرثية في العراق تتميز بالحروب مع الرومان التي استمرت إلى العهد الساساني كما سنوجز ذلك فيما بعد، وظهرت في هذا النزاع قوة ثالثة وهي دولة الأرمن الذين نافسوا الفرثيين منافسة خطيرة حتى أن أحد ملوك الأرمن

---

(1) من الباحثين من يعيّن أولغاشية بمدينة الكوفة.

Cook, A Glossary of Aramaic Inscriptions, 1898, p.18.

(2) كان أعظم طريق بري يمر من بلدان الهلال الخصيب هو الطريق العظيم الذي يربط الهند بأوروبا، وقد صار هذا الطريق من أهم عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين. ويوجد طريق بحري كان يمر من البحر الجنوبي إلى الهند، وقد ظل هذا الطريق بأيدي عرب الجنوب حتى القرن الأول للميلاد.

المسمى «تغرانيس» استطاع أن يضم ولاية ما بين النهرين إلى مملكته. والواقع أن الملك الفرثي «مثريداتس» هو الذي جاء بهذا الملك الأرمني وأجلسه على عرش المملكة الأرمنية على أثر تدخله بشؤونها، ولكنه استغل تدهور المملكة الفرثية من بعد موت «مثريداتس» فاستولى على جملة ولايات ووسع مملكته حتى أن السوريين رشحوه ليتولى عرش المملكة السلوقية بعد أن سئموا الحروب والمنازعات بين المدّعين في العرش من السلوقيين.

وقبل أن نذكر شيئاً من أخبار الحروب بين الرومان والفرثيين التي كان العراق ميداناً لها نذكر بعض المدن والحصون المهمة التي نشأ معظمها على التخوم الفاصلة بين الأمبراطوريتين وقرب الطرق المهمة وكان لها شأن مهم ليس في أخبار هذا النزاع وسير الحروب وإنما في تأريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام.

أنطاكية وحران ومدن أخرى:

وتأتي في مقدمة هذه المدن المهمة «أنطاكية» على العاصي. وقد رأينا خبر بنائها في عهد السلوقيين، ولكنها أصبحت مصراً كبيراً ومثلاً سائراً في الرخاء والبذخ وقد اتخذها أباطرة الرومان قاعدة لإعداد حملاتهم منها عبر الفرات إلى الشرق وهي تقع على الأكثر في واد ولكن أبراج أسوارها الشاهقة تشرف على الجبل المطلّ عليها. وقريب من أنطاكية مدينة «دفنى»، وقد جاء في الأساطير ما سبق أن ذكرناه من أن الإله «أبولو» طارد إلى هناك حورية فانقلبت شجرة دفلى. وقد اتخذ أثرياء الرومان مدينة دفنى محلاً للنزهة والولائم والعطل. وقد صارت عبارة «الأخلاق الدفنية» في اللغة اللاتينية تعبيراً عن انحلال الأخلاق. ولا تزال المدينة على شيء من فتنتها القديمة حيث الحدائق ذات الأوراق الكثيفة وشلالات المياه بين الأزهار إذ يختلط خريرها بتغريد العنادل وأصوات الطيور. وإلى الشرق من دفنى نجد «حران» المذكورة في التوراة وهي من المدن القديمة التي جاء ذكرها كثيراً في أخبار الدول القديمة في العراق واشتهرت في عهد الحضارة العربية الإسلامية، وقد سماها

الرومان (كرهي) (Carrhae) وتقوم حران في ملتقى طرق مهمة في العالم القديم، وتقع إلى الشمال منها بمسافة قليلة «أديسا»، وهي «الرها» المذكورة في الأخبار العربية وكانت عاصمة إقليم يدعى «أوسرينة» وتقوم الرها الآن في «أورفة» الحديثة. وقد حصّنها الرومان تحصيناً منيعاً.

ولعل أهم حصن على الطريق الشمالية المؤدية إلى العراق هي المدينة التي تسمى الآن (ديار بكر)، وهي (آمد) المدينة القديمة المهمة. وكان لها سور من حجر البازلت محيطه خمسة أميال يدور حوله سور آخر له ثمانون برجاً. وتقوم المدينة على مرتفع شاهق على دجلة، وينعطف النهر في مروره بقربها فتظهر كأنها جزيرة راكبة على مضيق وهي تحجز الطريق من بلاد ما بين النهرين إلى البلاد الجبلية فيما وراء ذلك. وقد شاهدت (آمد) (التي تلقب بالسوداء) تبدل مصائر كثير من الشعوب والأمبراطوريات، وكان تأريخها سلسلة من الحضارات والمذابح. وتقع بين آمد ونصيبين مدينة تسمى (دارا) أصبحت خرائب وأطلالاً بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية. وكانت في زمن تلك الأمبراطورية حصناً منيعاً ومعسكراً للجنود الرومان. وعلى الرغم من أنه لم يطرأ تغيير على اسم نصيبين من العهد الروماني فإنه لم يبق من جدرانها الرومانية شيء الآن. ومثل ذلك يقال في (سنجار) الواقعة إلى الجنوب بمسافة قليلة حيث تقع بلد سنجار الحالية على طنف من جبال سنجار.

البتراء وتدمر:

لقد ذكرنا في كلامنا عن العهد السلوقي كيف أن دويلة عربية من الأنباط قد نشأت في منطقة «البتراء» في أثناء النزاع بين السلوقيين والبطالسة، وقد اتخذت تلك الدولة «البتراء» (سالغ المذكورة في التوراة) عاصمة لها وازدهرت هذه الدولة وعاشت زهاء ثلاثة قرون منذ القرن الثاني ق.م. (164 ق.م). ومما يذكر عن «البتراء» أن كتاب اليونان والرومان قد قسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أجزاء مشهورة دعوا القسم الأول بلاد العرب السعيدة (اليمن) (Arabia Felix) والثاني بلاد «بترية» العربية (Arabia Petraea) والثالث اسم بلاد العرب

البادية (Arabia Deserta). وقد ذكرنا شيئاً من أخبار القسمين الأولين في الفصل الخاص بجزيرة العرب. وقد ظلت بلاد اليمن مستقلة في هذه العهود الأخيرة، وسيطرت روما على بادية الشام وبادية العراق. أما بلاد «البتراء» فكانت في مبدأ أمرها مستقلة ثم صارت تحت حماية الفرثيين، ثم انتقلت إلى نفوذ الرومان وقد ازدهرت في العهد الروماني ووصلت إلى أوج ازدهارها في القرن الأول للمسيح، وقد جعلها الرومان دولة حاجزة (Buffer state) ضد الفرثيين. ولعل أهم أسباب ازدهارها وقوعها في طرق التجارة المهمة ولا سيما طرق القوافل بين مصر وسوريا ومن الجهة الأخرى مع جنوبي الجزيرة[1]، فقد كانت الموضع الوحيد بين الأردن وأواسط الجزيرة العربية، وكانت حلقة مهمة في تجارة عرب اليمن. وتمتاز مدينة البتراء بمناعتها من جهاتها الثلاث ـ الشرق والغرب والجنوب إذ إنها منحوتة من حجارة الجبل الشامخ الذي يحيط بها من جهاتها ويصعب المرور منه حيث يدخل إليها من مجاز ضيق. واشتهرت البتراء ببناء مقدس كان بمثابة كعبة فيها لعبادة الإلٰه (ذو الشرا)، وهو كبير آلهة الأنباط، ومن آلهتهم (اللات). وقد دخلت عبادة (ذو الشرا) في العهد الهلنستي، وصار مثل إله الخمر اليوناني (ديونيسوس) أو باخوس الروماني. وقد بدأت دولة «البتراء» تتضاءل منذ القرن الثاني للميلاد وذلك عندما أخذ الطريق إلى الهند ينتقل بالتدريج بواسطة البحر فأخذ طريق القوافل من الشرق إلى الغرب يتحول تدريجياً إلى الشمال بالقرب من تدمر، فازدهرت تدمر على حساب «البتراء». وقد استولى تراجان على البتراء (105 للميلاد) وصارت مملكة النبط ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الرومانية فحل الظلام في تاريخ «البتراء» منذ ذلك الحين، وحلت محلها مدينة جرش وبصرى ومدن أخرى مما يعرف بالمدن العشر «ديكابوليس» (Decapolis).

---

(1) انظر .M. Rostovtzeff, Caravan Cities (Oxford, 1932)

تدمر (Palmyra):

ظهر شأن تدمر وأهميتها على أثر الأحوال التي نشأت من قيام الأمبراطورية الفرثية واستيلائها على بلاد الرافدين وكذلك بسبب الطرق الجديدة التي اتخذت بمقياس واسع من بعد القرن الأول الميلادي، وكانت مدينة تدمر تقوم في واحة وسط بادية الشام، وكان لها دور مهم في تأريخ الشرق في ذلك الحين وسنجد في أخبار الدولة الساسانية أن تدمر قد بلغت من القوة مبلغاً بحيث غزت عاصمة الفرس في العراق. وتقوم خرائبها العظيمة الآن وهي تشهد بما استطاع أن يفعله أهلها في مغالبة الطبيعة. ولما كانت تدمر تقع بين الأمبراطوريتين الرومانية والفرثية المتنافستين، فإن سلامتها كانت تتوقف على حفظ التوازن بين هاتين القوتين وتتوقف على حيادها. وساعدها موقعها الجغرافي المزوّد بالمياه العذبة على أن تكون ملتقى تجارياً مهماً ليس بين تجارة الغرب والشرق ولكن بين تجارة الجنوب والشمال، وهي التجارة الآتية من جنوبي الجزيرة العربية، ولا سيما من بلاد اليمن. وقد صارت مدينة البادية هذه في خلال القرنين الثاني والثالث من أغنى مدن الشرق الأدنى. واسم تدمر اسم قديم حيث كانت الواحات الواقعة فيها مقراً قديماً جاء ذكره باسم «تدمر الأموريين» في أخبار تجلاثبليزر الأول (1100 ق.م). وقد اندهش الرواة العرب بمبانيها حتى أنهم نسبوا بناءها إلى الجن، حيث اعتادوا أن ينسبوا الأبنية الضخمة العجيبة إليها[1] ويبدو أن تدمر وقعت تحت نفوذ الرومان في العهد الأمبراطوري القديم كما تشير إلى ذلك أخبار الرومان في بداية القرن الأول للميلاد. وصارت تدمر والمدن التابعة لها في زمن هادريان (117 ـ 38 م) تابعة إلى روما، وازداد نفوذ روما فيها في بداية القرن الثالث، ولكنها كانت تتمتع باستقلال في إدارتها الداخلية. وقد اهتم الرومان بتدمر وشعروا بخطورتها العسكرية لأن طريقهم من دمشق إلى الفرات كان يمرّ منها.

---

(1) ورد ذكرها بهذه الصفة في إشعار النابغة الذبياني حيث يقول:

إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية واحددها عن الفند

وخبر الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

يقع عهد ازدهار تدمر بين 130 و270 للميلاد وقد جاءتنا من عهد ازدهارها هذا نقوش تدمرية عديدة، واتّسعت تجارتها في عهد ازدهارها حتى بلغت الصين والواقع أنها ورثت «البتراء» في أهمية طرق التجارة. وميّز التدمريون أنفسهم بحادثة شهيرة سنشير إليها في بحث الساسانيين وهي أن أميرهم أو ملكهم الشهير «أذينة» قد استطاع أن يطرد سابور الأول في عام 265 من سوريا ويسلبه جزءاً من غنائمه، وكان سابور قد أسر الأمبراطور «فاليران» واستولى على جزء كبير من سوريا.

نشأ في منطقة تدمر نوع من حضارة خليطة من الحضارة الإغريقية والفرثية والسورية، وهي الحضارة الهلنستية بوجه عام مع تغييرات محلية امتازت بها تدمر، ويصح أن نسميها بالثقافة النبطية. ونشوء تلك الثقافة عن النبط لدليل على مؤهلات عرب البادية عندما تحين لهم الأحوال الملائمة. والذي لا يشك فيه أن أهل تدمر من أصل عربي كما تدل أسماء الأعلام الواردة في نقوشها وكذلك لغة تلك النقوش نفسها. وكانوا يتكلمون لهجة من الآرامية الغربية. وكانت ديانتهم تدور على عبادة الشمس، حيث يقوم الإله الشمس على رأس آلهتهم. وعندما انهارت تدمر خلفها في طرق التجارة مدن أخرى نشأت في بلاد الشام، وهي مدن آل غسان مثل بصرى في حوران. وكان أصل الغساسنة من اليمن وقد أسسوا دولة في سوريا مركزها إلى الجنوب الشرقي من دمشق في النهاية الشمالية للطريق المهم الذي يربط مأرب بدمشق وبمرور الأزمان تأثر الغساسنة بالثقافة الآرامية وتكلموا باللغة الآرامية السورية ولكنهم لم ينسوا لغتهم العربية الأصلية، وهكذا صاروا يتكلمون بلغتين، شأنهم شأن الكثير من القبائل العربية التي استوطنت بقاع الهلال الخصيب. وقد دخلوا في القرن الخامس للميلاد ضمن نفوذ البيزنطيين وكانوا نصارى، ولم تكن لهم عاصمة ثابتة فمرة كانت في الجابية في الجولان وصارت مرة في «جلق».

الحضر:

لقد سبق أن ذكرنا أن الحضر من المدن الفرثية المهمة التي نشأت في

هذا العهد على الطريق من بلاد بابل إلى نصيبين، وهي (حترا) (Hatra) التي اشتهرت في الأخبار العربية باسم الحضر. وتقوم خرائب الحضر الآن في وسط بادية جرداء تقع على مسافة ساعة ونصف الساعة من ناحية الشرقاط وقبل أن يصل المرء إلى الحضر يمرّ من وادي الثرثار المشهور الذي يكون جافاً في أكثر أوقات السنة ولكن تجري فيه المياه في الربيع من جبال سنجار ويذهب الثرثار إلى منخفض في البادية عرب سامراء. والحضر من المباني المشيّدة ومن آثار العراق القائمة المهمة، وهي مسورة بسور يبلغ محيطه ثلاثة أميال ويقوم في وسطها معبد وقصر لا تزال بقاياهما قائمة وهي مثال نادر للعمارة من العهد الفرثي. وقد حكمت في الحضر سلالة من أصل عربي كانت تحت نفوذ الفرثيين. وصارت الحضر مدينة مهمة في خلال القرن الثاني للميلاد، حيث جاء وصفها في هذا العهد بأنها مدينة كبيرة معمورة يحميها سور قوي ضخم، ويقوم في وسطها معبد لعبادة الإله الشمس وبوسعنا أن نضع زمن ازدهارها بين 100 ـ 300 للميلاد. وقد عانت الحضر عدداً من الحصارات الحربية لم تفلح معظمها لمناعة أسوارها وشجاعة أهلها. وقد فشل الأمبراطور تراجان أن يفتحها في عام 116 للميلاد وقد عانى أمبراطور آخر هو سويروس في فتحها في 198 للميلاد وجاء وصف أهل الحضر في الأخبار الرومانية بأنهم يحاربون بنوع غريب من النيران مخيفة مرعبة ولا سيما لمن يقابلهم أول مرة. ولعل هذه الإشارة إلى نيران النفط والقير السائل الذي كان يجلبه أهل الحضر من هيت والقيارة التي لا تبعد عنهم كثيراً.

وظلت المدينة في العهد الساساني، ولكن سابور الأول خربها في 250 للميلاد. وقد روت الأخبار العربية أن سابور لم يستطع فتح المدينة إلّا بخيانة ابنة ملك المدينة وهو الضيزن المذكور في الآداب العربية حيث تروي الأسطورة أن ابنة الملك أفشت لسابور سر الطلسم الذي يحفظ المدينة حيث وعدها بالزواج منها وبعد أن فتح سابور المدينة هالته خيانة ابنة الملك لأبيها، فقتلها شر قتلة بأن ربطها بمؤخرة فرس أطلقه بسرعة. ووصفت المدينة في عام 363 بأنها خرائب وأنقاض. وقد قام الألمان الذين نقبوا في آشور منذ 1904 م

بدرس الموضع فوضعوا له الخطط ودرسوا بقاياه في 1911 م. وشرعت مديرية الآثار العراقية بالتنقيب في المدينة (مارت 1951 م) وقد أظهرت نتائج التحريات لنا أموراً مهمة عن المدينة وعن العهد الفرثي في العراق[1].

الحروب بين الرومان والفرثيين:

لعل أقدم علاقات بين الفرثيين والرومان ترجع في عهدها إلى محاولة الفرثيين لعقد علاقات صداقة مع الرومان لما جاء الجيش الروماني بقيادة «سلا» (Sulla) في عام 92 ق.م. إلى الفرات لمحاربة مملكة الأرمن في عهد ملكها «تغرانيس» الذي حالف ملك إقليم البحر الأسود (مملكة البنتس) فأرسل إليه الملك الفرثي مثريداتس وفداً لعقد الحلف بين الطرفين ولكن الرومان احتقروا الوفد الفرثي ورفضوا مقترحاته فما كان من الملك الفرثي إلا أن صالح ملك الأرمن وملك البحر الأسود وهجم على الجيش الروماني وأوقع فيه خسائر فادحة علّمت الرومان درساً قاسياً عن قوة الفرثيين الذين استهانوا بهم، واضطروا إلى عقد معاهدة حياد تمّت بين الملك الفرثي فراهاط الثاني وبين لوكولوس الروماني وجددت في عهد «بومبي» ولكن هذا نقض المعاهدة بعدئذ واستولى على الأقاليم الغربية التابعة للفرثيين، وساء الوضع في المملكة الفرثية حيث اغتيل فراهاط وبعد منازعات جاء إلى العرش (اورود) (57 ـ 53 ق.م). وعين في هذا الأثناء «كراسوس» حاكماً رومانياً على سوريا فأعتقد هذا أن الاستيلاء على بلاد إيران أمراً سهلاً. فنشبت بين الطرفين في حران معركة (53 ق.م) نكب فيها الرومان نكبة مريعة فني فيها معظم الجيش الروماني وقتل «كراسوس» نفسه.

ولأن هذه أول معركة بين الرومان والفرثيين فيجدر بنا أن نصفها بالإيجاز لنقف منها على طرق الحرب عند الطرفين. فقد كانت طريقة الهجوم

---

(1) لا يسعنا ذكر هذه النتائج في هذا الموجز فنحيل القارىء إلى ما نشر عنها في مجلة الآثار العراقية سومر (مجلد 7، 1951، مجلد 8، 1952، ومجلد 9، 1953، مجلد 10، 1955).

عند الفرثيين في هذه الموقعة تمتاز بالسرعة، سرعة الكر والفر، وكثيرة الشبه بما يشاهده المرء في حروب الهنود الحمر في أمريكا في الأفلام السينمائية أو حروب القبائل البدوية. والذي أدهش القائد الروماني (وكان قائد الفرثيين محارباً شهيراً اسمه سورينا) أنه لم يجد وحدة من جيش العدو ثابتة يهجم عليها، وبدلاً من ذلك فقد طوّقت جيشه خيالة العدو من رماة النبل المسلحين بالأسلحة الخفيفة فأمطرته بوابل من السهام المميتة بدون أن تعرّض نفسها لقذائف الرومان وكان عند الفرثيين بالإضافة إلى الخيالة من ذوي الأسلحة الخفيفة كتائب فرسان ثقيلة مسلّحة بالصلب اللماع حتى ركب الخيل. لقد صبر (كراسوس) وهو يشاهد السهام الفرثية تفتك بجموعه وقد ظن أن الفرسان ستنفد ذخيرتهم من السهام، ولكن يا لشدة فزعه إذ شاهد أن كل فارس بعد أن يرمي آخر سهم يرجع إلى الوراء مسافة فيحصل على ذخيرة جديدة من كنائن السهام التي كانت محمّلة على الجمال في المؤخرة. فرأى أن يهجم في الحال، فأوعز إلى قوة مختارة عنده قوامها 6000 آلاف رجل من الغاليين (الفرنسيين) أرسلهم يوليوس قيصر من أوروبا أن يهجموا على الجنود الفرثيين المدججين بالسلاح وقد ظهروا من مخبأ لهم في غابة في تلك اللحظة. فحل بالفرثيين الاضطراب الظاهري وانهزموا حتى انقطع اتصالهم بالجيش الرئيسي. ولكنهم رجعوا على حين غرة فأعادوا حشدهم وكروا على مهاجميهم بصف متراص من المعدن البراق، فاستبسل الغاليون في الحرب ولكن الفرثيين كثروهم فأبادوهم عن بكرة أبيهم تقريباً. وكان يقودهم ابن القائد كراسوس نفسه، ولما رأى هذا ما حل بجيشه أمر حامل ترسه أن يساعده في الانتحار تخلّصاً من العار حيث كان الباقي الوحيد من جميع الجيش. وعندما تراجع جيش كراسوس في اليوم التالي قتل ثلاثة أرباعه، وكان من بينهم (كراسوس) نفسه وكان عمره آنذاك ستين عاماً. وقد روى لنا المؤرخ (فلوطرخ) أن رأسه أرسل إلى أرمينيا حيث كان الملك الفرثي (أوروود) وقد صادف وصول الرأس إلى هناك تمثيل رواية للروائي اليوناني (يوربيذر) (واسمها باخي)، وكان من جملة مشاهدها رأس مقطوع فاستعمل الممثل رأس (كراسوس) لتمثيل ذلك

المشهد. وقد هزّت أنباء هذه النكبة يوليوس قيصر فأخذ يعدّ حملة للثأر من الفرثيين ولكنه قتل قبل أن يحقق ذلك المشروع.

انتهز الفرثيون فترة الاضطرابات التي حلّت في روما بعد مقتل قيصر فوسعوا فتوحهم إلى الغرب وأخذوا سوريا وفينيقيا. فأعدّ العدة (مارك أنطوني) الذي كان في مصر لوقف الزحف الفرثي، فانتصر الجيش الذي أرسله على الملك الفرثي (فاقور) الذي خلف أباه (أورود). وقد قتل الملك الفرثي نفسه. وتشجع (أنطوني) بهذا الانتصار فأراد غزو المملكة الفرثية نفسها، ولكن حلفاءه الأرمن لم يوافقوه وحبذوا له بدلاً من ذلك الهجوم على البلاد الماذية في شمالي فارس، ولكنه تراجع واندحر اندحاراً مفجعاً وفقد قسماً من جيشه، فعاد إلى الإسكندرية ليتناسى في أحضان كليوباترا ذلك الفشل الذي حلّ به.

وحلّ من بعد ذلك توقع النزاع بين الطرفين زمناً ما وعقدت معاهدة سلم بينها في أول سنة للميلاد في عهد فراهاط الرابع وأوغسطس، وأعقب ذلك زمن غامض في تأريخ الدولة الفرثية وتأريخ العراق. إن سياسة المصالحة والتعايش السلمي التي اتبعها الرومان في عهد أوكتافيوس (أوغسطس) إنما نشأت بسبب إدراك الرومان لقوة الفرثيين أولاً ولأنهم لم يروا في الفرثيين تهديداً للأمبراطورية الرومانية لو تركوهم وشأنهم. ولضمان سلامة تخوم الأمبراطورية الرومانية اتبع الرومان سياسة إنشاء دويلات حاجزة إزاء الفرثيين، فمن هذه الدويلات دولة تدمر وأرمينيا حيث قبل الفرثيون أن ينصب الرومان على أرمينيا ملكاً ممالئاً لهم، ولكن هذه السياسة لم ترض الفرثيين باستثناء ملكهم فحدثت اضطرابات في داخل المملكة بسبب هذه السياسة التي اتبعها الملك الفرثي، وأخذت روما تتدخل في شؤون العرش الفرثي حتى أنها ساندت الملك الفرثي «فراهاط» الخامس الذي سمّ أباه وكانت مساعدة الرومان له بشرط أن يتنازل عن أرمينيا، ولكن سرعان ما خلع هذا الملك الشاب، ورجا أشراف الفرثيين من أوغسطس أن يرسل لهم أحد أبناء «فراهاط

الرابع» الموجودين في روما حيث سبق لأبيهم أن أرسلهم إلى البلاط الروماني ليثقفوا هناك على أثر الصلح الذي تمّ بين فراهاط الرابع وبين أوغسطس، فعاد الابن المسمى «أونون» الأول (Vonones) ولكن هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه زمناً طويلاً لأن أشراف الفرثيين اشمئزوا من ثقافته الغربية، فخلعوه ولاحقوه إلى سوريا حيث قتل هناك. وتولى العرش الفرثي أرطبان الثالث المتحدر عن طريق النساء من السلالة الإرشاقية. وحصل انتعاش في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده مما جعل الرومان يحسبون لذلك حساباً فأخذوا يتدخلون في شؤون المملكة الفرثية مرة أخرى ولعل الثورة التي اندلعت في سلوقية ضد أرطبان الثالث كانت بتحريض الرومان، وقد دامت زهاء سبع سنوات وتدخلت روما أيضاً في عرش أرمينيا.

انتهى السلم في زمن الأمبراطور الروماني (تراجان) فبدأت الجيوش الرومانية تنحدر إلى الفرات بلا انقطاع تقريباً، وكانت في كثير من الأحايين تصل إلى بلاد بابل، ونهبت العاصمة طيسفون مراراً. ولعل سبب استئناف الحرب مع الفرثيين في زمن تراجان ولع هذا الأمبراطور بتقليد الإسكندر الكبير حتى أنه سار على كثير من أساليب حروبه. وقد بدأ حملته من أنطاكية (115 للميلاد) وحمل القوارب التي صنعت في نصيبين على عربات لنقلها إلى جزيرة ابن عمر. ونجح الجيش الروماني في عبور دجلة بعد مقاومة ومن ثم جاء الجيش إلى قرب الموصل ففتحت المدن هناك. وكانت هذه المنطقة كلها تسمى (إقليم حدياب) فضم هذا الإقليم إلى الأمبراطورية الرومانية. ومن الغريب في أمر تراجان أنه لم يزحف على العاصمة الفرثية رأساً بل إنه عاد فعبر دجلة واتجه غرباً قاطعاً البادية التي تفصل النهرين وقد مرّ بالحضر (في 116 للميلاد) كما ذكرنا سابقاً، ولكنه لم يستطع فتحها فسار إلى الفرات واتصل بأسطول ثان كان قد انحدر إلى النهر في أثناء ذلك فسار به في النهر إلى بابل. وكان الملك الفرثي (خسرو) (106 ـ 129 ق.م) يراقب الأمور عن كثب حتى أن تراجان أخذ طيسفون بدون مقاومة وغنم كنوزاً كثيرة، ومن ثم سار في النهر إلى أسفل دجلة حتى خليج فارس وفيما هو في نزهته هذه

حالماً في غزو الهند على مثال الإسكندر جاءته أنباء مروّعة من الشمال. ذلك أن الملك الفرثي عاد وفتح جميع المدن التي أخذها الجيش الروماني فاضطر الأمبراطور أن يسرع بالعودة في حر الصيف وقد أحاط به الأعداء من كل جانب. ومات تراجان في الحملة، فتنازل خلفه (هادريان) عن الأقاليم المفتوحة إلى الفرثيين وارتد إلى ما وراء الفرات. وبعد خمسين سنة من ذلك غزا العاصمة الفرثية طيسفون قائد روماني اسمه (كاسيوس) أرسله الأمبراطور (مرقس أوريليوس) وتكررت الهجمات من بعد ذلك على المملكة الفرثية. وكان آخر هجوم ما قام به (كراكاله) وقد كان هذا قاسياً سفاحاً. فبعد أن نجح في حربه أبدى للفرثيين كأنه يريد الصلح حتى أنه طلب ابنة الملك ليتزوجها، وعندما خرج الناس من طيسفون وهم فرحون لمشاهدة الاحتفال بالزواج أعمل فيهم السيف وانتهك قبور الفرثيين الملكية في أثناء رجوعه من قرب الموصل. ومع ما كان عليه الفرثيون من الضعف فإنهم انتقموا من هذا الملك الفاجر، فقد اغتيل (كراكاله) نفسه. وحدثت آخر الحروب في عهد الملك الفرثي (أرطبان) الخامس آخر ملوك الفرثيين والأمبراطور الروماني «مكرينوس»، حيث وقعت معركة شديدة قرب نصيبين قتل فيها خلق كثيرون، وانتهت الحرب أخيراً بمعاهدة صلح أرجع بموجبها الرومان جميع الغنائم والأسرى التي أخذها (كراكاله) كما أنهم دفعوا مبلغاً كبيراً من المال للملك الفرثي، وهكذا فشل الرومان من بعد محاولات كثيرة دامت طوال قرنين ونصف القرن في جعل إيران تابعة لهم والاستيلاء على أقاليم الأمبراطورية الفرثية.

وكما كانت هذه الحرب آخر الحروب بين الرومان والفرثيين فإنها كانت كذلك آخر حياة الفرثيين حيث خلفتهم من بعد ذلك سلالة فارسية أخرى هم الساسانيون، الذين استمر في عهدهم النزاع والحروب مع الرومان على ما سنرى ذلك في كلامنا على الساسانيين. ومما يقال عن أثر تلك الحروب في الدولة الفرثية أنها كانت من بين العوامل المهمة في القضاء على السلالة الفرثية، ويضاف إلى هذا العامل المؤامرات والحروب الكثيرة بين أمراء

الفرثيين على العرش مما أضعف النظام الإقطاعي الفرثي وسبب تمرّد أمراء الإقطاع على ملوك السلالة. وكانت أخطر الثورات التي قضت على حياة الدولة الفرثية ثورة أمراء فارس وعلى رأسهم (أردشير) الساساني بن (بابك) ابن ساسان الذي نسبت إليه السلالة الجديدة، وكانت الثورة القاضية في عهد الملك الفرثي (أرطبان) الخامس الذي قضى عليه أردشير في حدود 227 للميلاد، وبعد زمن قليل دانت جميع بلاد إيران إلى الساسانيين ودخل العراق في حكمهم أيضاً وسنوجز أخبار الدولة الساسانية بعد قليل.

شيء عن التنظيم الإداري للأمبراطورية الفرثية:

1 ـ كانت سلطة السلالة الارشاقية تستند في قوتها إلى الأسر النبيلة من قبيلة الفارني (Parni) أي الفرثيين، وبإمكاننا أن ننظر إلى انتقال السلطة بيد الفرثيين على بلاد إيران أنه يمثل انتصار الإيرانيين الشماليين على الإيرانيين الجنوبيين، أي بعبارة أخرى تفوق الإيرانيين البدو على الإيرانيين المستقرين المتحضرين المتميزين بتراثهم الحضاري المستمد من حضارات الشرق الأدنى القديمة مع الصبغة الهلينية التي أدخلها الإسكندر. وكانت الفروق بين الفرثيين وبين الأقسام المتحضرة من إيران فروقاً واسعة بحيث لم يستطع تسويتها الحكم الفرثي بعد مرور أزمان طويلة. وكثيراً ما كان الإيرانيون المتحضرون يظهرون العداء إزاء الحكم الفرثي، وهو أمر شعر به الفرثيون بحيث إنهم لم يعتمدوا إبان الأزمات على مساعدة بلاد فارس وماذي وإنما كان جلّ اعتمادهم على أقربائهم من القبائل المستوطنة في السهوب إلى الشرق من قزوين، وهكذا فإن صلة الفرثيين بأقربائهم الشرقيين لم تنقطع، حتى أن مآثر الأمم المجاورة مثل الأرمن ربطت السلالة الفرثية الحاكمة بالسلالة الكوشانية التي ظهرت من البدو الإيرانيين.

2 ـ وتذكر لنا المصادر الكلاسيكية (ولا سيما الرومانية) أن ثماني عشرة دولة كانت تابعة إلى الفرثيين، وقد قسمتها هذه المصادر إلى نوعين، سموا إحدى عشرة منها بالأقاليم المهمة والباقي أقاليم صغيرة دون الأولى في

الأهمية، ومن أمثلة الصنف الأول ماذي وفارس وأرمينيا وعيلام و«خراكينة»[1] أو (كرخينة)، وكان بعض هذه الأقاليم على درجة كبيرة من الاستقلال الداخلي بحيث كانت تسك النقود باسمها، ولكنها تعترف بسيادة الفرثيين وتدفع الضرائب المعينة. أما بقية الأقاليم فكانت مقسمة إلى ولايات يحكم كلاً منها وال من النبلاء الفرثيين، وكانت وظائف هؤلاء الولاة على الأغلب وراثية.

وكان أساس الحكم الفرثي النظام الإقطاعي الذي كان يشبه إلى حدّ بعيد النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى. واشتهر من أمراء الإقطاع سبع أسر نبيلة كبيرة على رأسها السلالة الإرشاقية التي هي قمة الهرم. وكان يتبع هذه الأسر الكبيرة سلسلة كبيرة من الأمراء والفرسان ويأتي في أسفل الهرم، في القاعدة جموع الفلاحين والطبقات الدنيا من المحاربين والتابعين، وكانت الروابط التي تربط بين النبلاء الكبار وبين تابعيهم الصغار من الفرسان المحاربين أقوى من الصلات التي تربط هؤلاء النبلاء بالملك. ولم يكن هناك نظام خاص بتولي العرش، كما لم يكن من الضروري أن يخلف الابن أباه، إذ كانت الطبقة النبيلة الأرستقراطية عاملاً مهماً في تعيين الملك الجديد، حيث يظهر الأشراف إرادتهم في انتخاب الملك الجديد في مجلس خاص بالنبلاء، وهو نوع من «السنات» كان يحدد السلطات والامتيازات الملكية وحقوق الملك. وهناك مجلس آخر للدولة مهمته استشارية يتألف من طبقة المجوس (Magi) والحكماء وكان هذا المجلس قريب الصلة من العرش[2]. وكانت طبقة النبلاء أساس قوة العرش الفرثي بيد أنها صارت في النهاية أهم عامل في سقوطه.

---

(1) (Charcene) دويلة صغيرة نشأت في جنوبي بلاد بابل واستقلت عن السلوقيين مستغلة ضعف السلوقيين على أثر اندحار الملك السلوقي أنطيوخس الثالث 223 ـ 187 ق.م. على أيدي الرومان، وقد تدرجت في البأس حتى أصبحت في العهد الفرثي من الدول المهمة التابعة للفرثيين.

(2) Ghirshman, Iran, 264.

ويبدو أن الفرثيين ليسوا هم الذين أدخلوا النظام الإقطاعي إلى إيران وإنما ورثوه عن الإخمينيين، وخلفوه بدورهم إلى الساسانيين، وظل في الوجود بشكل محوّر في العهد الإسلامي، وقد سبق أن نوّهنا بتفاقم نفوذ الطبقات النبيلة وتدخلها في شؤون التاج، فكانت تقيم الملوك وتخلعهم، فاستفاد الرومان المنافسون للأمبراطورية الفرثية من هذه الاضطرابات الداخلية وكثر المدّعون بالعرش في المملكة الفرثية، وكثرت الحروب الأهلية، وكان من يفقد عرشه على أثر هذه الحروب يلتجىء إما إلى القبائل المتاخمة إلى جهة الشرق أو إلى الدولة الرومانية للحصول على المساعدة.

3 ـ استمر المجتمع الإيراني في عهد الفرثيين على مآثره وتقاليده، فكان الشغل الشاغل للنبلاء الحرب والصيد، ولم يكن للفرثيين جيش نظامي، أما بصدد قواتهم المحاربة فمن تنظيماتهم الاجتماعية، فكان لكل إقطاعي جيشه الخاص به من أتباعه الفرسان، وفي حالة الحرب يقدم إلى الملك خدمته هو وأتباعه المحاربون من الأحرار والرق، ففي موقعة حران الشهيرة التي دحر بها الفرثيون الجيش الروماني كان فرسان القائد الفرثي (سورينا) مؤلفين بالدرجة الأولى من أتباعه. وكان النبلاء الكبار يجهزون الجيش الفرثي بالفرسان المسلحين تسليحاً ثقيلاً والمدرعين بالزرد مما يعرف بمصطلح «كتفركت» (Cataphract) وهم مسلحون بالرماح والسيوف، وكان هؤلاء الفرسان قوة هائلة في المناورات الحربية، وكان قسم من الجيش الفرثي يستعمل الجمال، ويبدو أن الفرثيين لم يستعملوا الفيلة في حروبهم. أما النبلاء الصغار فكانوا يمدّون الجيش بالفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً[1]. وكان هذا جيشاً ماهراً وكفوءاً ولا سيما في سرعة المناورة ومسلحاً بالسهام والقسي مما جعله قوة مميتة. وكان هؤلاء هم الذين يبدؤون المعركة بأن يمطرون العدو بوابل من السهام المميتة، ولكنهم يفرون في حالة الهجوم المعاكس. وكان في معركة حران التي ذكرناها سابقاً ألف جمل تحمل كنائن السهام الاحتياطية لتزويد هؤلاء الفرسان

---

(1) ويعرف هذا الصنف بمصطلح (Sagitarri).

النبالة. ويوجد قسم ثالث من الجيش الفرثي قوامه المشاة، وهو في الدرجة الأخيرة من الأهمية ويتكون على الأغلب من أهل الجبال ومن الفلاحين ومن الأرقّاء.

ومما يقال في الجيش الفرثي بوجه عام أنه كان يصلح للدفاع أكثر منه للهجوم، كما أن الفرثيين كان ينقصهم آلات الحصار الناجعة، فكان الجيش الفرثي يقف عاجزاً إزاء الحصون المنيعة.

4 ـ وإذا أردنا التحدث عن الديانة في العهد الفرثي فليس لدينا المصادر الكافية عن الموضوع، فنكاد لا نعرف شيئاً مما أدخله البدو الفرثيون إلى إيران من عناصر الديانة سوى أن ديانتهم تدور على عبادة القوى الطبيعية كالشمس والقمر، كما أن البحوث الحديثة أبانت أن الزرادشتية لم تنتشر بين الفرثيين كثيراً بخلاف ما كان يظن سابقاً[1]، ولكن استمرت عبادة أهم الآلهة التي كانت شائعة في العهد الإخميني وبوجه خاص عبادة الإله «مثرا» والإلهة «أناهيتا» و«أهورامزدا»، وكانت عبادة «أناهيتا» قد شاعت كثيراً منذ عهد أرتحشتا الثاني، وعمّت في العهد الفرثي حيث بنيت لها المعابد وعبدت في سوسة باسم «نانيا» (وهو الاسم السامي لأناهيتا)، وسنرى من كلامنا على العهد الساساني أن أجداد السلالة الساسانية كانوا قوّاماً في معبد النار الخاص بها في اصطخر. وانتشرت عبادتها غرب حدود إيران إلى آسيا الصغرى في ليديا وفي كبدوكيا وإقليم البحر الأسود.

ويبدو أن الفرثيين لم يسيروا في دفن الموتى على العادة المجوسية من تعريض الجثة فوق المرتفعات وإنما اتبعوا طريقة الدفن الاعتيادية، كما تشير إلى ذلك جملة قبور فرثية ولا سيما التوابيت المزجّجة الخاصة بهذا العهد الشبيهة بالحذاء، وكانت هذه كثيراً ما تزخرف في خارجها ببعض الصور ومن بين ذلك إلهة عارية، يرجّح أنها الإلهة «أناهيتا». ومما يذكر عن الديانة التنويه

---

(1) Ghirshman, ibid, 269.

بالمآثر المتعلّقة بزمن تدوين «الأفستا» أي الكتاب المقدس الخاص بتعاليم زراوستر، فمن ذلك الأسطورة القائلة بأن الإسكندر الكبير أحرق هذا الكتاب الذي وجده مدوّناً على ألف رق من الجلد بحروف من الذهب، وهذه مجرد أسطورة، كما تقول الروايات المتأخرة إن «الأفستا» جُمعت ودوّنت في عهد الملك الفرثي «أولغاش» الأول (51 ـ 77 للميلاد)، ولكن الكتابة العائدة لشابور الأول الساساني (241 ـ 272 م) المنقوشة في جدران معبد النار في «نقش رستم» تشير إلى أن الأفستا لم تكن قد دوّنت بعد، ويميل معظم الثقات المختصين إلى إرجاع زمن الخط المدوّنة به الأفستا إلى منتصف القرن الرابع أو لعله القرن السادس للميلاد[1]. واشتهر الفرثيون بتساهلهم الديني، حتى أنهم اتخذوا في بلاد ما بين النهرين (العراق) عبادات الإقليم الخاصة مع تحويرها بعض الشيء. وكانت «دورا يورروبس» (الصالحية الآن على الفرات) من أشهر معاقلهم المهمة، ولكن لم يعثر المنقّبون على معابد للنار فيها على الرغم من وجود مستعمرة إيرانية في هذا المركز التجاري المهم. ويظهر تساهلهم الديني أيضاً في معاملتهم لليهود الذين عدّوا الحكّام الإيرانيين مدافعين وحامين لديانتهم، واتسعت اليهودية في بلاد بابل في العهد الفرثي، حتى أنه ظهرت دويلة صغيرة في جهات الفرات في حدود (20 ق.م)، هذا بالمقارنة مع اضطهاد السلوقيين والرومان. وقد ساعد الفرثيون اليهود في ثوراتهم على الرومان في القرن الثاني للميلاد.

5 ـ ويبدو أن الفرثيين لم يبنوا مدناً كثيرة كما أن ما نعرفه من المدن التي أسسوها عدد قليل. فمن المواضع المشهورة الممثلة لعهدهم خارج بلاد إيران طيسفون (طاق كسرى) والحضر و«أولغاشية» في العراق وفي إيران «درب جرد» (Darabgard) و«جور فيروز أباد»، جنوبي شيراز، وقد بناها أول الملوك الساسانيين حين كان تابعاً للفرثيين ولكنه كان على أهبة الثورة على الفرثيين

---

(1) انظر حول الزرادشتية:

H.W. Bailey, **Zoroastrian Problems** (Oxford), 1943).

ولذلك فبإمكاننا عدها من المواضع الفرثية. وتمتاز مثل هذه المدن الفرثية بميزات عامة مشتركة في تصميمها، فهي على الأغلب مدورة الشكل تقريباً. وهذا نوع من خطط المدن كان معروفاً في الشرق الأدنى قبل العهد الإيراني، فكان الآشوريون يبنون معسكراتهم بهيئة دائرية. وهكذا كانت المدن الفرثية معسكرات في أصلها ووظيفتها، فطيسفون بُنيت لتكون معسكراً فرثياً مقابل سلوقية، واستمرت واتسعت في العهد الساساني، وكانت الحضر حصناً قرب الحدود بين الأمبراطوريتين الفرثية والرومانية، وكثيراً ما استعملت قاعدة للدفاع عن العراق وإيران إزاء الجيوش الرومانية. وبالإضافة إلى هذه المدن التي أسسها الفرثيون فإن الفرثيين عمروا وأنشؤوا مقرات مهمة لهم في جملة مدن مشهورة سابقة لا سيما في العراق نذكر منها المدينة الآشورية الشهيرة آشور (قلعة الشرقاط) حيث أبانت التنقيبات التي أجراها الألمان هناك (منذ عام 1904) بقايا قصور فرثية مهمة، ووجد المنقبون في مدن العراق المهمة مثل نفر وبابل وغيرهما آثار أبنية وآثار مختلفة من العهد الفرثي. ونذكر ازدهار «دورا يوروبس» في العهد الفرثي. واشتهرت المدن الفرثية بتزيين واجهات القصور فيها بالمنحوتات البارزة كما في أبنية الحضر. أما بالنسبة إلى بناء المعابد فلم يعثر المنقبون على نماذج منها في بلاد إيران نفسها، ولكن وجد منها عدة نماذج خارجها نذكر منها «تاكسلا» (Taxila) (في الهند في الضفة الشرقية من نهر الأندلس). وقوام مثل هذه المعابد حجرة مركزية مربّعة يفصلها عن الخارج ممشى (ambulatory) وهو طراز مشتق من فن العمارة الإخميني وصار السلم الذي كان في العهد الإخميني من الخارج داخلاً في ثخن الجدار ويؤدي إلى السطح الموجود فيه المذبح المخصص للنار المقدسة. أما القرابين فكانت تجري في الخارج قرب المعبد. ولا يسعنا هنا أن ندخل في موضوع الفن الفرثي بل نكتفي في ذلك بالتنويه بالآراء الحديثة حول الموضوع، فمن ذلك أن هناك نظريتين حول الفن الفرثي وقد تبدوان متناقضتين الأولى ترى فيه تأخراً وعودة إلى الطرق والأطرزة البدائية، وترى النظرية الثانية فيه أنه تظهر عليه مع ذلك روح جديدة تمثل لنا الروحية الإيرانية الجديدة في الفن، ولعل

هاتين النظريتين كلتيهما صحيحتان من وجهتي نظر مختلفتين، فالأولى صحيحة إذا اعتبرنا أصول الفن وطرقه ومحاولة نبذ الأساليب الإغريقية الناضجة الماهرة ـ والثانية صحيحة إذا اعتبرنا مواضيع هذا الفن دون أساليبه، فمن هذه الناحية يبدو الفن الفرثي وهو بداية فن إيراني جديد منطلق من قيود العرف الفني اليوناني، وسنجد هذا الفن الجديد تتوضّح معالمه أكثر في العهد الساساني.

6 ـ كانت الأمبراطورية الفرثية وبوجه خاص إيران والعراق واسطة مهمة للتجارة الدولية بين الغرب والشرق: تجارة الهند والصين وأواسط آسيا حيث البضائع المهمة كالحرير والبهار والعاج والروائح العطرية. وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في معظم العالم المتمدن ولا سيما في القرن الأول ق.م. بالمقارنة مع القرن السابق الذي تميّز بالثورات والاضطرابات والقرصنة، وفقدان الأمان. وساعد السلم الذي أحلّه أول أمبراطور روماني (أوغسطس) على ازدهار التجارة الدولية، وكان لذلك السلم أثر بالغ في حياة الشرق الاقتصادية. ومما ساعد التجارة التحسن الذي طرأ في وسائل النقل والاعتناء بالمحافظة على الطرق، واعتنى الفرثيون عناية ملحوظة في سلامة هذه الطرق بالنظر إلى أهميتها البالغة لهم في ضرائب تجارة «الترانزيت». فكانت طرق البادية تجهز بالآبار والمنازل (الخانات). وبُنيت في المدن التجارية المهمة مثل تدمر و«دورا يوروبس» والبتراء البيوت والخانات لإيواء التجّار والقوافل التجارية، وتشير الوثائق التي عثر عليها في «دورا يوروبس» على وجود شرطة للبادية للمحافظة على الطرق التجارية. كما استفاد الفرثيون من نظام البريد الذي رأيناه في العهد الإخميني ولا سيما تأسيس المحطات والمنازل لتبديل العربات لضمان السرعة، ويقال إن «وردان» (Vardanes) لما ذهب لخلع أخيه «جو تارز» (Gotarzes) قطع 350 ميلاً في يومين. واستعمل «نعل» الخيول لأول مرة في هذا العهد لمساعدتها على الجري السريع، ولا يعلم أصل هذا الاختراع أهو من الشرق أم من الغرب. ومما يدلّ على تحسن الصناعة الأقمشة الفاخرة والجلود والفخار والزجاج والأسلحة المختلفة.

هذا وقد سبق لنا أن نوّهنا بالنظام الاجتماعي في العهد الفرثي وكيف أن الإقطاع كان قوام المجتمع. واتسعت في هذا العهد بوجه خاص إقطاعات. الأراضي الواسعة بأيدي النبلاء من رؤساء الإقطاع، حتى أن نظام الملكية الصغيرة اختفى من إيران تقريباً، وفقد الفلاحون والمزارعون الصغار حريتهم، وأصابهم الاضطهاد من جانب الملاكين الكبار، وارتفعت أسعار الأراضي بتزايد الطلب عليها لاستثمار رؤوس الأموال فيها. وأصبحت معظم الأراضي إما ملكاً للتاج أو للإقطاعيين الكبار.

ومن ناحية الأساليب الزراعية الناجعة ننوّه بما قد حصل في العهد الهلنستي (منذ فتح الإسكندر) من طرق ناجعة علمية في الزراعة، ولكن يبدو أن الفرثيين لم يستفيدوا من هذه الأساليب المحسنة، ولكن حصل تقدم في فن تدجين الحيوانات ولا سيما الطيور والدجاج كما حصل نوع من التبادل في النباتات بين الصين وبين إيران على أثر المعاهدة التجارية التي أُبرمت بين الإقليمين فقد أخذت الصين زراعة البرسيم والكروم والخيار والبصل والزعفران والياسمين وأخذت إيران دودة القز وبعض الأشجار المثمرة، كما يحتمل أن بداية زراعة قصب السكر قد أُدخلت إلى إيران في هذا العهد ومصدره من الصين.

الساسانيون

تاسيس الدولة الساسانية[1]:

لقد سبق لنا أن نوّهنا في كلامنا على الفرثيين بعلاقة الساسانيين بهم، ونعيد هنا بشيء من التفصيل كيفية قيام السلالة الفارسية الساسانية وتغلبها على الفرثيين. فتروي لنا المآثر أن «ساسان» (Sassan)، جد السلالة الساسانية، كان الكاهن الأعلى في معبد الإلهة «أناهيتا» في اصطخر (برسيبوليس) وأن ابنه بابك (Papak) الذي خلفه في تلك الوظيفة الدينية المهمة قد تزوج من ابنة حاكم الإقليم، وأنه ثار عليه فيما بعد واغتصب منه السلطة بالقوة. وقد عدت المآثر المتأخرة «بابك» مؤسس السلالة الساسانية الحاكمة، وأن تبوئه منصبه الجديد في تلك الإمارة بداية عهد جديد في تأريخ إيران (208 للميلاد). وكان الملك الفرثي آنذاك «أرطبان» الخامس فلم يعترف بمشروعية عمله وبسلطته، ورفض كذلك محاولته لتنصيب ابنه «شابور» (Shapur) مما أدى إلى الانشقاق بين الملك الفرثي وبين تابعيه في إقليم فارس. وكان أردشير الابن الثاني لبابك قائداً عسكرياً في «درب جرد» في فارس، ولما مات أبوه رفض الاعتراف بسلطة أخيه شابور، ولكن لحسن حظ أردشير مات أخوه فكفاه ذلك مشقة الدخول في نزاع مسلح معه، فخلا الجو لأردشير وأعلن نفسه ملكاً على فارس وأخضع إلى سلطته جميع أمراء الفرس، وكوّن من فارس مملكة موحّدة قوية، كما وسّع سلطته إلى أصفهان وكرمان. فأخاف ذلك الملك الفرثي أرطبان

---

(1) اعتمدنا في إيجاز هذا البحث بالدرجة الأولى على المرجع القيم: Ghirshman, Iran (1954).

الخامس، فأوعز إلى ملك الأهواز (عيلام) التابع له أن يحارب أردشير ولكن غلبه أردشير في معركة حاسمة، ومن ثم استطاع أن يهزم جيوش الملك الفرثي في ثلاث معارك متوالية، واستطاع في الملاقاة الثالثة النهائية في بلاد السوس القضاء على الملك نفسه (224 للميلاد)، وهكذا انفتح الطريق أمام «أردشير» إلى العاصمة طيسفون في العراق، وتوج أردشير من بعد عامين ملكاً شرعياً على جميع إيران (226 للميلاد)، وهكذا رجعت السلطة إلى الفرس من بعد خمسة قرون ونصف القرن من سقوط الإخمينيين، وكان العام الذي أعلن فيه أردشير نفسه ملكاً على إيران بداية العهد الساساني، ودام نيفاً وأربعة قرون حيث انتهى بقضاء العرب المسلمين على الأمبراطورية الساسانية في حدود 637 للميلاد (أو في 651 م، وهو العام الذي اغتيل فيه يزدجرد في أثناء هربه من جيوش العرب).

ومع أن أردشير استطاع أن يقضي على الملك الفرثي فإنه واجه بعد قليل خطراً جسيماً هدد عرشه، إذ تألف اتحاد قوي لمقاومته وإعادة السلطان الفرثي وكان مركز المقاومة في هذا الاتحاد مملكة أرمينيا التي كان ملكها خسرو الأول، متحدراً من السلالة الفرثية الحاكمة، كما أن روما خشيت من ظهور هذه القوة الجديدة في بلاد إيران فقدمت المساعدات، وساعد الاتحاد أيضاً ملك الكوشانيين الذي التجأ إليه أفراد أسرة أرطبان وانضمت إليه جماعات من الاسكيثيين، ومهما كان الحال فإن أردشير تمكن من تحطيم الاتحاد في سلسلة معارك، فانسحب الرومان والاسكيثيون وملك الكوشانيين. ولم يبق في الميدان إلا ملك أرمينيا حيث استمر هذا في مقاومته بيد أنه دحر من بعد معارك دامت عشر سنين. ومن ثم أصبح أردشير سيد أمبراطورية واسعة تمتد من الفرات إلى مرو وهيرات وسستان، فعمل أردشير على تقوية تخوم هذه الأمبراطورية مما أدى إلى الاصطدام بروما أحرز فيه الفرس سلسلة من الانتصارات على الرومان واستولى الفرس على حصنين مهمين هما نصيبين وحران.

شابور:

حكم أردشير حكماً طويلاً دام نحو خمسين عاماً استطاع في خلاله أن يدحر أعداءه الواحد بعد الآخر، ونجح في إقامة أسس أمبراطورية واسعة ولعل أهم أعماله التي يذكر من أجلها تحويله الجيوش إلى أداة نظامية قوية، وأشرك ابنه شابور الأول في الحكم، ويروى أنه نقل له العرش قبل موته ببضع سنوات. فورث شابور عن أبيه دولة موطدة نوعاً ما، ولكن لا تزال قائمة فيها الأنظمة الفرثية وعلى رأسها النظام الإقطاعي فأبقى عليه، ولكن حسّن في هذا النظام بأن قوّى فيه السلطة المركزية، مضافاً إلى ذلك جيش نظامي حسن التدريب مما جعل الأمبراطورية تقوم على أسس وطيدة مدة من الزمن.

لقد وجّه شابور همه منذ البداية إلى الشؤون الخارجية وبإمكاننا أن نوجز أعماله في جبهتين رئيستين هما الجبهة الشرقية والجبهة الغربية. وكان أهم خطر شغل شابور في الجبهة الشرقية وجود مملكة قوية في تخوم المملكة الفارسية الشرقية هي المملكة الكوشانية التي تأسست منذ القرن الأول للميلاد (في العهد الفرثي) مما جعلها مصدر خطر جسيم من الناحية السياسية والاقتصادية، إذ كانت المملكة الفارسية في الواقع محصورة بين قوتين خطرتين هما الأمبراطورية الرومانية والكوشانيين. وتدخل في هذه المشكلة من الحدود الشرقية مشكلة الدولة الأرمينيا. فوجه شابور قواه أولاً على الكوشانيين، وخلف أخبار انتصاره عليهم في الكتابات المنقوشة في جدران معبد (نقش رستم) حيث استولى على «بيشوار» عاصمة الكوشانيين الشتائية واستولى على وادي نهر السند ثم زحف شمالاً وعبر هندوكوش واستولى على بلاد البخت، وعبر سيحون ودخل سمرقند وطشقند وخلع الملك الكوشاني ونصّب بدلاً منه ملكاً جديداً تابعاً للفرس مع تقليص حدود المملكة وجعلها ولاية.

وبعد هذه التسوية الناجحة في الجبهة الشرقية حوّل شابور جهوده إلى الجبهة الغربية، وكان الحظ حليفه في الغرب أيضاً فقد زحف إلى سوريا وتوغل بعيداً فيها إلى أنطاكية، ولكنه لاقى بعض الاندحارات وفيما كان

مصمماً على الانسحاب اغتيل الأمبراطور الروماني «غورديان» (Gordian) وأسرع خلفه «فيلب» الملقّب بالعربي إلى طلب الصلح دافعاً جزية كبيرة إلى فارس وتخلى عن بلاد ما بين النهرين وأرمينيا (244 للميلاد). ولكن نشبت الحرب مع روما من بعد خمسة عشر عاماً على هذه التسوية. وأحرز شابور نصراً لامعاً فيها حيث استطاع أن يستولي على أهم المدن السورية من بينها المركز المهم «أنطاكية». وفي موقعة كبرى قرب الرها (أديسا) وقع الأمبراطور الروماني فالريان (Valerian)[1] أسيراً بيد شابور ومعه زهاء (70,000) جندي من الرومان من فرق «الليجون» الرومانية الممتازة، فأخذ هؤلاء إلى إيران ووطنوا في مقار بنيت لهم على هيئة معسكرات رومانية في خوزستان بالدرجة الأولى (260 م)، وقد استفادت الأمبراطورية الفارسية من اختصاص هؤلاء، إذ كان بينهم المعماريون والمهندسون فشغلوهم في الأعمال العامة كإنشاء الطرق والجسور والأسداد، وحصل شابور من هذه الانتصارات اللامعة على غنائم وأسلاب وفيرة، ولكن حدث له في أثناء عودته عن طريق شمالي سوريا حادث طريف لم يكن ليحلم به الملك الفارسي. إذ عندما اقتربت جموعه من تدمر (Palmyra) العربية، أرسل الملك أذينة (أو كما تسميه المصادر الرومانية (Adenathus) هدايا ثمينة. ولكن الملك الفارسي رفض هذه الهدايا باحتقار متسائلاً عمّن يكون أذينة هذا؟ ولِمَ لم يجيء بنفسه ويسجد للملك العظيم؟ فكان جواب أذينة أن ظهر بجموعه الأشداء (265 للميلاد) فأوقع الرعب في الجيش الفارسي وحدثت الفوضى وسلب الملك الفارسي جزءاً من الغنائم الكثيرة، ومع ذلك فلم يكن هذا الانتكاس أمراً ذا بال بالنسبة إلى انتصاراته على فاليران[2]. وكان هذا الحادث المهم قد بلغ الرومان فقربوا إليهم أذينة

(1) تروي لنا المآثر الرومانية (ولا سيما الكاتب والمؤرخ الروماني أمينيس مرشيلينوس) أن شابور عامل أسيره الأمبراطور بمنتهى الخشونة والتحقير فكان يرتقي عليه عند امتطاء جواده، ولما مات حشا جسمه وصار يستعمله للغرض نفسه.

(2) خلد شابور انتصاره على فاليران وجيوشه بالنقوش والمنحوتات البارزة في جبال فارس.

ولقّبوه «بحاكم المشرق»، وكان هذا لقباً عظيماً ورثته عن أذينة زوجه الملكة زنوبيا (أو كما يسميها العرب الزبّاء أو زينب) وقد كانت هذه ملكة عظيمة وصفها المؤرخ الشهير «جيبون» (Gibban) بأنها كانت ملكة نابغة مشهورة بالصيد والفروسية وتصفها المصادر الرومانية بجمالها وثقافتها وأنها كانت تحسن اللاتينية والإغريقية والمصرية علاوة على اللهجة السورية. وقد ورثت العرش عن زوجها الذي اغتاله أحد أقاربه بالوصاية على ابنها «وهب اللات».

وقد امتازت «الزبّاء» بطموحها الخارق فإنها تحدّت الأمبراطورية الرومانية وشنّت عليها الحرب واستطاعت أن تمدّ حدود مملكتها بحيث شملت ولاية مصر وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى حيث دحرت الجيش الروماني هناك (عام 270 للميلاد) واستولت في العام نفسه على الإسكندرية وتوّجت ابنها الصغير ملكاً على مصر. واشتهر من قوادها الحربيين «قائدان عظيمان يعزى إليهما تدبير خطط الملكة الحربية وهما «زباي» و«زبدا». ولكن طموح «الزبّاء» الخارق كلّفها ثمناً غالياً فإنها لم تكتف بتحدي الأمبراطورية الرومانية بل إنها أخذت تحارب الفرس، ودحرت جيوش «سابور» مرتين وصلت في كل معركة منهما إلى أبواب العاصمة «طيسفون». ولما بلغت دولة تدمر هذه القوة حلّ الرعب في الرومان فعزم الأمبراطور الروماني «أورليان» على وضع نهاية لدولة تدمر فبعد أن دحر القائد (زبدا) في أنطاكية وفي حمص هاجم في ربيع عام 272 تدمر نفسها، وبعد حصار شديد يأست الملكة من المقاومة فهربت وأخذت بعدئذ مصفّدة بسلاسل من الذهب وسارت أمام عربة الأمبراطور في دخوله منتصراً إلى روما، وبذلك انتهت حياة هذه الملكة. وخربت المدينة ونهبت كنوز معبدها الشهير المخصص لعبادة الإله الشمس وأخذت إلى روما إلى معبد شيّده الأمبراطور للإله الشمس تخليداً لذكرى انتصاره هذا، فانتهت حياة مملكة تدمر، وخلفتها في الأهمية التجارية بعض المدن السورية التي كوّنها الغساسنة مثل بصرى.

ومن الأمور التي يجدر ذكرها عن عهد شابور الأول المدينة المهمة التي

شيّدها في إقليم خوزستان في الموضع المسمى بالسريانية «بيت لاقط» وموضعها الآن شاه أباد وعُرفت في المصادر العربية باسم «جنديسابور» التي اشتهرت بمدرستها في الطب وفروع المعرفة الأخرى مما كان لها أثر عظيم في الطب العربي وظلّت مزدهرة إلى العهد الإسلامي. لقد بنى شابور هذه المدينة تخليداً لانتصاره على الأمبراطور الروماني «فاليريان» وتدميره أنطاكية وقد سماها باسم طريف يعني «أحسن من أنطاكية مدينة شابور»[1] وصارت هذه من المراكز العلمية الشهيرة، ولجأ إليها كثير من العلماء النساطرة بعد أن طردتهم بيزنطية في القرن الخامس من إقليم أديسا (الرها). واشتهر شابور بولعه بالحكمة والمعرفة والفلسفة وترجمة المآثر اليونانية في ذلك.

وبعد الاستطراد الذي اضطررنا إليه في ذكر بعض الأشياء المفيدة عن تدمر نعود فنوجز ما تمّ في عهد شابور من الأحداث المهمة، وعلى رأس ذلك ما قام به هذا الملك العظيم، بالإضافة إلى أعماله العسكرية، من التنظيمات الداخلية للأمبراطورية مما بدأ به أبوه. واشتهر شابور بولعه بالمعرفة والكتب على ما ذكرنا من قبل حتى أنه أمر بترجمة جملة كتب يونانية وهندية تتضمن نواحي مختلفة من المعرفة كالطب والفلك والفلسفة. ومن الأمور التي تستحق الذكر عن عهد شابور ظهور حركة ماني (Mani) الدينية حيث شمله هذا الملك الفارسي بحمايته واهتم بتعضيد حركته الدينية ولعله استهدف من ذلك تأسيس ديانة عامة عالمية في أمبراطوريته ولما كنا سنذكر أشياء أخرى عن هذه الديانة في موضع آخر فنكتفي هنا بأن نذكر أنها حصلت على أتباع كثيرين في جميع آسيا الغربية، ولكن وقع الاضطهاد في صاحبها وأتباعها من بعد موت شابور (272 م) بزمن قليل في عهد بهرام (وهرام (Vahram)) الأول حيث حكم على «ماني» بالموت.

---

(1) (Veh-az-Andev-i-Shápûr) ثم سميت بهيئة (Gundê-Shâpûr) و(Jundi-Sábûr) أي جنديسابور بالعربية.

(E.G. Browne, Arabian Medicine (1921), 20).

خلفاء شابور:

كان شابور من أعاظم ملوك السلالة الساسانية وقد حصلت من بعده اضطرابات وثورات مما أحلّ في المملكة فترة من الوهن والضعف. خلف شابور ابناه هرمزد (هرمز) الأول ثم بهرام الأول، ثم بهرام الثاني فبهرام الثالث[1]. ونشبت حرب جديدة مع روما في عهد بهرام الثاني، كما حدثت ثورة خطيرة في التخوم الشرقية من الأمبراطورية حيث أراد أخوه الذي كان والياً على «سستان» اغتصاب العرش وساعده في ذلك أمير مملكة كوشان مما جعل الخطر يشتد على بهرام في جبهتين، ولذلك عمد إلى عقد الصلح مع روما متخلياً بموجبها عن بلاد ما بين النهرين وأرمينيا. ولم يحكم بهرام الثالث سوى بضعة أشهر (293 م) حيث خلعه أخوه «نرسي» (Narsah) (293 ـ 302 م) وهو سابع ملك من بعد أردشير وتجددت الحرب مع الرومان في عهد «نرسي»، وكان قائد الجيش الروماني «غاليريوس» وكان النصر حليف الملك الفارسي وتقهقر القائد الروماني إلى أنطاكية حيث عزره الأمبراطور الروماني «ديوقليشان» الذي قاد الجيش بنفسه وهاجم الملك الفارسي في السنة التالية، فأحرز الرومان نصراً ساحقاً على الفرس حتى أنهم أسروا جميع أسرة «نرسي» وعقدت معاهدة بين الطرفين سلخت بموجبها أرمينيا الصغرى وجملة ولايات فارسية شرقي دجلة. وبلغ الضعف في إيران مبلغاً كبيراً فركن الساسانيون إلى سياسة المصالحة مع الرومان ومع الكوشانيين حتى أن هرمز الثاني ابن نرسي وخليفته تزوج بأميرة كوشانية. ولم تحدث في عهد هرمز الثاني (303 ـ 309 م) حوادث تستحق الذكر. وتبوأ العرش الفارسي بعد موته ملك شاب هو شابور الثاني (سابور ذو الأكتفاف كما سمّاه العرب) الذي دام حكمه زمناً طويلاً نحو سبعين عاماً (309 ـ 379 م) برهن فيه عن كفاءته في الحكم، وقد احتذى مثال شابور الأول وكان أول محك لقدرته توجيه قواه إلى مملكة الكوشانيين

---

(1) راجع كتب التأريخ العربية حول تسلسل الملوك الساسانيين، وبوجه خاص الطبري والمسعودي واليعقوبي.

حيث حطم أمبراطوريتهم وضمت إلى إيران على هيئة ولاية تابعة يحكمها ولاة من الأمراء الساسانيين في مقرهم في «بلخ»، ومما يذكر عن عهد هذا الملك القدير انتشار الثقافة الإيرانية والفن الإيراني شرقاً إلى المدن التركستانية الصينية وحتى إلى الصين نفسها. واستأنف شابور الثاني من بعد استباب الأمور له في الشرق نزاعه مع الرومان لإزالة عار المعاهدات التي فرضتها روما على بهرام الثاني «نرسي». وكان سير الحرب في مبدأ الأمر في صالح الرومان، ولكن تغير الوضع لصالح الفرس بعد التسوية التي تمّت مع الكوشانيين والأفثلاطيين[1] حيث ساعد هؤلاء الأقوام البربرية الشديدة الجيوش الفارسية في حربها مع الرومان، وكانت أولى المعارك العظمى في عهد الأمبراطور الروماني قسطنطين[2] في سنجار، فكان النصر حليف شابور وبعد ذلك توجه (شابور) إلى نصيبين التي كانت قلعة رومانية محصّنة كما ذكرنا وكاد ينتصر هنا لولا الارتباك الذي حدث في جيشه واضطراره إلى ترك الحرب والذهاب إلى فارس ليخمد ثورة كانت قد نشبت هناك. وبعد إخماد الثورة رجع فقصد الشمال وحاصر (آمد) وقتل أهلها ومن بعد ذلك شغل الفرس أنفسهم في

---

(1) (Ephthalites) وهو الاسم الذي ذكره المؤرخون البيزنطيون، ويعرفون باسم الهون البيض وهم قبائل كثيرة تورانية (تركية) وقد سمّاهم العرب باسم الهياطل (ج. هيطل)، ولكن المؤرخين العرب أطلقوا هذا المصطلح بوجه عام على جميع الشعوب والأقاليم التورانية فيما وراء جيحون كما فعل المقدسي، وكان نهر جيحون القديم الحد الفاصل بين الأقوام الإيرانية والتركية، وسمى العرب جميع الأقاليم التي إلى شماله بما وراء النهر باسم الهيطل أيضاً، وسنرى مما يمر بنا من سير حوادث التأريخ الساساني ضغط هؤلاء وخطرهم على المملكة الساسانية ولا سيما في القرن الخامس للميلاد.

(2) ومما يقال عن النزاع الفارسي الروماني في عهد قسطنطين الكبير إنه اتخذ شكلاً جديداً، فإن اعتناق هذا الأمبراطور للمسيحية وتحول أرمينيا إلى المسيحية قرّبت ما بين أرمينيا وبين الرومان، ولكن قسماً من طبقة النبلاء في أرمينيا ظل محتفظاً بثقافته الإيرانية وبميوله وولائه لإيران، فصارت أرمينيا مسرحاً للمنازعات الداخلية. ولما صارت المسيحية الديانة الرسمية للأمبراطورية الرومانية تعرض المسيحيون التابعون للأمبراطورية الفارسية للاضطهاد من جرّاء اتهامهم بميولهم إلى روما بسبب الروابط الدينية الجديدة.

تخريب بعض القلاع الرومانية. وفي أثناء ذلك جاء إلى الحكم في روما الأمبراطور «جوليان»[1]. وقد بدأ حكمه في غزوه الشرق وعبّأ لذلك جيشاً كبيراً ومعه أسطول من السفن. فبعد أن عبر الفرات سار متوجهاً إلى حران وقسم هنا جيشه إلى قسمين أرسل القسم الأول منه شرقاً إلى نصيبين وسار بنفسه مع الآخر باتجاه الفرات. وكان الأسطول يرافق الجيش الزاحف. وقد وصل الأمبراطور إلى بابل نفسها وكان قد دمر مدناً كثيرة خلال تقدم الجيش ومن ثم سار الجيش شرقاً إلى العاصمة «طيسفون» فنشبت معركة عظيمة بين الفرس والروم على أبواب العاصمة كان النصر فيها للرومان. وكان الملك الفارسي آنذاك بعيداً عن العاصمة. فأسرع في العودة ليخلص عاصمته من الحصار الروماني. يضاف إلى ذلك أن الجيش الروماني الثاني لم يصل بعد باتجاه دجلة نظراً للمناوشات التي حصلت بينه وبين الأرمن، لذلك قرر مجلس الأمبراطور الحربي أن يترك حصار العاصمة الفارسية ويذهب لإخضاع المقاطعات الشرقية، وعزم الأمبراطور على حرق أسطوله مخافة أن يقع بأيدي العدو، وبعد أن فعل ذلك سار متوجهاً إلى بعقوبة ومنها إلى جبل حمرين، وكان الفصل صيفاً، فلاقى الجيش صعوبات عظيمة، وبعد أيام ظهر جيش الملك الفارسي (شابور) الذي اعترض مرور الأمبراطور من تلول حمرين إلى كركوك، وقد نشبت على أثر ذلك معارك غير حاسمة قتل في إحداها الأمبراطور بسهم في قلبه فمات على الأثر. فاضطرب الجيش من بعده ولما لم يتمكن من عبور جبال حمرين تقهقر قسم منه وعبر دجلة قرب سامراء ووصل الباقي بحالة مبعثرة إلى أنطاكية. وقد رافق حملة جوليان المؤرخ الروماني «مرشيلينوس» المشهور وكتب عن هذه الحوادث في مؤلفاته التأريخية. وهكذا كانت نتيجة غزوة جوليان للشرق، ومن نتائجها أيضاً إبرام معاهدة بين

---

(1) نذكر هنا تسلسل أباطرة الرومان في هذه الفترة التي حكم فيها شابور فبعد حكم قسطنطين (306 ـ 337 م) حلّت فترة اضطرابات دامت ربع قرن وحكم من بعدها الأمبراطور جوليان (يوليان) (361 ـ 363 م) ثم جوفيان (363 ـ 364 م).

الأمبراطور الذي خلف جوليان وهو جوفيان وبين شابور حصل بموجبها الفرس على أقاليم مهمة من الأمبراطورية الرومانية مثل سنجار ونصيبين وأرمينيا التي احتلت احتلالاً عسكرياً من جانب الفرس بقيادة مرزبان (أي أحد قواد التخوم).

أحوال الدولة الساسانية بعد شابور الثاني:

حلت من بعد موت شابور الثاني (379 م) فترة ضعف في حياة الدولة الساسانية شغلت زهاء القرن الواحد ودامت تقريباً إلى عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) وعمّت فيها الاضطرابات من جرّاء التناحر والنزاع بين العرش من جهة من ناحية تولي الملوك وبين الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية التي حالفت طبقة الكهنة الزرادشتية. فعلى الرغم من الجهود التي بذلها أوائل الملوك الساسانيين الأقوياء من أجل السيطرة على النبلاء الإقطاعيين وكبح قوّتهم إلا أنهم عادوا إلى استرجاع امتيازاتهم المأثورة، وكان ذلك يظهر بوجه واضح إبان فترات الضعف الناشئة من ارتقاء العرش ملوك ضعفاء مثل الفترة التي أعقبت موت شابور الثاني، كما أن المناصب التي أخذوها في الدولة أصبحت وراثية، وضعفت سلطة العرش بتدخلهم ومعارضتهم حتى آل الأمر بالملك أن فقد حقه بتعيين خلفه، وهي العادة التي كانت متّبعة بين الملوك الساسانيين، وصار الملك ينتخب من أفراد الأسرة الساسانية من جانب طبقة النبلاء الإقطاعيين، فأدى ذلك إلى تمزق العرش من جرّاء تناحر الأحزاب الموالية للأمراء المتنازعين. وقد أخذ نفوذ هؤلاء النبلاء بالازدياد في عهد أردشير الثاني (379 ـ 383 م) الذي خلف شابور الثاني واستمر في الازدياد في عهد شابور الثالث (383 ـ 388 م) وبهرام الرابع (388 ـ 399 م) الذي تمّت في عهده تسوية للمشكلة الأرمينيا. واشتهر يزدجرد الأول (399 ـ 420 م) بتساهله الديني إزاء المسيحيين حتى أنه لقّب «بالملك المسيحي» وعين «جاثليقا» (Gatholicus) في سلوقية وخمسة مطارنة في خمس مدن، وسمح للقسس بحرية التنقل، ولكن يبدو أن هؤلاء أساؤوا هذا التساهل الملكي إذ

شهروا بالمعابد الزرادشتية وبكهنتها مما حمل الملك إلى التخلي عن سياسة التساهل إزاء المسيحيين. ومما يذكر عن حكم يزدجرد الأول ما جرى من التصادم مع الأفثلاطيين وهم الذين أسكنهم شابور الثاني في تخوم كوشان وسمح لهم بتأسيس اتحاد مع إيران، ولكن استطاع هؤلاء بمرور الزمن أن يؤسسوا مملكة قوية ازدادت في البأس والقوة في بداية القرن الخامس ويوسعوا حدودهم من هندوكوش وهددوا الهند.

وبعد موت يزدجرد الأول وقع نزاع حاد على العرش بين أبنائه فاستطاع أحدهم المسمى بهرام الخامس (بهرام جور) (421 ـ 438 م) أن يحصل على العرش بسبب المساعدة العسكرية التي حصل عليها من أمير الحيرة العربي المنذر الأول ابن النعمان (418 ـ 462 م)، حيث كان بهرام قد عاش في بادية الحيرة يوم كان شاباً. وقد اشتهر بهرام الخامس من بين الملوك الساسانيين بكونه صياداً (ووصفه الخيام بالصياد الأعظم) وشاعراً وموسيقياً وقد صارت شخصيته مدار قصص وموضوعاً للفنانين، وكان مسالماً ضعيفاً حتى أنه تحاشى مشكلة النبلاء بأن تنازل عن امتيازاته ولكنه نجح بحرب قصيرة مع بيزنطية، كما تفاهم مع روما[1]، وأظهر المسيحيون ولاءهم للدولة الساسانية حتى أن مجمعاً كنسياً أعلن استقلال كنيسة إيران عن بيزنطية. وخلف بهرام الخامس يزدجرد الثاني (438 ـ 459 م)، واشتهر هذا بالاهتمام بالمناظرات الدينية ودرس الديانات الموجودة في أمبراطوريته ولكنه ظل زرادشتياً متحمساً لديانته واضطهد أخيراً المسيحيين واليهود وتدخل في شؤون أرمينيا الدينية محاولاً تحويلها إلى الزرادشتية مما سبّب ثورة فيها أخمدها يزدجرد بصعوبة.

وازدادت أحوال الأمبراطورية سوءاً في عهد فيروز (459 ـ 484 م) وحصلت في عهده مجاعات في المدن والأرياف مما اضطر الملك إلى تأجيل

---

(1) ننوّه هنا بانقسام الأمبراطورية الرومانية إلى قسمين غربي وشرقي وقد قام بهذا التقسيم الأمبراطور ثيودوسيوس قبيل موته (393 ـ 395) حيث قسم الأمبراطورية بين ولديه جعل على القسم الشرقي (ومركزه بيزنطية) أركاديوس وعلى القسم الغربي (ومركزه روما) هنوريوس.

الضرائب وتوزيع الحبوب على الناس. ومما زاد في الطين بلة وقوع المنازعات والاضطهادات الدينية. وانقسم مسيحيو الأمبراطورية الفارسية في عهده إلى طائفتين النساطرة (الذين رأوا أن في المسيح طبيعتين الأولى إلٰهية والأخرى بشرية) واليعاقبة (أصحاب الطبيعة الواحدة)[1]. وحارب فيروز الأفثلاطيين (الهياطلة) فآندحر وأسر ولم يطلق سراحه إلّا بدفع فدية باهظة، وأودع ابنه قباذ (Kobad) رهينة حتى دفع الجزية واستنجد بروما التي تدخلت في شؤون إيران. ومع هذه النكبات فإن فيروز أعاد الكرة بعد استجمام عدّة سنوات فهجم على الأفثلاطيين، وقد كلّفته الحرب في هذه المرة حياته، وصارت اليد العليا لهؤلاء الأفثلاطيين وأصبحت إيران تابعة لهم تقريباً زهاء أكثر من نصف قرن، في عهد خلفاء فيروز الثلاثة[2]، وصار الهياطلة هم الذين ينصبون الملوك الفرس على عرشهم.

المزدكية:

ساءت أحوال المملكة في عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) فبالإضافة إلى الأخطار الخارجية من الأفثلاطيين نشب نزاع وصراع حادان بين جماهير الشعب وبين الطبقات النبيلة، وقد اتبع معظم الجماهير حركة دينية اجتماعية غريبة هي المزدكية التي ظهرت في هذا العهد، أما قباذ فقد التزم جانب الجماهير مدفوعاً على ما يرجّح بحافز القضاء على نفوذ الطبقات النبيلة. وتنسب هذه الديانة إلى مؤسسها «مزدك» وقد أسست على نظام وعقائد خاصة بالخليقة والكون مستقاة بالدرجة الأولى من تعاليم «ماني» ولها قواعد خاصة بالسلوك فكانت تتطلب من أتباعها الامتناع التام عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب. ولكن سر جاذبيتها يكمن في روحها الثورية ونظريتها الاجتماعية التي تستند إلى مبدأ التساوي العادل في توزيع الملكية والمقتنيات واقتسام

(1) انظر كلامنا على ظهور المسيحية في تأريخ بلاد الشام.

(2) وهؤلاء هم بلاش وقباذ الأول وجماسب.

أملاك الأغنياء بين الفقراء وشمل ذلك حتى النساء. وإذا نظرنا إلى هذه الحركة وهي في مجتمع مثل المجتمع الإيراني حيث تقسيم الطبقات الاجتماعية والفروق بينها شديدة وحيث قوام المجتمع الأسرة والملكية الفردية الواسعة والفروق بين الطبقات وحيث الطبقات الإقطاعية بامتيازاتها وأملاكها ـ نقول لو نظرنا إلى هذه الحركة على هذا الضوء لبدت لنا ثورة انقلابية لم يسبقها مثيل، حتى أنها وصفت بأنها شيوعية إيرانية، وهي مما لا شك فيه رد فعل عنيف من طبقات الفلاحين والأرقّاء وسكّان المدن والأرياف الأحرار المعوزين ضد الأرستقراطية الإقطاعية. فساند «قباذ» هذه الحركة الجريئة وأدخل جملة تشريعات جديدة يتعلق بعضها بمركز النساء. ولكن نشبت الثورة عليه فخلع عن العرش وسجن وحوكم ولكن أبقي على حياته. ونصب على العرش الفارسي أخوه «جماسب». أما قباذ فقد هرب إلى الأفثلاطيين والتجأ إليهم وعاد في عام 499 مع جيش من هؤلاء فخلع أخاه واستعاد عرشه، وغير سياسته إزاء الديانة الجديدة لا سيما وأن المزدكية التجأت إلى الثورة والعنف حيث نهبت أملاك النبلاء واختطفت النساء، وازداد بغض الملك لأتباع مزدك لما عارضوا تعيينه لابنه كسرى خلفاً له. وجرت مناظرة هجم فيها الكهنة الزرادشتيون والقسس المسيحيون على أتباع المذهب المزدكي، فأوقعت بهؤلاء على أثر ذلك مذبحة وأحرقت كتبهم وصودرت أملاكهم. ولكن على الرغم من كبح جماح هذه الحركة الثورية إلا أن آراءها ومبادئها ظلت وانتشرت سراً. حتى أنه حدث بعد خمسين عاماً أن ترأس أحد أبناء الخاقانات من الترك الغربيين الجماهير المعدمة واستولى على واحة بخارى وطرد الأغنياء والنبلاء، ولكن انتصاره لم يدم زمناً طويلاً إذ خمدت ثورته وقتل ومثل به. وظهرت ثورة أخرى في أزمان الفتوح العربية لإيران، إذ اعتنق مبادىء المزدكية في بداية القرن الثامن للميلاد الأمير المسمى «خورزد»، أخو شاه خوارزم، فبعد أن استولى هذا على السلطة اضطهد الطبقات النبيلة في ذلك الإقليم وصادر أموالهم ونساءهم وبناتهم ووزعها بين الطبقات الفقيرة. فاضطر الملك إلى الاستنجاد بالعرب، فأعاده القائد «قتيبة» إلى عرشه وأخمد حركة «خورزد».

ومع أن قباذ قلب ظهر المجن للمزدكيين إلا أنه ظل متأثراً بالآراء التي شاعت آنذاك حول العدالة الاجتماعية، فحاول التخفيف من الأوضاع السيئة بإصلاحات مالية، إلا أن الموت لم يمكنه من تنفيذ منهجه.

كسرى الأول:

خلف قباذ كسرى الأول (531 ـ 579 م) الذي عرف باسم كسرى أنوشروان واشتهر بإصلاحاته وعدله وصار (كما نجد صدى ذلك في المصادر العربية التي تلقبه بالملك العادل)[1] مثل الحاكم الصالح. وسيتضح مما سنوجزه عن أعماله أنه بإمكان عد حكمه أزهى حقبة في العهد الساساني سواء كان ذلك من النواحي الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية والانتصارات العسكرية، وكانت أولى أعماله أن أعاد الاستقرار وسلطة العرش في المملكة، كما أعاد الأملاك التي اغتصبها المزدكيون إلى أصحابها وجعل الدولة تعنى بشؤون النساء والأطفال الذين اغتصبهم أتباع مزدك، ولما شبّ أبناء هؤلاء النبلاء ألحقوا بخدمة العرش فكانوا أكثر ولاء وتعلقاً من النبلاء القدماء. وقام بمشاريع مهمة لإنقاذ وضع الريف والأراضي الزراعية، فأعيد بناء القرى، وأصلحت الطرق والجسور والقنوات وأدخلت الحكومة تشريعاً خاصاً لإصلاح النظام المالي فوضعت الإحصائيات للأراضي والأملاك وجعلت الضريبة على أساس الطبقة التي يعود إليها الفرد. والتفت إلى الجيش فأصلحه، والظاهر أن هذا الملك قسم الأمبراطورية من ناحية القيادة العسكرية إلى أربعة أقسام كبرى عيّن على كل قسم منها قائداً عاماً وهي فارس وماذي وبلاد البخت والعراق وأدخل التجنيد الإلزامي، وقوّى المراكز الدفاعية في تخوم المملكة.

وعلى الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع بيزنطية قام كسرى أنوشروان بغزو بلاد الشام (540 م) واستولى على أنطاكية وأحرقها ونقل سكانها إلى مدينة جديدة بناها لهذا الغرض قرب طيسفون، وسماها باسم

---

(1) وفي عهد كسرى ولد النبي محمدﷺ في أواخر سني حكمه (انظر الطبري).

يعني: «أحسن من أنطاكية مدينة كسرى»[1]، كما وسع العاصمة طيسفون، عاصمة الساسانيين في العراق، فجدّد المدينة، ويحتمل أنه هو الذي ابتنى الطاق العظيم واتخذه لإقامة الحفلات، وهو اليوم أكبر طاق معقود في العالم، حيث يزيد عرضه على (25) متراً ويبلغ علوّه عن مستوى التبليط زهاء (37) متراً، وقد مضى على بنائه نحو 1500 عام وهو لا يزال قائماً. والمعروف عن الملوك الساسانيين أنهم كانوا يزينون جدران القصور كما يروى ذلك عن طيسفون حيث مثلت في بعض جدرانها مشاهد الاستيلاء على أنطاكية، كما جاء وصف ذلك في قصيدة البحتري الشهيرة[2].

وبعد ذلك خاض كسرى حرباً موفّقة ضد البيزنطيين في أرمينيا انتهت بالصلح، وظل السلم حتى الأيام الأخيرة من حكمه الذي دام زهاء نصف قرن، ومما يجدر التنويه به في عهد كسرى أنه قضى على الأفثلاطيين فأعيدت حدود الأمبراطورية في جهة الشرق، ووسع حدود الأمبراطورية في الجنوب حتى شملت اليمن وكان يحكم في زمنه في الحيرة الملك «المنذر». واهتم كسرى بنشر الثقافة والتعليم فقد أنشئت في عهده مدرسة للفلسفة والشعر والبلاغة قرب مدينة سوسة ترجمت فيها كثير من الآثار اليونانية إلى اللغة الفارسية. وكان يميل بوجه خاص إلى الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين، وأوثر عنه أنه أرسل طبيبه «برزويه» (Burzuya) إلى الهند فجلب هذا معه الشطرنج وكتاب كليلة ودمنة المشهور وكتباً مهمة في الطب.

بإمكاننا عد كسرى آخر الملوك العظماء في السلالة الساسانية، وقد

---

(1) وبالفارسية القديمة (Veh-az-Andev-i-Kkusraw). (راجع ما ذكرناه عن اسم «جنديسابور» التي بناها شابور الأول تخليداً لذكرى انتصاره على أنطاكية).

(2) لم يعثر على نماذج من هذه الصور إلا أن «غريشمان» (Ghrishman Iran, 326) وجد في إيوان «بيشابور» تبليطاً من الفسيفساء منقوشة بالصور تدلّنا على نوع الصور الجدارية لأن المعروف أن صور الفسيفساء تستنسخ عادة من النقوش الجدارية.

(حول التنقيبات في طيسفون 1931 ـ 32 انظر: (J.H. Schmidt, in Syria, 1934)

خلفه سلسلة من الملوك معظمهم كان ضعيفاً وساءت في عهدهم أحوال الدولة. وأول هؤلاء هرمز الرابع (579 ـ 590 م)، وكان هذا على شيء من المقدرة والحنكة وحب المعرفة، فأراد متابعة سياسة أبيه ولا سيما الاحتفاظ بزمام السلطة على طبقات النبلاء والكهنة ولكن لم يوفّق في ذلك إذ تألب عليه النبلاء والكهنة الزرادشتية، وساء الوضع، ونجحت السياسة البيزنطية في تأليب الجبهات المعادية ضد إيران، وثار على الملك قائد عظيم وهو بهرام المتحدر من السلالة الأرشاقية، وساند النبلاء هذا الثائر الذي نجح في القبض على هرمز وسجنه وتنصيب ابنه كسرى الثاني (أبرويز) بدلاً منه (590 ـ 628 م)، ولكن القائد بهرام المذكور طمح بأكثر من ذلك إذ كان يريد العرش فاَستولى على العاصمة وأعلن نفسه ملكاً إلا أن الملك المخلوع استطاع بمساعدة عسكرية من بيزنطية أن يغلب القائد الغاصب، ولكن تلك المساعدة البيزنطية كلفت الفرس ثمناً باهظاً إذ فقدوا جميع أرمينيا. ولكن لم يدم الوضع على هذا الحال زمناً طويلاً، إذ استطاع كسرى الثاني بعد بضع سنين من أخذ المبادأة واليد العليا على البيزنطيين حيث تمكّن الجيش الفارسي من استعادة أرمينيا والاستيلاء على أديسا (الرها) ثم زحف عبر كبدوكية وأخذ قيصرية ووصل إلى البسفور (610 م)، ثم هاجم الجيش الفارسي في العام التالي أنطاكية ودمشق ثم أورشليم، فنهب ودمر وقتل كثيراً من المسيحيين، وأخذ من فلسطين بعض الآثار الدينية (ومن بين ذلك جزء من الصليب الحقيقي)، واستطاع الجيش أن يستولي أيضاً في عام 616 م على غزة، وغزا مصر وأخذ بابليون (القاهرة القديمة) والإسكندرية ثم سار الجيش مع النيل إلى تخوم بلاد الحبشة. وبذلك أحرز كسرى الثاني انتصارات لامعة عجيبة ومدّ حدود المملكة إلى جهات لم تعرفها الدول الفارسية إلّا في عهد الأمبراطورية الإخمينية. والأعجب من ذلك أن الجيش الفارسي تمكن من الاستيلاء على أنقرة وضرب الحصار على القسطنطينية، وتمّ لجيوش الملك الانتصار على الأفتلاطيين في الوقت نفسه.

ولكن يبدو أن هذه الانتصارات الكاسحة السريعة كانت بمثابة صحوة

الموت، إذ استطاع الأمبراطور البيزنطي الجديد هرقل (Heraclius) بهجوم مقابل أن يحرر آسيا الصغرى ويطرد الجيوش الفارسية منها، ثم غزا أرمينيا وأوغل في أذربيجان. واستولى فيها على أهم معابد إيران. وبعد أن اتصل بحلفائه الخزر الذين عبروا القوقاز زحف إلى وادي دجلة وحاصر طيسفون، فأراد كسرى الهرب ولكن اغتاله ابن له من أميرة بيزنطية ولعلنا نستطيع تفسير هذه النكسات المريعة بالمقابلة مع الانتصارات اللامعة التي سبقتها إذا درسنا سلوك كسرى الثاني الذي كرهه بأعين رعيته، لما عرف عنه من القساوة والظلم والطمع وفرضه الضرائب الفادحة التي سحقت الشعب، وإلى ذلك كان سيئ الظن بحيث إنه كان يفتك بأقرب المقربين والموالين إليه، كما أن انتصاراته العجيبة زادت من سوء سلوكه بركوبه الغرور والطيش، فأسرف إسرافاً شديداً على أبهة بلاطه الذي كان يضم ألوفاً من السريات والموسيقيين والحجّاب والندمان، كما أنه أسرف في استعمال قواه المحاربة في فتوحه فوق طاقة موارده، وهكذا فليس من المستغرب أن انعكست الآية وتحوّلت انتصاراته السريعة إلى هزائم مماثلة. وقد ساهمت الطبيعة في إحلال الوهن في العرش والبلاد فقد صادف أن فاض دجلة فيضاناً طاغياً حوّل الأرياف المزدهرة إلى مستنقعات وسبّب انهيار أجزاء من القصور الملكية في طيسفون. ومن الحوادث التي لعلها كانت تبدو طفيفة بالنسبة إلى كسرى أبرويز وهو في أبهة بلاطه ولكنها كانت نذيراً بسقوط الفرس، تلك هي استقبال أبرويز رسولاً أرسله إليه شخص لم يسمع به من قبل، ذلك «هو محمد النبي العربي الذي طلب منه الإسراع في الدخول إلى دين الحق الجديد»[1].

ومن المحتمل جداً أن كسرى أبرويز تجاهل هذه السفارة وصاحبها وعجب لجرأة مرسلها ولكنه لم يدر بخلده أنه سيستطيع أتباع صاحب هذه

---

(1) كان مبعث النبي ﷺ في العام العشرين من حكم كسرى أبرويز كما أن الهجرة كانت في عامه الثاني والثلاثين ووقعت في عهده موقعة ذي قار الشهيرة (انظر البلاذري حول رسالة النبي).

السفارة من اكتساح أمبراطوريته بعد زمن لم يزد كثيراً على أربعة عشر عاماً. إذ الواقع أن أربعة عشر عاماً هي كل المدة الفاصلة بين موت كسرى أبرويز وبين مجيء يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين (632 ـ 651 م). ولكن العجيب في هذه الفترة القصيرة أن ما لا يقل عن اثني عشر ملكاً قد تناوبوا على العرش الفارسي[1] وانغمرت المملكة بالنزاع والحروب الداخلية بين الأمراء والنبلاء المتخاصمين، وأصبح هؤلاء الملوك مجرد ألعوبة بأيدي الأحزاب المتنازعة، وصارت طبقات النبلاء المتحاربة تضع على العرش حتى النساء، والمثال على ذلك ابنتا كسرى (أبرويز) وهما «بوران» و«آزرمي دخت». ولما دعت الحاجة في عام 632 إلى تنصيب ملك من الأمراء الساسانيين فتش النبلاء عن أمير كان مختبئاً في اصطخر خوفاً على حياته من المؤامرات الدائرة، وكان هذا يزدجرد الثالث الذي بلغ سوء الوضع في عهده حدّاً لا ينصلح فيه إلّا بتغيير أساسي. وهكذا انفتح الطريق أمام الفاتحين العرب الذين بدؤوا بنشر دينهم الذي حتم على مصير الأمبراطوريتين العظيمتين، أمبراطورية فارس وبيزنطية. فقد أزالوا الأمبراطورية الأولى من الوجود، وقلّصوا حدود الأمبراطورية الثانية وحصروها في جزء من آسيا الصغرى ومركزها في القسطنطينية. وفيما كان هرقل مشغولاً بنزاعه مع كسرى كان الجيش العربي يغزو سوريا. هذا وأن سير الفتوح العربية التي أنهت الأمبراطورية الفارسية معروف لدى دارس التأريخ الإسلامي وخارج نطاق بحثنا فلا ندخل فيها إلّا بأن ننوّه بأنه على الرغم من كفاءة (رستم) قائد الجيوش الفارسية إلا أن الجيش العربي أوقع فيه هزيمة منكرة في موقعة القادسية الشهيرة قرب الحيرة (حزيران عام 637 م) حيث قتل في تلك الموقعة ثم تلى ذلك أخذ القائد العربي سعد للعاصمة طيسفون في العام نفسه (المدائن كما عرفها العرب)، ولكن مقاومة الفرس استمرت في بلاد إيران، فألّف يزدجرد جيشاً جديداً لصدّ سيل الفتوح العربية، ولاقى الجيوش العربية في

---

(1) حكم بعد أبرويز ابنه قباذ شيرويه الذي قتل أباه وانتشر الطاعون في زمنه ولا سيما في العراق.

سهل «نهاوند» جنوب همدان، فانتصر العرب انتصاراً لامعاً وانهزم الملك مع حاشيته إلى جهة الشرق كما فعل آخر ملوك السلالة الإخمينية (دارا الثالث) في هربه من ملاحقة الإسكندر. وحلّ به نفس المصير إذ اغتيل بالقرب من مرو (عام 651 م)، وبذلك انتهت حياة الأمبراطورية الساسانية وانتهى حكم السلالة الساسانية بعد أن دام نيفاً وأربعة قرون (226 ـ 651 م).

الحيرة:

وننهي بحثنا عن الدولة الساسانية بأن نذكر شيئاً موجزاً عن أخبار السلالة العربية التي كانت تحكم في الحيرة في أيام الساسانيين وقد كنّا ذكرنا في عدّة مواضع من تأريخنا أن القبائل العربية كانت تهاجر إلى الشرق من الجزيرة إلى وادي الرافدين منذ أزمان بعيدة، وفي حدود بداية القرن الثالث للميلاد جاءت بعض القبائل العربية إلى الموضع الخصب غرب الفرات وقد دعت نفسها هذه باسم «تنوخ» وأصلها من عرب اليمن. ويحتمل أن مجيئها إلى قرب الفرات صادف زمن الاضطراب الذي أعقب سقوط السلالة الفرثية وقيام السلالة الساسانية (226 للميلاد). وقد عاشت تنوخ في بادىء أمرها في الخيم، ولكن مقراتها صارت ثابتة. وهكذا نشأت الحيرة (وتعني الحيرة باللغة السريانية المخيم) الواقعة إلى جنوب الكوفة بثلاثة أميال وقد اعتنق أهل الحيرة المسيحية (الفرع النسطوري منها). وذهب فرع من تنوخ إلى شمالي سوريا. وينسب الدروز أنفسهم (وهم فرع من التنوخيين في لبنان الجنوبي) إلى ملوك الحيرة اللخميين.

وتذكر لنا المآثر أن مالك بن فهم الأزدي (وقد اتحد الأزد وتنوخ في قبيلة واحدة في العراق) كان أول ملك على الحيرة، وأن ابنه جذيمة الأبرش كان تابعاً إلى الملك الفارسي أردشير. ولكن مؤسس مملكة اللخميين الحقيقي هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم ابن أخت جذيمة. فجعل عمرو الحيرة عاصمة له، ومنه اشتقت اسم السلالة اللخمية وقد جاءتنا منها أسماء من ملوكها (نحو عشرين ملكاً) لا نعرف سوى أسمائهم وأكثر من نعرف منهم

من الوجهة التأريخية امرؤ القيس الأول (328 للميلاد) ويعد النقش الكتابي الذي جاءنا منه أقدم كتابة عربية تفرعت عن الخط النبطي. واشتهر من أبناء امرىء القيس النعمان الأول الملقّب بالأعور (400 ـ 418 م)، المشهور في الأشعار العربية، وينسب إليه بناء الخورنق ويقال إنه بناه لبهرام جور بن يزدجرد الأول (399 ـ 420 م) الذي رغب أن يتربى ابنه في البادية. وكذلك ينسب إليه بناء السدير وهو قصر في البادية بين الحيرة والشام، وأنه كان وثنياً اضطهد أتباعه المسيحيين. واشتهرت الحيرة في زمن ابن النعمان وهو المنذر الأول (418 ـ 462 م) الذي عظم في زمنه شأن الحيرة ولا سيما في شؤون الأمبراطورية الفارسية وقد بلغ من قوة المنذر أنه أجبر الفرس على تتويج بهرام الذي التزم جانبه ضد مدّع بالعرش. وقد حارب المنذر مع الفرس البيزنطيين في عام 421.

وحكم في الحيرة في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ملك باسم المنذر أيضاً (المنذر الثاني 505 ـ 554 م) هو الذي يسميه العرب ابن ماء السماء وهو لقب أمه (مارية أو ماوية). وكان هذا أشهر ملوك السلالة اللخمية، وقد كان شوكة في جانب الأمبراطورية الرومانية حيث أقلقهم وأزعجهم في بلاد الشام وكان يغزو البلاد ووصل إلى أنطاكية، ولكن صدّه الغساسنة، وكان يعاصره منهم الملك الحارث. وخلف المنذر الثاني ابنه الشهير عمرو الملقب بعمرو بن هند (554 ـ 569 م)، الذي اشتهر بإغداقه المال على الشعراء حتى أن ثلاثة من فحول الشعراء من أصحاب المعلقات وهم طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم كانوا ملازمين لبلاطه. وقد استفاد الملك من هؤلاء الشعراء ببث الدعاية له بين العرب. واشتهرت أم الملك هند بأنها كانت أميرة مسيحية من غسان أو من كندة وأنها بنت ديراً مشهوراً في الحيرة ظل حتى القرن الثاني للهجرة.

انتهت سلالة الملوك اللخميين بحكم النعمان الثالث وهو المكنى «أبو قابوس» (580 ـ 602 م) ابن المنذر الرابع، وكان هذا صاحب النابغة

الذبياني. وقد اعتنق هذا الملك الديانة المسيحية، فكان الملك الوحيد الذي تنصّر من بين الملوك اللخميين. وصار الفرس يتدخلون مباشرة في شؤون مملكة الحيرة حتى أن ولاة منهم كانوا يحكمون في زمن «إياس بن قبيصة الطائي» الذي حكم الحيرة من بعد النعمان وظل الحال كذلك حتى العام 633 م حينما انحاز عرب الحيرة إلى جانب خالد بن الوليد في فتوح العراق.

موجز عن الأوجه الحضارية

1 ـ المجتمع والتنظيمات الإدارية:

على الرغم مما طرأ من التخفيف في شدة النظام الإقطاعي وتقليص الدويلات شبه المستقلة مما كان في العهد الفرثي السابق إلا أن المجتمع الإيراني بقي في العهد الساساني وكأنه الهرم في تدرج طبقاته، حيث يأتي في القمة «ملك الملوك»، وهو رأس الدولة، ثم تتدرج من بعد ذلك أربع طبقات تأخذ بالازدياد عدداً والتضاؤل نفوذاً كلما ابتعدنا عن قمة الهرم إلى القاعدة، ويتألف الصنف الأول مما يلي الملك من أتباع الملك من الإقطاعيين النبلاء والأمراء الكبار والصغار الذين كانوا ملوكاً صغاراً تابعين للملك الإيراني الكبير بصفته «ملك الملوك». ويدخل في هذا الصنف أمراء السلالة الحاكمة الذين عهدت إليهم إدارة الحكومة في الولايات الكبيرة مثل إقليم «سستان» و«كرمان»، وكذلك الولايات الكبرى التي ضمّت بالفتح إلى الأمبراطورية الساسانية. وبالمقارنة مع العهد الفرثي الذي سبق الكلام عليه تقلص عدد السلالات المحلية الحاكمة، كما زالت تقريباً من تخوم الأمبراطورية حيث جعلت ذات مركز شبيه بمركز أقوام التخوم المتحدة في الأمبراطورية الرومانية الذين وكّل إليهم أمر الدفاع عن الأقاليم الخاصة بهم.

ويلي الأمراء الكبار في السلم الاجتماعي رؤوس الأسر السبع، وهي أسر نبيلة فارسية ظل عددها وامتيازاتها متوارثة من العهد الإخميني تقريباً، إذ ورثها الساسانيون عن الفرثيين الذين شلّ النبلاء في عهدهم استقرار الدولة

السياسي. ولكن الساسانيين حاولوا التخفيف من حدة النظام الإقطاعي، واستطاع الملوك الأقوياء الأوائل أن يقلصوا هذا النفوذ إلى موت شابور الثاني حيث انتعش النظام الإقطاعي من بعد ذلك وأخذت أخطاره على الدولة تزداد في عهود الاضطرابات والضعف التي دامت زهاء (125) عاماً إلى زمن اعتلاء كسرى الأول عرش المملكة الفارسية، فاستطاع هذا هو والملوك الأقوياء القلائل الذين أعقبوه من تخفيف شرور النظام الإقطاعي، ولكن سرعان ما استفحل شره. وكان كفاح الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية ضد العرش لحماية امتيازاتهم أهم العوامل التي نخرت في جسم الأمبراطورية الساسانية وسبّبت سقوطها. هذا ولا يعلم إلّا أشياء قليلة عن طبيعة الامتيازات التي كانت تتمتع بها تلك الأسر النبيلة الكبيرة، ولكن المرجّح كثيراً أنها كانت تمتد في نفوذها وسلطتها إلى جملة ولايات كانت تجبي الضرائب من فلاحيها بالإضافة إلى ما كان يُجبى منها إلى خزينة الملك. ومقابل هذه الامتيازات كانت تلك الأسر الإقطاعية تمد الملك بالمساعدات العسكرية وتجمع الجيوش من أتباعها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما كان الحال في العهد الفرثي. وهناك صنف آخر من النبلاء يصح أن نطلق عليهم اسم الوجهاء أو الأشراف وكانوا بمثابة القوة المعادلة للأسر النبيلة الكبرى، ويشمل هذا الصنف كبار موظفي الدولة والوزراء ورؤساء الإدارة وبعض قواد الجيش. وقد صارت هذه الطبقة عنصراً جديداً مهماً في نظام المجتمع الإيراني. واستطاع الملوك بالاعتماد عليها وعلى الجيش أن يعيدوا تنظيم إدارة الدولة وتقويتها مما لم يكن معهوداً في العهد الفرثي السابق.

ويأتي في سفح الهرم الاجتماعي في أولى درجاته طبقات الناس الأحرار من ملاكي الأرض الصغار ورؤساء القرى الذين كانوا واسطة الاتصال بين جماهير الفلاحين الذين يأتون في أسفل الهرم وبين موظفي الحكومة المركزية وممثليها، فكان هؤلاء النبلاء الصغار مسؤولين للحكومة عن جمع الضرائب وجبايتها من الفلاحين. وكان الفلاحون يؤلفون الجمهور الأكبر من السكان وهم على الرغم من كونهم أحراراً من الوجهة النظرية والقانونية إلا أنهم كانوا

في الواقع أشبه ما يكونون بالرق المربوطين بالأرض حيث كانوا يباعون من الوجهة العملية مع الأرض وينتقلون معها من مالك إلى آخر.

2 ـ الإدارة:

وكانت الإدارة بدورها تؤلف هرماً آخر يقوم فوق رأسه الوزير الأعظم (أو رئيس الوزراء) الذي كان بيده زمام السلطة التي يمارسها تحت سيطرة «ملك الملوك». وكان الوزير الأعظم ينوب عن الملك في غيابه، وهو مسؤول عن الشؤون السياسية والدبلوماسية، حيث يوقّع على المعاهدات والاتفاقيات، وتوكل إليه في بعض الأحايين قيادة الجيش العليا، كما كان رئيساً للوزراء أو الدواوين المختلفة حيث كان يدير كل ديوان «كاتب» أو سكرتير متضلع بالشؤون الإدارية وأصول تحرير التقارير وصياغة المعاهدات والمراسلات المهمة. ويأتي على رأس الدواوين ديوان العدل وديوان الرسائل وديوان التعيين في الوظائف وديوان الحرب وديوان المالية. وكان لديوان المالية أهمية خاصة ويديره الموكل بالضرائب يتبعه جيش من المحاسبين والجباة والعملاء. وعلى هذا الديوان وحسن إدارته كان يقوم نفس وجود الدولة.

وكان الملك القاضي الأعلى في الشؤون القضائية، وأعلى محكمة للاستئناف. وإلى جانب القضاة المدنيين كان رجال الدين يتولون جزءاً عظيماً من الشؤون القضائية لأن القانون والشريعة والأخلاق كانت مرتبطة بالديانة أشد الارتباط. ولا يعلم هل كان للساسانيين شريعة مدوّنة إلا أن الكتب الزرادشتية المقدسة كانت تتضمن فصولاً مهمة خصصت للشريعة والقانون، وتحتوي على فصل في الجرائم التي ترتكب ضد الملك وضد الدولة وضد الجار الخ. وكان الامتحان لإظهار البينة (Ordeal) والتعذيب أمرين مألوفين في أصول التقاضي عند الساسانيين.

وكانت إدارة الأمبراطورية تستند في تنظيمها إلى تقسيمها إلى ولايات أو أقاليم كما كانت في العهد الإخميني، وكان يختار لإدارة الولايات الوجهاء من

أعضاء الأسرة المالكة ومن النبلاء ومن قواد الجيش أحياناً. ولم تكن الحدود الإدارية بين ولايات الأمبراطورية ثابتة على الدوام. وبالنظر إلى سعة الولايات كانت كل ولاية تقسم بدورها إلى وحدات إدارية يحكمها حكّام خاصون، ثم تقسم هذه الوحدات أيضاً إلى مناطق إدارية أصغر حتى نصل إلى القرية حيث يكون رئيسها مسؤولاً إلى الموظفين الإداريين. وإذا ما أتينا إلى بلاط الملك ألفيناه في إدارته معقداً ومتدرجاً في الرتب مثل إدارة المملكة نفسها فهناك الطبقات والرتب المختلفة من الحجّاب، ويحتل أعضاء الأسرة المالكة وفرسان الملك وحرسه مقاماً عالياً، ومن حاشية البلاط الهزالون والمجان والموسيقيون الذين كانوا أيضاً على مراتب مختلفة بحسب مهارتهم وآلاتهم.

أما مصدر النفقات الباهظة التي تتطلبها إدامة البلاط وحاشية الملك المؤلفة من عدة آلاف ونفقات الموظفين والجيش والمشاريع العامة فكل ذلك مصدره من الضرائب ومن الواردات الخاصة الآتية من الأراضي العائدة للدولة والتاج. ومن الموارد المهمة استغلال الدولة للمناجم وسك النقود وواردات الدولة من غنائم الحروب الخارجية الجسيمة. إن هذه الموارد التي عددناها كانت تدرّ على خزائن «ملك الملوك» مقادير جسيمة من الثروة، وعلى الرغم من أن أكثر الملوك الصالحين العادلين كانوا يصرفون هذه الموارد الغزيرة في إصلاح شؤون المملكة والناس إلا أنها كانت تبذر ومع التبذير كانت مقادير كبرى منها تخزن عاطلة، وكما سقطت خزائن أموال الإخمينيين بيد الفاتح الإسكندر، كذلك صارت الكنوز التي غنمها العرب الفاتحون مما وجدوه باقياً في خزائن الملوك الإخمينيين مضرب أمثال المؤرخين.

3 ـ الجيش:

كانت قيادة الجيش في خلال القرون الثلاثة الأولى من العهد الساساني بيد «قائد الجيش الأعلى»، وكانت هذه وظيفة وراثية تقريباً يشغلها أحد أفراد الأسرة المالكة، وكان يعمل تحت إمرته قائدان أحدهما القائد المساعد والثاني قائد الخيالة، وكان يعيَّن في هاتين الوظيفتين من أفراد الأسر النبيلة في

المملكة. ولكن كسرى الأول بدّل هذا النظام من أساسه، فقد ألغى منصب القائد العام، ووكّل قيادة جيوش الأمبراطورية، على ما بيّنا سابقاً، إلى أربعة قواد، كل قائد مسؤول عن جبهة من جبهات المملكة الحربية: الشمال والجنوب والشرق والغرب، وعين مساعداً مع كل من هؤلاء القادة الأربعة. وكان الهدف من هذا التنظيم الجديد تحاشي حصر جميع الجيوش تحت قيادة فرد واحد يستطيع إذا ثار أن يزيح الملك عن عرشه، ولكن مع ذلك فإن هذا التنظيم الجديد ولّد بدوره شروراً جديدة، وصار القوّاد الأربع من العوامل التي حطّمت المملكة في أيامها الأخيرة.

كان الجيش الساساني، كما كان الحال عليه في العهد الفرثي، يقوم على وحدة أساسية مهمة فيه، هي نظام الفرسان المسلحين تسليحاً ثقيلاً[1]، وكان مصدر هؤلاء الفرسان من تجهيز طبقات النبلاء الفرس حيث هم يمدون به جيوش الملك. وهناك صنف آخر من الفرسان الخفيفي السلاح من رماة السهام ومصدر هؤلاء مما يجهز النبلاء الصغار، وكان هذا الصنف بمثابة حماية للصنف الأول، وكلا الصنفين كانا يستعملان في الالتحام حيث يلحق بهما نظام الفيلة الذي لم يستعمله الفرثيون كما بيّنا من قبل. أما ساقة الجيش (مؤخرته)[2] فقوامها المشاة من جماهير الفلاحين المسلحين بأسلحة فقيرة، فلم يكونوا على أهمية كبيرة من الناحية العسكرية. وكان يلحق بجيش الفرس جيوش مهمة مساعدة مصدرها من الشعوب التابعة ولا سيما من الأقاليم الكائنة في تخوم الأمبراطورية وقد اشتهر بعض هذه الجيوش شهرة خاصة مثل جيش «سستان» و«كوشان» والجيش المؤلف من الهياطلة (الترك الأفتلاطيين)، كما اشتهر الفرسان الأرمن بكفاءتهم وأهميتهم في جيش الأمبراطورية الفارسية.

ومن الملاحظات المفيدة التي نختتم بها كلامنا عن الجيش الفارسي أنه

---

(1) (Cataphract)، وهو نظام دخل في تنظيم الجيوش العربية ولا سيما في العهد العباسي.

(2) (rear-guard).

كان مقسماً إلى قطعات كبرى أو ما يسمى بالجحافل (Corps) يتألف كل منها بدوره من عدة فرق، وهذه تنقسم أيضاً إلى وحدات أصغر فأصغر. وقد سبق أن لاحظنا أن آلات الحصار الحربية كانت بدائية غير ناجعة في العهد الفرثي، ولكن تحسّنت هذه كثيراً في العهد الساساني، حيث أتقن فن الحصار بحيث أصبح الساسانيون يضاهون الرومان في ذلك، كما أن هناك أدلة غير مباشرة على أن الفن العسكري أصبح موضوع بحث. حيث كتبت فيه مؤلفات ومقالات.

4 ـ الديانة:

تروي المآثر المتأخرة أن الديانة الزرادشتية قد حفظت بأصلها في إقليم فارس، وأن أردشير بن بابك قد جعلها ديانة الدولة الرسمية، ولكن البحوث الحديثة في الديانة الساسانية لم تؤيد هذه المآثر، إذ الواقع أن هذه الديانة التي حوفظ عليها في فارس هي الديانة القديمة التي لم تستطع أن تزيلها ديانة زراوستر. فقد رأينا كيف أن عبادة الآلهة القديمة قد ظلت وبرزت في أهميتها من بعد عهد دارا الأول وكيف أن الملك الإخميني أرتحششتا قد اعترف رسمياً بعبادة آلهة قديمة ولا سيما الإلهة «أناهيتا»، حتى أنه صنع لها صنماً لعبادتها على عادة الديانة البابلية واليونانية. وهكذا فإنه حينما أخذت السلالة الساسانية حكم إيران وجدت الإقليم الذي ظهرت فيه، وهو إقليم فارس، مركزاً مهماً لعبادة «أناهيتا» وعبادة الإلٰه «أهورامزدا» أيضاً. هذا وقد رأينا كيف أن أجداد السلالة الساسانية كانوا رؤساء الكهنة في معبد النار المهم في اصطخر. كما أن شابور الأول أسس معبداً مهماً في «بيشابور»، وأنه جلب إلى هذا المعبد ماء طاهراً من مسافة بعيدة حيث يجري حول الحجرة الوسطية في المعبد فيبدو أن هذه العبادة المقترنة بالماء (والإلهة أناهيتا إلهة المياه) كانت أيضاً مقترنة بالنار.

إن هذه الديانة سادت في القسم الجنوبي الغربي من إيران، أما في الشمال الشرقي فإن ديانة هذا الإقليم كانت تتمركز في المعبد المهم المقام في

«شيز»، حيث الكهنة المجوس القدماء يقومون بالطقوس الخاصة به. هذا ولا نعلم وجه الصلة بين هذين المعبدين وهاتين العبادتين ولا أيهما الأهم.

المانوية:

وهكذا فيبدو أنه لم تكن في إيران في العهد الساساني ديانة عامة توحّد جميع الناس، وقد شعر بهذه الحاجة بوجه خاص «شابور» الأول في الوقت الذي كانت تحرز فيه الأمبراطورية الساسانية انتصاراتها المهمة في الخارج وكانت بحاجة لتوحيد الإيرانيين وتعبئة جميع مواردها الوطنية في كفاحها وصراعها مع روما. ولعل هذا يفسر لنا اتجاه شابور بالنسبة إلى «ماني» الذي ظهر في عهده حيث قربه واصطفاه. وكان «ماني» هذا من أصل نبيل وادعى أنه نبي مرسل من الله لإنجاز ما أوحاه إليه. فبشر بديانة عالمية يدخل فيها جميع البشر بمختلف طبقاتهم وأشكالهم وألوانهم. والذي عليه البحث الحديث أن الطقوس والعبادات التي فرضها «ماني» مشتقة بالدرجة الأولى من عبادات بابل وإيران القديمة كالزرادشتية وأثرت فيها أيضاً البوذية والمسيحية. وكانت الأسس العقائدية في هذه الديانة تقوم على مبدأ «الثنوية» و«الضدية» أو الصراع بين عنصرين يسودان الكون هما النور والظلام، والخير والشر. ومن هذين العنصرين أو المبدأين المتضادين المتحاربين خلق الكون. إن روح الإنسان «نور» ولكن جسمه «ظلام»، فترمي التعاليم الأخلاقية المانوية إلى تحرير الروح أو النفس من الجسم. ولما أن يتحرر جميع النور وكل النفوس المحبوسة بالمادة فتصعد إلى الشمس، عندئذ ستتحطم الأرض والسماء، ولكن مملكة النور ستدوم إلى الأبد. وقسم أتباع هذه الديانة إلى طائفتين طائفة المقرّبين «المصطفين» وطائفة «السامعين» المطيعين. فيدخل في الطائفة الأولى صنف الكهنة الذين فرضت عليهم العزوبة وحرم عليهم أكل اللحم وطهرت نفوسهم من الغل والحسد والكذب. أما «السامعون» فقد سمح لهم بالزواج، وهم كالناس الاعتياديين إلا أنهم ينبغي أن يتحلوا بالفضيلة ويتجنبوا السعي وراء المادة والثروة. وفرضت هذه الديانة نوعاً من الصلاة والصيام، إلا أنها خلت

من القرابين والتضحيات وعبادة الصور والأصنام. ومارست المانوية أيضاً ما يشبه بعض الأسرار[1] المسيحية كالتعميد والتوبة والقداس الإلٰهي والغفران من الذنوب عند الاحتضار. والعجيب فيها أنها لم تعترف بالديانة اليهودية واعتبرت موسى والأنبياء شياطين وأن ربهم رب الظلام. وتأثرت بمبدأ الغنوسطية[2] في العقائد الميتافيزيقية بالكون وأصل الأشياء، وتأثرت المانوية في معتقداتها بالزرادشتية أيضاً، واشتقّت أسماء الملائكة من المصادر السريانية. وتأثرت بالبوذية في اعتقادها بتقمص الأرواح وانتقالها أو تناسخها[3].

وحصل رد فعل عنيف من جانب الكهنة المجوس ضد المانوية من بعد موت شابور، حيث حوكم «ماني» وحكم عليه بالموت، واضطهد أتباعه ونكّل بهم فهربوا خارج إيران متفرقين في أنحاء شتى فقد اتجه بعضهم إلى الأنحاء الشرقية حيث بشروا بمذهبهم في آسيا الوسطى، وهرب بعضهم إلى سوريا ومصر، واعتنق العرب في الحدود الغربية من إيران العقائد المانوية. هذا وقد سبق أن تكلمنا عن الحركة المزدكية التي ظهرت في عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) فننهي بحثنا في الديانة في عهد الساسانيين.

5 ـ شيء عن الفن:

يمثل الفن الساساني مرحلة أو طوراً متأخراً من فن شرقي كان في الوجود زهاء أربعة آلاف عام، وكان خلفاً مباشراً للطور الأخير من الفن الفرثي الذي كان فناً إيرانياً بوجه أساسي. وقد أثرت في الفن الساساني

---

(1) (Sacrament).

(2) (Gnosticism) معنى هذا المصطلح اللغوي مأخوذ من المعرفة والتبحر فيها وهو مبدأ فلسفي ديني ظهر قبيل المسيحية وظل من بعدها واعتنقته جماعات من المسيحيين ومبدؤه الأساسي الخلاص وتحرير النفس لا يتأتى إلّا عن طريق المعرفة (gnosis) التي تساعد الحائز لها على التحرر من قبضة أرجاس المادة.

(3) metempshychosis.

مؤثرات خارجية، ولكن مثلت هذه التأثيرات وحورت لتلائم الروح الإيرانية وهذا مظهر من مظاهر قابلية الأخذ والتكييف عند الإيرانيين. وأحسن ما يمثل لنا فن العمارة الساساني كما هو في العمارة الإخمينية بناء القصور وأبرز مثال على ذلك قصر طيسفون، ومع أن نظام العمد اليوناني (Calonade) قد دخل إلى الشرق من بعد فتوح الإسكندر واستعمل في برسيبوليس في زمن الإخمينيين إلا أن الساسانيين أحيوا طراز الطاق والعقادة، ومع أنه لم يبق من جدران قصر طيسفون ولا من نقوشه التي اشتهرت في الأخبار العربية إلا أن ما لاحظناه عن ولع الساسانيين بزخرفة جدران القصور بالرسوم الزاهية قد أيّدته الأدلة الأثرية[1]. ومن المدن التي خلف فيها الساسانيون أمثلة عن فن العمارة مدينة «فيروز أباد» التي أسسها أردشير حينما استقل بالحكم عن الفرثيين، وكانت هذه أقدم المدن الساسانية وهي مدورة على الطراز الفرثي، ولكن شابور الأول عدل عن هذا النوع من التصميم لما بنى مدينة «بيشابور» حيث شيدها على طراز غربي وجعلها مستطيلة وباستثناء هذه الأمثلة لا نعرف بقايا مدن أخرى ساسانية باستثناء جملة مقار أسسها الملوك الساسانيون لتوطين الأسرى الرومان، فقد شيّد شابور الأول واحداً من هذه المقار في «جنديسابور» بين دزفول وششتر وهي ذات مخطط مستطيل[2]، وحافظ الساسانيون على معظم

(1) انظر ما سبق أن لاحظناه والاستشهاد عن ذلك بالمرجع .(Ghirshman, Op. Cit., 326)

(2) ومن الآثار المهمة التي يجدر التنويه بها مما خلفه الساسانيون في العراق المدينة المسماة «دستجرد» (دستجرد كسرى) أو الدسكرة أو دسكرة الملك، كما جاءت في المصدر العربية. وهي تقع في الطريق المهم بين طيسفون وهمدان وتعرف خرائبها الآن باسم الزندان (السجن) وباسم بنت الأمير القريبة من شهربان. انظر ابن رسته و(Sarre-Herzfeld, Arch. Reise, II, 76).

كما يجدر التنويه بالحصن المعروف بقصر شيرين الواقع على طريق خانقين. وأظهرت التنقيبات في كيش آثار قصور مهمة مزخرفة بالزخارف الجصية التي يوجد في المتحف العراقي نماذج منها (راجع تقرير التنقيبات للبعثة المشتركة بين جامعة أوكسفورد ومتحف فيلد). ونذكر أيضاً مدينة الأنبار المنسوبة إلى شابور الأول الواقعة قرب الفلوجة بنحو 40 ميلا 6 شمال غربي بغداد في الضفة اليسرى من الفرات، حيث بنى السفاح مقراً اسمه الهاشمية (انظر ياقوت).

المآثر الفرثية مثل استعمال الحجر في بناء القصور وتزيين قطع الحجر في الجدران بالمنحوتات البارزة التي تمثل مشاهد تأريخية تذكارية للملوك، كما يُلاحظ ذلك واضحاً في الحضر من العهد الفرثي. وكذلك يقال في بناء المعابد ولا سيما معابد النار مثل معبد «بيشابور» وبقايا الأثر الموجود في العراق في الموضع المسمى «باي كولي»[1] المرجح أنه معبد نار على هيئة برج، وقد سبق أن أوجزنا صفة معبد النار الساساني.

ومن فن النحت نذكر أشهر ما يمثله من المنحوتات التذكارية المنقوشة على الجبال، وقد عثر على أكثر من ثلاثين مشهداً منحوتاً بالمنحوتات البارزة في جبال نجد إيران، ومعظمها في فارس، مثل النحت الضخم العائد لأردشير الأول وشابور الأول في الموضع المسمى «نقش ـ رستم» قرب برسيبوليس ونقش كسرى (تمثاله) في «طاق بستان»، قرب كرمنشاه. وكان هذا موضع منتزه مشهور في العهد الساساني.

وننهي كلامنا عن الفن الساساني بالتنويه بمهارة الفنانين الصاغة في الفضة والذهب حيث جاءتنا جملة صحون منقوشة، كما دخلت صناعة الحرير إلى إيران في العهد الساساني من الصين واشتهر الحاكة الإيرانيون بمهارتهم الفنية في النقوش الجميلة حتى قلدت في أوروبا في العصور الوسطى.

---

(1) لقد زار المؤلف (مع زميله الأستاذ فؤاد سفر) موضع «باي كولي» (في تموز عام 1954) وقد سبق للمستشرق المشهور «هرزفيلد» أن زاره في عام 1911 و1913 واستنسخ كتاباته الفارسية (البهلوية الفرثية والبهلوية الساسانية) على الأحجار المتساقطة (انظر: Herzfed, Paikuli 1924) ويعود هذا الأثر إلى الملك الساساني «نرسي» (293 ـ 302 م) ذكرى حربه مع أخيه بهرام الثالث ويقع على السفح الغربي من جبال قره داغ في الفتحة المعروفة باسم «دربند باي كولي» بحوالي 4 أميال من الضفة اليمنى من ديالى ويمكن الوصول إليه من كفرى إلى مركز ناحية «بيباز» ثم إلى قرية «بونكلة» فقرية «بيسكان» ثم قرية بيكال التي يشاهد منها موضع الأثر. كما يمكن الوصول إليه بأخذ الطريق المحاذي إلى الضفة اليمنى من ديالى (طريق مشروع دربندخان) المؤدي من «بيباز» إلى «ياني خيلان» ومنها إلى «باي كولي» بسلوك سفوح قره داغ.

مراجع مختارة عن القسم الرابع

(1)R. Ghirshman, **Iran** (Pelican Book, 1954).

(2) H. Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).

(3) ..., **Iran in the Ancient East** (1941).

(4) V. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).

(5) **Cambridge Ancient History.**

(6) G.G. Cameron, **History of Early Iran** (1936).

(7) N.C. Debevoise, **A Palitical History of Parthia** (1938).

(8) A. T. Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948).

(9) P. Sykes, **Persia** (1922).

(10) Jacques Duchesne- Guillemin, **Zoroastre** (Paris, 1948).

(11) H. Frankfort, **History of Art and Architecture in The Ancient Orient** (1954).

(12) Arthur Upham Pope, **A Survey of Persian Art** (6 vosl, 1938).

(13) **The Legacy of Persia** (1953).

(14) M. Rostovtzeff, **The Social and Economic History of the Hellenistic World.**

(15) Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).

(16) Erich Schmidt, **Persepolis,** I, (1951).

(17) H. S. Nyberg, **Die Religionen des alten Iran** (1938).

(18) A. Christensen, **L'Iran sous les Sassanides** (1944).

(19) E. Schmidt, **Flight over Ancient Cities of Iran** (1940).

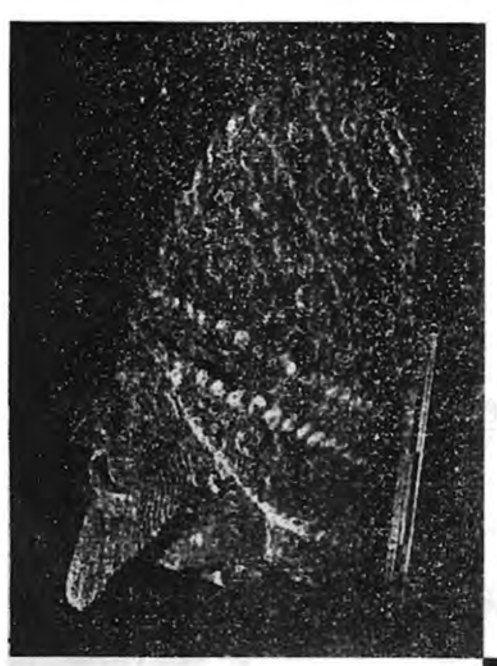
(20) G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablet** (1947).

(21) V. Scheil. **Inscriptions des Achéménides á Suse** (1929).

(22) F. H. Weissbach, **Keilinschriften der Achaemeniden** (1911).

(23) W. Tarn, **Alexander The Great** (2 vols. 1947).

(24) Nöldeke, **Geschichte der Perser und Araber** (1879).



رأس تمثال من الرخام يمثل أحد ملوك الحضر المسمى «أثال» وجد في الحضر (القرن الثاني للميلاد) (من تنقيبات دائرة الآثار العراقية).



صورة رائعة منحوتة من الرخام تمثل إلهة القمر (وجدت في الحضر، من أواخر القرن الأول للميلاد. من تنقيبات دائرة الآثار العراقية).



طاق كسرى الشهير في طيسفون (المدائن).
أخذت هذه الصورة قبل عام 1909 قبل أن ينهدم الجناح الثاني من الطاق.

القسم الخامس

اليونان والرومان

الفصل السادس والثلاثون

موجز تاريخ اليونان

مقدمة في الحضارة المينية (الإيجية):

قبل أن نبدأ بإيجاز تأريخ اليونان والحضارة اليونانية نقدم ذلك بذكر ملاحظات موجزة عن الحضارة الإيجية أو كما تسمى الحضارة المينية التي اتصل بها اليونان بعد هجرتهم وأخذوا عنها عناصر حضارية مهمة فقد نشأت في الجزر الإيجية حضارة مهمة ازدهرت في جملة جزر مثل «مسينية» وكان مركزها في كريت (أقريطش). وقد سميت بالحضارة «المينية» نسبة إلى أحد ملوكها المسمى «مينوس»، وقد ظهرت منذ بداية الألف الثالث ق.م. والمرجّح كثيراً أن هذه الحضارة من الحضارات البشرية الأصلية نشأت من الأطوار البدائية. ولكنها على كل حال تأثرت بحضارة مصر القديمة بالدرجة الأولى وبحضارة العراق القديم.

عوّلت الحضارة «المينية»، مثل الحضارة الفينيقية، على البحر فأنشأت السفن وأتقنت فن الملاحة الذي درّ عليها الخيرات والثروة من التجارة الخارجية وقد عاشت في أطراف مركز هذه الحضارة قبائل من الأقوام الهندية الأوروبية منها القبائل الإغريقية الهمجية التي تعلّمت منها أصول الحضارة وأنشأت حضارة فرعية مشتقة هي الحضارة الإغريقية التي أضافت إلى تراث الحضارة «المينية» كثيراً من العناصر الجديدة في تأريخ الحضارة البشرية. وكانت القبائل الإغريقية هي التي قضت على آخر دولة «مينية» وقد هاجرت فلول من «المينيين» (أي الايجيين) بعد القضاء على كيانهم السياسي إلى أنحاء

الشرق الأدنى، وجاء فرع منهم واستوطن سواحل البحر المتوسط الجنوبي، وقد عرف هذا الفرع بـ «الفلستينيين» أو «الفلسطينيين» ومنهم اشتق اسم فلسطين، وذهب فرع آخر منهم إلى آسيا الصغرى فأرتطم بالحثيين وقضى على كيان الأمبراطورية الحثية في حدود 1200 ق.م.

لقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في جزيرة «كريت»[1] وبعض الجزر الإيجية الأخرى وجود عصر حجري طويل العهد جاء من بعده العهد البرونزي (في حدود 3000 ق.م) الذي كان عهد الحضارة «المينية» الناضجة. وقد أمكن تقسيم هذا العهد، أي عهد البرونز أو عهد الحضارة المينية، إلى ثلاثة أطوار تدعى بالعهد «الميني» القديم والعهد «الميني» المتوسط والعهد (الميني) المتأخر. وأمكن كذلك تقسيم كل من هذه الأطوار الثلاثة إلى ثلاثة أدوار فرعية فيكون مجموع أدوار الحضارة المينية تسعة أدوار أما تأريخ هذه العهود فقد أمكن ضبطها بالمقايسة مع ما يضاهيها من آثار الحضارة المصرية لوجود أوجه شبه بين آثار الأدوار المختلفة في كل من الحضارتين. فيرجّح أن العصر الحجري المتأخر الإيجي يقع في عصر ما قبل السلالات المصري ويقابل بداية العهد البرونزي، أي بداية طور الحضارة المينية القديم، السلالات المصرية الأولى والسلالات السومرية الأولى في العراق في عصر فجر السلالات وعلى ذلك فتكون بداية الحضارة المينية في بداية الألف الثالث ق.م. كبداية الحضارة في كل من العراق ومصر تقريباً. ودام العهد (الميني) القديم زهاء ثمانية قرون. وأمكن تأريخ العهد (الميني) الوسيط بالمدة الواقعة بين القرن الثاني والعشرين أو القرن الواحد والعشرين وبين النصف الأول من الألف الثاني ق.م. وأُرِّخ العهد الميني الأخير في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ويبدو أن الحضارة المينية قد انتهى مصيرها فجأة في أواخر الألف

---

(1) انظر المراجع الآتية:

(1) Sir A. J. Evans, **The Palace of Minos**, vols. I-III (1921-30).

(2) Helen Gardner, **Art through the Ages** (1936) 101 ff.

الثاني بسبب هجرات الأقوام الهندية الأوروبية ولا سيما القبائل اليونانية التي كوّنت الحضارة اليونانية، وقد استعملت الحضارة المينية نوعاً من الخط الصوري على غرار الهيروغليفي المصري، لم تحل رموزه بعد، فلذلك لا نعرف أشياء كثيرة عن الأقوام التي أنشأت الحضارة المينية ولا سيما لغتهم وأصلهم وكثيراً من أوجه حضارتهم الروحية والعقلية.

هجرة اليونان وموجز تاريخهم:

اليونان من الأقوام الكثيرة التي تعرف بعائلة لغاتها «الآرية» أو اللغات الهندية الأوروبية والأقوام التي تتكلم بهذه العائلة اللغوية ليست من جنس (عرق) واحد خالص بل كانوا على الأرجح نتيجة اختلاط ما لا يقل عن ثلاثة عروق كعرق البحر المتوسط والأقوام المينية ولا سيما من كريت مع الأقوام الآرية، ويغلب على الإثينيين عرق البحر المتوسط، أما الإسبارطيون فهم أقرب إلى النورديين. ويرجّح كثيراً أن مهدهم القديم كان في مكان قريب من الواحات ومناطق المراعي في جنوب روسيا إلى بحر قزوين. ويرى بعض المؤرخين أن يكون وادي الدانوب الأعلى هو مهدهم الأصلي. وقد بدأت فيه فروع من هذه الأقوام تهاجر من مهدها الأصلي بحوالي بداية الألف الثاني ق.م. واتخذت في هجراتها اتجاهات مختلفة إلى أوروبا الجنوبية والغربية وإلى الشرق الأدنى والهند. وقد جاء بعضهم إلى العراق وأثروا في الحضارة البابلية والآشورية وفي الأقوام الأخرى في الشرق الأدنى فسببوا اضطراباً في توزيع السكان وأحدثوا هجرات أخرى ذهب بعضها إلى مصر. ولنا أن نتصور هؤلاء القبائل الهندية الأوروبية مقسمة إلى عشائر وقبائل ذات خيول وماشية وأغنام، وهم رعاة بالدرجة الأولى ولكنهم كانوا يعرفون الزراعة وكان لديهم العربات ذات العجلات. ولا شك في أنهم اقتبسوا البرونز من حضارات الشرق القديم، وأخذوا الحديد كذلك فيما بعد. هذا ولا نعلم بوجه التأكيد العوامل التي سببت هجرات هؤلاء الأقوام إلى الغرب والجنوب والشرق. ولعل من جملة الأسباب انجذابهم إلى خيرات الحضارات في الشرق القديم

وتكاثر السكان، ومواسم القحط الدورية التي كانت تحدث في مواطنهم الأصلية، وكذلك دفع هذه القبائل بعضها بعضاً. وقد استمرت هجراتهم قروناً كثيرة، وكانت بدرجات مختلفة من الشدة فقد تكون بهيئة جماعات قليلة تأتي إلى مواطن الحضارات، أو بهيئة غزوات متعاقبة أو هجرات كبيرة بمقياس واسع. وكان بعض الأقاليم التي اندفعوا إليها ليس بأكثر مدنية منهم مثل أوروبا الغربية وإيطاليا والقسم الشمالي من بلاد الإغريق. وبعضها كان متحضراً أو على شيء من الحضارة مثل الشرق الأدنى وفارس والجزر الإيجية وآسيا الصغرى والهند وقد عمدوا في كثير من الأحايين إلى تحطيم الحضارات التي غزوها وحلّت لغاتهم محل اللغات الأصلية[1].

وكان من جملة هذه القبائل قبائل اتجهت منذ الألف الثاني ق.م. إلى جزر بحر إيجة التي كانت فيها على ما بيّنا حضارة مزدهرة منذ الألف الثالث ق.م. وعاشت هذه القبائل في أطراف الحضارة الإيجية وأخذت تقتبس منها. وكانت هذه القبائل خليطة، ولعل بينها عناصر من النورديين. ومن المحتمل أن عناصر حوض البحر المتوسط التي كانت موجودة قبل مجيء الهيلنيين قد دخلت في تكوين القبائل الإغريقية التي عُرفت في تأريخ اليونان. أي إن الإغريق المعروفين في التأريخ لم يكونوا من عرق خالص ولكنهم صاروا وحدة في القرابة والاختلاط. وإن الأشعار الهومرية قد نشأت في شكلها المعروف الآن في حدود القرن التاسع ق.م. ولكن فيها مآثر من أزمان أقدم، ولذلك فبإمكاننا أن نستفيد منها لمعرفة أشياء مفيدة عن حياة القبائل (الآخية)، أقدم قبائل الإغريق، وعن دويلاتهم القديمة. ولعل غزو طروادة الوارد في تلك الأشعار حقيقة تأريخية حدثت في أثناء انتشار الإغريق إلى سواحل آسيا الصغرى، وتشير الأشعار الهومرية كذلك إلى حضارة اتصلوا بها وهي الحضارة الإيجية بالدرجة الأولى. وعندما جاءت أولى الهجرات الإغريقية (وهم الآخيون) إلى (البيلوبونيس) كانت هذه الحضارة في طور ازدهارها

(1) راجع ما ذكرناه عن هجرات الأقوام الهندية الأوروبية في كلامنا عن تأريخ إيران.

ولذلك لم يستطع هؤلاء الإغريق من الانقضاض عليها بل كانوا يتعلمون منها، ولكن جاءت هجرة أخرى من القبائل الإغريقية (وهم الدوريون) منذ 1500 ق.م.، فأخذت هذه تخضع القبائل الإغريقية السابقة أي القبائل الآخية ثم بدأت تغزو الحضارة الإيجية وتخضع مدنها. وفي حدود 1300 و1000 ق.م. بدأت قبائل أخرى تستحوذ على مواطن الحضارة الإيجية. ومن هؤلاء الإغريق الأيونيون ويمكننا أن نعد نهاية الحضارة الإيجية في حدود 1200 ـ 1100 ق.م. وقد اقتسمت القبائل الإغريقية اليونان والجزر الإيجية وكذلك سواحل آسيا الصغرى فيما بينها. فتمكن الدوريون في الجنوب والأيونيون في الوسط والأيليون في الشمال. وكان مصير الإيجيين إما القتل أو الخضوع أو الهجرة كما فعل بعض الإيجيين وهم المعروفون بالفلسطينيين الذين استقر بهم التشريد والجلاء إلى فلسطين (جنوبي فلسطين) بعد أن فشلوا في الذهاب إلى مصر حيث حاربهم رعمسيس الثالث فالتجؤوا إلى ساحل فلسطين الجنوبي كما ذكرنا سابقاً. لقد استوطن اليونان في موطنهم[1] الذي يمتاز بتنوع مناظره ومناخه ولعل أبرز ظاهرة تجلب الانتباه في صفة بلاد اليونان الجغرافية كثرة الجزر والخلجان كما أن الجبال تقسم بلاد اليونان إلى وحدات صغيرة كثيرة ومناخه شبه استوائي متنوّع من ناحية الأمطار والشمس، ولكن ليس فيه تطرف في الحرارة والبرودة. وبلاد اليونان بكثرة جزرها وخلجانها نصفها بري ونصفها بحري.

2 ـ موجز عهود التاريخ اليوناني:

بإمكاننا أن نقسم تأريخ اليونان إلى العهود الآتية:

(1) سمي اليونان أنفسهم هيلنيين نسبة إلى جد أسطوري اسمه (Hellen) كما سموا بلادهم هيلاس (Hellas). أما اسم يونان فنسبة إلى الأيونيين. وكانت هناك قبيلة يونانية تعيش في إقليم بوشيه من اليونان اسمها «غراي» سمي باسمها الرومان جميع الهلينيين حيث أطلقوا عليهم اسم إغريق (Graici).

1 ـ عهد الملوك (1100 ـ 750 ق.م).

2 ـ عهد النبلاء (750 ـ 625 ق.م).

3 ـ عهد الطغاة (625 ـ 525 ق.م).

4 ـ عهد الديمقراطية (525 ـ 400 ق.م).

1 ـ عهد الملوك:

هذا العهد أقدم العهود في تاريخ اليونان بعد أن هاجروا إلى موطنهم وقضوا على الحضارة الإيجية، ويبدو أن النظام الملكي كان من جملة الأشياء التي اقتبسها اليونان من الحضارة الإيجية فاتخذوا لهم ملوكاً من قوادهم في الحرب وزعمائهم الدينيين، وكانوا في مبدأ أمرهم ملوكاً ساذجين أشبه ما يكونون برؤساء القبائل الرعاة عندما اتخذت القبائل الإغريقية الزراعة واستقرّت في قرى. وكان هذا العهد القديم من تأريخ اليونان حافلاً بالتطور والتكيف وقد جابه اليونان فيه قضايا كثيرة نشأت بعد استيطانهم وتكوينهم المجتمعات الآخذة في التحضر، وقد نشأ معظم هذه المشاكل عن الزراعة والأراضي وكذلك عن العلاقات الاجتماعية المختلفة. دام هذا العهد زهاء ثلاثة قرون (1100 أو 1000 إلى 750 ق.م) وكان هذا هو العهد الذي نشأت فيه حضارة الإغريق. وقد تطورت القرى إلى مدن ونشأت عن المدن دويلات المدن التي كانت كل منها مملكة مستقلة لها قوانينها وجيشها وآلهتها على طراز نظام دويلات المدن في العراق القديم في العصور التي سميناها بعصور فجر السلالات. ولم يتعد الإغريق في أنظمة الحكم نظام «دولة المدينة» (City - State). وقد صار الملك محترماً وحاكماً قوياً تقع على عاتقه حماية المدينة وكان يساعده في الحكم وفض الخصومات مجلس شورى أو دار ندوة تجتمع للقضاء بين الناس. وقد بلغ عدد دويلات المدن المئات في بلاد الإغريق وفي السواحل وفي الجزر الإيجية. وقد اقتبس الإغريق في هذا العهد معدن الحديد إذ بدأ عندهم في حدود 10000 ق.م. وقد جاءهم بعد أن انتشر استعماله في

آسيا الصغرى من الحثيين منذ القرن الثالث عشر ق.م.، وتكون الحضارة الإيجية قد انتهت قبيل العصر الحديدي وأنها شغلت معظم العصر البرونزي (3000 ـ 1000 ق.م).

لقد ظل الإغريق زمناً بعد (1000 ق.م) وهم لم يبلغوا طور المدنية الناضجة ولكنهم مع ذلك كانوا يسيرون إلى طور النضج بالتراث الذي ورثوه عن الإيجيين وبتأثير حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة مصر وحضارة العراق وبتأثير الفينقيين الذين كانوا نقلة الحضارة، وقد اقتبسوا بعد 900 ق.م. حروف الهجاء عن الفينيقيين مع الورق (البابيروس) وقد أغرم اليونان في عهد الملوك بالحروب التي كانت تتصف بالبربرية والقسوة ونشأ عن التغني بأعمال الحرب وأبطال الحرب أشعار غنائية لتخليد أعمال الأبطال فكان شعر الملاحم مثل أشعار هوميروس التي هي أقدم آداب الإغريق. وقد خلّفوا لنا من ذلك «الإلياذة» و«الأوديسة»[1] المنسوبتين إلى هوميروس. وكانت أشعار هوميروس بمثابة الكتاب المقدس عند الإغريق إذ فيها أخبار الآلهة وحياتها وعلاقاتها بعضها ببعض وأعمالها، كما كان الحال في التوراة عند اليهود. وعلى هذا فإلى قيمة هذه الأشعار الأدبية والتأريخية فإن فيها معلومات قيمة عن ديانة الإغريق القديمة وعن مراحل تطورها.

ويقع ضمن عهد الملوك طور حضاري تميز بنوع أوانيه الفخارية المزيّنة بأطرزة هندسية يعرف باسم الطور الهندسي[2].

2 ـ عهد النبلاء:

يتميز أواخر العهد السابق، أي عهد الملوك، بنشوء طبقة خاصة من الملاكين. فقد تجمّعت الثروة، أي ملكية الأراضي، بيد طبقة خاصة نسميهم

---

(1) الإلياذة نسبة إلى «اليوم» وهو الاسم الذي دعا الإغريق به طروادة أما الأوديسة فنسبة إلى بطل الملحمة «أوديسوس» حيث تصف أسفاره ومغامراته بعد رجوعه من طروادة.

(2) (Geometric Pottery) (1100 ـ 800 ق.م) أي إنه استغرق معظم عهد الملوك.

النبلاء أو أمراء الإقطاع الذين استحوذوا على الأراضي واغتصبوا الملاكين الصغار والفلاحين. وأصبحت ملكية الأراضي وراثية خاصة بهذه الطبقة الأرستقراطية[1]، وبلغ النبلاء قدراً عظيماً من البأس والقوة فقضوا على الملوك من بعد 750 ق.م. وبدّلوا نظام الحكم من الملكية إلى نظام الحكم الأوليغاركي (حكم الأقلية) الذي يشبه نوعاً ما نظام الإقطاع في تأريخ أوروبا في العصور الوسطى. وكان ديدن النبلاء السرقة والقرصنة وقد أصبحت في عهدهم طبقة الفلاحين وعامة الناس في وضع يتميز بالبؤس والشقاء ولكن يمتاز هذا العهد الجديد بنشوء التجارة البحرية في حضارة الإغريق وبناء السفن، وقد بدؤوا في بناء سفنهم على غرار سفن الفينيقيين. واشتهر الأيونيون منهم بالتجارة البحرية. وأدى ظلم النبلاء إلى أمر مهم آخر هو هجرة الفلاحين وغيرهم من الطبقات المرهقة المظلومة فقد جلى كثير منهم إلى أقاليم ما وراء العالم الإيجي واليوناني، فنشأت من الإغريق مستعمرات مهمة حوالى البحر الأسود إلى أراضي الزرع في الدانوب الأسفل. وقد اصطدم الإغريق الذين انتشروا إلى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية بالآشوريين، وقد حاربهم فعلاً الملك الآشوري سنحاريب حيث دحر جيشاً منهم في كيليكيا في حدود 700 ق.م. وتكوّن من الإغريق مستعمرة في قبرص. وهاجر جماعة منهم إلى دلتا مصر وتغلغلوا هناك بصورة سلمية وأسسوا مدينة تجارية قرب الإسكندرية[2] وأسسوا إلى غرب الدلتا قيرين[3] (في طرابلس الآن). وكذلك انتشروا إلى إيطاليا في صقلية وفي جنوبي إيطاليا وقد دعي القسم الجنوبي من إيطاليا «بلاد الإغريق الكبرى».

---

(1) وتسمى هذه الطبقة بـ (Eupatrids).

(2) سميت بسيدة السفن أي (Naucratis).

(3) (Cyrene) وهي قيرين أو «قورينا» كما جاءت في «أخبار الحكماء» للقفطي حيث تنسب إلى هذه المدينة مدرسة «القورنيائيين» الفلسفية التي أسسها الفيلسوف اليوناني «أرسطبس». وينبغي عدم الخلط بين قيرين والقيروان التي قامت على موضع بيزنطي قديم هو «قمونية» أو «قمودة» (Caput-Vada). وإقليم قيرين (Cyrenaica) هو بنغازي.

ومما يقال في عهد النبلاء أن الثروة في داخل بلاد الإغريق كانت بالدرجة الأولى ثروة زراعية، ولكن انتشار الإغريق وازدياد التجارة عندهم ونشوء بعض الصناعات قد غيّر الأحوال الاقتصادية فنتج ذلك تغييراً في نظام المجتمع وفي نظام الحكم، وسنلخص ذلك في الكلام على عهد الإغريق الثالث، أي عهد الطغاة.

3 ـ عهد الطغاة (625 ـ 525 ق.م):

لقد ذكرنا فيما سبق أن الاتساع الاستعماري للإغريق وكذلك اتساع التجارة ونشوء الصناعات كل ذلك أحدث تغييرات بعيدة المدى في حياة اليونان فقد صارت المستعمرات الإغريقية الجديدة أسواقاً مهمةً للتجارة اليونانية من بلاد اليونان نفسها. وإن حاجات هذه المستعمرات والطلب المتزايد على البضائع من بلاد الإغريق كان حافزاً لمدن الإغريق ولا سيما المدن الأيونية لتوسيع صناعاتها وتجارتها، وأخذت المدن الإغريقية تزدهر وهذا ما حدث لأثينا وكورنث وغيرهما. وقد حفز مدن اليونان حافز آخر هو منافسة الشرق ولا سيما الفينيقيين. وكانت الصناعة الإغريقية في القرن السابع دون الصناعات الشرقية ولكن أخذت صناعات المدن الإغريقية تزاحم الشرق منذ 600 ق.م. وتتفوق عليها في صناعة الحديد والفخار وتصدير زيت الزيتون. ومما سهّل التجارة والصناعة في مدن الإغريق أن الإغريق بدؤوا يستعملون النقود المسكوكة منذ القرن السابع ق.م.، وقد اقتبس الأيونيون في سواحل آسيا الصغرى طريقة التعامل بالنقود من آسيا الصغرى حيث يظن أن الليدين هم الذين أوجدوا النقود المسكوكة في حدود 700 ق.م.[1]. هذا ولا ينكر ما للنقود من أهمية عظمى في المعاملات التجارية.

وموجز القول كان القرن الذي دامه عهد الطغاة حافلاً بالانقلابات الصناعية والازدهار الاقتصادي بحيث يصحّ أن نعده انقلاباً صناعياً مهماً مهّد

---

(1) لاحظ ما ذكرناه عن نشوء النقود في الأقسام السابقة من هذا الجزء.

لازدهار حضارة الإغريق في القرن الخامس وهو القرن الذي كان حافلاً بالاختراع والإبداع في تأريخ البشر، كما سيمرّ بنا ذلك عند الكلام عن حضارة الإغريق.

وكان من نتائج اتساع التجارة والصناعة القضاء على النظام السابق في عهد النبلاء. إذ كانت سلطة هؤلاء ناشئة عن الثروة الزراعية والحيوانية، ولكن ضوئل شأن هذا النوع من الاقتصاد على أثر اتساع التجارة والصناعة وهكذا حل محل عهد النبلاء المؤسس على الزراعة عهد جديد هو العهد الذي سميناه بعهد الطغاة، وهم من المثرين بالثروة الجديدة[1] كما حدث في أوروبا بعد عهد الإقطاع. وقد تبدل نظام الحكم في هذا العهد حيث كان الحكّام فيه من الغاصبين وبمثابة الملوك وقد دعا الإغريق أنفسهم مثل هؤلاء الحكام باسم الطغاة أو المستبدين ويعني ذلك الحاكم الأعلى. وقد بدأ مثل هؤلاء الحكام يظهرون منذ 650 أو 625 ق.م. في المدن الأيونية في آسيا الصغرى وفي الجزر القريبة، واشتهر منهم في أثينا أعلام مشهورون مثل «دريكو» و«صولون». وانتهى عهد الطغاة في أثينا باغتيال الطاغية (هبارخوس) وطرد طاغية آخر، فحل بذلك حكم الشعب أي الديموقراطية وهي كلمة جاءتنا من الإغريق وكان هذا هو نظام الحكم في العهد التالي لعهد الطغاة.

قوانين الإغريق المدوّنة:

ومما يمتاز به عهد الطغاة نشوء أقدم القوانين المدوّنة عند الإغريق. وإذ رأينا أن القوانين المدوّنة قد بدأت في حضارة العراق منذ أزمان قديمة جداً فإن الشرائع كانت عند الإغريق تعتمد على العرف المتداول إلى حدود 624 ق.م. حيث بدأت الشرائع المدوّنة تظهر منذ هذا التأريخ. وكان أول قانون

---

(1) وهم طبقة البلوطوقراطية (Plutocry) أي حكم أصحاب الثروة الذي حلّ محل الحكم الأوليغاركي.

مدون هو القانون الذي أصدره «دريكو» وقد اشتهر هذا القانون بالصرامة والشدة حتى أن صفة «دريكوني»[1] قد صارت تُستعمل في بعض اللغات الأوروبية لتعني «الصارم، الشديد» وكان سبب تدوين هذا القانون رغبة الاثنيين وكفاحهم المستمر لتكون لهم شريعة مدوّنة، حتى لا يُساء استعمال التقاليد القانونية غير المدوّنة. ومن أعلام هذا العهد «صولون» المشهور الذي كان من التجار المثرين وينتسب إلى إحدى الأسر الملكية القديمة. وقد اكتسب هذا شهرة وزعامة عند الأثينيين على أثر حرب نشأت بين أثينا وبين إحدى الدويلات المجاورة فأثار صولون حماس قومه وتزعمهم فانتصروا على الدولة المعادية وجازوا زعيمهم بأن انتخبوه في 594 ق.م. «أرخونا» (أي القاضي أو الحاكم الأعلى)، وخوّل السلطة المطلقة للإصلاح العام وبوجه خاص رفع الظلم والحيف عن الفلاحين والزرّاع وقد أصدر صولون، في سبيل الإصلاح، قانوناً اشتهر باسمه، وقد امتازت شريعته بضمان إحقاق الحقوق وبأصول التقاضي مثل نظام المحلفين، وقد ساوت الشريعة بين جميع المواطنين الأحرار. وإلى هذا أصدر صولون دستوراً للدولة أعطي فيه لجميع المواطنين حقاً في الحكومة وإدارة شؤونها. وقد قسم الشعب بحسب هذا الدستور إلى أربع طبقات بحسب دخلهم من الثروة فاقتصرت الوظائف العليا للحكومة على طبقة النبلاء، وسمح للفلاحين في إدارة الوظائف الصغيرة، وهكذا بقيت الحكومة بيد النبلاء، ولكن أعطي الحق لجميع الشعب في التصويت في انتخاب «مجلس الشعب». واشتهر صولون بالاعتدال والزهد في الحكم حتى أنه لما اتهم بميله إلى أن يكون طاغية تخلى عن الحكم مختاراً وترك أثينا عدّة سنين وخلى المجال لغيره في الحكم. ومما يقال عن صولون وعهده بوجه عام أن إصلاحاته المهمة قد أنقذت أثينا من ويلات ومحن وتسنى لها أن تسير قدماً في نهضتها الصناعية والتجارية.

لقد أعقب صولون في الحكم فرد من طبقة النبلاء القديمة هو

---

(1) (Draconci).

(فيسترانوس)[1] الذي تقلّد الحكم بالقوة عندما عاد من المنفى وهو على رأس جيش من المرتزقة وقد اشتهر حكمه بالرزانة والتعقّل وبنى أسطولاً من السفن استولى به على الدردنيل فساعد ذلك أثينا كثيراً في تجارتها مع بلدان البحر الأسود وقام بإصلاحات عامة كثيرة وازدهرت في زمنه الصناعة والتجارة في أثينا، ويصحّ أن نعدّه واضع أسس عظمة أثينا التي حققتها فيما بعد. وخلّف هذا في الحكم ابناه[2] اللذان كان حكمهما نهاية عهد الطغاة في تأريخ الإغريق. وقد ثار عليهما الشعب ومقتهما واغتال أحدهما وهو (هيبارخوس) طالبان في أثينا وفرّ الثاني بعد اغتيال أخيه. وقد خلّد النحاتون الإغريق هذين الطالبين الشابين بتمثالين يمثلانهما في حالة الانقضاض على الطاغية. ومن الطريف في أمر هذا النحت أن الفرس أخذوه بعد موقعة سلاميس فصنع الأثنيون نسخة له ولكن الإسكندر الكبير أرجع النحت الأصلي إلى بلاد اليونان. وقد انتهى عهد الطغاة قبل 500 ق.م. (في حدود 525) بعد أن دام قرناً واحداً. ومما يذكر عن نظام الطغاة أن أحد الاثينيين وهو كليسثينيز أراد أن يضمن عدم رجوع النظام القديم فأوجد طريقة الاقتراع السنوي، ذلك بأن يصوّت عامة الشعب في كل عام فيعلنوا رأيهم حول أي مواطن يخشى خطره على الدولة وبعد التصويت ينفونه مدة عشر سنوات. وكانت طريقتهم في الاقتراع على شيء من الطرافة إذ كان كل مصوت يلتقط كسرة من آنية فخار ويكتب فيها اسم الشخص الذي يعتقد بأنه خطر على حياة الشعب وتودع تلك الكسرة في وعاء من الفخار (صندوق الانتخاب). ولما كانوا يسمون الكسرة من الفخار (أوستراخون (Ostracon)) فإنهم اشتقوا منها فعلاً (مثل الإنكليزية (Ostracise) ليعني نفي ذلك الشخص وإنهاء عمله السياسي. وهذا بداية العهد الديمقراطي في أثينا.

وكانت مدينة إسبارطة في حوالي تلك الأزمان قد ازدادت في القوة

---

(1) (Pisistratus) (540 ـ 528 ق.م).

(2) وهما (Hipparchus) و(Hippias).

والبأس واتسعت فتوحها حتى أنها أخذت جزءاً كبيراً من شبه جزيرة (البيلوبونيس) وقد حققت في حدود 500 ق.م. اتحاداً بالقوة يضم الدويلات المجاورة عرف باسم «العصبة الإسبارطية». ولما كانت إسبارطة زعيمة هذه العصبة فقد صارت العصبة أو الجامعة الإسبارطية (The Sparten League) أقوى دولة في عالم الإغريق. وامتازت مدينة إسبارطة بنظام الحرب والشدة، وكانت خالية من الصناعات فلم يكن فيها ازدهار صناعي وتجاري. كما أنها لم تخضع إلى نظام الطغاة في حكمها وإنما ظلت على نظام حكم الملوك. ولتوزيع سلطات الملك كانت تعين ملكين يحكمان في آن واحد وكانت تمقت نظام الحكم الديمقراطي فلذلك كانت تنظر بعين الحسد والاشمئزاز إلى الديمقراطية الأثينية. وكان حكم «الملكين» تسيطر عليه جمعية من الشيوخ. ولعل أحسن ما توصف به إسبارطة في نظام حكمها أنها كانت عبارة عن قبيلة محاربة مخيمة ضمن رعايا أخضعتهم واستعبدتهم.

4 ـ عهد الديمقراطية:

نستطيع أن نعد بداية هذا العهد من اغتيال آخر طاغية في أثينا في حدود 525 ق.م. ويمتاز هذا العهد بأحداث مهمة في تأريخ الإغريق جميعهم وفي تطور حضارتهم، وبوسعنا أن نعد الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي أنجزه الإغريق في عهد الطغاة سبباً لازماً ومقدمة تمهيدية لازدهار حضارة الإغريق في عهد الديمقراطية أما هذه الأحداث فأبرزها وأهمها ما يأتي:

(1) انتقال دولة أثينا وهي أهم دولة في الإغريق إلى نظام الحكم الديمقراطي.

(2) الحروب اليونانية الفارسية.

(3) الأمبراطورية الأثينية.

(4) الحرب بين أثينا وإسبارطة.

(5) ازدهار حضارة الإغريق (القرن الخامس ق.م).

فلنوجز كلاً من هذه الأحداث المهمة. وسنفرد لحضارة الإغريق بحثاً خاصاً.

1 ـ الحكم الديمقراطي:

مرّ نظام الحكم الديمقراطي بمراحل متعاقبة يميز كل مرحلة منها علم من أعلام التأريخ اليوناني في هذا العهد مثل «كليسثينيس» (Clisthenes) و«ثيمستوكلس» (Themistocles) أحد أبطال مراثون و«سيمون» (Cimon) و«بريقلس» (Pericles). وبلغت الديمقراطية في عهد «بريقلس» (460 ـ 430 ق.م) أنضج مرحلة في تأريخ الإنسان، على الرغم من نهايتها بعد عهده. ومن المهم أن نذكر هنا أن التجربة التي قامت بها أثينا في هذا النظام من الحكم قد كانت نتيجة تغييرات اقتصادية واجتماعية كبيرة أفضت إلى حصر السلطة بأيدي جماعة من المثرين من الطبقة الوسطى يتبعها العمال والأجراء وطبقة العبيد. وكان النزاع بين الأحزاب المختلفة في أثينا، كما في جميع بلاد الإغريق، قائماً مستمراً. ويمكننا تمييز حزبين واضحين من هذه الأحزاب فجماعة كانت تريد حكماً أرستقراطياً أو أوليغاركياً بيد أقلية تنحصر فيها الامتيازات والجماعة الأخرى كانت تهدف إلى الحكم الديمقراطي أي حكم الشعب كما أن بعض الطغاة القديرين استطاعوا أن يحتفظوا بحكمهم كما كان الحال في «سرقوسة». أما أثينا فكانت بطلة الديمقراطية في جميع الإغريق. في حين أن إسبارطة كانت تمثل الحكم الأوليغاركي.

وتشترك جميع الدول اليونانية بوجه عام بانقسام السكان في كل منها إلى طبقات، أما بالنسبة إلى المال أو الحسب أو المركز الاجتماعي، أو المهنة. وكانت الجنسية الأتيكية في دولة أثينا تمنح إلى كثير من الرعايا بسخاء. ولكن مما يلاحظ أن الأجانب القاطنين فيها والمقيمين كان بيدهم كثير من الصناعة والتجارة وأعمال البنوك. أما في إسبارطة فإن حق المواطنة الكاملة لم يكن إلّا

في بضعة آلاف من العائلات، ومع أن الجماعات الأخرى كان قسم كبير منها حراً ولكنه كان قليل الامتيازات والحقوق، وكان عامة الشعب في الواقع عبيداً للأرض وكان نظام الرق جزءاً من حياة الإغريق الاقتصادية ومن الأسس التي قامت عليها حضارة اليونان، وكان يعدّ نظاماً مرغوباً فيه، أما القسم الأعظم من العبيد فكان من غير الإغريق. ومما يقال في حال العبيد إنهم لم يكونوا بوجه الإجمال في أسوأ وضع باستثناء الذين كانوا يشتغلون في المناجم وكان من الممكن لبعضهم أن ينال الحرية بعد جهد وعمل شاقين. ومما تمتاز به الديمقراطية الأثينية الحصة الكبيرة التي كانت تصيب الفرد المتوسط من العمال والمزارعين في الحياة السياسية والثقافية. وبخلاف ما كانت عليه أثينا من الديمقراطية والازدهار والتطور ظلت إسبارطة محافظة راكدة على أوضاعها القديمة البدائية.

ولكي ندرك الفروق بين أثينا وباقي دويلات الإغريق ولا سيما إسبارطة نوجز هنا تطور بلاد الإغريق والحوادث التي وقعت فيها في خلال أربعة القرون المحصورة بين 725 و325 ق.م.، أي منذ عهد النبلاء، وقد أثرت هذه الحوادث في سير التأريخ اليوناني.

فبعد بداية عهد النبلاء بزمن قليل جابهت بلاد الإغريق جميعها مشاكل أساسية أهمها حاجة السكان المتكاثرين إلى وسائل العيش والقوت وكانت الشعوب اليونانية تؤمن تلك الوسائل باقتصارها على المنتوجات الزراعية بالدرجة الأولى وهي المحاصيل التي تنتج في بلاد الإغريق وتستهلك في داخلها ولكن الأزمة اشتدت ولم تكف تلك المحصولات لسد حاجات السكان. فسلكت دويلات المدن المختلفة سبلاً مختلفة في حل تلك المشكلة. فعمد بعضها مثل «كورنث» و«كالسيس» (خالسيس) إلى الاستيلاء على أراضٍ زراعية واستعمارها فيما وراء البحار خارج بلاد الإغريق مثل صقلية وجنوبي إيطاليا وتراقيا وغيرها. ولكن دويلات أخرى اتبعت سبلاً أخرى لحل المشكلة غيرت من أسلوب حياتها. فقد أشبعت دولة إسبارطة مثلاً حاجة سكانها إلى

الأرض باستيلائها على جيرانها من الإغريق واستعبادهم، وقد دفعت عن ذلك ثمناً باهظاً هو الحروب المستمرة مع جيرانها الذين من شاكلتها، ولكي يأمن زعماء إسبارطة دوام هذا الحل جعلوا من الحياة الإسبارطية حياة عسكرية كلها من الرأس إلى القدم، وقد حققوا ذلك بإحيائهم أنظمة اجتماعية بدائية كانت معروفة عند جماعات من الإغريق في الأزمان القديمة وكانت على وشك الزوال حتى في إسبارطة نفسها.

ولكن أثينا أقبلت على حلّ مشكلة السكان بوجه يختلف عن ذلك تماماً فقد أقدمت على الصناعات والتصدير بالتجارة الخارجية ثم غيّرت أنظمتها السياسية ونشأتها بحيث أشركت في السلطة السياسية الطبقات الجديدة التي استتبع تكوينها نشوء تلك الأساليب الاقتصادية الجديدة. ثم إنها بدأت بزراعة أراضيها ولا سيما جبال أراضيها الجرداء بأشجار الزيتون التي أصبحت مورداً تجارياً مهماً، وقد رأينا استغلالها للنقود في ترقية تجارتها الخارجية، كما أنها صنعت السفن ونشأت صناعات جديدة طريفة من بينها أواني الفخار الجميلة لتصدير زيت الزيتون، وعمدت إلى فتح مناجم الفضة. ويمكننا أن نوجز ما قامت به أثينا أنها تفادت الثورة الاجتماعية بأن حققت تحقيقاً ناجحاً انقلاباً اقتصادياً وسياسياً بدلاً منها، وقد رأينا فيما سبق نشوء النظام الديمقراطي فيها. وبذلك فإن أثينا قد فتحت سبيلاً جديداً لسير المجتمعات اليونانية ولعل هذا هو ما عناه «بريقليس» عندما قال عن أثينا بأنها «معلمة بلاد هيلاس» (أي بلاد الإغريق). وبهذا السبيل اختلف تأريخ إسبارطة عن أثينا، ولم يكن هذا الاختلاف ناشئاً عن سجايا أو جبلات خاصة تميز الإسبارطيين عن الأثينيين.

وقد سبق أن ألمحنا بأن هذا الازدهار الاقتصادي الذي حققته أثينا قد مهّد السبيل لازدهار آخر حققته تلك الدولة في القرن الخامس، إذ ازدهرت على يدها حضارة الإغريق وأنتجت للتراث البشري الفلسفة اليونانية وفن الرواية والعلوم مما سنأخذ عنه بعض الشيء في البحث الخاص بحضارة اليونان.

2 ـ الحروب الفارسية اليونانية:

لقد ذكرنا في أخبار الدولة الفارسية الإخمينية أن كورش قبل أن يغزو العراق ويأخذ بابل قد غزا آسيا الصغرى وقضى على مملكة الليديين بتغلبه على ملك ليديا «قارون» (Croesus) واستيلائه على العاصمة «ساردیس» (546 ق.م) ثم ضم المدن الأيونية في آسيا الصغرى إلى الأمبراطورية الفارسية وتقدم الفرس إلى جزر إيجة بجوار الدول اليونانية، وبذلك اصطدم العالم الإغريقي بامتداد النفوذ الفارسي، وكانت بوادر النزاع ثورة المدن الأيونية على الاستعمار الفارسي، وقد ساعد بعض الدويلات اليونانية وبخاصة أثينا الأيونيين بإرسالها قطعات من السفن. فأغاظ هذا العمل الدولة الفارسية وصمم الملك دارا الأول (521 ـ 485 ق.م) على تأديب الإغريق فأرسل حملة كان نصيبها الفشل (492 ق.م) بغرق الأسطول المرافق للحملة. ثم أعقب ذلك من بعد عامين إرسال حملة أخرى من الأساطيل فحدثت بين الطرفين المعركة الشهيرة مراثون (490 ق.م) وكانت الحملة موجهة إلى أثينا التي استطاعت جيوشها وحدها أن تهزم جموع الفرس مع تفوّقهم بالعدد والعُدّة. وقد أبدى القائد الأثيني «ملتيادس» (Miltiades) مهارة وبراعة عظيمتين في كسبه هذه المعركة العظمى التي شجعت الإغريق وأنقذتهم من عبودية الفرس.

لقد اشتهر في معركة مراثون[1] سياسي محنك اشتهر ببعد النظر وأصالة الرأي هو «ثميستوكلس» (Themistocles) الذي كان (أرخوناً)، أي أعلى حاكم في دولة أثينا فقد ارتأى بناء أسطول بحري فنجح في إقناع الأثينيين ببناء الأسطول بعد معركة مراثون، وقد مات الملك دارا بدون أن يثأر من أثينا وخلفه في الحكم (احشويرش) (485 ـ 465 ق.م) الذي أخذ على عاتقه هذه المهمة، وأخذ يدبر الخطط للانقضاض على جميع الإغريق، ولكي يضمن

---

(1) سهل مراثون في ولاية أتيكا التي تقع فيها أثينا.

ذلك سيطر على بعض مدن الفينيقيين واستمال المدن الأخرى إلى جانبه. وأصبح الأسطول الفارسي أسطولاً ضخماً. وبعد عشر سنين من معركة (مراثون) هجم الملك الفارسي على اليونان بالأسطول وبالقوات البرية. فوصل الجيش البري إلى مجاز «ثرموبيلي» المطل على خليج سلاميس ووصل بالقرب منه أسطول كبير قوامه 500 سفينة. وكان ملك إسبارطة «ليونيداس» (Leonidas) ومعه زهاء الـ (5000) رجل يحمي ممر «ثرموبيلي» (Thermopyae) وتهيأ الأسطول الإغريقي (وكان يحتوي على نحو 300 سفينة) لضرب الأسطول الفارسي. ومما يذكر في هذه الحرب البطولة التي أبداها ملك إسبارطة في الدفاع عن المجاز فقد استطاع أن يمنع جموع الفرس الكثيرة يوماً كاملاً ولكن الفرس استطاعوا أن يقضوا على جيشه بحركات التفافية فمات الإسبارطيون جميعهم ومعهم ملكهم وقائدهم. واشتبك من بعد ذلك الأسطول الأثيني مع أسطول الفرس بمعركة بحرية عظمى هي معركة «سلاميس» (480 ق.م) انتصر فيها الإغريق بعد معركة دامت تطوال اليوم إلى الليل وتحطم فيها أسطول الفرس بأجمعه تقريباً وكانت النتيجة أن أثينا أصبحت سيدة البحر. وتحقق بعد النظر الذي أظهره ذلك السياسي العظيم «ثيمستوكلس» حيث أنقذ أثينا ومعها بلاد اليونان وحضارة اليونان من الزوال. وقد أسرع احشويرش إلى آسيا مخافة أن يقطع عليه أسطول الإغريق خط الرجعة. والواقع أن الداهية «ثيمستوكلس» قد حاول ما كان يخشاه الملك الفارسي ولكن إسبارطة لم توافق على ذلك.

وقد اشتبكت قرطاجة في حدود هذا الزمان بحرب مع صقلية بعد أن عبر أسطولها من أفريقيا. أما النتيجة فكانت اندحار قرطاجة. ولكن مع هذه الانتصارات لم يتخلص العالم الإغريقي من خطر الفرس إذ إن الملك الفارسي ترك جيشاً كبيراً مع أحد قواده لتمضية فصل الشتاء في «تساليا» (Thessaly). ولذلك فمهما بدت لنا نتائج السياسة التي اتبعها «ثيمستوكلس» واضحة بالنسبة لفائدة الإغريق فإن الأثينيين لم ينظروا إليها كذلك. فكان جزاؤه أن نُحِّيَ من الحكم. وعندما قارب الشتاء على الانتهاء توجه الجيش الفارسي الرابط في «تساليا» إلى «أتيكة». فحل الرعب من جديد في اليونان، وبعد لأي اشتركت

إسبارطة بجيشها في هذه الحرب الجديدة، وصارت القيادة العامة بيد ملكها الذي قاد زهاء الـ 30 ألف رجل من الجند المسلحين تسليحاً ثقيلاً. وتقابل الجيشان في «بلاتيا» (Plataea) (479 ق.م) وبدأت المعركة بخسائر من جانب اليونان بسبب السهام الفارسية المميتة ولكن رماح الصفوف الإغريقية كسب لليونان الموقف وأحلت الهزيمة في جموع الفرس ولم يحاول الفرس من بعد ذلك غزو الإغريق وهكذا برهن المواطنون الإغريق الأحرار كيف أن شعباً صغيراً حراً استطاع أن ينتصر على أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم.

3 ـ أمبراطورية أثينا ومنشأ النزاع بينها وبين إسبارطة:

أ ـ نتجت الانتصارات التي أحرزها الإغريق في حربهم مع الفرس نتائج خطيرة في حياتهم وفي علاقات الدول الإغريقية بعضها ببعض. وقد ألمحنا فيما سبق إلى الاختلافات الأساسية بين إسبارطة وأثينا وليس في نظام الحكم فحسب، بل في جميع نواحي الحياة بحيث يصحّ أن نعد الدولتين تمثلان حضارتين مختلفتين وقد عملت نتائج الحرب مع الفرس على اتساع هذه الاختلافات بين الدولتين. فمن جهة شعرت أثينا بعظم الأعمال التي أنجزتها في حربها مع أعظم أمبراطورية وأخطر عدو هدّد حياة اليونان ووجود اليونان. وقد أحرزت أثينا أولى الانتصارات العظيمة (مراثون) وحدها بدون أن تساعدها إسبارطة. فشعر الأثينيون بشعور جديد هو الاطمئنان إلى قابليتهم وعظمة مدينتهم وخرجوا من الحرب وهم على أشد ما يكونون من الطموح واتجهوا في أفكارهم إلى عالم جديد واتجاه جديد في الحياة. ومهما خالط هذا الطموح من الغرور والزهو والاعتداد بالنفس فإنهم لا شك أدركوا أسرار انتصارهم وأحسوا بقيمة الحرية السياسية وبقيمة نظام الحكم الديمقراطي عندهم. فصارت أثينا ممثلة للديمقراطية والتقدم وسيادة الشعب وبطلة حرية الفكر وحريات الإنسان بوجه عام. وبعكس هذه الصورة كانت إسبارطة وهي الدولة الثانية العظيمة من بين الدويلات اليونانية. فقد خرجت إسبارطة من الحرب وهي صغيرة وظلت محافظة اقتصرت أنظمتها وحضارتها على نظام

الجندية القاسي. فكان المواطنون فيها كلهم جنوداً يأكلون في مطاعم عامة تهيئُها لهم الدولة. ولم يكن المواطن الإسبارطي يعرف شيئاً أو يشغله شيء سوى الحرب والتهيؤ للحرب. وكان العبيد يزرعون له أرضه. فكانت دولة إسبارطة بوجه الاختصار عبارة عن جيش فقط. وإلى ذلك كله كان عدد الجنود أي المواطنين الذين لهم حق الجنسية الإسبارطية محدوداً لا يتجاوز بضعة آلاف من المحاربين يحكمون بالقوة والقسوة عدداً كبيراً من السكان في داخل مملكتهم ومن الأقوام المجاورة لها التي استعمروها. وكان الشغل الشاغل لهذه الطبقة الحاكمة الحرب فلم تعن بالتجارة أو الصناعة أو أي شيء من مظاهر الحياة الأخرى حتى أن مدينة إسبارطة لم تكن سوى مجموعة قرى لا تستحق أن يُطلق عليها اسم مدينة، بل كانت أقرب ما تكون إلى معسكر. ولم تتعد كذلك في نظام حكمها النظام الملكي، وكان الملكان اللذان يشتركان في الحكم قائدين عسكريين دون أي شيء آخر. وكان عالم هؤلاء الجنود المواطنين وأفق تفكيرهم محدوداً ضيقاً. وإذا طمح هؤلاء بأن يكونوا زعماء الإغريق العسكريين فإنهم كانوا يتهيبون من هذه الزعامة وما كان يتطلبه العصر الجديد من اتساع النظر إلى إمكانيات مستقبل جديد عظيم. وكانت هذه الأمور من جملة الأسباب التي جعلت عالم الإغريق منقسماً على نفسه ولم يتّحد في دولة واحدة بل كانت الأمور تسير إلى عكس ذلك إذ أدّى التنافس والنزاع بين أعظم دولتين من دول اليونان، أي أثينا وإسبارطة إلى خصام وحروب دامت زهاء قرن واحد.

نشوء أمبراطورية أثينا وانتصار الديمقراطية:

إن انتصار أثينا في مراثون وسلاميس على الفرس ولّد الرغبة في الأثينيين في جلب جميع الإغريق تحت سلطان أثينا وقد رأينا كيف أنها حاربت في الموقعة الأولى وحدها، وفي الموقعة الثانية كانت بيد الأثينيين قيادة الأسطول الذي قضى على غزو الفرس. وقد أدركت أثينا بتحريض «ثيمستوكلس» وإرشاده أن خير سبيل لإنعاشها واتساعها إنما يكون في إنشاء أسطول بحري

جعل أثينا سيدة البحار. واستغلت أثينا خوف الإغريق من عودة الفرس للغزو فاستطاعت أن تقنع المدن الإغريقية في آسيا الصغرى ودويلات أخرى في جزر إيجة فانضمت تحت زعامتها في عصبة عُرفت بالعصبة أو الجامعة «الديلية» (نسبة إلى جزيرة صغيرة اسمها ديلوس (Delos) حيث وضعت العصبة ماليتها المشتركة في معبد لابولو هناك). وقد ساهمت المدن الغنية بإمداد العصبة بالسفن وكانت المدن الأخرى تؤدي مالاً معيناً كل عام. ولكن تحوّلت هذه العصبة أو الاتحاد بالتدريج إلى أمبراطورية مؤلفة من دويلات تحت زعامة أثينا أو حكمها. فأغاظ ذلك المدينة المنافسة إسبارطة. ونشأ من ذلك أن انقسم الرأي في أثينا إلى حزبين بالنسبة إلى ما يجب أن تتخذه أثينا من سياسة تجاه إسبارطة. وكان أحد الحزبين بقيادة «سيمون» أحد القواد البحريين المشهورين وابن القائد المشهور «ملتيادس» بطل مراثون. وكان هذا الحزب يرى اتخاذ سياسة الصداقة مع إسبارطة، وكان يتألف على الأغلب من الطبقة المثرية والنبلاء والأشراف والمحافظين، ولكن الحزب الآخر، وقد تزعمه «ثيمستوكلس»، كان يرى سياسة الشدة تجاه إسبارطة. وقد كان هذا الحزب يضم معظم الأثينيين الأحرار الديمقراطيين المتجددين. وحدثت من بعد ذلك أحداث هامة في سياسة أثينا الخارجية والداخلية. فأولاً دُحر الزعيم «ثيمستوكلس» في المجلس العام وصوّت المجتمعون بعدم الثقة به وأعقب ذلك أنهم اتهموه بالخيانة العظمى ففرّ هارباً والتجأ إلى الملك الفارسي وهكذا كانت نهاية هذا الزعيم الفذ الذي جعل أثينا سيدة البحار. أما سيمون فقد صفا له جو الزعامة أمداً قصيراً وقد اشتبك بحرب بحرية مع الفرس انتصر فيها (468 ق.م)، وطلبت في زمنه إسبارطة من أثينا مساعدة بالجيش للقضاء على ثورة قام بها بعض رعاياها فتقدم سيمون بالنجدة ولكن الإسبارطيين ألحوا بخشونة أن يرجع الجيش الأثيني حتى قبل أن يقضي على الثورة فظهر للأثينيين خطل سياسة سيمون التي ترمي إلى صداقة إسبارطة فصوتوا على تنحيته عن الحكم (461 ق.م). وكانت إقالة سيمون انتصاراً للشعب على الأشراف والنبلاء. وأتبع الشعب انتصاره بأن ضيق على مجلس الشيوخ (المكوّن معظمه

من النبلاء) وحدد سلطته إلى أضيق الحدود وأصدر قانوناً في سلب مجلس الشيوخ جميع سلطاته السياسية وقصر سلطاته على بعض الشؤون والقضايا كالنظر في قضايا القتل ونشأ في غضون ذلك مجلس عام للشورى من الشعب قوامه 500 عضو أخذ لنفسه إدارة معظم شؤون الدولة. وكانت الطريقة في ممارسة حقوقه في تقسيمه إلى عشر لجان قوام كل منها (50) عضواً كانت تحكم كل لجنة مدة تربو على الشهر بقليل من كل عام.

ومن مظاهر انتصار حكم الشعب الديمقراطي اتساع مجالس المحلفين للنظر في الخصومات والقضاء، وصار عدد المواطنين المشتركين بنظام التحليف ستة آلاف فرد كانوا يقسمون إلى مجالس صغرى من المحلفين. وكان كل مجلس من هذه المجالس في الواقع مجلساً من القضاة لوقت محدود لتقرير الأحكام الخاصة بالقضايا التي تعرض عليهم. وإذ كان المشتركون في هذه المجالس من الطبقات العامة ومن الفلاحين وغيرهم ممّن يعيش على الكسب والعمل فقد كان يدفع لكل عضو من هذه المجالس رواتب لإعالتهم. وقد اكتسبت هذه المجالس من الحول والقوة بحيث أصبحت من أهم مصادر التشريع في اليونان، بل كانت مع مجلس الشورى مصدر التشريع وإصدار القوانين. وهذا في الواقع هو حكم الشعب بنفسه كما يفهم من كلمة الديمقراطية في اللغة اليونانية. ومن مظاهر الديمقراطية اليونانية في هذا العهد اتساع حق الترشيح إلى منصب الحاكم الأعلى (أرخون) بحيث شمل جميع المواطنين باستثناء العمّال الذين لم تكن لهم أية ملكية. كما أن حق الانتخاب والتصويت قد اتسع فشمل جميع طبقات المواطنين. وكذلك اتسع حق الانتخاب إلى الوظائف فشمل جميع درجات الشعب باستثناء وظيفة القائد الحربي الذي بقي حق الانتخاب إليه في جماعة من القواد والمتنفذين. وكان عدد هؤلاء القواد عشرة كانوا ذوي نفوذ في شؤون إدارة الدولة وفي الشؤون الخارجية كما أن قائد العشرة كان ذا نفوذ عظيم في الدولة ولا سيما إذا استطاع بخدماته أن يقنع مجلس أثينا العام بخططه وقيادته. واشتهر «بريقلس» الذي جاء إلى الحكم بعد سقوط سيمون بسياسته في توسيع نفوذ أثينا وبناء

أمبراطورية لها. وقد تزعم الطبقات التي تميل إلى التجدد والتقدم واستطاع أن يحوز على ثقة الشعب فكان انتخابه قائداً يتجدد كل عام وصار حاكم أثينا الفعلي، ودام سلطانه من 460 ق.م. حتى موته من بعد ثلاثين عاماً. وتعاظمت تجارة أثينا وصناعتها من بعد الحروب الفارسية ودرّت عليها الخيرات والثروة فزاد السكان وإلى هذا كان لدولة أثينا موارد مهمة لشؤون الحكومة وأهمها مناجم الفضة في أتيكة وكذلك الضرائب وموارد المكوس. أما إسبارطة فلا يمكن قياس وارداتها بالنسبة إلى ثروة أثينا وكان هذا من الأسباب التي زادت في الخصومة بين الدولتين.

4 ـ الحروب بين أثينا وإسبارطة:

وعلى الرغم من ازدهار أثينا في الداخل تحت قيادة «بريقلس» فقد سارت سياستها الخارجية إلى التردي ولا سيما في علاقاتها مع الدويلات اليونانية وقد أخذت تستعمل الشدة والقوة في إكراه بعض الجزر الداخلة في أمبراطوريتها في الاستمرار على تبعيتها ودفع الجزية وكان أسطولها يمخر بحر إيجة على الدوام لابتزاز تلك الجزية التي كانت تجمعها وتصرفها كيفما شاءت، فكانت ديمقراطيتها في الواقع محصورة فيها ولم تشمل الأجانب التابعين لها، حتى أنها ألغت حق المواطنة لهم، وتمادت في تعسفها بحيث إنها كانت تكره الشعوب الداخلين في أمبراطوريتها على التقاضي أمام محاكم المحلفين الأثينية. ومما أساء في الوضع أن مجلس الممثلين من جميع دول الأمبراطورية الذي كان يجتمع للنظر في شؤون الأمبراطورية قد أصبح معطلاً تقريباً. فأصبحت أثينا بوجه الإجمال دولة مستبدة مستعمرة مما حفظ ذلك التابعين لها ولا سيما أنهم كانوا يوازنون بين حالهم وبين حسن حال الدول التابعة إلى العصبة الإسبارطية فبدأ بعضهم يتصل بإسبارطة سراً لطرح نير أثينا والانضمام إلى إسبارطة. فشجّع كل ذلك إسبارطة على المجاهرة بحقدها على أثينا. وعمّت هذه الروح جميع اليونان تقريباً، وجعلت الحرب بين أثينا وإسبارطة أمراً لا بدّ منه.

وقعت أولى الحروب بين أثينا وإسبارطة قبل تثبيت زعامة بريقلس بزمن قليل (459 ـ 446 م)[1] وقد دامت حوالي الـ 15 سنة وكانت سجالاً بين الطرفين، ومما زاد في ضعف أثينا أنها ساعدت في أثناء ذلك مصر في ثورتها ضد الفرس في عهد أرتحشَشْتا الأول (465 ـ 424 ق. م) وأرسلت لهذا الغرض أسطولاً قوامه (200) سفينة فقدت جميعها. وفي ختام هذا الاصطدام أبرمت بين أثينا وإسبارطة معاهدة صلح (445 ق.م) أمدها ثلاثون عاماً. وكانت هذه الحرب الأولى مما يدعى بالحروب «البيلوبونيسية» (Peloponessian) ومع معاهدة الصلح المعقودة فإن النزاع والتنافس الكامنين بين الدولتين لم تستأصل جذورهما بل ظلت المدينتان تتنازعان زعامة الإغريق. وقد نشبت الحرب الثانية بعد نحو 15 عاماً من إبرام معاهدة الصلح (في عام 431 ق.م). فتألبت جميع الدول غير الداخلة في أمبراطورية أثينا عليها. وبدأت الحرب ووضع أثينا المالي على أحسن ما يرام وتحت قيادتها أسطول جعلها سيدة البحر بدون منازع. ولكنها كانت ضعيفة تجاه جيوش الأعداء البرية التي جاء منها زهاء (30,000) رجل من الأشداء إلى أبواب أثينا. وكانت خطة بريقلس الحربية الاهتمام بالقوة البحرية والاعتماد عليها وإهمال شؤون الدفاع عن «أتيكة». ونصح هذا الزعيم سكان أتيكة أن يجلوا عن بيوتهم ويلتجئوا إلى أثينا المحصنة. وعمدت أثينا لمقابلة تخريب الجيوش المعادية لبلادها إلى الغزوات البحرية وتخريب مدن الأعداء كذلك وفرض الحصار البحري. ولكن لم تجد هذه التدابير نفعاً إذ اضطرب السكان المحصورون في أثينا وحلّ فيهم لسوء الحظ وباء قضى على ما يقرب من ثلث السكان، وبالإضافة إلى ذلك كانت جيوش الأعداء تضرب الحصار على المدينة التي لم تستطع أن تدخل معها في قتال فكان كل ذلك سبباً قوياً في سخط الأثينيين على بريقلس وقد بلغ بهم الحال أن حاكموه وخلعوه، ولكن عدلوا عن ذلك بعد حين لأنهم شعروا

---

(1) سببت هذه الحروب الانتحارية تدهور حياة اليونان وقد وصفها المؤرخ اليوناني ثوسيدايدز الشهير بأنها (بداية الشرور الكبرى في هيلاس).

بخلوّ مكانه الذي لم يستطع أحد من السياسيين الأثينيين أن يشغله فأعادوا انتخابه. ولكن مجريات الأمور كانت تسير على عكس ذلك إذ فقد زعامته ومات ابناه بالطاعون ثم مات هو نفسه من بعد ذلك (429 ق.م) وهكذا ترك هذا الرجل أثينا بدون زعيم وهي في محنة شديدة فاضطربت الأمور فيها وتخبط زعماء مجلس الشورى من سياسة إلى سياسة بدون هدى. وقد جاء وصف هذه الأحوال في روايات الشاعر الشاب «أرستوفانيس» الكوميدية. ومع هذا التردي فإن سلطان أسطول أثينا قد دام زمناً أطول، ولكن نضبت موارد أثينا المالية ولم يستطع «كليون» الدباغ زعيمها الجديد إنقاذها من ذلك. وبعد عشر سنين من الحروب طلب خلفه عقد الصلح مع إسبارطة (421 ق.م) وقد قبل الطرفان بموجب هذا الصلح التنازل عن جميع ما حصلا عليه من فتوح وإرجاع الحال إلى ما كان عليه قبل الحرب. وهكذا انتهت الحرب الثانية التي أنهكت قوى الدولتين المتنازعتين ومعهما جميع الإغريق.

ولكن برهنت شروط معاهدة الصلح على تعذّر تطبيقها فأندلعت الحرب بين الطرفين مرة ثالثة وكانت نتيجتها هذه المرة تحطيم أمبراطورية أثينا. وقد ارتكبت في هذه الحرب، كما في الحروب السابقة، فظائع وحشية. ولعل أشد صدمة أصابت أثينا في أثناء هجومها على (سرقوسة) أسر أسطولها وجيشها هناك (413 ق.م) وبعد ذلك دخلت إسبارطة في النزاع ومما يذكر عن هذه الحرب الثالثة أن الحاكم الفارسي في آسيا الصغرى ساعد أسطول إسبارطة بالمال[1]. وقد دامت الحرب بين الدولتين تسع سنوات (413 ـ 404 ق.م)، وآل الأمر بأثينا أن استسلمت للملك الإسبارطي الذي كان يحاصرها في 404 ق.م. وبذلك قضى على أمبراطوريتها.

وهكذا فشلت أثينا في فرض زعامتها على العالم اليوناني، وأخذت إسبارطة تلك الزعامة زمناً ما، ولكنها لم تكن لائقة لتلك الزعامة لأنها كانت

(1) راجع ما ذكرناه سابقاً عن تدخل الفرس الإخمينيين بشؤون اليونان من إرشاء الدويلات اليونانية لتحارب بعضها بعضاً بعد أن أخفقوا في ضمّ اليونان بالقوة.

اقتصرت في نشاطها على الناحية العسكرية، واستخدمت القوة والاضطهاد في إخماد النظم الديمقراطية في مدن اليونان التي حكمتها حكماً عسكرياً، وهو حكم أقلية من طبقة النبلاء مستند إلى القوة العسكرية وقد دعا الإغريق هذا النظام «أوليغاركي» (ومعناه بلسانهم حكم الأقلية). ومع تعسف هذا النوع من الحكم وعدم صلاحه للإغريق، فإن الناس المفكّرين قد زهدوا بالحكم الديمقراطي وعدّوه فاشلاً ولا سيما نظام الحكم الشعبي الذي اشتهرت به أثينا[1]، ومما يقال في هذا العهد الجديد انتشار الروح العسكرية والفن العسكري وصيرورة العسكرية مهنة وفناً ليس في خدمة الدولة بل مهنة عسكرية فكان الرجال يمتهنون العسكرية في خدمة دول وحكومات أجنبية، وقد اشتهر الإغريق المرتزقة في ذلك، والمثل على ذلك ما مرّ بنا في الكلام على حملة زينفون. فقد اشتهر في أثينا من هؤلاء القوّاد المحترفين جماعة أكسبتهم مغامراتهم الحربية شهرة عظيمة. ولعلّ أعظم هؤلاء «زينفون» الأثيني الذي دخل الخدمة العسكرية مع «كورش» الأمير الفارسي في آسيا الصغرى في (400 ق.م) الذي أراد التغلب على أخيه الملك، كما مرّ بنا.

وقد خلف لنا «زينفون» عن حملته هذه إلى أراضي الأمبراطورية الفارسية أخباراً طريفة في كتابه «الصعود» (Anabasis) على ما بيّناه في كلامنا على الدولة الإخمينية. وشرح فيه كثيراً من المواقع الحربية، فيكون هذا الكتاب من الكتب العسكرية التي بحثت في العلوم الحربية. ومما يقال عن الفنون الحربية عند الإغريق إنهم لم يعرفوا آلات الحصار الضخمة وظلوا كذلك حتى بعد زمن «بريقلس». ولكن جاءت آلات الحصار إليهم عن طريق الفينيقيين والقرطاجنيين.

الحرب بين إسبارطة والفرس:

ويبدو أن المهارة التي اشتهرت بها حملة زينفون قد شجعت إسبارطة

---

(1) قارن تشهير أفلاطون بهذا النظام في جمهوريته.

على حرب الفرس في آسيا الصغرى، إحدى ولاياتهم، واستخدمت لذلك من بقي من عشرة الآلاف رجل فنجحت في عدة مواقع، ولكن أعقبت ذلك ثورات قامت بها بعض المدن الإغريق على إسبارطة، ونتج عن هذه الاضطرابات تكوين حلف من أثينا وطيبة ضد إسبارطة، وقد ساعد الفرس هذا الحلف لإضعاف إسبارطة فاشترك أسطول من أثينا مع الفرس لفرض السلطان الفارسي على مدن الإغريق في آسيا الصغرى. وهكذا دخل الإغريق مرة ثانية في حرب أخرى فيما بينهم وقد دامت ثماني سنوات وعرفت بالحرب «الكورنثية». وقد استطاعت أثينا أن تبني أسطولاً استطاعت أن تحطم به أسطول إسبارطة. ولكن الفرس شعروا بفقدان التوازن بعد انتصار أثينا البحري وخشوا من خطرها على مستعمراتهم فسهل ذلك على إسبارطة أن تعقد الصلح مع الفرس، وكذلك رغبت الدويلات المعادية لإسبارطة أن تعقد الصلح معها. وقد تدخل الملك الفارسي أرتحشستا الثاني في إبرام هذا الصلح ولذلك عرف «بصلح الملك» (378 ق.م). ومع هذا الصلح فإن الخصومات والمشاكل في العلاقات بين الدويلات الإغريقية لم تحل حلاً نهائياً.

سقوط إسبارطة وزعامة طيبة:

ظلت إسبارطة تجهد في أن تتمسك بسلطانها على العالم اليوناني زهاء خمسة وعشرين عاماً منذ نهاية آخر حرب من الحروب البيلوبونيسية، وقد سبّبت شدة النظام الإسبارطي كره الإغريق للإسبارطيين كرهاً فاق كرههم لأثينا في إبان زعامتها. وقد بدا هذا المقت في ثورة جماعة من أهالي طيبة على الحكّام الإسبارطيين الطغاة وقتلهم إياهم، فنجح أهالي طيبة في إدخال نظام الحكم الديمقراطي بدل الحكم الأوليغاركي. واستطاعت أثينا في الوقت نفسه من تأليف اتحاد منها ومن طيبة ومن بعض المدن الإغريقية الأخرى مما أقلق بال إسبارطة. ونتجت المصادمات خسران إسبارطة في المعركة البرية، وعندما دحرت أثينا أسطولها، تقدمت إسبارطة إلى الصلح. واجتمعت جميع الدويلات اليونانية في وفود في إسبارطة لعقد ذلك الصلح، وعندما اجتمع المؤتمرون

وعرضت عروض الصلح تعقدت الأمور برفض إسبارطة تمثيل «طيبة» لولاية «بوشية» التي تقع فيها. وهكذا ظلت إسبارطة وطيبة بعد مؤتمر الصلح في حالة حرب. وكان جميع الإغريق ينتظرون سحق طيبة بالصفوف الإسبارطية. ولكن عندما نشبت المعركة بين الطرفين لم تفد شهرة نظام الصف الإسبارطي تجاه تعبئة جديدة قام بها قائد جيش طيبة. وهكذا تحطم الجيش الإسبارطي (في عام 371 ق.م) بعد أن احتفظ بزعامة القيادة زهاء ثلاثين عاماً، منذ 404 ق.م. فانتقلت الزعامة إلى دويلة ثالثة بعد إسبارطة وهي دويلة طيبة ولكن هذه بدورها آل أمرها إلى التحطم بعد أن خسرت في المعارك البحرية والبرية مع إسبارطة مرة أخرى في 362 ق.م. وهكذا قضت الدول الكبرى الثلاث بعضها على بعض وحطمت بعضها بعضاً، وانتهت حياة الإغريق السياسية ولم يحققوا الوحدة السياسية التي حاول كل من هذه الدول الثلاث فرضها على بلاد اليونان. وعندما جاءت دولة أجنبية لفرض سلطانها على الإغريق وجدت عالم الإغريق منقسماً على نفسه. وكانت هذه الدولة هي «مقدونيا» التي استطاع ملكها فيلب أبو الإسكندر الكبير أن يقضي على الجيش اليوناني في عام 338 ق.م. فاعترفت به الإغريق إلا إسبارطة التي أخضعت بالقوة، وأكمل عمله ابنه الإسكندر الذي انتخب قائداً لجميع الإغريق في حملته على فارس.

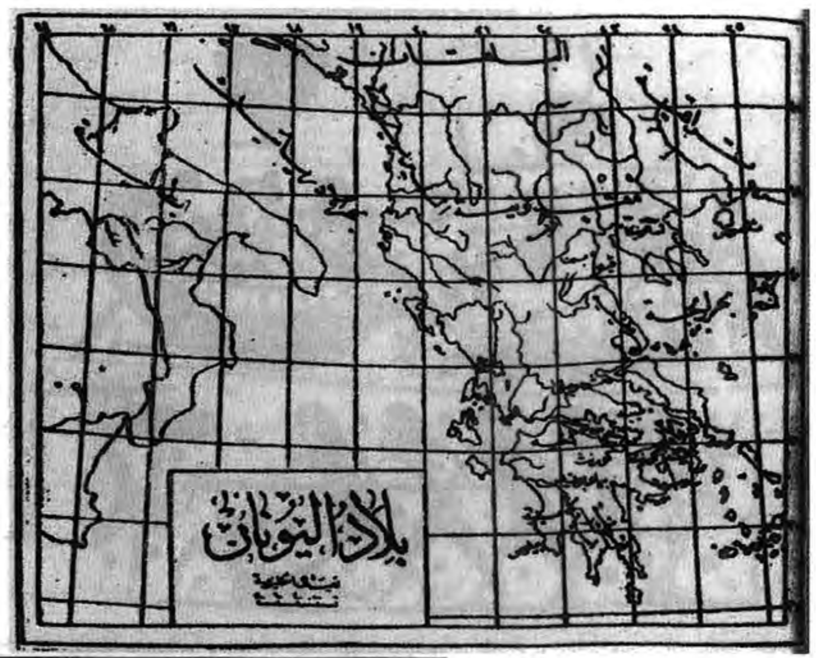
ومع هذه النزعة عند الإغريق إلى عدم الاتحاد والانضمام إلى دولة يونانية واحدة على الرغم من فشلهم في الحياة السياسية العملية فإن حضارة الإغريق قد حققت إنجازاً رائعاً من الخلق والإبداع في تأريخ الحضارات البشرية وكان لها تراث ضخم في جميع الحضارات التي أعقبتها. وسنأخذ طرفاً من مظاهر حضارتهم في الصفحات الآتية.



مشهد معركة بحرية في تأريخ اليونان القديم في عهد الملوك صوّر على إناء فخاري جميل ويشاهد اسم الفنان الذي نقشه مكتوباً بالحروف (أرستونوثوس).



مشهد بيت عروس يونانية حيث تشاهد في الجهة اليمنى وبصحبتها صديقاتها.
لاحظ الأزياء وأوعية الفخار المزينة المستعملة للأزهار.





تمثال «ديموسثينيز» الخطيب اليوناني الشهير الذي عاش في أثينا في عهد فيليب أبي الإسكندر وكان زعيم الحزب المناوىء لسياسة الاعتراف بسلطة فيليب على اليونان.

الفصل السابع والثلاثون

الحضارة الهلينية (الإغريقية)

يظهر مما عرضناه سابقاً من تأريخ اليونان أن تأثير اليونان وأهمية تأريخهم ليس من الناحية السياسية، وإنما في تراثهم الثقافي. ومع أن الإغريق صدّوا الفرس ولكن أهمية هذا الانتصار تنحصر في أنه مكّنهم من المحافظة على طراز حياتهم من أن يسحق بالطغيان الفارسي وبالاستعمار الأجنبي. كما أن الحروب الفارسية كانت إحدى طرق الاتصال المهمة بين اليونان وبين حضارات الشرق القديم. وقد امتاز الإغريق بانتشارهم من موطنهم وولعهم بالهجرة بهيئة تجار أو مستعمرين إلى جهات متأخرة في مضمار الحضارة، فنتج عن ذلك بث كثير من عناصر الحضارة اليونانية. وكان الرومان من بين الأقوام التي تعلّمت من الإغريق وعن طريق الرومان، في خلال العصور الوسطى، جاء تراث اليونان إلى العالم الحديث ولا سيما الحضارة الأوروبية. وإلى ذلك فإن هذه الحضارة الغربية قد تأثرت تأثراً عميقاً بالحضارة اليونانية بصورة مباشرة في عهد النهضة الأوروبية وإحياء المآثر الكلاسيكية. والحضارة الغربية تعد حضارة مشتقة من الحضارة اليونان ـ الرومانية، التي يصح أن نسميها بالحضارة «الهلينية». وقد ألمحنا سابقاً إلى علاقة هذه الحضارة بالحضارة المينية التي ازدهرت في جزر بحر إيجة، إذ أكدنا على صلتها بهذه الحضارة. وإلى هذا كله أخذت الحضارتان المينية والهلينية أشياء أساسية من حضارات الشرق القديم ولا سيما من حضارات العراق وحضارة مصر، ولكن فضل الإغريق مع ذلك كبير على البشر لأنهم أضافوا أشياء جد مهمة، وكلها من خلقهم وإبداعهم، ونخص بالذكر روح العلم الحديث والفلسفة وأشياء أخرى

لا تزال جزءاً مهماً من التراث البشري. ولعل أهم فرق بين الحضارات القديمة وحضارة الإغريق ليس في صحة المعلومات والملاحظات عن هذا الكون وكثرتها وإنما في المنهج وطريقة البحث بحيث يصح أن نعد الإغريق موجدي «منهج العلم» الحديث، وذلك بطريقة ملاحظاتهم واستخراج القواعد والضوابط لتفسير الحقائق المشاهدة، وتعليل الأشياء والحوادث بعلل لا تمتّ إلى الأساطير وما بعد الطبيعة بصلة. أي إنهم فصلوا اللاهوت عن العلم، وبحثوا عن علل الأشياء ضمن الحوادث الطبيعية. وسيتضح ذلك كثيراً في درسنا أهم المقومات في الحضارة الهلينية.

1 ـ الدين:

ونبدأ من حضارة الإغريق بدرس شيء موجز عن ديانتهم لتأثيرها العظيم في جزء كبير من نتاجهم الأدبي والفني بوجه خاص وفي حياتهم الاجتماعية بوجه عام.

وديانة الإغريق تشبه من وجوه كثيرة ديانات الحضارات القديمة في الشرق كحضارات العراق ومصر. فهي ديانة وثنية مبنية على الشرك أي تعدد الآلهة، وينسب الإغريق إلى آلهتهم الكثيرة، كما كان الحال عند قدماء العراقيين والمصريين، صفات البشر سواء أكان ذلك في شكلهم أم في عواطفهم أم حياتهم. وهذا ما سميناه بمبدأ التشبيه. فنجد الآلهة المذكورة في العصر الهومري تسكن في جبل شامخ في سهل «تسالية» هو جبل «الأولمبوس». واختص كل إله بظاهرة طبيعية أو بأمر خاص من أمور الكون. وتؤثر الآلهة في مصائر البشر فكان الإله «زوس» أو «زفس»، أبا الآلهة، حاكم السماء والجو وللإله «بوزيدون» البحر، مثل الإله البابلي «ايا» ولأبولو الشمس. وأفروديت إلهة الحب وتضاهي عشتار البابلية. وتعنى الآلهة بشؤون الأفراد الذين يقدمون لهم الخضوع والقرابين. وتريد الآلهة من الناس أن يكونوا أخياراً عادلين. ولكن اتّصفت الآلهة اليونانية بالقوة والبطش فينبغي للبشر أن يحصلوا على مرضاتها.

ومهما بدا دين الإغريق في العهد الهومري ساذجاً فإنه مع ذلك يمثل مرحلة تطورية بالنسبة إلى ما كانت عليه ديانتهم في العهود السابقة ولا سيما عندما كانوا في عهد البداوة والسذاجة، فكانت ديانتهم تتّصف على ما يحتمل بما يعرف بمبدأ الحيوية، كما هو الحال عند كثير من الشعوب البدائية. وفحوى هذا المبدأ كما مرّ بنا في الديانة البابلية عزو الحياة والقوة إلى مظاهر الطبيعة المختلفة. فقد كانوا يجسمون قوى الطبيعة القاسية ويستعطفونها ويسترضونها لدرء شرها وجلب مساعدتها. وعندما بدأ الإغريق يستوطنون السواحل الإيجية فيما بعد 1400 ق.م. اتخذوا بعض الآلهة التي وجدوها في مواطنهم الجديدة وأخذوا كذلك بعض الآلهة عن جيرانهم في آسيا مثل أفروديت التي انتشرت عبادتها من العراق القديم وأخذوا من الآلهة المصرية عبادة الإلهة إيسيس والإله «أوسيريس». ولكن عندما بدأ الإغريق وهم في عنفوان حضارتهم يفكرون في الكون بطرقهم الفلسفية أخذ الدين بالتفسخ والانهيار.

ومما يمتاز به الدين عند اليونان أنه لم ينتج في جميع أطواره نظاماً للكهنة أو الكتب المقدسة كما في بعض الأديان الأخرى. ولذلك سلم اليونان من شرور حكومة الكهنة الدينية (Theocracy) ولكن كانوا يقدسون بعض المآثر الأدبية التي صارت عندهم بمثابة الكتب المقدسة مثل مآثر هوميروس وهزيود. وكان رئيس العائلة هو الذي يتولى أمر عبادة الآلهة في معبد أو مذبح في بيت العائلة نفسها. وكان الفرد بوجه عام كاهن نفسه من ناحية العبادة. أما الكهنة الذين يخدمون في المعابد العمومية فكانت الدولة هي التي تستخدمهم. وبسبب سلطة الدولة الشاملة لم ينشأ في تأريخ اليونان نزاع بين رجال الدين والكنيسة وبين السلطة الزمنية على نحو ما حدث في تأريخ حضارات أخرى ولا سيما الحضارة المسيحية.

المعبد:

ونستطيع أن نجد أصل المعبد العام في قصر الملك. إذ لما كان

الملك، في عهد الملوك رأس المجتمع، فقد كان يقيم في ساحة قصره مذبحاً للعبادة فصار هذا معبد المدينة أي معبد دولة المدينة. وعندما انقضى عهد الملوك (فيما بعد 800 ق.م) واختفت مع الملوك قصورهم، حافظ الناس على تلك المزارات وعلى تماثيلها المعدّة للعبادة. وبنوا لهذا الغرض بيوتاً خاصة بالمزارات، فصارت هذه بيوتاً خاصة للعبادة، أي صارت معابد. وكانت التلول خارج أثينا، ولا سيما المرتفع المعروف بالأكروبوليس، مواضع سكنى الملوك المحصنة، وعندما اختفى الملوك صار «الأكروبوليس» موضع الآلهة المقدس وشيّدت عليه بيوت للعبادة كانت آية في النفاسة. وكان أشهر هذه المعابد «البارثينون» الذي كان عبارة عن معبد خاص بمدينة أثينا لعبادة إلهة خاصة كانت حامية أثينا وهي «بارثينوس» أي «أثينا العذراء» (انظر الشكل) ومثل معبد «الأيريختبوم» آخر الفصل. وقد امتازت بعض معابد الإغريق الأخرى بكونها معابد وطنية عامة لجميع اليونان تقريباً. ومن بين هذه معبد «أبولو» في «دلفي» ومعابد أخرى في إقليم «الأولمبوس». وقد ساعدت مثل هذه المعابد الوطنية العامة بعض الشيء على تقوية وحدة الإغريق الوطنية الضعيفة، فقد رأينا كيف أن الإغريق لم يتحدوا اتحاداً سياسياً بل كانوا منقسمين على أنفسهم. وكان معبد (أبولو) في دلفي كذلك موضع العرافة والكهانة فكانت الإجابة على الأسئلة الخاصة بالتنبؤ والعرافة تأتي على لسان كاهنة المعبد وقد حملتهم الرغبة في التعرّف على مصائرهم وكشف المستقبل على أن يلتجئوا إلى طرق العرافة والكهانة كما كان الحال في حضارات الشرق القديم.

واعتقد الإغريق بعالم آخر وبحياة أخرى يُجازى فيها المسيء والصالح وكانوا يعتقدون بموضع للعذاب أو جهنم هي هادس (Hades)[1]، وكما كانت هذه داراً للعقاب فقد اعتقدوا بدار للثواب موضعها في «الجزر المباركة».

(1) وهادس أيضاً إله العالم الأسفل وأخو الإله زوس، وللبوتان اسم آخر لإله العالم الأسفل هو «بلوتو» أو «بلوتون» (Pluto) الذي يضاهي الإله الروماني ديس (Dis).

ولكن أهم ما يمتاز به الخلود عند اليونان ولا سيما المتنورين منهم أنه خلود النفس وليس بعثاً للجسم المادي، بل إنه أشبه ما يكون بالتصوف الروحي. وكان من بين الوسائل للوصول إلى هذا الفردوس نوع من العبادة والرياضة السرية التي كانت تُقام في معبد في «ألوسيس»، ونشأت من ذلك طبقة من الكهنة أو الدراويش المتجولين الذين كانوا يعلّمون العامة أشياء غريبة. وقد دوّنت هذه الأمور في كتاب صار لدى أوساط الناس بمثابة الكتاب المقدس.

ولكن انتشار التعاليم الفلسفية والعلوم التي بدأها الفلاسفة الأيونيون في ساحل آسيا الصغرى الغربي ولا سيما «مليطس» وتأثير روايات الأدباء المشهورين ولا سيما مسرحيات «أرستوفانيس» الكوميدية كل ذلك أدخل الشكوك والريب في قلوب كثير من عامة الناس، ومن باب أولى في خاصة الناس من الطبقة المثقفة فتزعزعت العقائد الدينية ونبذت الأساطير والخرافات والمتناقضات المعزوة إلى الآلهة. وسوف يتجلى لنا من بحثنا في الفلسفة اليونانية أن الفلاسفة كانت لهم آراؤهم ومعتقداتهم الخاصة، وهي تتّصف بخلوّها من خرافات العوام وأوهامهم. وسنجد بعضهم يقول بمبدأ التوحيد والحلول ويرفض بعضهم مبدأ التشبيه بالنسبة إلى صفات الآلهة في الديانة الإغريقية، أي عزو صفات البشر المادية والروحية إلى الآلهة. وعلى الرغم من خلو ديانة الإغريق من كتب مقدسة كما في بعض الديانات الأخرى غير أن الملاحم الشعرية المنسوبة إلى هوميروس كانت للإغريق كما نوّهنا بذلك بمثابة تلك الكتب المقدسة، إذ إنها حوت أخبار الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وتأثيرها في شؤون البشر. هذا ولم يبق الإغريق في حالة واحدة من ناحية المعتقدات منذ الأزمان القديمة، فقد شرعوا منذ القرن السادس يفكرون في حياتهم وفي عصرهم وفي سلوك الإنسان والتمييز بين الصحيح والفاسد، وبين الخير والشر. ولم يعد الناس يصدقون أن الآلهة قد عاشت تلك الحياة الشريرة التي تصورها الأغاني الهومرية. وأخذوا يصححون آراءهم بالنسبة إلى الإله «زوس» وأتباعه من آلهة «الأولمبوس» ولا سيما بالنسبة إلى ما يعزى إليهم من أعمال الشر. وقد سببت آراء الفلاسفة الأيونيين تغيير كثير من العقائد بالنسبة إلى

الآلهة، وهم الفلاسفة الذين سنراهم يبحثون في هذا الكون وظواهره وفي الأشياء ويبحثون عن أسباب وعلل طبيعية لها. وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء الفلاسفة، وهو طاليس (القرن السادس ق.م) من التنبؤ بكسوف الشمس بالاستعانة بالأثبات البابلية التي جمعها الفلكيون البابليون عن حدوث الكسوف. وقد حصل من ذلك على شهرة عظيمة ونتج من ذلك نتائج بعيدة المدى في نظر الناس إلى المعتقدات الدينية. فكانوا يعتقدون أن حوادث الكسوف وغيرها من ظواهر السماء إنما هي نتائج لغضب الآلهة وتقلب أطوارها. ولكن طاليس أظهر أن حركات الأجرام السماوية تجري وفق قوانين ثابتة.

وقبل أن ننهي البحث في ديانة اليونان نذكر التأثيرات الدينية الخارجية التي أثرت في حياة الإغريق الدينية. والواقع أن ميناء أثينا المسمى «بيروس» لم يقتصر على البضائع التجارية الصادرة والواردة بل إنه وغيره من طرق الاتصال بالخارج كان واسطة لنقل التأثيرات الخارجية إلى عالم الإغريق، ومن بين ذلك التأثيرات الدينية. فقد دخل بتلك الواسطة بعض الآلهة الغريبة من الحضارات الأخرى. من بينها «الإلهة الأم» من آسيا الصغرى بهيئة أفروديت أو سبيلة التي يرجع أصلها إلى وادي الرافدين، وجاءت الإلهة المصرية «إيسيس» كما ذكرنا من قبل، وكذلك دخلت عبادة الإله المصري «أمون». ومما يذكر في ذلك أن الشاعر اليوناني الشهير «بندار» قد نظم قصيدة في تمجيده وأقام له تمثالاً. وصار أمون إلهاً للتنبؤ عن المستقبل وحاز عند الإغريق على شهرة عظيمة ضارعت شهرة «أبولو» إله دلفي وسنقف من الكلام على الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني على التأثيرات الداخلية التي غيّرت وحورت من ديانة اليونان.

وانتشرت بين اليونان جملة عبادات تقوم على طقوس وشعائر سرية، وكان بعضها على هيئة جماعات «أخوة» خاصة، والغريب في طقوس بعضها أنها تتصف بالتهتك والانغماس وبضعها يذهب إلى التطرف في سلوك

التقشف، فمن هذه الطقوس الغريبة الاحتفالات والطقوس التي كانت تُقام للإله «ديونيسوس» (Dionysus)، وهو إلٰه الكروم والخمر، واتّصفت هذه الاحتفالات بالتهتك في الشرب حيث يتمّ الاتحاد مع هذا الإلٰه، وقد أخذ الرومان هذه الطقوس حيث عرفت بالعبادة الباخية نسبة إلى «باخوس» (Bacchus) وهو اسم ديونيسوس أيضاً ولا سيما عند الرومان، وأثرت هذه العبادة والاحتفالات في فن التمثيل عند اليونان مما سنشير إليه في كلامنا على «الدراما» اليونانية، وعلى الضد من هذه الطقوس كانت العبادة الأورفية[1] تلتزم سلوك الامتناع والزهد، ولكن فيها شعائر سرية لتلقين التابعين لها وتعليمهم وإعدادهم، كما فيها طرق خاصة بالشعوذة لطرد الشياطين وأعمال السحر حيث كان يبشر بها نوع من الدراويش انتحلوا هذه العبادة حيث الاعتقاد بوجود السعادة الأبدية في حالة التزام التعاليم الخاصة بها وكذلك وجود العذاب الدائم والتناسخ وانتقال الأرواح. واشتهر الفيثاغوريون بالزهد والتقشف ولعلهم كانوا يعتقدون بالتناسخ حتى أنهم التزموا الأغذية النباتية وامتنعوا عن أكل لحوم الحيوانات لأن ذلك عندهم بمثابة أكل لحوم الإنسان.

2 ـ الفنون الجميلة (العمارة ـ النحت ـ النقش ـ الموسيقى):

يظهر الفن حالما ينشأ عند الأقوام البدائية قوى عقلية نشيطة وحس بالجمال وميل إلى التهذيب والذوق الأنيق، فتصير هذه الملكات عندهم وسيلة للتعبير. ومما لا شك فيه أن الإغريق تعلموا من الفنانين والصُنّاع الإيجيين. ولكن لم ينشأ عند الإغريق حافز التعبير عن أنفسهم بالفنون إلّا بعد أن اتصلوا مع الفن المصري والفن العراقي، ولم يبدؤوا بالإنتاج الفني إلّا في حدود 600 ق.م. حيث دخلوا

---

(1) (Orphism)، وأرفيوس (Orpheus) ومنه اسم العبادة، كان بحسب الأساطير اليونانية مغنياً وموسيقياً من تراقيا اشتهر بمهارته في التوقيع وشجاوة صوته بحيث إنه كان يحرك الصخور والأشجار، حتى أنه أطرب إلٰه العالم الأسفل «بلوتو» لمّا ذهب إلى هناك ليعيد زوجته إلى الحياة فوافق الإلٰه على ذلك بشرط ألّا يلتفت أورفيوس وراءه ولكنه أخلّ بهذا الشرط فلم يفلح في مهمته.

منذ ذلك التأريخ في طور الخلق والإبداع الفنيين اللذين ما زالا مصدر إلهام للبشر حتى يومنا هذا.

لقد جرت العادة بتقسيم الفن إلى صنفين: الفنون الرئيسية[1] وتدعى الفنون الجميلة وهي العمارة والنحت والنقش والموسيقى والفنون الصغرى أو الفرعية[2] كالصناعات الفنية مثل الفخار والحياكة وصناعة المعادن وغيرها من الفنون أو الصناعات الأخرى. ولكن هذا تصنيف اصطلاحي لأنه بوسعنا أن نحس بنفس الحاسة الفنية والذوق الفني بنتاج كلا الصنفين. فقد خلّف الإغريق لنا نماذج جميلة من أواني الفخار المنقوشة ومن أدوات البرونز وقطع النقود والأحجار الكريمة المصنوعة وغير ذلك مما نستطيع أن نستشف فيها نفس الإبداع والذوق اللذين نحسهما في الفنون الجميلة أو الفنون الرئيسية بحسب التقسيم الذي أوردناه. ولكن مع ذلك تتطلب الفنون الرئيسية مدارك عقلية أوسع وخيالاً أكثر وتحتاج كذلك إلى مهارة فنية مما جعل النقّاد يفردون الفنون الرئيسية بكونها المعيار الصحيح لمعرفة الذوق اليوناني والنبوغ اليوناني.

أ ـ الموسيقى والنقش:

أما ما يخص الموسيقى والنقش من هذه الفنون الجميلة فليس لدينا لمعرفتها إلّا الحزر والتخمين تقريباً، ذلك لأن الإغريق لم يخلفوا لنا شيئاً من بدائعهم في هذين الفنين. ويهون الأمر قليلاً في أمر النقش إذ بوسعنا أن نعرف بعض الشيء عنه من نقوش الأواني الفخارية ومن نماذج وأمثلة قليلة من العهد «الهلنستي»[3] وكذلك من نسخ رومانية. فالفخارون الذين عاشوا في أحسن العهود (فيما قبل 500 ق.م. وما بعد ذلك) كانوا كذلك نقاشين فنانين من

---

(1) Major or Fine Arts.

(2) Minor Arts.

(3) راجع البحث عن الحضارة الهلنستية.

الطراز الممتاز. وتبرهن أواني الفخار الجميلة التي خلفوها لنا على إتقان ومهارة عظيمين في الرسم وفي الألوان ويتجلّى فيها شعور راق بالزخرفة مما أضفى عليها سحراً خالداً.

ب ـ العمارة والنحت:

ومما يؤسف له أن المآثر الأصلية التي جاءتنا عن فن العمارة والنحت جزء ضئيل من الإنتاج الأصلي. فقد اندرس معظم المعابد والقليل الباقي منها كان في وضع متداع ماثل إلى البلى. وليس لدينا من فن النحت اليوناني الأصلي إلّا نسخ من العهود الرومانية باستثناء نماذج أصلية قليلة جاءتنا مثلاً من أجزاء من البارثينون و«الإيجينا» و«الأولومبيا» ومثل تمثال هرمز (انظر الشكل آخر الفصل).

ومما يقال عن العمارة عند الإغريق، إن الإغريق لم يكونوا بنائين من بناة الأبنية التذكارية الضخمة كما في حضارة مصر وحضارة العراق القديم. فقد كانت أثينا حتى في إبّان أدوار ازدهارها مدينة من الطراز المتوسط في الأبنية. وكانت بيوتها ذات طابق واحد مبنية من اللبن وشوارعها ضيقة متعرجة قذرة، ولكن مهارة اليونان في فن العمارة خصصت للمعابد والمباني العامة، وكانت تشيد في زمن الملوك من الخشب ولكن بنيت بالرخام والحجارة فيما بعد، ويمتاز المعبد اليوناني بروعته وبساطة تخطيطه وبصفوف عمده الجميلة، والأعمدة من خصائص العمارة الإغريقية التي لم تعرف العقادة والقوس، وزينت المعابد بآيات من فن النحت، وبوسعنا أن نقتفي بداية النحت من بداية القرن السابع ق.م. ويبلغ ذروته ونضجه بعد أقل من ثلاثة قرون في منحوتات (البارثينون). ويمتاز النحت عند الإغريق أنه لم يقف على حال جامدة واحدة وإنما كان في اندفاع مستمر، ونستطيع أن نتبين ذلك جلياً من زمن النحات العظيم (فيدياس) الذي أشرف على بناء البارثينون (في حدود 430 ق.م) (انظر الشكل آخر الفصل) ونحاتي القرن التالي مثل «براكستيلز» (انظر الشكل آخر الفصل) و«سكوباس» ثم نحاتي القرن الثالث، إذ نلمس حركة مستمرة عند

النحاتين تتصف بالإنسانية الواسعة وبالاقتصاد العظيم في العمل ولكننا نشاهد كذلك أن الإخلاص في التعبير الذي اتّصف به النحاتون الأقدمون قد حلّت محله المهارة اليدوية. وإذا كان ليس في الوسع الدخول في تفاصيل أخرى عن الفن اليوناني فنكتفي بما ذكرناه ونضيف إليها ملاحظات أخرى نذكر فيها أبرز خصائص ذلك الفن وميزاته.

لقد ساق بعض الباحثين ثماني ميزات أساسية في النفس اليوناني[1] هي:

(1) الروح الإنسانية (Humanisim).

(2) البساطة (Simplicity).

(3) التناظر والتناسق والانسجام (Balance & measure).

(4) الواقعية أو التمثيل الطبيعي (Naturalism).

(5) نشدان المثل الأعلى (Idealism).

(6) الصبر (Patience).

(7) المتعة (Joy).

(8) الشركة (Fellowship).

ونعني بالميزة الأولى أن الفن اليوناني كان أول فن في التأريخ اهتم بتمثيل الإنسان ورفعه إلى مستوى عال، ويتّضح الاهتمام بالإنسان والإنسانية في الفلسفة التي أعقبت الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما منذ سقراط، فصار الإنسان «مقياس جميع الأشياء»، ومثلوا الآلهة بأجمل أشكال الجسم الإنساني وتفننوا في إبراز أسمى ما في الجسم البشري من جمال ليبلغوا بمستوى صور الآلهة، وهذا ما تهدف إليه الميزة الخامسة أي نشدان المثل الأعلى في الفن

---

(1) The Legacy of Greece, p.353 ff.

ولا سيما في تمثيل جمال الجسم البشري. أما الميزة الثانية، أي البساطة، فإنها لا تعني السذاجة وإنما هي من قبيل السهل الممتنع في قوة التعبير ووضوحه ومفهوميته، مما يميز كبار الفنانين والأدباء والشعراء، وتعني أيضاً خلوّ الفن اليوناني مما يسمى بالرمزية أو الانطباعية، وأكثر ما يتجلّى ذلك في فن النحت. وتتجلّى الصفة الثالثة في وجود مبدأ التناسب والانسجام والإيقاع والتناظر. ولعل الإغريق كانوا أعظم شعوب العالم القديم في درسهم الطبيعة وشكل الجسم الإنساني وتشريحه. وعلى الرغم من نزوع النحات اليوناني إلى بلوغ المثالية في تمثيل الجسم الإنساني إلا أنه تميز بنجاحه في تمثيل الأشخاص والأفراد مما يصحّ تمييزه بالفردية (Individuality). وهذا ما تعنيه الميزة الرابعة أي التمثيل الطبيعي.

هذا وقد سبق أن نوّهنا بالميزة الخامسة وهي المثالية بنشدان الجمال في تمثيل الجسم الإنساني، وقد فاق الإغريق في تمثيل الجسم البشري جميع الشعوب الأخرى. وبإمكاننا أن نميز تأريخ الفن اليوناني بأنه كان في البحث عن الجمال، فأدركوا أن الطبيعة لم تنجح النجاح الكلي في إنتاج الجمال الفردي، بل هي دون المثل الأعلى، ولذلك فيلزم على الفنان أن يتعاون مع الروح الخالقة في تحسين ما أنتجته الطبيعة بإكمال نواقص إنتاجها. وتتجلّى هذه الروح حتى في ألعابهم الرياضية، فلم ينظروا إلى الرياضي على ضوء قابليته على القفز والنط والعدوى بل من ناحية رشاقة قوامه وشكل جسمه (form)، حتى أن جميع تمارينهم الرياضية كانت تجري على أنغام الناي. وقبل أن نترك الكلام عن هذه الميزة ننوّه بأمر مهم في تقدير الفنانين الإغريق لجمال الجسم البشري، فقد كان نشدان الجمال مركّزاً على جسم الذكر أكثر من جسم الأنثى، بل إن تمثيل الجسم الأنثوي قد تأخر في الفن اليوناني بعد عهود تمثيل أجسام الذكور، ومع ظهور هذا التمثيل فإن الفنانين الأيونيين والأتيكيين لم يجرؤوا على تمثيل جسم الأنثى عارياً بعكس أجسام الرجال. ولكن الفنانين في العهود الأخرى مثل «سكوباس» (Scopas) و«براكسيتيلز» مثلا إلهة الحب على هيئة امرأة عارية. وقد صارت تماثيل الإلهة أفروديت من القرن الرابع

ق.م. مثالاً لجمال جسم الأنثى عند مختلف المدارس الفنية إلى الأزمان الحديثة، ويوجد تمثال للإلهة أرطميس هو مثل أعلى آخر على جمال جسم المرأة. والطريف ذكره بهذا الصدد أن أحد الفنانين كلف بصنع تمثال لإحدى الإلهات فجمع هذا أجمل عشر فتيات ودرسهن فركب من صور الجمال التي كوّنها في ذهنه صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه المثل الأعلى للجمال.

ولا حاجة بنا إلى إسهاب القول في الميزات الأخرى كالصبر، فقد كان الفنان الإغريقي فناناً ينتج للمتعة وليس للتجارة فلم يبال بصرف الوقت، ويروى عن أحد فناني الإغريق أنه صرف سبع سنين في إنجاز شكل واحد، والمرجّح أنه لم يكن ليضجر من صرف أعوام أخرى لو رأى في ذلك مما يزيد في كمال تمثيله. وتتصل بهذه الميزة الميزة السابعة وهي الفن من أجل المتعة وإشباع الحس الفني حيث اللذة والحبور في الإنتاج الفني، إذ كان الفنان يستمتع بنتاج المتعة واللذة، وليس أدلّ على ذلك من صرف الجمهور أوقاته في مشاهدة الروايات التمثيلية من الصباح إلى المساء.

ونعني بالميزة الثامنة، أي روح التعاون والشركة، ما كان يتحلّى به الفنانون من التعاون في الإنتاج الفني ويتّضح ذلك في تجميل المعابد وتزيينها بالمنحوتات مما كان يشترك به عدة فنانين.

3 ـ الأدب اليوناني:

أ ـ الأشعار الهومرية:

ظلت قصة انتصار الإغريق على طروادة في ذاكرة خيال المنتصرين وفي أفكارهم زمناً طويلاً. فأنشأ شعراؤهم الأغاني الشعرية لتخليد أعمال أبطالهم، فكانت هذه تنشد في قاعات الملوك والنبلاء وانتشرت هذه الأغاني من بلاد الإغريق إلى المواطن الأيونية في سواحل آسيا الصغرى. وكانت الكتابة أي التدوين غير معروفة عند الإغريق، ولكن توارث الناس تلك الأشعار جيلاً عن جيل بالرواية. وكان كل جيل يضيف إليها عناصر وأشياء جديدة وحدث في

الأغاني الأصلية حذف وتغيير فتحورت الحقائق والوقائع الأصلية ولم يحتفظ الناس إلّا بالأشياء المثيرة للشعور المغذية للعواطف وللحاجات النفسية، فاكتسبت هذه القصص مظاهر خارقة للعادة وفوق أعمال البشر. أي إنها دخلت فيها أعمال الآلهة والقوى فوق الطبيعة. وكانت الآلهة في تصور الإغريق كوائن فوق البشر أو أنهم بشر سامون (سوبرمان)، فأخذت الآلهة تطغى شيئاً فشيئاً على قصص الأبطال والملاحم. وهكذا نشأت مجموعات من أشعار الملاحم ما بين 1000 و700 ق.م. تدور على تأريخ اليونان القديم وعلى علاقة الآلهة بشؤون البشر وتأثيرها فيها. وكان أشهر جزء من هذا التأريخ «حرب طروادة» التي جاءنا عنها نموذجان كاملان من تلك الملاحم الشعرية. ولكن ينبغي لنا ألا نغفل شأن الملاحم الأخرى مثل القصص المتعلقة بمدينة طيبة وهي القصص التي أخذت الروايات المسرحية منها أشياء كثيرة واشتق منها كثير من الآداب الرومانية.

فمن الملاحم المشتقة من حروب طروادة التي ألمحنا إليها مجموعتان من الأشعار عرفتا «بالإلياذة» و«الأوديسة» وهما اللتان تعزيان عادة إلى هوميروس. ولكن الواقع أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن هوميروس حتى أن وجوده وشخصيته التأريخية مشكوك فيهما بيد أن اسم هوميروس معروف بكونه من المغنين المشهورين في عهد الأبطال والملاحم فقرن هذا الاسم بهاتين المجموعتين وظل كذلك عندما دوّنتا. ومما يقال عن الإلياذة والأوذيسة إنهما خير مثالين جاءانا من الملاحم والأشعار الشعبية التي تعكس لنا عادات الإغريق وروحهم الوطنية في إبان نشوء حضارتهم على أنقاض الحضارة الإيجية. ثم إنهما لم ينفرد في نظمهما وتأليفهما شخص أو شاعر واحد، وإنما هما مجموعات من الأغاني الشعبية القومية، ولكنهما جمعتا من تلك المصادر على نحو ما نجد في مجموعة القصص المعروفة بألف ليلة وليلة. ويصحّ على ذلك أن نقول إن مؤلفي هذه الأشعار هم الشعراء المغنون وجماهير الناس فقد ساهم الشعراء بالنظم والجماهير بالاستماع إليها واستحسانها وطبعها بذوقهم وميولهم ولكن فيها علاوة على

ذلك أفكار اليونان وآراؤهم عن الآلهة وقد عدّها الإغريق الذين عاشوا فيما بين 700 ـ 400 ق.م. سجلاً مهماً عما كان يعتقده أجدادهم وكذلك بالنسبة إلى عقائدهم أيضاً، فكانت لهم بمثابة الكتابات الدينية عند اليهود، إلا أن سر القوة في تلك الأشعار لم يأت من وحي إلهي جاء إلى أنبياء كأنبياء كتب اليهود الدينية وإنما تكمن قوة تلك الملاحم في سحر شعرها وخيالها وفي أدبها الرفيع الذي أسر ألباب الإغريق وتمكّن من مشاعرهم. وإلى ذلك كانت الأشعار الهومرية تراثاً عاماً لجميع الإغريق فصارت بذلك من العوامل المهمة في التخفيف من روح الانقسام التي طغت عليهم وحالت دون وحدتهم السياسية.

ب ـ الأشعار الغنائية:

كان الشعر لدى الإغريق يختلف عمّا هو عليه في الأشعار الأوروبية الحاضرة التي هي نتائج أدبي لغرض القراءة. ولكن الشعر عند الإغريق كان نوعاً من الموسيقى لأنه كان يغنى به على الدوام سواء أكان بصوت إنسان على توقيع القيثار[1] أم جماعة من المغنين ينشدونه في الأعياد المختلفة الخاصة بالآلهة، ويكون النوع الثاني بمثابة العبادات الدينية عند الإغريق وقد مهّد السبيل لظهور فن الرواية التراجيدية عندهم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد.

وقد اشتهر من شعراء الشعر الغنائي جماعات نشأ أكثرهم في جزر بحر إيجة وليس في بلاد اليونان الخاصة ومنهم «أليكوس» من جزيرة «ليسبوس» (في حدود 600 ق.م)، وقد نظّم ببحر خاص من الشعر اشتهر باسمه[2] وقد قلّده ونظم فيه الشاعر الروماني «هوراس». ونظّم «ألكيوس» في مواضيع مختلفة في الحب والحرب والأسفار. وكانت تعاصره الشاعرة المشهورة

---

(1) أي (Lyre) ومن ذلك (Lyric Poetry) وهو الشعر الغنائي.

(2) (Alcaics).

«سافو» (في حدود 600 ق. م) التي رفضت حبه وهيامه بها. وكانت هذه شاعرة كذلك من جزيرة «ليسبوس» وعدّت أعظم شاعرة، واشتهرت أشعارها في العهد «الهلنستي» والروماني ونظمت في بحر خاص اخترعته ودعي باسمها[1] وقد قلّده كذلك بعض شعراء الرومان وقد طغى موضوع الحب على أشعارها. وكان الحب عند الإغريق بوجه عام يختلف عن مفهومه في وقتنا هذا، فلم يكن ليعني عندهم حب رجل لامرأة بل كان عندهم نوعاً من الصداقة المتسامية أو عاطفة شديدة يحملها بشر لبشر آخر، وكان كذلك نشدان الجمال في الجسد والروح أما الجمال فلا ينحصر عندهم بجنس المذكر أو المؤنث بل إنه صفة إنسانية كثيراً ما يجده الرجال بين الرجال والنساء بين النساء. وعلى ضوء ذلك ينبغي أن نفهم أشعار «سافو» وغيرها. وامتازت أشعار هذه الشاعرة بحرارة العاطفة المتأججة وبالصراحة والعنف في التعبير ثم بالبساطة.

اشتهر في الشعر اليوناني نوع خصص للتغني والإشادة بالرياضيين المنتصرين في الألعاب الرياضية المشهورة ولا سيما الألعاب الأولمبية و«الفيثية»[2] وكان لهذه الألعاب صفة دينية حيث كانت جزءاً من الأعياد الدينية. فالألعاب الأولمبية مثلاً خصصت لتمجيد الإله (زوس) و(الفيثية) خاصة بالإله (أبولو). وقد نظم كثير من شعراء اليونان الأغاني لتمجيد المنتصرين فمن هؤلاء الشعراء الشاعر المشهور (بندار) (Pindar) الطيبي (520 ـ 440 ق.م) الذي اشتهر كذلك بتغنيه بالجمال وأودع أشعاره تلاحين وإيقاعات لذيذة وموسيقى خاصة جعلته من أصعب الأشعار عند ترجمته إلى لغة أخرى. وقد قلّد (بندار) شعراء كثيرون واستوحى منه شعراء فرنسا في القرن السادس عشر. ومن الأشعار الإغريقية كذلك أشعار الروايات التراجيدية التي سنأخذ عنها بعض الشيء.

---

(1) Sapphic Stanza.

(2) Phytian.

ج ـ التراجيدي (المأساة):

منشأ الرواية التراجيدية[1] عند الإغريق من الأشعار الغنائية التي كان ينشدها جماعة من المغنين (Chorus) مصحوبة بالرقص والإيقاع وعندما أدخل شخص قصاص وظيفته توضيح القصة الشعرية وإضافة شخص ثانٍ إلى القصاص نشأ ما يعرف بالمحادثة الثنائية (Dialogue) ونشأ فن الرواية التراجيدية. وكانت تلك الأغاني تغنى في مناسبات دينية أشهرها أعياد خاصة بالآلهة مثل عيد الإله (ديونيسوس) ابن الإله (زوس) وإله الخمر الذي يقابله عند الرومان الإله (باخوس). وبوسعنا أن نحلّل التراجيديا الإغريقية إلى ثلاثة أمور مهمة:

أولاً: كانت احتفالاً دينياً. وثانياً كان هذا الاحتفال عاماً أي خاصاً بالمجتمع. وثالثاً كانت احتفالاً موسيقياً وبذلك يدخل فيها الدين والدولة والفن فبوصفها احتفالاً دينياً كانت محدودة من جهة الموضوع وطريقة التمثيل فكان يتطلب منها أن تروي عن أبطال الأساطير وتشيد بالآلهة وقوتها وحولها ويجب كذلك أن يدخل فيها عنصر مهم هو رقص المغنين وهو الرقص المستمد من عيد الإله «ديونيسوس». والحقيقة أن هذه القيود كانت لفائدة المؤلف إذ يكون بها على بيّنة من ذوق مستمعيه وتجعل موضوعه ذا وحدة معلومة واتجاه معلوم. وأفادت صفة التراجيدي الثانية كذلك في ترقية هذا الفن، إذ بمشاركة المجتمع فيها دخل فيها عنصر التنافس بين المؤلفين، فكانت الروايات تُقام مثلاً في كل ربيع وكان يجري فيها نوع من الاختيار بتصويت الجمهور ومنح الجائزة لمن يحوز على رضا الجمهور. وكانت تمنح جائزة أخرى لجماعة المغنين، ويشترك في هذه المناسبات مئات من الجمهور وتكون التراجيدي

---

(1) كلمة تراجيدي (Tragedy) إغريقية ولا يعلم بوجه التأكيد أصل اشتقاقها ويظن أنها مركبة من الكلمتين الإغريقيتين (Tragos) أي عنزة و(Ode) أي أغنية، ولعل ذلك ناشىء من لبس الممثلين جلد العنزة في أثناء الرواية لتمثيل الإله «ساتير» (Satyr) الذي تمثل أجزاء من جسمه بهيئة العنزة.

وكذلك الكوميدي على ذلك بمثابة ناد للتمثيل اهتم بترقيته وليس في الإنتاج التجاري. فكانت الروايات تهدف إلى المثل العليا للجمهور. فإذا أراد مؤلف أن تنجح روايته فيجب عليه أن يودعها هذه المثل ويمثل فيها رغبات الشعب وعقائدهم وحاجاتهم وآمالهم. أما الناحية الموسيقية فيها فقد جعلتها أشبه ما تكون «بالأوبرا» ولنقل إنها مثل «الأوبرا» المعروفة باسم «برسيفال» (Parsifal) لمؤلفها «واجنر» الشهير حيث تشترك فيها الموسيقى والكلام والغناء والتمثيل.

ولنأخذ الآن أشهر شعراء التراجيدي عند اليونان:

إيسكيلوس:[1] (525 ـ 455 ق.م)

وكان هذا هو الذي أدخل ممثلاً ثانياً[2] بالإضافة إلى الممثل الأول[3] (أي الذي سميناه بالقصاص). وامتازت رواياته القديمة بقلة التمثيل وكثرة غناء المغنين، ولكن حقق في رواياته الأخرى التالية التناسب بين التمثيل والغناء[4]. ومما يقال في «إيسكيلوس» إنه مثل الشاعر «بندار» يمثل العهد القديم، فإنه يمتاز بمزاج ديني فهو طالما «فسر الشقاء والبؤس بأنها نتيجة للذنوب والآثام».

سوفوكلس: (Sophocles) (496 ـ 406 ق.م)

وقد خلف (إيسكيلوس) ويمتاز عليه بتقدم فنه التمثيلي، وقد أضاف إلى رواياته ممثلاً ثالثاً فزاد عامل التمثيل وامتاز في حَبْكِ مواضيع رواياته فزادت قابليته «الدراماتيكية». ولكن يكمن سر عبقريته ومجده الفني بتفسيره عاطفة

---

(1) (Aeschylus).

(2) (Deuteragonist).

(3) (Protagonist).

انظر Wil Durant; The Life of Greece, 383 ff.

(4) ونجد ذلك جلياً في روايته المشهورة (Prometheus Boud) وروايته آغا ممنون (Agamemnon). والمشهور أنه ألّف سبعين دراما (ويروى تسعين)، لم يأت إلينا منها سوى سبع روايات.

الإنسان وميوله على ضوء الخبرة البشرية الواسعة العامة. وهذه في الحقيقة أعظم ميزات الأدب الكلاسيكي. فلم يعن هذا الشاعر وغيره بفرد خاص من الناس وفي حال معيّنة خاصة من الحياة البشرية ولكن بالإنسان مطلقاً، أي البشر جميعاً وفي أحوال عامة تحدث لجميع الناس والبشر. فمواضيع «سوفوكلس» مثلاً مواضيع المأساة العامة الخالدة التي تحدث في هذه الحياة لبطل الرواية لضعف أو نقص فيه، وهو شخص نبيل كريم لولا هذه النقائص في شخصيته، ولكن يكمن وراء كل ذلك سر القدر ولغزه. ويشبه هذا الشاعر سلفه «إيسكيلوس» في نزعته الدينية، فكان دأبه وديدنه تبرير أعمال الآلهة بالنسبة للإنسان. وعلى ذلك فتكون أغراض رواياته أخلاقية بالدرجة الأولى ترمي إلى إظهار قيمة الصلاح والعدل والفضيلة وهذه أمور كانت لدى الأثينيين مرادفة للجمال كذلك أو أنها لا تتضارب مع الجمال وبذلك حقّق «سوفوكلس» في رواياته دمج الفضيلة بالجمال. وقد أحبه الأثينيون حتى أنه نال الجائزة الأولى والثانية ثماني عشرة مرة وقد غلب الشاعر «إيسكيلوس» وهو في سن الثامنة والعشرين.

ومن رواياته المشهورة عدا ما ذكرنا «الملك أوديبوس»[1] (أوديب).

يوريبيدز: (Euripides) 480 ـ 406 ق.م):

وكان هذا معاصراً للشاعر سوفوكلس. وهو أول من عبر عن التيارات الجديدة والاتجاهات الحديثة في حياة الأثينيين التي كانت تتجه بالدرجة الأولى إلى المذهب الواقعي والعقلي[2] فلم يحظ بالشهرة الشعبية كما كان عليه الشعراء الأقدمون، فكان أقرب إلى الحياة العصرية الحديثة من أسلافه الذين خالفهم بأن عني بتمثيل عواطف أشخاص حقيقيين، وأنزل أبطال رواياته

---

(1) (Oedipus Rex) و(Oedipus Tyranus) وتدور هذه الرواية على الأسطورة الإغريقية في قتل أوديب أباه وتزوجه بأمه وقد اشتقت من اسم «أوديب» العقدة النفسية عند أصحاب التحليل النفسي في علم النفس. والمأثور عن سوفوكلس أنه كتب 113 رواية لم يأتنا منها سوى سبع روايات.

(2) (Realism) و(Rationalism).

إلى منزلة الناس الحقيقيين الذين كانوا في زمنه حتى وجد أوساط الناس وجمهورهم محلاً لهم في رواياته ولا سيما في وصفه النساء وتحليلهن، وقد أظهر في هذه الناحية مقدرة في معرفة النفس البشرية. وإذ كان إيسكيلوس وسوفوكلس ذوا نزعة دينية وعقيدة راسخة بالآلهة كما يظهر ذلك في إظهار أقدارهم المقدسة في حياة الناس، فقد كان عقل يوريبيدز وقلبه قد تملكتهما الشكوك والريب. فلم ير الحياة كما رآها سلفاه بسيطة مطردة مفهومة. وقد أثار الفلاسفة ولا سيما السفسطائيون منهم الشكوك بين الناس وكانت المسائل التي أثاروها تتطلب حلولاً عقلية مستمدة من تجارب الإنسان وحياته ومعارفه وليس من قضاء الآلهة وقدرها. ولذلك امتازت روايات يوريبيدز بتعقيدها في تحليل الحوادث وبتعدد نواحيها وأوجهها مما جعلها عصرية حديثة. ومن موضوعاته المحببة له الصراع المحتدم في داخل الفرد، صراع الحب والعاطفة، وصراع الحب والإخلاص والحب والواجب وكان بمثابة فولتير في عصر التنوير الإغريقي، وتأثر بتعاليم السفسطائيين واشتهر بإدخاله إلى فن المرسح ما يُعرف باسم «الإلٰه من الماكنة» (deux ex machina) أي إدخال شخصية تمثل الإلٰه لحل بعض حوادث الرواية وليضفي التدين والاعتقاد بالآلهة في رواياته، مغطياً بذلك على سخريته وازدرائه بمعتقدات القوم بالآلهة. وقد استطاع سقراط أن يجد حلولاً لشكوكه قبل أن يوافيه الأجل[1].

د ـ الكوميدي:

منشأ الكوميدي الإغريقية مثل «التراجيدي» من الأعياد الدينية ولا سيما الشعائر الدينية المصحوبة بالرقص والتمثيل الخاصة بالإلٰه «ديونيسوس». ولكنها نشأت بعد التراجيدي، ولذلك فبالرغم من أخذها شيئاً كثيراً من طرق التمثيل القديمة فإنها فقدت جميع العناصر الدينية فيها وصارت روايات انتقادية هزلية للتسلية والمتعة. وقد اعتاد المؤرخون على تقسيم تأريخ الكوميدي

---

(1) تنسب المآثر إلى يوريبيدز أنه ألّف (75) رواية لم يأت إلينا منها سوى (18) رواية. انظر Wil Durant, Op. Cit., 401 ff.

الإغريقية إلى ثلاثة عهود: الكوميدي القديمة (إلى 400 ق.م). والكوميدي الوسيطة (400 ـ 336 ق.م) والكوميدي الحديثة (336 ـ 250 ق.م) ولعل أبرز ما تمتاز به الكوميدي القديمة سلاطة سخريتها وبذاءتها وابتذالها وإسفافها إلى هزل الغوغاء، وكانت تتّسم بطابع أعياد السكر والعربدة التي نشأت منها وقد وجهت السخرية والانتقاد إلى شخصيات معروفة ومشهورة لدى الجماهير ولكنها اتسعت أغراضها الانتقادية فشملت جميع الآراء السياسية والفلسفية في زمنها ومن ناحية الفن آل تطورها إلى تمثيلية موسيقية، وكان من مشاهير عهد الكوميدي القديمة «أرستوفانيس» (445 ـ 388 ق.م) الذي جاءنا من رواياته الأربعين إحدى عشرة رواية، وتدور رواياته على الانتقاد الهزلي والسخرية، ولكنها لا تنتهي بهذا الغرض وإنما كان يحمّلها من الصناعة اللغوية الشيء الكثير ولم يكن لهزله وسخريته حدود تقف عندها حتى أنه طالما نعت بالكاتب البذيء، ولكن تتوقف هذه الصفة في الواقع على أذواق أهل الجيل ومشاربهم التي تتغير من عهد إلى عهد. وفي رواياته ميزات أخرى خاصة ظاهرة أهمها النقد اللاذع القوي المنصب على الناس وعلى العادات ويظهر ذلك جلياً في سخريته من الأوضاع السياسية في دولة أثينا في عهده في أثناء الحروب البيلوبونيسية حتى أنه جعل السلم يحلّ في إحدى رواياته بنتيجة إضراب النساء عن أزواجهن وامتناعهن عنهم وقد كانت رواياته الأخيرة انتقالاً إلى الكوميدي من العهد المتوسط حيث حدثت في هذا الفن تغييرات أبرزها التقليل من أدوار المغنين ولعل ذلك قد نشأ بنتيجة اندحار أثينا في حربها مع إسبارطة (404 ق.م) وحذف الانتقاد الشخصي وقد حدث ذلك بقانون حرم السخرية من أشخاص معينين، ثم انتظام الموضوع ووحدته، ومما يؤسف له أنه لم يخلف لنا شعراء الإغريق نماذج من رواياتهم الكوميدية في هذا العهد وكذلك الحال في الكوميدي الحديثة ويمثل روعة الكوميدي الحديثة الشاعر «ميناندر»[1] (342 ـ 291 ق.م) ولكن سبيلنا للتعرف على رواياته من تقليد شعراء الرومان

(1) (Menander).

لها من أجزاء أصلية اكتشفت حديثاً. ولعل أول شيء نلاحظه الذوق الرفيع والأناقة ودقة الملاحظة في فهم أوضاع المجتمع وفهم الطبيعة البشرية مع العطف عليها واحتذت على مثاله أوروبا في عهد النهضة أولاً في إيطاليا ثم في فرنسا (كما في روايات موليير) وبالتالي في أوروبا جميعها وفي أمريكا كذلك.

العلم والفلسفة والتاريخ:

أ ـ العلم:

لقد سبق أن نوّهنا بفضل الإغريق على البحث العلمي الحديث بجمعهم حقائق ومجموعات من المعارف وتنظيمها وسوق العلل لتفسيرها، وقد استفاد الإغريق كثيراً من المعارف والمعلومات الكثيرة التي وصلت إليها حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل.

كان الإغريق الأقدمون البدائيون يصفون الظواهر الطبيعية بلغة الأساطير وكانوا يعزون جميع ما يحدث في الكون وهم مدفوعون بالشعر والخيال إلى أفعال الآلهة نفسها مباشرة دون أن تنتج عن أسباب صادرة منها. إلّا أن الإغريق الأيونيين كانوا، بسبب قربهم من مراكز الحضارات القديمة، أول من خطا خطوات أخرى وتعدى دائرة الأساطير في تعليل حوادث الطبيعة وظواهرها وقد عاش في مدينة «مليطس» في حدود 600 ق.م. جماعة من المفكرين أولهم طاليس المشهور الذي شغل تفكيره بالبحث في المادة وفي جوهر الأشياء. وقد جهد هؤلاء المفكرون في تفريد مادة عامة وتجريدها من بين جميع الموجودات وجعلها المادة الأولى في تركيب الأشياء وفي تفسير اختلافاتها وتغيراتها. فرأى طاليس في عنصر الماء هذه المادة الأولى. ولكن نظرية العنصر الواحد هذه فنّدها مفكّر محدث هو «أمبيدوقلس» الذي قال بنظرية العناصر الأربعة: أي التراب والهواء والنار والماء لتفسير الظواهر الطبيعية المختلفة وقد اعتقد في هذه العناصر الأربعة أنها غير مشتقة أي بسيطة لا تفنى ولا تتغير من حيث الكيف، ولكن لها قابلية الانقسام الميكانيكي

والحركة فتستطيع أن تغيّر في نسبها وتركيبها. وتتألف الأشياء من هذه العناصر البدائية بنسب مختلفة وتفنى الأشياء بانفصال هذه العناصر بعضها عن بعض.

وقد نشأ عن هذه النظرية بمرور الزمان النظرية الذرية التي قال بها بعض فلاسفة الإغريق ولا سيما «لوسيبوس» و«ديموقريطس»، وأساسها الاعتقاد بوجود عدد غير محدود من الجزئيات غير المرئية تسمى ذرات (Atoms) تتحرك في فراغ غير محدود. وتتّحد هذه الذرات لتكوين الأجسام والأشياء الموجودة في الكون. فالشيء ليس إلّا مجموعة من الذرات. وتتّصف هذه الذرات بتشابهها وعدم اختلافها من حيث الكيف ولكنها تختلف من حيث الحجم والشكل وأن هذه الفروق الكمية في المادة الأولى كانت عند الفلاسفة الذرين كافية لتفسير أنواع الأشياء والموجودات التي لا حصر ولا عدّ لها ومن بينها الشعور والفكر والنفس. ولعل هذه النظرية الذرية أقرب ما وصل إليه العلم الحديث من جميع النظريات التي قال بها فلاسفة الإغريق في تفسير الظواهر الطبيعية ولكن مع ذلك كان في نظريتهم نزعة ميتافيزيقية أكثر من النزعة العلمية. ويعزى ذلك إلى أن هؤلاء العلماء الإغريق لم يحققوا نظرياتهم وفرضياتهم بالاختبار والامتحان ولذلك فكان علماؤهم فلاسفة وظل علمهم فلسفة محضة.

ولما كان العلم والفلسفة شيئاً واحداً تقريباً عند مفكري اليونان فإننا سنقف من كلامنا عن بعض فلاسفتهم على بعض الأمور المهمة مما وصل إليهم هؤلاء المفكرون في حقل العلوم والمعارف. ولكننا نذكر هنا شيئاً موجزاً عن العلوم الرياضية في الحضارة اليونانية. ولعل أول شيء بارز في تأريخ الرياضيات عند اليونان ما سبق أن ذكرناه في الكلام عن الرياضيات في حضارة وادي الرافدين من أن عبقرية اليونان تفرّدت بالشكل (الهندسة) دون العدد بخلاف الرياضيات في وادي الرافدين التي بدأت بداية جبارة واتجهت الاتجاه الصحيح، ولكن حيد الإغريق عن هذا الاتجاه الصحيح كان في الواقع انتكاساً في سير تطور الرياضيات، مع أن المرجح كثيراً أن اليونان وقفوا على

تراث البابليين في الجبر، ولكن الحضارة اليونانية ـ الرومانية لم تهتم بالجبر إلّا في القرن الثالث للميلاد على يد بعض رياضيي اليونان مثل «ديوفانتوس» (ديوفنطس). والذي يعجب له أنه حتى الذين اهتموا منهم بالعدد مثل الفيثاغوريين لم ينظروا إلى العدد نظرة علمية واقعية بل نظرة تقديس أو نظرة صوفية. ومع هذه النقائص فللإغريق فضل كبير في تطور المعارف البشرية لا سيما في بحثهم المنظم واهتمامهم بالبرهان والتدليل ووضع القواعد والنواميس العامة مما يميِّز منهج العلم الصحيح، ويتجلى ذلك في هندستهم ونظرياتهم الهندسية وأنهم مع احتمال أخذهم الكثير من الحقائق الهندسية من حضارات الشرق القديم إلا أنهم برهنوا على هذه الحقائق وحققوها ووضعوها بهيئة قواعد عامة.

ب ـ الفلسفة:

ومما تجدر ملاحظته أن كلمة العلم (Science) ليست من أصل يوناني. فقد أطلق المفكرون اليونان الذين بحثوا في الأشياء وفي أصلها وفي العناصر الأولى على بحوثهم اسم «الفلسفة»، وهي كلمة يونانية مركبة تعني «حب الحكمة»[1]، وبذلك كان «حب الحكمة» هذه أي الفلسفة عند مفكري اليونان يشمل البحث في الظواهر الطبيعية الذي ندخله في العصر الحديث في دائرة العلم، أما التفكير والنظر في تجاريب البشر وحياتهم وفي الغايات والعلل الأصلية فندعوه الآن فلسفة. ولذلك ينبغي لنا أن نفهم من الفلسفة الإغريقية

---

(1) تنسب المآثر إلى فيثاغورس (الذي أسس جمعية أو أخوة فلسفية في جنوبي إيطاليا في منتصف القرن السادس ق.م) أنه أول من استعمل مصطلح فلسفة. وأصل نشوء هذا المصطلح من رأي اليونان في أن الإنسان يحتل مركزاً وسطاً بين الله والحيوان. فبالقياس إلى الآلهة يكون مجرد مخلوق معرّض للخطأ والضلال والموت والفناء، ولكنه بالمقارنة مع الحيوانات ذو مركز رفيع مستعد للفهم والإدراك وبما أن الإنسان معرّض للخطأ والضلال فيستحيل عليه إدراك «الحكمة» (Sophia) بكامل معناها، لأن ذلك خاص بالله وحده. ولكنه مع ذلك فإذا لم يستطع أن يكون حكيماً فبإمكانه أن يكون محباً للحكمة أي (Philo-Sophus) متمثلاً بالله بقدر الإمكان كما يقول أفلاطون في «طيماؤس» (The Legacy of Greece, 27).

هذين الشيئين وهما البحث في ظواهر الطبيعة الذي بدأ به الفلاسفة الأيونيون مثل طاليس وغيره وكذلك البحث في القضايا الخاصة بأصل الحياة ومعناها، وهي القضايا التي كان أول من عني بها جماعة من المفكرين عرفوا بالسفسطائيين. وبالإجمال كان مفهوم الفلسفة لدى اليونان جهوداً جدية رزينة من جانب المفكرين لفهم العالم والإنسان وهدفها الرئيسي اكتشاف الطريق الصحيح في العيش والحياة وحمل الناس على السير فيه. وكان الفلاسفة السفسطائيون في القرن الخامس ق.م. أشبه ما يكونون بمحاضرين جوالين يجوبون في جميع بلاد اليونان، فيقفون في الأسواق وفي المواضع الأخرى التي يجتمع فيها الناس ويخطبون بالجماهير في شؤون تشغل بالهم مثل النفس أو الروح والسعادة والحياة وما بعد الموت. وكانوا إلى ذلك يعلمون الخطابة والبحوث السياسية. وظهر أخيراً مفكّر أثيني لم يتجول كما فعل السفسطائيون وقد عمل على توجيه آراء السفسطائيين المشوشة إلى ناحية مثمرة من البحث هي قضية السلوك والفضيلة وعلاقة المواطن في الدولة والناس. وهذا هو سقراط الذي سنأخذ موجز ترجمة حياته.

ومن الممكن تقسيم تأريخ الفلسفة اليونانية إلى ثلاثة عصور متميزة يتجلى فيها تدرج تطور الفكر اليوناني. وقد شغل الإغريق أنفسهم في أقدم هذه الأطوار بالنظر في الكون، وفي الطور الثاني النظر في الإنسان نفسه وامتاز الطور الثالث بالبحث المنظم.

أما الطور الأول فيتضمن تأريخ المفكرين اليونان قبل سقراط. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى فلاسفة هذا الطور بصفتهم علماء فلنأخذ عنهم بعض الأمور الأخرى، فقد شغل المفكرون الأوائل نشاطهم في النظر في الطبيعة ودرس قضاياها ومسائلها، وبدؤوا في العالم الخارجي من مسائل الطبيعة والفلك والجغرافية ولا سيما الظواهر الأساسية. وكان من بين القضايا الدائمة التي شغلت الفكر البشري مادة الأشياء الأولى أو جوهرها الذي تتألف منه جميع الأشياء وترجع إليه جميع الأشياء وقد رأينا كيف شغلت هذه القضايا فكر

الإنسان وظهرت في حضارات وادي الرافدين ووادي النيل. فبحث فلاسفة اليونان الطبيعيون فيما قبل سقراط عن أساس الأشياء الذي لا تطرأ عليه التغييرات والتقلّبات وتتكوّن منه هذه الأشياء المختلفة في مظاهرها. وقد سألوا أنفسهم: ما أساس الأشياء وجوهرها الذي يبقى مع كل التغييرات العارضة؟ وكيف يتحول ذلك الأساس إلى تلك الأشياء؟ وكيف تتحول الأشياء وترجع إليه؟ وقد اتجه الفكر اليوناني دائماً إلى تصور أن هذه الكثرة الوفيرة من الأشياء التي يتكوّن منها العالم المنظور إنما تتألف جميعها من أصل وجوهر هو أصل الأشياء فبحث فلاسفة اليونان الأولون في أصل الأشياء وأجابوا على تلك الأسئلة بأسلوب لا تدخل فيه الأساطير والعلل السماوية. وقد رأينا كيف عبّر المفكرون الأقدمون في وادي الرافدين عن أصل الكون بالأساطير وقالوا بنظرية العناصر الأربعة تقريباً، وكان معظم الفلاسفة اليونان من الطور الأول يعيشون في «أيونية» في ساحل آسيا الصغرى الغربي. وبالرغم من أن أجوبة هؤلاء كانت ساذجة إلا أنها تمثل مرحلة مهمة في مراحل الفكر اليونان. فقد رأينا كيف أن طاليس (585 ـ 550 ق.م) أجاب على تلك الأسئلة بأن رأى في الماء مادة الأشياء الأولى، ورأى فيلسوف آخر اسمه «انكسمينيس» (590 ـ 500 ق.م) أنها الهواء، وامتاز عنهما «انكسيمندر» (610 ـ 545 ق.م) بأن فكر في أن مادة الأشياء الأولى يجب أن تكون شيئاً يختلف عمّا نعرفه من صور المادة، ويجب أن يكون غير محدود ولا معين، تتكوّن منه بعض الأشياء المحدودة مثل النار والهواء والماء والتراب. ومن هنا يتّضح لنا أن مرحلة الأساطير قد انتهت وأن الإنسان لم يشغل نفسه بالسؤال عمّن خلق عالم الأشياء وإنما بدأ يوجّه فكره إلى سؤال آخر وهو ما الأساس الذي تتكوّن منه الأشياء وقد رأى بعض هؤلاء المفكرين ولا سيما «انكسمينيس» أن الطريقة التي تتحول فيها المادة الأولى إلى الأشياء المختلفة هي طريقة التمدّد والتقلّص. وأرجع هؤلاء المفكرون أصل جميع الأشياء إلى أصل مادي وإلى طريقة مادية وأن المادة أزلية تتّصف بالحياة، فقد عدوا جميع الأشياء تتركب من مادة ليست ميتة جامدة بل مادة حية.

وقد أدخل فيثاغورس (570 ـ 500 ق.م) ومدرسته مبدأ ورأياً جديدين في طبيعة أصل الأشياء أو المادة الأولى التي تتألف منها الأشياء. فكان هو وأتباعه يؤكدون على صور الأشياء دون المادة، وكانوا يرون أن هذه الصور وليس المادة هي الحقيقة الثابتة في هذه الأشياء. وقد أداهم درسهم الموسيقي إلى اكتشاف مبدأ التناسب أو النسبة. فطبقوا هذه الفكرة في حقول ومواضيع أخرى فصحة الجسم مثلاً عدوها نتيجة من تناسب معين بين صفات الجسم الأساسية (كالحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة)، فإذا تغير التناسب فيما بينها إلى تناسب آخر نشأت العلل والأمراض. وبتطبيق هذا المبدأ على أصل الأشياء رأوا أن مبدأ الأشياء وجوهرها يجب البحث عنه في الصور المختلفة لهذه الأشياء. وعبّروا عن هذه الفكرة بما أوثر عنهم من أن «جميع الأشياء أعداد». وكان من السهل مطابقة الأعداد بالصور والأشكال في تلك الأيام، لأن الأعداد كانت تمثل في الغالب بنقاط وأشكال تترتّب في أشكال هندسية معيّنة، فكان من السهل تعيين الوحدة العددية بنقطة أو شكل. فمن الممكن تحليل الخطوط إلى نقاط والسطوح المستوية إلى خطوط والأجسام إلى سطوح مستوية، أي إن النقط تكوّن الخطوط والخطوط تكوّن المستويات وهذه تكوّن الأجسام، وهكذا فإن جميع الأشياء مؤلفة من الأعداد لأن الوحدة في الأعداد (أي الواحد) هو النقطة بعينها.

لقد أسّس المدرسة الفيثاغورية في جنوبي إيطاليا لاجىء أيوني بعد استيلاء الفرس على «أيونية». وقد ملأ غزو الفرس لأيونية الإغريق بنوع من الشعور الديني بنتيجة ما لاقوه من الاضطهاد، وكانت المدرسة الفيثاغورية أشبه ما تكون بأخوة دينية مؤسسة على آراء فلسفية. وكان هناك جماعة أخرى من الفلاسفة في جنوبي إيطاليا هم الإيليون (نسبة إلى إيليا وهي مستعمرة إغريقية)، واشتهر من هؤلاء «زينوفانيس» (570 ـ 480 ق.م) الذي هاجم ما كان يتصوره الناس عن الآلهة وكيف كانوا يرون فيهم كصور البشر، وقد اشتهر بقوله المأثور: «يعتقد البشر بأن الآلهة جاءت إلى الوجود كما جاؤوا هم أنفسهم، وأن لها جوارح وأصوات وأجساماً... ولكن لو كان للثيران أو الأسود

أيدي، لرسمت النيران الآلهة مثل الثيران وجعلت الخيول الآلهة خيولاً مثلها». وقد كان هذا المفكر يخالف آراء زمنه في فكرة التشبيه أي الاعتقاد بأن الآلهة مثل البشر وكذلك عارض فكرة الشرك أي تعدد الآلهة، واعتقد «بإله واحد عظيم لا يشبه البشر في جسمه أو في فكره» وعلى ذلك فيكون هذا أول موحد في الغرب، وينسب إليه أرسطو فكرة الحلول وله القول المأثور «الكل واحد، والواحد هو الله». وقد شارك في آراء هذا الفيلسوف مفكرون آخرون من أهل «إيليا».

وعلى النقيض من «الإيليين» كان «هرقليطس» (540 ـ 475 ق.م) لا يرى وحدة الأشياء بل كثرتها وتنوّعها وتغيرها الدائم، ولكنه اتفق معهم في أزلية المادة الأولى. وقد تصور حدوث دورات كونية من التغير، حيث تبدأ كل دورة وتنتهي بكتلة نارية. ولعل أثمن شيء في تعاليم «هرقليطس» ما يعتقده من الانتظام في الظواهر والوقائع الطبيعية. فيقول إن جميع التغيرات تحدث وفق قانون. وإن هذا الانتظام في ظواهر الكون وتغيراته عنده دليل على وجود «عقل أو سبب عام» إما أنه موجود في طبيعة المادة الأساسية أو أنه يسير إلى جانبها. وقد اتسع مبدأ التنوّع والكثرة على يد فيلسوفين آخرين هما «أنكساغوراس» (500 ـ 428 ق.م) و«أمبيدوقلس» (483 ـ 430 ق.م) الذي يعزى إليه أنه أول من قال بنظرية «بقاء الأصلح» وانتهى أمره إلى النظرية الذرية الخاصة بديموقريطس (460 ـ 370 ق.م)، فكان الأولان يريان أن المادة الأولى ليست من جوهر واحد بل من مجموعة من «البذور» أو «الجذور» تتكون من اتحادها الأشياء. وهذه البذور أو الجذور التي تتكون منها جميع الأشياء معروفة عندنا بنظرية العناصر الأربعة ـ أي النار والهواء والماء والتراب. وقد أورد «أنكساغوراس» مبدأين لتكوين الأشياء من اتحاد هذه العناصر الأربعة وانفصالها وهما مبدأ الجذب والدفع (أو الحب والبغض كما سماها).

والظاهر أن النظرية الذرية قد أوجدها أولاً «الوسيبوس» (500 ـ 430

ق.م) ولكنها تعزى عادة إلى تلميذه «ديموقريطس» الذي لقّب بسبب ذلك «بأبي الفيزياء» كما يصحّ القول إنه مؤسس الفلسفة المادية. ويرى هذا أن الحقائق الثابتة في تركيب الأشياء هي «الذرات» (Atoms) و«الفراغ» وتختلف الذرات في الحجم والشكل، وتتكوّن الأجسام المركبة جميعها منها. أما الفروق الموجودة في الأجسام المركبة فمنشؤها اختلاف الذرات المكوّنة منها من حيث أشكالها وحجومها ومن حيث وضعها وترتيبها في تركيب تلك الأجسام. واعتبر الذرات بوجه عام وكأنها حروف الهجاء في سفر الكون. وأن هذه الذرات ليست ثابتة بل تتّصف بالحركة وتتحرك في جميع الاتجاهات فتصطدم بعضها ببعض وتتّحد بعضها ببعض وتؤلف أجساماً مركبة، وتصطدم هذه الأجسام المركبة بعضها ببعض فتتحول إلى ذرات منفصلة. وبوجه الإجمال حاولت هذه النظرية تفسير الكون تفسيراً مادياً ميكانيكياً صرفاً. أي تفسيراً يدور على المادة والحركة. أما صفات المادة الثانوية من لون وذوق الخ فهي بحسب هذه النظرية أمور مصطلح عليها تتكون بالمران أي إن الإحساسات مجرد تعويد ومران، والحقيقة الوحيدة في وجودها هي الذرات. ونشأ عن ذلك نوعان من الصحة أو الحقيقة: فهناك حقيقة مصطلح عليها وحقيقة موضوعية ثابتة. وقد أخذ هذه الفكرة الفلاسفة السفسطائيون، وفسرت فلسفة «ديموقريطس» الروح بأنها أيضاً نوع من جماع الذرات اللطيفة الدقيقة الملساء، وتتولد ظواهر الحياة وفعاليتها عن حركة هذا النوع من الذرات. لقد أخذ هذه الفلسفة الأبيقوريون وتأثر بها الرواقيون أيضاً، ولكنها أخذت تفقد مكانتها بسبب اصطدامها بفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وظلت كذلك في العصور الوسطى ولكنها بعثت من جديد منذ عهد النهضة الأوروبية الحديثة بتأثير العلوم الطبيعية فظهرت بوادرها في فلسفة ديكارت وبيكون و«هوبز».

الطور الثاني من الفلسفة والسفسطائيون:

لقد نتج غزو الفرس لـ «أيونية» تشتيت الفلاسفة الأيونيين وانتشار الاهتمام بالفلسفة كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق. ونتج انتصار الإغريق على

الفرس نتائج أبعد من ذلك. فقد سبّب ذلك الانقلاب العظيم روحاً غير مستقرة ولا قانعة في الأحوال والأوضاع الجارية ولا سيما في الآراء والمعتقدات وأيقظت روحاً جديدة اتجهت إلى الاهتمام بالمعرفة، وكان ذلك الطور الثاني في تأريخ الفلسفة اليونانية، حيث بدأ الفكر اليوناني يتحول إلى البحث في الإنسان نفسه، وصارت أعمال الإنسان موضوع البحث، وأغفل النظر في العلم الطبيعي الذي كان فيما سبق موضوع الفلسفة بل اتجه البحث إلى قوى الإنسان الباطنية، فبحثوا في القوى المفكرة وقوة الإرادة، أي الفكر والإرادة، ونشأت في عقول المفكرين مسألة جديدة فيما يتعلق بالمعرفة البشرية وثبات حقائق الأشياء، والصواب والحق والخير وهل هناك حق أو صواب أو خير قائم بنفسه لا علاقة له بآرائنا الشخصية. وظهرت في هذا الطور الذي يصحّ أن نسمّيه بالعصر الإنساني، القضايا الأخلاقية والمنطقية والنفسية «السيكولوجية». واشتهر في هذا العصر السفسطائيون. وكان هؤلاء صنفاً من المدرّسين المحترفين الذين استجابوا إلى حاجة العصر الفكرية. ومعنى اسمهم «الحكماء»، وقد عملوا على نشر الثقافة العامة، ونشأ عن نقدهم للآراء والمعتقدات السائدة أن اتجه المفكرون الآخرون إلى البحث في قضايا الحياة البشرية، وهم الذين قالوا بالتمييز بين القيم الحقيقية وبين القيم بحسب ما نصطلح عليه أي بحسب آرائنا الشخصية. ويعزى إليهم القول المشهور «إن الإنسان مقياس جميع الأشياء». وهذا في الواقع سبق مبدأ الفلسفة الحديثة المعروفة بفلسفة الذرائع أو «البراغماتية» في قولها بنسبية الحق والصواب والخير بالنسبة إلى حاجات الإنسان العملية، وقد صارت أثينا في هذا العهد مركز الفلسفة الإغريقية التي وصلت إلى ذروتها وأوجها في عهد ثلاثة من عباقرة مفكريها وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وسنأخذ موجز تراجمهم.

الطور الثالث من الفلسفة:

بإمكاننا أن نعد الطورين الأولين من تأريخ الفلسفة اليونانية مقدمة لأعظم رقي حدث للفكر اليوناني، وقد ظهر هذا الرقي في الطور الثالث، وهو عصر

البحث المنظم، وبلغ أوجه في عهد الفلاسفة العظام الذين ذكرناهم. ففي الطورين الأولين أي طوري البحث في الكون والإنسان كان بحث الفلاسفة مقصوراً على عدد محدود من المسائل. ولكن اتسع البحث في الطور الثالث فشمل قضايا كثيرة منها قضايا النفس والطبيعة وقد استفاد عظماء هذا الطور من المعارف التي وصل إليها من سبقهم، وامتاز بحثهم في الأشياء بالمنهج العلمي. ويعدّ أرسطو خاتمة نضج الفلسفة اليونانية وفاتحة عصر العلوم التي تميّزت وتفرّعت حيث تخصص كل علم منها لبحث خاص مما لم يعرفه اليونان في عصورهم الأولى بل كانت موضوعات العلوم ممتزجة بعضها في بعض، كما كان العلم والفلسفة شيئاً واحداً. ولنأخذ تراجم مشاهير هذا الطور:

سقراط (470 ـ 399 ق.م):

هجر هذا المفكر بحوث الأيونيين العلمية ولعله لم ير فيها حاجة الزمان ومتطلباته. بل إنه وجه بحثه إلى الأخلاق ولا سيما قضايا مهمة مثل الصلاح والحق والجمال والأمانة والعدل. فقد رأى أنه إذا لم يتحلّ المواطنون بهذه المبادىء الفاضلة فإن الدولة تنهار حتماً، ولكن ينبغي للناس قبل أن يسلكوا بالسلوك الفاضل أن يتحلوا بالمعرفة وكانت طريقة سقراط التحليل المنطقي للأضداد بطريق السؤال والجواب حيث يمكن إظهار الزائف الباطل ونبذه وتبقى من بعد ذلك الحقيقة.

ومما يجدر ذكره عن سقراط أنه ناوأ السفسطائيين الذين رأيناهم ينكرون جميع الأشياء الثابتة ويقولون بأن الباطل والحق والخير والشر وما إلى ذلك من القيم إنْ هي إلّا أمور نسبية أي بالنسبة إلى الفرد. فحارب سقراط هذا الخطر وقرر أن هناك حقائق ثابتة لا نسبية فالخير ما طابق الخير في الواقع وليس ما اعتقده الفرد خيراً. ثم إن سقراط خطّأ السفسطائيين بما كانوا يرونه من أن الحواس وحدها هي سبيلنا لإدراك الأشياء فأبان أن التأمل والتفكير هما كذلك سبيلنا للمعرفة، وأن عمل الحواس هو إدراك الجزئيات لا الكليات التي لا يدركها إلّا العقل.

ومما يؤثر عن سقراط ما قلناه من أنه وجه الناس إلى النظر في الإنسان وفي نفس الإنسان بعد أن كان همُّ الفلاسفة مقصوراً على النظر في العالم الخارجي. وإليه ينسب القول المأثور «اعرف نفسك».

لقد جذب سقراط إلى جانبه حشداً من الشباب الموهوبين من جميع الطبقات وكان سبيله نبذ كل شيء والشك في كل شيء لا يخضع للعقل والفكر ليحرر العقل البشري من عبء الخرافات والترهات ويبني الحياة، كما كان يعتقد، من جديد على أساس العقل والفكر. وكان هذا في الواقع تحدياً يتّصف بالأصالة وقد دوى صوته في جميع العصور والأزمان ولم يحرم من تابعين مناصرين. ولكن عرضته تعاليمه هذه إلى سخط المحافظين من أبناء مدينته الذين عدوها خطرة. إذ رأوا في تحديد علاقات الإنسان بالإنسان وبالمجموع على أسس العقل إنكاراً لأفعال الآلهة وسلطاتها. ومما عجل المأساة التي حلّت بسقراط اندحار أثينا في حربها مع إسبارطة (404 ق.م) فهاج كثير من المحافظين الذين علم سقراط أبناءهم وعزوا إليه إفساد الشباب وحملوه بأنه هو سبب النكبة التي حلّت بأثينا لتعاليمه المتّصفة بالكفر وإنكار سلطان الآلهة. فرمي بالخيانة العظمى وحوكم فحكم عليه بالموت في حدود 399 ق.م. وقد تناول بيده السم.

أفلاطون (427 ـ 347 ق.م):

أشهر تلاميذ سقراط وكان من عائلة مثرية مشهورة في أثينا، فكان من البديهي أن يطمح بالاشتراك في حكم الدولة. ولكن زمنه كان عهد الديمقراطية الأثينية أي حكم الجمهور أو «الرعاع» فكان يقتضي من أفلاطون مداراة الشعب وكسب ثقته لينال حصة في الحكم ولكنه كان يأنف من ذلك. فأتجه إلى ناحية أخرى من الحياة، إلى البحث والدرس والفلسفة تحت إرشاد معلمه سقراط. ومما امتاز به سقراط أنه اقتصر في بث تعاليمه على التلقين والرواية الشفهية ولم يعن بتدوينها على نحو ما يفعل أغلب المؤلفين الطامحين في تخليد ذكرهم وقد فعل أفلاطون مثل معلمه بأن صار يعلم شبان أثينا في مدرسة

أسسها لهذا الغرض وهي الأكاديمية[1] المشهورة في أثينا. ولكنه عمد قبل ذلك إلى تدوين كتب وضعها لقرّائه على أنها تمثل تعاليم سقراط معلمه المحبوب ولعل ذلك خرافة غير حقيقية وأن الكتابات التي خلّفها أفلاطون على أنها تعاليم معلمه هي في الواقع آراؤه وأفكاره نفسه. ونستطيع أن نستنتج بدون أن نسيء إلى أي من الفيلسوفين العظيمين أن أفلاطون قد تمثّل أفكار معلمه وسلفه وتأثر بها بحيث أصبحت أفكاره بالذات وذلك عندما كان تلميذاً لسقراط وأضاف إليها بعد أن تمثلها عندما استقل وبلغ نضجه العقلي والفلسفي.

وكان أفلاطون إلى كونه مفكراً فناناً موهوباً مما جعل مؤلفاته تمتاز بجاذبيتها للقراءة والتتبّع، وقد استعمل طريقة الحديث بالسؤال والجواب في عرض آرائه الفلسفية، واستخدم لذلك الأمثال والأساطير والهزل اللاذع مما حبّب مؤلفاته للقراء وخفف من جفاف آرائه الفلسفية المجرّدة. وتناول في بحوثه وآرائه كثيراً من المسائل والقضايا التي لا تزال تحتل مكانتها من تفكير البشر في هذه الأزمان فبحث في النفس وفي الخلق وفي الصور أو الأفكار الثابتة (المثل) (Ideas) التي تكمن وراء مظاهر الحياة والكون المتغيرة فكانت هذه المثل عند أفلاطون حقائق موجودة في الخارج بنفسها ومستقلة عن عالم الحس الذي هو مجرد انعكاسات أو خيالات لعالم المثل الحقيقي الذي ينبغي أن يكون هدف المعرفة البشرية. ولذلك فيميز أفلاطون بين ضربين من المعرفة فمعرفة تتعلق بعالم المثل الحقيقي ومعرفة تخص عالم التغير والحس. وخالف أفلاطون فلسفة ديموقريطس المادية ورفض تفسير الكون تفسيراً ميكانيكياً بل رأى أن في الكون هدفاً وغاية هو الخير الذي تهدف إليه جميع الأشياء. والذي يذكر عن أفلاطون أنه حاول التوفيق بين آراء سقراط وفيثاغورس وهيراقليطس. وبحث في مسائل السياسة وقد أعمل فكره مثل معلمه في سياسة دولة المدينة وتهذيب شؤونها وتخليصها من الشرور والأخطار التي أحسها

(1) (Academy) مشتقة من اسم بستان قرب أثينا كانت تعود بالأصل إلى بطل اسمه «أكاديموس».

فيها. وقد أودع آراءه السياسية في «جمهوريته» المشهورة التي تعكس لنا آراء الفيلسوف في زمن نضجه الفكري. وجمهوريته في أساسها لا تعدو أن تكون «طوبائية[1] (Utopia)» كان الدافع إليها كره أنظمة الحكم الجائرة ونظام أثينا الديمقراطي ونشدان دولة مثالية هي المدينة أو الدولة الفاضلة. ويرى أفلاطون أن مثل هذه الدولة ينبغي أن تُشاد على العدل وينبغي لحكومتها أن لا تكون من طبقة الساسة المحترفين أو التجار، بل يجب أن يكون حكامها طبقة خاصة يربون تربية خاصة ويعدّون لغرض الحكم ويجب أن ينتخبوا من طبقة الفلاسفة الذين يستطيعون دون غيرهم أن يحكموا إخوانهم بموجب أنظمة وقوانين واضحة وبهدي المثل الخالدة (وهي مثل أفلاطون). ومما يجدر التنويه به أن معظم المفكرين الخياليين الحالمين أمثال أفلاطون من أصحاب «الطوبائيات» قد تأثروا بأفلاطون وساروا على هديه، كما أنه بوسعنا أن نقول إن أكثر الآراء التي قال بها أصحاب الإصلاح الاجتماعي الانقلابي (الراديكالي) قد نوّه بها مؤلف «الجمهورية» العظيم.

الأفلاطونية الحديثة:

لقد ظلت آراء أفلاطون عنصراً هاماً وأساساً في أفكار الأجيال التي أعقبت أفلاطون، ولم تقتصر فلسفته على تأثيرها في فلسفات الحضارة الإغريقية الرومانية بل إنها أثرت في جماعة كبيرة من الفلاسفة من مفكري العرب المسلمين وبعض المفكرين اليهود وأثرت في أفكار المسيحية في إبان نشوئها وتكوينها. وقد تبنى مآثر أفلاطون وشرحها للناس مفكر اسمه «فلوطين» (Plotinus) من فلاسفة العهد الهلنستي، وكان هذا ذا آراء أصيلة وقد علم في روما في منتصف القرن الثالث للميلاد وكان قد ظهر في الإسكندرية في أواخر القرن الثاني للميلاد (204 م). وصارت تفسيراته وتعليقاته وعرضه لآراء أفلاطون بعد أن تمثلها فلسفة خاصة عرفت بالأفلاطونية الحديثة وكانت ذات

---

(1) ومعنى هذه الكلمة في اللغة اليونانية «مكان غير موجود».

تأثير عظيم في أفكار الناس. وقد دخلت في آراء رجال الدين المسيحي وفي طرقهم اللاهوتية وكانت تراثاً مهماً في العصور الوسطى وفي الفلسفة العربية الإسلامية حيث أثرت تعاليمه فيها أثراً كبيراً كما يتضح ذلك في فلسفة «إخوان الصفا» ولا سيما آراؤه عن فكرة «الفيض» الإلٰهي والعقل والنفس و«الأحد» أي الله. ولما اكتشف فلاسفة العرب المسلمين فلسفة أفلاطون وأرسطو صاروا يبحثون فيهما وهم متشبعون بالأفلاطونية الحديثة. ومما يقال في فلسفته إنها مزيج من الفلسفة والدين، وحاول أفلوطين أن يوفّق في فلسفته بين المسيحية والمذاهب الشرقية وآراء اليونان ولا سيما آراء أفلاطون، وفي فلسفته شيء من التصوف الديني.

أرسطو (384 ـ 322 ق.م):

بإمكاننا أن نعد أرسطو ممثلاً أوج ما وصلت إليه المعارف عند الإغريق وقد عدّ الإغريق أنفسهم أرسطو كذلك فقد حصل في زمنه على شهرة واسعة وظلت شهرته ومعارفه تتوارثها القرون التالية، وكانت مصنفاته الكتب المعول عليها حتى عهد النهضة الأوروبية حينما بدأت أوروبا تسير إلى عهد العلم الحديث. ويعدّ أرسطو وارث الفلسفة الإغريقية التي بدأت منذ 600 ق.م. ومتشبعاً بجميع فروعها وبحوثها، وامتاز بعقل وفهم نادرين وامتازت فلسفته ومعرفته بالبحث في جميع فروع الفلسفة والقضايا التي عالجها حكماء الإغريق منذ طاليس إلى سقراط وأفلاطون فبحث في العلوم الطبيعية وفي قضايا الإنسان والمجتمع وفي الأخلاق والسياسة.

وكان أبو أرسطو طبيباً مشهوراً فاكتسب منه الاتجاه العلمي الرزين الذي يمتاز به البحث الطبي. وظهر اتجاهه العلمي في مدرسته التي أسسها في «الليسيوم» بعد موت أفلاطون. وكانت خارج أثينا قرب الملعب الرياضي. ولكنه لم يترك التفكير والتأمل الفلسفي الذي ورثه عن سلفيه العظيمين سقراط وأفلاطون.

وإذا كان من المتعذر الكلام في جميع البحوث والمعارف التي خاضها أرسطو فإننا نوجز ما حقّقه في أربعة حقول مهمة تمثل أبرز النواحي في بحوثه وهي:

(1) المنطق.

(2) البيولوجيا.

(3) الأخلاق. (وبضمن ذلك السياسة لأن السياسة عند الإغريق لم تكن لتنفصل عن موضوع الأخلاق).

(4) الجمال.

1 ـ المنطق:

وكان مفهوم المنطق عند أرسطو فن التفكير الصحيح ومنهجه ولذلك عدّ المنطق أساس الفكر والعلوم. وقد بحث أرسطو في مواضيع المنطق في عدّة مقالات أو كتب، ودعيت البحوث هذه باسم الآلة (Crganon) لأن المنطق مثل الآلهة بالنسبة للفكر والعلوم. وقد سار كل من أرسطو وأفلاطون في نفس المنهج الذي سار عليه سقراط ولا سيما في طريقة جدلهما ومناظرتهما فكانا يحذران من استعمال الكلمات والمصطلحات على غير وجهها ومفهومها الصحيحين وقالا بوجوب تحديد معاني الكلمات. ولكن أرسطو يمتاز عنهما بأنه أول من أسس طريقة علمية للتفكير السليم ومعاييره وقد حقق ذلك بإتقان يدعو إلى الدهشة حتى أن طريقته أصبحت منهجاً لازماً لسير الأجيال التي أعقبته ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا.

2 ـ البايولوجيا (علم الحياة):

وامتاز أرسطو بدقة ملاحظته ودرسه للعالم الطبيعي فترك لنا جملة مؤلفات مهمة تبحث في الفروع المختلفة للعلوم الطبيعية. وأكثر ما تظهر عبقريته وأصالة بحثه في أنه كان أول باحث انتقل من النظر في المادة غير العضوية إلى المواد العضوية أي إلى الأحياء، مؤسساً بذلك علم الحياة

«البايولوجيا» بكلا فرعيه: علم النبات (Botany) وعلم الحيوان (Zoology) وقد استدعي وهو في سن الأربعين وقبل أن يفتح مدرسته إلى بلاط الملك المقدوني «فيلب» لتعليم ابنه الإسكندر الذي صار الإسكندر الكبير. وعندما تسلم الإسكندر العرش لم ينس أرسطو الذي كان يدعوه بأبيه الروحي وعندما حل أرسطو في أثينا وشرع في البحث والدرس وهبه الملك مبالغ كثيرة من المال ليصرفها على بحوثه وجمع معارفه، فتمكّن من جمع معلومات واسعة ثمينة عن نباتات منطقة البحر المتوسط وحيواناتها لا يستطيع إنسان بمفرده أن يجمعها، بل كان سبيل أرسطو إليها بذل المال وإرسال التلاميذ والمساعدين إلى البلدان المختلفة، كما تفعل المؤسسات العلمية الحديثة، هذا ولا يشين بحوث أرسطو في هذا الموضوع كثرة الأخطاء لأنه في الواقع كان أول عمل علمي من نوعه.

3 ـ الأخلاق والسياسة:

يرى أرسطو في أخلاقه في كتابه (نيقوماخيا) أن الخير والصلاح هو «ما تهدف إليه جميع الأشياء» وغاية أعمال الإنسان جميعها وينبغي أن يكون شيئاً يبحث عنه لنفسه بل إنه هو الغاية وليس واسطة لبلوغ شيء آخر. فما هو هذا الخير الأعلى؟ يرى أرسطو أن صلاح أي شيء يكون في تحقيق وظيفة ذلك الشيء والإنسان يشارك عالم النبات في الغذاء والتناسل ويشارك عالم الحيوان في الحس. ولكنه ينفرد في حيازته على الحياة العقلية وعلى ذلك «فإن وظيفة الإنسان أن تعمل الروح أو النفس وفق العقل. ووظيفة الإنسان الصالح أن يكون ذلك العمل صالحاً خيراً ويكون الخير الأعظم عند الإنسان «العمل الفاضل» ويدعو ذلك أرسطو بكلمة خاصة هي «يوديمونيا» (Eudaimonia) التي يمكن ترجمتها بالسعادة أو الوجود السعيد. ولكن ينبغي لنا أن لا نخلط بين هذه السعادة وبين اللذة أو السرور، لأن اللذة والسرور، كما يرى أرسطو، ليسا غايتين لذاتهما بل إنهما نتاج يستتبع العمل الفاضل أو العمل الصالح.

وإذا كانت السعادة نتيجة للعمل الصالح أو هي العمل الصالح فما هي

الفضيلة أي ما هو هذا العمل الفاضل؟ يرى أرسطو أن الفضيلة على ضربين فضيلة عقلية وفضيلة أخلاقية. أما مبعث الأولى وموطنها فهو الفكر ومقر الثانية الإرادة. ولما كان الفكر وظيفة خاصة بالإنسان ، فتكون أعلى فضيلة للإنسان في حياة الفكر الخالص والتأمل المجرد ولكن مثل هذه الحياة لا تكون ممكنة إلّا بفضل الجزء الإلٰهي (المقدس) الموجود فينا. أما الذين لا يستطيعون منا أن يصلوا إلى هذه المرحلة العليا من التأمل النظري فيكون بمستطاعهم نوع آخر من الحياة العقلية، وهي الحياة العقلية العملية التي تسيطر على رغباتنا وتنتج عندنا الفضيلة الأخلاقية.

وتحتل الفضيلة الأخلاقية عند أرسطو مكانة خاصة فهي عنده «عادة أو مزاج تنطوي على غاية أو اختيار مقصودين» ويمكن تمكينها وتثبيتها بالمران والرياضة. ومدار هذه العادة على «الوسط» بين متناقضين، بين التفريط والإفراط (خير الأمور أوسطها). فالشجاعة مثلاً (وسط) بين التهور والجبن وأن هذا الوسط شيء نسبي بالنسبة لنا أي إنه يختلف باختلاف الأفراد والأحوال وعلاوة على ذلك فإن تقرير هذا الوسط من وظائف العقل العملي. وبوسعنا أن نستشف من وراء هذا (الوسط) الذي قال به أرسطو مَثَلَ الإغريق الأعلى في التناسب والقياس والانسجام.

والأخلاق في فلسفة أرسطو مادة العلم العملي وهو السياسة. فالإنسان بطبيعته «حيوان سياسي» لا يستطيع أن يحقق قابلياته وإمكانياته العليا إلّا في حالة كونه عضواً في دولة أو في مجتمع. وتعني الدولة عنده «دولة المدينة» التي لم يتعد حدودها العقل الإغريقي حتى في أيام الإسكندر الكبير. ولما كان كمال الحياة وتكميلها لا يتحققان إلّا في الدولة، فتكون الدولة نظاماً طبيعياً لازماً، وهي بهذا المعنى لها الأسبقية على الأفراد الذين يؤلفونها، وهي هدف الحياة الإنسانية ومصدرها.

وقد هاجم أرسطو إشاعة الملكية والنساء التي حبذها أفلاطون للطبقات العليا في دولته المثالية. ويصرّ بدلاً من ذلك على الملكية الخاصة في المال

وفي العائلة. ولما كان عنده مبدأ «أن شؤون شخص لا تعني شخصاً آخر» فقد أبان أن الملكية العامة تؤول إلى التخريب وانعدام التعاون، وهو التعاون الذي أراده أفلاطون. ولكنه يتفق مع أفلاطون بأن الحكام في الدولة الصحيحة يجب أن يكونوا أحسن الجميع ويهدفون لصالح المجموع.

ولما كان أرسطو يعتقد بعدم المساواة بين الناس فقد برز نظام الرق عاداً إياه نظاماً طبيعياً. فإن البعض لائقون بجبلتهم للحكم والبعض للخضوع. وكان أرسطو يحتقر العمل اليدوي، وقد شارك هذا الاحتقار جميع الإغريق تقريباً. ولما كانت وظيفة الدولة تثبيت الحياة الصالحة فإن العمال والصُنّاع وجميع الذين لا تمكنهم أعمالهم من التفرغ لإنماء الفضيلة يجب إخراجهم من حق المواطنة.

4 ـ الجمال[1]:

اشتهر أرسطو بكتاباته في موضوع الجمال (ولا سيما قسم البيوتيقا أي الشعر) وقد اتخذت آراؤه مقياساً للنقد الفني في العصور القديمة والوسطى وإلى العصور الحديثة ولا تزال كذلك تحتل مكاناً مهماً في النقد الفني الحديث إن لم يكن بين الفنانين المعاصرين وإلّا بين أساتذة الكليات والجامعات ومن أقواله المأثورة «إن الفن يقلّد الطبيعة» وكان هذا في الواقع شعاراً أو رمزاً عند الناس وليس حقيقة، لأن «التقليد» عنده في هذا الباب لا يعنى بتقليد الظواهر الخارجية بقدر ما يعنى بالمعاني أو الحقيقة الداخلية.

ويؤكد في موضوع الرواية (الدراما) على وحدة الفعل في موضوع الرواية

---

(1) يتضح من بحث أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الجمال أن البحث في هذا الموضوع أقدم من اسم علم الجمال في الوقت الحاضر وهو «الاستيقي» (Aesthetics) وكان أول من استعمل هذا المصطلح «بومجارتن» (1714 ـ 1762) أحد أتباع الفيلسوف الألماني «وولف» وكان أول من جعله فرعاً مستقلاً من فروع الفلسفة.

ولم يقل بالوحدات الثلاث وهي الزمان والمكان والفعل وهو المبدأ الذي ألصقه به الكتّاب المتأخرون.

وامتاز أرسطو عن أفلاطون في قضية المادة والصور (forms) أو المثل عند أفلاطون حيث لم ير مثل أفلاطون عالم المثل منفصلاً مستقلاً عن عالم الحس، بل حاول التوفيق بين الكليات والجزئيات، وعنده أن هذا التوفيق ضروري في تكوين عالم الحقيقة والمعرفة وتدور محاولته على فكرة «المادة» و«الصورة» وهما اللتان كانتا منفصلتين عند أفلاطون فأعاد التوفيق فيما بينهما. وإذا كان الأيونيون، كما رأينا قد أكّدوا على المادة فقط والفيثاغوريون وأفلاطون على الصورة فقط، فإن أرسطو ذهب إلى أن الصورة والمادة يتعلق كل منهما بالآخر، فالصورة ملازمة للمادة أي إن الكلي ملازم للجزئي، ومن الممكن أن يتميزا ولكنهما لا ينفصلان. ويتعلق بهذا المذهب الخاص بالصورة والمادة مبدأ العلل الأربع عند أرسطو، وملخّص هذا أنه إذا أردنا أن ندرك أشياء معينة إدراكاً صحيحاً فينبغي أن نعين أربعة أمور فيها أو أربع علل، وهي:

(1) (العلة المادية) (Material Cause) أي المادة التي تتكوّن منها تلك الأشياء أو المصنوعة منها تلك الأشياء.

(2) العلة الصورية (Formal Cause) أي الصورة أو القانون في كيفية تركيب تلك الأشياء أو صنعها.

(3) العلة الفاعلية (Efficient Cause) أي العامل أو الفاعل الذي تكوّنت بواسطته تلك الأشياء.

(4) العلة الغائية (Final Cause) أي الغاية التي من أجلها تكوّنت أو صنعت تلك الأشياء.

وقد أوضح أرسطو أنه ليس من الضروري أن توجد جميع هذه العلل في جميع الأشياء، فبعض الأشياء يمكن فهمها بأخذ بعض من تلك العلل. ومما

يجدر التنويه به عن فلسفة أرسطو أن فلسفة ابن سينا (370 ـ 428 هجرية) أقرب فلسفات المسلمين إليها، كما أن ابن رشد (520 ـ 595هـ) شرح تعاليم أرسطو ولا سيما في كتابه الشهير «تهافت التهافت» الذي ردّ به على الغزالي في طعنه بالفلاسفة والفلسفة.

شيء عن الفلسفة اليونانية بعد أرسطو:

استمرت الفلسفة اليونانية عدة قرون من بعد أرسطو، ومع ذلك فإنه بوسعنا أن نلاحظ أن روحاً جديدة قد طغت عليها حتى في أثناء حياة أرسطو. وكان ذلك نتيجة لفقد الإغريق استقلالهم على يد المقدونيين في موقعة «خيرونيا» (338 ق.م) فلم تترك الشدائد التي حلّت بالإغريق من جراء السيطرة المقدونية ميلاً أو متّسعاً إلى الفلسفة البحتة. بل احتاج الناس بدلاً من ذلك دواءً يقوّيهم ليس من الفلسفة بل من الدين والأخلاق. وبذلك صارت الفلسفة من بعد العهد الأرسطوطاليسي تطغى عليها النزعة الأخلاقية والدينية. وهكذا شغل الرواقيون (Stoics) أنفسهم والأبيقوريون والشكاك في مسائل الحياة من السلوك المثالي، ويتجلّى ذلك في مذاهبهم بالتوصية بالاتزان ورباطة الجأش وراحة العقل وسلامته وتحرير النفس من قيود الأوضاع والأحوال الخارجية. وقد اتّخذ الأبيقوريون بغض النظر عن فلسفتهم الأخلاقية الفلسفة الذرية الخاصة بديموقريطس التي ذكرناها فيما سبق[1]، واشتهر الرواقيون في مذهب الحلول وكذلك في نظرتهم العامة وعدم التفريق في مسألة الوطن والمواطنة.

---

(1) استخدم الأبيقوريون هذه الفلسفة في نواح اجتماعية ولا سيما في تطمين الأغنياء المترفين في العصور الهلنستية الذين خافوا من عاقبة ما بعد الموت، فبموجب تفسير ديموقريطس للروح بكونها اتحاد ذرات لطيفة تتحرك بانتظام ما دام الجسم حياً ثم تتفرق وتتشتت بالموت، لا يكون ثمة وعي أو حس أو ألم. كما أن الأبيقوريين وصفوا الآلهة بأنها أرواح مخلدة في السماء ولا شأن لها بما يحدث في الأرض، كما أنها عديمة الأثر في سير الحياة التي تسيرها سنن الضرورات الطبيعية ولهم رأي خاص بالسعادة، حيث يتمّ الحصول عليها بالابتعاد عمّا يثير القلق الروحي بالانصراف إلى الفلسفة ولذة التأمل والفكر.

وتأثر الرواقيون أيضاً بمادية ديموقريطس ولكنهم خالفوا الأبيقوريين في سلوكهم وقالوا بمبدأ الفضيلة من حيث استجابتها للضروريات المادية الطبيعية. وقد وضع الشكاك الأسس التي سار عليها أصحاب فلسفة الشك فيما بعد. وقد كان للشرق أثر منهم في الفلسفة الإغريقية في هذا العهد، وهو العهد الذي أخذنا عنه بعض الشيء في كلامنا على العصر «الهلنستي». وعندما صارت بلاد اليونان جزءاً من المملكة الرومانية (سنة 146 ق.م) نشأ عهد جديد في تأريخ الفلسفة يصحّ أن نسميه بعهد الفلسفة «الرومانية ـ اليونانية» ومما يميز به هذا الدور بوجه الإجمال أنه كان نهاية البحث المنظم والإبداع وحلّ محله ميل إلى الشروح والتفاسير المطوّلة، وكان في الوقت نفسه عصر حصل فيه اتجاه إلى تحصيل العلوم والاتساع في الاطلاع والإقبال عليها وصارت العلوم متميزة بعضها عن بعض في مواضيع بحثها بخلاف ما كانت عليه في زمن ازدهار حضارة الإغريق حيث كانت كلها تنتظم تحت الفلسفة.

التاريخ:

هيرودوتس:

يلقب هيرودوتس بأبي التأريخ، وقد ولد في «هليكارناسوس» بين ظهراني أولئك الإغريق في غربي آسيا الصغرى الذين بدأوا نهضة الإغريق العقلية. ويرجّح أنه ولد في العام 485 ق.م. (أو 480) وتوفي في حدود 425 ق.م.، وقبل أن يموت بست سنوات كانت رحى الحروب البيلوبونيسية تدور. وقد شغف مثل حكماء الإغريق بالحياة العقلية، ولكن وجه همّه إلى الإنسان وشؤونه وبعد أن نفي من المدينة التي ولد فيها بسبب ثورة سياسية، اتجّه إلى الرحلات والأسفار فسافر إلى مصر وفارس والأقاليم التي حوالى البحر الأسود وإلى بلاد الإغريق وإلى إيطاليا ولعله إلى العراق وفارس فحصل بأسفاره على معلومات ثمينة عن معظم العالم المعروف. ولا يسعنا أن نبت في هل أنه كان يفكر بمشروع تأريخه عندما قام بتلك الأسفار ليجمع المادة له أو أن تلك الأسفار هي التي حفّزته على كتابة ذلك التأريخ. ومهما يكن واقع

الحال فقد جاء في مقدمة تأريخه «هذا تقديم بحث هيرودوتس الهليكارناسي لكيلا يمحو الزمان أعمال الإغريق والبرابرة[1] العجيبة، وبوجه خاص لئلا تنسى الأسباب التي من أجلها شنوا الحرب فيما بينهم. وبوسعنا أن نستنتج من ذلك ومن كتابه أيضاً حقيقتين مهمتين: الأولى أنه دون بالنثر حوادث تأريخية محدودة (وفي هذه الحالة الحروب التي شنّتها فارس على بلاد اليونان في زمن دارا الأول واحشويرش) وهو عمل لم يسبق به على ما نعلم أحد من كتّاب الإغريق والثانية أنه اتبع في ذلك طريقة دعاها هو «التحري أو البحث أي (Historia)»[2]، فصارت هذه الكلمة تُطلق على جميع البحوث التأريخية المماثلة في معظم اللغات الأوروبية.

ويمكننا أن نشيّد بفضل هيرودوتس في بحثه التأريخي لا سيما إذا اعتبرنا الصعوبات التي جابهها في جمع مادته حيث لم يكن تحت متناول يده وثائق أو سجلات محفوظة أو مكتبات منظمة أو أي كتاب سابق يرجع إليه. وحسناً ما فعل عندما دعا تأريخه «البحث أو التحري» لأنه كان مضطراً إلى جمع حقائقه ومراجعه بنفسه بالاتصال بالناس الذين كانت لهم معرفة بتلك الحوادث والحقائق، ولكن مما سهل عليه جمع حقائقه قرب العهد. أي عهد حوادث الحروب بين الإغريق والفرس، حتى أنه كان باستطاعته الاتصال بأناس حاربوا بالفعل في تلك الحروب ولا زالوا على قيد الحياة في زمنه. وقد يجد قرّاء تأريخ «هيرودوتس» نوعاً من الخلط بين الأساطير والحقائق التأريخية بدون أن ينبّه على الحد الفاصل فيما بين الاثنين وبوسعنا أن نتفق في أن هيرودوتس قد أغرم بسرد الحكايات والقصص الغريبة وأنه كان عنده ميل أشبه ما يكون بميل الأطفال إلى القصص الخيالية.

ولكن ذلك لا يعني إغفال قيمة تأريخه بل ينبغي للقارىء أن يستعمل النقد. ومع ذلك فإن تلك الخصائص التي نجدها ما هي إلّا ظاهرية إذ نجده

---

(1) يقصد بذلك الفرس. راجع ما اخترناه من تأريخ هيرودوتس في قصة كورش واستياجز.

(2) وهذا ما تعنيه كلمة (History) في أصل ما وضعها هيرودوتس (راجع مقدمة الجزء الأول).

يسرد الأمور على سبيل الرواية بأن يقول «يقال» أو «يقولون» أي إنه لم يصدق بما يروي وإنما يذكره على سبيل الرواية. وإذا ظهر هيرودوتس بصفة التحيّز إلى جانب أثينا فإنه أظهر الاعتدال والصدق في ما كتبه عن الأقوام الأخرى من غير الإغريق، وهم الذين يسميهم البرابرة ولا سيما الفرس أعداء اليونان. وتظهر على تأريخه ما كان يتّصف به من الروح الدينية، والظاهر أن مبادىء السوفسطائيين الفلسفية في زمنه لم تؤثر فيه بل بقي معتقداً بأن الإنسان تحكمه وتقدر مصائره الآلهة غير المنظورة. وبوسعنا أن نعدّ هيرودوتس أول من جمع مادة مهمة عن عادات الأقوام وأزيائها وبحث فيها وهو ما يدخل الآن ضمن فروع علم الإنسان (أي الأنثربولوجيا).

ثوسيدايدز (Thucycides) (470 ـ 400 ق.م):

بعد مضي بضعة أشهر على موت هيرودوتس (425 ق.م) حدث أن قائداً أثينياً اسمه «ثوسيدايدز» قد عزل من منصبه لفشله في إحراز النصر. فاعتزل هذا في الريف في «تراقية» وتفرّغ لكتابة تأريخ عن الحروب بين أثينا وإسبارطة وهي الحروب التي نكب بسببها. وكان سلفه هيرودوتس قد استمر في ذكر حوادث الحروب الفارسية الإغريقية إلى ما بعد موقعة سلاميس بقليل (480 ق.م). فلم يملأ «ثوسيدايدز» الفترة الطويلة بين سلاميس وبين نشوب الحروب البيلوبونيسية (431 ق.م) إلّا بمقدمة عامة. ووجه همّه إلى كتابة التأريخ المعاصر فقط، لانعدام الوثائق والمراجع. ولأنه وضع نصب عينيه التحري عن الحقائق وحدها ونبذ الأساطير والحكايات، ورأى أن خير سبيل للعثور على الحقائق تسجيل الحوادث والوقائع إبان حدوثها أو حوالي ذلك دون التعويل على روايات الناس بعد زمن جيل أو جيلين عندما يحورها ويغيرها خيال الناس وهو الخيال الذي لا يمكن السيطرة عليه. ولا بأس أن ننقل نص ما قال بشأن منهج بحثه:

«لم أركن إلى المجازفة في التحدث عن وقائع الحرب من أي مصدر كيفما اتّفق أو من فكر من أفكاري. ولم أصف أي شيء لم أشاهده بنفسي أو

آخذه من الآخرين الذين دققت عنهم وفحصت رواياتهم». والواقع أن المؤرخ «ثوسيدايدز» كان مفكراً نقاداً من الطراز الأول لا قياس له بسلفه هيرودوتس الذي اتّصف بالتديّن وقبول القيم المأثورة للحياة، وهذا يفسر لنا الفرق بين تأريخي كل من الرجلين. ولأن بحث «ثوسيدايدز» بحث خاص بحقائق محدودة وبموضوع محدود فقد امتاز تأريخه بالوحدة الفنية وبوحدة الموضوع بخلاف تأريخ سلفه. ومع ذلك ففي تأريخ هيرودوتس نوع من السحر والجاذبية بسبب تنقله في بحثه وشمول تأريخه مواضيع مختلفة لا نجدها في تأريخ خلفه. وملخّص القول يمكننا أن نعد كلّاً من التأريخين يمثل طريقة خاصة في البحوث التأريخية لا تزال كلّ منهما متّبعة في كتابة التأريخ إلى يومنا هذا. فقد احتذى على مثال «ثوسيدايدز» جماعة كبيرة من المؤرخين عنوا من الوقائع والحوادث التأريخية بتأريخ الدولة ـ أي السياسية والحروب». ولكن ترى جماعة أخرى من المؤرخين أن التأريخ ينبغي أن يكون شاملاً أوسع من موضوع السياسة والحرب أي موضوع «ثوسيدايدز» بل يجب أن يكون واسعاً عاماً كالحياة البشرية نفسها وهذا هو (تأريخ الحضارة) الذي بدأ بوضع أسسه شيخ المؤرخين هيرودوتس.

ونبغ في العهد الروماني مؤرخان إغريقيان أحدهما (بوليبيوس)[1] والثاني (فلوطرخ). وكان أولهما من جملة الرهائن الذين جلبهم الرومان من الإغريق بعد القضاء على استقلال الإغريق وضم المدن الإغريقية إلى روما (146 ق.م) وكان (بوليبيوس) من السياسيين، وعلى قدر عظيم من الثقافة والتهذيب وقد ألحق بعائلة (سكيبيوس) القائد الروماني وشاهد بنفسه الحملات الحربية العظيمة فكتب بالإغريقية تأريخاً خالداً دوّن فيه أخبار الحروب الرومانية الكبرى. أما فلوطرخ (64 ـ 120 م) فقد عاش في عهد الأمبراطور الروماني تراجان، وقد اشتهر بتراجمه النفيسة[2] التي كتبها عن مشاهير الإغريق

---

(1) (Polybius) و(Plutarch).

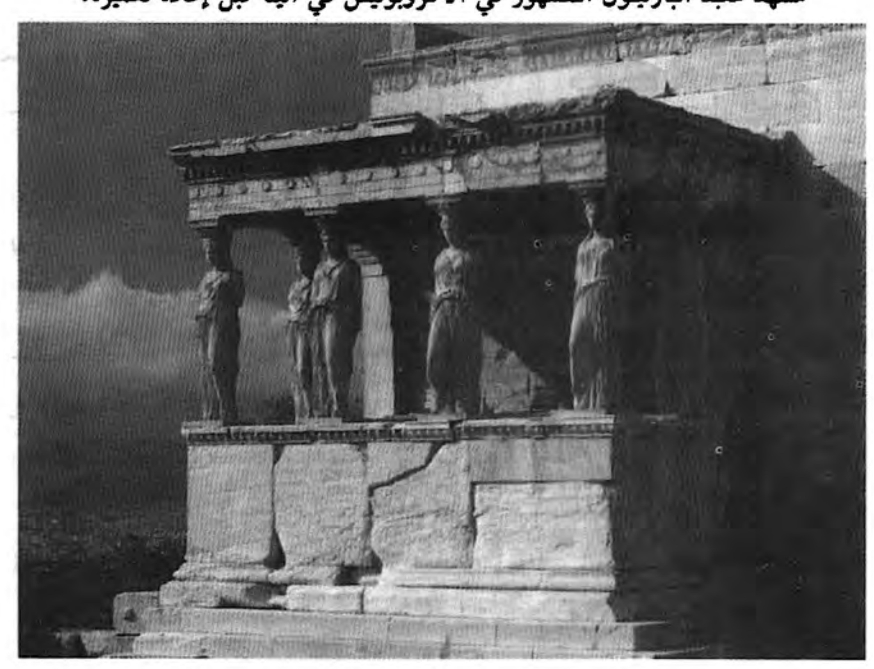
(2) Plutarch Lives.

والرومان وصارت هذه المرجع الأساسي للأجيال التالية في معرفتها بأشياء كثيرة عن الإغريق والرومان.

وفيما عدا هيرودوتس وثوسيدايدز، ظهر في الإغريق بعض المؤرخين من الأزمان القديمة وأشهر هؤلاء (هيكتوس) (Heacetaeus)، وكان هذا معاصراً الفيلسوف الأيوني (طاليس) وعاش في القرن السادس ق.م.، وهو أول مؤرخي اليونان. وقد اشتهر بما كتبه عن تأريخ اليونان وأصلهم وهجراتهم الأولى. وهو يشبه المؤرخين العظيمين بنعته نفسه بأنه يتحرى الحقيقة وقد تحلّى بالروح العلمية ويؤثر عنه أنه قال: (إن ما أكتبه هنا هي القصة التي أعتقد بأنها حقيقة صحيحة، لأن أساطير الإغريق كثيرة، وهي برأيي مستحيلة التصديق). وقد أعقب هذا المؤرخ هيرودوتس الذي أوجزنا ترجمته.



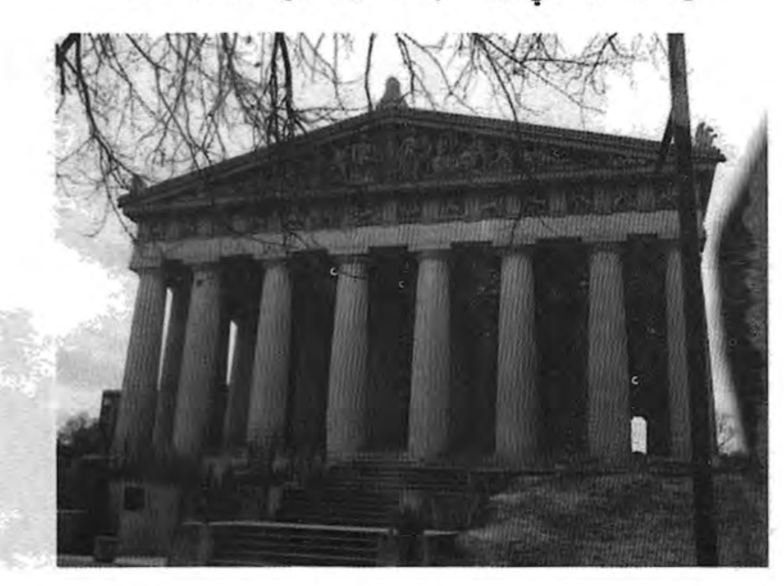
مشهد معبد البارثينون المشهور في الأكروبوليس في أثينا قبل إعادة تعميره.



واجهة إيوان جميل الفن والعمارة بني لتزيين أحد معابد الأكروبوليس (في أثينا) المخصصة للآلهة «أثينا» والمعروف باسم «إيرخثيوم» (Erechtheum) وهو اسم أحد الملوك اليونان القدماء حيث كان المعبد يقوم في قلعته القديمة.



مشهد من منحوتات جميلة في هيكل الإله «زوس» في مدينة «برغاعوم» من العهد الهلنستي يرينا معركة أسطورية بين الآلهة والعمالقة.



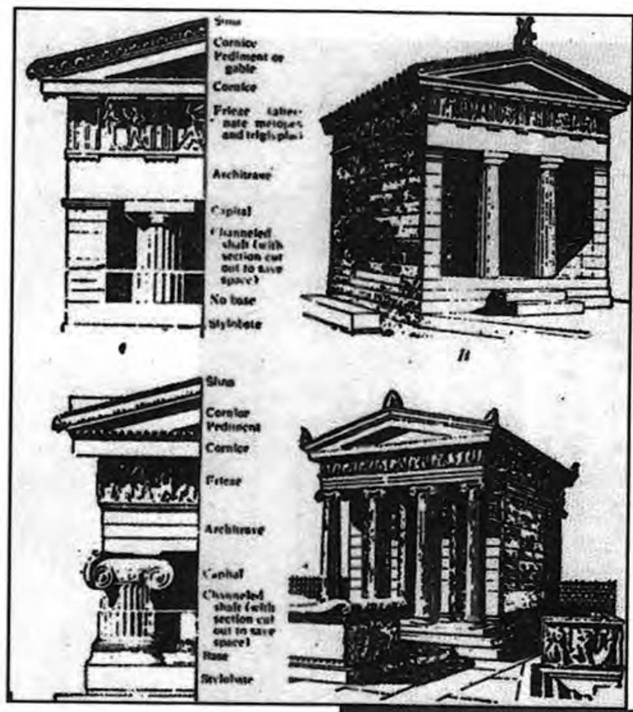
إعادة بناء معبد البارثينون في أثينا كما كان عليه في الأصل في القرن الخامس ق.م. حيث أشاده بريقليس الشهير على يد المعمار «ايكتينوس» والنحّات الشهير «فيدياس».



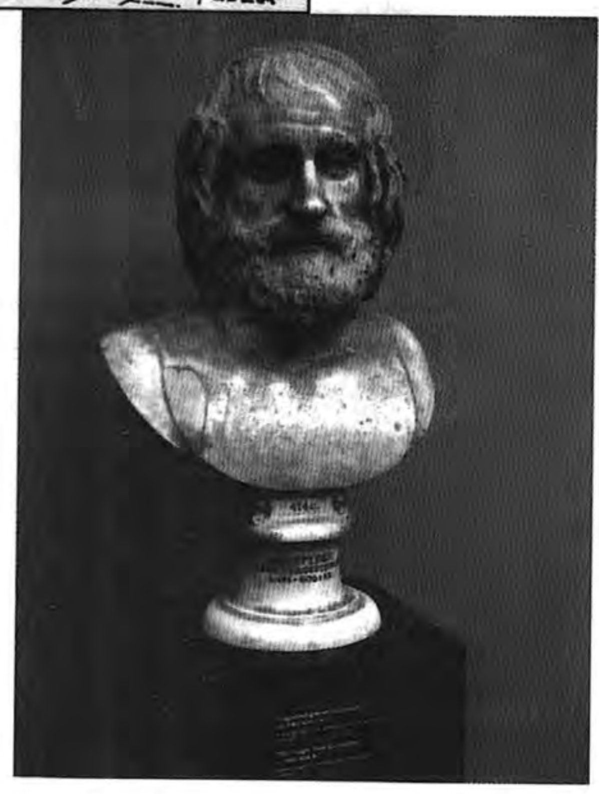
التمثال الشهير الذي يمثل الإلٰه هرمز (Hermes) يلاعب الإلٰه الطفل «ديونيسوس». لقد كسرت الذراع اليمنى. يعدّ هذا النحت قطعة خالدة في فن النحت اليوناني مما جاءنا من القطع القلائل الأصلية (من صنع النحّات المشهور براكستيليز، القرن الرابع ق.م).



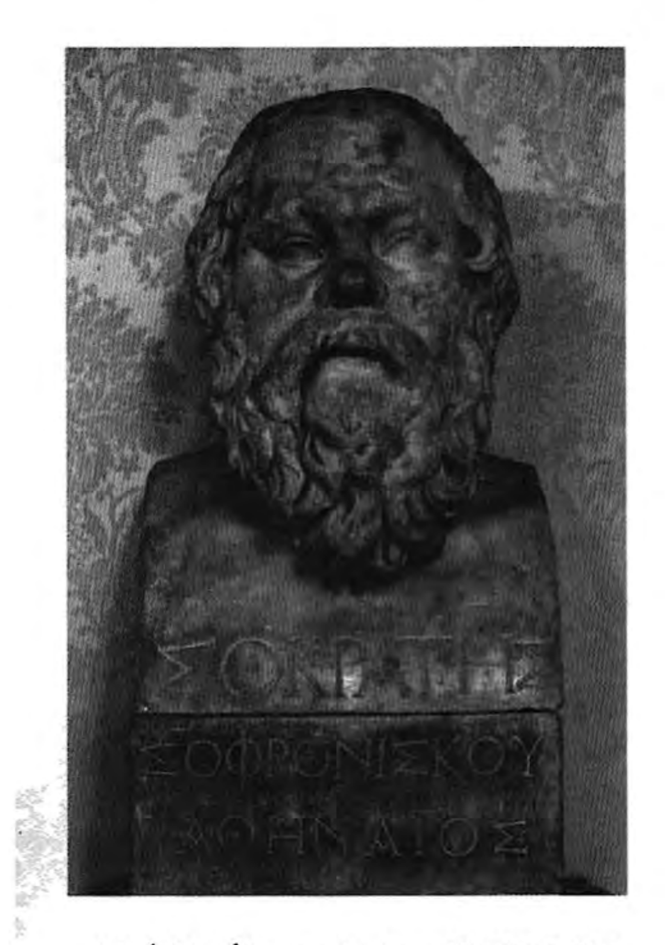
جزء من الأفريز الذي نحته النحات الشهير «فيدياس» (القرن الخامس ق. م) يمثل النحت شباناً يركبون الجياد في موكب خاص بأحد الأعياد الأثينية.



الطرازان الرئيسان في فن العمارة الإغريقي وهما الطراز الدوري (A,B) والطراز الأيوني (إلى الأسفل).



تمثال نصفي للروائي اليوناني «يوربيدز» (وقد كتب اسمه بالحروف اليونانية في أسفل التمثال).



تمثال لسقراط الشهير على شيء من الأهمية التأريخية لأنه يحمل كتابة باليونانية هي جزء من دفاع سقراط في محاكمته التي انتهت بالحكم عليه بالموت (كما جاء ذلك في أحد كتب تلميذه أفلاطون المسمى بالدفاع).

الفصل الثامن والثلاثون

موجز تأريخ الرومان

تأريخ الرومان والحضارة الرومانية موضوع بحث مستقل لا يمكن الإسهاب فيه في هذا الكتاب، ولكن هذا القسم الذي خصصناه للرومان، مع إيجازه، كاف لتكوين فكرة عن خطوط التأريخ الروماني وعن أبرز ميزات الحضارة الرومانية. ولما كانت حضارة الرومان فرعاً من حضارة أعمّ، وهي الحضارة الهلينية فإن ما ذكرناه عن تلك الحضارة (أي الحضارة الإغريقية) يساعد على فهم حضارة الرومان وأصولها وتراثها. وقد أثر التأريخ الروماني في حياة الشرق القديم في الأيام الأخيرة من تأريخه القديم، ونشأت علاقات مهمة بين الرومان وبين الدول الشرقية التي قامت على أنقاض دول العراق القديم كما مرّ بنا في الكلام عن الدولتين الفرثية والساسانية، وكان العراق بوجه خاص ميداناً لحروب كثيرة نشبت بين الرومان وبين تلك الدول. وإلى ذلك سيطر الرومان على جميع الأقاليم الكائنة في شرق حوض البحر المتوسط زهاء خمسة قرون. وكانت هذه الأقاليم ملتقى حضارات الشرق القديم والحضارة الإغريقية (الهلينية).

وإذا كان من المتعذر، كما قلنا، الإحاطة بتأريخ الرومان بوجه التفصيل فإننا مع ذلك نستطيع أن نكوّن صورة جامعة عن ذلك التأريخ بتقسيمنا إياه إلى عهدين كبيرين أساسيين هما:

(1) عهد الدولة أي الجمهورية الرومانية.

(2) عهد الأمبراطورية.

1 ـ عهد الدولة الرومانية (الجمهورية):

ونذكر من هذا العهد النقاط البارزة أي الحقائق الأساسية في التأريخ الروماني على الوجه الآتي:

1 ـ جاءت القبائل الإيطالية إلى شبه الجزيرة التي دعيت فيما بعد «إيطاليا»، وكانت هذه القبائل جزءاً من هجرات الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، وكانت في بداية أمرها، كما كان الحال في قبائل الفرس والإغريق، قبائل شبه همجية، ولكنها أخذت تتعلم أصول الحضارة بالتدريج من اتصالاتها بالمدنيات المجاورة. وتعلّمت بوجه خاص من جماعات كانت تقطن في إيطاليا نفسها قبل مجيء «الإيطاليين»، وهم «الأتروسكيون» الذين يحتمل أن يكون أصلهم من آسيا الصغرى وكانوا مسيطرين على إيطاليا في القرن السادس ق.م، من مدنهم المحصنة التي كانت في الإقليم المسمى «توسكاني» ثم تعلّمت من اليونان وأخذت عن القرطاجيين أشياء مفيدة من عناصر الحضارة.

2 ـ وكان الرومان في مبدأ أمرهم يحكمهم ملوك لا يمتّون إليهم بصلة ويرجّح كثيراً أن يكونوا ملوك الأتروسكيين أنفسهم، ولا نعلم كم دام هذا العهد. ولكن المرجّح كثيراً أن الإيطاليين أنشؤوا جمهورية قوامها «دولة المدينة» ولا سيما في روما في حدود 508 ق.م.[1] لا تفرق كثيراً عن دويلات المدن الإغريقية، وكان في إيطاليا دويلات مدن أخرى غير دولة روما، ولكن روما أخذت تسيطر عليها بالتدريج وتضمها إليها مكوّنة مملكة واحدة وبوسعنا أن نلخّص توطيد سلطان روما في جميع إيطاليا بالمراحل الآتية:

(1) ظلت دولة روما حتى 325 ق.م. في حروب مع الأتروسكيين ومع منافسين آخرين من اللاتين وكذلك صدّت هجمات الغاليين واستطاعت أن

---

(1) تروي المآثر الرومانية أن مدينة روما تأسست في حدود 753 ق.م. وأن الذي أسسها الأخوان التوأمان رومولوس وريموس (انظر الصورة آخر الفصل).

تنجح في جميع ذلك وتحرز السيادة، وكانت في أثناء ذلك قد اكتسبت كثيراً من عناصر الحضارة ومن بين ذلك الحروف الهجائية المشتقة من الخط الإغريقي.

(2) بدأت روما بصفتها زعيمة الدويلات اللاتينية في (325 ـ 280) في دحر الأقوام الإيطالية الأخرى في وسط إيطاليا وفي جنوبها (ومن بين ذلك القبائل المعروفة بالسامنية) وكذلك الأتروسكيين والغاليين.

(3) وأخيراً رضخت بعض المدن الإغريقية في إيطاليا إلى سيادة روما، واستطاعت في حدود (280 ـ 275) أن تصفي الحساب مع منافسيها فتقضي على مقاومتهم.

(4) اتخذت روما سياسة حكيمة باتخاذ القبائل الإيطالية التي كانت تخضعها حلفاء لها وأعطت الجماعات الأخرى الحكم الذاتي المحلي، وإذا أضفنا إلى هذا العامل الطرق الرومانية الشهيرة أدركنا العوامل التي استطاعت بها روما أن تؤسس دولة قوية موطدة استطاعت أن تقف بوجه كثير من الصدمات التي حلّت بها فيما بعد.

وقبل أن نتابع إيجاز الوقائع الأساسية في تأريخ الرومان نقول كلمة مختصرة عن نظام الحكم في روما قبل أن تصير أمبراطورية وهو النظام الذي نشأ مع نشوء الدولة الرومانية. ويبدأ ذلك منذ أن تخلصت روما من حكم الملوك الأتروسكيين وأخرجتهم من المدينة في حدود (500 أو 508 ق.م)، وكان العامل المهم في طرد هؤلاء الملوك طبقة النبلاء الرومان (الباتريشي)، فأخذ هؤلاء زمام الحكم بيدهم، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يكون ملكاً، بل إنهم وافقوا لعله إرضاءً للناس، على أن ينتخب اثنان منهم يسميان «القنصلين» لرئاسة الدولة وكانت مدة انتخابهما سنة واحدة وكانا متساويين في السلطات. وكانت طريقة انتخابهما تتمّ في كل عام من مجمع يضم جميع القادرين على حمل السلاح أي جميع المحاربين. ويكون نوع الحكومة هذا النظام الجمهوري تقريباً ولكن كان للجمهورية رئيسان. ولمّا كان حق اختيار

القنصلين محصوراً في طبقة النبلاء فقد صارت حكومتهم تتّصف بالاستبداد. ولكن العوام (البليبيون وهم على الأكثر من القبائل اللاتينية) رفضوا الخضوع إلى استبدادهم وحيث كان النبلاء في حاجة ماسة إلى العوام إذ هم مادة الدولة وجنودها، فقد استرضوهم وأعطوهم حصة كبيرة في الحكم بأن سمحوا لهم بانتخاب جماعة من الموظفين من مجمعهم، وسمي هؤلاء الموظفون «تربيون» وكان لهؤلاء الحق في نقض أي قرار أو قانون حتى ما كان يصدر من القنصلين. فإذا ما شعر مواطن بهضم حق له من جانب القنصل فإنه كان يرفع ظلامته إلى «التربيون» الذي كان باستطاعته أن ينقض الحكم حتى الحكم الصادر بالإعدام، وهكذا حصل «التربيون» على سلطات واسعة وعندما زادت أعمال الحكومة زاد عدد أعضاء مجلس «التربيون» ونشأت طبقات جديدة من الموظفين لمساعدة القنصلين اللذين كانت أعمالهما كثيرة كقيادة الجيوش وتنفيذ القوانين والهيمنة على موارد الدولة إلى غير ذلك من شؤون الحكومة، فعين موظفون لإدارة الشؤون المالية[1]، ثم موظفون عامون[2] أنيطت بهم إحصاء النفوس وتخمين الضرائب المترتبة على الأفراد وتنظيم أمور الانتخاب ومراقبة سلوك الناس وكذلك عين القضاة للبتّ في القضايا[3]. واعتاد الرومان في إبان الأزمات الوطنية أن يعينوا حاكماً عاماً ممّن يثقون بهم وبنزاهتهم يعطى السلطة العليا المطلقة وهذا هو الدكتاتور الذي كان يعين زمناً قصيراً محدوداً. ونشأ عند الرومان مقابل «التربيون» مجلس (السنات) أي مجلس الشيوخ[4] يؤلف من النبلاء (أي الباتريشيين) والواقع أن مجلس الشيوخ يرجع في أصله إلى زمن الملوك الأتروسكيين الذين كانوا يجمعون مثل هذه المجالس للشورى وكان هذا يسيطر على القنصلين والسلطة التنفيذية. ومع سلطة

---

(1) يسمى أحدهم (Qudetor).

(2) ويسمى أحدهم (Censor) أي الرقيب ومنه اشتقت الكلمة الإنكليزية بهذا اللفظ والمعنى.

(3) ويسمى أحدهم (Praetor).

(4) وهو مشتق من (Senex) أي الشيخ.

«التربيون» بحق النقض ورفع الظلامات عن طبقة العوام، فلم يكن بوسعه أن يضمن حقوق العوام وتمتعهم بحق المواطنة والحقوق السياسية ومحافظة ممتلكاتهم إلى غير ذلك، ولذلك لم تكتف طبقة العوام بحصولها على مجلس العوام (أي التربيون المنتخب منهم) بل استمرّت في انتزاع حقوقها من الطبقة المتنفذة المثرية، واستمرّ النزاع وكان شبيهاً بما حدث في أثينا وبعض الدويلات الإغريقية الأخرى في أثناء انتقالها إلى الحكم الديمقراطي ولكن تطور النزاع في روما إلى نتائج أفضل ووصلوا إلى تسوية أحسن والواقع أن الرومان كافحوا كفاحاً شديداً، ولكن بدون إراقة دماء أو ثورات ونجحوا نجاحاً كبيراً في خلال القرنين اللذين أعقبا تأسيس الجمهورية. فمن جملة ما طالبوا به وأحرزوا فيه النجاح تدوين القوانين المتعارف عليها، فلم يكد يمضي خمسون عاماً على تأسيس الجمهورية حتى دوّنت القوانين الرومانية القديمة على اثني عشر لوحاً من البرونز (450 ق.م)، وطالب الشعب في الوقت نفسه أن يكون له نصيب في وضع القوانين الجديدة. ونشأ في روما مجلسان مهمان[1] صارا مجلسين تشريعيين لجميع الدولة الرومانية. وقد استطاع العوام الحصول على حقوق متساوية في انتخاب هذين المجلسين، وهكذا أصبحت للعوام حقوق مهمة في التشريع وزادت حصتهم من إدارة الدولة وحفظت حقوقهم[2].

2 ـ الأمبراطورية الرومانية:

أ ـ أسباب نشوء الأمبراطورية ومقدماتها:

إن العوامل التي سببت انتقال الدولة الرومانية من النظام الجمهوري إلى النظام الأمبراطوري (في عهد أوغسطس) لم تقتصر على اتساع الدولة الرومانية

---

(1) أحدهما (Centuriate) (المئوي) والآخر (Tribal) (القبلي) أو باللاتينية (Comitia Tributa) والآخر (Comitia Centuriata).

(2) يراجع ما ذكرناه عن قرطاجة وعلاقتها مع الرومان في تأريخ بلاد الشام.

بالفتوح الخارجية وضم الأقاليم الخارجية فحسب، بل لنشوء هذا النظام من الحكم أي النظام الأمبراطوري[1] عوامل أخرى من جملتها عامل الاتساع الخارجي وبوسعنا أن نحصر هذه العوامل في ثلاثة أصناف:

أ ـ العوامل السياسية:

نتجت هذه العوامل من النقص السياسي في نظام الحكم نفسه، وبالدرجة الأولى عجز مجلس الشيوخ الروماني في تنظيم إدارة عادلة لائقة تشمل جميع الممتلكات والبلدان التي دخلت في حوزة الدولة الرومانية على أثر الفتوح الخارجية وقد أصبح التفسّخ والفساد مزمنين ولا سيما من جانب الحكّام المستبدين الذين كان همهم سلب خيرات الأقاليم التابعة للدولة الرومانية.

ب ـ العوامل الاقتصادية:

وقد أدّى نهب الأقاليم وابتزاز ثرواتها تجمّع الثروات في أيد قليلة من الحكّام الأرستقراطيين وأصحاب المصالح والأعمال وجامعي الضرائب. فنشأ في روما نظام رأسمالي مركّز نتج عنه الاستحواذ على الأراضي والأملاك بأيد قليلة وإفقار الفلاحين والمزارعين الصغار. ومما زاد في الطين بلة نظام الرق، حيث صار الملاكون يستخدمون العبيد في زرع الأرض فحلّت البطالة والمجاعة في طبقات كثيرة من الناس.

ج ـ العوامل الاجتماعية:

وكان أبرز النتائج الاجتماعية التي نتجت عن تلك الشرور ازدياد البطر

---

(1) سيتضح من الكلام على العهد الذي نشأت فيه الأمبراطورية في زمن أوغسطس أنه بالرغم من نشوء الأمبراطوريات في الشرق بوجه خاص، فإن هذه الأمبراطوريات لم تؤثر في صميم نظام الحكم المتبع في تلك الدول وإنما اقتصر أمرها على اتساع الدولة بالفتوح الخارجية وضم الأقاليم الأخرى إليها. أي إن نظام الحكم ومراكز الملوك في تلك الدول لم يتغير كما حدث في «روما» عندما نشأ فيها النظام الأمبراطوري حيث حدث تغيير دستوري في نظام الحكم، ولذلك يصح أن نطلق على الأمبراطوريات القديمة اسم (Inorganic Empires) تمييزاً لها عن الأمبراطورية الرومانية التي نسميها (Organic).

والبذخ عند الأغنياء وإفقار الجماهير من السكان وازدياد العبيد وعملهم فالتجأ الفلاحون الذين طردوا وحلّ محلهم العبيد إلى الهجرة إلى روما فازداد عدد الجماهير الفقيرة البطالة، وخلقت من ذلك هوة سحيقة بين الأغنياء المتنفذين وبين الفقراء وازداد فيما بينهم الحقد والكراهية.

إن جميع هذه العوامل حتمت نشوء نظام جديد غير النظام الروماني الجمهوري العتيق وهو النظام الذي نشأ يوم كانت روما «دولة مدينة» أما الآن فقد رأينا كيف انتقلت دولة المدينة هذه أولاً إلى دولة موحّدة ضمّت جميع شبه الجزيرة ثم بسطت سلطانها على أقاليم أخرى، فشملت الدولة شعوباً وأقواماً مختلفة، وقد أصبح مجلس الشيوخ الذي تتركّز في يده السلطات عاملاً في إضعاف رئاسة الدولة والسلطة التنفيذية، وكانت إدارة الدولة الواسعة وحكمها يتطلبان الحزم والسرعة في تقرير الأوامر وتنفيذها وحفظ الأمن وصيانة الحدود التي تستلزم قيادة عسكرية حكيمة واسعة النفوذ، ومما زاد في الطين بلة أن الأغنياء من النبلاء كانوا منقسمين على أنفسهم وفي نزاع فيما بينهم على استلاب الثروات.

ولما يئس العوام من الإصلاح قاموا بعدة ثورات لنيل حقوقهم وانضم إليهم كثير من النبلاء لجلب العوام إليهم وتوسيع نفوذهم في الحكم منافسة لغيرهم من النبلاء وقام قسم من هؤلاء المؤيدين للعوام ببعض الإصلاحات التي مسّت بحقوق مجلس الشيوخ (السنات) وأغضبته فحدثت اغتيالات ومؤامرات، وبرز قواد وزعماء، وكان من جملة النبلاء المتقربين من العوام قائد شهير اسمه «بومبيوس» (بومبي) فانتخب قنصلاً (في عام 70 ق.م) وألغى هذا بعض الأنظمة والقوانين المضرة بمصالح العوام واستطاع أن يحافظ على الأمن ويقضي على القرصنة البحرية التي كانت منتشرة في البحر المتوسط وثبت سلطة روما بالقضاء على الثورات التي نشأت في إيطاليا وإسبانيا وآسيا الصغرى، واستطاع أن يفتح الأقاليم في سواحل البحر الأسود وفتح سوريا وجعلها إقليماً رومانياً (64 ق.م) وفتح القدس كذلك حتى أنه أوصل حدود الدولة إلى الفرات كل ذلك عمل على ازدياد نفوذ «بومبيوس» فخافه مجلس

الشيوخ وخشي استبداده بالحكم فأخذ يعارضه ويقاومه، وبرز من المعارضين له قائدان هما «كراسوس» و«يوليوس قيصر»، ولكن استطاع بومبيوس أن يتّفق معهما وتألفت على أثر ذلك حكومة ثلاثية[1] (59 ق.م) وقد صار قيصر في أول سنة من الحكم قنصلاً، ثم صار الاتفاق على أن يحكم قيصر بلاد الغال (فرنسا) مدة خمس سنوات وأن يبقى بومبيوس في روما ويكون صاحب الأمر. أما «كراسوس» فقد ذهب بحملة حربية مع الفرثيين[2] فقتل في الحرب.

يوليوس قيصر:

أخذ يمهد لنفسه ويبسط نفوذه، وقد تقرب من العوام (وهو من طبقة النبلاء) وقد أظهر نفسه سياسياً ممتازاً وعندما ذهب إلى فرنسا أبدى مهارة عسكرية فائقة، واستطاع بعد حروب دامت ثماني سنوات أن يبسط نفوذه على جميع فرنسا من جبال الألب حتى بحر المانش، ومن نهر الراين حتى ساحل المحيط الأطلسي[3] وقد غزا إنكلترا مرتين. واستطاع قيصر أن يكسب رضا جنوده ويستميلهم إليه بحسن المعاملة وزيادة الرواتب وكانت أخبار انتصاراته وأعماله العسكرية قد أكسبته عند الرومان مكانة مرموقة، كل ذلك جعل بومبيوس ومعه مجلس الشيوخ الروماني يخشى نفوذ قيصر واستبداده. وعندما قربت مدة حاكمية قيصر على بلاد الغال من الانتهاء صار أتباعه في روما، بتوصية منه، يمهدون له السبيل لانتخابه قنصلاً، فخشي مجلس الشيوخ من رجوعه إلى روما وهو مزهو بالانتصارات العسكرية، فأخذ «بومبيوس» جانب مجلس الشيوخ متخلياً عن زعامة العوام وجماهير الناس. وكانت أولى بوادر

---

(1) (Triumvirate).

(2) راجع البحث الخاص بالفرثيين.

(3) ومما يذكر عن قيصر أنه مع انشغاله في الحروب والحملات فقد وجد متّسعاً من وقته فألف تأريخاً في الحروب الغالية، ويعدّ تأريخه من أحسن أنواع النثر اللاتيني، وإن كان الغرض من وضعه دعاية سياسية لنفسه أظهر فيها قيصر الأعمال العسكرية المجيدة التي قام بها في سبيل الرومان.

النزاع أن مجلس الشيوخ أصدر أمراً إلى قيصر بتسريح جيشه وهو الجيش الماهر الذي لا يرتبط إلّا بقيصر بصفته قائده العظيم المحبوب. فسلك قيصر تجاه ذلك خطوة جريئة سريعة بأن سار بجيشه إلى روما وأخذ خصومه على حين غرة (49 ق.م)، فلم يسع بومبيوس أن يقابل جيوش قيصر الزاحفة فهرب ومعه كثير من أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء إلى بلاد اليونان ليشن الحرب من هناك وكان معه أسطول عظيم، وله جيش في إسبانيا، وهكذا كان على قيصر أن يحارب قوات الأعداء في جبهتين في الغرب والشرق. وقد بدأ حربه في إسبانيا وبحركات بارعة وبقطع الإمدادات اضطر جيش «بومبيوس» في إسبانيا على التسليم بدون حرب تذكر (49 ق.م) فتفرغ قيصر لحرب خصومه في اليونان (49 ـ 48 ق.م) وقضى عليهم في معركة مشهورة (48 ق.م)، فهرب «بومبيوس» إلى مصر وقتل هناك بتحريض من قيصر. وهكذا تخلص قيصر من أعدائه ومنافسيه وأصبح سيد الأمبراطورية الأوحد. فوجّه همّه من بعد ذلك إلى توطيد أمور الأمبراطورية في الخارج، واستغل فرصة النزاع على عرش مصر بين بطليموس وأخته كليوبترا، فتوجه بجيشه إلى الإسكندرية وحارب بطليموس وقتله وأجلس كليوبترا على العرش وبقي معها عدة شهور[1] (من تشرين الأول 48 إلى حزيران 47 ق.م) وأبدى ضعفاً وانجذاباً أمام الملكة الجميلة، وعاش معها في الإسكندرية[2]. وقد حدثت من بعد ذلك ثورة في آسيا الصغرى فأخمدها قيصر في بضعة أيام. ومما يؤثر عن قيصر كلماته المشهورة التي أرسلها إلى مجلس الشيوخ الجديد (أتيت ـ رأيت ـ ظفرت)[3]، وهي تدل على اعتداد قيصر بنفسه وبقابلياته. وعاد قيصر إلى إيطاليا، وكانت انتصاراته قد رفعت منزلته في نفوس الشعب الذي وجد منه العطف على

---

(1) كليوبترا المشهورة بالجمال وهي سابعة امرأة بهذا الاسم من البطالسة وكانت آخر البطالسة في مصر.

(2) وقد حدثت مرة اضطرابات أحدثها الغوغاء والعوام فهوجم قيصر ولكنه نجا بصعوبة وقد أحرقت مدينة الإسكندرية المشهورة في أثناء ذلك ومعها مكتبتها الشهيرة.

(3) Veni, Vidi, Vici.

مصالحه والرغبة في الإصلاح، فكافأه مجلس الشيوخ وعيّنه دكتاتوراً طوال حياته (سنة 45 ق.م) ومما يقال عن قيصر بوجه الإجمال إنه استعمل قوته ونفوذه باعتدال، فلم ينتقم من أحد ومنح الشعب حريته وقضى على الفوضى ونشر الأمن. وضرب على أيدي الموظفين والجباة المختلسين ووزع الأراضي على جنوده وشغل المواطنين العاطلين، ومنح حق الرعوية الرومانية لجميع سكان البلاد التابعة، ووضع تقويماً جديداً هو التقويم الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم ويسمى باسمه (التقويم اليولياني) وأطلق اسمه على أحد الشهور «يوليو» (تموز).

قام قيصر بهذه الأعمال على الرغم من أنه لم يعش إلّا خمس سنوات منذ أن دخل إلى إيطاليا (49 ـ 44 ق.م)، قضى أربعاً منها بالحروب. وقد عيّن اليوم الثامن عشر من آذار سنة 44 لقيامه بحملة على الفرثيين شرق الفرات ولكن المؤامرات كانت تُحاك ضده، لأن قسماً من الرجال المشهورين من أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يمقتون حكم رجل واحد، وكانوا يحاولون إعادة النظام الجمهوري العتيق الذي حكم التأريخ بزواله وعدم صلاحيته. فأغتيل قيصر في قاعة مجلس الشيوخ في 15 آذار سنة 44[1] وكان من جملة قتلته البارزين «بروتس» و«كاسيوس».

أنطونيوس والحرب الأهلية:

كان قيصر محبوباً لدى الشعب فأثار اغتياله سخطه واستغل ذلك «أنطونيوس» صديق قيصر وأهاج الشعب على قاتليه الذين أخذوا الحكم من بعده واضطرهم على الهرب إلى مقدونيا، وأخذ أنطونيوس الحكم لنفسه، ولكن كان لقيصر قريب شاب يسمى «أوكتافيوس» كان قيصر قد تبنّاه وأوصى بأن يكون وريثه فأسرع هذا الشاب إلى روما وطالب بحقه واستطاع بما أبداه

---

(1) وهو التأريخ المشهور (the Ides of March). راجع بهذه المناسبة رواية «يوليوس قيصر» لشكسير.

من الحنكة والسياسة أن يستميل إليه قسماً من الجنود ونجح في انتخابه قنصلاً (43 ق.م) واستطاع أن يكوّن اتحاداً ثلاثياً منه ومن أنطونيوس ومن زعيم آخر هو «لبيدوس» وتكوّنت من الثلاثة حكومة ثلاثية[1]، على أن يحكم أنطونيوس القسم الشرقي من الأمبراطورية وأوكتافيوس القسم الغربي منها ويحكم الثالث شمالي أفريقيا عدا مصر. وبموت الثالث بعد مدة قصيرة أصبحت الأمبراطورية مقسمة بين «أنطونيوس» و«أوكتافيوس»، أخذ أولهما القسم الشرقي منها وأخذ الثاني القسم الغربي. وكان أول شيء قامت به هذه الحكومة القضاء على قتلة قيصر في معركة «فيلبي» عام 42 ق.م. وأخذت تظهر من بعد ذلك مقدرة الرجلين ومواهبهما. وقد بدا للرومان أن أنطونيوس دون صاحبه في الحكمة والكياسة، وازدادت ضآلة شأن أنطونيوس على أثر فشل مريع في حرب قام بها مع الفرثيين، فالتجأ إلى مصر، إلى كليوبترا الملكة الفاتنة التي سحرت قلبه فأحبها وهام بها، وقد بادلته هذه الحب رغبة في المحافظة على عرشها، فعزم على أن يتزوجها ووعدها بمملكة مصر وبمنح أولادها أفريقيا وسوريا، فانتهز ذلك غريمه «أوكتافيوس»، ولما وصلت الأخبار إلى روما ثار سخط الشعب وقرر مجلس الشيوخ إعلان الحرب على أنطونيوس. وقاد أوكتافيوس الأسطول الروماني والتقى بأسطول أنطونيوس في (أكتيوم) على الساحل الغربي لبلاد اليونان فنشبت معركة عنيفة انتصر فيها «أوكتافيوس» فهرب أنطونيوس بقسم من الأسطول ومعه كليوبترا وتخلى عن جيوشه، والتجأ إلى مصر مرتمياً في أحضان كليوبترا، وسار أوكتافيوس في السنة التالية إلى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر، وانتحر أنطونيوس لعله بسبب تخلي كليوبترا عنه. وأعقب من بعد ذلك انتحار كليوبترا بعد أن يئست من استمالة أوكتافيوس واسترضائه فخشيت ما سيحل بها من المصير المحزن وهو أخذها أسيرة إلى روما وهي سليلة البطالسة وآخر ملوك مصر، فانتحرت بأن تجرّعت السم بيدها وبذلك

---

(1) وهي الحكومة الثلاثية الثانية من بعد زمن قيصر.

انتهت دولة البطالسة في مصر وأصبحت مصر ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الرومانية (30 ق.م).

وهكذا انتهت الحروب الأهلية والقلاقل وأخذت أمور الأمبراطورية تستتب وتستقر وبدأ عهد جديد هو عهد الأمبراطورية امتاز بالهدوء وانتشار السلام مدة طويلة، زهاء القرنين بدأتا في عهد أوكتافيوس ولا سيما من بعد قضائه على غريمه أنطونيوس وضم مصر إلى الأمبراطورية.

ب ـ النظام الأمبراطوري: أوغسطس:

عندما عاد «أوكتافيوس» إلى روما منتصراً استقبل بحماس وحفاوة، ولم يبق له منافس في الحكم، وبدأ عهداً جديداً دام زهاء القرنين يعد من أمجد عهود التأريخ البشري من حيث السلام والهدوء في معظم أجزاء العالم المتمدن. وشعر الرومان بالطمأنينة بعد قرن كان مليئاً بالثورات والحروب الأهلية والتخريب، وشعروا كذلك بضرورة سيطرة حاكم واحد على أجزاء الأمبراطورية الواسعة. وبدأ هذا العهد الجديد بحكم أوكتافيوس الذي دام أربعاً وأربعين سنة (30 ق.م. ـ 14 م) ساد فيها الأمن والسلام، وانصرف هذا العاهل إلى العمران والحضارة، وأحبه الشعب حباً جماً حتى أنهم لقّبوه «أوغسطس» أي «المبجل» أو «الموقر». وكان أعظم عقبة في حكمه تبديل النظام القديم للحكومة وتثبيت ما حصل عليه من السلطة بالطرق الشرعية القانونية. ولكن لم ينهج سبيل العنف واحترم النظام القديم ولم يرغب في أن يكون ملكاً على طراز ملوك الشرق. وأول ما بدأ به أنه لم يناوىء مجلس الشيوخ بل حسن فيه عن طريق الأعضاء اللائقين، والواقع أنه تنازل لهذا المجلس وللشعب الروماني (في عام 27 ق.م) عن جميع سلطاته. ولكن مجلس الشيوخ شعر بعدم استطاعته إدارة شؤون الدولة معتبراً بالتجارب الماضية، فمنح أوغسطس رسمياً قيادة الجيش وحق إدارة أهم الولايات التابعة إلى الأمبراطورية، فاستطاع أن يأخذ لنفسه أهم حقوق مجلس العموم (التربيون) مما جعل سلطانه في الدولة يستند إلى أساس شرعي، ومنحه مجلس

الشيوخ عدا لقب أوغسطس لقباً آخر هو «الأمبراطور»[1]. وقد عدّ أوغسطس نفسه موظفاً يعينه مجلس الشيوخ ولم يكن تعيينه دائمياً بل لعدد محدود من السنين ثم أعيد تعيينه. وعلى ذلك فإن الأمبراطورية الرومانية في هذا العهد الجديد كانت تُدار بحكومة ثنائية من مجلس الشيوخ ومن الأمبراطور أو المواطن الأول، ولكن سلطات أوغسطس كانت تسير إلى التزايد لا سيما وقد كانت بيده السلطة على الجيوش. وقبل أن نذكر شيئاً عن نظام الأمبراطورية نتابع الإيجاز في الكلام عن عهد أوغسطس الذي يشبه بعهد «بريقليس» في تأريخ اليونان. وامتاز أول الأباطرة بالحزم والإدارة، ومما يؤثر عنه أنه قام بجولات في أنحاء الأمبراطورية ليقف بنفسه على حاجات سكانها وسير إدارتها. وقد أدرك ضرورة إنشاء جيش ثابت لحماية الأمبراطورية الواسعة، فألّف جيشاً ضخماً (بلغ عدده 400 ألف جندي) وزّعه في الحدود والأقاليم بحسب الحاجة. وحارب الأقوام التي هاجرت من أواسط آسيا واستوطنت في أواسط أوروبا وشمالها مهددة تخوم الأمبراطورية، واستطاع أن يكسر شوكتها ويدرأ خطرها إلى حين.

وقد انتهت حياة أوغسطس بموته في شهر آب عام 14 م فأطلق اسم الأمبراطورية على ذلك الشهر (أي أوغسطس ـ آب) تخليداً له، وقد أقام له الرومان تمثالاً عظيماً كانوا يسجدون له إجلالاً وتعظيماً.

خلفاء أوغسطس إلى سقوط روما[2]:

وبعد أن أجملنا كيفية انتقال نظام الحكم الروماني من النظام الجمهوري إلى النظام الأمبراطوري نوجز أحوال هذه الأمبراطورية الرومانية من بعد أول

(1) وكان من جملة ألقابه الجديدة المواطن الأول (Princeps). أما لقب الأمبراطور فهو لقب قديم كان يلقّب به القائد المنتصر وهو مشتق من أصل يعني «قاد أو حكم» أي (Imperator).

(2) تراجع الحوادث المهمة ولا سيما علاقات الحروب بين الرومان والفرس الفرثيين والساسانيين مما سوف لا نتطرق إليه في هذا الموجز.

أمبراطور فيها وهو أوغسطس فقد أعقبه في الحكم ربيبه أو ابنه بالتبني طبيريوس (14 ـ 37 م) الذي حكم حكماً مطلقاً وأساء في استعمال السلطة ولا سيما بعد مضي بضع سنوات على حكمه حيث ارتكب الظلم والاضطهاد لما لقيه من المقاومة في العاصمة، واشتهر حكم طبيريوس بأنه تمّ في عهده صلب السيد المسيح. وخلفه في الحكم «كاليجولا» (Caligulla) (37 ـ 41 م)، ولكن هذا لم يكن كفوءاً بل كان شبه مجنون، فانصرف إلى الملاذ حتى أنه صار يشترك في المصارعة مع اللاعبين. واغتاله أحد الضباط بعد حكم أربع سنين. وتميز حكم الأمبراطور الذي خلفه وهو كلوديوس (41 ـ 54 م) بإدخاله بدعة في الدستور الروماني تلك هي سماحه للنبلاء الغاليين بدخول مجلس الشيوخ ومناصب القضاء، كما افتتحت بريطانيا في عهده من بعد غزو يوليوس قيصر لها بنحو مائة عام فصارت ولاية تابعة للأمبراطورية (عام 43 م)، وقامت فيها مدن تطورت بمرور الأزمان إلى مدن إنجليزية مهمة. وأحاط كلوديوس نفسه ببطانة شريرة ولا سيما زوجاته وآل أمره إلى أن سمته إحداهن المسماة «أغريبنا» وكانت هذه أم نيرون فقامت بفعلتها لتمهد لابنها اعتلاء العرش. وكان نيرون (54 ـ 68 م) تلميذاً للفيلسوف الكبير «سنيكا»، ولكن لم تقوّم فلسفة هذا الفيلسوف من غرابة أطوار نيرون فقد ارتكب آثاماً وشروراً كثيرة، وتنسب إليه المآثر أنه هو الذي أحدث الحريق الكبير في روما لكي يشيدها من جديد على طراز أحسن وأنه صعد إلى سطح قصره يمتّع نظره بمشهد النار عازفاً قصيدة من نظمه بعنوان «نهب طروادة»[1]، وأنه لكي يدرأ عنه الشبهة اتهم المسيحيين مستغلاً ما كان يتنبأ به بعضهم من قرب مجيء المسيح بعد هلاك العالم بالنار، فاضطهد المسيحيين اضطهاداً وحشياً، والمأثور أن بطرس وبولس هلكا نتيجة هذا الاضطهاد. وفيما كان نيرون بعيداً عن روما في الشرق حاكمه مجلس الشيوخ في غيابه وحكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى،

---

(1) إذا صحّت نسبة الحريق إلى نيرون فيكون هذا مصاباً بالجنون المعروف بجنون النار (Clyptomania).

فلما علم هذا انتحر، وكان نيرون سادس أمبراطور من سلالة يوليوس قيصر. وبعد موته وقعت الاضطرابات والمنازعات حول تولّي العرش فخلفه ثلاثة أباطرة خاملي الشأن لم يدم حكمهم زمناً طويلاً (68 ـ 69 م) ثم تغلب على عرش الأمبراطورية قائد الجيش الفلسطيني فسباسيان (69 ـ 79م)، وكان هذا شيخاً محبوباً، وحدثت في عهده ثورة اليهود المشهورة ضد الرومان فدمرت أورشليم بقيادة ابنه «طيطوس». وأوقعت مذبحة مريعة باليهود على ما بيّنا في كلامنا على تأريخ الشام. ومات فسباسيان موتاً طبيعياً فخلفه ابنه «طيطوس» (79 ـ 81 م)، الذي امتاز بتساهله، ولكن وقع في عهده حدثان مهمان أحدهما حدوث حريق آخر في روما كالذي حدث في زمن نيرون، كما ثار بركان فيزوف الشهير فدمر أشهر مدن «كمبانيه» وهما «بومبي» ومدينة «هركولانيوم»، فطمرت المدينتان بحمم البركان. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن المؤرخ الشهير «بليني» ذهب لمشاهدة الحدث ودرسه فأهلكه البركان[1]. وجاء من بعد طيطوس أخوه «دوميشان» (81 ـ 96 م) وبعد أن أمضى السنين الأولى امتلأ حكمه بالقتل واغتصاب الأملاك، فحدث نزاع حاد بينه وبين المجلس الأعلى الروماني، ولكن مات هذا الأمبراطور باغتياله من جانب أسرته وأعقب عهده حكم خمسة أباطرة لقّبوا بالأباطرة الصالحين (96 ـ 180 م) وهم نرفا (96 ـ 98 م) وتراجان (98 ـ 117 م) وهادريان (117 ـ 138 م) وأمبراطوران يسمى كل منهما أنطونيوس (138 ـ 180 م). هذا وقد سبق أن نوّهنا بعلاقات بعض هؤلاء وحروبهم في كلامنا على الدولة الفرثية. فلا نكرر ذلك إلّا بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن بعض هؤلاء الأباطرة ولا سيما تراجان الذي كان جندياً إسبانياً، وهو أول من ارتقى عرش القياصرة من أهل الولايات الرومانية التابعة، ففتحت هذه السابقة الباب

---

(1) وبعد انطمار المدينتين بنحو 16 قرناً اكتشفتا بالصدفة في عام 1713 م ثم أجريت التنقيبات فيهما من جانب السلطات الإيطالية، فظهر القسم الأعظم من بومبي كبيوتها ومسارحها وحماماتها ومعابدها وفنونها الخ...

لازدياد شأن أهل المستعمرات في مصائر الرومان، وقد وسع تراجان من حدود الأمبراطورية الرومانية كثيراً ففي الناحية الأوروبية تجاوز الدانوب الذي جعله أوغسطس حدّ الأمبراطورية في أوروبا، وتجاوز الفرات أيضاً، حد الأمبراطورية في آسيا، حيث اجتاز الفرات وأخضع أرمينيا وأخذ العراق من الفرثيين. ومن ملوك هذه الفترة مرقس أوريليوس الذي خلفه ابنه «قومودوس» (180 ـ 192 م)، وكان هذا قاسياً غريب الأطوار حتى أنه امتهن المصارعة.

وحلّ من بعد حكم «قومودوس»، عهد ضعف وفوضى في الأمبراطورية دام زهاء القرن الواحد (192 ـ 284 م) بسبب تدخل الجند في شؤون انتخاب الأباطرة إذ صار الجند في الواقع هم الذين ينصبون الأباطرة. وقد حكم في هذه الفترة خمسة وعشرون أمبراطوراً ماتوا قتلاً باستثناء أربعة منهم فقط. ومما فاقم الاضطرابات الداخلية ازدياد غزوات البرابرة وإحلال الدمار والخراب في تخوم الأمبراطورية، وابتدأ هذا العهد ببيع الجنود الحرس عرش الأمبراطورية لمن كان يدفع فيه مالاً أكثر، وعند ذاك ثارت الفرق الرومانية الأخرى المعسكرة في أنحاء الأمبراطورية ونادى كل جيش منها بقائده أمبراطوراً، ونجح أحد هؤلاء وهو «سويروس» قائد جند الدانوب إذ هجم على روما وأزاح الأمبراطور الذي باعه الحرس الأمبراطوري العرش. وخلفه كراكاله (211 ـ 217 م) الذي كان طاغية سفاحاً انتهى أمره بقتله في سوريا[1]، ولكنه قام بعمل مهم هو أنه شمل بالرعوية الرومانية جميع أحرار الأمبراطورية، ولعله كان مدفوعاً بطمع الحصول على الضرائب الفردية، تلك الضرائب الشخصية التي كانت تُجبى من المواطنين الرومان. وحل بعد موت «كراكاله» قرن آخر مليء بالفوضى وبسرعة انتقال العرش من أمبراطور إلى آخر كما تفاقم في هذه الفترة خطر البرابرة فصاروا يتوغلون في غزواتهم إلى الولايات الرومانية المختلفة. وحكم من بعد ذلك جملة أباطرة طغاة امتازوا بالكفاءة أشهرهم

---

(1) انظر حروبه مع الفرثيين في تأريخ الفرثيين.

«كلوديوس» و«أورليان» و«تاسيتوس». وحكمت زنوبيا الملكة العربية الشهيرة في زمن أورليان ولقّبت نفسها بملكة الشرق، فجهز عليها الأمبراطور أورليان جيشاً قاده بنفسه على ما بيّنا، وبعد حصار طويل فُتحت تدمر.

انتهى قرن الفوضى بتولي عرش الأمبراطورية الرومانية الأمبراطور «ديوقليشان» (284 ـ 305 م) الذي اشتهر بما أدخله من الإصلاحات في المملكة ولا سيما إصلاح نظام تولي الأباطرة للقضاء على هذه الفوضى وإيقاف قتل الأباطرة وتنصيبهم بالأساليب الكيفية ولكن نظامه لم يخفف من الوضع كثيراً كما أنه اتخذ نظام الحكم المطلق على طراز ملوك الفرس الساسانيين. فأولاً أشرك معه في الحكم خليفته وجعل لنفسه ولهذا الخليفة مساعداً لقّب بلقب القيصر، أما «ديوقليشان» وخليفته فقد لقبا بلقب أوغسطس. ومما يذكر عن عهد ديوقليشان في أواخر حكمه ما أحله من الاضطهاد الشامل بالمسيحيين من رعايا الأمبراطورية، وقد تفنن القوم في أنواع الإماتة والتعذيب، فبالإضافة إلى إلقاء الضحايا في غياهب السجون كانوا يلقون أمام السباع في الملاعب ليتسلى بهم الجمهور كما كانوا يحرقون بنار خفيفة. وبعد أن حكم ديوقليشان عشرين عاماً حكماً موفقاً سئم الحكم فأعتزل العرش، وجعل خليفته يستقيل أيضاً فحدثت المنازعات حول العرش ونادى الجند بقسطنطين أمبراطوراً (306 ـ 337 م)، ولكنه ظل يحارب المنازعين له زهاء 18 عاماً. واشتهر قسطنطين باعتناقه للمسيحية (في ميلان عام 313 م) جاعلاً إياها ديانة رسمية بل ديانة الدولة الرسمية، كما أنه بدأ البداية التي جعلت من الكنيسة مؤسسة مالكة عظيمة تملك العقارات والأراضي فقد سمح للهيئات والمؤسسات المسيحية بقبول العطايا والهبات والأوقاف كما أنه نفسه أقطعها الثروات والأراضي. واعترف قسطنطين بيوم الأحد ليكون يوم راحة وعطلة رسمية، وكان الأحد عند الرومان «يوم عبادة الشمس». وإلى قسطنطين يعزى اجتماع مجمع نيقيا الكنسي في آسيا الصغرى (325 م) الذي جرت فيه المناظرة الدينية الشهيرة بين أتباع «أريوس» وبين أتباع «اثناسيوس» (وكلاهما من أساقفة الإسكندرية)، فأقر المبدأ الاثناسي

ورفض المذهب الأريوسي الذي كان ينكر كون طبيعة المسيح مساوية لطبيعة الله أو مادته[1]. ونذكر عن قسطنطين أيضاً اختياره لبيزنطية لتكون عاصمة جديدة للأمبراطورية تبرماً منه بروما وبوثنيتها، وكان أيضاً مدفوعاً في اختياره هذا بعوامل حربية استراتيجية حيث أعداء الرومان الشرقيون، وهم الفرس الساسانيون. وأجرى قسطنطين أيضاً إصلاحات مهمة في نظام الحكومة، حيث قسم الأمبراطورية إلى أربع ولايات كبرى قسمت كل منهما بدورها إلى أقسام إدارية أخرى.

وخلف قسطنطين الكبير جوليان (361 ـ 363 م) الذي عكس سياسة سلفه بالنسبة إلى المسيحية إذ عمل على إرجاع الوثنية. ومما يميّز العهد الذي أعقب موت قسطنطين حلول فترة اضطرابات وضعف دامت زهاء (25) عاماً، ثم استولى على العرش جوليان المذكور، وخلفه جوفيان (363 ـ 364 م) الذي أرجع المسيحية إلى سابق عهدها.

لقد عاشت الأمبراطورية الرومانية في الغرب قرناً آخر من الزمن من بعد عهد جوفيان بقليل (376 ـ 476 م) وقد شغل هذا القرن بالنزاع ورد غزوات البرابرة ولا سيما القبائل الجرمانية، ودشن هذا القرن بحادثة طريفة في علاقة الرومان بالبرابرة هي فرار الغوط الغربيين من قبائل الهون الهائلة (376 م) حيث فروا من شمال الدانوب الأسفل فاستعطفوا السلطات الرومانية بالسماح لهم بعبور النهر والإقامة في تراقيا هرباً من تلك القبائل المغولية المحاربة فسمح لهم الأمبراطور «فالنيس» بالإقامة بشرط إعطاء أولادهم رهائن، وبعد فترة قصيرة جاءت بأثرهم قبائل كثيرة من الغوط الشرقيين الذين طردهم من مواطنهم «الهون» أيضاً فرفض الأمبراطور السماح لهم بالعبور، ولكنهم عبروا الدانوب عنوة بأسلحتهم فدخلوا حدود الأمبراطورية وانضمّ إليهم أقرباؤهم الغوط الغربيون وأحدثوا الدمار في الولايات المتاخمة للدانوب، وجرت بينهم

(1) انظر كلامنا على نشوء المسيحية في تأريخ بلاد الشام.

وبين الرومان معارك قتل فيها الأمبراطور نفسه في أدرنة، وظل شريكه في الحكم الأمبراطور غراشيان (الذي كان مركزه في روما) واختار معه في الحكم «ثيودوسيوس» الشهير الذي أخضع الغوط ولكنه أدخل منهم جنداً كثيرين إلى الجيوش الرومانية. حكم ثيودوسيوس من 392 إلى 395 م، وقام قبيل موته بتقسيم الأمبراطورية بين ولديه إلى قسم شرقي ومركزه القسطنطينية وعلى رأسه «أركاديوس» وإلى قسم غربي وعاصمته روما وعلى رأسه «هنوريوس». وقد دامت الأمبراطورية الشرقية ما يربو على ألف عام، إلى فتح العثمانيين القسطنطينية (1453 م).

أما مصير الأمبراطورية الغربية فنكتفي هنا بالتنويه بأن البرابرة كانوا يتأهبون للانقضاض عليها بعد موت «ثيودوسيوس» بسنوات قليلة. وكان آخر انتصار للرومان على البرابرة النصر الذي أحرزه القائد الوندالي «ستيليكو» قائد هنوريوس على الغوط الغربيين الذين تدفقوا من تراقيا بقيادة زعيمهم «الرك» واندفعوا من مضيق ثرموبيلي ودمروا بلاد اليونان وعبروا الألب وأوقعوا الرعب في إيطاليا (402 ـ 403 م) ولكن القائد الروماني دحرهم، فاحتفى الرومان بهذا النصر احتفاء عظيماً (404 م)، ولكن ارتكب الأمبراطور حماقة لا تغتفر، ذلك لأنه أعدم قائده العظيم «ستيليكو» خوفاً من مزاحمته. فثار الجنود الغوط لقتل أزواجهم وأولادهم الذين كانوا رهائن في إيطاليا، فتأهب الزعيم الغوطي «الرك» مرة ثانية واجتاز الجبال وقاد جيوشه إلى أبواب روما وحاصرها ولكنه تخلى عن تدميرها مقابل فدية عظيمة، ثم أعاد الكرة «الرك» (عام 410 م) على روما وكان هجومه عليها ليلاً فألقى الرعب والهلع في أهلها، ولكن الغريب في أمر هذا الفاتح البربري أنه أمر جنوده بالإبقاء على حياة الناس وألّا ينتهكوا المعابد المسيحية، ولكنه أباح لهم أموال السكان، وظل الغوط ينهبون المدينة ستة أيام بلياليها. ومات الرك (410 م) فانسحب أتباعه واجتازوا الألب وأقاموا معسكراتهم ومضاربهم في جنوبي فرنسا وشمالي إسبانيا مكونين ما يعرف بمملكة الغوط الغربيين، وكانت القبائل البرابرة الأخرى تؤسس ممالك لها في ولايات الأمبراطورية الأخرى مثل الفرنك، والوندال القريبين من

الغوط حيث نزحوا من مواطنهم في «بانونية» واجتازوا فرنسا وجبال البرنيس إلى إسبانيا واستقروا زمناً ما في إقليم في إسبانيا اشتق اسمه من اسمهم هو «الأندلس». وفيما كان البرابرة يعيشون في أنحاء الأمبراطورية ويقتسمونها مؤسسين نواة الدول والممالك الأوروبية فيما بعد ظهرت قبائل «الهون» المغول مرة أخرى وكان اندفاعهم في هذه المرة عنيفاً قوياً ويقودهم قائد شديد المراس هو «أتيلا» العاتي سلف «هولاكو»، فهزم جيوش الأمبراطورية الشرقية ولم تسلم القسطنطينية إلا بدفع الجزية، ثم اتجه بجموعه الهائلة إلى الغرب وعبر الراين إلى فرنسا مصمماً على الهجوم على إيطاليا والقضاء على روما، فدب الهلع في أوروبا. ولصد هذه الجموع اتحد الجرمان والرومان والغوط الغربيون، وهجموا على موضع «أتيلا» حيث انتظر الهجوم في سهول «شالون» في شمالي فرنسا، فنشب قتال مرير طويل انتهى بانخذال الهون، فرجع «أتيلا» متقهقراً بجيشه إلى ما وراء الراين. والواقع أن هذا النصر يعدّ من الانتصارات الحاسمة التي قررت مصير أوروبا ومستقبلها. ولكن «أتيلا» لم يتخل عن خطته في تدمير روما فقد نزل مرة أخرى واجتاز موضع البندقية الآن، وهددت جيوشه روما، ولكن الغريب أنه لم يقتحمها بل ارتدّ، ويقال إن ذلك كان بسبب توسط أسقف روما وتحذيره من نقمة السماء. فرجع بجيوشه إلى ما وراء الألب ومات فجأة (عام 453 م) من بعد وليمة للاحتفال بزواجه بامرأة شابة، ولعل لأمبراطور القسطنطينية يداً بدس السم له، واختفى الهون من بعد موته من التأريخ حيث اختلطوا بالأقوام الأوروبية الآرية، وكانت أمبراطورية «أتيلا» تشمل أقواماً من غير المغوليين أيضاً من بينهم أقوام جرمانية وتمتد من الراين عبر السهول إلى أواسط آسيا. وكان يتبادل السفراء مع الصين، أما مخيمه الرئيسي فكان في سهل هنغاريا، شرق الدانوب، وجاءه إلى مقره هذا سفراء من القسطنطينية، وقد خلف لنا أحدهم «فريسكوس» (Priscus) أخباراً عن أتيلا وحكومته.

لم تظل الأمبراطورية بعد هذه الحوادث سوى بضعة أعوام، وتوالت على روما التي انحصرت فيها وفيما جاورها تلك الأمبراطورية، المصائب

والمحن. فقد نهبها الوندال (455 م) الذين جاؤوا من شمال أفريقيا، من المملكة التي كونوها هناك واشتهرت بقرصنة البحار، وأخيراً سقطت روما على يد أحد قواد القبائل الجرمانية المسمى «أوداسر» وخلع آخر أمبراطور عن العرش (476 م) وأرسل شعار الأمبراطورية إلى «زينون»، أمبراطور القسطنطينية سائلاً إياه ذلك الزعيم الجرماني أن يحكم في إيطاليا باسمه، فأقرّه على الاقتراح وصارت إيطاليا ولاية من ولايات الأمبراطورية الشرقية.

ومن الصدف الغريبة أن الأمبراطور الروماني الذي خلعه أوداسر كان اسمه «روملوس أوغسطولس» المركب من اسم «روملوس» الذي تنسب إليه المآثر تأسيس مدينة روما ومن تصغير اسم أوغسطس مؤسس الأمبراطورية الرومانية.

نظام الأمبراطورية الرومانية:

ولنأخذ الآن أبرز ما يمتاز به نظام الأمبراطورية الرومانية التي أوجزنا تأريخها:

(1) رأينا فيما سبق كيف أن عوامل عديدة أدّت إلى نشوء نظام الحكم الأمبراطوري في زمن أوغسطس (30 ق.م ـ 14 م). وكيف سبق هذا العهد قرن كان مملوءاً بالاضطراب والثورات والحروب الأهلية. وقد ظلت الأمبراطورية الرومانية نيفاً وقرنين من الزمان من بعد عهد أوغسطس وهي موطدة متماسكة وعلى مستوى عال من المدنية والرفاه. ولكن بدأ يحلّ فيها في القرن الثالث للميلاد تغييرات كانت تسير بها إلى الانهيار والتفسخ، وقد نشأت هذه النكسات من جملة عوامل معقدة ـ سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية. وعلى الرغم من مجهودات الأباطرة الأقوياء لإيقاف التدهور، فإن أمور الأمبراطورية كانت تسير إلى الأفول والتدهور، وآل الأمر إلى فقدان الجزء الغربي من الأمبراطورية تقريباً بهجمات البرابرة في نهاية القرن الخامس.

(2) لقد أثرت خمسة القرون التي حكمت فيها الأمبراطورية في تأريخ

حوض البحر المتوسط من الناحية الحضارية والسياسية، وكان هذا التأثير عميقاً ثابتاً، يتجلى بوجه واضح في تأريخ الحضارة الأوروبية ويظهر كذلك تأثير التراث الروماني في الحضارة العربية الإسلامية، وإذ كنا قد أكّدنا في درسنا حضارة الإغريق الناحية الفكرية: علومها وفنونها وفلسفتها وأدبها فينبغي لنا بدراستنا روما أن نؤكد من حضارتها ومن تراثها نواحي أخرى أهمها: التنظيم والطرق والحكومة والإدارة والقانون.

(3) ويصح أن نشبه الأمبراطورية الرومانية بـ «بوتقة» انصهرت فيها الشعوب والتقت الحضارات وامتزجت الآراء، ولا نعدو الواقع إذا قلنا إن المثل الأعلى لهذه الأمبراطورية كان دمج البشر في حكومة عالمية، وهي الفكرة التي استولت على عقل الإسكندر الكبير. وقد التقت ضمن هذه الأمبراطورية حضارات الشرق مع الحضارة الهلنستية، ونشأت في أحضانها المسيحية فاختلطت هذه التيارات بعضها مع بعض وأثرت على شعوب مختلفة كانت تعيش ضمن الأمبراطورية وانتشرت إلى الأقوام البربرية من التيوتون والسلاف فيما وراء تخوم الدانوب.

(4) وبوسعنا أن نعد الأمبراطورية الرومانية نتيجة خبر وتجارب بشرية دامت زهاء ألفي سنة كانت ترمي إلى دمج أقاليم وأقوام كثيرة متنوعة تحكمها دولة مركزية قوية. فبدأ الآكديون في العراق بهذه التجربة ثم البابليون والمصريون والحثيون[1] والآشوريون والفرس والإسكندر الكبير والسلوقيون ومعاصروهم الفرثيون والساسانيون ـ وكل من هؤلاء قد كوّن من هذه التجارب أنظمة ومآثر خاصة استفاد من تراثها قياصرة الأمبراطورية الرومانية، وعلى ذلك فيمكننا عدّ الأمبراطورية الرومانية آخر المراحل التطورية التي وصل إليها

(1) لقد سبق أن نوّهنا بالوثيقة التأريخية المهمة التي جاءتنا من الحثيين من عاصمتهم بوغاز كوي المتضمنة أقدم قانون أساسي أو دستور من نوعه (منتصف الألف الثاني ق.م). ويعزى هذا القانون الأساسي إلى الملك (تيليبينوس) وقد كتب بالخط المسماري واللغة البابلية القديمة (راجع الجزء الأول من الكتاب).

هذا النظام من الحكم. ولعل ذلك هو السبب الذي جعل الأمبراطورية الرومانية تتصف بالثبات وحسن التنظيم ونظام الرعوية والقانون الذي تطور عند الرومان من قانون عتيق خاص بالرومان إلى قانون يسري على أقوام وشعوب كثيرة من البشر وهذا هو قانون الشعوب كما سنرى ذلك فيما بعد.

(5) ولم يشذ الرومان عن الدول الاستعمارية الأخرى في كثير من الأمور إذ يحتمل أنهم لم يعتقدوا أنهم كانوا فاتحين غزاة، مدفوعين بالأنانية والنهب واستغلال الأقوام الضعيفة. بل لعلهم كان يميلون إلى الاعتقاد بأنهم لم يحاربوا إلّا ليدافعوا عن أنفسهم ويدفعوا خطر الأقوام التي ادعوا بأنها تهددهم، ولعله تولّد عندهم نفس الشعور الذي تولّد عند المستعمرين الأوروبيين في الوقت الحاضر في تبرير الاستعمار بأنهم كانوا ذوي رسالة يؤدونها وهي نشر السلام والعدل والحضارة. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الأقوام التابعة إلى للأمبراطورية كانت راضخة للحكم الروماني وراضية في القرنين الأولين من تأريخ الأمبراطورية ولم يبد على معظم الأقاليم التابعة، بعد أن كانت تكتسب الرعوية الرومانية، ميل للانفصال فكانت في الواقع منجذبة إلى المركز بعوامل كثيرة منها حسن الإدارة والعدل والسلام والزعامة الصحيحة، ولكن لم تستمر هذه الصفات عند الرومان الحاكمين زمناً طويلاً إذ حل في الأمبراطورية التفسخ منذ القرن الثالث للميلاد وفقدت أهليتها للحكم، فبدأت الأقوام التابعة تنفصل عن المركز، وانهارت الأمبراطورية من بعد ذلك.

(6) تخوم الأمبراطورية وحمايتها: لعل أهم القضايا التي جابهت الأمبراطورية منذ تأسيسها كانت قضية الدفاع عن الأقاليم التابعة والمحافظة على حدود الأمبراطورية ثم قضية التنظيم الإداري الذي كان يتوقف عليه الرفاه الاقتصادي وإذا استثنينا ما أضيف إلى الأمبراطورية من بعد أوغسطس مثل بريطانيا وأرمينيا وشمالي بلاد ما بين النهرين فإن حدود الأمبراطورية ظلت كما كانت عليه في أيام أوغسطس. فكان الراين والدانوب تخوم الأمبراطورية تجاه البرابرة الأوروبيين والفرات الحد تجاه الفرثيين أولاً ثم الفرس الساسانيين.

وكانت جيوش الأمبراطورية موزعة بين هذين الاتجاهين، واشتهر الرومان بطرقهم الهندسية العجيبة التي سهلت حكم أجزاء الأمبراطورية، يُضاف إلى ذلك إنشاء الأسوار والحصون والأساطيل وقد سبق أن ذكرنا بعض الحصون المهمة التي نشأت في شمالي العراق وفي سوريا في التخوم بين الفرثيين والفرس الساسانيين من بعدهم وبين الأمبراطورية الرومانية. أما الجنود فكانوا من المحترفين المدربين، وكانوا يجندون مدة طويلة وكثيراً ما استخدموا في حالة انتفاء الحروب في تعبيد الطرق وما شابه ذلك. وامتازت الجيوش الرومانية بالعدة الممتازة وبالضبط والتدريب العسكريين وكان يقودها أمهر القواد وأكثرهم خبرة بالحرب، وهذا مما جعلها أحسن ما عرفه التأريخ من نظام الجند، وبالوسع تقدير هذه الجيوش بمعدل بين (225,000) و(350,000) مقاتل، قوامها أولاً من الرومان والإيطاليين ولكن أخذت الدولة فيما بعد تجنِّد كثيراً من سكان الولايات التابعة لها، ثم من البلدان القاصية المتأخرة حتى شمل التجنيد كثيراً من القبائل الأوروبية من البرابرة، وبذلك صار نظام الجيش الروماني وسيلة مهمة للتهذيب والوحدة بين شعوب العالم، ولكن كان لذلك نتيجة أخرى مغايرة صارت من جملة الأسباب المهمة في القضاء على الأمبراطورية حينما أخذت هذه الجنود تفقد شعورها بالإخلاص والولاء للأمبراطورية، ويدب فيها التذمر عندما فكّرت في الرفاه والنعيم اللذين كانت تتنعم بهما الطبقات الموسرة المرفهة. وآل الأمر فيما بعد (منذ 235 م) إلى أن صار الجيش يتدخل في الحكومة، يعزل قيصراً ويتوج قيصراً. وكثيراً ما كان الجيش يعزل القيصر الأرستقراطي ليحل محله قيصراً من طبقته ولا يهمه من ذلك سوى زيادة الرواتب أما المحافظة على الحدود فلم يكن يهمه في شيء. والواقع أن تدخل الجيش بدّل كيان الأمبراطورية من أساسه. وإذا كان باستطاعة القياصرة العسكريين الآتين إلى الحكم بتدخل الجيش أن يوطدوا الأمور بعض الشيء ويوقفوا انهيار الأمبراطورية، فإن النهاية كانت محتومة لا بدّ منها. ومهما كان الحال فإن تفسخ نظام الجيش كان جزءاً من سلسلة أعم من التدهور العام الذي شمل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية بيد أن

تفسخ الجيش كان السبب المباشر في شل قوى الأمبراطورية وجعلها لا تقوى على محافظة تخومها.

(7) الحكومة: لكي نفهم نظام الحكومة في عهد الأمبراطورية نستعيد هنا أبرز الأمور التي كان يمتاز بها نظام الحكم الروماني القديم قبل نشوء الأمبراطورية. وبوسعنا أن نلخص ذلك بما يأتي:

(1) سيادة الشعب سيادة من الوجهة النظرية، أي سيادة المواطنين الرومان الممثلين في المجالس.

(2) تقسيم السلطة التنفيذية وتوزيعها على موظفين إداريين كانوا ينتخبون مدداً قصيرة وكان كل من هؤلاء بمثابة الرادع المراقب لغيره.

(3) مجلس الشيوخ (السنات)، الذي كانت سلطته في الأصل محصورة بإبداء المشورة وبالسلطة المعنوية ولكنه صار فيما بعد أهم السلطات الحاكمة. ومقابل هذا النظام القديم نجد النظام الأمبراطوري يهدف إلى تمركز السلطات بيد السلطة التنفيذية وعلى رأسها حاكم واحد هو الأمبراطور الذي أخذ بيده السلطة المطلقة تدعمها أهم وظيفة أخذها وهي قيادة الجيش العليا التي أعطيت لأول أمبراطور وهو أوغسطس، وإلى ذلك كله أخذ الأمبراطور جميع السلطات التي كان يتمتع بها مجلس العوام (التربيون). ولم يترك لمجلس الشيوخ في الواقع إلا ظاهر السلطة. ومما ساعد على حصر السلطان المطلق بيد الأمبراطور بصفته رأس الإدارة المدنية والعسكرية الأحوال التي أحاطت بأول أمبراطور ونعني به أوغسطس فإن انتصاراته ووضعه حداً للثورات والحروب الأهلية المرهقة التي استغرقت زهاء قرن واحد وتقدير الشعب وحبه له جعلهم يظهرون تقديرهم وحبهم بإغداق السلطات والحقوق عليه فصارت امتيازات للأباطرة الذين أعقبوه.

وكانت الأمبراطورية في إدارتها مقسمة إلى ولايات، بعضها تحت إدارة مجلس الشيوخ نفسه والأخرى ـ وبضمن ذلك الولايات في تخوم

الأمبراطورية ـ كانت تحت إدارة الأمبراطور نفسه. ولكن انتقلت الولايات التي كانت تحت إدارة مجلس الشيوخ إلى إدارة الأمبراطور ولا سيما من بعد القرن الثاني. وشغل الأباطرة في القرنين الأولين من تأسيس الأمبراطورية في إصلاح طرق جباية الضرائب، وكان حكّام الولايات يعينون برواتب معلومة وهم تحت مراقبة وسيطرة تامتين. وبمرور الزمن نشأت طبقة خاصة اختصّت بالتوظيف والخدمة العامة فنشأت طبقة الموظفين الذين صار التوظيف مهنة وفناً لهم. ومما يقال في طبقة الموظفين إنها في أحسن العهود كانت تمتاز بحسن الإدارة والكفاءة، ولكن كثيراً ما عانى الأباطرة في المحافظة على المستوى العالي لطبقة الموظفين ومنعهم من الصيرورة جهازاً «روتينياً» أو جهازاً ظالماً همّه الرشوة وابتزاز المال، وقد تمتعت بعض الولايات بقسط من الحكم الذاتي، وكان هم المراقبين من الحكومة المركزية مقصوراً على مراقبة انتخاب الموظفين المحليين وسماع الشكاوى ضدهم. ولكن أخذ الحكم المحلي يضعف بمرور الزمن وازدادت السيطرة من جانب الحكومة المركزية. واتسعت حقوق المواطنة والرعوية الرومانية بالتدريج فشملت سكان الأقاليم ولكن كان يتبع هذه الحقوق واجبات باهظة وصارت هذه الواجبات في الأيام الأخيرة أغلى من تلك الحقوق وعبئاً ثقيلاً كان من جملة العوامل في انهيار الأمبراطورية.

(8) نظام تولي الأباطرة: نظام تولي الأباطرة نظام غريب لا هو بالوراثي الخالص ولا بالانتخابي الخالص. فمن الوجهة النظرية كان الأمبراطور ينتخب انتخاباً ويتم توليه الحكم بإرادة تأتي من مجلس الشيوخ ولكن الأمبراطور كان يعين خليفة له وظلت هذه الطريقة معمولاً بها زهاء قرنين وقد ضمنت تتابع مجيء قياصرة قادرين بالطرق السلمية فيكون نظام الأمبراطورية في هذين القرنين الأولين من عمرها أشبه ما يكون بالخلافة في العهد الأموي والعباسي ـ تعيين الخليفة وبيعته من قبل المسلمين. وقد حكم في هذا العهد عدّة أسر من الأباطرة وغالباً ما كان الأمبراطور المعين خليفة من أقارب الأمبراطور المرشح أو قريبه بالتبني أو من المقربين إليه ممن يعتمد عليهم. أما القرن الثالث فقد

شغل معظمه بتمزق الأمبراطورية بالحروب الأهلية بسبب النزاع على تولي منصب الأمبراطور، وكان الجيش في الواقع هو الذي يعين ويخلع الأباطرة وكان معظمهم من قواد الجيش وقد تردّى الحال في القرن الرابع وتغير روح نظام الأمبراطورية وأصبح حكماً مستبداً، ونشأت في هذا القرن عاصمة شرقية في القسطنطينية. واعترف في هذا العهد أيضاً بالدين المسيحي بصورة رسمية، وتمت سيادة هذه الديانة قبل نهاية القرن الرابع. وبدأ البرابرة في الربع الأخير من القرن الرابع بهجماتهم على الأمبراطورية التي كانت بوجه العموم سائرة إلى الأفول.

وقبل أن نذكر طرفاً من الحضارة الرومانية نتمهل قليلاً في التفكير بأسباب انهيار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها.

كانت الأمبراطورية الرومانية تهدف منذ تأسيسها إلى الوحدة، أي تماسك أجزاء الأمبراطورية وتعلقها بالحكومة المركزية، وقد اتخذت لذلك سبلاً مختلفة منها طرق القوانين والإدارة والتنظيم، ولكن بنيت وحدة الأمبراطورية الرومانية في الواقع على أساس القوة العسكرية، ولم يمض زمن طويل على تأسيسها على أساس القوة العسكرية حتى أخذت ظواهر الحال في هذه الأمبراطورية تشير إلى وحدة ناشئة من المصالح والنفع المتبادل بين الأقوام المختلفة التي كانت تؤلفها، ومما زاد في ذلك انتشار الحضارة الهلنستية ودخول هذه الأقوام فيها وكانت هذه الأقوام كذلك تعتمد بعضها على بعض من الناحية الاقتصادية ومن ناحية الدفاع المشترك وبوسعنا أن نجمل أهم الروابط التي عملت على تماسك الأمبراطورية كالآتي:

(1) حكومة منظمة تنظيماً راقياً وإدارة صالحة مسؤولة أمام الأمبراطور.

(2) نمو قوانين وشرائع طبقت على أقوام مختلفة.

(3) حسن المواصلات وتسهيل الأسفار في البر والبحر.

(4) وقد انتشرت اللغتان اللاتينية والإغريقية وأصبح يتكلم بهما البشر المتمدن.

(5) ازدهار التجارة والمعاملات التجارية التي أصبحت موحّدة تقريباً باستعمال نقد واحد وموازين موحدة وكذلك في طرق تنظيم إيداع الأموال والمعاملة فيها (البنوك).

(6) اتساع الجاليات والمستعمرات اللاتينية وانتشارها واتساع إعطاء حق الرعوية الرومانية إلى جميع سكان الولايات الأحرار.

(7) انتشار التربية والتهذيب تحت رعاية الدولة في جميع المدن المهمة.

(8) ومما يدل على الاتجاه إلى التمسّك بالوحدة والعالمية انتشار فكرة القانون الطبيعي المنطبق على جميع البشر وكذلك فكرة المواطن العالمي.

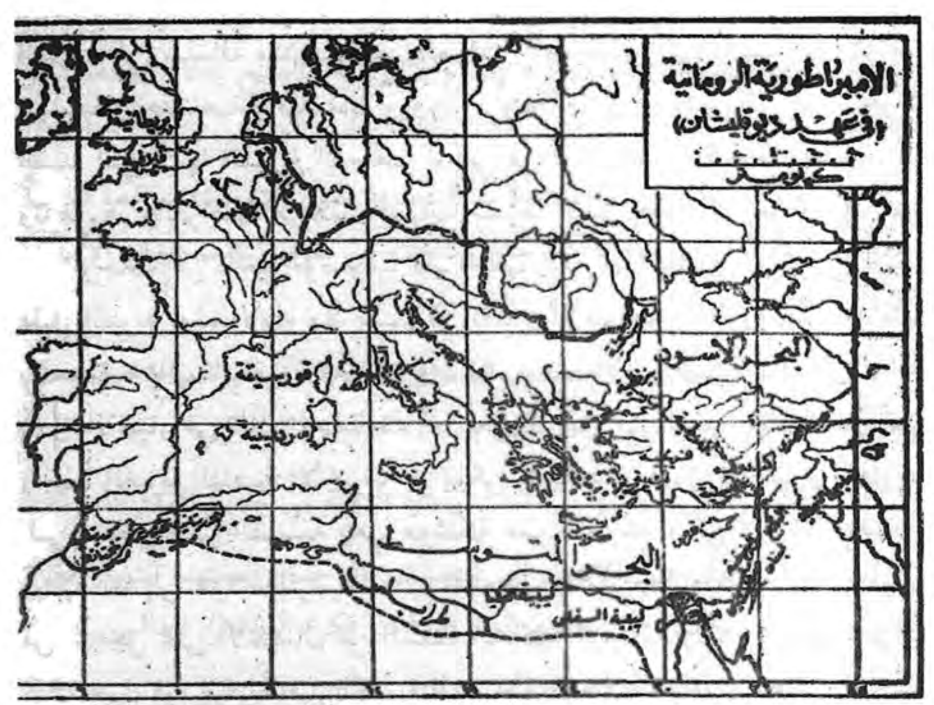
ومع كل هذه الأسباب العاملة على الوحدة فإن الأمبراطورية انهارت[1] في النهاية ويمكننا اعتبار سقوط روما (476) تأريخ سقوط الأمبراطورية. فما هي الأسباب التي عملت على سقوط أمبراطورية روما ذلك السقوط المفاجىء؟

والواقع صار سقوط روما من القضايا التي بحث فيها مؤرخون كثيرون وعددوا لذلك «قائمة» من أسباب التدهور والسقوط معظمها يبدو لائقاً كأنه صحيح ولكنه غير مقنع القناعة الكافية. ولعله مما يحير الباحث أن الأمبراطورية الشرقية تعرّضت لمثل ما تعرضت له الأمبراطورية الغربية من الهجمات وأسباب الضعف الداخلي التي يعددها المؤرخون ولكنها لم تتحطم، ولعل أحسن منهج للبحث في أسباب انهيار الأمبراطورية وسقوطها أن يبحث

---

(1) نشأت مدينة روما بحسب المآثر الرومانية في 753 ق.م. وصارت جمهورية في حدود 508 ق.م. وتأسست الأمبراطورية في حدود 27 ق.م. وسقطت روما في 476 م ولكن توالت في الأمبراطورية الشرقية في القسطنطينية سلسلة من الأباطرة حتى 1453 م. وحكم في أوروبا الغربية حكام منذ 800 إلى 1806 كانوا يسمون أنفسهم بـ «الأمبراطور الروماني» تقليداً للأمبراطورية الرومانية.

المؤرخ في سلسلة متشابكة من العوامل المختلفة التي تقسم إلى أمراض سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية. ويجدر بنا أن نشير إلى أن البحوث القيمة التي كتبها المؤرخ المعاصر توينبي في أسباب نشوء الحضارات ونموّها وتدهورها وانقراضها من ذلك أسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية فيها كثير من الوجاهة من ناحية موضوعنا فليراجعها القارىء المتتبع، وسيمر بنا بعد قليل التنويه بهذه الآراء ولا سيما في تفسير الأمبراطورية الرومانية وعلاقتها بالحضارة «اليونانية ـ الرومانية» وأن نشوء هذه الأمبراطورية كان في الواقع بادرة الانهيار في تلك الحضارة، أما فعل البرابرة في القضاء عليها فهو أنهم وجهوا الضربة القاضية الأخيرة، بل يمكن تشبيه عمل البرابرة بالطيور الجارحة التي تنقض على الفريسة وهي موشكة على الموت أو في دور الاحتضار. وبالإضافة إلى هؤلاء البرابرة عملت الشعوب والأقوام التابعة إلى الأمبراطورية من الداخل على الانفصال عن السلطة الحاكمة الرومانية وتكوين حضارة فرعية نمت حول قوة مركزية هي الكنيسة المسيحية، وخلاصة القول حصل في جسم الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» انشقاق وانهيار: في الخارج بخروج الأقوام الأوروبية التي كانت تعيش في حدود الأمبراطورية وتتعلم من الحضارة التي تمثلها هذه الأمبراطورية، ولكنها كانت منجذبة إليها إبان قوة هذه الحضارة وازدهارها. وانشقاق في الداخل بخروج الطبقات المحكومة من مختلف الأقوام والشعوب. وبعد فترة من الفوضى نشأت على أثر سقوط الأمبراطورية على أنقاض الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» حضارة فرعية جديدة هي الحضارة الأوروبية.





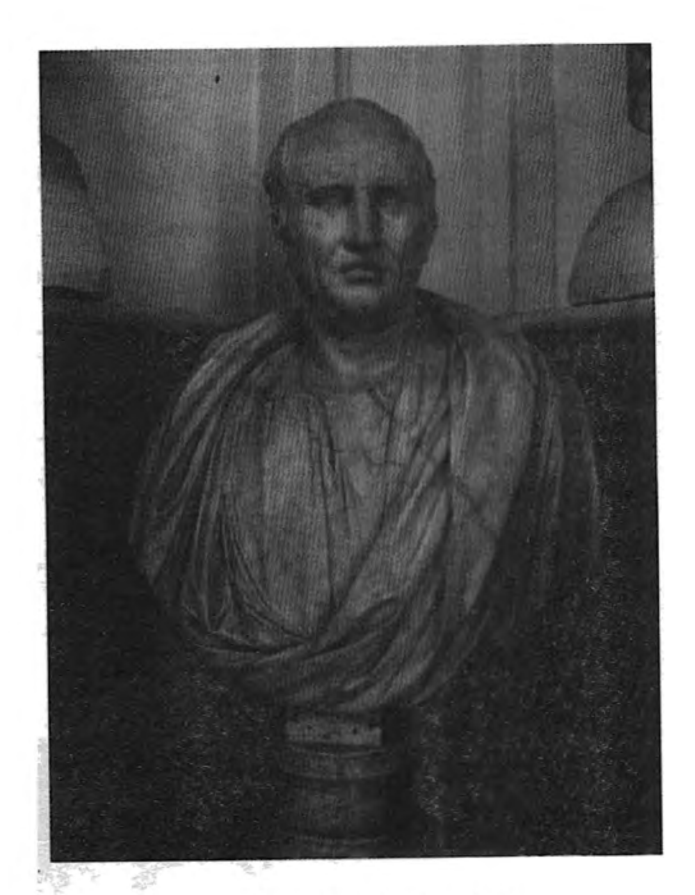
صورة ذئبة من البرونز. قديمة العهد (من صنع فنان يوناني عاش في إيطاليا في القرن السادس ق.م). وتمثل الصورة الأسطورة الخاصة بالأخوين التوأمين «رومولوس» و«ريموس» اللذين أرضعتهما وربّتهما ذئبة. وتنسب المآثر تأسيس روما إلى هذين الأخوين.



بناء «الفورم» الروماني (كما يجب أن يكون عليه في الأصل) ويشاهد في الصورة الأبنية العامة التي اشتهر بها هذا الموضع في عهد الأمبراطورية القديم.



تمثال الأمبراطور أوغسطس (أول أمبراطور في الرومان).



تمثال يعزى إلى يوليوس قيصر.

الفصل التاسع والثلاثون

إلمامة عن الحضارة الرومانية

بعد أن عرفنا الخطوط الأساسية للتأريخ الروماني نوجز الآن في فصل واحد أبرز المقوّمات والعناصر في الحضارة الرومانية، وقد سبق لنا أن نوّهنا بصلة الثقافة الرومانية بالحضارة اليونانية وأثر هذه الحضارة فيها. وكنا كثيراً ما أشرنا إلى إمكان دمج الثقافتين اليونانية والرومانية تحت اسم واحد هو «الحضارة «الهلينية» جرياً على ما ذهب إليه بعض الباحثين في تأريخ الحضارات[1] حيث يفسر الأمبراطورية الرومانية بأنها «الدولة العالمية»[2] التي أنشئت لمسك تلك الحضارة وضم الداخلين فيها بالقوة بعد أن فقدت هذه الحضارة قوة جذبها للشعوب والأقوام التابعة لها في الداخل والخارج عندما اجتازت طور النمو والإبداع ودخلت في مرحلة الانحلال والانهيار. ومهما كان الحال فإن الثقافة الرومانية تميزت عن الثقافة اليونانية بخصائص تفرّدت بها، ومن ذلك أنها لم تعن بالفلسفة التي تفرّدت بها عبقرية اليونان ولكنها ميّزت نفسها بأمور أخرى منها القانون والشريعة وطرق الإدارة والتنظيم المدني والعسكري والاهتمام بطرق المواصلات والعمارات المدنية العامة، ومن ذلك بوجه خاص الحمامات الرومانية الشهيرة، وغير ذلك مما سنوجزه بعد قليل. ومع أن هذا الفصل الموجز الذي خصصناه للحضارة الرومانية لا يفي في الإحاطة بجميع أوجه هذه الحضارة بوجه التفصيل إلا أنه يكفي ليكون إلمامة

---

(1) وهو «توينبي» في بحوثه المعنونة «بحث في تأريخ». (انظر ترجمة المؤلف لموجز بحوثه).

(2) Universal State.

بالحقائق الأساسية فيها ومقدمة بتعريف أوجه تلك الحضارة، ونبدأ من ذلك بالقانون الروماني.

القانون الروماني:

تأتي القوانين الرومانية في مقدمة التراث الروماني الذي جاء إلى أوروبا ومنها أثر في أمم وشعوب أخرى غير الأمم الأوروبية.

ولعله من المفيد، للإلمام بشيء عن القانون الروماني، أن نجري على منهج الفقهاء الرومان في التمييز بين القانون المدني (Jus Civile)، وقانون الشعوب (Jus Gentium) والقانون الطبيعي (Jus Naturale) فالأول هو القانون الروماني القديم الذي اقتصر في تطبيقه على الرومان وحدهم. أما قانون الشعوب فهو بعرفهم القانون المشترك بين جميع الشعوب وكانوا يستمدون منه الأحكام التي تطبق على الأجانب في الأمبراطورية، واصطلحوا على القانون الطبيعي ذلك القانون الذي تخضع له جميع الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات، وقد أثّر قانون الشعوب في القانون الروماني المدني إذ وسعه وهذّب فيه. أما فكرة القانون الطبيعي فقد أخذها الرومان من الفلسفة اليونانية. ولكن قانون الشعوب كان عند الرومان كالقانون الطبيعي عند اليونان[1].

(1) يذهب أصحاب القانون الطبيعي إلى وجود قانون يكمن في طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية وأن هذا القانون ثابت لا يتغير بالنسبة إلى الزمان والمكان وبوسع عقل الإنسان أن يكشف قواعده وأحكامه فهو بذلك مثل النواميس التي تجري بموجبها ظواهر الكون الطبيعية. وطريقة الكشف عن هذا القانون في الظواهر الاجتماعية أن يجهد العقل البشري في درس المجتمع فيقف منه على السنن التي تنظم الروابط الاجتماعية فيه فيستنير بها في وضع القانون الوضعي. ونشأت فكرة القانون الطبيعي على هيئة فلسفة عند اليونان، فمثلاً ميّز أرسطو بين ما سمّاه بالقانون العام (وهو القانون الطبيعي) وبين القانون الخاص الذي هو من وضع البشر. وأخذ الرومان فلسفة القانون الطبيعي واتخذوه بصورة عملية حيث صيروه قانوناً أدخلوا فيه قانون الشعوب أو هو قانون الشعوب نفسه. ومن الجدير بالذكر=

بدأت القوانين الرومانية على هيئة مجموعة من العرف والعادات المصطبغة بالصبغة الدينية، وقد ذكرنا فيما سلف كيف أن الرومان نجحوا في عهد الجمهورية في حمل السلطات على تدوين القوانين المتعارف عليها، إذ لم يكد يمضي خمسون عاماً على تأسيس الجمهورية حتى دوّنت القوانين القديمة في اثني عشر لوحاً من البرونز (450 ق.م). وهذا أقدم تدوين أو «تقنين»[1] للقوانين الرومانية وقننت الشريعة الرومانية مرة أخرى في نهاية المراحل التي نما فيها القانون الروماني وذلك في تقنين جستنيان الشهير (سنة 528 ـ 543 م) وكان هذا التقنين على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة إلى القانون الروماني الذي تعدّدت مصادره فعسرت معرفة الأحكام الواجب تطبيقها، فرأى الأمبراطور البيزنطي جستنيان أن يجمع قواعد القانون المبعثرة في مصادر شتى ويضعها في كتاب واحد بعد إزالة المتناقضات منه ولذلك ألف لجنة خاصة قامت بالعمل، وسمي هذا التقنين المهم باسم (Corpus Juris Civile) وقد جاء واضحاً منسجماً وصار معيناً ومصدراً مهماً للقوانين الأوروبية جميعها.

والقانون الروماني المدني العتيق في الواقع كان ضيقاً منشؤه، كما سبق أن ذكرنا، العرف والعادة والدين وكان قبل أن يدوّن في الألواح الاثني عشر سراً بيد رجال الدين ثم نجح العوام في حمل السلطة على تدوينه، وقد اقتصر في مبدأ أمره في عهد الجمهورية على الرومان وبعض الناس الذين كانوا يتمتعون بحقوقه بموجب معاهدة خاصة. ولكن تغيّرت الأوضاع في الدولة الرومانية في عهد الأمبراطورية، فقد اكتسب معظم سكان الأمبراطورية الأحرار في القرن الثالث للميلاد حق الرعوية الرومانية، وبدأ منح الجنسية الرومانية

= أن المعتزلة في الإسلام قالوا بفكرة القانون الطبيعي حيث ميزوا بينه وبين الدين وجعلوا الوحي مصدر الثاني والعقل هو الكاشف عن القانون الطبيعي (انظر «أصول القانون» تأليف الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري بك والدكتور أحمد حشمت أبو شيت (1938) ص 40 فما بعد، ومن 109 ـ 113 حول الفقه والقضاء في تكوين القانون الروماني).

(1) Codification.

بمرسوم أصدره الأمبراطور «كراكاله» في عام 212 م. أما بالنسبة إلى سكان الأقاليم فكانت تطبق عليهم في مبدأ الأمر قوانينهم القديمة الخاصة بهم، ولكن بمرور الزمن وبتأثير فكرة القانون الطبيعي المشترك بين جميع البشر (والمستمد بالدرجة من الفلسفة الرواقية) وبتأثير الفقه والقضاء (كما سنبين فيما بعد) نشأ قانون عام هو قانون الشعوب الذي أثّر بدوره تأثيراً عظيماً في القانون المدني الروماني.

يفصل بين زمن تدوين القانون الروماني العتيق في الألواح الاثني عشر (450 ق.م) وبين تقنين جستنيان الشهير (528 ـ 543) زهاء ألف عام طرأ فيها على العرف القانوني تطورات كثيرة مهمة، وإذ كان العرف والعادة المصدر الأساس الذي اشتق منه القانون العتيق فقد تعددت المصادر لنشوء القانون الروماني المدني وبوسعنا أن نحصر هذه المصادر في:

(1) التقنين (Codification) الذي سبق أن أشرنا إليه.

(2) القضاء.

(3) الفقه.

(4) التشريع.

أما عن القضاء فقد بدأت الحركة القضائية منذ أن تولى «البريطور» الروماني شؤون القضاء. و«البريطور» كان أعلى قاض في الدولة الرومانية يلي القنصل في أهمية المنصب وكان هناك «بريطور» خاص بالرومان وآخر للأجانب، الأول لتطبيق القانون الروماني المدني والآخر لتطبيق قانون الشعوب. وقد اعتاد «البراطرة»، (جمع بريطور) أن يصدروا ما يسمى «بالمنشورات»[1] القضائية يعلن فيها كل «بريطور» للناس في أول ولايته للقضاء[2] ما اعتزم على اتباعه من القواعد القانونية وكذلك ما يرتئيه في كيفية

---

(1) Edicts.

(2) وكان البريطور الروماني يلي القضاء الروماني سنة واحدة.

تطبيقه وتفسيره للقوانين، وكان «البراطرة» بهذه الوسيلة يحدثون تعديلات مهمة في القانون الروماني العتيق بمقتضى الأزمان وكان للبريطور حقوق مهمة في تنظيم الدعاوى، بإعطاء الدعوى وسلبها بحسب مقتضى الأحوال والعدالة. وبمرور الأزمان توالت هذه المنشورات القضائية وصارت سوابق للبريطور التالي يستقي منها الصالح. وبقي الحال كذلك إلى زمن هادريان الذي جمع «المنشورات القضائية»[1] وحرم إضافة أشياء إليها. وتألف من هذه المجموعات قانون يصح أن نسميه بالقانون البريطوري الذي بقي منفصلاً مستقلاً عن القانون المدني إلى عهد جستنيان حتى امتزج القانونان ودخلا في تقنين هذا الأمبراطور فيستبان من ذلك أن القانون الروماني كان من صنع القضاء إلى حد كبير ثم إن القضاء سبق عهد الفقه العلمي الذي ظهر فيه الفقهاء المشهورون، وعلى ذلك فيكون القضاء مصدراً أسبق من الفقه ومع ذلك فيصح القول إن القانون الروماني كان من صنع الفقه أيضاً. وإذا كان من المتعذر تتبع تأريخ الفقه الروماني فإننا نوجز أهم مراحل تطوره. فقد مرّ الفقه الروماني في أدوار من التطور كان في أقدمها سراً واحتكاراً بيد رجال الدين، وأعقب ذلك دور ثان صار الناس يتعلمون فيه الإجراءات القانونية ويستفتون رجال القانون. وكان يوجد إلى جانب «البريطور» قضاة وظيفتهم شبيهة بالمحلفين لأن يبتون في الوقائع ويستفتون في القانون من جانب رجال القانون الذين لم يتبحروا فيه. ونشأ بمرور الزمن جماعة من المجتهدين في القانون يدرسونه ويفتون به للناس بدون أجر ولعل أصحّ ما يتميز به هذا الدور أنه دور الفقه العملي. إذ أعقبه دور ثالث دخل فيه الفقه السبيل العلمي فألّف في القانون وصار يتبع في تدريس القانون المنهج العلمي، واعترف بالفقه على أنه مصدر رسمي للقانون الروماني، فقد صار لبعض الفقهاء المتبحرين حق الفتوى

(1) وسمي هذا الجمع بالمنشورات الدائمة ويُعدّ القانون البريطوري أصل قانون العدالة (Equity law).

القانونية الملزمة للقضاة في أحكامهم[1]، ولكن صار الأمبراطور بعد القرن الثالث للميلاد السلطة النهائية في عمل القانون وفي تفسيره واستأثر الأباطرة بأمور القانون حتى أنهم منعوا الترخيص للفقهاء بالفتاوى الملزمة، فنشأ بذلك مصدر جديد للقانون الروماني هو التشريع من جانب السلطة الأمبراطورية ولكن بعض الأباطرة كانوا يميلون إلى الأخذ بكتب بعض الفقهاء وآرائهم حتى أن الأباطرة التزموا في أوائل القرن الخامس الميلادي آراء بعض الفقهاء المشهورين ولا سيما خمسة من مشاهيرهم وجعلوها المرجع، وهكذا فعل «جستنيان» في مجموعة قوانينه حيث اعتمد كثيراً على مذاهب أولئك الفقهاء الخمسة[2].

تراث القانون الروماني:

ظلت القوانين الرومانية في الأمبراطورية الشرقية بعد سقوط روما، مع تحويرات وتبديلات اقتضاها مرور الزمان، وبقيت حتى استيلاء الأتراك على القسطنطينية في عام 1453. واقتبس الأتراك وقبلهم العرب جزءاً لا يستهان به من الأنظمة والقوانين الرومانية، وسمح الأتراك بتطبيق أحكام من القانون الروماني على رعاياهم المسيحيين. وفي الغرب حافظت الممالك التي أنشأتها القبائل الأوروبية على أجزاء من القوانين الرومانية، وإن كانت مبسطة محورة واختلطت هذه بالعرف التيوتوني ونشأ من الاثنين القانون الإقطاعي. وساعدت الكنيسة في المحافظة على بعض مبادىء القانون الروماني ونشط الاهتمام

---

(1) نشأت في هذا الدور مدرستان زعيم إحداهما «لابيو» ولكنها عرفت باسم تلميذه «بروكيليان» وعلى رأس الثانية «كابينو» عرفت كذلك باسم تلميذه «سابينيان» أما الاختلاف بين المدرستين فكان أكبره يدور على التفصيلات، مع ميل المدرسة البروكيلية إلى المحافظة على المبادىء الجمهورية حتى بعد استقرار الأمبراطورية، وسارت المدرسة السابينية على المبادىء الأمبراطورية الجديدة.

(2) وهم «جايس» و«بابنيان» و«البيان» و«بول» و«مودستين».

بالقانون الروماني في حدود القرن الحادي عشر حينما بدأ الحكّام يبسطون إدارتهم وسلطانهم السياسي على رعاياهم.

ومع وجود الشيء الكثير من القانون العام (Common law) في القانون الإنجليزي والأمريكي، فإن هذا القانون قد أخذ كثيراً من مبادىء الفقه الروماني ومن مبادئ «القانون الروماني». وحافظت معظم أوروبا على كثير من القانون الروماني وطبقته بوجه أكثر. وإذا علمنا أن كثيراً من الدول الشرقية[1] قد استعارت بعض القوانين الأوروبية فيكون معنى ذلك أنها مدينة إلى تراث القانون الروماني.

الأدب والفكر والفن:

لقد سبق أن نوّهنا كيف أن الثقافة الرومانية قد تميّزت بنتاج عناصر من الحضارة تعد إضافات مهمة إلى التراث البشري كنظام الأمبراطورية وتنظيم الإدارة والجيوش والقانون الروماني والطرق الشهيرة والقنوات الرومانية وكذلك الحمامات. ولكن مع ذلك كان للرومان فضل في الأدب والفكر والفنون الجميلة، كان لها كذلك تأثير في الحضارات البشرية ولا سيما في الحضارة الأوروبية.

وعندما اتسعت الأمبراطورية واختلطت فيها الشعوب والحضارات والثقافات، اتسع أفق الرومان، ونتج عن ذلك فقدان كثير من مآثر الرومان القديمة. وبوسعنا أن نقول بوجه عام إن المعين الأساسي للأدب والفلسفة والعلم عند الرومان كان من حضارة الإغريق وبوجه خاص من الحضارة الإغريقية الهلنستية، وهي الحضارة التي قلنا إنها نتجت من التقاء الحضارة الإغريقية بحضارات الشرق القديم. ومع ذلك فبوسعنا أن نجد الطابع الروماني الخاص والحياة الرومانية متمثلة في نتاج الرومان الأدبي حيث تتمثل فيه الحياة

---

(1) ونكتفي ببعض الأمثلة: القانون الفرنسي في مصر والقوانين الأوروبية في تركيا والصين واليابان.

الرومانية منذ أقدم أدوارها في العهد الجمهوري إلى تأسيس الأمبراطورية واتساعها. ونوجز فيما يأتي بعض الأوجه البارزة من الفكر والفن عند الرومان.

الشعر اللاتيني:

لبداية الشعر اللاتيني علاقة متينة بالأدب الإغريقي. ويبدو ذلك بوجه خاص في أول نتاج الأدب الروماني الذي ظهر بإلهام من هوميروس وبتأثير «التراجيدي» الإغريقية، وهكذا كان أول نموذج للأدب الروماني الذي يمثله الشاعر «إينيوس» (Ennius 239 ـ 169 ق.م). واستمر الشعراء اللاتين يحتذون أمثلة الأدب الإغريقي القديمة، ويظهر ذلك في روايات بعض الشعراء الكوميدية مثل «فلوطس» (Plautus) (254 ـ 184 ق.م) حيث اشتقت مثل هذه الروايات فنها وفكرتها من الكوميدي الإغريقية من عهدها الحديث. واستعار شعراء الشعر «الغنائي» (Lyric) مثل «كاتلوس» (Catullus) و«هوراس» (Horace) (65 ـ 8 ق.م) الطرق الفنية المتّبعة في الشعر الإغريقي. وأسس الشاعر اللاتيني «لوقريشيوس» (Lucretius) (99 ـ 55 ق.م) فلسفته على فلسفة «أبيقور» وعلمه على علم «ديموقريطس» (Democritus) وسار «فرجل» (Virgil) (70 ـ 19 ق.م) على مآثر «ثيوقريطس» (Theocritus) في «مختاراته»[1].

ومع ذلك فإن الشعراء اللاتين لم يقتصر أمرهم على تقليد أسلافهم من الشعراء الإغريق، بل جعلوا ما اقتبسوه جزءاً خاصاً بهم أي إنهم تمثلوه، واستعملوه في تصوير الحياة الرومانية، فأصابوا حظاً من الإبداع والأصالة جعلهم في مصاف أسلافهم.

الشعر الفلسفي:

لعل أحسن مثال جاءنا عن هذا الضرب من الشعر الروماني بعض

---

(1) وهي قصائد تتضمن أحاديث ومحاورات (Dialogue) و(Eclogue) تجري بين الرعاة.

النماذج التي تمثل لنا التغيير الذي طرأ في عهد قيصر، وعلى رأس ذلك القصيدة الفلسفية المسماة «حول طبيعة الأشياء»[1] لناظمها «لوقرشيوس» (99 ـ 55 ق.م) الذي تأثر بفلسفة «أبيقور» فعزم على تحرير العقول من الخوف من الموت وهو الخوف الذي عدّ مصدره من التعاليم الدينية، وقد حاول بالفلسفة والعلم أن يبيّن أنه ليس هناك وجود شخصي شعوري فيما بعد الموت وكان يعتقد بالفلسفة الذرية. ولقد كان هذا الشاعر الفلسفي مأخوذاً باعتقاده الذي تمسك به كما يتمسك المرء باعتقاد ديني، فقد اتخذ عبادة الطبيعة. ويهمنا بالنسبة إلى آرائه تنبؤه بأشياء مهمة كشف عنها العالم الحديث، في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وفي الكيمياء والفيزياء. وامتاز إلى ذلك بموهبة شعرية ملحوظة، وأنه فاق في سعة خياله شعراء الرومان جميعهم.

الشعر الغنائي:

امتاز بهذا النوع من الشعر «كاتلوس» (84 ـ 54 ق.م) الذي عاصر «لوقريشيوس» وقد استطاع أن يصل بالشعر إلى مستوى عال وامتاز بأنه شاعر العاطفة والأحاسيس والحب. وقد هام بحب «كلوديا» (Clodia)، وكان عكس الشاعر هوراس الذي كان شاعر الحضر والعقل والرزانة. ويمثل الشاعر «هوراس» (65 ـ 8 ق.م) أكثر من غيره روح المجتمع الروماني في عهد أوغسطس، ولا سيما حياة الطبقات الوسطى المثقفة والطبقة الحاكمة، وتتجلى قيمة أشعار هوراس الاجتماعية في أشعاره الانتقادية (Satires) وفي رسائله (Epistles) التي تمدنا بصورة جلية عن حياة الجيل الذي عاش فيه، وتأثر بالفلسفة الرواقية وبالشعراء الذين اعتنقوها من الإغريق، وقد أخذ بالفضيلة الأرسطوطاليسية التي تدور على «الوسط الذهبي» وتتجلى في هوراس عقائد الطبقات الوسطى والطبقات الحاكمة في دعواهم بأنهم أصحاب رسالة هي حكم العالم. وكان هوراس من ناحية الفن والصنعة من الطبقة الأولى، وإن

---

(1) De Rerum Natura (On The Nature of Things).

يكن دون الشاعر الأول في إثارة القارىء ولكنه بدلاً من ذلك يستطيع أن يشيع فيه السرور والطمأنينة الجميلة الناشئة من الحس بالجمال.

وأودع في بعض رسائله (فن الشعر) نقداً ضمنه ما ينبغي أن يكون عليه في (الدراما) وقد حازت القواعد التي ذكرها في هذه الرسالة في عصر النهضة الأوروبية تأثيراً فاق تأثير أرسطو في كتابه (الشعر). ومما جاء في آرائه أنه يلزم على الشاعر (أن يجمع بين المفيد النافع وبين الجميل) أي إنه رأى أن يكون للشعر فائدة، وعلى الرغم من إهمال كثير من النقّاد لهذا المبدأ وتعلقهم بمبدأ (الفن للفن) إلا أنه لا يزال لنظرية هوراس أتباع كثيرون.

وكان يعاصر هوراس الشاعر «فرجل» (70 ـ 19 ق.م) الذي اختلف في مزاجه عن هوراس. وقد ترك لنا صوراً لنواح أخرى من عصر أوغسطس الذي عاش فيه فنجده قد سحرته فكرة الأمبراطورية وحلمها. وقد شغل حياته كلها في فنه، وقد سبق أن أشرنا إلى أن أول نتاجه هو ما سمّيناه «المختارات» وهي أشعار تصور الحياة الريفية على لسان الرعاة، تقليداً لأشعار «ثيوقريطس» (300 ـ 245 ق.م) ثم أخرج قصيدة طويلة في وصف حياة الريف والمزارع[1]، وصرف بقية حياته في كتابة ملحمته العظيمة عن روما وهي «الإنيادة»[2] وقد جازاه أوغسطس ووهبه مزرعة عاش فيها وساعدته على التفرغ لحياته الشعرية وتختلف ملحمته «الإنيادة» عن الإلياذة والأوديسة بكونها من تأليف شاعر معين كتبها لتخليد أوغسطس حامي فرجل وصديقه، ولتمجيد مركز روما العظيم وحقها في الحكم الأمبراطوري. وكان فرجل عند أهل القرون الوسطى «الشاعر» كما كان عندهم أرسطو «الفيلسوف» وقد عزوا إليه نوعاً من القوة الخارقة أو القوة السحرية ولا سيما نبوءته بميلاد المسيح من عذراء. واختاره دانتي مثالاً ودليلاً في كوميديته الإلٰهية.

---

(1) وتسمى بـ (Georgics).

(2) (Aeneid) نسبة إلى البطل (Aneas) حيث تصف أسفار هذا البطل وأتباعه من طروادة إلى إيطاليا بعد سقوط طروادة.

النثر اللاتيني:

أثرت الخطابة في تطور فن النثر عند الرومان، إذ صارت فنون البلاغة والبيان من مستلزمات فن الخطابة لبلوغ التأثير في السامعين. وفي حقل الخطابة ظهرت مواهب أعاظم الكتّاب الرومان وعبقرياتهم. وكان شيشرون (Cicero) (106 ـ 43 ق.م) على رأس الخطباء في الأيام الأخيرة من العهد الجمهوري ومنشأ عظمته وشهرته أنه خلق لغة أدبية ممتازة وقد صرف هذا الكاتب العظيم أواخر أيامه في تأليف مجموعة من الرسائل تبحث في السياسة والفلسفة. وكانت الينابيع التي أخذ منها معظم مادته من مصادر إغريقية باستثناء بعض التآليف في فن الخطابة[1]. ولعل أهم ما أسداه إلى الأدب اللاتيني أنه أوجد تعابير ومفردات تستطيع أن تعبر عن الأفكار المجردة المأخوذة من الفكر اليوناني، وصار بذلك واسطة لتعريف الفكر اليوناني إلى الرومان، ومن الرومان إلى العصور التي تلت الرومان. وكان لاكتشاف بعض آثاره (رسائله) في عهد النهضة الأوروبية تأثير عميق في أوروبا حيث تعرفت بها على الحياة الاجتماعية التي عاش فيها «شيشرون» وقد بقيت اللغة اللاتينية لغة أوروبا المتمدنة ما يزيد على الخمسة عشر قرناً، وكان (شيشرون) طوال هذه الحقبة إمام البلاغة والنثر اللاتيني.

ليفي (Livy) (59 ق. م ـ 17 م):

وكان ليفي إمام النثر اللاتيني في العهد الأوغسطسي وقد كتب تأريخاً مسهباً لروما منذ تأسيسها، وقد وصلنا منه 35 كتاباً تقدر بربع التأليف الأصلي. وليفي لا يعدّ مؤرخاً بحسب مفهوم كلمة (المؤرخ) في العصر الحاضر. وإذا قسناه بالمؤرخ الإغريقي (ثوسيدايدز) ألفيناه أقل منه من ناحية التحقيق والنقد وعلى كل حال فإن تأريخه قد اقتصر على تفسير روح الشعب

(1) مثل De Oratore وBrutus.

والمجتمع دون تدوين حوادث ذلك المجتمع وأنظمته. وقد كان متحمساً في اعتقاده بالمآثر الرومانية وأمجاد هذه المآثر لذلك فقد رسم لنا تلك الأمجاد بروح شاعر وليس بعقل عالم محقق.

تاسيتوس (Tacitus) (55 ـ 120 م):

بوسعنا أن نعد «تاسيتوس» آخر فحول البلاغة والكتّاب العظماء عند الرومان. وقد بدأ ببعض التآليف مثل حياة حميه الأمبراطور (أكريكولا) (Agricola) وكذلك كتابه عن ألمانيا، ولكن هذه دون تآليفه الأخرى ولا سيما مؤلفيه التأريخيين العظيمين (التواريخ)[1] والحوليات اللذين ألّفهما من 69 إلى 96 للميلاد وذكر فيهما أخبار حكم الأباطرة من بعد موت (أوغسطس) إلى وفاة (نيرون)، وتعدّ هذه التآليف من النتاج الفني الممتاز بالإضافة إلى كونها تأريخاً، وقد امتاز هذان الكتابان بالأسلوب اللاذع.

وما يقال في الكتّاب الذين جاؤوا من بعد تاسيتوس إنهم مقلدون أكثر منهم مبدعون. وإن العهد الفني المجيد قد انتهى من بعده.

الفن الروماني:

1 ـ العمارة:

أخذ الرومان العقادة والقوس من الشرق[2]، وصار القوس أساس العمارة الرومانية، وقد مزجوا القوس والعقادة مزجاً فنياً رائعاً مع نظام العمد والأفاريز وغير ذلك من أجزاء العمد والتيجان (Capitals) التي أخذوها عن الإغريق. وقد بدأ الرومان منذ عهد أوغسطس في تزيين عاصمتهم بأبنية جميلة تعبّر عن عظمتهم وسلطانهم، وهذا هو السبب الذي جعل أوغسطس يفتخر بقوله لقد وجدت روما من الآجر فتركتها من الرخام. وتدل المباني التي

---

(1) Histories وAnnals.

(2) راجع أصل هذه الفنون العمارية في تأريخ العراق القديم.

شيّدها الرومان على النواحي التي اهتموا بها وعلى حاجاتهم - فالمباني التي خلّفوها في العاصمة وفي مدن الأقاليم المهمة تنحصر بالدرجة الأولى في المعابد والحمامات العامة والمحاكم وأبنية الملاهي والمسارح، ومدارج الألعاب (Amphitheatre) ومع اختلاف هذه المباني في الوظيفة والغاية فقد كانت تتّصف بأوصاف عامة من فن العمارة، مما جعل المدينة الرومانية تتّصف بالاتساق والتناسب الفني. وعلى الرغم من أن الرومان كانوا مقتبسين في فن العمارة غير مبدعين ولكن يجب أن نقرّ بما امتازوا به من المهارة الفائقة في تكييف وتمثيل ما اقتبسوه إلى حاجاتهم الخاصة، وفي سيطرتهم على مادة البناء وأشكالها. وإلى ذلك كانت عمارتهم أضخم وأروع مما أنتجه معلموهم الإغريق.

كان الرومان مهندسين أعظم منهم بنّائين. ويظهر نبوغهم الهندسي ومهارتهم في قبابهم الصغيرة[1] مثل قبة البانثيون وفي العقادات العجيبة في «بسيليقة» قسطنطين[2]. وقد استخدموا في هذه المشاريع العظيمة مادة للبناء جديدة هي «الكونكريت» (الإبرق) التي صارت بإضافتها إلى الآجر والحجر مادة جديدة ممتازة في البناء. ومن مظاهر المهارة الهندسية الرومانية بناء الطرق الرومانية المشهورة والجسور والقناطر والقنوات والأسوار والحمامات. فقد أنشؤوا شبكة من الطرق العظيمة في جميع أنحاء الأمبراطورية، ولا يزال بعضها مستعملاً حتى زماننا هذا. هذا ولا تنحصر آثار الأبنية الرومانية في إيطاليا بل شملت أقطاراً أخرى في أفريقيا وسوريا واليونان وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا وحتى في ألمانيا.

واشتهرت العمارة الرومانية بنوع من الأبنية المدنية العامة اسمها

---

(1) وتدعى مثل هذه القباب (Cupola) كما في قبة البانثيون.

(2) (Basilica). وكانت هذه بالأصل في روما القديمة قصراً ملوكياً، ثم تطورت أخيراً فأصبحت قاعات تستعمل للمحاكم أو للمجالس العامة وكذلك صارت طرازاً في بعض الكنائس المسيحية.

«الفوروم» (Forum) وكانت هذه مواضع عامة للاجتماعات وإقامة الأسواق والمحاكم ودوائر الدولة العامة. ونشأ الفوروم بالأصل بهيئة محل للأسواق العامة ثم تحول إلى مركز المدينة المدني للاجتماعات العامة والأغراض الأخرى التي عددناها وكان يُقام في مثل هذه المواضع تماثيل الأباطرة والقواد العظام والمنابر العامة لإلقاء الخطب في أثناء الاجتماعات والاحتفالات. واختص كل أمبراطور تقريباً ببناء من هذه الأبنية من عهد أوغسطس فما بعد، وبذّ جميعها «فوروم» الأمبراطور «تراجان» (98 ـ 117 م). ومن الجدير بالذكر عن هذا «الفوروم» أن المعمار الذي وضع خططه وتصميمه معمار من الشرق هو «أبولودوروس» الدمشقي، وأنه يشبه في تصميمه المعبد المصري. فأول ما يجده الداخل إلى ذلك البناء المهيب مدخل معقود من الأقواس «البواكي» يفضي إلى ساحة مكشوفة فيها صفوف من العمد الفخمة من جهاتها الثلاث وفيها أجنحة عظمى دائرية ذات دكاكين، ثم يدخل إلى «البسيليقة» ذات الأعمدة الكثيرة، ويليها معبد خُصّص لعبادة الأمبراطور المؤلّه.

2 ـ النحت:

إن معظم ما جاءنا من النحت الروماني نسخ من المنحوتات الإغريقية المشهورة أو من منحوتات العهد الهلنستي. والواقع أن معرفتنا ببعض القطع الأصلية اليونانية من هذه النسخ الرومانية. ومع ذلك فبوسعنا أن نجد الإبداع والأصالة في بعض المواضيع الخاصة. ويظهر هذا الإبداع في التماثيل «النصفية» (Bust) التي يظهر فيها التعبير الواقعي، وهذه ميزة فنية لا نجدها في النحت الإغريقي ومثل ذلك يقال في تماثيل الأشخاص بوجه عام. وأبدع النحات الروماني كذلك في موضوع آخر هو الأفاريز المنحوتة المتّخذة للزينة في العمارة. ويظهر في هذا الحقل أيضاً الفن الواقعي وكذلك استعمال النحت البارز (Relief) للزخرفة والزينة وقد وفّق النحاتون في ذلك إلى حدّ الإعجاب.

3 ـ النقش (Painting):

جاءتنا أمثلة للنقش الروماني من النقوش الجدارية (Frescoe) في البيوت

الخاصة ولا سيما ما وجد في «بومبي» (Pompeii). ومما يقال في النقش الروماني بوجه الإجمال إنه مستعار من الفن الإغريقي من ناحية الموضوع والطريقة ولما لم يأتنا من نقوش الإغريق شيء فيكون لنماذج النقش الروماني التي جاءتنا قيمة عظمى إذ منها نستطيع أن نعرف عن النقش عند الإغريق والرومان أموراً مهمة جداً أولها وأبرزها استعمال فن المنظور الذي سبقت الإشارة إليه في الكلام على حضارة العراق ومصر واستعمال الظلال لجعل الصور المنقوشة تتراءى كأنها ذات ثلاثة أبعاد، وكذلك الموفقية في تناسب الألوان واتساقها ومراعاة النسبة والوحدة بين الأشكال مع المنظر العام، وكل هذه في الواقع مبادىء أساسية وصل إليها الفن الإغريقي. وقد زوّدتنا الآثار التي وجدت في (بومبي) بنماذج جميلة عن نتاج الفنون الفرعية الرومانية كسبك التماثيل من البرونز وقطع الأثاث الجميلة المتّخذة للزخرفة. ومن الفنون الفرعية الجميلة ما أنتجه الصاغة والجوهريون من القطع النفيسة التي تطلبتها أناقة الحياة الرومانية.

ونختتم هذا البحث الموجز في الفن الروماني بذكر أثر الفن الأتروسكي في الفن الروماني على الرغم من تأثر الرومان بالفن الإغريقي بدرجة كبيرة ويتجلّى ذلك في البناء الأتروسكي في الحجارة على مبدأ القوس مما مكّن العمارة الرومانية أن تنشأ مشاريع جبارة كالجسور والمعابد والقصور والمراسح وأقواس النصر. وبوسعنا أن نعد الهندسة العمارية عند الروماني مظهراً من مظاهر ما امتازوا به من الميل إلى النظام والتنظيم اللذين يتجليان أيضاً في القانون الروماني وفي تنظيم الحكومة والإدارة، وقد قرنت الهندسة العمارية بحب الزخرفة والزينة أي الجمع بين الهندسة والجمال ويظهر ذلك بوجه خاص في أبنية الحمامات الشهيرة التي امتازت بها العمارة الرومانية[1].

---

(1) يستحسن أن ينبه الطالب إلى مراجعة بعض الكتب للوقوف على أمثلة من الفن الروماني مثل كتاب: Helen Gardner: **Art Through The Ages** (1936), Chp. 7.

مراجع مختارة عن القسم الخامس

(1) **Cambridge Ancient History.**

(2) Will Durant, **The Life of Greece** (1939).

(3) Goltz, **The Aegean Civilization** (1925).

(4) **The Legacy of Greece** (1942).

(5) Franel, **Greece and Babylon** (1911).

(6) Hellen Gardner, **Art Through The Ages** (1936), 122 ff.

(7) E.A. Gardner, **The Art of Greece** (1925).

..., **Greece and the Aegean** (1934).

(8) ..., **A Handbook of Greek Sculpture** (1915).

(9) J. B. Bury, **History of Greece** (1931).

(10) Flickinger, **The Greek Theatre** (1918).

(11) T. R. Glover, **Democracy in the Ancient World** (1927).

(12) Sir, T. Heath, **History of Greek Mathematics** (1921).

(13) A. T. Murray, **Iliad** (Texts and trans).

(14) ..., **Odyssey** (Texts and trans).

(15) J. P. Mahaffy, **Social Life in Greece** (1925).

(16) H. Mc Clees, **Daily Life of the Greeks and the Romons** (1928).

(17) M. Nilssen, **History of Greek Religion** (1925).

(18) Zeller, **Outlines of the History of Greek Philosophy** (1931).

(19) **The Legacy of Rome** (1940).

(20) Showerman, **Rome and the Romans** (1931).

(21) Taylor, **Constitutional and Political History of Rome.**

(22) R. H. Barrow, **The Romans** (Pelican).

(23) Anderson G Spiers, **The Architecture of Ancient Rome** (1927).

(24) A. Man, **Pompeii. Its Life and Art** (1902).

(25) Will Durant, **Story of Philosophy** (1930).

(26) Poland et al, **The Culture of Ancient Greece and Rome** (1926).

(27) Rostovtzeff, **A History of the Ancient World,** 2 vols. (1926-27).

(28) Norwood G Duff, **The Writers of Greece and Rom** (1926).

(29) Zimmern, **The Greek Commonwealth** (1924).



أحد الملاعب المدرجة (Amphitheatre) في روما
مما يعرف الآن باسم «كولوسيوم» (Colosseum).

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

ب

ث

ج

ح

خ

د

ر

ش

ص

غ

ف

ق

ك

و

ي

فهرس الجماعات

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ش

ط

ع

غ

ف

ن

هـ

و

ي

من مقدمة المؤلف

لكي نفهم قصة الحضارة في وادي النيل وسير تأريخها من نشوئها وتطورها وأدوارها ينبغي لنا أن نلمّ بأبرز الخصائص المميزة لمسرح حوادث تلك الحضارة مما كان له أثر بارز في طبع تلك الحضارات بميزاتها ومقوماتها الخاصة. ولما كان الغرض من هذه المقدمة الجغرافية الاستعانة بها لفهم حوادث التأريخ المصري القديم فسنكتفي من جغرافيا وادي النيل بالأمور البارزة الموضّحة لتلك الحوادث.

تقع مصر في الجانب الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وإن أبرز ما يميّز مصر، في جغرافيتها وتأريخها، نهرها العظيم «النيل» مصدر الحياة والخصب بحيث يصحّ قول هيرودوتس المأثور «إن مصر هبة النيل»، إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء، فهي قطر عديم المطر بوجه أساسي، فيكون النيل وما على جانبيه من الأراضي الضيّقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيّقة يكون فيها الحدّ الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدّاً واضحاً وبوناً صارخاً بين «المزروع» والصحراء. وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالأراضي القابلة للزراعة. ولكن إذا ما بُذلت العناية المقتضية فإن هذه الأراضي تدرّ على سكان مصر خيرات زراعية عميمة.

كلمة النيل ليست من أصل مصري قديم. والمرجّح كثيراً أنها من الكلمات السامية القديمة المشتقة من «نهر» أو «نهل» أو «نخل» (بإبدال الراء لاماً) فصارت الكلمة الثانية بصيغة «نيل» ومنها الكلمة اليونانية (Neilos) واللاتينية (Nilus). أما المصريون القدماء فقد سمّوا نهر النيل وكذلك الإله الخاص بنهر النيل باسم «حعف» أو «حعفي». وفي الأزمان المتأخرة صار يُلفظ بهيئة (هوفي وأوفي وحوفي) ولا يُعلم معنى هذا الاسم المصري القديم، وقد ألّه النيل ونظمت في تمجيده التراتيل الدينية وخُصّصت له بعض الأعياد الدينية.

